بدايات

لكلّ فصول التغيير

فصلية ثقافية فكرية

العدد ٢٠ - ٢١ ◆ ٢٠١٨



بدايات

رئيس التحرير: فواز طرابلسي
تحرير وترويج: زينب سرور
ادارة فنية: جنى طرابلسي
تصميم واخراج: لين الحوت
أبحاث الصور والرسوم: جمال صالح
الموقع الإلكتروني: منصور عزيز
المدير المسؤول: حسّان الزين

مجلس التحرير الاستشاري

آدم هنيه، الياس خوري، بشرى المقطري، زهير رحال، جلبير أشقر، رشا السلطي، فؤاد م. فؤاد، سحر مندور، سلامة كيلة، ليلى الداخلي، سليم تماري، سينثيا كريشاتي، صبحي حديدي، عساف كفوري، غسان عيسى، فاروق مردم بك، كامل مهدي، محمد العطار، ميسون سكرية.

تصدر عن بدايات ش.م.م.
صندوق البريد ١٣/٥٧٤٨
شوران، بيروت - لبنان
التوزيع: شركة «الناشرون»
لتوزيع الصحف والمطبوعات، ش.م.م.،
بيروت - لبنان

www.bidayatmag.com
info@bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

صدر هذا العدد من «بدايات» بدعم من
مؤسسة روزا لوكسمبرغ، مكتب بيروت

المحتويات

العدد ٢٠ - ٢١ ◆ ٢٠١٨

٤ «بدايات» في العشرين

ملف: ماركس في القرن الثالث
أين كان على حق؟



٨ **قراءة ماركس وإنغلز في لحظة الأيديولوجيا الألمانيّة**
وسام سعادة

٢٠ **تنبّأ «البيان الشيوعي» بأزمتنا الحاليّة ودلّنا على طريق الخلاص**
يانيس فاروفاكيس

٢٨ **ماركس في «ربيع الشعوب» ١٨٤٨ بناء الحقل السياسي والتعلّم من الممارسة**
فواز طرابلسي

٤٠ **ماركس والدولة**
تيري إيغلتن

٤٦ **صنميّة السلعة ونكتة الدجاجة وحبّة القمح**
سلافوي جيجك

٤٨ **ماركس والشرق الأوسط ٢/١**
جلبير الأشقر

٥٥ **مقالات عن سورية ولبنان، ١٨٦٠**
كارل ماركس

٦٦ **مسودّة البيان الشيوعي تعاليم الماركسية**
فريدريك أنغلز



٨٠ **ماروتا ستي**
الاستثمار المثير للجدل في سورية

٨٦ **أنا امرأة فلسطينيّة في إسرائيل... ليس لك الحق في تعيين صفاتي**
مهى اغبارية

٨٨ **من ذاكرة التعذيب في الحرب الجزائريّة الشرفة: عودة إلى مكان قتل علي بومنجل**
ملكّة رحّال



٩٦ **تصوّرات عربيّة لاتفاقيّة سايكس-بيكو الوحدة المقدّسة ورُهاب التقسيم**
فوّاز طرابلسي

١٠٩ **مقاولات الأكاديميا من الباطن صناعة الأبحاث الخارجيّة في المملكة المتّحدة**
ميسون سكرية

١١٩ **الغرق بين ضفتَين اسلامٌ هنا واسلامٌ هناك**
سحر مندور

١٢٢ **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**
آلاء التنّير



١٣٠ **أن تكتب بلغة أجنبيّة**
إتيل عدنان

١٣٩ **الحركة السوريالية في بيروت الثلاثينيّات «دخلنا الفنّ من باب المطبخ»**
جاد تابت

١٥٠ **عندما تحكي المرأة صورة النساء في أدب الأطفال**
نجلا جريصاتي خوري

١٥٨ **بورخيس يبحث عن ابن رشد**
سالار عبده

١٦٠ **مسكب ورد في فلسطين**
رياض بيدس

١٦٣ **نظريّة التّلقّي من المتلقّي العدوّ إلى المتلقّي المهادن**
أسماء السكّوتي

١٧٣ **في الحيّ الّذي نسكن**
زينب سرور

الغلاف ٢ و٣:
ملصقات طبع حرير
من «المحترف الشعبي»
ومحترف «آرت ديكو»
تعود للعام ١٩٦٨ من
مجموعة جان - بول أشار

ملف: أيار ١٩٦٨: المخيّلة في السلطة!



١٧٨ **من وثائق أيار ٦٨**
«عن البؤس في الوسط الطالبي»
أمميّة مبدعي الأوضاع

١٨٣ **أيار ١٩٦٨**
في هذا الزمن، سيدي
روجيه عسّاف

١٨٥ **فن عام ١٩٦٨ خيرٌ من لا شيء**
جيرار-پاري كلافيل

يا مين

٢١٤ **آلة التصوير في الدراما السوريّة:**
الأبعاد الجماليّة في زمن متسارع
نيروز ساتيك

ذاكرة

٢٢٤ **مذكرات جورج بطل ٣**
فرج الله حلو في موقفه الجريء
وعزله واستشهاده
حاوره فواز طرابلسي

٢٣٦ **مذكّرات جارالله عمر ٦/٦**
ما بعد يناير ٨٦: معارك من أجل
التعدّديّة السياسيّة
حاورته ليزا ودين

٢٤٩ **أنا ابن القسّ البروتستانتيّ**
القادم من الصعيد الجوّاني
رؤوف مسعد

ثقافة الناس للناس

٢٥٦ **فؤاد حداد كبير شعراء العامّية في مصر**
«أمل المساكين» و«صوت
الجموع المفرَد»
ونام مختار وياسر علوي

نهوند

٢٧٢ **مقامات السماء: العبقري الجديد**
الشيخ محمود الشحات
ياسر علوي

٢٧٤ **الشيخ إمام والثقافة الشعبيّة**
فيصل درّاج

«بدايات» في العشرين

يحتفل ملفّ العدد بذكرى مائتي سنة على ولادة كارل ماركس. ويضمّ مواضيع ومقارباتٍ متنوّعة تحت عنوان «أين كان ماركس على حقّ» في تشخيصه للرأسماليّة والتوقّعات. يقرأ وسام سعادة لحظة تأليف «الأيديولوجيّة الألمانيّة» التي شهدتْ تجاوز ماركس وإنغلز الهيغليّة وولادة التصوّر المادّيّ للتاريخ وتبلور منظور التواصل بين الديمقراطيّة والشيوعيّة. ويكتب وزير المال السابق في حكومة اليسار باليونان، يانيس فاروفاكس، لافتاً إلى مفارقةٍ تاريخيّة قضتْ بأن تتحقّق توقّعات ماركس وإنغلز في «البيان الشيوعيّ» في عصر العولمة الرأسماليّة في الوقت الذي انهارتْ فيه الأنظمة التي استلهمت أفكار «البيان». يقرأ فوّاز طرابلسي تطبيق ماركس لتصوّره المادّيّ للتاريخ لأوّل مرّة على لحظةٍ تاريخيّة معيّنة هي ثورات «ربيع الشعوب» الأوروبيّة العام ١٨٤٨ من خلال أربعة مفاهيم: الثورة، الديمقراطيّة، الطبقات وتمثيلها الفكريّ والسياسيّ والبونابارتيّة.

أصدر الناقد الأدبيّ والمفكّر الماركسيّ البريطانيّ تيري إيغلتن أخيراً كتاباً بعنوان «لماذا كان ماركس على حقّ» محاججاً فيه ضدّ منوّعات المسخ الذي تعرّضتْ له مفاهيم ماركس، نتناول منه فصلاً عن ماركس والدولة وننشر خلاصة الكتاب. من جهته، يعيد الفيلسوف الماركسيّ السلوفينيّ، سلافوي جيجك، النظر في تعريف الأيديولوجيا وفعلها في البشر مستعيناً بمفهوم ماركس المركزيّ عن صنميّة السلعة.

يفتتح جلبير أشقر دراسته عن ماركس والشرق بالنظر في مفاهيم الاستشراق والإمبرياليّة والثقافويّة. ونختم الملفّ بنشر وثيقتين: مسوّدة «البيان الشيوعيّ» التي صاغها فريدريك إنغلز بعنوان «تعاليم الماركسيّة»، ولأوّل مرّة بالعربيّة، مقالات كارل ماركس عن حوادث جبل لبنان الأهليّة ١٨٦٠ - ١٨٦١ والحملة العسكريّة الفرنسيّة في عهد الأمبراطور نابليون الثالث التي تفتتح المطالبة الفرنسيّة باحتلال «سورية التامّة».

كما عادتها، تتابع «من باب أولى» قضايا راهنة مختارة. تعريف بمشروع استثماريّ عقاريّ مثير للجدل ينبئ بطبيعة مشاريع إعادة الإعمار في سورية، بَعده ترفع الناشطة الحقوقيّة والنسويّة مهى إغباريّه الصوت في وجه المحاولات الإسرائيليّة لتعيين هويّة الفلسطينيّين في الدولة اليهوديّة وفصلهم عن الانتماء الفلسطينيّ الجامع، ثمّ تروي المؤرّخة الجزائريّة ملكة رحّال قصّة تقصّيها عمليّة تصفية المناضل الجزائريّ علي بو منجل، على يد المظليّين الفرنسيّين العام ١٩٥٧. وكان الرئيس الفرنسيّ ماكرون قد أقدم أخيراً على الاعتذار باسم الدولة الفرنسيّة إلى أسرة المناضل الشيوعيّ الفرنسيّ موريس أودان الذي قضى تحت التعذيب خلال حرب التحرير الجزائريّة. بهذا فتح المطالبة بفتح ملفات

مئات المفقودين الذين قضوا تحت التعذيب من أبناء الشعب الجزائريّ وبناته خلال تلك الحرب.

تحيي المجلّة الذكرى الخمسين لأيّار / مايو ١٩٦٨ عبر العالم بترجمة مقاطع من الوثيقة الأكثر تعبيراً عن ذلك الزمن: «بيان أمميّة مبدِعي الأوضاع» الذي يوجه الأنظار إلى ظاهرتين معاصرتين مجتمعتين: التسليع والنزعة الاستهلاكيّة، وينطوي النّصّ أيضاً على مقاربةٍ نقدية مبتكرة لموقع الطلّاب والشباب في المجتمع الرأسماليّ. يذكّرنا جيرار كلافيل بحركات الإضراب والاعتصام العارمة للطبقة العاملة الفرنسيّة خلال تلك الأحداث وهو يروي لنا عن الثورة في التصميم الغرافيكيّ. ويختم المسرحيّ روجيه عسّاف بنصّه الجميل عن ذكريات أيّار ١٩٦٨.

القسم البصريّ «يا عين» مخصّص لأبرز الأعمال الغرافيكيّة لثورات ١٩٦٨ ولدراسةٍ عن دور الكاميرا في المسلسلات السوريّة، لنيروز ساتيك.

في قسم «فيها نظر» يحلّل فوّاز طرابلسي نقديّاً التصوّرات العربيّة السائدة عن اتفاقيّة سايكس-بيكو وإعلان بلفور، وتتصدّى ميسون سكّريّة لموضوع نادراً ما يجري التطرّق إليه: التراتبيّة والاستغلال في الأبحاث الجامعيّة، وتعالج سحر مندور الإسلام والإسلاميّين من موقعَين جغرافيّين مختلفين. تحت عنوان «إذا البحار سجّرت» تكتب آلاء التنّير عن مأسي الهجرة وعن التلوّث في البحر الأبيض المتوسّط.

«نون والقلم» في هذا العدد غنيّ ومتنوّع. تفتتحه أتيل عدنان بالتأمّل في النشأة البيروتيّة والكتابة بلغة أجنبيّة، ويروي جاد تابت سيرة أوائل السوريالييّن في لبنان، فيما يواكب الروائيّ الإيرانيّ - الأميركيّ سالار عبده الكاتب لويس بورخس في بحثه عن ابن رشد، ذلك الذي عَرف كلّ شيء إلّا المسرح، وتحلّل نجلا جريصاتي خوري صورة المرأة في أدب الأطفال، وتكتب اسماء السكوتي عن نظريّة التلقّي في الأدب، إلى نصّين أدبيّين لرياض بَيدس وزينب سرور.

يواصل قسم «ذاكرة» نشر مذكّرات جارالله عمر وجورج البطل (الذي ستصدر مذكراته قريباً في كتاب) ويبدأ بنشر مقاطع من مذكرات الروائي المصري رؤوف مسعد.

«ثقافة النّاس للنّاس» مخصّصة لشاعر العامّيّة المصريّة فؤاد حدّاد، من اختيار وتقديم وئام مختار وياسر علوي. وتحتفل «نهوند» بالذكرى المئويّة لولادة الشيخ إمام بنصٍّ للنّاقد فيصل درّاج، ويكتب ياسر علوي عن «مقامات السماء» في تلاوات الشيخ محمود الشحّات.

يسرّنا في هذا العدد أن يكون عدد مساهمات النساء متقارباً مع عدد مساهمات الرجال، قدر ما يؤسفنا أن نودّع المناضل اليساريّ والمفكّر الماركسيّ سلامة كيلة، عضو المجلس الاستشاريّ للمجلّة، الذي رحل بعد مقاومةٍ طويلةٍ مع المرض.



ملف

ماركس في القرن الثالث
ابن كان على حق!

٨ **قراءة ماركس وإنغلز في لحظة الأيديولوجيا الألمانيّة**
وسام سعادة

٢٠ **تنبّأ «البيان الشيوعي» بأزمتنا الحاليّة ودلّنا على طريق الخلاص**
يانيس فاروفاكيس

٢٨ **ماركس في «ربيع الشعوب» ١٨٤٨ بناء الحقل السياسي والتعلّم من الممارسة**
فواز طرابلسي

٤٠ **ماركس والدولة**
تيري إيغلتن

٤٦ **صنميّة السلعة ونكتة الدجاجة وحبّة القمح**
سلافوي جيجك

٤٨ **ماركس والشرق الأوسط ٢/١**
جلبير الأشقر

٥٥ **مقالات عن سورية ولبنان، ١٨٦٠**
كارل ماركس

٦٦ **مسودّة البيان الشيوعي تعاليم الماركسية**
فريدريك أنغلز



قراءة ماركس وإنغلز في لحظة الأيديولوجيا الألمانيّة

وسام سعادة

أستاذ جامعيّ وصحافيّ، لبنان.

«ليست الشيوعيّة بالنسبة إلينا حالةً ينبغي خلقها، أو مثالاً ينبغي أن ينتظم الواقع تبعاً له. نعني بالشيوعيّة الحركة الفعليّة التي تهدف إلى هدم حال الأشياء الراهنة. شروط هذه الحركة تتأتّى من مقدّماتها المتوافرة راهناً».

ماركس، إنغلز، «الأيديولوجيا الألمانيّة»

وفّرت بروكسل، لـ«الدكتور ماركس»، الشابّ البالغ سبعة وعشرين عاماً عند انتقاله إليها في شباط / فبراير ١٨٤٥، إثر إبعاده من باريس، بقرار من حكومة فرنسوا غيزو استجابةً إلى طلب بروسيّ، أرضيّة مناسبةً لنقلة مزدوجة، فكريّاً وكفاحيّاً. فهذه المدينة التي تحوّلت قبل سنوات قليلة إلى مملكة لكيان جديد استقلّ عن هولندا وصار يحمل اسم بلجيكا، وكان أكثر سكّانها لا يزالون يتكلّمون الهولنديّة التي لا يجيدها ماركس، ما كانت لتقارن، بباريس المفضّلة عنده، مركز الحياة الفكريّة والأدبيّة الأوروبيّة في ذلك الوقت، و«العاصمة الجديدة للعالم الجديد» كما وصفها حين انتقل إليها من بروسيا (تشرين الأول / أكتوبر ١٨٤٣). لقد وجد نفسه في باريس في عين زمانه، وسط مروحة واسعة من شخصيّات القرن. من هاينريش هاينيه إلى جورج صاند إلى ميخائيل باكونين وبيار جوزيف برودون، واختلط فيها مع المعارضة الليبراليّة في صالون الكونتيسّا ماري داغو، بمثل ما توطّدت فيها صداقته بفردريك إنغلز، وارتبط بمناخ المنفيّين من سائر البلاد الألمانيّة، لا سيّما منهم المنخرطون في «عصبة العادلين» الفاعلة بين العمّال والصنائعيّين الألمان، مع أنّ أبرز قائدي هذه العصبة كانوا قد لجأوا إلى لندن في ذلك الحين، بعد مشاركتهم في الإعداد لانتفاضة جمهوريّة على الملك لوي فيليب. بدا كلّ هذا العالم الحيويّ والصاخب، المليء بالأفكار والنقاشات، والذي تدبّ فيه الروح النضاليّة الاجتماعيّة التي تتحيّن الفرص للانقضاض مجدّداً على الحكم الملكيّ، وإحياء تقاليد الثورة الفرنسيّة، كأنّه يُخطَف من هذا الشاب يوم إبعاده، في وقت كانت فيه زوجته حاملاً بابنتهما الثانية.

فترة بروكسل: الانسياب الشيوعيّ - الديمقراطيّ

مع هذا، سيكتشف الشابّ ماركس سريعاً أنّ بروكسل، «الطرفيّة» بل «النائية» نسبةً إلى هذا العالم الباريسيّ، ستسمح له بمسافة نقديّة أفضل، لتطوير سلاحه الفكريّ والسياسيّ، على عتبة الانفجار الثوريّ الآتي، الذي سيكون أوروبيّاً شاملاً بامتياز، وألمانيّاً على نحوٍ أساسيّ. في بلجيكا، سيجتمع الثلاثيّ كارل ماركس، وفردريك إنغلز، وموسى هِسّ، لتطوير نظرة أكثر ابتعاداً عن المثاليّة الألمانيّة في طورها «الهيغليّ الشاب»، هذا الطور الذي تشكّل من ضمنه وعي ماركس الفلسفيّ، والذي شكّل كتاب «العائلة المقدّسة. نقد النقد النقديّ. ضد برونو باور وشركاه» لماركس وإنغلز قبل ذلك[١] مساحةً أساسيّة لتصفية الحساب معه.

سيكتشف ماركس سريعاً مزايا بروكسل. فعلى الرّغم من أنّ السلطات فيها اشترطت عليه عدم التطرّق إلى الأحداث السياسيّة، وعلى الرّغم من كونها، في ذلك الوقت خصوصاً، مدينةً متواضعةً قياساً على الحواضر الأوروبيّة، سيتمكّن ماركس وإنغلز من الاستفادة من موقعها، ما بين البلاد الألمانيّة والجزر البريطانيّة وفرنسا، لتطوير شبكات التّواصل والتنسيق بين المناضلين الشيوعيّين والديمقراطيّين. كذلك يوضح جاك تكسييه في كتابه «الثورة والديمقراطيّة عند ماركس وإنغلز» (١٩٩٨)[٢] تميّزت هذه الفترة التي أنشأ فيها ماركس وإنغلز «مكتب التراسل الشيوعيّ» من بروكسل

(١٨٤٦)، بالنشاط في الحركتين الشيوعيّة والديمقراطيّة في وقت واحد، واستخدما تعريف «الشيوعيّون الديمقراطيّون الألمان»، هذا قبل نجاحهما في تحويل أكثر «عصبة العادلين» إلى «عصبة الشيوعيّين». في هذه الفترة البروكسليّة التي غلب التعامل معها على أنّها الفترة التي ستشهد ولادة «التصوّر المادّيّ للتاريخ»، انتمى ماركس وإنغلز إلى تقليدَين حركيّين مختلفين في وقت واحد، ديمقراطيّ وشيوعيّ، لكنّهما متجانسان، يمتاز كلٌّ منهما بالثوريّة، ويتضمّن أحدهما «الديمقراطيّة» والآخر «الشيوعيّة». كان المقصود بالديمقراطيّة في حينه النّضال من أجل الاقتراع العامّ، ومجموعة إصلاحات اجتماعيّة، وتَحرّر الشعوب المضطهدة وتوحّدها القوميّ، وعلى هذا الأساس ساهم ماركس وإنغلز والشبكة البروكسليّة التي نسجاها، ثمّ العصبة الشيوعيّة، بنشاطٍ في المسعى لتشكيل «الأمميّة الصفر»، إذا جازفنا بالتعبير، وهي «الأخويّة الديمقراطيّة» التي سمحتْ بالوصْل بين المناضلين الألمان والمناضلين الإنكليز.

عبّر إنغلز في مقالته «عيد الأمم في لندن» (نشرت مطلع ١٨٤٦)[٣] عن تصوّرهما «الانسيابيّ» للعلاقة بين الديمقراطيّة والشيوعيّة في تلك الفترة. إذ اعتبر أنّه مادامت الديمقراطيّة غير موطّدة، يكون النّضال السياسيّ مشتركاً بين الشيوعيّين وسائر الديمقراطيّين، وفي كلّ «البلدان المتحضّرة» تعتبر «النتيجة الضروريّة للديمقراطيّة هي السيطرة السياسيّة للبروليتاريا، وهذا هو الشرط الأوّل لكلّ الإجراءات الشيوعيّة».

انتمى ماركس وإنغلز إلى تقليدين حركيين مختلفين في وقت واحد. ديمقراطي وشيوعي. لكنهما متجانسان. يمتاز كل منهما بالثورية. ويتضمن أحدهما «الديمقراطية» والآخر «الشيوعية». كان المقصود بالديمقراطية النضال من أجل الاقتراع العام. ومجموعة إصلاحات اجتماعية. وتحرر الشعوب المضطهدة وتوحدها القومي.

لم يكن ماركس وإنغلز، كما يلاحظ تكسيبه، يفكّران في ذلك الوقت بالتمييز بين «ديمقراطيّة برجوازيّة» و«ديمقراطيّة بروليتاريّة»، بل كانا يعتبران الديمقراطيّة حكماً ذا مآل بروليتاريّ، وأنّ البروليتاريا يمكنها، وعليها، أن تفرض «هيمنتها» في الأزمة الأوروبيّة المقبلة، من ضمن تحالف يشمل البرجوازيّة الصغيرة والفلّاحين، والبرجوازيّةً الليبراليّة في البلدان التي كانت لا تزال رازحةً تحت هيمنة «النظام القديم». لن يعاد النظر في هذا «الانسياب» بين الشيوعيّة والديمقراطيّة، إلّا بنتيجة هزيمة ثورات ١٨٤٨.

قصّة المخطوطة و«اختراع» الكتاب

على رغم الشكوى التي تظهرها مراسَلات ماركس في ذلك الوقت، من ضعف إنغلز الفلسفيّ[٤]، فإنّ هذه الفترة بين ربيع ١٨٤٥ وصيف ١٨٤٦، ستشهد تعاوناً كتابيّاً وثيقاً بين الرّجلين لكتابة المخطوطة التي نعرفها اليوم باسم كتاب «الأيديولوجيا الألمانيّة» والتي يشير إليها ماركس في مقدمة «مساهمة في نقد الاقتصاد السّياسي» (١٨٥٩) حين يقول: «إنّ فردريك إنغلز الذي أخذْت أتبادل معه الآراء باستمرار عن طريق الرّسائل منذ ظهور ملاحظاته العبقريّة في نقد المقولات الاقتصاديّة (في «الحوليّات الفرنسيّة - الألمانيّة») قد توصّل عن طريق آخر إلى النتيجة نفسها التي توصّلْت أنا إليها (قارن كتابه «حالة الطبقة العاملة في إنكلترا»)، وعندما أقام كذلك في بروكسل في ربيع ١٨٤٥، قرّرنا أن نصوغ نظراتنا معاً خلافاً للنّظرات الأيديولوجيّة للفلسفة الألمانيّة، وأن نحاسب، من حيث جوهر الأمر، وعيَنا الفلسفيّ السابق. وقد حققنا هذه النيّة بشكل انتقاد للفلسفة التي ظهرتْ بعد فلسفة هيغل، وكانت المخطّوطة وهي عبارة عن مجلّدين ضخمين - قد وصلتْ من زمان إلى مكان الطبْع في وستفاليا عندما أبلغونا أنّ الظروف المتغيّرة قد جعلتْ من المستحيل طبعها. وبما أنّا كنّا قد بلغنا هدفَنا الرئيسيّ، - وهو توضيح الأمور لأنفسنا - فقد قدّمنا المخطوطة بمزيد من الارتياح لنقد الفئران القارض»[٥].

لن يجد ماركس وإنغلز بعد ذلك الحاجة إلى إعادة نشر المخطوطة، والكلام عن «نقد الفئران القارض» هنا بحرفيّته، ذلك أنّ الفئران أتْلفت بالفعل مقاطع عديدة منها. سيتأخّر النّشر إلى ما بعد الثورة الروسيّة، وتأسيس «معهد ماركس - إنغلز» عام ١٩١٩ بإشراف دافيد ريازانوف، فيُنشر «الفصل الأوّل. فويرباخ» منها، بالترجمة الروسيّة عام ١٩٢٤، ثمّ في لغته الألمانيّة عام ١٩٢٦، وقد صدرت الطبعة الأولى «الكاملة» لـ«لأيديولوجيا الألمانيّة» عن المعهد عام ١٩٣٢، مباشرةً بعد إقصاء ريازانوف، الذي أشرف على تحريرها ونشرها منه، بتهمة «دعم النّشاط المنشفيّ المضادّ للثورة» (أُعدم

عام ١٩٣٨). كذلك، اختار المعهد السوفياتيّ (الذي صار يحمل اسم معهد الماركسيّة اللينينيّة بعد إقصاء ريازانوف) تصدير طبعته لـ«الأيديولوجيا الألمانيّة» بالملاحظات الإحدى عشرة لكارل ماركس التي صارت تحمل، من حينه، اسم «موضوعات حول فويرباخ»، ويتلوه الفصل المعنون «فويرباخ» الذي يبْسط فيه ماركس، تصوّره المادّيّ للتّاريخ، ويظهر أنّه كتَبه وحدَه، في حين يكرّس معظم الكتاب لسجال لاذع ضدّ ماكس شتيرنر وكتابه «الأوحد وملكيّته» وضدّ تيار «الاشتراكيّة الحقيقيّة» الألمانيّ.

يبرز منذ سنوات اتّجاهٌ تشكيكيٌّ قويّ يتحدّث عن عمليّة اختراع كتابٍ «الأيديولوجيا الألمانيّة» من قبل ريازانوف، خصوصاً في العمل المشترك لتيريل كارفر ودانييل بلانك «التاريخ السياسيّ لنشر مخطوطات الأيديولوجيا الألمانيّة»[٦]، وخلاصتهما أنّ المخطوطة التي يتحدّث عنها ماركس في مقدّمة «مساهمة» ١٨٥٩ لم تشكّل من الأساس وحدة كتابيّة لا مع الفصل المعنْون «فويرباخ» قبلها ولا مع النّصوص السجاليّة ضدّ «الاشتراكيّة الحقيقيّة الألمانيّة» بعدها، كما أنّ بعض النصوص الأخيرة هي لجوزيف فيديماير وموسى هسْ وليستْ لماركس وإنغلز، وهي جزءٌ من مشروع منفصل كان يجري التحضير له. طريفٌ هنا أن تتناوَل بعض مقاطع «الأيديولوجيا الألمانيّة» موسى هس بشكل لاذع، في حين أنّ مقاطع أخرى من حِبره.

أوهام «داحضي الأوهام»

كذلك، وبعدما أعطي كتاب «الأيديولوجيا الألمانيّة» أهمّيّةً لافتةً في ماركسيّة القرن العشرين، وخصوصاً لدى الفيلسوف الشيوعيّ الفرنسيّ لوي ألتوسير (في كتابه «من أجل ماركس»، ١٩٦٥) الذي ذهب إلى أنّ «القطيعة المعرفيّة» بين ماركس الشابّ الكانطيّ الفيختويّ ثمّ الفويرباخيّ، وبين ماركس «الماركسيّ» حاصلة فيه، وأنّه يتمخّض عن هذه القطيعة تأسيسُ لعلم جديد، هو علم تاريخ التشكيلات الاجتماعيّة، وفلسفة جديدة، المادّيّة الجدليّة، في وقتٍ واحد[٧]، علاوةً على أنّه يقدّم لنا نظريّةً حول الأيديولوجيا بحدّ ذاتها بصفتها وعياً زائفاً قائماً على تحوير الواقع وتزييفه، فإنّ التشكيك بمحوريّة «الأيديولوجيا الألمانيّة» قد انتشر في العقود الأخيرة، وخصوصاً لدى اليابانيّ تاكاهيسا أويشي في كتابه اللافت «ماركس المجهول»[٨]، الذي يقدّم فيه خلاصاتٍ بحثية عدّة، منها أنّه حتى بالنسبة إلى الفصل المعنْون «فويرباخ» فإنّه جرى وصل المقاطع ببعضها البعض بغضّ النظر عن الصفحات المفقودة، وأنّ كلّ طبعات «الأيديولوجيا الألمانيّة» تصنَّف من ضمن «المنحولات»، ولا يمكن الحديث أبداً عن لحظةٍ تأسيسيّةٍ بين ثنايا هذه النّصوص المستجمَعة، هذا بخلافٍ تأسيسيّةٍ «المخطوطات الاقتصاديّة الفلسفيّة» الباريسيّة قبلها، أو «بؤس الفلسفة» مباشرةً بعدها. في مقابل هذا الاتّجاه، تأتي مقدّمة الباحثة الفرنسيّة إيزابيل غارو لإعادة نشر التّرجمة التي أشرف عليها جيلبير باديا، فتعيد التّذكير بكلمات باديا نفسه «مفارقة الأيديولوجيا الألمانيّة أنّها تقدّم لنا ملخّصاً، وخلاصةً لمعارفَ لم تكن قد أنتجت بعدُ في شكلها العلميّ المتطوّر»، وتشدّد على أنّ الكتاب عتبةٌ أساسيّة في تطوّر فكر ماركس وإنغلز، هي العتبة التي تكتسب كلّ دلالتها في سياق التأجّج الاجتماعيّ والسياسيّ الممهِّد لثورات ١٨٤٨، وأنّ النّصوص التي يتشكّل منها تمزج بين الحيثيّات السجاليّة المباشرة ضدّ ممثّلي «الهيغليّة الشابّة» و«الاشتراكيّة الحقيقيّة»، وبين تطوير التصوّر النظريّ لعلاقة الأفكار بالواقع، وتحليل شروط تشكّل الأفكار وتأثيرها، ومحاولة تقديم نظرة للتّاريخ البشريّ مأخوذاً بكلّيّته، وأنّ ذلك يأتي بالضدّ من النظرة الشائعة التي ترى أنّ «الأيديولوجيا الألمانيّة» تفصل بشكل تعسّفيّ بين القاعدة المادّيّة - الاقتصاديّة وبين البنية الفوقيّة، إذ يجري فيها، على العكس من ذلك، اجتراح تحليلٍ للبنية الاجتماعيّة الكلّيّة والمتحرّكة القائمة على جدليّة أنّ تقسيم العمل نفسه هو الذي يسمح بالاستقلاليّة النسبيّة لنظام الأفكار والتصوّرات والتمثّلات، أي في وقت واحد، استقلالها الفعليّ والانطباع المضلّل بأنّها يمكن أن تنعزل عن سائر الواقع الاجتماعيّ والاقتصاديّ[٩]، مثلَما يُظهر الكتاب كيف أنّ الصراع بين المصالح الاجتماعيّة المتعارِضة هو أيضاً صراعٌ بين أفكار. بخلاف ألتوسير الذي يستخرج من نصّ «الأيديولوجيا الألمانيّة» مفهوماً عن الأيديولوجيا كعمليّة «تزييف» للواقع، ترى غارو أنّ توظيف ماركس وإنغلز هذا المصطلَح في الكتاب لم يقتصر على نقض ميكانيزمات التّزييف ومطاردة الأوهام، بل أنّ «الأيديولوجيّ» المنقود في أعمال «الهيغليّين الشباب» يكمن تحديداً في هذا المنزع لديهم لتحقيق «الوعي الذّاتيّ» عند برونو باور، أو «الإنسان» عند فويرباخ، أو «الأنا» عند ماكس شترنر، على قاعدة مطاردة الأوهام. مطاردة الأوهام لا تكفل معرفة الواقع، بما في ذلك واقع هذه الأوهام نفسها. تنطلق



المخطوطات المدرجة بين ثنايا «الأيديولوجيا الألمانيّة»[١٠]، من دحض وهْم التمرّد الدائم على حكم الأوهام حين يصبح وهماً مكتفياً بذاته. ما يتهكّم عليه ماركس وإنغلز منذ مقدّمة «الأيديولوجيا الألمانيّة» هو «الأوهام البريئة والصبيانيّة التي تشكّل لبّ الفلسفة الحديثة للهيغليّين الشباب» التي هي أوهام دعواتهم التمرّدية على «الأوهام والأفكار والعقائد والكائنات الخياليّة التي يرزحون تحت نيرها»، وأوهام رساليّتهم بأن «لنعلّم البشر أن يستبدلوا هذه الأوهام ويأتوا بأفكار تقابل ماهيّة الإنسان كما يقول أحدهم (المقصود فويرباخ)، وأن يتّخذوا منها موقفاً نقديّاً كما يقول الآخر (المقصود برونو باور)، وأن ينزعوا من رؤوسهم كما يقول الثالث (ماكس شترنر)». وهْم الاعتقاد بأنّ «الواقع القائم سوف ينهار» بمجرّد النجاح في دحض الأوهام التي يجري تعيينها بقصد دحضها[١١].

«تفسّخ الفكر المطلق»: حدث في انتظار الحدث

يحدّد جورج لابيكا في مقالته «من أجل مقاربةٍ نقديّةٍ لمفهوم الأيديولوجيا» هذا العنصر «الأيديولوجيّ» الذي تجري المساجلة، بضراوة، ضدّه في الكتاب، بأنّه «اللامفكّر به» بامتياز لدى الهيغليّين الشباب: عدم قدرتهم على استيعاب أنّ هذه الانتفاخة في الوعي الفلسفيّ الألمانيّ التي يساهمون فيها، هي انعكاسٌ للتأخّر الألمانيّ عن مجاراة سواء الثورة البرجوازيّة السياسيّة الفرنسيّة أو الثورة البرجوازيّة الصناعيّة الإنكليزيّة[١٢]، وأنّه، وبسبب هذا «اللامفكّر به» محكوم على الفلسفة الألمانيّة بأن تخفق في تحقيق موضوعها، لكونها تحدّده حيث هو غير موجود، أي لكونها تكتفي بالانطلاق من أرضيّة نقد الدين، نقد السماء، وتُخفق في «أرضنة» هذا النّقد، المشروط بتجاوزه.

«من المؤكّد أنّنا نعالج هنا حدَثاً مدعاةً للاهتمام، ألا وهو عمليّة تفسّخ الفكر المطلَق»: يكثّف ماركس وإنغلز بهذه الجملة خطّة الهجوم على الهيغليّة الشابّة في «الأيديولوجيا الألمانيّة»، هذا الهجوم الذي يمكن اعتباره بمثابة «نقد ذاتيّ» برّانيّ، يصفّي فيها ماركس حسابه مع وعيه الفلسفيّ - الأيديولوجيّ السابق، مثلما أنّه في المقلب الآخر منه، إعادة اعتبارٍ إلى فلسفة الوعي المطْلق، فلسفة هيغل، التي يشكّل الهيغليّون الشباب نكوصاً بالنسبة إليها، بسبب أنّ تبعيّتهم تجاه هيغل «هي السبب في أنّ أيّاً من هؤلاء النقّاد المحْدثين لم يقم حتى بمحاولة نقدٍ جامع للنّظام الهيغليّ، على الرّغم من أنّ كلّ واحد منهم يقْسم الأيمان المغلّظة على أنّه تجاوز هيغل نفسه» وأنّ مناظرتهم ضدّ هيغل وضدّ بعضهم بعضاً تقتصر على «أنّ كلّاً منهم يعزل جانباً من النّظام الهيغليّ ويحوّله ضدّ النظام بكامله، وضدّ الجوانب المعزولة من قبل الآخرين على حدٍّ سواء». يتّهم فويرباخ وباور وشتيرنر هنا إذاً بأنّهم اقتطعوا مقولات فلسفيّة هيغليّة خالصة من «السستام» الفلسفيّ للمعلّم، ثمّ قاموا بـ«تدنيسها» بخلطها بأفكارٍ أيديولوجيّة لا ترقى إلى درجة مقولات فلسفيّة، بل تبقى لاهوتيّةً، كونها تقتصر على نقد التصوّرات الدينيّة. الهيغليّة الشابّة، بما فيها إذاً وعيُ ماركس ما قبل قطيعته معها، تفترض، أنها تسير في اتّجاهٍ «محافظٍ» بالنّسبة إلى فلسفة هيغل، هيغل يذوّب اللاهوت في الفلسفة، أمّا هم، فويرباخ وباور وشتيرنر، فيُلحقون الفلسفة باللاهوت، باسم تجذير «نقد الدّين» و«نقد السماء»، وإعادة حقوق الإنسان والوعي والأنا التي رحّلها الإنسان نفسه إلى السماء. هم يشكّلون تراجعاً إذاً بمقياس الاستقلال الفلسفيّ، ما داموا غير قادرين على نقد هذه الانتفاخة الفلسفيّة الألمانيّة بإعادة ربطها بالتأخّر الألمانيّ عن مواكبة الثورة البرجوازيّة، السياسيّة في فرنسا، والاقتصاديّة في إنكلترا. «إنّ الأيديولوجيّين الهيغليّين الشباب، على الرّغم من بياناتهم الطنّانة التي يزعمون أنّها «تقلب العالم» هم أشدّ المحافظين صلابة»[١٣].

هل يمكن اعتبار لحظات الهيغليّة الشابّة الثلاث «حدثاً» في تاريخ الفلسفة؟ ليس هذا هو تحديداً همّ ماركس وإنغلز. ما يبرزون لأنفسهم في المخطوطة هو بالأحرى، انصرافُ الهيغليّة الشابّة لإنتاج «أحداثها الجوّانية» بالانقطاع عن الحدثيّة السياسيّة - التاريخيّة، تحديداً لأنّ هذه الهيغليّة الشابّة تتعنّت في الاستمرار بتجذير لحظةٍ متمّمة وبالتالي يفترض تجاوزها، وهي لحظة «نقد الدّين».

منذ مقدّمة «مساهمة في نقد فلسفة الحقّ عند هيغل» (١٨٤٣) اعتبر ماركس هذه اللحظة متمّمة: «بالنّسبة إلى ألمانيا، «نقد الدين» أُنجز في جوهره. ذلك أنّ نقد الدين هو الشرط الأوّلي لكلّ نقد». كثيراً ما جرى عزل المقولة الثانية (الشرط الأوّلي لكلّ نقد) عن مفتتح تلك المقدّمة (أنّ لحظة نقد الدين تُمتْ بالنسبة إلى ألمانيا).

هذا لا يعني أنّ ماركس قبل فترة «الأيديولوجيا الألمانيّة» كان قد نجح في تجاوز لحظة «نقد الدين» لمجرّد إشعاره بتمامها، تلك اللحظة التي ينبني فيها

نقد السياسة على نقد الفلسفة ونقد الفلسفة على نقد الدّين[١٤]، فإدراكه أنّها تمّمت غير كفيل بذاته، ومن داخلها فقط، بالانتقال إلى ما بعدها. على عتبة نصّ **١٨٤٣**، كان ماركس لا يزال ماركس الشاب في حدود نقد التمثّل الألمانيّ للدّولة الحديثة الذي يجد تعبيره في فلسفة الحقّ الهيغليّة، والذي يفصله التجريد عن «الإنسان الفعليّ»، بمقدار ما أنّ الدولة الحديثة هي نفسها يفصلها التجريد عن هذا «الإنسان الفعليّ». غير أنّ ماركس وضع منذ **١٨٤٣** مقاربةً لهذا التجريد على المستوى الفلسفيّ على أنّه تجريدُ عالق في «اللاحدث» وفي إنتاج أحداث ذاتيّة داخله يسجن نفسه فيها، خصوصاً في مرحلة ما بعد اكتمال التصوّر المطلق الكلّيّ عند هيغل، ومباشرته بالتفسّخ بعد هيغل، بتنازع فويرباخ وباور وشتيرنر تركةَ هذا «الوعي المطلَق».

في السياسة. الألمان فكروا بما صنعته الشعـــــــــــوب الأخرى. لقد كانت ألمانيا بمثابة وعيهم النظـــــــــــري.

النقطة التي «تحوي» كلّ الفلسفة الألمانيّة من كانط إلى هيغل إلى فويرباخ إلى ماركس الشاب تجد التعبير عنها على لسان ماركس الشاب (**١٨٤٣**) نفسه: «في السياسة، الألمان فكّروا بما صنعته الشعوب الأخرى. لقد كانت ألمانيا بمثابة وعْيهم النظريّ». لقد شغلته هذه المفارقة مطوّلاً، الثورة البرجوازيّة سياسيّة في فرنسا، اقتصاديّة في إنكلترا، وعلى مستوى «الوعي النظريّ» في ألمانيا. هذا الوعي النظريّ الذي يستقبل الأحداث الثوريّة البرجوازيّة من حوله، خارج ألمانيا والواردة إليها، يبحث عن أحداثه المحايثة في الوعي النظريّ نفسه، في «الوعي الذاتيّ» أو وعي الوعي، ووعي وعي الوعي، وهذا التضخّم على المستوى النظريّ، هذا التجاوز النظريّ للفاعليّة النظريّة نفسها، ليس سوى انعكاس للتّأخّر البرجوازيّ الألمانيّ عن مجاراة الثورة البرجوازيّة الأوروبيّة، ولتمزّق الوعي البرجوازيّ نفسه، بين عينه المثاليّة في ألمانيا، واقتصاده السياسيّ في إنكلترا، وملحمته الثوريّة في فرنسا.

«الثالوث الأوروبيّ» من موسى هسّ إلى كارل ماركس

تفسّخ الوعي المطلق في الهيغليّة الشابة هو «حدَثٌ» مجازيّ، تجري المقارنة في «الأيديولوجيا الألمانيّة» بشكل لاذع بينه وبين تنازع قادة جيوش الإسكندر المقدونيّ لتركَته بعد وفاته. لكنّ هذا «الحدَث المجازيّ»، في تهكميّة ماركس السجاليّة ضدّ الهيغليّين الشباب هو أيضاً حدثٌ يشي بانتهاء شيء ما، ليس فقط وفاة هيغل، ثمّ تنازع تركته، بين الهيغليّة المحافظة وبين الهيغليّة الشابّة، وبين الهيغليّين الشباب أنفسهم، بل نهاية وضع «نظريّ» بالنسبة إلى ألمانيا، نهاية «التقسيم الثلاثي» للعمل في الثالوث الألمانيّ - الفرنسيّ - الإنكليزيّ، الذي يتقدّم فيه الوعي الفلسفيّ في النطاق الأكثر تأخّراً، سياسيّاً واقتصاديّاً، ألمانيا.

مقولة لينين عن «مصادر الماركسيّة الثلاثة»، الفلسفة المثاليّة الألمانيّة، والاقتصاد السياسيّ الإنكليزيّ والاشتراكيّة الفرنسيّة يمكن استحضارها هنا، إنّما بشرط تصحيحها. إذا عُني بها الجمع بين «أرقى» نتاجات الأمم الأوروبيّة، الفلسفة المثاليّة والاقتصاد السياسيّ الإنكليزيّ والسياسة الفرنسيّة، سيجري إغفال النقطة المحوريّة عند ماركس قبل **١٨٤٨**، وهي أنّ هذا «التقسيم» للأشياء كارثيّ جدّاً بالنّسبة إلى ألمانيا.

إنّ استعادة ماركس لمقولة الثالوث الأوروبيّ التي دشّنها موسى هسّ، تمرّ من خلال العناية المركزّة بـ«كارثيّة» تقسيم العمل داخله بين فتوحات العقل النظريّ في ألمانيا، وبين الاقتصاد والسياسة في إنكلترا وفرنسا. ليست الفلسفة الألمانيّة أرقى فلسفات القارّة، إلّا بمقدار ما أنّها «تعوّض» عن التأخّر على مستوى الوحدة القوميّة، والنهضة الاقتصاديّة، والتحرّر السياسيّ، للبلاد الألمانيّة، وهذا التعويض في حقيقته المادّيّة ليس بتعويض إلّا بمقدار مفاقمته المشكلة. وهنا يمكن طرح فرضيّةً لإعادة قراءة «وحدة» نصوص المرحلة البروكسليّة من عمل ماركس وإنغلز: ليس حصرها فقط، بإشكاليّة «التفوّق الألمانيّ» النظريّ (كانط وهيغل) في مقابل التأخّر الألمانيّ العمليّ (سياسةً واقتصاداً وتشرذماً قوميّاً)، بل ربطها بإشكاليّة التمزّق الثلاثيّ للحداثة البرجوازيّة الأوروبيّة من خلال ذلك، وتطوير مفهومَي الديمقراطيّة والشيوعيّة في إطار مقاربة هذا التمزّق الثلاثيّ، الذي يجعل الثورة البرجوازيّة «النظريّة» متقدّمةً حيث الثورة البرجوازيّة «العمليّة» متأخّرة. كذلك، وإذا ما عدنا لـ«العائلة المقدّسة» سنجد ماركس يزعزع «يقينيّة» فكرة التفوّق الفلسفيّ الألمانيّ هذه، من خلال تشديده على الحيويّة الفلسفيّة - المادّيّة «الفرنسيّة - الإنكليزيّة»، وهو تشديدٌ جرت المبالغة في

إخراجه من سياقه، ابتداءً من «تطوّر النظرة الواحديّة في التاريخ» لجيورجي بليخانوف، بحيث جرى اختزاله في نظرة أيديولوجيّة لتاريخ الفلسفة على أنّها تاريخ صراع بين المادّيّة والمثاليّة على الدوام.

حيال هذا «الثالوث الأوروبيّ» الذي شغل هسّ ثمّ ماركس باتّجاهَين مختلفين، تقدّم بروكسل نقطةً للنظرة والتفاعل في الاتّجاهات الثلاثة. مرحلة ماركس فيها، تاليةٌ لمرحلتَيه الألمانيّة والباريسيّة، وسابقة لمرحلته اللندنيّة، بعد فشل ثورات ١٨٤٨. لحظة «الأيديولوجيا الألمانيّة» فيها هي بامتياز لحظة تسجيل تهافت «الثورة النظريّة» الألمانيّة، بالتّوازي مع أزمة السياسة الفرنسيّة، بنتيجة هزيمة الثورة الكبرى ١٧٨٩، وعدم كفاية الثورة الصغرى، تموز / يوليو ١٨٣٠. البروليتاريا، التي اكتشف ماركس أشكالها التنظيميّة النقابيّة والسياسيّة في باريس، ثمّ أتيح له، في مرحلة كتابة «الأيديولوجيا الألمانيّة» نفسها، فرصة معاينتها في الواقع الصناعيّ بمانشستر، من خلال سفره هو وإنغلز إلى هناك في صيف ١٨٤٥، لبضعة أسابيع، هي الذاتيّة - الطبقيّة الحركيّة، التي سيّنيط بها كارل ماركس حلّ مشكلة البرجوازيّة قبل أيّ شيءٍ آخر، حلّ مشكلة توزّع الثورة البرجوازيّة بشكل متفاوتٍ ومفارق، إنّما بشكلٍ لا يمكنه إلّا أن ينتج تناقضاتٍ عنيفة وسريعة، بين الأمم الثلاث.

بينما كانت البرجوازية الفرنسية، بواسطة أضخم ثورة عرفها التاريخ، ترتفع إلى السلطة وتغزو القارة الأوروبية. وبينما كانت البرجوازية الإنكليزية التي سبق أن تحررت سياسيا تثور الصناعة وتخضع الهند سياسيا، وتخضع باقي العالم تجاريا، لم يذهب البرجوازيون الألمان، في عجزهم، إلى أبعد من «الإرادة الطيبة».

التصوّر عن البروليتاريا كما يظهر في نصوص «الأيديولوجيا الألمانيّة» هو مع هذا تصوّرٌ «مستلَف» إلى حدٍّ كبير من المستقبل، من العقود التي ستلي، وليس من الحاضر، حيث إنّه حتى في إنكلترا نفسها التي انبهر ماركس بمصانعها، لم تكن الثورة الصناعيّة بعد إلّا في بداياتها. «استلاف» هذا التصوّر من المستقبل الآتي، يرتبط أيضاً بـ«فلسفة التاريخ» التي يجد مساحة لها في الفصل المعنون «فويرباخ» من «الأيديولوجيا الألمانيّة».

ألمانيا بوصفها «قارّة البرجوازيّة الصغيرة»

الواقع التاريخيّ الألمانيّ «يغرق» بين رتل السجال الحادّ والتهكميّ اللاذع ضدّ ماكس شتيرنر «سانشو» أو «القدّيس ماكس» كما ينعته ماركس. بين ثنايا هذا الاسترسال السجاليّ اللاذع، يظهر نصٌّ «استطراديّ» في غاية الأهميّة، يعيد مرّة جديدةً المقارنة بين البرجوازيّة الألمانيّة والبرجوازيّتين الفرنسيّة والإنكليزيّة، بين الليبراليّة في ألمانيا وخارجها: «فبينما كانت البرجوازيّة الفرنسيّة، بواسطة أضخم ثورةٍ عرفها التاريخ، ترتفع إلى السلطة وتغزو القارّة الأوروبيّة، وبينما كانت البرجوازيّة الإنكليزيّة التي سبق أن تحرّرت سياسيّاً تثوّر الصناعة وتُخضع الهند سياسيّاً، وتُخضع باقي العالم تجاريّاً، لم يذهب البرجوازيّون الألمان، في عجزهم، إلى أبعد من «الإرادة الطيّبة». إنّ إرادة كانط الطيّبة هي الانعكاس التامّ للعجز والهمود والمسكنة والعجز لدى البرجوازيّين الألمان»[١٥].

«إنّ التطوّر الألمانيّ قد اتّسم في جميع الميادين، منذ أيّام الإصلاح، بطابعٍ برجوازيّ صغير كلّيّاً. إنّ الأرستقراطيّة الإقطاعيّة القديمة قد قضتْ بمعظمها في حروب الفلّاحين، وما تبقّى منها تمثّل إمّا بأمراء صغارٍ تابعين للأمبراطور مباشرةً، وقد حقّقوا بصورة تدريجيّة بعض الاستقلال وقلّدوا الملكيّة المطْلقة على نطاقٍ ضيّقٍ يقتصر على مدنهم الصغيرة، وإمّا اصحاب أملاك ضئيلة، فقَدَ بعضُهم ثروته الهزيلة في البلاطات الاقليميّة ليكسبوا بعدها معيشتهم من مراكزَ حقيرة في الجيوش الدُّمى أو الإدارات الحكوميّة - وبقي بعضهم الآخر فرساناً إقطاعيّين من المناطق النّائية يعيشون حياةً يخجل منها أكثر الملّاكين الإنكليز أو النّبلاء الإقليميّين الفرنسيّين تواضعاً».

كثيفة عناصر النّصّ هنا:

١ ـــ حركة الإصلاح البروتستانتيّة (وامتداداً حرب الفلّاحين) في ألمانيا تخلق إلى حدٍّ بعيد الوهم بأنّ «الثورة الأساسيّة» أنجزتْ في القرن السادس عشر في ألمانيا.

٢ ـــ تهدّم الإقطاعيّة القديمة بنتيجة حرب الفلّاحين حوّل البلاد الألمانيّة إلى «وطن البرجوازيّة الصغيرة» بامتياز، بما في ذلك أريستوقراطيّوها الذين صاروا «برجوازيّين صغاراً» على طريقتهم.

٣ ـــ أدّى هذا إلى نتيجتين متناقضتين في الوقت نفسه، ظهور «الملكيّة العسكريّة» البروسيّة من ناحية، وتشرذم البلاد الألمانيّة وامتناع وحدتها القوميّة من جهة ثانية.

٤ ـــ التأخّر الألمانيّ هو على المستوى الزراعيّ بنتيجة ما تقدّم، وبالعودة إلى النّصّ: «كانت الزراعة تمارَس

بطريقة لا هي الإنتاج القطعيّ ولا هي الإنتاج الكبير، ولم تدفع بالفلّاحين قطّ للسّعي إلى التحرّر على الرّغم من الإبقاء على التبعيّة الطبقيّة والسخرات، وذلك نظراً لأنّ هذه الطريقة في الزراعة بالذّات لم تسمح بقيام أيّ طبقة ثوريّة نشطة من جهة واحدة، ونظراً لانعدام البرجوازيّة الثوريّة المقابلة لمثل هذه الطبقة الفلاحيّة من جهة ثانية».

٥ ـــــ يقارن ماركس وإنغلز بذكاءٍ بين النموذج الألمانيّ والنموذج الهولنديّ الذي انفصل عنه: «إنّه لمن الأمور ذات المغزى أنّ صناعة الكتّان الحرفيّة، يعني الصناعة القائمة على الغزل اليدويّ والنّول اليدويّ، قد بلغتْ بعض الأهميّة في ألمانيا بالضّبط حين كانت هذه الأدوات المزعجة قد نُحّيَت جانباً من قبل الآلات في إنكلترا. وإنّ أعظم الأمور مغزىً هنا هو موقف البرجوازيَين الألمان حيال هولندا. إنّ هولندا، وهي القسم الوحيد من العصبة الهانسيّة الذي اكتسب أهمّيّة تجاريّة، قد انفصلتْ عن هذه العصبة طلباً للحرّيّة، وقطعتْ ألمانيا عن التجارة العالميّة، باستثناء ميناءين (هامبورغ وبريمن)، واستطاعت منذ ذلك الحين أن تسيطر على التجارة الألمانيّة بأسرها. وكان البرجوازيّون الألمان أعجز من أن يضعوا حدّاً لاستغلالهم من قبل الهولنديّين. إنّ برجوازيّة بلد صغير مثل هولندا، بمصالحها الطبقيّة النامية جيّداً، كانت أقوى من البرجوازيّة الألمانيّة التي تتفوّق عليها عدداً إلى درجة بعيدة، بعطالتها ومصالحها الحقيرة المنقسمة. كان انقسام المصالح يقابل انقسام التنظيم السياسيّ إلى إمارات صغيرة ومدنٍ أمبراطوريّة».

اكتشاف ماركس لـ«القارة التاريخ» الذي يتحدّث عنه ألتوسير انطلاقاً، إشارة في مطلع الفصل حول «فويرباخ» يعلن فيها ماركس وإنغلز أنّهما يتعاملان مع علمٍ واحدٍ، هو علم التاريخ، إنّما يفترض إعطاؤه معنى آخر من خلال هذا النّصّ التكثيفيّ للتاريخ الألمانيّ منذ الإصلاح اللوثريّ وحرب الفلّاحين إلى الزمن الحاضر، الذي تقدّم فيه البلاد الألمانيّة كقارّة «البرجوازيّين الصغار» بامتياز، أي الطابع البرجوازيّ الصغير لأريستوقراطيّيها ثمّ برجوازيّيها، هؤلاء البرجوازيّين الألمان، «الذين كانوا يرغون ويزبدون ضدّ نابليون لأنّه أكرههم على شرب عصير الهندباء، ولأنّه عكّر صَفوهم بايواء الجنود في منازلهم وبالتجنيد، وأغدقوا عليه كلّ حقدهم كما أغدقوا على إنكلترا كلّ أعجابهم، في حين كان نابليون يقدّم إليهم أعظم الخدمات بتنظيف الإسطبلات الألمانيّة وإنشاء وسائط مواصلاتٍ جديرة ببلد متحضّر، فيما لم تفعل إنكلترا سوى تحيّن الفرصة لاستغلالهم بكلّ هدوء.

ولقد كان الأمراء الألمان يتوهّمون، بالروح البرجوازيّة الصغيرة عينها، أنّهم يقاتلون في سبيل مبدأ الشرعيّة وضدّ الثورة، في حين لم يكونوا سوى المرتزقة المأجورين للبرجوازيّة الإنكليزيّة».

«وفي مناخ هذه الأوهام العموميّة كان من طبيعة الأمور تماماً أنّ المراتب التي تحتكر امتياز الوهم - ممثّلةً بالأيديولوجيّين، ومعلّمي المدارس، والطلبة، وأعضاء «عصبة الفضيلة»، كانت تتحدّث بكلمات فخمة وتعطي تعبيراً طنّاناً ملائماً للمزاج العموميّ القائم على الوهم واللامبالاة».

الكثافة السجاليّة ضدّ ماكس شتيرنر وفلسفته «الأنا واحديّة»، الأنا الأنانيّة غير المكترثة بالآخرين، توظّف كانعكاسٍ لذلك: «فعند القدّيس ماكس، ليس البرجوازيّ حقيقة المواطن، بل المواطن حقيقة البرجوازيّ. وإنّ هذا التصوّر، الذي هو مقدّسٌ، بقدْر ما هو ألمانيا، ليمضي بعيداً بحيث يحوّل المواطنيّة إلى فكرة، لا شيء سوى فكرة». يضيف ماركس وإنغلز: «يستطيع أن يحوّل البرجوازيّ - وقد فصل البرجوازيّ بوصفه ليبراليّاً عن نفسه برجوازيّاً تجريبيّاً، إلى ليبراليّ مقدّس، تماماً مثلما يحوّل الدولة إلى المقدّس، وعلاقة البرجوازيّة بالدولة الحديثة إلى علاقة مقدّسةٍ، إلى عبادة، وبذلك يختتم فعلاً نقده لليبراليّة السياسيّة. لقد حوّلها إلى «المقدّس».

أنثروبولوجيا «الأيديولوجيا الألمانيّة»

في قراءته لكتاب «الأيديولوجيا الألمانيّة» يقدّم المفكّر الليبراليّ - المحافظ الفرنسيّ ريمون آرون الفصل المعنْون «فويرباخ» على أنّه العرض الأطول الذي نملكه عن فلسفة ماركس للتاريخ، ذلك أنّه بعد ١٨٤٨ ستكون نصوص ماركس إمّا اقتصاديّة وإمّا سياسيّة، وسيعتمد تقسيماً للعمل يتحوّل فيه الفيلسوف ماركس إلى اقتصاديّ، في حين يهتمّ إنغلز، الذي لم يدرس الفلسفة على نحوٍ منهجيّ وأكاديميّ، بالشأن الفلسفيّ. بخلاف النظرة الألتوسيريّة التي تبني على أنّ ماركس قطَعَ هنا مع «الأنثروبولوجيا الفلسفيّة» السابقة، ليؤسّس علم تاريخ يسبر البنى الموضوعيّة المتحرّكة والمتحوّلة، لا الذاتيّات والفاعليّات الذاتيّة، يتحدّث آرون عن «تصوّرٍ أنثروبولوجيّ» طبيعانيّ - حيويّ أكثر منه «ماديّاً»، لأنّ هذا التصوّر لا يستدعي قولاً في ماهيّة مفهوم المادّة، بل يكتفي بـ«المادّيّة العمليّة» دون تلك الأنطولوجيّة، أي أنّ المادّيّة هنا تقتصر على التحديد بأنّه لأجل فهم التاريخ ينبغي الانطلاق من

الإنسان كنوع بيولوجيٍّ، موضوعٍ في شروطٍ جيولوجيّة ومناخيّة معيّنة.

كل شيء طبيعي – لم يعد هناك شيء طبيعي. الإنتاج من قبل الإنسان لوسائل وجوده واستمراره هو في أصل التاريخ نفسه. التاريخ هو تاريخ «أنسنة» الطبيعة، مثلما هو جزء من التاريخ الطبيعي.

لُبّ هذا التصوّر الأنثروبولوجيّ هو أنّه «يمكن تمييز البشر من الحيوانات بالوعي، والدّين، بكلّ ما نريد، وهُم أنفسهم يباشرون بالتمايز عن الحيوانات ما أن يباشروا بإنتاج شروط وجودهم»، وأنّ البشر بإنتاجهم شروطَ وجودهم ينتجون على نحوٍ غير مباشر الحياة المادّيّة نفسها. ينطلق ماركس وإنغلز إذاً من تصوّرٍ عن الطبيعة، وليس فقط التاريخ، إنّما عن قواعد طبيعيّة تتبدّل من خلال الفاعليّة البشريّة في مجرى التاريخ. البشر يحوّلون الطبيعة البرّانيّة حولهم بعملهم وبتكاثرهم، ويتبدّلون هم أنفسهم بنتيجة عملهم وبنتيجة خلقهم الشروط المنتجة صناعيّاً التي يعيشون فيها. ما يلتقطه ريمون آرون هنا على الرّغم من قوله بأنّ هذا التصوّر لا يستدعي ميتافيزيقا محدّدة، هو مفارقة ميتافيزيقيّة إلى حدٍّ بعيد، ستبقى مؤثّرة في تصوّرات ماركس وإنغلز للأشياء: كلّ شيءٍ طبيعيّ – لم يعد هناك شيء طبيعيّ. الإنتاج من قبَل الإنسان لوسائل وجوده واستمراره هو في أصل التاريخ نفسه. التاريخ هو تاريخ «أنسنة» الطبيعة، مثلما هو جزءٌ من التاريخ الطبيعيّ.

«يلخّص» آرون «فلسفة تاريخ» ماركس المستندة إلى هذا التصوّر الأنثروبولوجيّ في «الأيديولوجيا الألمانيّة» بخمس ملاحظات:

١ ــــ مبدأ أولويّة الحاجات الفيزيائيّة للإنسان – لأجل العيش ينبغي قبل كلّ شيء آخر الشرب، الأكل، السكن، اللبس، وأشياء أخرى من هذا القبيل. الواقعة التاريخيّة الأولى هي إنتاج وسائل تسمح بإشباع هذه الحاجات.

٢ ــــ الإنسان هو كائنٌ من النوع الذي بمقدار ما يجري إشباع حاجاته الأولى تظهر له حاجات أخرى، الإشباع المتواصل للحاجات يساهم في إغنائها. ينحو آرون هنا إلى حصر ذلك بمعادلة أنّ إشباع «حاجاته الحيوانيّة» يقود إلى إظهار «حاجاته الإنسانيّة».

٣ ــــ البشر الذين يجدّدون كلّ يوم حياتهم الخاصّة



❖ تفصيل من جدارية لدييغو ريفييرا عن ماركس وشهداء هايماركت



بخلق وسائل إشباع الحاجات يخلقون بشراً آخرين بالتوالد.
٤ ـــ كلّ «نمط تعاونٍ بين البشر هو بحدّ ذاته قوّة منتجة». نشاط البشر المتّصل بتحويل الطبيعة هو في الوقت عينه شكل تعاونٍ بين البشر أنفسهم.
٥ ـــ كلّ علاقةٍ للإنسان مع الطبيعة هي علاقةٌ للبشر فيما بينهم، وعلاقات الإنتاج تقوم على أنماطٍ مختلفة من تنظيم التعاون بين البشر، وتقسيم العمل.

يتأتّى من هذه الملاحظات الخمس أنّ ليس ثمّة وعي خالصٌ، قائم بذاته، لأنّ لعنة المادّة تثقل دائماً على الروح. ليس هناك وعيٌ خالص، إنّما هناك «وعيٌ بحت»، أو «الوعي الفعليّ» التواصليّ العمليّ بين البشر، الذي يجد التعبير عنه في اللغة، وإذا كان شرح آرون لمقولة «الوعي الفعليّ» يبقى مقتضباً وغامضاً هنا، إلّا أنّه يستخدمه للتمييز بين صنفين آخرَين للوعي: أفكار الطبقة السائدة، والأيديولوجيا. بالنتيجة، يميّز آرون في دراسته النصّ، بين أفكار الطبقة السائدة، وبين مفهوم الأيديولوجيا. أفكار الطبقة السائدة هي الأفكار التي تعكس سيطرتها أو التي تحتاج إليها لتأمين استمرار سيطرتها، أمّا الأيديولوجيا فهي أيّ ميكانيزم اختزاليّ أو توظيفيّ أو تحويريّ لواقع من قبل أيّ مجموعة اجتماعيّة. أفكار الطبقة السائدة، هي وفقاً لهذا التوزيع، أكثر اتّساعاً وشموليّة من مفهوم الأيديولوجيا[١٦].

من «البروليتاريا» إلى «الدولة»: قبل ١٨٤٨ وبعده

لم يقل ماركس بعد إنّ «البشر يصنعون تاريخهم لكنّهم لا يصنعونه على هواهم» (الثامن عشر من برومير)، لكنّه أوجَد - مع إنغلز - أسساً لهذه المقولة، في فترة بروكسل: فمن جهةٍ، لا يمكن للثورة أن تحوّل قواعد النظام الاجتماعيّة من دون تطوّر القوى المنتجة الكاملة، ولا يمكن للاغتراب أن يدفع إلى الثورة إلّا بمقدار توسّع الحرمان في التركيبة الاجتماعيّة في مرحلةٍ باتت تمتلك شروط البحبوحة والثروة والثقافة الواسعة. لكن من جهة أخرى، هذه «الثورة البروليتاريّة الخالصة» التي عليها، افتراضيّاً، أن تنتظر اكتمال شروطها الموضوعيّة، لا يمكن أن تنتظر، لأنّ الثورة البرجوازيّة غير المتمّمة، والمتفاوِت حصولها بين أمم أوروبا الكبرى الثلاث، على عتبة انفجارٍ انتفاضيّ أوروبيّ شامل، وهذه الثورة الآتية، هي في وقتٍ واحد، برجوازيّة وبروليتاريّة، برجوازيّة من حيث إنّها «ثورة توحيد» الثورات المشطورة السابقة للبرجوازيّة، الثورة الفلسفيّة الألمانيّة، الثورة السياسيّة الفرنسيّة، الثورة الصناعيّة الإنكليزيّة، ومن حيث انعدام كفاية النّخَب البرجوازيّة لتحقيق ذلك، والدور الحيويّ للبروليتاريّين على الصعيد الاجتماعيّ، وللديمقراطيّين، ومن ضمنهم للشيوعيّين، على الصعيد الحركيّ السياسيّ، في تحقيق ذلك. ما سيباشر باكتشافه (إلى حدٍّ معيّن، والمكابرة عليه بتفاوتٍ أيضاً) ماركس وإنغلز بعد هزيمة ١٨٤٨، أنّ «تتميم الثورة البرجوازيّة» ستسهم به البروليتاريا بهزائمها قبل أيّ شيء آخر، وأنّ تعاظم «الدولة الأمّة» (وما يرتبط بها من إمبراطوريّة استعماريّة «ما وراء البحار») لم يعد من الممكن اختزالها إلى مجرّد أداة سيطرة طبقيّة. بسمارك ونابليون الثالث هما مَن تمّم الثورة البرجوازيّة، بإكساب الدولتين الألمانيّة والفرنسيّة، مضموناً اجتماعيّاً. تبعية البرجوازيّة الألمانيّة لجهاز الدولة البروسيّ التي ينتقدها ماركس وإنغلز بشكل حادّ في «العائلة المقدّسة» و«الأيديولوجيا الألمانيّة» لم تكن مجرّد دليل على التأخّر الألمانيّ، كانت بمثابة تمهيد للزمن اللاحق، الزمن حيث ستقوم الدولة، التي لا تختزل إلى مجرّد تابع للبرجوازيّة، بـ«توحيد» ألمانيا وتصنيعها وإيجاد الإطار الدولتيّ أيضاً، ولاحقاً، لتطوّر الاشتراكيّة - الديمقراطيّة الألمانيّة نفسها، الشكل الحزبيّ السياسيّ الجماهيريّ الأوّل لـ«الماركسيّة».

«الدولة» هي نقطة ضعف فترة «الأيديولوجيا الألمانيّة»، ويتّصل بهذا حصر ماركس المبارزة بين أولويّة «صراع الطبقات» أو بين أولويّة «صراع الأمم»، منحازاً للأولى. نقطة الضعف هذه ستسمح في المقابل بتحرير ماركس وإنغلز من «هاجس الدولة» عند تعبيرهما عن المشروع البروليتاريّ «الشيوعيّ - الديمقراطيّ». سيجري التعبير عنه كربطٍ لتحرير العلاقات الاجتماعيّة بالتحقيق الاجتماعيّ للأفراد: «تملّك» كل فردٍ المضمارَ الاجتماعيّ الضروريّ لتحقّق فاعليّته الحياتيّة، عمله الحيّ (وهو ما سيطوّره ماركس في مرحلة «رأس المال» بإضافته إلى جملة التعارضات التي يشتغل عليها التعارض بين العمل الحيّ والعمل الميت، ولزوم تحرير العمل الحيّ من العمل الميت).

وبالتّداخل مع هذا، تقديم تصوّر للعمل الحيّ المحرّر، على أنّه سيلغي تباعاً الانقسام بين العمل اليدويّ والعمل الذهنيّ، أو أنّه سيسمح للشخص بأن ينتقل في يومٍ واحد «بين الصيد، وصيد الأسماك، والعمل بالفلاحة». هنا يظهر، محور آخر لـ«الأيديولوجيا الألمانيّة»: لئن كان البشر ينتجون شروط عيشهم واستمرارهم بتحويل الطبيعة، فإنّ «العمل» ليس القيمة الأساسيّة للحياة

الإنسانيّة، بل إنّ الحياة قيمةٌ لنفسها، بشرطين متكاملين: أن تكون منتجة، وأن تكون «معيشة».

بالقدْر نفسه الذي يسدّد فيه كتاب «الأيديولوجيا الألمانيّة» اللكمات لـ«الهيغليّة الشابّة»، فإنّه يستعيد مفهوم «الرفع»[١٧] (التجاوزيّ) الهيغليّ بامتياز، الذي يسم عمليّة تجاوز التناقض، حيث العناصر المتعارضة يجري توكيدها وإلغاؤها في آن. «المجتمع المدنيّ» هو ما يجري تعريضه لعمليّة «الرفع التجاوزيّ» في «موضوعات حول فويرباخ» وفي «الأيديولوجيا الألمانيّة»: في «النصَّين» هناك فكرة ثابتة، التعارض بين المجتمع المدنيّ، نتاج التاريخ الحديث، وبين الشيوعيّة.

الشيوعيّة هي الرفع التجاوزيّ للمجتمع المدنيّ. المجتمع المدنيّ هو مجتمعٌ بالمقلوب، الشيوعيّة هي قلبٌ للمجتمع المدنيّ، هي المجتمع الفعليّ. في دراسة مفتاحيّة حول «الأيديولوجيا الألمانيّة»[١٨]، يميّز جاك تكسييه بين مصطلحَي «الطبيعيّ» و«شبه الطبيعيّ» في النصّ. «شبه الطبيعيّ» هو العنصر الذي يخيّم على علاقات الملكيّة والإنتاج وكلّ أشكال الحياة الاجتماعيّة ما قبل الرأسماليّة، وبشكل أكثر تناقضاً في المجتمع المدنيّ = البرجوازيّ. «شبه الطبيعيّ» هو ما نعتقده خارج السيطرة، وعشوائيّاً بطبيعته. الأفراد في هذه الحالة ليسوا أحراراً بمقدار ما أنّ القوى المنبثقة من التعاون فيما بينهم تظهر لهم على أنّها لا يمكن التحكّم بها، على أنّها «شبه طبيعيّة»، لا مناص من الخضوع إليها. الشيوعيّة كـ«رفع تجاوزيّ» للمجتمع المدنيّ، يجري تصوّرها في «الأيديولوجيا الألمانيّة» كحياةٍ اجتماعيّة محرّرة من «شبه الطبيعيّ»، من خلال «التضامن الضروريّ لتفتّح كلّ واحد».

لئن كان البشر ينتجون شروط عيشهم واستمرارهم بتحويل الطبيعة. فإن «العمل» ليس القيمة الأساسية للحياة الإنسانية. بل إن الحياة قيمة لنفسها. بشرطين متكاملين: أن تكون منتجة. وأن تكون «معيشة».

يشكّل ربط علاقة «الشيوعيّة» بما قبلها بمفهوم «الرفع التجاوزيّ» الهيغليّ مشكلةً أساسيّةً في «الأيديولوجيا الألمانيّة» عقلانيّة زائدة نتيجتها «اللامعقول»... سيجري التخفّف من منظار «الرفع التجاوزيّ» إلى حدّ معيّن ومتقلّب لاحقاً، بعد ١٨٤٨، من خلال مزاوجة ماركس وإنغلز المفهوم الذي قاما بتبنّيه وتحويله في شبابهما، الشيوعيّة، بمفهوم «الاشتراكيّة» الذي يتضمّن لزاماً، إنتاج تصوّرات أقلّ «طبيعانيّة» وأقلّ هيغليّة في آن حول الدولة. ما يبدو كليّ الراهنيّة في المقابل في مفهوم «الشيوعيّة» ضمن «الأيديولوجيا الألمانيّة» هو تقديمها على أنّها: Verkehrsform أي شكلٌ للتعاون الاجتماعيّ، لكن أيضاً شكلٌ للتجارة الاجتماعيّة. شكل لـ«التجارة» يكون فيه الأفراد، من حيث هم منتجون وأفراد، حاضرون مباشرةً فيه، وليس بواسطة «القوى شبه الطبيعيّة» التي ينتجونها بأنفسهم وتسلبهم أنفسَهم وإنتاجهم.

الهوامش

١ مساهمة إنغلز في «العائلة المقدّسة» محدودة، ذلك أنّ ماركس فاض على المشروع الأساسيّ للكرّاس بمئتي صفحةٍ إضافية. لم يحدث الكتاب حين صدوره وقعاً كبيراً، وكان لذلك أثره بعد ذلك بعامين حين تعذّر على ماركس وإنغلز إيجاد ناشرٍ للكتاب الذي نصطلح على تسميته اليوم «الأيديولوجيا الألمانيّة».

٢ Texier, Jacques. *Révolution et démocratie chez Marx et Engels*. Paris: Presses Universitaires de France, 1998.

٣ Engels, Frederic. *The Festival of Nations in London (To celebrate the Establishment of the French Republic)*. MECW Volume 6, p. 3.

٤ يراجع في هذا الإطار:
Liedman, Sven-Eric. *A World To Win. The life and works of Karl Marx*. Verso, 2018, p.170 - 173.

٥ ماركس انجلس. **مختارات**، دار التقدم، موسكو، ج ٢، ص ٩.

٦ Carver, Terell and Blank Daniel. *A Political History of the Editions of Marx and Engels «German Ideology Manuscripts*. New York: Palgrave MacMillan, 2014.

٧ Althusser, Louis. *Pour Marx*. Paris: La découverte, 1996.

٨ Oishi, Takahisa. *THE UNKNOWN MARX Reconstructing a Unified Perspective*. Foreword by Terrell Carver, Pluto Press, 2001.

٩ Garo, Isabelle. *Préface à l'édition de 2012 de l'Idéologie Allemande*. Editions Sociales, 2012.

١٠ يمكن الرجوع إلى الشرح الذي تقدّمه غارو بالصوت والمتواجد عبر موقع يوتيوب.

١١ Marx, Karl and Engels, Friedrich. *L'idéologie allemande*. Éditions sociales, 2012, p. 9.
ليس ثمّة ترجمة عربيّة بعد للنّصّ الألمانيّ، بل ترجمة فؤاد أيّوب لكامل الأيديولوجيّة الألمانيّة، بالاستناد إلى الترجمتين الإنكليزية والفرنسيّة، الصادرة عن دار دمشق، وقد رجعنا إليها أيضاً هنا، ص ١٩.

١٢ Labica, Georges. «Pour une approche critique du concept d'idéologie», *Revue Tiers-Monde*, (1974), n.57, p34.

١٣ يمكن الرجوع هنا إلى ترجمة أيّوب ص ٢٣ - ٢٤

١٤ المفارقة في عمل ألتوسير تظهر هنا، في أنّه، من جهة يعيّن القطيعة المعرفيّة بين ماركس الشاب وماركس الماركسيّ في «الأيديولوجيا الألمانيّة» بتحرّر ماركس من مفهوم «الاغتراب» الفويرباخيّ، في حين يتعامل التوسير مع نقد ماركس وإنغلز للأيديولوجيا على أنّه استمراريّةٌ لنقد الدين، وليس على أنّه تجاوز للحظة نقد الدين المتّممة في وضع ألمانيا.

١٥ **الأيديولوجيا الألمانية**، الترجمة العربية، ص ١٩٧.

١٦ Aron, Raymond. *Le marxisme de Marx*. Paris: Editions de Fallois, 2002, p.240-277.

١٧ أي Aufhebung

١٨ Texier, Jacques. «Le concept de Naturwüchsigkeit dans l'idéologie allemande», *Actuel Marx*, 1991.

تنبّأَ «البيان الشيوعي» بأزمتنا الحاليّة ودلّنا على طريق الخلاص*

يانيس فاروفاكيس

اقتصادي وجامعي وسياسي يوناني. شغل منصب وزير ماليّة حكومة «سيريزا» العام ٢٠١٥ وقاد المفاوضات مع دائني اليونان. استقال لمعارضته النهج الحكوميّ بعد فشل المفاوضات. أسّس «حركة الديمقراطيّة في أوروبا» ٢٠١٦. له مؤلّفات عديدة آخرها تأريخ موجز ولامع للرأسماليّة بعنوان «حديث مع ابنتي عن الاقتصاد» ٢٠١٧. ترجمة: يزن الحاج.

لا بدّ للبيان، كي ينجح، من أن يخاطب قلوبنا كقصيدة ويؤثّر في الذّهن بصور وأفكار جديدة إلى حدٍّ مدهش. ينبغي له أن يفتح أعيننا على الأسباب الحقيقيّة للتغيّرات المذهلة، المُربِكة، المثيرة التي تحدث حولنا، كاشفاً عن الإمكانيّات التي يعجّ بها واقعنا الحاليّ. ينبغي له أن يدفعنا إلى الإحساس بعجزٍ خانقٍ لأنّنا لم ندرك هذه الحقائق بأنفسنا، ويجب أن يرفع السّتار الذي يُخفي الإدراك المُقلِق بأنّنا كنّا متواطئين ثانويّين، نعيد إنتاج ماضٍ بنهاية مسدودة. وأخيراً، يجب أن يمتلك القوّة السمفونيّة لبتهوفن، اي حثّنا على أن نصبح فاعلين في مستقبل يُنهي المعاناة الجماعيّة ويُلهم البشريّة كي تعي إمكاناتها من أجل حريّة أصيلة.

ولم يحقّق أيُّ بيان نجاحاً أفضل ممّا حقّقه البيان الذي نُشر في شباط / فبراير ١٨٤٨ في شارع ليفربول، لندن. بتفويضٍ من ثوريّين إنكليز[١]، كُتب البيان الشيوعيّ (أو بيان الحزب الشيوعيّ، وهو العنوان الأصليّ) على يد شابّين ألمانيّين - كارل ماركس، فيلسوف في التاسعة والعشرين يميل إلى مذهب المتعة الأبيقوريّة والعقلانيّة الهيغليّة، وفردريش إنغلز، شاب في الثامنة العشرين، وريث لمصنع في مانشستر.

لا نظير لهذا البيان حتى الآن، إذا تعاملنا معه كعملٍ في الأدب السياسيّ. تتّسم أشهر سطوره، بما فيها افتتاحيّته («إنّ شبحاً يُرعب أوروبا - هو شبح الشيوعيّة»)[٢]، بمسحةٍ شيكسبيريّة. ومثلما واجهَ هاملت شبح أبيه القتيل، سيكون القارئ مرغَماً على التساؤل: «هل ينبغي لي أن أتأقلم مع النّظام السّائد، بحيث أقاسي مقاليع القَدَر الغاشم وسهامه التي فَرَضَتْها عليّ قوى التاريخ القاهرة؟ أم يجب أن أواكب تلك القوى، وأُشهر السّلاح في وجه الوضع القائم، وأعلن قيام عالم جديد شجاع، عبر مواجهة ذلك الواقع؟»[٣]

بالنّسبة إلى قرّاء ماركس وإنغلز المباشرين، لم يكن هذا [التساؤل] محض معضلة فلسفيّة، تُناقَش في صالونات أوروبا. بل كان بيانهم دعوةً إلى العمل، وغالباً ما كانت تلبية نداء استدعاء هذا الشّبح تعني التعرّض للاضطهاد، أو في بعض الحالات، للسّجن المديد. واليوم، ثمّة معضلة تواجه الشّباب: التأقلم مع نظامٍ مُكرِّس مُفتِّت، وعاجز عن إعادة إنتاج نفسه، أو مواجهتِه، مع دفع ثمن شخصيّ فادح، بحثاً عن طرق جديدة للعمل، واللعب، والعيش معاً؟ ومع أنّ الأحزاب الشيوعيّة تلاشت كلّها تقريباً من المشهد السياسيّ، إلّا أنّ روح الشيوعيّة المُحرِّكة للبيان تبرهن على صعوبة إسكاتها.

نظرة وراء الأفق

أن ترى ما وراء الأفق هو طموح أيّ بيان. ولكن أن تنجح كما نجح ماركس وإنغلز في التوصيف الدّقيق لحقبةٍ ستبدأ بعد قرن ونصف قرنٍ في المستقبل، علاوةً على تحليل التضادّات والخيارات التي نواجهها اليوم، فهذا مذهل حقاً. في أواخر أربعينيّات القرن التاسع عشر، كانت الرأسماليّة غريقةً، محليّةً، مفتّتةً، جبانةً. ومع ذلك، ألقى عليها ماركس وإنغلز نظرة متمعّنةً واحدة واستشرفا قيام رأسماليّتنا المُعولَمة، المُموَّلة، المُصفَّحة، المتقدّمة. كانت تلك هي المخلوق الذي ولد بعد عام ١٩٩١، وفي اللحظة ذاتها كانت تلك الولادة تُروّج لموت الماركسيّة ونهاية التّاريخ.

وبالطبع، لطالما كان الإخفاق التنبّؤيّ للبيان الشيوعيّ موضع مبالغات. أتذكّر كيف أنّ حتّى الاقتصاديّين اليساريّين في أوائل سبعينيّات القرن العشرين طعنوا في نبوءة البيان الجوهريّة في أن لا بدّ لرأس المال «من أن يُعشّش في كل مكان، وأن يَستغل في كلّ مكان، وأن يقيم العلاقات في كلّ مكان» [٤]. وعبر تأمّل الواقع المحزن لما كانت تُسمّى

* من مقدّمة فاروفاكيس لطبعة البيان الشيوعيّ الجديدة (نيسان / أبريل ٢٠١٨) من كلاسيكيّات فنتج Vintage Classics. نُشرت في جريدة غارديان (٢٠ نيسان ٢٠١٨).

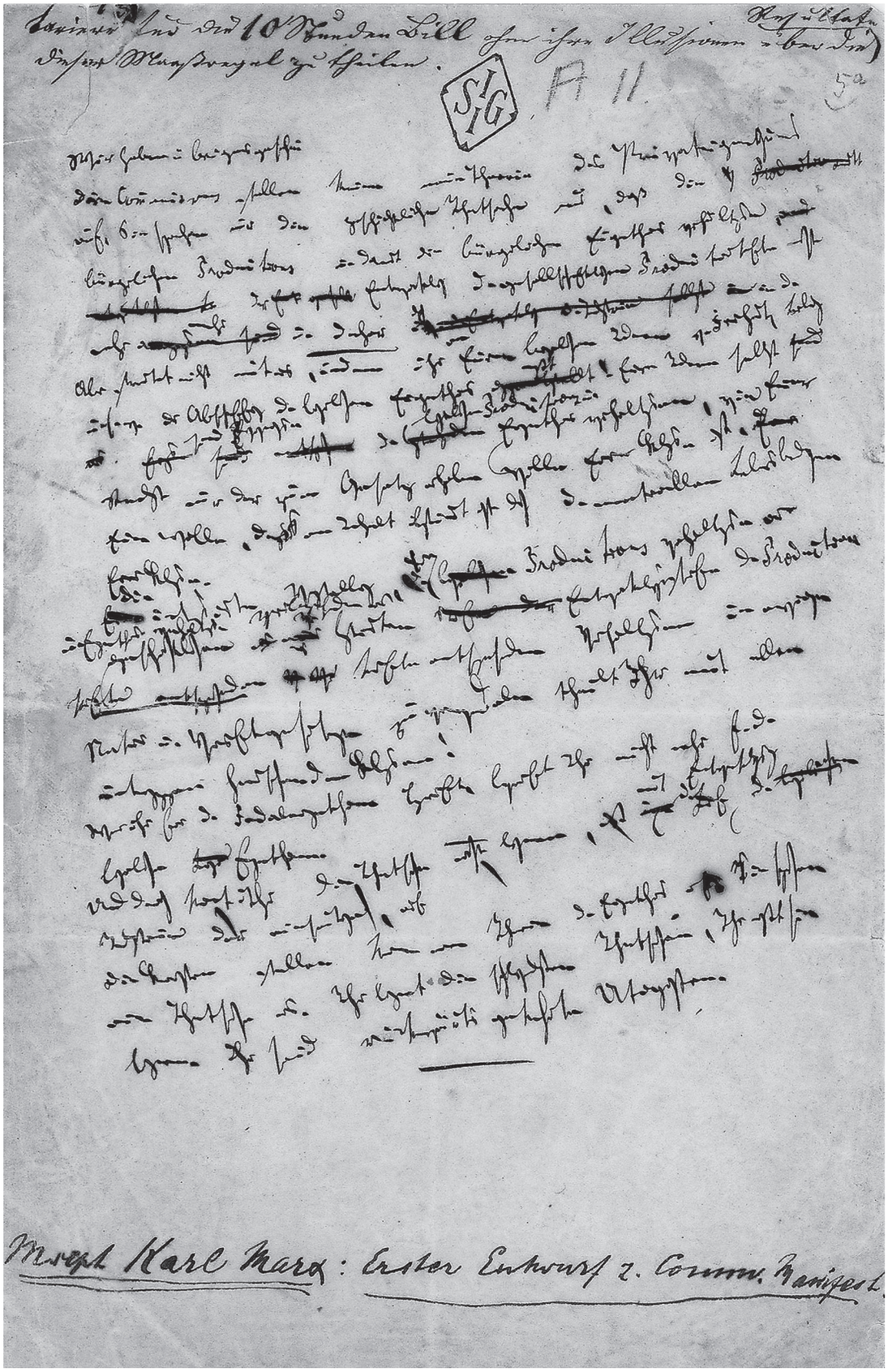

❖
الصفحة الوحيدة
المتبقية من
البيان الشيوعي
الأصلي تعود
للعام ١٨٤٧

بلدان العالم الثّالث، حاجج هؤلاء الاقتصاديّون بأنّ رأس المال فَقَدَ جَيَشانه قبل أن يتوسّع خارج نطاق «متروبّوله» [حاضرته] في أوروبا، وأميركا، واليابان.

يطلقون إدانات حادة لأعراض المرض (تفاوت الدخل) بينما يتجاهلون الأسباب (الاستغلال الناشئ عن حقوق الملكية غير المتساوية على الآلات. والأرض. والموارد).

كانوا محقّين من الناحية الإمبريقيّة: فالشركات متعدّدة الجنسيّات الأوروبيّة، والأميركيّة، واليابانيّة التي كانت تعمل في «هوامش» أفريقيا، وآسيا وأميركا اللاتينيّة كانت تُكيّف نفسها مع دور مستخلصي الموارد الكولونياليّة من دون أن تنجح في نشر الرأسماليّة هناك. وبدلاً من إشباع تلك البلدان بالتّنمية الرأسماليّة (حيث تجرّ [البرجوازيّة] «إلى تيّار الحضارة، حتى أشدّ الأمم همجيّةً»)، حاججوا بأنّ رأس المال الأجنبيّ يعيد إنتاج تنمية التخلّف في العالم الثّالث. بدا وكأنّ البيان تعامل بقدر كبير من الإيمان حيال قدرة رأس المال على التغلغل في كلّ زاويةٍ وشقّ. وشكّك معظم الاقتصاديّين، بمن فيهم أولئك الميّالون إلى ماركس، بنبوءة البيان بأنّ «استغلال السوق العالميّة» سيُسبغ «طابعاً عالميّاً لإنتاج جميع البلدان واستهلاكها» .

وكما تبيَّن لاحقاً، كان البيان على حقّ، وإنْ كان هذا الإدراك قد تأخّر. إذ تطلّب الأمر انهيار الاتّحاد السوفياتيّ ودخول مليارَيْ عامل صينيّ وهنديّ في سوق العمل الرأسماليّة قبل أن تتأكّد النّبوءة. وفي واقع الحال، ومن أجل تعولم رأس المال كلياً، كان على البلدان التي أخلصت في ميلها إلى البيان أن تتمزّق إرباً أوّلاً. هل قدّم التاريخ مفارقةً أكثر إبهاجاً؟

سيُفاجأ كلُّ مَنْ يقرأ البيان اليوم باكتشاف صورةٍ عن عالم يماثل عالمنا، يتأرجح بشكل مرعب على شفا الابتكار التكنولوجيّ. في زمن البيان، كان القطار البخاريّ هو مصدر التحدّي الأخطر أمام إيقاع الحياة الإقطاعيّة وروتينها. جُرف الفلّاحون إلى تروس هذه الآلة وعجلاتها، ونتأت طبقة جديدة من السّادة، أصحاب المصانع والتجّار، وانتزعت سلطة المجتمع من أيدي أعيان ملّاك الأرض. وإنّ الذكاء الاصطناعيّ والأتمتة هما ما يشكّل مصدر الخطر المُدمِّر الآن، حيث ينذران باكتساح «العلاقات الاجتماعيّة التقليديّة والباهتة كلّها» . إذ إنّ «التّثوير المستمرّ ... لأدوات الإنتاج» ، كما يصرّح البيان، سيولّد «تثويراً دائماً للإنتاج، وزعزعةً متواصلة للنّظام الاجتماعيّ كلّه، واضطراباً وقلقاً متجدِّدَيْن».

وعلى أيّة حال، ينبغي أن يُحتفى بهذا الاضطراب، تبعاً لماركس وإنغلز. إذ سيكون هذا الاضطراب بمثابة محفِّز للدفعة الأخيرة التي تحتاج إليها البشريّة من أجل الإطاحة بانحيازاتنا المتبقّية التي تُعزّز الانقسام الهائل بين مَنْ يمتلكون الآلات ومَنْ يصمّمونها، ويشغّلونها ويعملون بوساطتها. «كلُّ ما كان مكيناً ومستقرّاً يتطاير هباءً منثوراً، وكلّ ما كان مقدّساً يغدو مدنّساً،» كما يكتبان في البيان عن أثر التكنولوجيا، «وأخيراً يُضطرّ النّاس إلى فحص شروط حياتهم وعلاقاتهم المتبادلة بأعينٍ صاحية» . من خلال الإطاحة العنيفة بتصوّراتنا المسبقة ويقينيّاتنا الزائفة، سيرغمنا التغيّر التكنولوجيّ، وسط تخبّطاتنا وصراخنا، على مواجهة مدى رثاثة علاقاتنا المتبادلة.

واليوم، نرى ملايين الكلمات، الورقيّة والإلكترونيّة، التي تُستخدَم لمساجلة مناوئي العولمة. ففي غمرة احتفائهم بالكيفيّة التي نقلت فيها العولمة مليارات النّاس من الفقر المدقع إلى الفقر النسبيّ، تتفجّع كبريات الصحف الغربيّة، والشخصيّات الهوليوديّة، ومقاولو «وادي سيليكون» ، والأساقفة، بل وحتّى ملياردير ات الرأسماليّين حيال بعض عواقبها غير المستساغة: التفاوت الذي لا يُطاق، الجشع الفاحش، التغيّر المناخيّ، واختطاف ديمقراطيّاتنا البرلمانيّة على يد المصرفيّين وأثرى الأثرياء.

عالم يشبه عالمنا

لا ينبغي لأيٍّ من هذا أن يفاجئ قارئ البيان. «فالمجتمع كلّه،» كما يحاجج البيان، «آخذٌ في الانقسام أكثر فأكثر إلى معسكرَيْن كبيرين متعاديين، إلى طبقتين كبيرتين متناحرتين» . ومع مَكْننة الإنتاج، وحين يصبح هامش ربح أصحاب الآلات هو القوّة الدافعة لحضارتنا، سينقسم المجتمع إلى مُلّاك غير عاملين وعمّال بأجر غير ملّاكين. أمّا الطبقة الوسطى، فهي الديناصور في الغرفة، الجاهز للانقراض.

وفي الوقت ذاته، سيصبح أثرى الأثرياء مُطوَّقين بالذُّنب ومشدودي الأعصاب وهم يشاهدون حيوات الآخرين كلّهم تغرق في هشاشة أجر العبوديّة الذي لا يوفّر أماناً. استشرف ماركس وإنغلز أنّ هذه الأقلّية شديدة القوّة ستكشف في نهاية المطاف عن «عدم أهليّتها للحُكم» في مثل هذه المجتمعات المُستقَطبة،

لأنّهم لن يكونوا في موقع يضمن لهم أن تكون عبوديّة الأجر وجوداً يمكن الاعتماد عليه. مُحصَّنين داخل أسوار جماعتهم، سيجدون أنفسهم وقد التهمهم القلق، عاجزين عن الاستمتاع بثرواتهم. وبعضهم، ممّن يكونون أذكياء بما يكفي لإدراك مصلحتهم الذاتيّة على المدى البعيد، سيكتشفون أنّ دولة الرّفاه هي أفضل سياسة ضمان متوافرة. ولكن من طبيعتهم، بكلّ أسف - كما يشير البيان - أن يقتّروا في زيادة الضّمان، وسيعملون بكلّ طاقتهم على التملّص من دفع الضّرائب المُستَحَقّة.

أليس هذا ما تبيَّن حقاً؟ أثرى الأثرياء ثلّة لا تشعر بالأمان ومستاءة على الدّوام، وما حياتها إلّا دخول إلى مصحّات معالجة الإدمان والخروج منها، حيث يسعَون بلا هوادة إلى ابتغاء المؤاساة من الأطبّاء النفسيّين، والمعالجين، وتجّار الخبرات الروحيّة. وفي الوقت ذاته، يكافح الجميع من أجل تأمين لقمة العيش، ودفع رسوم التّعليم، واستبدال بطاقة مصرفيّة بأخرى تفادياً للإفلاس. نتصرّف كما لو أنّ حيواتنا هانئة، مدّعين أنّنا نحبّ ما نفعل ونفعل ما نحبّ. ولكن في الحقيقة، نغرق في البكاء إلى أن يغلبنا النوم.

أمّا ردّ فعل المصلحين الطوباويّين، وسياسيّي الأنظمة، واقتصاديّي الإنقاذ الأكاديميّين كلّهم حيال هذه العلّة فهو ذاته، حيث يُطلقون إدانات حادّة لأعراض المرض (تفاوت الدّخل) بينما يتجاهلون الأسباب (الاستغلال الناشئ عن حقوق الملكيّة غير المتساوية على الآلات، والأرض، والموارد). وهل ثمّة ما يدعو إلى التعجّب في أنّنا في مأزق، نتخبّط بيأس لا يخدم إلا الشعبويّين الساعين إلى اجتذاب أسوأ غرائز الجماهير؟

مع التّصاعد السريع للتكنولوجيا المتطوّرة، نقترب أكثر من اللحظة التي لا بدّ لنا فيها من اتّخاذ قرار بشأن كيفيّة التعامل في ما بيننا بطريقة متحضّرة عقلانيّة. لم يعد بوسعنا الاختباء خلف فكرة حتميّة العمل والقواعد الاجتماعيّة المتعسّفة التي تستلزمنها. ويمنح البيان لقارئه في القرن الحادي والعشرين فرصةً لتبيّن طريقه وسط هذه الفوضى ولإدراك ما يجب فعله بحيث تتمكّن الأغلبيّة من التملّص من الاستياء كي تدخل في توافقات اجتماعيّة جديدة يكون «التطوّر الحرّ لكلّ فرد فيها شرطاً للتطوّر الحرّ لجميع الأفراد» . وبرغم أنّه لا يمتلك خارطة طريق تبيّن كيفيّة بلوغ تلك الغاية، يبقى البيان مصدرَ أملٍ لا ينبغي تجاهله.

إذا كان البيان يمتلك اليوم القوّة ذاتها في تحريضنا، وتثويرنا، وإحراجنا كما كان عام ١٨٤٨، فهذا يعود إلى أنّ الصراع بين الطبقات الاجتماعيّة قديم قدَم الزّمان بذاته. وقد أوجز ماركس وإنغلز لنا هذا في ١٣ كلمة جَسورة[٥]: «ليس تاريخ كلّ مجتمع إلى يومنا هذا سوى تاريخ صراع الطبقات».

العولمة تؤكّد التوقّعات

من الأرستقراطيّات الإقطاعيّة إلى الإمبراطوريّات الصناعيّة، لطالما كان محرّك التاريخ هو النّزاع بين التقنيّات دائمة التّثوير وبين الأعراف الطبقيّة السائدة. مع كلّ اختلال في تكنولوجيا المجتمع، يغيّر النّزاعُ بيننا شكله. تموت الطبقات القديمة ولا تتبقّى في نهاية الأمر إلا طبقتان: طبقة من يملكون كلّ شيء وطبقة ما لا يملكون شيئاً - البرجوازيّة والبروليتاريا.

هذه هي العلّة التي نواجهها اليوم. وفيما ندين للرأسماليّة باختزالها للتّمايزات الطبقيّة كلّها إلى هوّة بين من يملكون ومن لا يملكون، يريد منّا ماركس وإنغلز أن ندرك أنّ الرأسماليّة ليست متطوّرة على نحوٍ يؤهّلها للنّجاة من التكنولوجيات التي تنتجها. وواجبُنا هو تحطيم الفكرة القديمة المتعلّقة بالملكيّة الخاصّة لوسائل الإنتاج وإحداث تحوّل يجب أن يتضمّن ملكيّة مجتمعيّة للآلة، والأرض، والموارد. عندما يُطلَق العنان للتقنيّات الجديدة في مجتمعات محكومة بتعاقدات العمل البدائيّة، سيعمّ البؤس بالنتيجة. وتبعاً لكلمات البيان العصيّة على النّسيان: «فالمجتمع الذي أنشأ وسائل إنتاج وتبادل جبّارة، يشبه السّاحر الذي لم يعد يعرف كيف يتحكّم في الشياطين التي استحضرها» .

سيتصّور الساحر دوماً أنّ تطبيقاته، ومحرّكات بحثه، والروبوتات وبذوره المُنتَجة بالهندسة الوراثيّة ستجلب الثّراء والسعادة للجميع. ولكن، حالما تنطلق إلى مجتمعات مقسومة بين عمّال بأجر وملّاك، ستدفع هذه العجائب التكنولوجيّة الأجور والأسعار إلى مستويات لن تحقّق إلّا ربحاً ضئيلاً في معظم الأعمال. ولن تستفيد فعليّاً إلّا شركات التكنولوجيّا الكبرى، وشركات الأدوية الضخمة، وشركاتٍ أخرى قليلة تُمسك بمقاليد سلطة سياسيّة واقتصاديّة هائلة جدّاً مسلَّطة فوق رؤوسنا. وإذا واصلنا الالتزام بعقود العمل بين موظِّف وموظَّف، ستكون لحقوق الملكيّة الخاصّة اليد الطّولى وستجرّ رأس المال إلى نهايات لاإنسانيّة. فقط من خلال إنهاء الملكيّة الخاصّة لوسائل الإنتاج الجماعيّ واستبدالها بنمطٍ جديد من الملكيّة الجماعيّة تعمل بالتّوافق مع التقنيّات الجديدة، سوف نخفّف التفاوت ونجد السعادة الجمعيّة.

وفقاً لنظريّة ماركس وإنغلز عن التاريخ بكلماتها الـ١٣، فإنّ التّباعد الحاليّ بين العامل والمالك كان مضموناً طوال الوقت. هما «أمران حتميّان» ، كما يصرّح البيان، «سقوط البرجوازيّة وانتصار البروليتاريا» . حتى الآن، لم يُحقّق التاريخ هذه النبوءة، ولكن يتناسى النقّاد أنّ البيان، مثل أيّ بيان بروباغندا مهمّ آخر، يمنح الأمل في نبرة اليقين. وكما أنّ اللورد نلسن[٦] استقطب جنوده قبل معركة ترافلغار بإعلانه أنّ إنكلترا «ترقّبت» منهم أن يؤدّوا واجبهم (حتى وإنْ كان لديه شكوك كبيرة بأنّهم سيفعلون)، منح البيان للبروليتاريا الترقّب بأنّهم سيؤدّون واجبهم تجاه أنفسهم، مُلهماً إيّاهم كي يتّحدوا ويحرّر أحدهم الآخر من قيود عبوديّة الأجر.

ماركس وإنغلز كانا سيندمان لأنهما لم يتوقعا أثر البيان على الأحزاب الشيوعية التي بشر بظهورها. كانا سيقرعان نفسيهما لأنهما تجاهلا نمط الديالكتيك الذي كانا يعشقان تحليله: كيف ستصبح دول العمال شمولية على نحو متزايد بفعل ردة فعلها على عدوان الدولة الرأسمالية.

هل سيفعلون؟ بحسب الظروف الحاليّة، يبدو الأمر مُستبعَداً. ولكن، مرّة أخرى، كان علينا أن ننتظر ظهور العولمة في التسعينيّات قبل أن يُتأكَّد تماماً من صحّة توقّع البيان بشأن إمكانات رأس المال. أمّا من احتمال أنّ هذه البروليتاريا ذات الوضع متزايد الهشاشة تحتاج إلى مزيدٍ من الوقت قبل أن يكون بمقدورها لعب الدّور التاريخيّ الذي ترقّبه البيان؟ بما أنّ هيئة المحلّفين لا تزال مجتمعة خارج المحكمة، يقول لنا ماركس وإنغلز إنّنا، إذا خشينا خطاب الثورة، أو حاولنا تشتيت أنفسنا عن واجب كلٌّ منّا تجاه الآخر، سنجد أنفسنا أسرى لولبٍ مُدوِّخ يتمكّن فيه رأس المال من إغراق الروح البشريّة وإضعافها. أمّا الأمر الوحيد الذي يمكننا أن نكون واثقين منه، بحسب البيان، فهو أنّنا سنبقى خاضعين لتطوّرات دستوبيّة، ما لم يُؤمَّم رأس المال.

سيغمر الجذلُ القارئ المتشكّك، على ذكر الدستوبيا: ماذا عن تورّط البيان بذاته في شرعنة الأنظمة التسلّطيّة وتقوية روح حرّاس الغولاغ وبدلاً من الرّدّ بنبرة دفاعيّة، عبر الإشارة إلى أنّ لا أحد يلوم آدم سميث على تطرّفات وول ستريت، أو العهد الجديد على محاكم التفتيش الإسبانيّة، بإمكاننا تخمين كيف يمكن لمؤلّفَيْ البيان أن يردّا على هذه التّهمة. أظنّ، وبفضل إمكانيّة الإدراك المتأخّر، أنّ ماركس وإنغلز سيقرّان بوجود خطأ مهمّ في تحليلهما: الانعكاسيّة غير الكافية. بمعنى أنّهما أخفقا في تقديم فكرة كافية، والتزما بصمت حصيف، حيال التأثير الذي سيملكه تحليلهما على العالم الذي كانا يحلّلانه.

أين أخفق «البيان»؟

روى البيان قصّة مؤثّرة بلغةٍ حازمة، كان يُراد منها تحفيز القرّاء من فتورهم. وما أخفق ماركس وإنغلز في استشرافه هو أنّ النّصوص التوجيهيّة القويّة تميل إلى اجتذاب مريدين، مؤمنين - بل وحتّى الكهنوت - وأنّ هؤلاء المُخْلصين قد يستخدمون السلطة الممنوحة لهم من جانب البيان لمصلحتهم الشخصيّة. وقد يستخدمونها للإساءة إلى رفاقٍ آخرين، ولتشييد قاعدة سلطة خاصّة بهم، ولكسب مواقع تأثير، ولاجتذاب مبتدئين قابلين للتأثّر، وللسّيطرة على المكتب السياسيّ وسَجن كلّ مَنْ يعارضهم.

وكذلك، أخفق ماركس وإنغلز في تخمين مقدار تأثير كتاباتهما على الرأسماليّة بحدّ ذاتها. بفعل الدرجة الكبيرة التي ساهم فيها البيان في قولبة الاتحاد السوفياتيّ، ودوله التابعة في شرق أوروبا، وكوبا كاسترو، ويوغوسلافيا تيتو، وعدّة حكومات ديمقراطيّة اجتماعيّة في الغرب، ألم تكن هذه التطوّرات ستسبّب سلسلة من ردود الأفعال التي ستُثبط نبوءات البيان وتحليلاته؟ بعد الثورة الروسيّة ومن ثمّ الحرب العالميّة الثانية، أرغم الخوفُ من الشيوعيّة الأنظمةَ الرأسماليّةَ على اعتناق خطط المعاشات التقاعديّة، وخدمات الصّحّة العامّة، بل وحتى فكرة إرغام الأثرياء على الدّفع للفقراء ودخول طلّاب البرجوازيّة الصغيرة إلى الجامعات الليبراليّة المُصمَّمة لهذا الغرض. وفي هذه الأثناء، تسبّبَ العداء المتسارع حيال الاتّحاد السوفياتيّ برفع منسوب البارانويا وبخلق مناخٍ من الخوف كشف عن خصوبةٍ بعينها أفضت إلى ظهور شخصيّات مثل يوسف ستالين وبول بوت.

أجزم أنّ ماركس وإنغلز كانا سيندمان لأنّهما لم يتوقّعا أثر البيان على الأحزاب الشيوعيّة التي بشّر بظهورها. كانا سيقرّعان نفسيهما لأنّهما تجاهلا نمط الديالكتيك الذي كانا يعشقان تحليله: كيف ستصبح دول العمّال شموليّةً على نحوٍ متزايد بفعل ردّة فعلها على عدوان الدولة الرأسماليّة، وكيف ستعمد تلك الدول الرأسماليّة، في غمرة ردّة فعلها على الخوف من الشيوعيّة، إلى أن تصبح متحضّرةً على نحوٍ متزايد.

وبالطبع، طوبى للمؤلّفين الذين تنشأ أخطاؤهم عن قوّة كلماتهم. بل وطوبى أكثر لمَنْ تُصحّح أخطاؤهم ذاتها. في عصرنا الحاليّ، لم يعد هناك وجود تقريباً لدول العمّال التي استلهمت البيان، أمّا الأحزاب الشيوعيّة فقد تفكّكت أو ضلّت. وإثر تحرّرها من منافسة الأنظمة التي استلهمت البيان، باتت الرأسماليّة المعولمة تتصرّف كما لو أنّها منذورةٌ لخلق عالم شرحه البيان خير شرح.

حلقة التكنولوجيا الرهيبة

وما يجعل البيان مصدر إلهام فعليّاً اليوم هو توصيته لنا هنا والآن، في عالم تُصاغ فيه حيواتنا دوماً بفعل ما وصفها ماركس في مخطوطاته الاقتصاديّة والفلسفيّة الأولى بكونها «طاقةً [كوزموبوليتيّة] عالميّة تُطيح بكلّ تقييدٍ وكلّ آصرة، بحيث تكرّس نفسها بوصفها السياسة الوحيدة، العالميّة الوحيدة، التّقييد الأوحد، الآصرة الوحيدة»[٧]. من سائقي شركة «أوبر» ووزراء الماليّة إلى مديري البنوك التنفيذيّين والفقراء المعوزين، يمكن أن نُعذَر كلّنا لأنّنا نستشعر وطأة هذه «الطاقة» . مدى الرأسماليّة نافذٌ جدّاً إلى درجة أنّه يبدو أحياناً وكأنّ من المستحيل تخيّل وجود عالمٍ من دونها. ولا يفصل بين الشّعور بالعجز وبين الوقوع ضحايا للجزم بعدم وجود بديل إلّا خطوة صغيرة وحسب. ولكن، وعلى نحو مدهش (كما يدّعي البيان)، في اللحظة التي نوشك فيها على الاستسلام لسطوة هذه الفكرة، تتوافر البدائل.

ما لا نحتاج إليه في هذا الوضع هو العظات عن ظلم كلّ ما يحدث، وشجب التفاوت المتصاعد أو سهرات التفجّع على سيادتنا الديمقراطيّة المتلاشية. كما لا ينبغي لنا تحمُّل التصرّفات اليائسة لأصحاب نزعة التهرّبيّة النّكوصيّة: الدعوة إلى العودة إلى حالة قبل - حديثة، قبل - تكنولوجيّة يمكننا فيها الارتماء في حضن القوميّة. ما يروّج له البيان في لحظات الشكّ والاستسلام هو تقييم موضوعيّ واعٍ للرأسماليّة وعلَلها، تحت ضوء العقلانيّة الصّارم البارد.

يحاجج البيان بأنّ مشكلة الرأسماليّة ليست في أنّها تنتج قدراً كبيراً من التكنولوجيا، أو في أنّها جائرة. مشكلة الرأسماليّة هي في كونها لاعقلانيّة. إذ إنّ نجاح رأس المال في نشر مداه من خلال التّراكم من أجل التّراكم يدفع العمّال البشر إلى العمل كالآلات مقابل أجر زهيد، بينما تُبرمَج الروبوتات لتنتج أشياء لم يعد في قدرة العمّال تحمّل ثمنها، ولا تحتاج إليها الروبوتات.


Manifest

der

Kommunistischen Partei.

Veröffentlicht im Februar 1848.

Proletarier aller Länder vereinigt Euch!

London.

Gedruckt in der Office der „Bildungs-Gesellschaft für Arbeiter" von J. E. Burghard.

46, Liverpool Street, Bishopsgate.

❖
غلاف أول طبعة من البيان الشيوعي، ١٨٤٨

يُخفق رأس المال في الاستثمار العقلانيّ للآلات الذكيّة التي يُنتجها، مهدّداً أجيالاً كاملة بالحرمان، وببيئةٍ هرمة، وببطالة، وبانتفاء أيّة درجة من الراحة بفعل الركض خلف فرص العمل والنّجاة عموماً. وحتّى الرأسماليّون يتحوّلون إلى آلات بشريّة يغمرها القلق. يعيشون في حالة خوف دائم من أنّهم إذا لم يسلّعوا البشر الآخرين، لن يعودوا رأسماليّين - إذ سينضمّون إلى الصّفوف الكئيبة للبروليتاريا-البريكاريا المتزايدة[٨].

إذا كانت الرأسماليّة تبدو جائرة فهذا لأنّها تستعبد الجميع، أثرياء وفقراء، وتهدر الموارد البشريّة والطبيعيّة. وإنّ «خطّ الإنتاج» ذاته الذي يضخّ ثروة لا تُقدَّر يتسبّب أيضاً بتعاسة وسخط شديدَين في الميزان الصناعيّ. ولذا، فإنّ واجبنا الأول - وفقاً للبيان - هو إدراك نزعة هذه «الطاقة» السّاحقة بهدف تقويضها.

رأس المال ضدّ رأس المال

حين يسألني الصحافيّون مَنْ / أو ما مصدر التهديد الأكبر الذي يحيق بالرأسماليّة اليوم، أواجه توقّعاتهم بالردّ: رأس المال! وبالطبع، تلك فكرة انتحلتُها طوال عقود من البيان. بما أنّ من غير الممكن أو المستحبّ إبطال «طاقة» الرأسماليّة، تكمن الخدعة في المساعدة على تسريع تطوّر رأس المال (بحيث يحترق مثل مذنّب يخترق الغلاف الجويّ)، مع الاستمرار، من جهة أخرى، في المقاومة (عبر الفعل العقلانيّ الجمعيّ) ضدّ نزعته في هرس الروح البشريّة. باختصار، يوصينا البيان بوجوب دفع رأس المال حتى أقصى حدوده بالتّزامن مع تحجيم عواقبه والتّحضير لتأميمه.

إذا كانت الرأسمالية تبدو جائرة فهذا لأنها تستعبد الجميع. أثرياء وفقراء. وتهدر الموارد البشرية والطبيعية. كما أن «خط الإنتاج» ذاته الذي يضخ ثروة لا تقدر يتسبب بتعاسة وسخط شديدين في الميزان الصناعي.

نحن بحاجة إلى روبوتات أكثر، وألواح شمسيّة أفضل، ووسائل تواصل فوريّة، وشبكات نقل خضراء متطوّرة. ولكن بالقدر ذاته، نحن بحاجة إلى الاتنظام سياسيّاً للدفاع عن الضعيف، ولتقوية الأغلبيّة، وتهيئة الأرض من أجل قلب عبثيّات الرأسماليّة. وبمفردات عمليّة، هذا يعني التّعامل مع الفكرة القائلة بعدم وجود بدائل بالازدراء الذي تستحقّه مع رفض جميع الدّعوات إلى «عودة» لوجودٍ أقلّ حداثة. ما من شيء أخلاقيّ كان يميّز الحياة في ظلّ أشكال الرأسماليّة الأولى. وينبغي للمسلسلات التلفزيونيّة التي تستثمر بقوّة في نوستالجيا محسوبة، مثل داونتن آبي[٩]، أن تدفعنا إلى الإحساس بالسّعادة لأنّنا نعيش حين نعيش. وفي الوقت ذاته، قد تشجّعنا أيضاً على كبح مُسرِّع التغيير.

البيان هو أحد تلك النّصوص المؤثّرة التي تتحدّث إلى كلٍّ منّا على نحوٍ مختلف في ازمنةٍ مختلفة، بحيث تعكس ظروفنا. منذ بضع سنوات، دعوتُ نفسي ماركسيّاً ليبرتاريّاً ضالّاً وتعرّضت للنقد بحدّة من جانب الماركسيّين وغير الماركسيّين على السّواء. وبعد فترة وجيزة، وجدتُ نفسي مُقحَماً في منصب سياسيّ له بعض الأهميّة [وزيراً للماليّة]، خلال فترة نزاع حادٍّ بين الحكومة اليونانيّة آنذاك وبين بعض أقوى رموز الرأسماليّة. كانت إعادة قراءة البيان من أجل كتابة هذه المقدّمة تشبه بعض الشيء استحضار شبحَيْ ماركس وإنغلز كي يطلقا صيحةً بمزيجٍ من التّقريع والدّعم في أذني.

«بالغون في الغرفة»[١٠]، هو عنوان مذكّراتي عن الفترة التي عملتُ فيها وزيراً للماليّة في اليونان عام ٢٠١٥، تروي كيف سُحق الربيع اليونانيّ بفعل تضافر قوّة وحشيّة (على يد دائني اليونان) وجبهةٍ منقسمة داخل حكومتي. وقد رويتها بأصدق وأدقّ ما في وسعي. ومن وجهة نظر البيان، على أيّة حال، اختُزل دور الفاعلين التاريخيّين إلى أدوار كومبارس أو دور ضحايا شبه سلبيّين. «أين البروليتاريا في قصّتك؟» أكاد أسمع ماركس وإنغلز يصرخان في وجهي الآن. «ألا يجدر بهم أن يكونوا هم مَنْ يجابهون أقصى قوى الرأسماليّة، وأنت تدعمهم من الأطراف؟» .

لحسن الحظّ، قدّمتْ لي إعادة قراءة البيان بعض السّلوان أيضاً، حيث عزّز رؤيتي حياله بكونه نصّاً ليبراليّاً - بل ليبرتاريّاً حتّى. حين يقرّع البيان الفضائل البرجوازيّة - الليبراليّة، فإنّه يفعل هذا مدفوعاً بإخلاصه بل وحبّه لها. سعادة الحريّة، الاستقلال، الفرديّة، الروحانيّة، التطوّر الذاتيّ، مُثلٌ كان ماركس وإنغلز يُجلّانها فوق أيّ شيء آخر. وإنْ كانا غاضبين من البرجوازيّة، فهذا لأنّ البرجوازيّة تسعى إلى حرمان الأغلبيّة من فرصة التحرّر. وفي ضوء مناصرة ماركس وإنغلز لفكرة هيغل العجيبة القائلة إنّ المرء لن يكون حرّاً مادام ثمّة شخصٌ يرزح

تحت القيود، فإنّ دافع سجالهما مع البرجوازيّين هو أنّهم يضحّون بحريّة كلّ شخص وفرديّته على مذبح التّراكم الخاصّ بالرأسماليّة.

ومع أنّ ماركس وإنغلز لم يكونا أناركيَّيْن، إلا أنّهما كانا يمقتان الدولة وإمكانيّة وقوعها أسيرة تلاعب إحدى الطّبقات لإخضاع طبقة أخرى. ولم يرياها، في أفضل الأحوال، إلّا شرّاً لا بدّ منه سيعيش في المستقبل الجميل مابعد الرأسماليّ بالتّوافق مع مجتمع بلا طبقات. إذا كانت هذه القراءة للبيان صحيحةً، فإنّ الطريق الوحيدة في أن تكون شيوعيّاً هي في أن تكون ليبرتاريّاً. وفي الواقع، فإنّ احترام صيحة البيان «اتّحدوا!» لا يتناغم مع أن نكون ستالينيّين حزبيّين أو مع السعي إلى إعادة تشكيل العالم في صورة أنظمة شيوعيّة ماتت.

تلازم السعادة والحرّيّة

وبعدما قيل كلّ شيءٍ وفُعل، ما مغزى البيان إذن؟ ولمَ ينبغي لأيّ شخص، شباب اليوم على الأخصّ، أن يكترث حيال التاريخ، والسياسة، وما شابههما؟

أسَّس ماركس وإنغلز بيانهما على إجابة بسيطة إلى درجةٍ آسرة: السعادة البشريّة الفعليّة والحريّة الأصيلة التي يجب أن تُلازمها. بالنّسبة إليهما، هذان هما الشيئان المهمّان فعلاً. لم يستند بيانهما إلى استحضارات جرمانيّة صرفة للواجب، أو إلى اللجوء إلى المسؤوليّات التاريخيّة التي تُلهمنا كي نفعل. إنّه لا يقدّم مواعظ أخلاقيّة، أو يشير بإصبعه مُتّهماً. حاول ماركس وإنغلز تجاوز ثوابت الفلسفة الأخلاقيّة الألمانيّة ودوافع الربح الرأسماليّة من خلال عودةٍ عقلانيّة، ومحرّضةٍ في آن، إلى جوهر أساسات طبيعتنا البشريّة المشتركة.

وفي جوهر تحليلهما نجد تلك الهوّة دائمة التوسّع بين مَنْ ينتجون ومَنْ يمتلكون وسائل الإنتاج. تكبحنا الصِّلة الوثيقة بين رأس المال والعمل المأجور عن الاستمتاع بعملنا وبأدواتنا، وتُحوِّل أصحاب العمل والعمّال، الأثرياء والفقراء، إلى بيادق مرتعدة غافلة مدفوعة إلى وجود عبثيّ على يد قوى نعجز عن كبحها.

ولكن لمَ نحتاج إلى السياسة كي نتعامل مع هذا؟ أليست السياسة مُسفِّهةً، وبالأخص السياسة الاشتراكيّة التي ادّعى أوسكار وايلد يوماً بأنّها «تستغرق أمسيات كثيرة جدّاً» ؟[11]. وإجابة ماركس وإنغلز هي: لأنّنا عاجزون عن إنهاء هذه البلاهة بمفردنا، بسبب عدم وجود سوق يمكنها أن تظهر وتُنتج ترياقاً لهذه الحماقة. الفعل السياسيّ الديمقراطيّ الجمعيّ هو فرصتنا الوحيدة لبلوغ الحريّة والمتعة. ومن أجل هذا، تبدو الليالي الطويلة ثمناً ضئيلاً ندفعه.

قد تنجح البشريّة في تأمين توافقات اجتماعيّة تُفضي إلى أن يكون «التطوّر الحرّ لكلّ فرد فيها» هو «الشرط للتطوّر الحرّ لجميع الأفراد» . ولكن، مرّة أخرى، قد ينتهي بنا الأمر إلى «دمار جماعيّ» بفعل حرب نوويّة، أو كارثة بيئيّة أو استياء قاتل. ما من ضمانات في لحظتنا الحاليّة. بإمكاننا اللجوء إلى البيان من أجل الإلهام، والحكمة، والطاقة، ولكن في نهاية المطاف ستكون النّتيجة بأيدينا نحن.

الهوامش

١ صفة «إنكليز» هنا غامضة، لأنّ الحزب الذي فوّض ماركس وإنغلز بكتابة البيان ليس إنكليزيّاً، بل هي رابطة الشيوعيّين [أو الرابطة الشيوعيّة]. Bund der Kommunisten، وهي تنظيم شيوعيّ أمميّ يضمّ شيوعيّين أوروبيّين من جنسيّات عديدة، وإن كان أبرز أعضائها من الألمان.. أمّا السمة الإنكليزيّة هنا فلا تعدو مكان تأسيس الرابطة في لندن. [حواشي المقال كلّها للمترجم].

٢ اقتباسات البيان الشيوعي هي من ترجمة العفيف الأخضر (منشورات الجمل، ٢٠١٥ [١٩٧٥])، وهي أدقّ الترجمات العربيّة للبيان.

٣ «أقاسي مقالب القَدَر وسهامه» و«أمُّ أشهر السّلاح»، عبارتان من مناجاة هاملت الشّهيرة التي تبدأ بـ «أكون أو لا أكون». الفصل ٣، المشهد ١، من مسرحيّة هاملت لشيكسبير.

٤ المفردة المستخدمة في البيان هي «البرجوازيّة»، ولكنّ فاروفاكيس يستبدلها بـ «رأس المال»: «فلا بدّ للبرجوازيّة من أن تُعشّش ...». وكذلك الأمر في الاقتباسات التالية.

٥ كلمة في الترجمة العربيّة.

٦ هوريشيو نلسن Horatio Nelson (١٧٥٨ - ١٨٠٥): نائب أدميرال في البحريّة البريطانيّة.كان قائد الأسطول البريطانيّ في معركة ترافلغار (تشرين الأول / أكتوبر ١٨٠٥) التي انتصرت فيها بريطانيا على تحالف الأسطولين الفرنسيّ والإسبانيّ. أصيب نلسن برصاصة في تلك المعركة، وفارق الحياة.

٧ الاقتباس من كتاب ماركس المخطوطات الاقتصاديّة والفلسفيّة لعام ١٨٤٤ ، وهو أوّل عمل حاول فيه ماركس تحليل الاقتصاد السياسيّ استناداً إلى الماديّة الديالكتيكيّة، ولكنّه تركه مخطوطاً وغير مكتمل بسبب انشغاله لاحقاً بأعمال أخرى. نُشر المخطوط للمرّة الأولى بالألمانيّة عن معهد الماركسيّة - اللينينيّة في موسكو عام ١٩٣٢. ترجمتُ الاقتباس بعد مراجعته على الترجمة الإنكليزيّة «المعتمدة» في المجلد الثالث من أعمال ماركس وإنغلز المجمّعة.
Marx and Engels Collected Works (50 vols.), Vol. 3, *Marx and Engels 1843 - 1844*, London: Lawrence and Wishart, 1975, p. 291.

٨ البريكاريا Precariat: طبقة البروليتاريا الجديدة من المتعلّمين الذين يعانون بطالة كاملة أو جزئيّة ضمن ظروف هشّة مستمرّة قد تدفع بهم إلى التطرّف.

٩ داونتن آبي Downton Abbey: مسلسل بريطانيّ عُرض بين عامي ٢٠١٠ - ٢٠١٥، ويتناول قصة عائلة أرستقراطيّة وخدمها في مدينة يوركشير المتخيَّلة بين عامي ١٩١٢ - ١٩٢٦.

١٠ «بالغون في الغرفة: معركتي ضدّ المؤسسة الأوروبيّة [والأميركيّة] العميقة» (أُضيفت كلمة الأميركيّةفي الطبعة الأميركيّة للكتاب).
Adults in the Room: My Battle against Europe's (and American) Deep Establishment (London:Bodley Head, 2017).

١١ يُنسَب القول إلى وايلد، ولكن من دون مصدر واضح له. إذ تخلو مقالته الشّهيرة «روح الإنسان في ظل الاشتراكيّة» (١٨٩١) من هذا القول، أو ما يقاربه.

ماركس في «ربيع الشعوب» ١٨٤٨
بناء الحقل السياسي والتعلّم من الممارسة

فواز طرابلسي
مؤرّخ وكاتب، لبنان.

عندما اندلعت الثورات العربيّة العام ٢٠١١ ساد تشبيهُ لها في الصحافة والإعلام ومصانع الأفكار وحتى في العوالم الاكاديميّة الأوروبيّة والأميركيّة بثورات العام ١٨٤٨ في أوروبا. لا تستطيع المركزيّة الغربيّة أن تتمثّل ما هو خارجها إلّا بإعادته إلى ما يحيل إلى حياتها أو تاريخها أوثقافتها. صكّ الإعلام الغربيّ مصطلح «الربيع العربيّ» من وحي ثورات العام ١٨٤٨ التي سُمّيت «ربيع الشعوب». وما لبث الإعلام العربيّ ومعه قطاعٌ واسعٌ من الإنتلجنسيا أن اعتمد التسمية على الطريقة الببغاويّة كما هي العادة. غلبت التسمية أكانت من قبيل التبنّي أم التجريح، وانحصر «الربيع» بين مزدوجين إلى أن سقط منهما لتحوّله الفصاحةُ العربيّة إلى «خريف» و«شتاء». وفي الحالات كلّها لم يُفدنا التشبيه في دراسة تلك الثورة الأوروبيّة المرجعيّة ولم يزدْنا علماً بثوراتنا المحلّيّة وما كشفتْه عن حالة المجتمع والدولة أو عن أسبابها وآليّاتها وقواها ومساراتها وأنماط ردود الفعل عليها.

هذا لا يمنع أنّ دراسة ثورات العام ١٨٤٨ الأوروبيّة ذات فائدة لا يستهان بها بالنّسبة إلى انتفاضات العام ٢٠١١ العربيّة أقلّه لشمولها أكثر من بلد، وقيامها في مرحلة انتقاليّة من تاريخ تلك المجتمعات، وتعدّد القوى المنضوية فيها وتناقضها، وتضارب رؤاها وبرامجها ووسائلها، فضلاً عن مجابهتها الفوريّة بسلطات الأمر الواقع وقوى الردّة المضادّة للثّورة («الثورات المضادّة»).

«ربيع الشعوب» في فرنسا

هبّت رياح الحريّة على مدن أوروبا والأرياف مع إطلالة ذلك الربيع الذي سمّي «ربيع الشعوب». بدأت الانتفاضات بثورة أهالي باليرمو الإيطاليّة على حكم آل بوربون في ١٢ كانون الأول / ديسمبر. ولحقتْ بها باريس بعد شهر وكرّت المسبحة فلحقتْها ميلانو والبندقيّة ونابولي وفيينا وبراغ وبودابست وكراكاو وبرلين وكولن. تأثّر بها أكثر من خمسين بلداً وصولاً إلى البرازيل. تعدّدت العوامل التي أطلقت الثورات بقدْر ما تعدّدت الأهداف. أبرز عوامل تلك الانتفاضات النتائج الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة للثورات الصناعيّة - من بطالة وفقر وهجرة مدينيّة وظروف عمل قاهرة - والتوسّع الرأسماليّ الذي أخذ ينخر بنية الأنظمة الملكيّة الاستبداديّة ويطرح قضيّة توحيد الأسواق المحلّيّة.

الثورات في وجهٍ منها ثوراتٌ ديمقراطية تطالب بالملكيّات الدستوريّة أو بإعلان الجمهوريّة واعتماد الاقتراع العامّ وتأمين حريّة الصحافة والرأي والاجتماع. والثورات في وجهٍ آخر ثورات تحرّر وطنيّ ووحدةٍ قوميّة. عرفت المقاطعات الإيطاليّة والإمارات الألمانيّة والمجر وسويسرا وأيرلندة نزعات انفصاليّة كما في صقلية ضدّ حكم أسرة آل بوربون وفي المجر الساعية إلى الانفصال عن النمسا. في المقابل، جاءت الثورات في كلٍّ من ألمانيا وإيطاليا في سياق النضال من أجل تحقيق الوحدتين الألمانية والإيطاليّة بتجميع عدّة ممالك وإماراتٍ ومقاطعات. في أمكنةٍ أخرى، أخذ التيّار القوميّ شكل نزعات مركزيّة من مثل حركة إعادة تجميع الكانتونات السويسريّة في إطارٍ كونفدراليّ.

في الآن ذاته، اتّخذت الحركات الاجتماعيّة طابعاً لا يخلو من الحِدّة. انتشرت الانتفاضات الفلاحيّة المعادية للإقطاع ونجحت في إلغاء القنانة في النمسا وبروسيا في أواسط القرن. وأخيراً ليس آخراً قامت انتفاضاتٌ عمّاليّة في فرنسا وبلجيكا وبريطانيا، عبّرت عن ردود الفعل الأولى على التصنيع والرأسماليّة، وخرجتْ من صلبها تيّارات عماليّةٌ واشتراكيّةٌ لم تكن لتكتفي بالمطالبة



بتحسين مستوى معيشة العمّال وشروط عملهم بل دعتْ إلى تنظيم اجتماعيٍّ جديد قائم على الحريّة والمساواة. وعن حدّة الصراعات الاجتماعيّة والطبقيّة في «ربيع الشعوب» كتب الدبلوماسيّ والسياسيّ الفرنسيّ ألكسي دُ توكفيل، صاحب كتاب «الديمقراطيّة في أميركا»: «المجتمع منشطرٌ إلى شطرين هما: المحرومون يوحّدهم الحسد، والمالكون يوحّدهم الرّعب».

في فرنسا، التي سنركّز عليها في هذه الصفحات، انطلقتْ الشرارة من قرارٍ حكوميٍّ بمنع «حفلات الغداء السياسيّة» التي ابتكرتْها المعارضة للتّحايل على إلغاء حريّة الصحافة وتحريم الاجتماعات السياسيّة، فتحوّلت المطاعم إلى أندية لنقد النّظام والمطالبة بالإصلاح. انطلقتْ تظاهرات الاحتجاج في شوارع باريس يوم ٢٢ شباط / فبراير. هتف المتظاهرون بسقوط رئيس الوزراء غيزو وحاصروا قصره فاشتبكوا مع قوّات «الحرس الوطنيّ». سالت دماءٌ وارتفعت المتاريس في الأحياء. في اليوم التالي استقال غيزو فتوجّه المتظاهرون صوب مبنى وزارة الخارجيّة. أطلق الجيش النّار على المتظاهرين فسقط منهم خمسون قتيلاً. حاصرتْ جموعٌ هائجةٌ القصر الملكيّ، ففرّ لوي فيليب من قصره إلى إنكلترا.

كان الشاعر لامارتين أبرز شخصيّات الثورة. فهو الذي أعلن قيام الجمهوريّة أمام مبنى مجلس باريس البلديّ يوم ٢٤ شباط / فبراير. وهو الذي ترأس «الحكومة المؤقّتة» فصار الحاكم الفرد لفرنسا لثلاثة أشهرٍ على الأقلّ.

سعتْ ثورة ١٨٤٨ إلى تحقيق ما أجهضته ملكيّة لوي فيليب البرجوازيّة من أهداف ثورة ١٨٣٠. تحقّقتْ مكاسب فعليّة في الأشهر الأولى. زيد عدد الذين يحقّ لهم الترشّح والانتخاب إلى تسعة مَلايين ذكَر. وتفجّرت التعبيرات عن حريّة الرأي بصدور لا أقلّ من ٤٧٩ مطبوعة قبل أفول العام. وتكاثرت الجمعيّات الجمهوريّة والاشتراكيّة وتأسّستْ نقاباتٌ عمّاليّة وجمعيّات نسائيّة تطالب بحقّ النساء في الاقتراع أسوة بالرجال. وعلى الصعيد الاجتماعيّ، صدر في فرنسا أوّل تشريعٍ أوروبيّ يضمن «حقّ العمل» وافتتحت «الورشاتُ الوطنيّة» التي أمّنت العمل لأكثر من مئة ألف عاطلٍ من العمل في باريس وحدها، أدارها اليساريّون وشكّلت نماذج مصغّرة لمجتمع جديد قائمٍ على التعليم المجانيّ والضمانات الاجتماعيّة. وأنشئ «البرلمان الصناعيّ» برئاسة لوي بلان، ممثّل الطبقة العاملة في اللجنة التنفيذيّة للثورة، لتنظيم العلاقات بين الصناعيّين والعمّال، واتّخذ مقرّاً له في قصر اللوكسمبور.

٢٣ نيسان / أبريل. أسفرتْ انتخابات «المجلس الوطنيّ التأسيسيّ» عن مجلسٍ يهيمن عليه «حزب النظام» الملكيّ يجناحَيه، الليجيتيميّين (ممثّلي ملّاك الأرض الكبار) والأورليانيّين (ممثّلي الأرستقراطيّة الماليّة)، وانتهج المجلس سياساتٍ محافِظة رغم معارضة النواب الاشتراكيّين والجمهوريّين الراديكاليّين. ومع أنّ المعارضة في «الجمعيّة الوطنيّة»، فرضتْ على الثورة أن تعلن عن نفسها «جمهوريّةً ذات مؤسّسات اجتماعيّة»، إلّا أنّ الأغلبيّة البرلمانيّة ما لبثتْ أن نجحتْ في إقصاء ممثّلي الطبقة العاملة لوي بلان وأوغست بلانكي عن «اللجنة التنفيذيّة» للثّورة (الوزارة عمليّاً) ورفضتْ إنشاء وزارة للعمل.

الانتفاضة العمّاليّة

ثار عمّال باريس ضدّ «المجلس الوطنيّ التأسيسيّ» في ١٥ أيار / مايو ونصَبوا المتاريس وأعلنوا «حكومة مؤقّتة» شعاراتها «حرّية، مساواة، أخوّة» في تعديلٍ لشعار الثورة الفرنسيّة الكبرى للعام ١٧٨٩ - ١٧٩٤ الذي اقتصر على شعارَي «حريّة ومساواة». قَمَع «الحرس الوطنيّ» الانتفاضة واعتقل قادتها أوغُست بلانكي وآرمان باربيس وفرانسوا راسباي. وأكمل «حزب النظام» الردّة بإغلاق «الورشات الوطنيّة». يوم ٢٣ حزيران / يونيو، نزل ١٧٠ ألفاً من عمّال باريس إلى الشارع احتجاجاً وانتصبت المتاريس مجدّداً. حَشَد قائد الجيش الجنرال أوجين كافينياك، وهو من جنرالات احتلال الجزائر، ١٢٠ ألف جنديٍّ ضدّ الانتفاضة العمّاليّة واضطرّ إلى ثلاثة أيامٍ من القتال الدمويّ وراءَ المتاريس للتغلّب أخيراً علىً مقاومة عمّال باريس. وقَفَ لامارتين عاجزاً أمام اندلاع أعمال العنف في ١٥ أيّار / مايو وعارض انتفاضة حزيران / يونيو العمّاليّة بشدّة وانسحب من واجهة الاحداث. لم يخطئ ماركس عندما عزا نفوذ لامارتين الاستثنائيّ إلى أنّه لم يكن يمثّل أيّة قوّة فعليّة من قوى المجتمع أو الثورة فإذا به «يمثّل الانتفاضة العامّيّة بأوهامها وشِعرها ومضمونها الخياليّ ورطانتها».

ثار العمّال وحيدين في انتفاضة حزيران / يونيو. تكالبتْ عليهم الأرستقراطيّة الماليّة والبرجوازيّة الصناعيّة والطبقة الوسطى والبرجوازيّة الصغيرة والجيش و«الحرس المتحرّك» وكبار المثقّفين والقساوسة والأرياف.

تحالف الجميع ضدّهم باسم «الأمن والنّظام» في مقابل من اتُّهموا بأنّهم «حزب الفوضى». قضى في المجزرة ثلاثة آلافٍ من العمّال الثّائرين واعتُقل عشرات الألوف.

انقسم اليسار بين جناحٍ شيوعيٍّ متنوّع الأطياف، يضمّ فيما يضمّ الانقلابيّينَ من أتباع بلانكي وجناح السان سيمونيّين المنضوين في «كنيسة العمل» بقيادة آنفانتان، يرون إلى العمل بما هو العنصر الذي يوحّد الصناعيّين والعمّال في مقابل الذين يجنون مداخيلفهم من الريوع، ويدعون إلى تسليم السلطة لأرباب الصناعة من قادةٍ وخبراء. أدان السان سيمونيّون الانتفاضة العمّاليّة لرفضهم المبدئيّ للعنف. اختزلوا مطالبهم من الثورة بتعليم الأطفال وتأمين التّقاعد للعجز وحذّروا من المحاولات المتسرّعة لزيادة أجور العمّال وتحسين علاقات العمل وشروطه وعارضوا أيّ مساسٍ بالملكيّة الفرديّة على اعتبار انّه لن ينجم عنه غير الفوضى. وكان عددٌ من أتباع سان سيمون قد وصل إلى البرلمان وانتُخب أحدهم دوشيز رئيساً للجمعيّة العموميّة وعيّن آخر، هيبوليت كارنو، وزيراً للتعليم الرسميّ.

ثار العمال وحيدين فى انتفاضة حزيران / يونيو. تكالبت عليهم الأرستقراطية المالية والبرجوازية الصناعية والطبقة الوسطى والبرجوازية الصغيرة والجيش و«الحرس المتحرك» وكبار المثقفين والقساوسة والأرياف. قضى فى المجزرة ثلاثة آلاف من العمال الثائرين واعتقل عشرات الألـــــــــــــــوف.

كوفئ كاڤينياك بتعيينه رئيساً للدولة في ٢٨ حزيران / يونيو ١٨٤٨. إلّا أنّه سقَطّ سقوطاً مدوّياً في الانتخابات الرئاسيّة في العاشر من كانون الأوّل / ديسمبر أمام لوي نابليون بونابارت، ابن أخ نابليون الأوّل والمطالِب بالعرش الذي نال ثلاثة أرباع الأصوات الفرنسيّين. تكاثرت الشكوك في أهليّة الوريث البونابارتيّ للترشّح أصلاً حسب الدستور. فقد تخلّى عن جنسيّته الفرنساويّة وحمل الجنسيّة السويسرانيّة، ثمّ إنّه خدم دولةً اجنبيّةً - وأيّة دولة! - إذ تطوّع في لندن كشرطيٍّ للمساهمة في قمع حركة «الشارتريّين» العمّاليّة التي كانت تطالب بالحقّ في الاقتراع العامّ. لكنّ سياسات بونابارت التي وُصفتْ بأنّها «كلّ شيء لكلّ الناس» كانت جلّابة تأييد لكلّ أصحاب الامتيازات كبيرها والصغير تتلخّص في فرض الأمن والاستقرار، وتشكيل حكومةٍ قويّةٍ، وتعزيز الوحدة الوطنيّة وبعْث الأمجاد القوميّة بإحياء المؤسّسات والطقوس والرموز العائدة إلى عهد عمّه، نابليون الأوّل. صوّت له أنصار «حزب النظام» ظنّاً أنّ ولايته سوف تكون مرحلةً انتقاليّة نحو استعادة النظام الملكيّ. وانحازتْ إليه البرجوازيّة والبرجوازيّة الصغيرة وقد أفزعتْهما الانتفاضة العمّاليّة فرأوا فيه القائد الوحيد القادر على قطع الطريق على ثورة شيوعيّة. واستثار بونابارت الحنين إلى المغامرات النابليونيّة العسكريّة فانحاز إليه الجيش وصوّت له الفلّاحون بكثرة تعبيراً عن غضبة الأرياف الدفينة ضدّ استئثار باريس بالسلطة والثروة والامتيازات.

مهما يكنْ، أسفرت الانتخابات النيابيّة عن جمعيّةٍ وطنيّةٍ يسيطر عليها «حزب النظام» بما هو تحالفُ حزبَي ملّاك الأرض وأرستقراطيّة المال، وذراعه العسكريّ الجنرال شارغرنييه الذي تولّى قيادة الفوج الأوّل في الجيش و«الحرس الوطنيّ» في باريس، بعد تصفية جناحه الديمقراطيّ. وكان الحزبان يتنافسان من أجل استعادة البيت الملكيّ لواحدٍ منهما، بيت بوربون أو بيت أورليان. بنهاية العام كانت الردّة المضادّة للثورة قد عمّتْ أوروبا كلّها.

انقلاب الثاني من ديسمبر / ١٨ برومير لوي بونابارت

لم يخيّب لوي نابليون الظنّ في قدرته على فرض «الأمن والنظام». ما إن تسلّم الرئاسة حتى أمر بنفي ١٥ ألفاً من ثوّار انتفاضة حزيران / يونيو العمّاليّة، الكثير منهم إلى الجزائر، وأعلن حلّ «الحرس الوطنيّ المتحرّك» وألغى «النوادي» وهما محورا قوّة اليسار الجمهوريّ والعمّاليّ. في ذكرى انتفاضتهم السنويّة، أعلن اليساريّون والاشتراكيّون انتفاضةً جديدةً ضدّ الرئيس احتجاجاً على الانقلاب في سياسته الإيطاليّة من دعم الجمهوريّين الوحدويّين إلى محاربتهم لمنع ضمّ الدول البابويّة إلى إيطاليا الموحّدة. ولم يخفَ على أحدٍ أنّ هذا الانقلاب في السياسة الخارجيّة دافعه تملّق الرئيس للكنيسة واليمين الملكيّ الكاثوليكيّ. رفع اليسار شعار «الاعتداء على الجمهوريّة الرومانيّة هو عدوانٌ على الجمهوريّة الفرنسيّة» ونزل جمهوره إلى الشارع وانتصبت المتاريس. أعلن الرئيس الأحكام العرفيّة وقُمِعت الانتفاضة عبرَ الجيش في حين شنّت الشرطة حملات اعتقال واسعةً ودهمت المطابع الجمهوريّة وأمعنتْ في تخريبها.

توالت الأحداث سريعةً نحو الانقلاب البونابارتيّ. بعدما نزع لوي نابليون من «الجمعيّة الوطنيّة» سلطتها على الوزارة، عيّن حكومةً جديدةً من دون رئيس، في تشرين الأوّل / أكتوبر ١٨٤٩. سمّيت الحكومة «حكومة دوتبول - دُ بوفور»، أحد ضبّاط احتلال الجزائر وسجّان الأمير عبد القادر قائد المقاومة فيها. ترأّس دوبول فريقاً من رجالات لوي نابليون من دون أن يسمَّى رسميّاً رئيساً لها. شغل دُ بوفور منصب وزير الدفاع وأمّن للبرجوازيّة، لضمان سلطتها، استبدال شعار «الحرّية والمساواة والأخوّة» بشعار «المشاة والخيّالة والمدفعيّة»، على حدّ تعبير ماركس. خصّص دُ بوفور معظم وقته وإمكانات وزارته لتطوير اجهزة العسَس والاستخبارات. ودعم كلّ الإجراءات المعادية للشعب، بما فيها القانون الشهير ضدّ معلّمي المدارس. إلّا أنّ بونابارت ما لبث أن عزل وزير دفاعه في نهاية العام ١٨٥٠ نزولاً عند ضغط الجنرال شانغارنييه، قائد الجيش وآمر «الحرس الوطنيّ» في باريس والزعيم الفعليّ لـ «حزب النظام» وسعى لتحميله كلّ موبقات الحقبة الأولى من رئاسته. هكذا انفرد شانغارنييه في أن يكون «الطفل المعجزة للخواف البرجوازيّ»، على ما سمّاه ماركس، وبطلها المخلّص من الثورة العمّاليّة.

على الصعيد الداخليّ، اهتمّ بونابارت بالتصنيع وتنفيذ المشاريع الكبرى، وأحاط نفسه بالمستشارين ورجال الأعمال من أتباع سان سيمون. وخطّط لتحديث باريس. وسنّ دستوراً جديداً وأعاد تطبيق الاقتراع العامّ الشامل (للرّجال).

ونشب نزاعٌ عنيفٌ بين بونابارت و«الجمعيّة الوطنيّة» عندما سعى الرئيس إلى تجديد ولايته المحدّدة دستوريّاً بأربع سنوات غير قابلة للتّمديد. رفضَت أكثريّة النوّاب تعديل الدستور، فلجأ لمليشياته المنضوية في «جمعيّة العاشر من ديسمبر» وقد شكّل هؤلاء جمهور تظاهرات التأييد التي تهتف بحياة الإمبراطور، أو تتشكّل منها عصابات البلطجيّة تقاتل اليساريّين والجمهوريّين في الشوارع بحماية البوليس.

استغلّ بونابارت شَلَل الجمعيّة الوطنيّة والتعارض بين جناحَيها الملكيّين لتنفيذ انقلابه ليلة ١ - ٢ كانون الأوّل / ديسمبر ١٨٥٢. عزل شاغارنييه ورشى كبار الجنرالات وألقى القبض على قادة الكتل البرلمانيّة. وفَجْر يوم الثاني من كانون الأوّل، احتلّت قوّاته ومليشياته الساحات العامّة ومبنى «الجمعيّة الوطنيّة» وأعلن حلّ «الجمعيّة الوطنيّة» و«مجلس الدولة» وفَرَضَ حالة الطوارئ في باريس الكبرى.

وصف ماركس انقلاب الثاني من ديسمبر بمعادلةٍ تلخّص طبيعة النظام البونابارتيّ «انتصار نابليون الثالث على البرلمان وانتصار الهيئة التنفيذيّة على الهيئة التشريعيّة وانتصارالقوّة البكماء على قوّة الكلمات».

كارل ماركس في ثورات ١٨٤٨

انتقل ماركس إلى فرنسا في نهاية عام ١٨٤٣ مصطحباً عروسه جيني ڤون ويستڤالن بعدما أقفلت السلطات البروسيّة صحيفةً ليبراليّة رأس تحريرها في كولون، أبرز المدن الصناعيّة الألمانيّة، يموّلها صناعيّون. ناهضتْ «داي نيو رانيش زايتونغ» المَلَكيّة المطلقة ودعتْ إلى الاقتراع العامّ وحريّة الصحافة والاجتماع. وقد أقفلت الصحيفة بسبب كتابات ماركس المعادية لقيصر روسيا ومقالاته في الاقتصاد السياسيّ.

في باريس اختلط ماركس بعمّالٍ وحرفيّين ألمان مهاجرين منضوين في جمعيّات سرّية متأثّرين بدعوات شيوعيّة مسيحيّة منتشرة في ألمانيا وتمزج بينها وبين تعاليم الاشتراكيّين المثاليّين، سان سيمون وأوين وفورييه. وفي باريس، تعرّف إلى فريدريك إنغلز، ابن صناعيٍّ ألمانيّ في بريطانيا، فنشأتْ بين الرجلين صداقةٌ وزمالةٌ سوف تستمرّ عمراً بكامله. نقل ماركس إلى إنغلز خبرته الأوليّة في أثر المصالح الاقتصاديّة على السياسة وحريّة الرأي وقد تعلّم أوّل درس له في العلاقة بين المال والحريّات واكتشف جبن الرأسماليّين. وقد خلص في إحدى مقالاته في هذا الموضوع إلى أنّ «الخطر الأكبر على حريّة الصحافة هو المال». وهو درسٌ ثمين ازداد أهميّة في القرن التالي. من جهته، نقل إنغلز إلى ماركس خبرته المباشرة في أوضاع الطبقة العاملة الإنكليزيّة.

في باريس العام ١٨٤٤ كتب ماركس مجموعة من المخطوطات الاقتصاديّة والفلسفيّة سوف تعرف لاحقاً باسم «مخطوطات باريس»، بلور فيها مفهوم استلاب العمل في ظلّ الرأسماليّة وتطّلع إلى قيام مجتمع يحقّق الملكيّة الجماعيّة لوسائل الإنتاج يصير فيه البشرُ أحراراً لتنمية طاقاتهم في تعاونيّات إنتاج. وكان ذلك بمثابة الإعلان عن اعتناقه الشيوعيّة.

طُرد ماركس من باريس مطلع العام ١٨٤٥ بضغطٍ من السلطات البروسيّة. فانتقل إلى بروكسل حيث قضى ثلاث سنوات زار خلالها صديقه إنغلز ومعمل غزل


FABRIQUE
CHOCOLAT

القطن الذي تديره أسرته في مانشستر. وفي بروكسل طوّر ماركس نظريّته التي سُمّيت «الماديّة التاريخيّة» وكتب سجالاً ضدّ برودون، المفكّر الاشتراكيّ الفرنسيّ.

في ربيع العام ١٨٤٧ انضمّ ماركس وإنغلز إلى «عصبة العادلين» وهي جمعيّة سرّيّة ثوريّة أسّسها في باريس عمّالٌ وحرفيّون ألمان مهاجرون. في مؤتمرها الثاني في لندن في نوفمبر - ديسمبر / تشرين الثاني - كانون الأوّل من ذلك العام تسمّت العصبة «العصبة الشيوعيّة» وتبنّت «العقيدة الشيوعيّة النقديّة» معلنةً التزامها «إطاحة البرجوازيّة وإقامة سلطة البروليتاريا والقضاء على المجتمع القديم القائم على التناقض الطبقيّ وتشييد مجتمع جديد بلا طبقات ولا ملكيّة فرديّة». وكلّفت العصبة ماركس وزميله إنغلز كتابة إعلان مبادئ للتنظيم الجديد. كتب إنغلز أوّل مسوّدة بعنوان «تعاليم الشيوعيّة» على شكل ٢٥ سؤالاً وجواباً تشرح العقيدة لجمهورٍ عمّاليّ. (راجع الترجمة العربيّة لنصّ فريدريك إنغلز بعنوان «تعاليم الماركسيّة» في هذا العدد من «بدايات»). ثمّ تولّى ماركس الصياغة النهائيّة لنصٍّ له طابع منشوريّ بعنوان «البيان الشيوعيّ» صدر في شباط / فبراير ١٨٤٨ قبل أيّام من اندلاع «ربيع الشعوب».

اندلعت ثورات «ربيع الشعوب» بعد أسابيع من صدور البيان الشيوعيّ. واكبها ماركس فكريّاً وصحافيّاً ومهنيّاً أيضاً. أعاد إصدار «داي نيو رانيش زايتونغ» التي لاقت رواجاً ملحوظاً. طُرد من بروكسل فلجأ إلى باريس وحضر الانتفاضة العمّاليّة في حزيران / يونيو ١٨٤٨ إلى أن أعيد طرده في ربيع ١٨٤٩ فعاد إلى كولُن ولم يكد يستقرّ فيها حتى انتصرت الردّة المضادّة للثورة في بروسيا، فاعتُقل وقدّم للمحاكمة بسبب كتاباته الصحافيّة، فرافع عن نفسه بقوله «الواجب الأوّل للصحافة هو زعزعة أركان الدولة السياسيّة القائمة»، فطردتْه السلطات البروسيّة من بلده وسحبتْ منه الجنسيّة.

أربعة مفاهيم رئيسة

استقرّ ماركس في لندن، المنفى الذي سوف يقضي فيه بقيّة حياته.

كانت ثورات «ربيع الشعوب» أوّل تجربةٍ له في الفعل الثوريّ من حيث هي تحدٍّ فكريّ. اعترف العام ١٨٥٠ بأنّ الثورة قد انتهت وأنّ الثورة المضادّة قد أطبقتْ. وعكف على تحليل أسباب قيام ثورات «ربيع الشعوب» ودروسها. في «الصراعات الطبقيّة في فرنسا» طبّق منهجه في الماديّة التاريخيّة لأوّل مرّة على لحظةٍ تاريخيّة معيّنة في بلدٍ معيّن وصاغ جملةً من المفاهيم للتّعامل مع الثورة والطبقات وتمثيلها السياسيّ ومع الحقل السياسيّ خصوصاً. وفي كتابه «١٨ برومير للوي بونابارت» توقّف امام انقلاب لوي نابليون. هنا كان التحدّي هو التفكير في الدولة وقد بدتْ تتحكّم بالطبقات وصراعاتها من فوق وتسيطر على «المجتمع المدنيّ» كلّه. بعدها انكبّ ماركس على أبحاثه التحضيريّة عن الرأسماليّة والاقتصاد السياسيّ لكتاب «رأس المال». وخلال تلك الفترة أيضاً، كتب ماركس عدداً وافراً من المقالات لصحيفة «نيويورك دايلي هيرالد» الأميركيّة خلال فترة ١٨٥٢ - ١٨٦٢. (يمكن الاطلاع على مقالاته المتعلّقة بالاقتتال الأهليّ في جبل لبنان والتدخّل العكسريّ الفرنسيّ في العام ١٨٦٠ - ١٨٦١ في مكانٍ آخر من هذا العدد).

أودّ في هذا البحث التركيز على أربعة مفاهيم يمكن استخراجها من كتابات ماركس عن ثورات العام ١٨٤٨.

١ ـــ التفكير في ظاهرة الثورات، أسبابها، مساراتها، قواها، مطالبها، ردود الفعل عليها، مآلاتها.

٢ ـــ قضيّة التمثيل السياسيّ للطبقات الاجتماعيّة.

٣ ـــ تعامل ماركس مع الديمقراطيّة السياسيّة.

٤ ـــ التفكير في «الردّة» وإنتاج ماركس لمقولة البونابارتيّة.

آمل أن تلقي مراجعة هذه العناوين الأربعة ضوءاً على وجهين من الماركسيّة غالباً ما يغيبان في غياهب التبسيط: الأوّل هو غنى التحليل الطبقيّ ومشكلاته والأنماط المختلفة لتمثيل الطبقات في الحيّز السياسيّ والثقافيّ، والثاني هو التعلّم من الممارسة، أي دور الممارسة كمادّة معرفيّة.

١ - الثورات ظاهرات مركّبة

أوّل ما يتبدّى من التأمّل في ثورات ١٨٤٨ انّها ظاهرات متعدّدة ومعقّدة يستحيل اختزالها بمواجهةٍ بين قوّتين اجتماعيّتين او سياستين أو عسكريّتين. لا تقتصر الثورة على حشد احتجاجات عدّة قوى مجتمعيّة في وجه سلطات الأمر الواقع وحسب. تطلق الثورة أيضاً عدّة ثوراتٍ متباينة وأحياناً متناقضة في آن معاً.

حملتْ ثورات ١٨٤٨، كما أسلفنا، ثورات تحرّر وطنيّ ضدّ الاحتلال الأجنبيّ وثوراتٍ من أجل الوحدة

القوميّة، مثلما حوت ثوراتٍ من أجل الحريّة وثوراتٍ من أجل المساواة.

مصـــــــــــادر القوى والأحزاب السياسية ليست هي ذاتها مصـــــــــــادر القوى الاقتصادية. خصوصا في المراحل الانتقالية كالتي عبر عنها المخاض الثوري. تستعير الطبقات الجديدة الصاعدة الشخصيات التي تمثلها وأجهزة تمثيلها السياسي من الطبقات السابقـــــــــــــــــــــة.

غير أنّ ما حُسم في الوجهة التي سوف تتّخذها الثورات أو في إنجازها الطبقيّ في نهاية المطاف كان توازن القوى بين قوى عسكريّة تابعة للسلطات والقوى المجتمعيّة بما فيها مصادر القوّة والعنف لديها. لا معنى للحديث عن ثوراتٍ من دون ورود القوّة والعنف. الثورات في ممارسة الجماهير لقوّتها، قوّة العدد في الأساس، ضدّ سلطات الأمر الواقع. في فرنسا، أجبرت قوّة الجماهير المتظاهرة والمحتشدة والمسلّحة الملك على الاستقالة والهرب. لم يحصل ذلك لولا خللٌ وقع في أجهزة القمع السلطويّة، إمّا على شكل انشقاقٍ في القوّات النظاميّة أو تمرّد قطاعات منها أو تمنّعها عن نجدة سلطة الأمر الواقع. وفيما بعد، أخذت القوى الاجتماعيّة المختلفة تنشئ لنفسها تشكيلاتٍ عسكريّة خاصّة بديلة للجيش الأرستقراطيّ النظاميّ ومناهضة له: الحرس الوطنيّ، الحرس الوطنيّ المتحرّك، الشعب العامل المسلّح، المليشيات البونابارتيّة، إلخ. إلى دور القوّة والعنف في الثورات، يجب أن يضاف وزن قوى التدخّل الخارجيّة، العسكريّة منها خصوصاً، في تغيير موازين القوى الداخليّة او حتى في تغليب قوّةٍ على أخرى، مع أنّ العامل الخارجيّ لم يلعب دوراً مهمّاً في الثورة الفرنسيّة.

٢- قضيّة التمثيل الطبقيّ

تكشّفت ثورة العام ١٨٤٨ عن البنية الطبقيّة الفرنسيّة على حقيقتها المعقّدة والانتقاليّة، متعدّدة أنماط الإنتاج، حيث نمط الإنتاج الصناعيّ واحدٌ من أنماط الإنتاج والتناقض بين بروليتاريا ورأسماليّة صناعيّة تناقضٌ واحدٌ بين عدّة تناقضات طبقيّة. كانت أكثريّة الشعب الفرنسيّ لا تزال تعيش في الأرياف في ظلّ الإنتاج الفلّاحيّ السوقيّ الصغير أو في الإنتاج الحرفيّ. وهكذا في مقابل طبقتَي البيان الشيوعيّ الجوهريّتين، برجوازيّة / بروليتاريا، اكتشف ماركس ما سوف يسمّيه «التشكيلة الاجتماعيّة» التي تضمّ عدّة أنماط إنتاج وبالتالي عدداً من من الطبقات والشرائح الطبقيّة المرتبطة بها. وقد عدّدها ماركس في حالة فرنسا على النّحو الآتي: كبار ملّاك الأراضي، البرجوازيّة الماليّة، البرجوازيّة الصناعيّة، البرجوازيّة الصغيرة، البروليتاريا الصناعيّة، البرولتياريا الرثّة وصغار المزارعين الفلّاحين.

في ١٨ برومير، بات ماركس يتحدّث عن «كتلةٍ حاكمة» متعدّدة الطبقات أو الشرائح الطبقيّة تمييزاً عن الدولة بما هي الجهاز التنفيذيّ للبرجوازيّة. ولا يكتسب الطابع الطبقيّ للسلطة فقط بناءً على طبيعة الطبقة المسيطرة وإنّما أيضاً بناءً على طبيعة الشريحة المسيطرة داخل تلك الطبقة.

السبب الرئيس هو أنّ مصادر القوى والأحزاب السياسيّة ليستْ هي ذاتها مصادر القوى الاقتصاديّة، خصوصاً في المراحل الانتقاليّة كالتي عبّر عنها المخاض الثوريّ في العام ١٨٤٨. تستعير الطبقات الجديدة الصاعدة الشخصيّات التي تمثّلها وأجهزة تمثيلها السياسيّ من الطبقات السابقة. وقد تمتدّ هذه العمليّة لفتراتٍ طويلة. خلال تلك الفترة، كانت أسرتان ملكيّتان تتنافسان على العرش هما آل بوربون وآل أورليان، فإذا الحزبان الملكيّان يمثّلان جناحين من أجنحة البرجوازيّة الصاعدة. مثّل حزب البوربون الأرستقراطيّة الماليّة ومثّل حزب الأورولیانيّين البرجوازيّة الصناعيّة. وكانت تلك المفارقة بين الموقع الاجتماعيّ والموقع السياسيّ سمةً مشتركة في عددٍ آخر من الدول الأوروبيّة في مراحل الانتقال من الإقطاع إلى الرأسماليّة.

لم تكن البرجوازيّة الصناعيّة موحّدة التمثيل الطبقيّ، كان التيّار السياسيّ الساعي إلى توفير قيادةٍ بديلة وحديثة لها هم الاشتراكيّون المثاليّون - السان سيمونيّون - وهم فئة جديدة كلّ الجدّة من الشرائح الاجتماعيّة أفرزها النموّ الرأسماليّ: التكنوقراط والخبراء وأصحاب المهن الحرّة من أبناء الطبقات المتوسّطة. مجّد هؤلاء قيمة «العمل» وسعَوا إلى تحقيق تحالفٍ تاريخيّ بين الصناعيّين والعمّال محورُه «العمل» بما هو قيمةٌ قائمة بذاتها، في وجه الطبقات المتعيّشة على ريع الأرض واستغلال الفلّاحين أو المتطفّلة على جهاز الدولة الذي يتعيّش بدوره على

الرسوم والضرائب المفروضة على سواد الشعب. من هنا دعوة السان سيمونيّين إلى إلغاء الإرث. وقد نافحتْ تلك الفئة الصاعدة من الطبقات المتوسّطة عن شرعيّةٍ جديدة للحكم قائمةٍ على الذكاء والعلم والكفاءة.

هذه هي البرجوازيّة التقدميّة ذات المشروع الكونيّ لتصنيع وتحديث العالم بأسره، أي تحقيق التوسّع الكولونياليّ لفرنسا تتقدّمه المصارف وشركات سكك الحديد للسيطرة على الموارد الطبيعيّة والاستيلاء على الخدمات العامّة، إلخ. وسوف يتولّى لوي نابليون تنفيذ بعض عناصر ذاك المشروع في التوسّع الكولونياليّ لفرنسا جنوبيّ البحر الأبيض المتوسّط من الجزائر غرباً إلى سورية شرقاً.

الموقع الطبقي كناية عن حواجز في الفكر والسلوك ليست محصورة بالذين ينتمون إلى الموقع الطبقي المخصوص الذي يمثلونه.

مسألةٌ أخرى من مسائل التمثيل الطبقيّ يعالجها ماركس في كتاباته الفرنسيّة السياسيّة هي مسألة تمثيل الفلّاحين وتحديداً الملّاكين الزراعيّين الصغار. وهذه فئة واسعةٌ ولكنّها مبعثرة على طول التراب الوطنيّ، يرى أن لا سبيل لها لأن تتمثّل إلّا بأن تتوحّد كطبقةٍ عبر الدولة ومن خلالها. شكّل الفلّاحون القاعدة الاجتماعيّة للبونابارتيّة. هكذا تمكّن لوي بونابارت أن ينتصر في الانتخابات الرئاسيّة العام ١٨٥٢ بواسطة الاقتراع الشعبيّ العامّ لكسبه تأييد أكبر طبقةٍ في فرنسا عدديّاً، التي هي طبقة الملّاك الفلّاحين الصغار المتمرّدين ضدّ الجمهوريّة. كتب ماركس بهذا الصدد:

«قدّمت الجمهوريّةُ نفسها للفلّاحين عن طريق جابي الضرائب، فقدّموا أنفسهم للجمهوريّة عن طريق الإمبراطور. كان نابليون الرجل الوحيد الذي مثّل مجموع مصالح الطبقة الفلّاحيّة التي تكوّنت حديثاً ابتداءً من العام ١٧٨٩. فبالنسبة إلى الفلّاحين لم يكن نابليون شخصاً، كان برنامجاً. ساروا إلى مراكز الاقتراع رافعين الأعلام، ضاربين الطبول، ونافخين في الأبواق يصرخون «لا ضرائب بعد الآن، يسقط الأغنياء، تسقط الجمهوريّة، يعيش الإمبراطور!»». (الصراعات الطبقيّة في فرنسا، ١٨٤٨ - ١٨٥٠، ص ٧٢).

من هنا المعادلة التي صاغها ماركس عن الفلّاحين «لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، يحتاجون إلى من يمثّلهم». على أنّ علاقة التمثيل هذه ليست انتداباً من تحت إلى فوق بقدْر ما هي هيمنةٌ أبويّةٌ من فوق لتحت. «إنّ ممثّلهم [للفلّاحين] لا بدّ له أن يبدو على أنّه سيّدهم، على أنّه سلطةٌ فوقهم، أي أنّه سلطةٌ حكوميّة غير مقيّدة تحميهم من الطبقات الأخرى وتستنزل عليهم المطر أو تستشرق الشمس من عليائها» (١٨ برومير، ٢٢٤).

يتّضح ممّا سبق كيف أنّ الثورة لا تعفي أيّ طبقة وأيّ قوّة اجتماعيّة من الانخراط في الميدان السياسيّ أو الميدان العسكريّ إذا اقتضى الأمر. في تحليله لسلوك البرجوازيّة الصغيرة المدينيّة يؤسّس ماركس للمقولات اللاحقة عن ازدواجيّة تلك الطبقة وتناقضات وعيها وسلوكها. فيلاحظ أنّ القوى الممثّلة للبرجوازيّة الصغيرة نزلتْ إلى الشارع للدّفاع عن سيولة الأسواق والملكيّة الفرديّة وهي ذاتها لا تملك المساكن التي تعيش فيها وتشكّل الضحيّة الأولى للمرابين. في المقابل، قد تُنتج البرجوازيّة الصغيرة تيّاراتٍ جمهوريّة وديمقراطيّة واشتراكيّة وإن تكن كطبقة شديدة الاستجابة لخواف الأمن والنظام.

وجرياً على حقيقة أنّ الثورات لا تترك أيّ قوّةٍ أو شريحة اجتماعيّة خارج الحقل السياسيّ، لم يهمل ماركس، في تحليله الطبقات وشرائحها وتعبيراتها السياسيّة، ما سمّي «البروليتاريا الرثّة» وهي الفئات المفقرة والمكدّحة من المجتمع ذات الفعاليّات الهامشيّة، من دون أن تكون مدرجة في النظام الإنتاجيّ. وأبان الدور المهمّ نسبيّاً الذي لعبتْه تلك الفئات بما هي مليشياتٌ في الانقلاب البونابارتيّ.

بعد هذا التحليل الجدليّ لتمثيل الطبقات وسلوكها، في حالة من الأزمة القصوى - الثورة، ينتقل ماركس إلى تعيين خصوصيّةٍ أخرى للتّمثيل الطبقيّ. الموقع الطبقيّ كناية عن حواجز في الفكر والسلوك ليست محصورة بالذين ينتمون إلى الموقع الطبقيّ المخصوص الذي يمثّلونه. إنّ تمثيل الديمقراطيّين الجمهوريّين للبرجوازيّة الصغيرة، مثلاً، لا يعني بالضرورة أنّهم هم أعضاء في تلك الشريحة الاجتماعيّة:

«إنّ أذهانهم محكومةٌ بالحواجز ذاتها التي لا تستطيع البرجوازيّة الصغيرة أن تتجاوزها في الحياة الحقيقيّة، و... هم بالتالي مدفوعون نظريّاً إلى تبنّي المشكلات ذاتها والحلول ذاتها التي تندفع البرجوازيّة الصغيرة إليها عمليّاً بحكم المصلحة المادّيّة والموقع الاجتماعيّ. تلك هي العلاقة العامّة

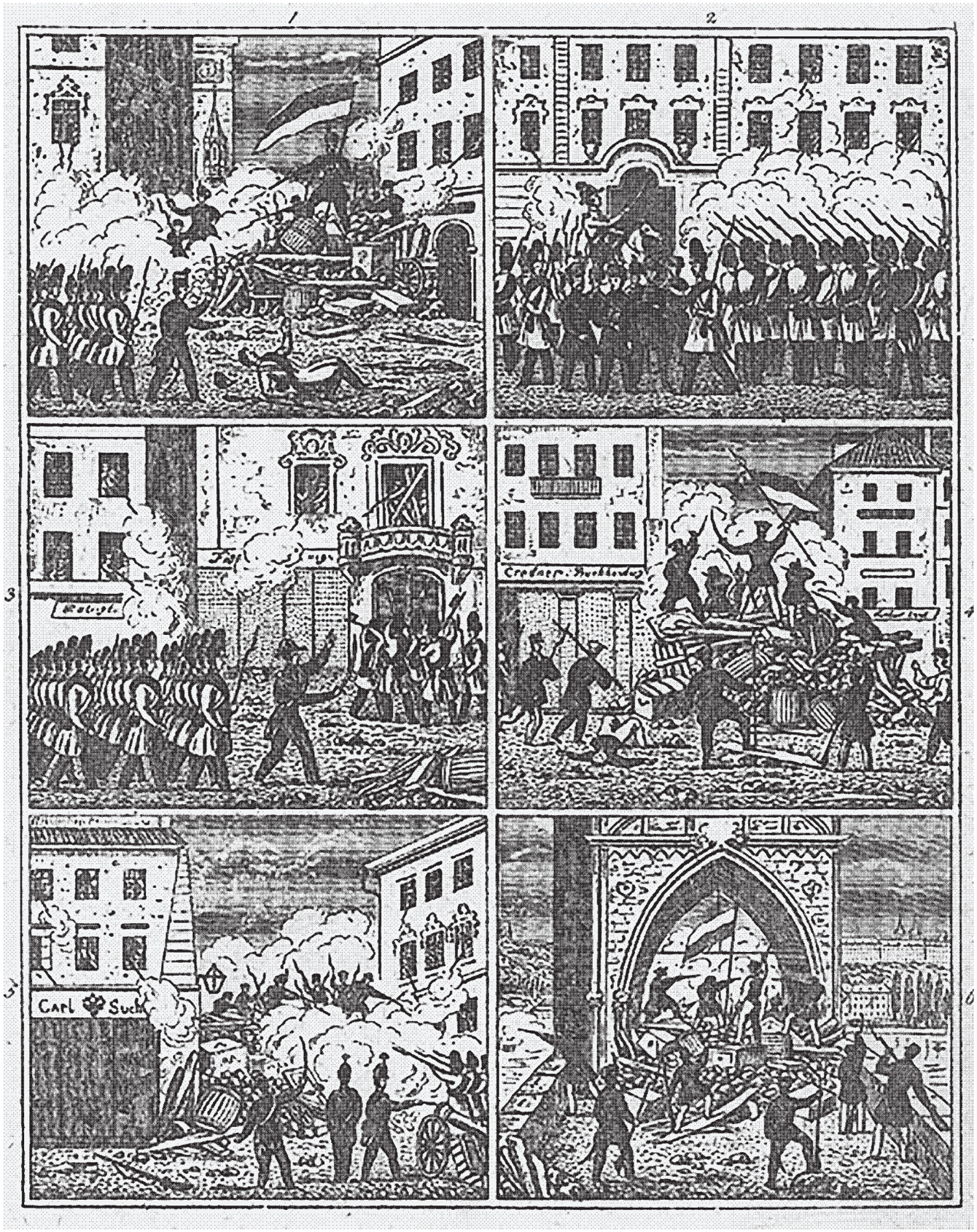
1
2
3
4
5
6
Carl Suck

بين الممثّلين السياسيّين والفكريّين لطبقةٍ ما والطبقة التي يمثّلون» (١٨ برومير لوي بونابارت، ص ١٧٦ - ١٧٧).

يسترسل ماركس بأمثلةٍ عن تلك الحدود والحواجز. فيتحدّث عن أوهام ممثّلي الطبقة العاملة عن دور وزارة العمل المحدود إلى جانب سائر الوزارات التي تمثل البرجوازيّة. ويتحدّث عن وهْم الممثّلين السياسيّين للطبقة العاملة عن إمكان تحقيق تحرّرهم جنباً إلى جنب مع البرجوازيّة داخل جدران فرنسا وإلى جانب سائر الأمم البرجوازيّة. ذلك أنّ علاقات الإنتاج الفرنسيّة محكومةٌ بتجارة فرنسا الخارجيّة وبموقعها في السوق العالميّة - تلك السوق التي يتحكّم بها بدوره المستبدّ البريطانيّ. فكيف لفرنسا أن تكسر تلك القوانين من دون حرب ثوريّة أوروبيّة؟

٣- ماركس والديمقراطيّة

لم يستخفّ ماركس بالديمقراطيّة السياسيّة البرلمانيّة بل اعتبرها بمثابة «التحرّر السياسيّ» للطبقات العاملة والمستغلّة (الصراعات الطبقيّة في فرنسا، ص ٧١).

كانت أبرز حركة تطالب بالاقتراع العامّ (للذكور) في بريطانيا خلال «ربيع الشعوب» الأوروبيّ هي الحركة الشارتريّة ذات القاعدة العمّاليّة والشعبيّة الواسعة. وقد سُمّيت شارتريّة، نسبةً إلى «تشارتر»، أي شرعة. ذلك أنّها كانت صاحبة شرعة شهيرة جمعتْ عليها ملايين التواقيع. والشرعة من ستّ نقاط تطالب بحقّ الاقتراع للرجال فوق سن ٢١؛ والتصويت بالبطاقة السريّة، وإلغاء شروط الملكيّة للترشيح لمجلس العموم، ودفع علاواتٍ لأعضاء المجلس للسماح لذوي الدخول المحدودة بالوصول إلى مجلس العموم، وتقسيم دوائر انتخابيّة متماثلة من حيث الحجم، وإجراء انتخابات برلمانيّة سنويّة لمنع الرشوة والضغوط على حريّة الاقتراع.

علّق ماركس على تلك الشرعة بالقول إنّ تطبيقها - أي تحقيق الحقّ في الاقتراع العامّ، ولو للذكور، يوازي تسلّم الطبقة العاملة للسلطة السياسيّة في إكلترا على اعتبارها تشكّل أكثريّة السكان. («الشارتريّون»، Surveys from Exile، ص ٢٦٤). وكتب في مقالة أخرى عن «الشارتريّين»، يصف اجتماعاً جماهيريّاً لأحد أبرز قادتهم، إرنست جونز، وكان من أقرب أصدقائه. حصل جونز على ٢٠ ألف صوت ترشّحه للنيابة. لكنّ منافسه السير شارل وود اللبرالي فاز عليه مع أنّه لم ينلْ أكثر من ٥٠٠ صوت. والسبب أنّ ما أحد من الذين رشّحوا جونز كان يحقّ له التصويت لعدم استيفائهم الشروط الماليّة لذلك («الشارتريّون»، المصدر ذاته، ٢٧١)، ويعزو ماركس السبب الرئيس لفشل الحركة الشارتريّة الإنكليزيّة في إحداث أيّ تغيير جذريّ عن طريق شرعتها وتظاهراتها الجماهيريّة الواسعة خلال ثورات ١٨٤٨ الأوروبيّة، إلى أنّ الطبقة الحاكمة البريطانيّة تنازلت سلفاً ووسّعت قاعدة أصحاب الحقوق الانتخابيّة في بريطانيا في العام ١٨٤٣. في المقابل، شرّعت ثورة ١٨٤٨ الفرنسيّة الاقتراع العامّ (للذكور) لكنّها ما لبثتْ أن تراجعت عنه قبل أن يستعيده بونابارت ثمّ يتخلّى.

هذا عن حق الاقتراع والقانون الانتخابيّ. بمناسبة هذا المثال عن مصاعب فرض الاقتراع العام، يجدر تذكير الذين يعتبرون الديمقراطيّة بما هي هبة من البرجوازيّة، أو النتاج المباشر للحريّة الاقتصاديّة في ظلّ الرأسماليّة، بأنّ تحقيق المساواة السياسيّة والقانونيّة بين المواطنين تطلّبَ عدّة ثورات شعبيّة، كانت ثورات العام ١٨٤٨ واحدة منها، وما استتبعها من تقدّم وتراجع، وقيام أنظمة وانقلابٍ على أنظمة، إلى أن فُرضت الجمهوريّة الديمقراطيّة بطريقة متدرّجة مطلع القرن العشرين في فرنسا مثلاً.

قلنا إنّ كتابات ماركس خلال ثورات «ربيع الشعوب» أولى محاولات اقتحام حقل السياسة. حملت الثورات، كما رأينا ثورتين بارزتين على الأقلّ: ثورة حريّة وثورة مساواة. وقد افتتحت الشغل النظريّ على ثنائيّة: تحرّر سياسيّ / تحرّر اجتماعيّ، أو الدولة / المجتمع المدنيّ. وأثارتْ مسألة العلاقة بين الديمقراطيّة والاشتراكيّة التي سنعود إليها في ختام هذا النّصّ.

٤ - البونابارتيّة أو الدولة

استدعتْ ثورات العام ١٨٤٨ ظاهرة ارتدادٍ سياسيّة أدّت إلى المزيد من التحدّي لماركس في مفاهيمه للدولة والطبقة. إنّها نظام الردّة المضادّة للثورة الذي جاء بلوي نابليون إلى الحكم.

إنّ اكتشاف الظاهرة البونابارتيّة تحدّى الصيغة المبسّطة الواردة في «البيان الشيوعيّ» عن الدولة بما هي الجهاز التنفيذيّ لحكم البرجوازيّة. يبدو مع البونابارتيّة وكأن الدولة تحوّم فوق الطبقات. ينتقل ماركس من التعيين الوظيفيّ للدولة إلى تعيينٍ نوعيّ، إن جاز التعبير، فيقول

إنّ الدولة هي النتاج الحكميّ للصراعات الطبقيّة. ويشدّد على القوّة المستقلّة نسبيّاً للسلطة التنفيذيّة التي نشأتْ منذ نابليون الأوّل بحيث تحوّلت الدولة إلى ما يسمّيه «جسماً طفيليّاً مخيفاً، يحيط بجسم المجتمع الفرنسيّ مثل قماط ويسدّ عليه كل مسامّه» (١٨ برومير، ٢٣٧).

«المجتمع المدني» عند ماركس مكون من عدة طبقات متناقضة ومتصارعة. هكذا يتجلى التناقض الأساس بين المساواة السياسية والقانونية في الدولة وعدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع المدني.

بونابارت حالةٌ مختلفة من حالات التمثيل الطبقيّ: هو فاعلٌ سياسيّ واحد يمكنه أن يمثّل عدّة طبقات اجتماعيّة قدْر ما يمكن أن يتعدّد الفاعلون الذين يمثّلون طبقةً معيّنة. علماً بأنّ هذا النّمط من التمثيل لا يأتي من دون غلبة.

لكي يستطيع الإمبراطور ادّعاء تمثيل كافّة الطبقات، كان عليه أن يمثّل أوّلاً طبقة صغار الفلّاحين المالكين للأرض التي يظهر الإمبراطور، ليس فقط بما هو ممّثل انتصاراتهم القوميّة، وإنّما بما هو الدولة التي تحميهم من الطبقات الأخرى «من هنا أن النفوذ السياسيّ للفلّاحين من صغار مالكي الأرض يلقى تعبيره النهائّي في السلطة التنفيذيّة التي تخضع المجتمع لها» (١٨ برومير).

ولأنّه ادّعى أنّه فوق الطبقات، سعى بونابارت إلى أن يمثّل كلّ طبقة ضدّ أخرى. وذلك هو الثمن الذي سوف تدفعه الطبقات المالكة خصوصاً عندما يأتيها «مخلّصُ» باسم الأمن والنظام: قضى بونابارت على التمثيل البرلمانيّ السياسيّ للطبقات ليتولّى تمثيلها بالدولة ذات الاستدعاءات المختلفة لعددٍ من الطبقات. فالقاعدة الفلّاحية القائمة على الإنتاج السوقيّ الصغير يضارعها تمثيل الرأسماليّة الصناعيّة في طَورها التوسّعيّ الداخليّ والخارجيّ. فتولّى جهاز الدولة البونابارتيّ بناء البنى التحتيّة للتصنيع وتنميته المبادرة إلى التوسّع الكولونياليّ من الجزائر وسورية إلى المكسيك. البونابارتيّة بهذا المعنى تعديلٌ جذريٌّ لمقولة ماركس التي يميّز فيها بين الدولة الإقطاعيّة المضطرّة إلى التدخّل بالعنف من أجل حماية سلطتها ومصالحها، والدولة الرأسماليّة، على افتراض أنّ الثانية تتطلّب فقط التدخّل المباشر للبرجوازيّة في الحياة السياسيّة.

من هنا اعتراف ماركس بوجود جهاز دولة منفصلٍ عن «المجتمع المدنيّ» تحتاج إليه البرجوازيّة لإنقاذ سيطرتها أو الدفاع عنها، في ظروف الأزمات خصوصاً، يحمل نمطاً مميّزاً من الاضطهاد تمارسه الدولة على المجتمع المدنيّ، بما يتجاوز استغلال رأس المال للبروليتاريا. وهذا ما يبرّر تصوّر ماركس للثورة البروليتاريّة على أنّها ليست مجرّد ثورة لإنهاء الاستغلال الرأسماليّ وإنّما هي أيضاً ثورة تحرّر المجتمع من سيطرة الدولة عليه.

يلجأ ماركس إلى مفهوم «المجتمع المدنيّ» بما هو مجموع المؤسّسات الواقعة خارج السلطة، والتي كانت تعني في زمانه المجتمع البرجوازيّ الماليّ والصناعيّ الناشئ في كنَف المجتمع الإقطاعيّ، بالمقارنة مع الدولة أو «المجتمع السياسيّ» الذي هو الدولة الملكيّة البيرقراطيّة الممثلة لأرستقراطيّة الأرض.

لكنّ «المجتمع المدنيّ» عند ماركس مكوّنٌ من عدّة طبقات متناقضة ومتصارعة. هكذا يتجلّى التناقض الأساس بين المساواة السياسيّة والقانونيّة في الدولة وعدم المساواة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في المجتمع المدنيّ، ما تترتّب عليه نتيجتان:

الأولى، تتحوّل الدولة إلى الركيزة الأساس لحماية اللامساواة الطبقيّة (والمناطقيّة، إلخ) في المجتمع المدنيّ.

الثانية، ترتدّ اللامساواة الاجتماعيّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة إلى تخريب المساواة السياسيّة والقانونيّة للمواطنين في الدولة. أي نخر الديمقراطيّة والتمييز في المساواة السياسيّة والقانونيّة ذاتها.

هكذا تصوّر كارل ماركس الديمقراطيّ الجذريّ، الشيوعيّ فلسفيّاً، زمن ١٨٤٨، الاشتراكيّة بما هي الحلّ لهذا التناقض الذي يستكمل الديمقراطيّة السياسيّة بتحقيق «الديمقراطيّة الاجتماعيّة» أو ببناء «الجمهوريّة الاجتماعيّة» كما سمّاها عمّال باريس الثائرون. بعبارة أخرى، المجتمع حيث الاشتراكيّة هي تكملةٌ للديمقراطيّة بما هي تحقيقٌ لنظامٍ اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ وسياسيٍّ يحقّق المطابقة بين الديمقراطيّة في الدولة والديمقراطيّة في المجتمع.

وهذا هو أساس فكرة ماركس عن اضمحلال الدولة الذي يعادل التحرّر الإنسانيّ الشامل، الذي يسمّيه الانتقال من عالم الضرورة إلى عالم الحريّة. وتلك هي الديمقراطيّة الاشتراكيّة التي تحلّ التناقض بين الفرْد والمجتمع، «حيث التطوّر الحرّ لكلّ فرد هو التطوّر الحرّ للجميع» (انظر مقالة تيري إيغلتن حول المعنى العمليّ لاضمحلال الدولة في مكان آخر من هذا العدد).

ماركس والدولة

تيري إيغلتن

فيلسوف، منظّر في الأدب، مفكّر ماركسيّ، وأحد أشهر نقّاد الأدب في بريطانيا. من أعماله «الماركسيّة والنّقد الأدبيّ» (١٩٧٦)، «فكرة الثقافة» (٢٠٠٠)، «معنى الحياة» (٢٠٠٧)، «لماذا كان ماركس على حقّ» (٢٠١١)، «أمل دون تفاؤل» (٢٠١٥)، «المادّيّة» (٢٠١٦).

كان ماركس عدوّاً لدوداً للدولة. في الواقع، كان يتطلّع علناً إلى زمنٍ يأتي تضمحلّ فيه الدولة. قد يجد نقّاده أنّ هذا الأمل عبثيّ في طوباويّته، لكن لا يسعهم إدانة ماركس في الوقت نفسه على حماسته للحكم الاستبداديّ.

والحال، لم يكن ماركس عبثيّاً في طوباويّته. ما أمل ماركس باضمحلاله في المجتمع الشيوعيّ لم يكن الدولة بمعنى الإدارة المركزيّة. أيّ ثقافة حديثة مركّبة لا بد لها من أن تتضمّن مثل تلك الإدارة.

بالفعل كتب ماركس في الجزء الثّالث من «رأس المال»، وفي ذهنه هذا الموضوع، عن «نشاطات مشتركة تنشأ من طبيعة كلّ الجماعات». إنّ الدولة بما هي جهازٌ إداريّ سوف تستمرّ. الدولة بما هي أداة عنف هي ما يأمل ماركس زوالها. وكما عبّر في «البيان الشيوعيّ» سوف تفقد السلطة العامّة في ظلّ الشيوعيّة طابعها السياسيّ.

ضدّ الفوضويّين في زمانه، أصرّ ماركس على أنّ الدولة سوف تختفي بهذا المعنى فقط. ما الذي يجب أن ينتهي هو حكم طبقةٍ اجتماعيّةٍ تسيطر على سائر المجتمع. الحدائق العامّة وميادين امتحانات سَوق السيّارات سوف تبقى.

يرى ماركس إلى الدولة بواقعيّة باردة. ليست بالبداهة جهازاً حياديّاً سياسيّاً، منصفاً في تعاطيه مع طبقاتٍ متصارعة. ولا هي إطلاقاً بلا أهواء في النّزاع بين رأس المال والعمل.

ليست وظيفة الدولة أن تعلن ثورات ضدّ الملكيّة الفرديّة. فمن بين مبرّرات وجودها أن تدافع عن النظام الاجتماعيّ القائم ضدّ الذين يعملون على تغييره. إذا كان هذا النظام ظالماً، تكون الدولة ظالمة بذاك المقدار هي أيضاً. هذا ما أراد ماركس أن يرى له نهاية، لا المسارح الوطنيّة أو مختبرات الأدلّة الجنائيّة.

الدولة منحازة

لا شيء مؤامراتيّاً مُظلماً في الفكرة القائلة إنّ الدولة منحازة. كلّ مَن يفكّر على هذا النّحو لم يشارك في تظاهرة سياسيّة مؤخّراً. الدولة الليبراليّة حياديّة بين الرأسماليّة ومنتقديها إلى أن يبدو أنّ النقّاد باتوا على أهبة الانتصار. إذّاك تتحرّك بخراطيم المياه وفرَق مكافحة الشغَب، وإذا ما عجزتْ هذه، تتدخّل الدولة بدبّاباتها. لا أحد يشكّ في أنّ بمقدور الدولة أن تكون عنيفة. كلّ ما في الأمر أنظ ماركس قدّم جواباً جديداً لمسألة مَن يخدم العنف في نهاية المطاف. ينتمي الإيمان بتنزيه الدولة عن المصالح إلى عالم التهويمات، لا المقولة التي تتوقّع أنّنا قد نعيش في زمنٍ لا تضطر فيه الدولة للّجوء إلى عدوانيّتها النزقة. في الواقع، حتى الدولة نفسها لم تعد تؤمن بأنّها منزّهة عن المصالح. إنّ افراد الشرطة الذين يعتدون بالضرب على عمّالٍ مُضربين أو على متظاهرين سلميّين لم يعودوا يدّعون أنّهم على حيادٍ أصلاً. والحكومات، بما فيها الحكومات العمّاليّة، لم تعدْ تكترث لإخفاء عدائها للحركة العمّاليّة. كما يعلّق جاك رانسيير «إنّ أطروحة ماركس التي كانت فضائحيّة ذات مرّة لقولها إنّ الحكومات إنْ هي إلّا مجرّد وكلاء أعمال لرأس المال العالميّ، هي في أيّامنا هذه واقعٌ بديهيّ يتّفق عليه «الاشتراكيّون» كما «الليبراليّون». إنّ التماهي المطلق للسياسة مع إدارة رأس المال لم يعد ذلك السرّ المشين الذي يختبئ خلف «أشكال» الديمقراطيّة، إنّه الحقيقة المعلَنة جهاراً والتي تكتسب الحكومات شرعيّتها من خلالها».

غير أنّ هذا لا يعني أنّنا نستطيع التخلّي عن الشرطة والمحاكم والسجون بل وحتى عن فرَق مكافحة الشغَب. فالأخيرة، مثلاً، قد تكون ضروريّةً في حال وجود عصابة طليقةٍ من الإرهابيّين المزوّدين بأسلحة كيميائيّةٍ أو نوويّة.

ولا بدّ لتلك الفصيلة حانية القلب من اليساريّين من الاعتراف بهذه الحقيقة. ليس كلّ عنفٍ دولتيٍّ يحصل باسم الدّفاع عن الوضع القائم. ماركس نفسه يميّز في الجزء الثّالث من «رأس المال» بين الوظيفة الطبقيّة والوظيفة الحياديّة للدولة. أفراد الشرطة الذين يمنعون البلطجيّة العنصريّين من الاعتداء حتى الموت على شابٍ آسيويّ ليسوا يتصرّفون بما هم عملاء للرأسماليّة. والشّقق المجّهزة للنساء اللواتي تعرّضن للاغتصاب ليست أمثلةً قاتمة عن القمع الذي تمارسه الدّولة. ضبّاط التّحري الذين يصادرون كومبيوتراتٍ معبأة ببورنوغرافيا عن الأطفال ليسوا يخرقون حقوق الإنسان بفظاظة. ما دام هناك حرّيّة إنسانيّة فسوف تبقى معرّضة للاعتداءات، وبعض تلك الاعتداءات قد يصل إلى حدّ مستفظَع بحيث يستوجب احتجاز مرتكبيها من أجل أمان الآخرين. ليست السجون مجرّد أمكنةٍ للاقتصاص من المحرومين اجتماعيّاً، مع أنّه من المؤكّد أنّها تخدم تلك الوظيفة أيضاً.



الدولـــــــــــــــــــــــة مصدر شقاق أكثر منها مصدر وفاق. أنها تسعى بالتأكيد لتأمين تماسك الـــــــــــــمجتمع، لكنها تفعل ذلك خدمة لمصالح الطبقة الحاكمـــــــــــــة.

ليس من دليل على أنّ ماركس قد يرفض أيّاً من تلك المقولات. الواقع أنّه كان يعتقد أنّ الدولة يمكنها أن تكون قوّة جبارةً في سبيل الخير. لهذا أيّد بحماسةٍ التشريعات الآيلة لتحسين الظروف الاجتماعيّة في إنكلترا زمن الملكة فكتوريا. لا قمع في إدارة مياتم للأطفال المهجورين، أو في ضمان أنْ يسوق كلُّ سيّارته على الجانب ذاته من الطريق. ما رفَضَه ماركس هو الوهم العاطفيّ عن دولةٍ هي منبع انسجام، توحّد مختلف الفئات والطبقات سلميّاً. رأى إلى الدولة على أنّها مصدر شقاقٍ أكثر منها مصدر وفاق. أنّها تسعى بالتأكيد لتأمين تماسك المجتمع، لكنّها تفعل ذلك خدمةَ لمصالح الطبقة الحاكمة في نهاية المطاف. خلْف عدالتها المزعومة يكمن انحياز حديديّ. أنّ مؤسّسة الدولة «تفرض قيوداً جديدة على الفقراء، وتمنح سلطات جديدة للأغنياء... أنّها تؤبّد قوانين التملّك وعدم المساواة، تحوّل أعمال السلب الذكيّة إلى حقٍّ غير قابلٍ للتصرّف، وفي سبيل خدمة عدد من الطامعين، تعرّض الدولةُ البشريةَ جمعاء للعمل الدائم والعبوديّة والبؤس». هذه

ليست كلماتِ ماركس، إنّها كلمات جان جاك روسّو في «خطاب عن عدم مساواة». لم يكن ماركس يغرّد خارج السرب في معاينته العلاقة بين سلطة الدولة والامتياز الطبقيّ. صحيحٌ أنّه لم يحمل تلك الأفكار باستمرار. بما هو تلميذ شاب لهيغل، تحدّث عن الدولة بتعابير إيجابيّة برّاقة. لكنّ هذا كان قبل أن يصير ماركسيّاً. وحتى عندما صار ماركسيّاً، ظلّ يصرّ على أنّه ليس بماركسيّ.

كان هدف ماركس تجسير الفجوة بين الدولة والمجتمع. بين السياسة والحياة اليومية. بأن يذيب الأولى في الثانية. وهذا ما كان يسميه ديمقراطية. على الرجال والنساء أن يطالبوا في حياتهم اليومية بالسلطات التي سلبت منهم. إن الاشتراكية هي استكمال الديمقراطية. وليست نقيضها.

الذين يتحدّثون عن التساوق والتوافق يجب أن يدركوا ما يمكن تسميته نظرة قسّيس الرعيّة الصناعيّة إلى الواقع. الفكرة، بالجملة، هي أنّ هناك أربابَ عملٍ جشعين من جهةٍ وعمّالاً عدوانيّين من جهة أخرى. القسّيس اللائق يقبع في الوسط، رائقَ الكلام، ليبراليّ الذّهن، يحاول، بغيريّة، أن يجمع بين الطرفين المتصارعين. ولكن لماذا يجب أن يكون الوسط هو الموقع الأنسب الذي يجب أن يحتلّه المرء؟ لماذا نميل إلى أن نرى أنفسنا على أنّنا في الوسط وسائرَ النّاس في الأطراف؟ إنّ اعتدال المرء إنْ هو إلّا تطرّف الآخر، في نهاية المطاف. لن تلقى أناساً يسمّون أنفسهم متعصّبين، أكثر ممّا ستلقى أناساً يسمّون أنفسهم «فلان». ثمّ إنّه هل تلقى مَن يتحدّث عن المصالحة بين أرقّاء وأصحاب رقّ، أو يُقنع السكّان الأصليّين أن يحتجّوا باعتدالٍ على الذين يخطّطون لإبادتهم؟ ما هو الموقع الوسط بين العنصريّة والعداء للعنصريّة؟

الدولة والمجتمع المدنيّ

إن لم يكن لماركس وقت يصرفه على الدولة فذلك عائد جزئيّاً إلى أنّه رأى إليها بما هي قوّةٌ مستلَبة. فكأنّ ذلك الكيان المتسامي قد صادر قدراتِ الرجال والنساء على تقرير مصيرهم ذاته، وتولّى مهمّة أن يقرّر مصيرهم بالنيابة عنهم. بل إنّها بلغت الوقاحة بالدولة حدّاً سمحتْ لنفسها فيه بأنْ تسمّي تلك العمليّة «ديمقراطيّة». بدأ ماركس نفسه حياته بما هو ديمقراطيّ جذريّ وانتهى إلى ما هو ثوريّ، إذ أدرك تماماً مقدار ما تتطلّبه الديمقراطيّة الحقّة من تحويل، وقد تحدّى سلطة الدولة المتسامية بما هو ديمقراطيّ. ثمّ إنّه كان أيضاً مؤمناً إيماناً كلّيّاً بالسّيادة الشعبيّة إلى حدّ أنّه ارتضى ظلّها الشاحب المسمّى الديمقراطيّة البرلمانيّة. لم يعارض البرلمانات من حيث المبدأ، ولم يشذّ لينين عنه في ذلك، لكنّه رأى أنّ الديمقراطيّة أغلى من أن تضعها في عهدة البرلمانات وحدها. كان عليها أن تكون قاعديّة، شعبيّة، وموزّعة عبر كلّ مؤسّسات المجتمع المدنيّ، وأن تشمل الحياة الاقتصاديّة قدْر شمولها الحياة السياسيّة. كان على الديمقراطيّة أن تعني الحكم الذاتيّ الفعليّ لا الحكم الموكل إلى نخبةٍ سياسيّة. إنّ الدولة التي وافق عليها ماركس كانت حكم المواطنين لأنفسهم بأنفسهم، لا حكم الأقلّيّة ضدّ الأكثريّة.

كان ماركس يرى أنّ الدولة قد انحرفتْ عن المجتمع المدنيّ. ونما تناقضٌ فاضحٌ بين الاثنين. فمثلاً، نحن متساوون، على نحوٍ مجرّدٍ، بما نحن مواطنون في الدولة، لكنّنا غير متساوين على نحوٍ فاجعٍ في وجودنا الاجتماعيّ اليوميّ. كان ذلك الوجود الاجتماعيّ مخروقاً بالنّزاعات، لكنّ الدولة تعكس صورة عنه وكأنّه كلٌّ متكاملٌ بلا شقوق.

ترى الدولة نفسَها على أنّها تكوّن المجتمعَ من أعلى، في حين هي نتاجُ لذلك المجتمع. لم يولد المجتمع من الدولة، الأحرى أنّ الدولة هي المُتطفّل على المجتمع. التركيبة كلّها واقفة على رأسها. وكما قال أحد المعلّقين «لقد انقلبت الديمقراطيّة والرأسماليّة عاليها سافلها» وهو يعني أنّه بدلاً من أن تتولّى المؤسّسات السياسيّة ادارة الرأسماليّة، ها إنّ الرأسماليّة هي التي تتولّى ادارة تلك المؤسّسات. المتكلّم هو روبرت رايش، وزير عمل أميركيّ سابقٌ، لا شكوك حوله بأنّه قد يكون ماركسيّاً. كان هدف ماركس تجسير الفجوة بين الدولة والمجتمع، بين السياسة والحياة اليوميّة، بأنْ يذيب الأولى في الثانية. وهذا ما كان يسمّيه ديمقراطيّة. على الرّجال والنّساء أن يطالبوا في حياتهم اليوميّة بالسّلطات التي سلبتْها الدولة منهم. إنّ الاشتراكيّة هي استكمال الديمقراطيّة، وليستْ نقيضها. ويصعب أن أفهم لماذا يكثر المدافعون عن الديمقراطيّة الذين يعترضون على هذه الرؤية.

فكرة سائدة بين الماركسيّين تقول إنّ السلطة الفعليّة الآن تقع في البنوك وكبريات الشركات المجمّعة والمؤسّسات الماليّة، التي لم ينتخب أحدٌ مديريها، مع أنّ قراراتهم تؤثّر في حياة ملايين البشر. إنّ السلطة

السياسيّة إنْ هي إلّا الخادم المُطيع لـ«أسياد الكون»، إلى هذا الحدّ أو ذاك. قد تؤنّبهم الحكومات بين وقتٍ وآخر، أو حتى تصفعهم باستصدار «قانون السلوك المعادي للمجتمع»، لكنْ إذا سعى السياسيّون لدفع أرباب العمل إلى الإفلاس يتعرّضون للاعتقال والحبس في السجون على يد قوّات الأمن التابعة لهم. قد يخطر ببال الدولة أن تمسح بعض الضرّر البشريّ الناتج من النّظام الحاليّ. إنّها تفعل ذلك لاعتباراتٍ إنسانيّةٍ من جهة ولاستعادة سمعة النظام الملوّثة من جهةٍ أخرى. وهذا ما هو معروفٌ بالديمقراطيّة الاجتماعيّة. الواقع أنّ ترابط السياسة بالاقتصاد هو السبب في أنّ الدولة التي نعرفها لا يمكن اختطافها لأهدافٍ اشتراكيّة. كتب ماركس في «الحرب الأهليّة في فرنسا» أنّ الطبقة العاملة لا يمكنها إلقاء القبض ببساطةٍ على آليّة الدولة الجاهزة وتسخيرها لخدمتها. ذلك لأنّ تلك الآليّة تتضمّن انحيازاً جاهزاً للأمر الواقع. إنّ صيغتها الديمقراطيّة، المصابة بفقْر الدّم وبؤسها المثير للشفقة يناسبان المصالح المسيطِرة والمعادية للديمقراطيّة.

كوميونة باريس نموذجاً

إنّ النموذج الرئيس لماركس عن الحكم الذاتيّ الشعبيّ هو كوميونة باريس ١٨٧١، عندما سيطر شعب باريس العامل على مقاليد حياته بنفسه في العاصمة الفرنسيّة لعددٍ من الأشهر المضطربة. كانت الكوميونة، كما يصفها ماركس في «الحرب الأهليّة في فرنسا»، متكوّنة من أعضاء مجالس بلديّاتٍ محلّيّين، معظمهم من الشغّيلة، انتُخبوا بالاقتراع الشعبيّ ويمكن لناخبيهم نزع الثقة عنها. مورست الخدمة العامّة لقاءَ رواتب موازية لرواتب العمّال، وقد ألغيَ الجيشُ المحترف، وصارت الشرطة مسؤولةً أمام الكوميونة. أمّا السلطات التي كانت تمارسها الدولة الفرنسيّة سابقاً فقد تولّى أنصار الكوميونة ممارستها بدلاً منها. نُفي القساوسة من الحياة العامّة، فيما فُتحت المؤسّسات التعليميّة للشعب العامل وتحرّرتْ من تدخّل الكنيسة والدولة معاً. القضاة المدّعون العامّون وموظّفو الخدمات العامّة بات عليهم أن يُنتخبوا انتخاباً وأن يكونوا مسؤولين تجاه الشّعب الذي يملك القدرة على سحب الثقة منهم. كذلك قرّرت الكوميونة إلغاء الملكيّة الفرديّة باسم الإنتاج التعاونيّ.

كتب ماركس: «بدلاً من التقرير مرّة كلّ ثلاث أو ستّ سنوات، أيّ عضوٍ في الطّبقة الحاكمة يسيء تمثيل الشعب في البرلمان»، وضِع الاقتراع العامّ في خدمة الشعب المتكوّن في كوميونات». ويستطرد قائلاً «كانت الكوميونة في الأساس هي حكومة الطبقة العاملة... الشكل السياسيّ المكتشَف أخيراً لتحقيق التحرّر الاقتصاديّ للعمل». مع أنّه لم يُعفِ تلك المغامرة سيّئة الطالع من النّقد (أشار مثلاً إلى أنّ معظم أعضاء الكوميونة لم يكونوا اشتراكيّين) إلّا أنّه وجد فيها العديد من العناصر المنتمين إلى السياسة الاشتراكيّة. ولقد وُلد ذلك السيناريو من ممارسة الطبقة العاملة وليس من أي مرسوم نظريّ. لفترةٍ وجيزة رائعة توقّفت الدولة عن أن تكون قوّة استلابٍ واتّخذت بدلاً من ذلك شكل حكومةٍ يحكم فيها الشعبُ نفسَه بنفسه.

أطلق ماركس على ما تحقّق خلال تلك الأشهر القليلة في باريس تسمية «دكتاتوريّة البروليتاريا». قليلةٌ هي عباراته الشهيرة التي دبّت قشعريرةَ الرّعب في عروق نقّاده قدْر ما فعلتْ تلك العبارة. مع أنّ ما يعنيه في هذا المصطلح سيّئ السّمعة ليس أكثر من الديمقراطيّة الشعبيّة. إنّ دكتاتوريّة البروليتاريا تعني ببساطةٍ حكمَ الأغلبيّة. في كلّ الأحوال، مفردة «دكتاتوريّة» في زمن ماركس لم تكن تعني بالضّرورة ما تعنيه في أيّامنا هذه. كانت تعني خرقاً غير قانونيّ للدّستور السياسيّ. أوغست بلانكي، شريك ماركس المشاكس، والرجل الذي تميّز بكونه ثدْ سجنتْه كلّ الحكومات الفرنسيّة من العام ١٨١٥ إلى العام ١٨٨٠، هو الذي نحَتَ عبارة «دكتاتوريّة البروليتاريا» لتعني الحكم بالنيابة عن النّاس العاديّين، وقد استخدمها ماركس لتعني سلطة هؤلاء النّاس العاديّين. انتُخب أوغست بلانكي رئيساً لكوميونة باريس لكنْ كان عليه أن يكتفي بأن يكون رئيسها الفخريّ فقد كان في السجن في تلك الفترة.

إن دكتاتورية البروليتاريا تعنى ببساطة حكم الأغلبية. فى كل الأحـــــــــــــوال. مفردة «دكتاتورية» فى زمـــــــــــــن ماركس لم تكن تعنى ما تعنيه فى أيامنا هذه. كانت تعنى خرقا غير قانونى للدستور السياسى.

الدولة ورأس المال

كتب ماركس عن الدولة أحياناً كما لو أنّها مجرّد الأداة

المباشرة للطّبقة الحاكمة. إلّا أنّه في كتاباته التاريخيّة تجده أكثر حرصاً على التلاوين الدّقيقة. إنّ مهمّة الدّولة السياسيّة لا تقتصر على خدمة المصالح المباشرة للطّبقة الحاكمة. عليها أنْ تعمل أيضاً للحفاظ على التّماسك الاجتماعيّ، لكنّ هذين الهدفين هما هدف واحد في نهاية المطاف، مع ما قد ينشأ بينهما من نزاعٍ في المديين القصير والمتوسّط. السيّد الإقطاعيّ شخصيّةٌ سياسيّة واقتصاديّة في الآن ذاته، في حين أنّ الوظيفتين منفصلتان في ظلّ الرأسماليّة. إنّ عضو البرلمان عن دائرتك ليس هو في العادة ربّ عملك. هذا يعني أنّ ظهور الدولة الرأسماليّة بأنّها تحوم فوق العلاقات الاجتماعيّة ليس مجرّد مظهرٍ فقط. إنّ مدى استقلال الدولة عن المصالح المادّيّة يتوقّف على الظّروف التاريخيّة المتغيّرة. يبدو أنّ ماركس يحاجج بأنّه في ظلّ نمط الإنتاج الآسيويّ، الذي يتضمّن أعمال الرّيّ الضخمة التي لا يمكن أن تضطلع بها إلّا الدولة، تكون الدولة هي القوّة الاجتماعيّة المسيطِرة. إنّ ما تسمّى «الماركسيّة المبتذَلة» تنحو نحو الافتراض بوجود علاقة تماثل بين الدولة والطبقة السيّدة اقتصاديّاً، وثمّة مناسبات يكون فيها هذا الحال صحيحاً. ثمّة أوقاتٌ تتولّى فيها الطبقة المالكة إدارة الدولة مباشرة. إنّ جورج بوش وزملاءه من رجال النّفط مثالٌ على ذلك. بعبارةٍ أخرى، إنّ واحداً من أهمّ إنجازات بوش هو أنّه أثبت أنّ الماركسيّة المبتذلة على حقّ. ويبدو أيضاً أنّه بذل جهوداً جبّارة لكي يبدو النظام الرأسماليّ على أبشع صوَره، وهي واقعة إضافيّة تدعو إلى التساؤل عمّا إذا كان الرجل يعمل سرّاً في خدمة الكوريّين الشماليّين!

غير أنّ العلاقات قيد البحث أكثر تعقيداً ممّا قد توحي به إدارة بوش. في الواقع، إنّ كلّ شيء تقريباً في الوجود الإنسانيّ هو أكثر تعقيداً ممّا يوحي به. فمثلاً، ثمّة فتراتٌ تحكم فيها طبقة بالنيابة عن طبقةٍ أخرى. في إنكلترا القرن التاسع عشر، كما أشار ماركس، كانت الأرستقراطيّة الوِغز[1] Whigs لا تزال هي الطبقة السياسيّة الحاكمة فيما الطبقة الصناعيّة الوسطى كانت الطبقة المسيطرة اقتصاديّاً، فإذاً الأولى تمثّل مصالح الثانية. الثانية. وقد حاجج ماركس أيضاً بأنّ لوي بونابارت حكَمَ فرنسا في خدمة مصالح الرأسماليّة الماليّة في حين كان يقدّم نفسه على أنّه ممثّلُ صغار الفلّاحين المالكين للأرض. وعلى نحو شبيهٍ إلى حدٍّ ما، حكم النازيّون في خدمة مصالح الرأسماليّة الكبرى، لكنْ فعلوا ذلك من خلال إيديولوجيا كانت ذات منظور واضح في تمثيله الطّبقات الدّنيا. وكان هؤلاء يصبّون جام غضَبهم ضدّ طفيليّي الطبقة العليا والأغنياء الكسالى بطرائق قد يحسبها غير اليقظين سياسيّاً على أنّها راديكاليّة أصيلة. ولم يكن هؤلاء مخطئين في رأيهم هذا. ذلك أنّ الفاشيّة هي بالتّأكيد لونٌ من ألوان الراديكاليّة. إنّها تضيق بحضارة الطّبقات الوسطى الليبراليّة. كلّ ما في الأمر أنّ هذه راديكاليّة اليمين بدل أن تكون راديكاليّة اليسار.

السلطة، الديمقراطيّة، الاشتراكيّة

خلافاً لعددٍ كبيرٍ من الليبراليّين، لم يكن ماركس يتحسّس من السلطة بذاتها. ليس من مصلحة المحرومين من السلطة أن يُقال لهم إنّ كلّ سلطةٍ شيءٌ كريه، خصوصاً من طرف الذين يملكون فائضاً من السلطة. الذين تبدو لهم كلمة «سلطة» دائماً على أنّها تتضمّن التعيير محظوظون حقّاً. إنّ السلطة في قضيّة التحرّر الإنسانيّ لا يجوز خلطها بالاستبداد. إنّ شعار «السلطة السوداء» أقوى بكثير من صيحة «لتسقط كلّ سلطات!». إلّا أنّنا لن نعرف أنّ مثل تلك السلطة سلطةٌ تحرّريّة حقّاً إلّا إذا نجحتْ في أن تحوّل النّظام السياسي الحاليّ بل معنى السلطة ذاته أيضاً. إنّ الاشتراكيّة لا تتضمّن استبدال فريقٍ من الحكّام بآخر. في حديثه عن كوميونة باريس، لاحَظَ ماركس «لم تكن ثورةً لنقْل الدولة من جناحٍ من الطبقة الحاكمة إلى آخر وإنّما ثورة لتحطيم آلة السيطرة الطبقيّة المقيتة ذاتها». الاشتراكيّة تعني تغييراً في صميم معنى السّيادة. أوجه الشبَه باهتة بين ما تعنيه كلمة «سلطة» في لندن في أيّامنا هذه وما كانت تعنيه في باريس العام ١٨٧١. إنّ شكل السلطة الأكثر جدوى يتمثّل بالسلطة على الذّات، والديمقراطيّة تعني الممارسة الجمعيّة لتلك القدرة. أكّد عصر التنوير أنّ أوّل شكل للسّلطة الذي يستحقّ الخضوع له هو السلطة التي نصنعها بأنفسنا. وتقرير المصير الذاتيّ هذا هو أثمن معاني الحرّيّة. ومع أنّ البشر قد يُسيئون استخدام حرّيّتهم إلّا أنّه لا تكتمل إنسانيّتهم بدونها. إنّهم محكومون بأن يتّخذوا قراراتهم متسرّعة او طائشة بين وقت وآخر - قرارات قد يمتنع عن اتّخاذها مستبدٌّ حكيم. لكن عندما لا تكون تلك القرارات هي قراراتهم هم، فإنّها سوف تنطوي على شيء فارغٍ ومصطنع، مهما تكن حذقة.

تستمرّ السلطة على قيد الحياة من الحاضر الرأسماليّ إلى المستقبل الاشتراكيّ لكن ليس في الشكل ذاته. تتعرّض فكرة السلطة ذاتها لعمليّة تثويرٍ هي نفسها. والأمر ذاته يصحّ بالنّسبة إلى الدولة. إنّ معنىً واحداً

من معاني مفردة «دولة» - «اشتراكيّة الدولة» - يحوي تناقضاً في التعبير قدر ما تحويه النظريّات المعرفيّة لتايغر وودز[٢]. لكن، في معنى آخر، يبقى للمصطلح قوّةُ ما. بالنّسبة إلى ماركس، تبقي دولة ما في ظلّ الاشتراكيّة، وفقط فيما يتجاوز الاشتراكيّة، في ظلّ الشيوعيّة، تخلي الدولة القمعيّة المجال أمام الدولة بما هو جهازٌ إداريّ. لكنّها لن تكون دولة قد نتعرّف نحن أنفسنا عليها بسهولة. فكأنّ أحدهم يشير لنا إلى شبكة لا مركزيّة من الجماعات التي تحكم نفسها بنفسها، وتُدار بمرونةٍ بإدارة مركزيّة منتخبة ديمقراطيّاً، ويعلن «تلك هي الدولة!» فيما نحن نتوقّع شيئاً مختلفاً تماماً، أكثر هيبة وضخامة، شيئاً يشبه مثلاً قصر وست مظنستر الملكيّ، أو شارع وايت هول [حيث الأبنية الحكوميّة] أو الأمير أندرو الغامض الملغّز.

ما أغفله ماركس عن السلطة هو ما اعترف به اثنان من مواطنيه. نيتشه وفرويد كل بطريقته المغايرة. قد لا تكون السلطة كائنا قائما بذاته. لكن فى داخلها عنصرا يمارس ترف السيطرة لمجرد السيطرة ويستمتع باستعراض عضلاته بدون هدف. ثم إن السلطة تجمح دائما بالقياس إلى الأهداف العملية التى سخرت لها.

دار جانبٌ من سجال ماركس مع الفوضويّين حول مدى أساسيّة السلطة بذاتها. هل هذا مهمّ فعلاً؟ لم يكن مهمّاً بنظر ماركس. ما هو مهمّ بالنسبة إليه هو ضرورة وضع السلطة السياسيّة في إطارٍ تاريخيٍّ أوسع. على المرء أن يسأل أيّة مصالح مادّيّة تخدمها الدولة، فذلك في نظره هو جذر المسألة. وإذا كان ماركس نقديّاً تجاه المحافظين الذين يرفعون الدولة إلى مصاف المثال، فقد كان يضيق صدراً أيضاً بالفوضويّين الذين يضخّمون من أهمّيتها. رفض ماركس أن يحوّل السلطة إلى قوّةٍ مستلبة، بأن يفصلها عن محيطها الاجتماعيّ والتعامل معها كشيء قائم بذاته. وهذه بدون شكّ نقطة قوّة بين نقاط القوّة في نتاجه الفكريّ. إلّا أنّ ذلك ترافَقَ مع نقاط عمى، مثلما يحصل لنقاط القوّة غالباً. ما أغفله ماركس عن السلطة هو ما اعترف به اثنان من مواطنيه، نيتشه وفرويد كلٌّ بطريقته المغايرة. قد لا تكون السلطة كائناً قائماً بذاته، لكنّ في داخلها عنصراً يمارس ترفَ السيطرة لمجرّد السيطرة ويستمتع باستعراض عضلاته بدون هدف، ثمّ إنّ السلطة تجمح دائماً بالقياس إلى الأهداف العمليّة التي سُخّرت لها. لقد اعترف شكسبير بذلك عندما كتب عن العلاقة بين بروسبيرو وآرييل في مسرحيّته «العاصفة». آرييل هو الوكيل المطيع لسلطة بروسبيرو، لكنّه متحفّز للتخلّص من تلك السيادة ليمارسها هو بنفسه. بروحٍ لعوبٍ لكنها مؤذية، يريد أن يستمتع بملَكاته السحريّة بما هي أهدافٌ بذاتها، لا أن تبقى مقيّدة بأهداف سيّده الاستراتيجيّة. إنّ النظر إلى السلطة على أنّها مجرّد أداة يعني التغافل عن تلك السمة الحيويّة من سماتها، ما قد يؤدّي بنا إلى إساءة فهم لماذا تتمتّع السلطة بتلك الطاقة الجبّارة على القسْر.

خاتمة كتاب لماذا كان ماركس على حقّ؟
تيري إيغلتن

هذا ما لدينا. كان لماركس شغفٌ جارفٌ بالفرد وشكٌّ مريبٌ في الأفكار الجامدة المجرّدة. لم يصرف أيّ وقتٍ في تصوّر المجتمع المثاليّ، وكان حذراً من فكرة المساواة، ولم يحلم بغدٍ نرتدي فيه زيّ عمال صَهْر المعادن وقد طُبعتْ أرقامُ تسجيلنا في «الضمان الاجتماعيّ» على ظهورنا. التنوّع لا الأحديّة هو ما آمل في تحقيقه. ولم يكن يعلّم أنّ الرجال والنّساء ضحايا مستكينون يتلاعب بهم التاريخ. كان الأشدّ عداءً تجاه الدولة من المحافظين اليمينيّين، يرى إلى الاشتراكيّة على أنّها تعميقٌ للديمقراطيّة، لا عدوٌّ لها. وارتكز نموذجه للحياة الحلوة على فكرة التعبير الفنّي الذاتيّ. كان يؤمن أنّ بعض الثورات يمكن تحقيقها سلميّاً، ولم يكن بأيّ حالٍ معارضاً للإصلاح الاجتماعيّ. لم يركّز تركيزاً ضيّقاً على الطبقة العاملة اليدويّة. ولا كان يرى المجتمع بمنظار طبقتين مستقطبتين بالمُطلق.

لم يقدّس ماركس الإنتاج المادّيّ. على العكس من ذلك، كان يفكّر أنّه يجب التحرّر منه قدر الإمكان. كان مثاله الأعلى هو الرفاه، لا العمل. وإذا كان أولى ذاك القدر من الاهتمام للاقتصاد فمن أجل تقليص سطوته على البشريّة. وكانت نزعته المادّيّة قابلة للتوافق كلّيّاً مع أرقى القناعات الأخلاقيّة والروحانيّة. كال الكثير من المديح للطبقة الوسطى، ورأى في الاشتراكيّة على أنّها وريثٌ لكبار مواريث الحرّيّة والحقوق المدنيّة والرفاه المادّيّ. أمّا آراؤه عن الطبيعة والبيئة فكانت متقدّمة بأشواط مذهلة قياساً لعصره. ولم يكن لنصير حقوق النساء والسلام العالميّ والنّضال ضدّ الفاشيّة أو النّضال من أجل التحرّر الوطنيّ أن يكون أكثر حماسةً من الحركة السياسيّة التي تولّدت بوحيٍ من مؤلّفاته.

فهل وُجِد إطلاقاً مفكّرٌ تعرّض للمسخ قدْر ما تعرّض له هذا المفكّر؟

الهوامش

١ Whigs الاسم الذي يطلق على حزب الملكيّين الدستوريّين الذي نشأ عن ثورة العام ١٦٨٨ الدستوريّة في مقابل Tories - وهم حزب الملكيّة المطلقة. وقد ارتبط الحزبان أيضاً بأسرتين ملكيّتين متنافستين على العرش. في القرن التاسع عشر تمايز الحزبان في تمثيلهما الاجتماعيّ حيث مثّل «الويغز» - حزب الأحرار - الرأسماليّة الصناعيّة داعية حريّة التجارة و«التوريز» - حزب المحافظين - أرستقراطيّة الأرض والنظام الملكيّ. مع نموّ حزب العمّال، ظلّ نظام الحزبين قائماً على حزب المحافظين وحزب العمّال إلى أن حقّق الأحرار عودة متواضعة كحزب في العقود الأخيرة من القرن العشرين.

٢ لاعب غولف أميركي شهير، والاستشهاد به لبداهة القول إنّ الرجل لا يتعاطى نظريّات معرفيّة.

صنميّة السلعة
ونكتة الدجاجة وحبّة القمح

سلافوي جيجك

فيلسوف وعالم نفسانيّ وجامعيّ من سلوفينيا، يوغسلافيا السابقة. أحد ألمع فلاسفة أوروبا في ربع القرن الأخير. يبني نتاجه الثريّ المشاغب على علم النّفس (جاك لاكان) وهيغل وماركس. إلى جانب عدّة كتب تنقيحيّة في الفلسفة وعلم النفس والنظريّة الماركسيّة، يُعرَف جيجك بمتابعاته النقديّة المبتكرة لكلّ ما له علاقة بالحياة اليوميّة في عالمنا المعاصر.

بعد ٢٠٠ سنة يمكننا القول إنّ ماركس كان غالباً على حقّ - لكن بطريقة أوسع بكثير ممّا قصد.

هناك نكتة سوفياتيّة لذيذة عن «راديو يريفان»: يسأل أحد المستمِعين «هل صحيح أنّ رابينوفتش كسب سيّارةً جديدة في اليانصيب؟» فيجيبه مقدّم البرنامج «مبدئيّاً نعم، صحيح، مع أنّها لم تكن سيّارة جديدة بل درّاجة عتيقة، ثمّ إنّه لم يكسبها إنّما سُرقتْ منه».

أليس هذا ينطبق تماماً على ميراث ماركس اليوم؟ فلنسأل «راديو يريفان»: «هل لا تزال نظريّة ماركس صالحة اليوم؟» نستطيع أن نخمّن الجواب: مبدئيّاً، نعم، فهو يصف بطريقة رائعة الرقصة المخبّلة لديناميّات الرأسماليّة وقد بلغتْ ذروتَها في أيّامنا هذه، بعد أكثر من قرن ونصف القرن... لكنّ جيرالد كوهين عدّد أربعَ سماتٍ للفكرة الماركسيّة الكلاسيكيّة عن الطبقة العاملة:

١◆ أنّها تشكّل أكثريّة السكّان
٢◆ أنّها تنتج ثروة المجتمع
٣◆ أنّها تتكوّن من أفراد المجتمع المستغلّين
٤◆ أفرادها هم فقراء المجتمع. وعندما تتجمّع هذه السمات، تنتج سمتين اضافيّتين:
٥◆ الطبقة العاملة ليس لديها ما تخسره من القيام بالثورة
٦◆ الطبقة العاملة تستطيع الانخراط في عمليّة التحويل الثوريّة للمجتمع وإنّها لفاعلة.

ما من واحدة من هذه السمات الأربع تنطبق على الطبقة العاملة اليوم، ولهذا السبب لا يمكنها إنتاج السمتين (٥) و(٦). ومع أنّ بعض السمات لا تزال تنطبق على أجزاء من المجتمع، فإنّها لم تعد موحّدة في ذاتٍ واحدة: لم يعد العمّال هم فئة المعوزين في المجتمع، بما قد يستتبعه ذلك.

لكن إلى مزيد من التعمّق في مسألة الجدوى والملاءمة. ليس فقط إنّ نقد ماركس للاقتصاد السياسيّ وتصويره لديناميّات الرأسماليّة لا يزالان راهنين كلّيّاً، بل إنّ المرء يستطيع أن يخطو خطوة إضافيّة إلى أمام ويدّعي أنّها لم تكتسب راهنيّتها كلّيّاً إلّا في أيّامنا هذه فقط، في ظلّ الرأسماليّة الكونيّة.

غير أنّ لحظة الانتصار هي لحظة هزيمة. فبعد التفوّق على العقبات الخارجيّة إذا الخطر الجديد يصدر من الداخل. بكلماتٍ أخرى، لم يكن ماركس مخطئاً هكذا ببساطة، كان غالباً على حقّ، لكنّه كان على حقّ حرفيّاً أكثر ممّا كان يتوقّع أن يكون.

فمثلاً، لم يكن لماركس أن يتخيّل أنّ ديناميّات الرأسماليّة العاملة على تذويب كلّ الهويّات الخصوصيّة سوف تترجم إلى هويّات إثنيّة أيضاً. إنّ تمجيد «الأقلّيّات» و«المهمّشين» الآن هو الموقف الأكثريّ الغالب - اليمينيّون المتطرّفون الذين يتذمّرون من إرهاب «اللائق سياسيّاً» يستغلّون ذلك لتقديم أنفسهم على أنّهم حماة أقلّيّةٍ مهدَّدة بالانقراض، ويحاولون استدعاء حملات عكسيّة من الطّرف الآخر.

نكتة الدجاجة وحبّة القمح

ثمّ هناك مسألةُ «صنميّة السلعة». هل تتذكّرون النكتة الكلاسيكيّة عن الرجل الذي كان يعتقد أنّه حبّة قمح فأخذوه إلى مصحّ عقليّ حيث بذل الأطبّاء وسعهم لإقناعه

أخيراً بأنّه ليس حبّة قمح بل إنسان. وعندما تعافى (وقد بات مقتنعاً بأنّه ليس حبة قمح وإنّما هو إنسان) وسُمِح له بمغادرة المستشفى، عاد مهرولاً وراجفاً: ثمّة دجاجة خارج الباب وقد يخاف أن تلتهمه. «يا عزيزنا»، قال له طبيبه، «أنت تعلم جيّداً أنّك لستَ بحبّة قمح وإنّما أنت إنسان». «أكيد أنّي أعرف»، أجاب المريض، «ولكن هل الدّجاجة تعرف ذلك؟».

كيف ينطبق هذا إذاً على فكرة صنميّة السلعة؟ لاحِظوا مطلع الفصل عن صنميّة السلعة في كتاب ماركس «رأس المال»: «تظهر السلعة للوهلة الأولى على أنّها شيء بديهيّ بل تافه. غير أنّ تحليلها يُظهِر لنا شيئاً شديد الغرابة، مليئاً بالمتساميات الميتافيزيقيّة الدقيقة وباللطائف الفقهيّة».

إنّ صنميةّ السلعة - أي إيماننا بأنّ السلع كائناتٌ سحريّة، مزوّدة بقوّةٍ ميتافيزيقيّة ضمنيّة - هذا الإيمان ليس موضعه في ذهننا ذاته، بالطريقة التي نتصوّر فيها الواقع (أو نسيء تصوّره) لكنّه - الإيمان - مبثوثٌ في الواقع الاجتماعيّ نفسه. ونحن إنّما نتصرّف مثل الدجاجة في النكتة.

نِيلز بُوهْر - الذي سبق له أن قدّم الجواب الصحيح على لغز آينشتاين («الله ليس لاعب نرد») بقوله «لا يحقّ لك أن تنصح الله بما يترتّب عليه أن يفعل» - قدّمَ أيضاً المثال الكامل عن الكيفيّة التي يشتغل بها الإنكار الصنميّ للإيمان. زائرٌ شاهد حدوة حصانٍ فوق باب بوهْر، علّق بقوله أنّه لم يكن يعتقد أنّ بوهْر يؤمن بالخرافة التي تقول إنّ حدوات الأحصنة تجلب الحظّ للنّاس. ردّ عليه بوهْر للفور: «وأنا أيضاً لست أعتقد بتلك الخرافة، لكنّي أعلّق الحدوةَ لأنّه قيل لي إنّها تفعل مفعولها بغضّ النظر عمّا إذا كان المرء يؤمن بالخرافة أم لا!».

هكذا تفعل الأيديولوجيا فعلها في عصرنا المستهتر: لسنا مضطرّين للإيمان به. لا أحد يأخذ الديمقراطيّة أو العدالة مأخذ الجدّ، كلّنا يعي فساد هذه وتلك، لكنّنا نمارسهما - بعبارة أخرى، إنّنا نشهر إيماننا بهما - لأنّنا نفترض أنّهما يمارسان مفعولهما حتى لو لم نكن نؤمن بهما.

بالنظر للدِين، لم نعد «نؤمن إيماناً حقيقيّاً»، إنّنا نتّبع (البعض من) الطقوس والشعائر والقواعد الدينيّة بما هي تعبير عن احترامنا لـ«نمط حياة» الجماعة التي ننتمي إليها (اليهود غير المؤمنين يتبعون مع ذلك قواعد «الكاشر» (الطعام المباح) «على سبيل الاحترام للتّقاليد» مثلاً).

«لستُ أؤمن به، لكنّه جزء من ثقافتي» - يبدو هذا القول على أنّه النّمط الطاغي للإيمان المُنزاح الذي يميّز عصرنا. «الثقافة» هي الاسم لجميع تلك الأشياء التي نمارسها من دون أن نؤمن بها فعلاً، من دون أن نأخذها على محمل الجدّ.

لهذا السبب ننبذ الأصوليّين على أنّهم «برابرة» أو «بدائيّون»، أي معادون للثقافة، بل على أنّهم يشكّلون خطراً يتهدّد الثقافة - لأنّهم يتجاسرون على أخذ معتقداتهم على محمل الجدّ.

إن العصر المستهتر الذي نعيش فيه لم يكن ليحمل أيّة مفاجآت بالنسبة إلى ماركس.

وإنّ نظريّات ماركس ليست حيّة فقط: إنّ ماركس شبحٌ لا يزال يقضّ مضاجعنا - والطريقة الوحيدة لإبقائه على قيد الحياة هي بالتركيز على أفكاره الثاقبة التي هي صحيحة الآن أكثر ممّا كانت في زمانه.



ماركس والشرق الأوسط ٢/١

جلبير الأشقر

ننشر فيما يلي ترجمةً للنصف الأوّل من دراسةٍ كتبها جلبير الأشقر بما هي فصلٌ من فصول كتاب أكسفورد عن كارل ماركس (The Oxford Handbook of Karl Marx) الذي سيصدر قريباً عن منشورات جامعة أكسفورد. وسننشر النّصف الثّاني من الدّراسة في عدد بدايات الآتي. ترجمة: يزن الحاج

مع أنّ إسهام كارل ماركس الأهمّ في العلوم الاجتماعيّة يقوم في الأساس على تحليله النقديّ للاقتصادات والسياسات الأوروبيّة الغربيّة، فإنّه لمن المعروف أنّ المنهجيّة التاريخيّة التي صاغها بالتعاون مع فريدريش إنغلز تدّعي صلاحيّة شاملة. والحال أنّ المنطقة التي يُشار إليها عادةً بتسمية الشرق أو الشرق الأوسط - أو تبعاً للتوصيف الأكثر اصطلاحيّة، الشرق الأوسط وشمال أفريقيا [مينا] (MENA) وهي المنطقة التي تضمّ أعضاء جامعة الدّول العربيّة علاوةً على إيران، مع إضافة تركيّا أحياناً [مينات] (MENAT) - تلك المنطقة هي واحدة من المناطق التي كان فيها الادّعاء المذكور مثار أكبر جدال، أكان من جانب نقّاد الماركسيّة المحليّين أم الغربيّين. ويهدف ما يلي إلى تبيان أنّ إرث ماركس الفكريّ لا يقلّ جوهريّةً في تحليل هذا القسم من بلدان أطراف النظام الرأسماليّ عنه في تحليل بلدان المركز.

الاستشراق ونقده

إنّ الخلل المنهجيّ الرئيسيّ الذي تواجهه دراسة منطقة مينا هو ذلك المتعلّق بـ«الاستشراق»، بالمعنى الذي ساد فيه هذا المصطلح بعد صدور كتاب إدوارد سعيد المؤثّر الذي اتّخذه عنواناً له[١]. «الاستشراق» بهذا المعنى مثالٌ عن التّنميط الثقافيّ الذي يختزل تفسير السّمات التاريخيّة الخاصّة بالبلدان «الشرقيّة» إلى ثقافة أزليّة مزعومة. إنّ «الاستشراق»، بكلام آخر، أحدُ نماذج الجوهرانيّة التي هي طريقةٌ في النّظر إلى التاريخ من خلال عدسة الثقافة باعتبارها طبيعة: لا الثقافة بوصفها مجموعة أفكار وأعراف تتغيّر عبر الزمن بالتّرافق مع التحوّل الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسياسيّ، بل الثقافة بوصفها جوهراً ثابتاً يحدّد طرق التطوّر الكليّ.

أيُّ قارئ مطّلع على فكر ماركس سيدرك أنّ التوصيف أعلاه يحيلُ إلى نمطٍ من التفسير المثاليّ للتاريخ بلغ ذروته مع الفيلسوف الألمانيّ هيغل وقد اشتُهر ماركس وإنغلز بتفنيده، مستبدلينه بتفسيرهما المادّيّ للتاريخ - أو «الماديّة التاريخيّة» كما شاعت تسميته. وفي الحقيقة، فإنّ هيغل ذاته هو صاحب التصريح الأكثر إيجازاً ونموذجيّةً بين التصريحات التي عبّرت عن رؤية «استشراقيّة» لما سمّاه «العالم الشرقيّ» - الإسلام («المحمّديّة») على الأخصّ - وذلك في كتابه محاضرات في فلسفة التاريخ العالميّ الذي يجمع محاضرات ألقاها بين عامَي ١٨٢١ و١٨٣١ [٢]. وحيث إنّ ماركس قد ركّز على أنّه ينبغي، بدلاً من تفسير «تناقضات الحياة الماديّة» من خلال «الصيَغ القانونيّة، أو السياسيّة، أو الدينيّة، أو الفنيّة، أو الفلسفيّة - باختصار، الصيغ الأيديولوجيّة» التي تهيمن في المجتمع، ينبغي تفسير الأخيرة من خلال الأولى، فإنّ نقده المنهجيّ للتفسير المثاليّ للتاريخ وإطاحته به يشكّلان، ضمن السياق ذاته، التّفنيد الأكثر جذريّة لـ«الاستشراق».

وليس إذاً من قبيل المصادفة على الإطلاق أنْ يكون نقد ما اشتُهر باسم «الاستشراق» بمعنى ازدرائيّ بعد سعيد، كان روّاده باحثين ماركسيّين في دراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلاميّة، أبرزهم المصريّ أنور عبد الملك والفرنسيّ مكسيم رودنسون[٣]. وقد أبدى سعيد ثناءً ملائماً لكلٍّ منهما في كتابه الأشهر واقتبس فقرات طويلة من نقد عبد الملك الملهِم للاستشراق[٤]. لكنّه لم يعترف بأيّ مديونيّة لتفنيد ماركس للجوهرانيّة التاريخيّة التي ألهمت الكاتبَين المذكورين، بل على العكس تماماً، قام سعيد بإدراج ماركس بين «مستشرقي» القرن التاسع عشر الذين صبّ عليهم جام نقده القاسي. وقد جلب على نفسه بنتيجة ذلك

انتقادات من ماركسيّين أبناء بلدان تنتمي إلى الشرق، مثل السوريّ صادق جلال العظم، واللبنانيّ مهدي عامل، والمصريّ سمير أمين، والهنديّ إعجاز أحمد[٥].

وقد اعتمد سعيد في نبذه لماركس في الاستشراق على تعقيبات كتبها هذا الأخير عن الهند عام ١٨٥٣، وعلى الأخصّ في مقالة واحدة اقتبس منها سعيد فقرات طويلة[٦]. في تلك المقالة، التي نُشرتْ في صحيفة نيويورك دايلي تريبيون تحت عنوان «الحُكم البريطانيّ في الهند»[٧]، لخّص ماركس حُكمه في فقراتٍ اقتبس منها سعيد على النّحو الآتي:

والآن، برغم أنّ المشاعر البشريّة تتقزّز لا محالة حين تشهد تلك الأعداد الضخمة من المنظّمات الاجتماعيّة الكادحة البطريركيّة وغير المؤذية وقد تفتّتتْ وتحلّلت إلى وحداتها المُكوِّنة، وأُلقي بها في بحر الفجائع، فيما يفقد أعضاؤها في الوقت ذاته صيغة حضارتهم القديمة، وموارد رزقهم المتوارثة، فإنّ علينا ألّا ننسى أنّ هذه المجتمعات القرويّة الشاعريّة، برغم مظهرها غير المؤذي على ما يبدو، لطالما كانت الأساس الراسخ للاستبداد الشرقيّ، وأنّها حصرت الذهن البشريّ ضمن أضيق حدود ممكنة، مُحيلةً إياه إلى الأداة المطواعة للخرافات، مُستعبدةً إياه تحت قيود الأحكام التقليديّة، حارمةً إياه من جلاله كلّه ومن الطاقات التاريخيّة...

صحيح أنّ إنكلترا، حين تسبّبت باندلاع ثورة اجتماعيّة في هندستان، لم تكن مدفوعةً إلّا بأحطّ المصالح، وكانت غبيّةً في طريقة فرضها تلك المصالح. ولكن ليس هذا هو السؤال. إنّما السؤال هو، هل بوسع البشريّة بلوغ مرامها من دون ثورةٍ أساسيّةٍ في وضع آسيا الاجتماعيّ؟ إن كانت الإجابة بالنّفي، فأيّاً تكن جرائم إنكلترا، كانت هي أداة التاريخ غير الواعية في إحداث تلك الثورة[٨].

مع كلّ الاحترام لسعيد، من الإنصاف الإقرار بأنّه لا يوجد في ما سبق أو في أيٍّ من كتابات ماركس الغزيرة الأخرى تصويرٌ لـ«الشرقيّين» على أنّهم يجسّدون «جوهراً» راسخاً في ثقافةٍ أزليّة. بل يتعارض مثل هذا التصوير، في الحقيقة وبصورة مباشرة، مع تفسير ماركس الماديّ للتاريخ. ففي الاقتباس أعلاه، بعيداً من افتراض أنّ الهنود محكومون بالبقاء عالقين في «صيغة حضارتهم القديمة» بسبب ثقافتهم، ينسب ماركس تلك الثقافة إلى البنية الاجتماعيّة بحيث إنّ ما تبدو وكأنّها «مجتمعات قرويّة شاعريّة» كانت الأساس الذي قامت عليه منظومة من «الاستبداد الشرقيّ» والفئويّة المنغلقة والعبوديّة، «أحالت وضعاً اجتماعيّاً من التطوّر الذاتيّ إلى مصير طبيعيّ راسخ لا يتبدّل». ولذا يشير ماركس إلى أنّ إنكلترا، عبر «تسبّبها باندلاع ثورةٍ اجتماعيّة» في الهند، وبرغم كونها «ليست مدفوعةً إلّا بأحطّ المصالح» وعلى نحوٍ إجراميّ، كانت تشقّ الطريق إلى «ثورة أساسيّةٍ في وضع آسيا الاجتماعيّ» لا يمكن للبشريّة «أن تبلغ مرامها» من دونها. وهذا حقّاً بعيدٌ كلّ البعد عن وجهة النظر «الاستشراقيّة».

ماركس والشرق

ليس القصد هنا، بالطبع، ادّعاء أنّ آراء ماركس حيال الهند في عام ١٨٥٣ كانت بلا شائبة: لقد كانت معلولة بالتأكيد، ولكن ليس بفعل «الاستشراق». إنّما كانت مقيَّدة بالحدود المعرفيّة الموضوعيّة التي كان ماركس يمارس تفكيره ضمنها[٩]. فباعتماده على معرفة أوروبيّة محدودة ومنحازة بشأن المجتمعات غير الأوروبيّة، كانت هي المعرفةَ الوحيدة المتاحة له، وتحتّم أن يكون تقييم ماركس للتاريخ الهنديّ «ذا تمركزٍ أوروبيّ». ولقد بيّنَ دانييل ثورنر كيف أنّ آراء ماركس حيال الهند في أواخر أربعينيّات القرن التاسع عشر وأوائل خمسينيّاته، بما فيها مقالاته لعام ١٨٥٣ في نيويورك دايلي تريبيون، كانت محدّدة بتقييدات عصره المعرفيّة[١٠]. وقد ردّدت في الواقع، وإنْ بمسحةٍ ماديّة، بعض تصريحات هيغل الخاطئة والمتحاملة التي أفصح عنها في محاضراته في فلسفة التاريخ، وعلى الأخصّ فكرة ركود الهند التاريخيّ المزعوم.

وكذلك ظهر التمركز الأوروبيّ المعرفيّ لدى ماركس في اعتقاده أنّ سائر البلدان ستقتفي مسار التطوّر الأوروبيّ. وبذلك رأى أنّ الاستعمار الأوروبيّ يحقّق دوراً تقدّمياً من وجهة النظر التاريخيّة في تخليص كافة الشعوب غير الأوروبيّة (لا شعوب الشرق وحدها) من بُناها الاجتماعيّة العتيقة ووضعها على درب التطوّر الرأسماليّ الذي سارتْ عليه أوروبا قبلها. ومع أنّ ماركس صوّر الاستعمار باطّراد بأوصافٍ شنيعةٍ ملائمةٍ، كما فعل لاحقاً في الفصول الأخيرة من المجلّد الأوّل من كتابه رأس المال، إلّا أنّه اعتنق بادئ الأمر تصوّراً غائيّاً للتاريخ بوصفه سيرورة تحضُّرٍ لا مناص منها - وهي رؤية تنتمي بقوّة إلى روح عصره.

ولكن، أن نصف ذلك وكأنّه تمركزٌ أوروبيّ من طراز التمركز الإثنيّ الاستعلائيّ - من النّمَط الذي حدا هيغل إلى التأكيد على أنّ «العالم الجرمانيّ» هو «روح العالم الجديد» - إنّما هو سوء تأويل خطير. إذ إنّ ماركس الشابّ

لم يكن معجباً بأمّته الألمانيّة، بل بطبقةٍ: البورجوازيّة، وليست البورجوازيّة الألمانيّة (التي كان يمقتها بالأحرى)، بل الرأسماليّة الإنكليزيّة في المقام الأوّل. ومع أنّه اعتبر أنّ البورجوازيّة هي «العدوّ» منذ اعتنق المبدأ الشيوعيّ، إلّا أنّه امتدح أفعالها انطلاقاً من إيمانٍ بضربٍ من التقدّم يُفضي لا محال إلى النهاية الشيوعيّة للتاريخ، وهي سيرورة تاريخيّة ليست البورجوازيّة فيها سوى «الأداة غير الواعية».

إنّ هذه النسخة الماديّة - الشيوعيّة من التصوّر الهيغليّ للتاريخ معروضة بأكثر الصيغ سذاجةً في البيان الشيوعيّ، الذي يتغنّى بالمدائح للبورجوازيّة من أجل إنجازها التاريخيّ. بيد أنّ ما ينجلي هناك أصلاً ليس نوعاً من الازدراء الأوروبيّ المتمركز إزاء غير الأوروبيّين، بل ازدراءٌ عموميّ إزاء كافّة صيغ الحضارة ما قبل الصناعيّة، أوروبيّة كانت أو غير أوروبيّة. إنّ السرديّة التاريخيّة الكبرى المعروضة في البيان الشيوعيّ سرديّةٌ لاذعة تجاه إرث أوروبا الإقطاعيّة و«تنْبلتها الأشدّ كسلاً»، وتجاه ريف أوروبا و«بلاهة الحياة القرويّة» بقدر ما هي لاذعة تجاه «البلدان الهمجيّة ونصف الهمجيّة»، «شعوب الفلّاحين»، و«الشرق»، وقد قزّمت إنجازات الحضارات السابقة كلّها، «أهرامات مصر، وقنوات روما، والكاتدرائيّات القوطيّة» على السواء[11].

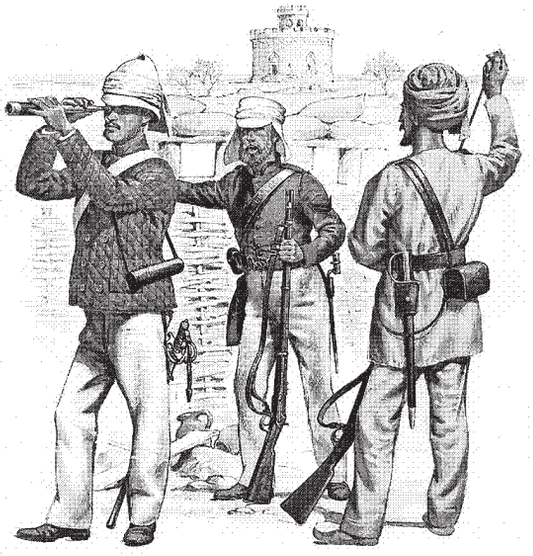

إنّ الخطأ الأساسيّ في تفسير البيان الشيوعيّ لدور الرأسماليّة الأوروبيّة العالميّ يبين في أوضح تجلّياته في التأكيد الشهير على أنّ البورجوازيّة «تخلق عالماً على صورتها»:

بالإتقان السريع لأدوات الإنتاج، وبالتّحسين الدائم لوسائل المواصلات، تجرّ البورجوازيّة إلى تيّار الحضارة حتّى أشدّ الأمم همجيّة... وتقود قسراً جميع الأمم، تحت طائلة الهلاك، إلى تبنّي نمط الإنتاج البورجوازيّ، وترغمها، مهما أبتْ، على إدخال الحضارة المزعومة إليها أو قُلْ ترغمها على أن تصبح بورجوازيّة، وباختصار، هي تخلق عالماً على صورتها[12].



ترى وجهة النّظر المطروحة هنا أنّ البورجوازيّة الأوروبيّة تُرغم أولئك الذين تعدّهم «همجيّين» على اعتناق «نمط الإنتاج البورجوازيّ» - «الحضارة المزعومة». ومع أنّ هذه الفقرة تبدو وكأنّها تحتوي على نبرةٍ نقديّة مُضمرة حيال استخدامها لتصنيفَيْ «همجيّ» و«متحضّر» عبر الإحالة إلى «الحضارة المزعومة» (تبعاً للبورجوازيّة)، إلّا أنّها تبقى مبنيّةً على إغفالٍ ساذج لكون البورجوازيّة الأوروبيّة، بعيداً عن تسويتها لمناطق العالم، كانت في الواقع تُخضع الأمم الأقلّ تطوّراً وتخلق تقييداً بنيويّاً عالميّاً غدا عائقاً أساسيّاً أمام تطوّر تلك الأمم وتحوّلها إلى أممٍ «بورجوازيّة» مماثلة.


XII
54

ولم يمض وقتٌ طويل، على أيّة حال، قبل أن يقرّ ماركس إقراراً تامّاً بهذه الحقيقة الأساسيّة التي أغفلها في كتاباته الأولى[١٣]. ومع هذا، فإنّ وجهة نظره لم تكن يوماً جوهرانيّة أو ثقافويّة، بل استندت على الدّوام إلى الشروط الماديّة. لذا أقرّ مايكل كُرتِس، بعد مقارنته بين أفكار سبعة مفكّرين أوروبيّين كبار حيال «الاستبداد الشرقيّ»، من مونتسكيو إلى ماكس ڤيبر، أقرّ بالفارق بين ماركس والعُرف الغربيّ قبله في مناقشة ما رأى فيه جميعهم ركوداً تاريخيّاً خاصّاً بالمجتمعات الشرقيّة:

عزا أرسطو ومونتسكيو ذلك الركود إلى الطبيعة السلبيّة والمتراخية للشعوب الشرقيّة. ورأى فيه بُرك ومِلْ الأب والابن نتيجةً لاقتفاء العادات والتقاليد في المجتمعات الآسيويّة. بينما عدّه ماركس وإنغلز نتاجاً لنمط الإنتاج الآسيويّ... ورأيا أن العوامل المتداخلة - غياب التراكم بسبب استيلاء الطاغية الشرقيّ على الفائض، الافتقار إلى المبادرة القرويّة بفعل عدم وجود جمعيّات طوعيّة، تسخير الأفراد للأرض، غياب العمل المأجور وديمومة شروط الإنتاج البدائيّة - هذه العوامل هي التي تُفسّر العجز عن التطوّر[١٤].

«التراكم البدائي» للرساميل الذي حققته أوروبا الغربية كان حاسما في إعاقة حدوث داخلي لسيرورة مماثلة في العالم غير الأوروبي. ولقد تحقق نهب القسم الأكبر من العالم من خلال التفوق العسكري. فخلق بنية هرمية للنظام العالمي أدامت الامتياز التاريخي لأوروبا الغربية ومشتقاتها في أميركا الشمالية.

لاحظ كُرتِس أيضاً أنّ فكرة الدين كعامل يُفسّر الرّكود المزعوم ذاته «لم يتناوَلها ماركس أو يُناقَشها تحليليّاً»[١٥]، في تمايزٍ صارخ عن ماكس ڤيبر في هذا السياق[١٦]. وبعد بحث مستفيض في أعمال ماركس الكاملة، وجد كُرتِس «إحالةً عابرةً وحيدةً إلى عاملٍ نفسيّ أو بيولوجيّ» يتّصل بـ «الاستبداد الشرقيّ»[١٧]، لكنّه في الحقيقة أساء فهم تفكيك ماركس لإحدى محاجّات الاقتصاديّ البريطانيّ ريتشارد جونز، فظنّ كُرتِس أنّها مناصرةٌ لرأي الأخير القائل إنّ «الطّبع والميل» هما ما يحدّدان النّزوع إلى التراكم الرأسماليّ. والحقيقة أنّ ماركس، في نقده لجونز، ردّ على هذا الرأي الجوهرانيّ بتأكيدٍ يُشكّل دحضاً قويّاً لأيّ تفسيرٍ وراثيّ للتاريخ يتركّز على «ثقافةٍ» يُزعم أنّها أزليّة: «فتطوّر الإنتاج الرأسماليّ يخلق مستوى وسطيّاً من المجتمع البورجوازيّ ويخلق بذلك مستوى وسطيّاً من الطّبع والميل لدى الشّعوب الأكثر تنوّعاً»[١٨].

الإمبرياليّة والتطوّر المتفاوت

إضافةً إلى قلب السببيّة بين المجالين الثقافيّ والاجتماعي - الاقتصاديّ، فإنّ قلب ماركس وإنغلز للمنظور رأساً على عقب يشير إلى مسار استقصاءٍ مختلف جذريّاً. إذا كانت بنية السلطة العالميّة، وليست أيّة خصائص ثقافيّة، هي السبب الأساسيّ في كبح تطوّر البلدان التّابعة، تنبع أسئلة جديدة فيما يخصّ العلاقة بين الثقافة والتغيّر الرأسماليّ. ويتّصل أحد تلك الأسئلة الأساسيّة بكيف نفسّر كون نمط الإنتاج الرأسماليّ قد تطوَّر في أوروبا الغربيّة بادئ الأمر، وجلب معه تحوّلاً ثقافيّاً ملازماً، دوناً عن بقاع العالم الأخرى؟

في نظر الماركسيّين، تكمن الإجابة في خصائص نمط الإنتاج الإقطاعيّ الأوروبيّ وتضافره مع سمات أوروبا الغربيّة المناخيّة، علاوةً على موقعها الجغرافيّ بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسيّ. وقد كانت هذه المسألة ولا تزال مثاراً للمناقشة[١٩]. غير أنّ ما بدا واضحاً في نظر ماركس نفسه هو أنّ تطوّر أوروبا الغربيّة المبكّر استند إلى حدّ بعيد إلى نهبٍ عظيم الحجم ارتكبتْه إزاء العالم غير الأوروبيّ. وقد وصف ماركس بتعبيرات قويّة في رأس المال العنف الذي ارتكزت عليه ولادة الرأسماليّة: «إنّها لحقيقةٌ صارخة، في التاريخ الفعليّ، أنّ الغزو والاستعباد والنّهب والقتل، أي، باختصار، القوّة هي التي تلعب الدور الأكبر»[٢٠]. والنتيجة هي التالية: «يَقطُر الرأسمال من رأسه إلى أخمص قدميه، ومن كافّة مساماته، الدّم والقذارة»[٢١]. هكذا فإنّ «التراكم البدائيّ» للرساميل الذي حقّقته أوروبا الغربيّة كان حاسماً في إعاقة حدوث داخليّ لسيرورةٍ مماثلة في العالم غير الأوروبيّ. ولقد تحقّق نهب القسم الأكبر من العالم من خلال التفوّق العسكريّ، فخلق بنيةً هرميّة للنظام العالميّ أدامت الامتياز التاريخيّ لأوروبا الغربيّة ومشتقّاتها في أميركا الشماليّة وأستراليا على حساب باقي العالم، باستثناء اليابان التي استفادتْ من المسافة ومن كونها جزيرة.

كان معظم الشرق الأوسط تحت الحُكم العثمانيّ حينما بدأت الرأسماليّة تكوُّنها في أوروبا الغربيّة. وفي القرن التاسع عشر دخلت الإمبراطوريّة العثمانيّة في

مرحلة انحطاطٍ متزايد، بينما أخذت القوى الأوروبيّة الغربيّة تتعدّى مجالها العربيّ. وسقطت المنطقة كلّها في نهاية المطاف تحت الهيمنة الغربيّة الاستعماريّة وشبه الاستعماريّة، بحيث انتقلتْ من إخضاع إلى آخر أقوى بكثير، شملها برمّتها. وفي الظروف النّاجمة عن ذلك، بات تطوّر الرأسماليّة المحليّ مغموراً ومخنوقاً من قِبَلِ احتياجات تطوّره في البلدان المهيمنة، التي بات تابعاً لها. وتُقدّم مصر مثالاً قويّاً عن هذه المشكلة، من خلال الدّور الكبير الذي أدّتْه بريطانيا الإمبرياليّة في إجهاض مشروع محمّد علي التحديثيّ في النّصف الأوّل من القرن التاسع عشر[٢٢]. لم يكن أيّ من الطّبع أو الدين مسؤولاً عن ذلك، وليس هناك من وجهةٍ نظريّة تنقض مثل هذه الادّعاءات «الاستشراقيّة» مثلما تنقضها وجهة ماركس الماديّة التاريخيّة.

وثمّة سؤالٌ مُلازِمٌ ينبع من وجهة ماركس النظريّة، سؤالٌ مناسب جدّاً حيال الشرق الأوسط، ألا وهو: لمَ لمْ يُفضِ تطوّر الرأسماليّة المدفوع خارجيّاً في مناطق الأطراف جميعها إلى التحوّل الثقافيّ ذاته؟ كيف يمكن، على الأخصّ، تفسير ديمومة بعض السمات العتيقة جدّاً في بعض بلدان الأطراف الرأسماليّة، وهي حالة تبلغ أقصى درجاتها في الشرق الأوسط مع استمرار هيمنة قَبَليّة بطريركيّة عتيقة جدّاً في مشايخ مجلس التعاون الخليجيّ. والحال أنّ هذه المشيخات، بفضل غناها بالهيدروكربونات، شهدتْ أقصى درجات تقدّم التطّور المحلّيّ للاقتصادات الرأسماليّة، بما فيها محاكاة على نطاقٍ واسع للمشاهد الرأسماليّة المدينيّة الحديثة المتّسمة ببهرجة كثيفة، وحافظتْ مع ذلك على سماتٍ اجتماعيّة وثقافيّة عتيقة كحجارة أساس لأنظمتها الاجتماعيّة - السياسيّة.

فإن رؤية ماركس للتركيب بين السّمات الحديثة والعتيقة الذي يُتيحه تزامن تشكيلات اجتماعيّة بدرجات متنوّعة من التطوّر - وهي وجهة نظر تناول منها روسيا على نحو مشهور[٢٣] - رؤية ماركس هذه لا تجد تجلّياً أوضح ممّا نجده في هذه المشيخات النفطيّة. غير أنّ نموذج التطوّر المركّب الذي تقدّمه تلك المشيخات يتعلّق بتوليفة السّمات الرأسماليّة الحديثة والسّمات ما قبل الرأسماليّة العتيقة التي وصفها ليون تروتسكي تحت تسمية «التطوّر غير المتكافئ والمركّب» في كتابه الشهير تاريخ الثورة الروسيّة،[٢٤] أكثر مما تتعلّق بالفرضيّة التي أطلقها ماركس مرّةً بأنّ المشاعة الريفيّة الروسيّة العتيقة قد تتحوّل إلى نموذج اشتراكيّ.

والحقيقة التي لا يمكن أن تُخطئها عين، هنا أيضاً، هي أنّ دور الهيمنة الأجنبيّة كان حاسماً في إنتاج هذا المزيج شديد الهجانة. وثمّة تعارضٌ صارخ بالفعل بين مهمّة «نشر الحضارة» التي اضطلعت بها الإمبراطوريّة البريطانيّة في معظم مجالها الاستعماريّ، والتي اتّخذتْ صيغة إنشاء مؤسّسات مُستنسَخة من المؤسّسات السياسيّة البريطانيّة وإجراء عمليّة تحديثٍ فوقيّة للمجتمعات المدينيّة، من جهة، وصون الإمبراطوريّة البريطانيّة المتعمّد لأعتق السمات الاجتماعيّة، بل وترسيخها لها في المناطق العربيّة الغنيّة بالنّفط التي وقعتْ تحت سيطرتها. وقد تعمّدت بريطانيا في هذه المناطق إنشاء بضع «دول» مصطنعة تماماً تفتقر إلى المقوّمات الأساسيّة للدّولة وتحكمها مشيخات قَبَليّة تحوّلت إلى سلالات حاكمة حكماً مطلقاً.

وعلى النّحو ذاته، فإنّ صون الولايات المتّحدة لأكثر السّمات الاجتماعيّة رجعيّةً في المملكة العربيّة السعوديّة، بما فيها المعاملة المُروِّعة للنّساء والنظام السياسيّ والثقافيّ التوتاليتاريّ، وبالرغم من أنّ المملكة كانت في حقيقة الأمر محميّة أميركيّة بعد الحرب العالميّة الثانية، هذا الواقع يتعارض بحدّة مع الادّعاءات الأيديولوجيّة للولايات المتّحدة في قيادة «العالم الحرّ» بوصفها منارة للديمقراطيّة وحقوق الإنسان. والحال أنّ الولايات المتّحدة حافظت طوال عقود على جيبٍ أجنبيّ خاصّ بها في إقليم المملكة الأكثر غنى بالنّفط من أجل استغلال مورد البلاد الطبيعيّ العظيم مع امتناعها كليّاً عن السعي إلى تحديث المملكة اجتماعيّاً وسياسيّاً وثقافيّاً، مخافة أن يتسبّب ذلك بزعزعة استقرارها السياسيّ في محيطٍ جيوسياسيّ كان يتّسم بجيَشان التيّارات اليساريّة المناهضة للإمبرياليّة.

وهكذا، فمع نبذ التفسير الثقافويّ لكونه شديد الدغل يفسّر الماء بالماء، يتحتّم على الاستقصاء الماديّ لديمومة السّمات الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة العتيقة في مشيخات الخليج العربيّة أن يدرس النشأة التاريخيّة الفعليّة لهذه الأنظمة. وتتحتّم بالتالي على هذا الاستقصاء الإشارة إلى دور الإمبرياليّة الغربيّة في رعاية صون أعتق سمات تلك المشيخات بمواجهة الصعود المتفجّر لمسارات التّحديث المناهضة للإمبرياليّة في محيطها. وفي الحقيقة، ما من نقضٍ أقوى لـ«الاستشراق» من تبيان كيف قامت القوى الغربيّة بصون تلك السّمات الثقافيّة «الشرقيّة» المزعومة وترسيخها، وهي السمات عينها التي يعدّها المنظور «الاستشراقيّ» أدلّةً أساسيّة على خواصّ الشرق الأوسط الاقتصاديّة والسياسيّة.

الهوامش

١ Edward Said, *Orientalism*, New York: Random House, 1978.

٢ G. W. F. Hegel, *Lectures on the Philosophy of History*, trans. by John Sibree (1857; various reprints).
الفصل المتعلّق بـ «المحمّديّة» هو الفصل ١١، في الجزء ١٧، القسم ا.

٣ Anouar Abdel-Malek, «Orientalism in crisis», *Diogenes*, vol. 11, no. 44, 1963, pp. 103 - 40.
(يمكن إيجاد مقتطف من هذه المقالة في Alexander Lyon Macfie, ed., *Orientalism: A Reader*, New York: NYU Press, 2000, pp. 47–56); Maxime Rodinson, «The Western Image and Western Studies of Islam»
(معتمد على مخطوطة أطول كُتُبت بالفرنسيّة أساساً من جانب رودنسون عام ١٩٦٨) in Joseph Schacht, ed. (posthumously) with C. E. Bosworth, *The Legacy of Islam*, Oxford: Clarendon Press, 1974.
(سمّيت «الطبعة الثانية» لأنّ شاخت جهّز طبعة أولى قبل وفاته عام ١٩٦٩ ص ٩ - ٦٢).
ونُشر النص الكامل لمخطوطة رودنسون الأصليّة بالفرنسيّة عام ١٩٨٠، إلى جانب نص آخر ضمن السياق ذاته عن الدراسات العربيّة والإسلاميّة في أوروبا، كُتب أصلاً عام ١٩٧٦، في *La Fascination de l'Islam* (Paris: François Maspero, 1980), published in English as *Europe and the Mystique of Islam*, trans. Roger Veinus, Seattle: University of Washington Press, 1987.

٤ في كتاب **الاستشراق**، يمتدح سعيد رودنسون في الصفحات ٢٥٩، ٢٦٦، ٣٢٦ - ٧؛ ويقتبس مقالته «الصورة الغربيّة والدراسات الغربيّة عن الإسلام» The Western Image and Western Studies of Islam في الحاشية ٤ من الفصل ٢. كما يقتبس عبد الملك في صفحة كاملة (ص ٩٧)؛ ومجدداً في الصفحتين ١٠٥ و١٠٨، ويذكره مرّة أخرى في الصفحتين ٣٢٥ و٣٢٧.

٥ صادق جلال العظم، **الاستشراق والاستشراق معكوساً**، بيروت: دار الحداثة، ١٩٨١، ونُشرت نسخة مختصرة من الكتاب بالانكليزيّة في: «Orientalism and Orientalism in Reverse», in *Khamsin* no. 8, London: Ithaca Press, 1981, pp. 5 - 26, reprinted in Macfie, ed., *Orientalism: A Reader*, pp. 217 - 38.
مهدي عامل، **هل القلب للشرق والعقل للغرب؟ ماركس في استشراق إدوارد سعيد**، بيروت: دار الفارابي، ١٩٨٥؛ Samir Amin, *Eurocentrism*, trans. Russell Moore and James Membrez, New York: Monthly Review Press, 1989; and Aijaz Ahmad, *Orientalism and After: Ambivalence and Metropolitan Location in the Work of Edward Said* in Ahmad's collection entitled *In Theory: Classes, Nations, Literatures*, London: Verso, 1992, pp. 159 - 219.

٦ Said, Orientalism, pp. 153 - 154.

٧ Karl Marx, «The British Rule in India», MECW, vol. 12, pp. 125 - 133.

٨ Ibid., p. 132. Quoted by Said in *Orientalism*, pp. 153 - 154.

٩ من أجل مناقشة لانتقادات سعيد ولتطوّر آراء كلٍّ من ماركس وسعيد حيال الشرق، انظر Gilbert Achcar, «Marx, Engels and «Orientalism»: On Marx's Epistemological Evolution», in *Marxism, Orientalism, Cosmopolitanism*, London: Saqi, and Chicago: Haymarket, 2013, pp. 68 - 102.

١٠ Daniel Thorner, «Marx on India and the Asiatic Mode of Production», *Contributions to Indian Sociology*, no. 9, December 1966, pp. 33 - 66.
من أجل تقييم نقديّ لآراء ماركس حيال الهند والاستعمار من وجهة نظر ماركسيّة، انظر Bipan Chandra's «Karl Marx, His Theories of Asian Societies and Colonial Rule» in Unesco, ed., *Sociological Theories: Race and Colonialism*, Paris: Unesco, 1980, pp. 383–451.
من أجل وضع آراء ماركس حيال الهند ضمن سياقها، انظر Aijaz Ahmad, «Marx on India: A Clarification», in his *In Theory: Classes, Nations, Literatures*, pp. 221 - 42.

١١ Karl Marx and Frederick Engels, *Manifesto of the Communist Party*, MECW, vol. 6, p. 487 - 488.

١٢ Ibid., p. 488.] اقتباسات البيان الشيوعيّ هي من ترجمة العفيف الأخضر (بيروت: دار الجمل، ٢٠١٥ [١٩٧٥]) [المترجم]

١٣ See Achcar, «Marx, Engels and «Orientalism»».

١٤ Michael Curtis, *Orientalism and Islam: European Thinkers on Oriental Despotism in the Middle East and India*, New York: Cambridge University Press, 2009, p. 248.
أشار كُرتِس أيضاً إلى أنّ ماركس وإنغلس، بخلاف المؤلّفين الآخرين الذين درسهم، بالكاد يمكن اتّهامهما بكونهما إمبرياليّين أو استعماريّين: «إذ إنّ شجبهم الأخلاقيّ للاستعمار جليٌّ». (ص ٢٣٢). أما نظريّة «نمط الإنتاج الآسيويّ» فقد استلهما ماركس في معظمها إثر قراءاته عن الهند، والصين، وفارس، وبدرجة أقل قراءاته عن تركيا. ولم تكن مصر القديمة محوريّةً في إلهامه حيال هذه القضيّة، ولا الجزائر ما قبل الاستعمار (حتى بعدما زار ماركس الجزائر قبيل نهاية حياته) – ولو كان ماركس قد درس هذين البلدين، لفكّر في نبذ تسمية «الآسيويّ» بوصفها غير ملائمة. فتعليقاته المستعارة في رسائله حيال دور «المحمّديّين» في تكريس مبدأ «انتفاء ملكيّة الأرض» في آسيا («Marx to Engels» [14 June 1853], MECW, vol. 39, p. 348) ليست ذات قيمة كبيرة. أما بالنسبة إلى أصل مفهوم «نمط الإنتاج الآسيويّ» وتطوّره، والسّجالات التي دارت حوله، انظر Marian Sawer, *Marxism and the Question of the Asiatic Mode of Production*, The Hague: Martinus Nijhoff, 1977, and Anne Bailey and Josep Lobera, eds., *The Asiatic Mode of Production: Science and Politics*, London: Routledge & Kegan Paul, 1981.

١٥ Ibid., p. 253.

١٦ Ibid., p. 307.

١٧ Ibid., p. 252.

١٨ Karl Marx, *Economic Manuscript of 1861 - 63*, in MECW, vol. 33, p. 369.
كلمة «معدّل وسطيّ» مشدَّدة بأحرف استهلاليّة كبيرة في الأصل. ولدينا كتاب رائج معاصر يستند إلى تفسيرات تركّز على الثقافة هو David Landes, *The Wealth and Poverty of Nations*, New York: W. W. Norton & Co., 1998.
من أجل استعراض عام لكتابات ماركس حول المجتمعات غير الأوروبيّة، علاوةً على الولايات المتحدة وإيرلندا، انظر Kevin Anderson, *Marx at the Margins: On Nationalism, Ethnicity, and Non - Western Societies*, 2nd edition, Chicago: University of Chicago Press, 2016.

١٩ من أجل استعراض حديث لهذه السجالات علاوةً على تقديم مساهمة أصيلة، انظر Alexander Anievas and Kerem Nisancioglu, *How the West Came to Rule: The Geopolitical Origins of Capitalism*, London: Pluto Press, 2015.

٢٠ Karl Marx, *Capital*, Volume 1, trans. Ben Fowkes with an introduction by Ernest Mandel, Harmondsworth: Penguin Books, 1976, p. 874.

٢١ Ibid. p. 926.

٢٢ حول تجربة مصر التنمويّة المُجهَضة في القرن التاسع عشر، انظر Afaf Lutfi Al - Sayyid Marsot, *Egypt in the Reign of Muhammad Ali*, Cambridge: Cambridge University Press, 1984.
انظر أيضاً Peter Gran, *Egypt, 1760 - 1840*, Austin: University of Texas Press, 1979 (2nd expanded edition: Syracuse: Syracuse University Press, 1998).
والسجال الذي أحدثه.

٢٣ Karl Marx, «Drafts of the Letters to Vera Zasulich» and «Letter to Vera Zasulich» (8 March 1881), MECW, vol. 24, pp. 346 - 371.
See Theodor Shanin, ed., *Late Marx and the Russian Road: Marx and the Peripheries of Capitalism*, New York: Monthly Review Press, 1983.

٢٤ Leon Trotsky, *History of the Russian Revolution*, trans. Max Eastman, Chicago: Haymarket, 2008, chapter 1, «Peculiarities of Russia's Development».

مقالات عن سورية ولبنان، ١٨٦٠

كارل ماركس

هذا عدد من المقالات كتبها كارل ماركس في صحيفة «نيو يورك دايلي هيرالد» بين شهرَي تمّوز / يوليو وآب / أغسطس ١٨٦٠ عن سورية، ومعظمها يدور حول «حوادث الستّين» في جبل لبنان، ومشاريع التدخّل الفرنسيّ فيه بعد مذابح دمشق بحجّة حماية المسيحيّين. المقالات دالّة على أسلوب ماركس الصحافيّ المعمّق والمكثّف وما فيه من اعتمادٍ على المراجع وبحث وتحليل. وهو يستشهد هنا بمقاطع من كتابات روسيّة وفرنسيّة تعطي صدقيّة كبيرة لرصده السياسات الروسيّة والفرنسيّة.

محور البحث الذي لا يحيد عنه ماركس هو عداؤه الذي لا يلين لنابليون الثالث بما هو ممثّل الردّة على ثورة ١٨٤٨ الفرنسيّة. من هنا ميله لتفسير الأحداث تفسيراً خارجيّاً من خلال الهجوم الذي يشنّه التحالف الروسي - الفرنسيّ ضدّ السلطنة العثمانيّة المدعومة من بريطانيا. في المقابل، يبيّن ماركس كيف أنّ التدخّل العسكريّ الفرنسيّ في سورية، الذي اقتصر على بيروت والجبل، دخل في المقايضات الكبرى بين القوى الأوروبيّة، خصوصاً دعم روسيا لفرنسا في مطالبتها باحتلال مقاطعات نهر الراين الألمانيّة مقابل دعم فرنسا لروسيا في مطالبتها باستعادة روسيا القسطنطينيّة والمضائق من السلطنة العثمانيّة. ويكشف ماركس هنا أولى إرهاصات مشروع المملكة العربيّة الذي طرحه دعاة الإمبراطور الفرنسيّ في العام ١٨٥٨، واقترحوا الأمير عبد القادر الجزائريّ رئيساً عليها.

ولافت للنّظر ما يبيّنه ماركس من علاقة وثيقة بين هزيمة السلطنة العثمانيّة في حرم القرم ١٨٥٣. ١٨٥٦ وبين فرض القوى الأوروبيّة على السلطنة المهزومة إصدار «خطّي همايون» الذي أسّس لما سوف يسمّى «التّنظيمات» والتي شكّل إعلان المساواة بين رعايا السلطنة أبرز بنودها.

ولا يغيب عن بال ماركس أنّ القيصر الروسيّ والامبراطور الفرنسيّ يسعيان إلى حروب خارجيّة للهرب من أزمات داخليّة وللتغطية عليها، إلّا أنّه يغفل إغفالاً شبه كامل الأسباب والعوامل الداخليّة التي أدّت إلى الحوادث اللّبنانيّة الدامية العام ١٨٦٠ وأبرزها انهيار النّظام المقاطعجيّ تحت وطأة الانتفاضات العامّيّة والفلاحيّة، وآخرها انتفاضة كسروان، على خلفيّة تغلغل رأس المال المبكّر في جبل لبنان والمعارضة العثمانيّة لـ«التّنظيمات» العثمانيّة في بلاد الشّام. قد يفاجأ البعض بالأوصاف التي يستخدمها ماركس في الحديث عن سكّان جبل لبنان بوصفهم قبائل «بدائيّة» و«همجيّة». ويمكن وضع ذلك في خانة استشراقيّة لدى مؤلّف «رأس المال» لا تخرج كثيراً عمّا كان سائداً في زمنه من منظور إلى النّزاعات في الشرق.

يبقى القول إنّ اشتعال حربٍ أوروبيّة على خلفيّة نزاعات القوى الأوروبيّة على «المسألة الشرقيّة» لم يحصل، والتذكير بأنّ رسالة بونابارت الثّالث إلى بيرسيني، سفيره في لندن، أدّت مفعولها في تهدئة المعارضة البريطانيّة للتدخّل الفرنسيّ العسكريّ في سوريّة، بعد مجازر دمشق، مع أنّ بريطانيا قيّدت مهمّات الحملة العسكريّة الفرنسيّة دون أن تشارك فيها.

الاقتتال الأهليّ في لبنان

لندن، ٢٨ تمّوز / يوليو، ١٨٦٠

نظراً لأنّ الكتاب «الأزرق» عن الاضطرابات السوريّة قد صدر للتوّ، ولإعلان لورد ستراتفورد ردكليف[١] تأليف مداخلته عن الشؤون السوريّة إلى يوم الثلاثاء القادم، أؤجّل الدخول في هذا الموضوع الحدثيّ، وأكتفي بتحذير قرّائكم من الانسياق وراء الإعلانات العاطفيّة للصحافة الديسمبريّة[٢] ومن أن يتملّككم الشعور بالرّعب إزاء المجازر المروّعة للقبائل العاصية، والعطف الطبيعيّ الذي نشعر به تجاه الذين يتألّمون. لكنّ ثمّة بضع نقاطٍ لا بدّ من التركيز عليها بثبات.

في الدرجة الأولى، إنّ الإمبراطوريّة الروسيّة، بُعيد الصدامات الداخليّة التي نجمتْ عن حركة تحرّر الأقنان، وهدر الأموال العامّة، تجد نفسها في مأزقٍ لا تدري الحكومة الحاليّة كيف تخرج منه إلّا عن طريق شنّ حرب واسعة النّطاق. تبدو الحرب بالنّسبة إليهم الوسيلة الوحيدة لتفادي اندلاع ثورةٍ تنبّأ بها على سبيل التحفّظ الأميرُ دولكوروكوف في كتابه La Vérité sur la Syrie. بالتالي، مضتْ ثلاثة أشهر منذ حاول الأمير غورتشاكوف إعادة إثارة المسألة الشرقيّة بإصدار تعميمه عن مظالم المسيحيّين في تركيّا، إلّا أنّ نداءه وقع على آذانٍ صمّاء في أوروبا، ولم يتردّد صداه إلّا في قصر «التوييوري»[٣].

ومنذ ذلك الوقت كان عملاء روسيّون وفرنسيّون يجهدون لإشعال نزاع سياسيّ - دينيّ - تولّته الأولى في منطقة دلماتيا[٤] والثّانية على الساحل السوريّ - بحيث تدعم كلّ حركةٍ منهما الأخرى، وبما أنّ اضطرابات بلاد الجبل الأسوَد وبلاد الهرسك أجبرت السلطة العثمانيّة على سحب معظم قوّاتها العاملة في سورية، فقد أخليت الساحة للتّناقض الحادّ بين قبائل لبنان الهمجيّة. وجَدَ الأمبراطور الفرنسيّ نفسه تحت وطأة الضرورة ذاتها التي تتحكّم بالقيصر الأرثوذكسيّ، أي التطلّع إلى صليبيّة جديدة، تزجّ أمبراطوريّته مجدّداً في أتون الهلوسات الحربيّة. إنّ الحركة الإيطاليّة التي تفلّتت حبالها من بين يديه، واتخذت اتّجاهاً على عكس الذي يريدها لها، تحوّلت إلى مصدر إزعاج في رأي باريس، كما لمّحت جريدة لُ كونستيتيونيل بخفَر. ثمّ إنّ محاولاته إغراء وليّ عرش بروسيا بـ«تدعيمٍ عنيف لقوّة ألمانيا» يكون ثمنه «تعويضاً معنويّاً» لفرنسا على شكل [استعادتها] مقاطعات عبر نهر الرّاين، أصيبت بإخفاق مدوٍّ، حتى إنّها ألقَتْ بشيءٍ من الهزء على مخطّطات متعهّد تحرير القوميّات [أي لوي نابليون]. أمّا النّزاع الذي وجد لوي نابليون نفسه يخوضه مع البابا فقد زعزع دعامة النّفوذ الذي كان يمارسه على الفلّاحين وعلى إكليروس فرنسا الكاثوليكيّ.

(...) من الواضح أنّ الحاكم الفرد في فرنسا والحاكم الفرد في روسيا، الرازحَين تحت وطأة الضرورة الملحّة للنّفخ في بوق الحرب، يعملان بتناغم بينهما. فبينما المنشورات البونابارتيّة شبه الرسميّة تُعرض «الوحدة الألمانيّة» على وليّ عهد بروسيا، مدعومةً بـ«تعويضات معنويّة» لفرنسا، إذا بالأمبراطور ألكسندر، تماشياً مع ما أعلنه، ولم تنفه صحافة برلين الرسميّة ولا منشورات «الرابطة القوميّة» الألمانيّة، يقترح جهاراً على عمّه ضمّ بروسيا مع ألمانيا الشماليّة بكاملها بشرط التخلّي لفرنسا عن المقاطعات الواقعة على نهر الرّاين، والتّواطؤ مع تقدّم روسيا في منطقة نهر الدانوب.

إنّ هذا الواقع الذي طرحه الحاكمان الفرديّان معاً أدّى إلى لقاء «تيپليتس» بين أمبراطور النّمسا ووليّ العهد [وليّ عهد بروسيا]. غير أنّ متآمِري بطرسبرغ وباريس أبقيا حادثة المجازر السوريّة المثيرة، على سبيل الاحتياط في حال فشلت مطامعهما في بروسيا، ليعقبها تدخّل فرنسيّ لا يستطيع الدخول من الباب الرئيسيّ، بل يفتح الباب الخلفيّ لحربٍ أوروبيّة شاملة. بالنّسبة إلى إنكلترا، أضيفُ فقط أنّه في العام ١٨٤١، أمدّ لورد پالمرستون الدروز بسلاح حافظوا عليه منذ ذلك الحين، وأنّه، في اتفاقه مع القيصر نيقولا [الروسيّ] ألغى عمليّاً السيطرة التركيّة التي كانت تكبح قبائل لبنان العاصية، وأنشأ لها شبه استقلال، لم يكن له، مع الوقت، وبفضل حسْن تدبير المخطّطين الأجانب، إلّا أن يفضي إلى موسمٍ من الدّم. [...]

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

العنوان الأصليّ «أحداث سورية - جلسة البرلمان البريطانيّ - حالة التجارة البريطانيّة»
كتبت في ٢٨ تمّوز / يوليو، ١٨٦٠
نشرت لأوّل مرّة في «نيو يورك دايلي هيرالد»، العدد ٦٠٢١، في ١١ آب / أغسطس، ١٨٦٠.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆



التحالف الروسي - الفرنسي
وإمارة عبد القادر الجزائري العربية

لندن، ٣ آب / أغسطس، ١٨٦٠

الملاحظات الواردة في رسالتي الأخيرة عن الرّابط السرّيّ بين مجازر سورية والتّحالف الرّوسيّ - الفرنسي، تلقّت تأكيداً غيرَ متوقّع، يوم الثلاثاء الماضي، من على الضّفّة الأخرى من القنال على شكل منشورٍ للسيّد دانتو بعنوان «سورية والتّحالف الروسيّ» منسوبٍ إلى قلم السّيّد إدمون آبو. والمعلوم أنّ السّيّد دانتو هو النّاشر الرسميّ للحكومة الفرنسيّة، الذي أصدر كلّ منشوراتها شبه الرسميّة والذي يبادر بين حين وآخر إلى تعريف أوروبّا على «الدّراسات» التي ينتجها قصر «التوييوري». المنشور المذكور أعلاه يكتسب اهتماماً إضافيّاً من أنّ نشره يتبع مباشرةً رسالة الحبّ التي أرسلها «بطل ديسمبر» إلى پيرسينيي[٥]، التي كان مقدّراً لها أن تستحوذ على اهتمام بريطانيا، والتي رفض لورد جون راسل وضعها أمام «البرلمان» لكنّه أرسل نسخة منها إلى صحيفة تايمز اللندنيّة.

تحتوي المقتطفات الآتية على فحوى ما ورد في «سورية والتحالف الروسيّ»:

«كما في زمن الحروب الصليبيّة، تأثّرتْ فرنسا المسيحيّة بالجرائم المروّعة التي كانت سورية مسرحاً لها مؤخّراً. ٧٠٠ ألف مسيحيّ سلّموا إلى الجموح العصبيّ الذي لا يرحم لمليونين من المسلمين والحكومة التركيّة يبدو أنّها تعترف بتواطؤها نظراً لسكونها غير المبرّر. بالتّأكيد ستكون فرنسا متجرّدة من كلّ تقاليدها لو لم تدّعِ فوراً شرفَ حماية حياة وممتلكات أولئك الذين كانوا، في زمن مضى، جنود «بطرس النّاسك» و«فيليب أوغسطس»[٦]... لذا فقد آن الاوان للتّفكير في علاجٍ لوضع لا يمكن أن يستمرّ على هذه الحال دون أن يؤدّي إلى كارثة أكبر - الإبادة الشّاملة لرعايا «الباب العالي» من المسيحيّين. الحملة التي تتحدّث عنها الحكومة التركيّة كثيراً لا تكفي إطلاقاً لإعادة فرض الأمن. القوى الدوليّة التي لها من أبناء مذاهبها في سورية، والتي تقلق عن حقٍّ على سلامتهم، يجب أن تكون مستعدّةً للتّدخّل. في حال التلكّؤ، سيكون قد فات أوان إنقاذ الضّحايا، وتصير مهمّتهم الوحيدة الثّأر للشّهداء.

«ثمّة أمّتان لهما مصلحة خاصّة في الدّفاع عن الصّليب على تلك الشطآن القصيّة - فرنسا وروسيّا. فماذا ستكون النتيجة المرتقَبة لاتّحاد سلاحهما، وأثر ذلك في تنظيم أوروبا اللاحق؟ هذا ما نحن في صدد التحرّي عنه.

«في فترات معيّنة من التّاريخ، نجد أنّ الشّعوب، بدافع من بعض قوانين الجاذبيّة والتجمّع، تشكّل تركيباتٍ سياسيّة لم تكن معروفةً من قبل. إنّنا «نشهد» الآن واحدةً من تلك اللحظات الحرجة في حياة البشريّة. إنّ المسألة السوريّة إن هي إلّا واحدةٌ من عُقَد ذلك الوضع شديد التّعقيد. كلّ أوروبا في حالةٍ من الترقّب والقلق، تنتظر حلّاً شاملاً قادراً على أن يُرسيَ أساسَ سلم دائم في أوروبا وفي الشرق معاً. وإنّ هذا الهدف لا يمكن أن يتحقّق الآن إلّا عندما يكون تنظيم قارّتنا متساوقاً مع رغبات ومتطلّبات القضايا الرّاهنة للقوميّات المناضلة تحت النّير. إنّ تيّاراتٍ دينيّة معادية ومتباينة في الأمزجة واللغات تتواجه جذريّاً فيما بينها، وتحافظ في بعض الدّول الأوروبيّة على تيّارٍ جوفيٍّ من التّحريض يمنع إعادة فرض الثّقة ويعرقل تقدّم الحضارة. السلام، ذلك الهدف النهائيّ لطموح كلّ الحكومات، لا يمكن تأمينه على نحوٍ مستدامٍ إلّا عندما تختفي الأسباب الدائمة للاضطراب التي أشرنا إليها. لذلك نودّ التّوصّل إلى نتيجتين اثنتين:

١ ـــ دعم تكوين دولةٍ منسجمة ووطنيّة، حيث يمكن ذلك، تكون مهمّتها استيعاب السّكّان الذين يملكون أفكاراً أو اتّجاهاتٍ مشتركةً وتجميعهم مركزيّاً في وحدة متراصّة.

٢ ـــ محاولة تطبيق ذلك المبدأ دون اللجوء إلى السّلاح.

«للوهلة الأولى، يبدو كأنّ فرنسا وروسيّا قد حقّقتا المثال الذي تصبو إليه الأنظمة الملكيّة. مع أنّ ٤٠٠ «ليغ»[٧] تفصل بينهما، توصّلتْ هاتان القوّتان من خلال السّبل الأكثر تبايناً، إلى تلك الوحدة التي وحدها تستطيع أن تخلق أمبراطوريّات راسخة، لا مجرّد كياناتٍ مؤقّتة تتغيّر حدودها من يوم إلى آخر بسبب أقدار الحروب... إنّ القياصرة، الذين قضوا ١٣٥ سنة يتأمّلون في وصية بطرس الأكبر، لم ينفكّوا يُلقون نظرات الطّمع صوب أوروبا التركيّة... هل يجب أن تستمرّ فرنسا في الاحتجاج ضدّ مطالب القياصرة في أمبراطوريّة السلطان المتهاوية؟ نعتقد أنّ الجواب هو لا. إذا أعانتنا روسيّا على إعادة ضمّ حدود نهر الرّاين، يبدو لنا أنّ [وهْبها] مملكةً لن يكون ثمناً بخساً لقاء تحالفها. بفضل مثل هذه الشراكة، بإمكان فرنسا أن تستعيد حدودها الحقيقيّة كما رسمها الجغرافيّ سترابو، منذ ١٨ قرناً.

[يلي ذلك استشهاد من سترابو، يعدّد فضائل بلاد الغال بما هي قاعدةٌ لأمبراطوريّة قويّة. ملاحظة ماركس]

«يمكننا أن ندرك بسهولة أنّ فرنسا سوف ترغب في إعادة بناء ذلك العمل المقدّس [استعادة حدود بلاد الغال] وقد أحبطها خداع البشر خلال قرون عديدة. ومن طبيعة الأمور أنّنا كنّا ذاهلين عن التّوسّع الإقليميّ، فيما ألمانيا تعاني من نوباتٍ من الاضطراب، فقذفتْنا، على سبيل التحدّي، بنشيد «بيكر» الوطنيّ[8] ... نعلم أنّنا لسنا وحدَنا من يملك مخطّطات توسعيّة. والآن، إذا كانت روسيّا ترى إلى القسطنطينيّة بالعين ذاتها التي نرى فيها إلى منطقة نهر الرّاين، ألا نستطيع أنْ نحوّل تلك الادّعاءات المتماثلة إلى فائدة ما، ونفرض على أوروبا صفقةً مركّبة تمنح تركيا إلى روسيا، وحدود الرّاين إلى فرنسا، تلك المنطقة التي كان نابليون الأوّل يعتبرها الشرط الذي لا غنى عنه لوجوده كحاكمٍ سيّد؟

كانت روسيا ترى إلى القسطنطينية بالعين ذاتها التي نرى فيها إلى منطقة نهر الراين. ألا نستطيع أن نحول تلك الادعاءات المتماثلة إلى فائدة ما. ونفرض على أوروبا صفقة مركبة تمنح تركيا إلى روسيا.

«في أوروبا لا أقلّ من مليونَي تركيّ، في حين يوجد ١٣ مليوناً من اليونانيّين يرون إلى القيصر [الرّوسيّ] على أنّه زعيمهم الروحيّ. إنّ الانتفاضة اليونانيّة [١٨٢١ - ١٨٢٩]، التي استمرّت تسع سنوات، لم تكن إلّا المقدّمة للحركة التي قد تلعب مجازر سوريّة دور الشّرارة لاندلاعها. إنّ المسيحيّين اليونانيّين ينتظرون صدور الأمر من زعيمهم في سان بطرسبرغ [القيصر الروسيّ]، أو من بطريركهم في القسطنطينيّة، للثّورة ضدّ الكفَرة، وقليلون هم السياسيّون بعيدو النّظر الذين لم يستبِقوا حلّاً للمسألة الشرقيّة في اتّجاهٍ ميّالٍ إلى روسيا، وذلك في زمن ليس ببعيد. لذا فلا عجب أن الروس، استجابة لنداء أبناء دينهم، وبتشجيع من نبوءات ستاليزانيف، سوف يكونون مستعدّين لتجاوز نهر «پروث»[9] في أسرع وقت.

«إذا ألقينا نظرة على حدودنا، تظهر الاعتبارات التي تبرّر توجّهاتنا بالأهمّيّة ذاتها التي تحرّك روسيا. لنضع جانباً كلّ ذكرياتٍ تاريخيّة، وكلّ دوافعَ جغرافيّة، ولنتناول المقاطعات التي تضمّها منطقة الراين واحدةً واحدةً ولنتفحّص الأسباب التي تدعم ضمّها.

«نلقى بلجيكا في المقام الأوّل. إذا ما افترضنا صفاء النّيّة، يستحيل أن نشكّ في التشبيه المثير الذي حدا ببعض المؤرّخين إلى أن يسمّوا البلجيكيّين «فرنسيّي الشمال». الحقيقة أنّ الطّبقات المتعلّمة على امتداد البلد لا تستخدم من اللغات إلّا الفرنسيّة، وأمّا العامّيّة الفلامنكيّة فلا تفهمها إلّا الطّبقاتُ الدنيا من السّكّان وفي بعض المناطق فقط. إلى هذا، فإنّ بلجيكا تعتنق الكاثوليكيّة، في أنحائها كافّة، وإنّها مدينة، في استقلالها، لفرنسا، شقيقتها في الأصل واللغة والدّين. لن نستعيد حقيقة أنّ بلجيكا قد اجتاحتها قوّاتُنا في العام ١٧٩٥، وشكّلت تسع مقاطعات فرنسيّة حتى العام ١٨١٤، إلّا أنّه يبدو أن نِيرنا لم يكن ثقيلاً جدّاً، ففي العام ١٨٣١، استحصلتْ بلجيكا من الدّول العظمى على الإذن بالانضمام إلى فرنسا فقدّمت، في تصويتٍ لمجلسَيها التمثيليّين، تاج بلجيكا لدوك نيمور، ابن ملك فرنسا. وقد حداهم رفض هذا الأخير للتّاج إلى تقديمه إلى دوك ساكس - كوبورغ، وهو ليوبولد الأوّل حاليّاً[10]. على أنّ السابقة التي نشير إليها تبدو لنا بالغة الأهمّيّة، وتسمح بالافتراض أنّه لو استُشيرتْ بلجيكا فلن تكون أقلّ كرماً من مملكة [ساڤوا]، وتؤكّد مجدّداً جاذبيّة الهيبة التي تشعرها بها عظمةُ فرنسا. وإنّ معارضة بعض أفراد الطّبقات العليا لن تلبث أن تخنقها هتافاتُ التّأييد الشعبيّة.

«قبل أنّ يصبّ في البحر، كان نهر الراين ينقسم إلى ثلاثة فروع، يسير اثنان منهما باتّجاه الشّمال، هما «إيسّل» Yssel الذي يصبّ في «زويدرزي» Zuyderzee [خليج تابع لهولندا في بحر الشّمال]، و«فال» Waal [الذي يعبر هولندا] وهو أحد روافد نهر «موز» Meuse [أكبر الأنهر الأوروبيّة، ينبع في فرنسا ويصبّ في بحر الشمال بعد ان يجتاز بلجيكا وهولندا]. ولو كان لفرنسا أن تعيد رسم حدودها، أمَا كان الاحرى أن تعتمد مجرى نهر الراين، بمعناه الفعلي، بدلاً من مجرى نهر «فال» أو مجرى نهر «إيسّل» بحيث تقتطع أقلّ مقدارٍ ممكن من جنوب هولندا؟ المؤكّد أنّ هذا ما كانت سوف تفعله. إلى هذا، فليس تعديل الحدود لجهة هولندا هو الذي لا بدّ منه باتّخاذ مجرى نهر الراين قاعدةً للتّرسيم. إنّ بلجيكا، في حدودها الحاليّة، ستكون كافيةً لإشباع نزعة التّوسّع التي أخذ الرأي العامّ يطالب بها عالياً في الآونة الأخيرة. ثمّ إنّ مجرى نهر «شلدت» Scheldt[11] هو الحدود التي جرى التّنازل عنها لفرنسا في معاهدة لونيفيل العام ١٨٠١».

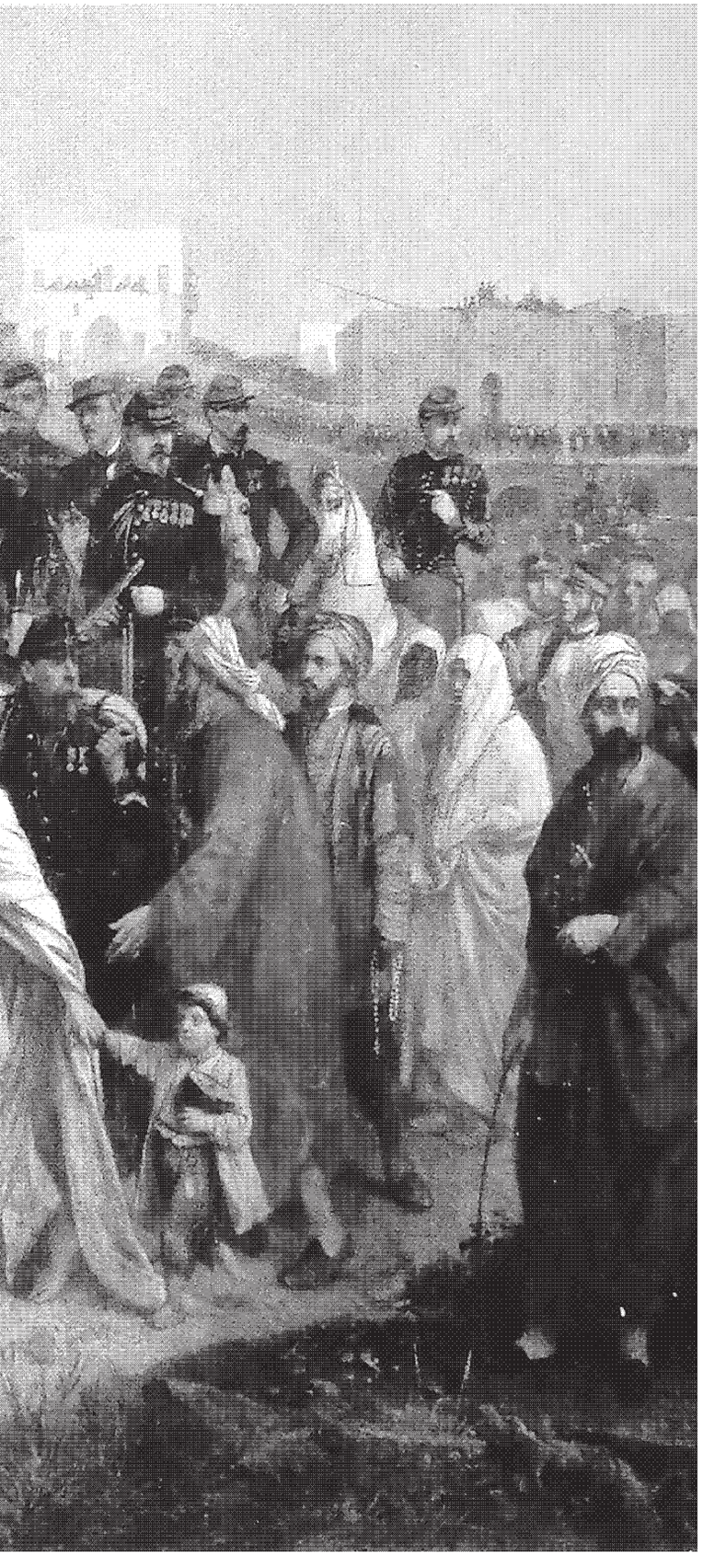

[يلي ذلك مقطعٌ يبيّن، وفق محاجّة مماثلة، ضرورة ضمّ دوكيّة لوكسمبرغ الكبرى، «التي كانت تشكّل «مقاطعة الغابات» في ظلّ الأمبراطوريّة». ثم يمضي كاتب المنشور ليبيّن ضرورة ضمّ بروسيا. ملاحظة ماركس]

«لن تنتهي مهمّتنا ما إن تقع بلجيكا واللكسمبرغ تحت سلطتنا... من أجل استكمال حدودنا ينبغي أن نتملّك لا أقلّ من ثلثَي بروسيا الرينانيّة، وكامل بافاريا الرينانيّة، وحوالَي ثلث دوكيّة هيسّ الكبرى. كانت كلّ هذه الأراضي تشكّل، في ظلّ الأمبراطوريّة [زمن نابليون بونابارت]، مقاطعات «روير» Roer الرينانيّة، و«موزيل» التابعة لمقاطعة «سار» Sarre و«جبل الرعد» Mont de Tonnerre ودوكيّة «برْغ» Berg الكبرى. في العام ١٨١٥، كانت تلك المقاطعات موزّعة بين عدّة مالكين، ما يزيد من صعوبة استعادتنا لها. على أنّ الواقعة الداعية للإعجاب انّ تلك المقاطعات التي ضمّها العرش الفرنسيّ، والتي لم تكن على تعاطٍ مباشر معنا لأكثر من سنوات قليلة، ترك وجودنا المؤقّت أبرز الآثار عليها. للتّدليل على مبلغ العطف الذي يلقاه المسافِر الفرنسيّ في تلك الأجزاء، نترك الكلام للذين سافروا إلى هناك. لأربع وخمسين سنة خلَتْ، لم يعسكر جنديّ فرنسيّ واحد في تلك البلدان على ضفاف نهر الراين، ومع ذلك فمن الرائع أن نشاهد الاستقبال المؤثّر الذي يلقاه لابِسو بزّات جيشنا هناك. إنّهم كاثوليكيّون مثلنا - ومثلنا هم فرنسيّون! أليس في «أيكس لا شابيل» كان أمبراطورنا شارلمان يعقد مجلسه؟... إنّ مقاطعات نهر الراين ينبغي أن تتبع سياسيّاً لفرنسا، مثلما هي تابعة طبيعيّاً لها».

[ثمّ يعود المؤلّف إلى روسيا، وبعد أن يبيّن أنّ حرب القرم لم تشكّل حاجزاً أمام تحالف فرنسا وروسيا، على اعتبار أنّ تفاهماً بينهما لم يحصل حينها، يقدّم هذه المعلومة المتعلّقة بعرفانٍ للجميل من فرنسا تجاه روسيا - ملاحظة ماركس]:

«ينبغي أن نتذكّر أنّ فرنسا لم تتبع خطط بريطانيا في بحر البلطيق. لسنا ندري ما إذا كان هجومٌ على كرونشتاد [المرفأ الرئيسيّ لسان بطرسبرغ الروسيّة] سوف ينجح في أيّ حال، لكنه لم يحصل، لحسن الحظّ، بفضل معارضة فرنسا على ما نعتقد».

[بعد جولةٍ في الحملة الإيطاليّة، لا يشكّ الكاتب في أنّ بروسيا سوف تنضمّ إلى الحلف الروسيّ - الفرنسيّ في نهاية المطاف - ملاحظة ماركس]:

«ولكن لربط حكومة برلين بسياستنا، لا بدّ من سحبها من تحت تأثير إنكلترا. كيف يمكن تحقيق ذلك؟ بالعمل بمهارة



فائقة كي لا تبقى بروسيا جارتَنا على نهر الراين، وبأن نعد بدعم مطالبها المشروعة للغلبة في ألمانيا. إنّ تبادل هذه المقاطعات الرينانيّة يجعل باڤاريا وبروسيا تأخذ تعويضاتها من النّمسا. إنّ التّحالف الإنكليزيّ لن يوفّر لبروسيا غير الحفاظ على الوضع القائم - في حين أنّ التّحالف مع فرنسا يفتح لها آفاقاً بلا حدود.

«إنّ التّحالف بين فرنسا وروسيا وبروسيا، إذا ما انعقد تحت راية الإخلاص، ولنا كلّ سبب لاعتقاد ذلك، سوف يستتبع نتائج طبيعيّة بامتياز... فقد بيّنّا أعلاه ما أرساه «سترابو» منذ ١٨٠٠ سنة بما لا يسمح بالشكّ - أنّ نهر الراين كان الحدود الطبيعيّة لفرنسا الشماليّة. الآن، بروسيا هي المتأذّي الأكبر من هذا التوسّع الجغرافيّ. فقد احتفظتْ منذ ٤٥ سنة بنهر الراين بما هو التنّين المستخدَم لحراسة حديقة «هيسبيريديس»[١٢] Hesperides. يجب أن يختفي هذا السبب للعداء بين بروسيا وفرنسا. ولتعُد الضفّة اليسرى لنهر الراين فرنسيّة مجدّداً، ومكافأة لها على حسن نواياها، سوف تلقى بروسيا تعويضاتها في النّمسا - تلك القوّة التي سوف تعاقب على ما أبدته من سوء ظنّ وغُشم. ولينتظم الجميع من أجل سلام دائم.

«وليُستشر السّكّان، بحيث لا يقع أيّ ضمّ بالعنف. في وضع تكون فيه روسيا في القسطنطينيّة، وفرنسا على نهر الرّاين، والنّمسا محجّمة، وبروسيا مسيطرة في ألمانيا، أين سنلقى سبباً آخر للاضطراب أو الثورة في أوروبا؟ هل ستجرؤ إنكلترا على أن تنافس منفردةً ضدّ روسيا، وبروسيا وفرنسا؟ لسنا نفترض ذلك. وعلى افتراض أنّ ذلك حصل، وغامرت بريطانيا العظمى بارتكاب مثل تلك الوقاحة، فسوف تتلقّى درساً قاسياً. جبل طارق، مالطا، الجزر الأيونيّة هي الضمان لكي تلتزم الهدوء، فتلك هي نقاط الضّعف في درعها. ومع أنه سوف يجري تقزيمها إلى تلويح عقيم داخل حدود جزيرتها، وتضطّر إلى أن تكون شاهداً مستكيناً على ما يجري في القارّة، فبالكاد سوف يسمح لها بأن تعبّر عن رأيها، بفضل الخمسة آلاف أو الستّة آلاف جنديّ الذين سوف ترسلهم إلى سورية.

«لقد آن الأوان لتحديد سياستنا بوضوح: في سورية سيترتّب على فرنسا أن تحتلّ حدود نهر الرّاين سلميّاً، بترسيخ التّحالف مع روسيا. ولكن يجب أن نحذر من أن نمنح روسيا توسّعاً بلا حدود. يجب أن تكون المقاطعات شمال المضائق كافيةً لإشباع طموحها. أمّا آسيا الصّغرى فيجب أن تبقى أرضاً حياديّة. ولو أمكن النّظر إلى موضوعٍ عمليٍّ في ضوءٍ شِعريٍّ وعمليٍّ معاً، لقلنا إنّ قرارنا قد اتُّخذ، لقد ظهر رجلٌ يبدو أنّه التّجسيد للفكرة التي نريدها في سورية - إنّه عبد القادر. فهو سُنّيّ / مستقيمٌ في إسلامه بما يكفي لتطمين السّكّان المسلمين، وهو متحضّر بما فيه الكفاية لكي يقيم العدل بالتساوي بين الجميع، وهو يرتبط بفرنسا بروابط الاعتراف بالجميل، وهو سوف يحمي المسيحيّين ويُخضِع لبيت الطّاعة القبائل المشاغبة المستعدّة دوماً وأبداً لتَعكير صفو الأمن والسّلام في آسيا الصغرى. إنّ تتويج عبد القادر أميراً على سورية سوف يكون مكافأةً نبيلة على الخدمات التي أسداها لنا سجينُنا».

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

كتبت في ٣ آب / أغسطس
العنوان الأصليّ «التّحالف الروسيّ - الفرنسيّ»
نشرتْ للمرّة الأولى في صحيفة «نيو يورك دايلي هيرالد»،
العدد رقم ٦٠٢٥ في ١٦ آب / أغسطس، ١٨٦٠

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

رسالة الأمبراطور
نابليون يتودد لبريطانيا

لندن ٧ آب / أغسطس، ١٨٦٠

[...] إنّ رسالة لويس نابليون إلى «عزيزه» پيرسينيي لا تزال أبرز موضوعٍ للأحاديث هنا كما على الضّفّة الثّانية من القنال. يبدَو أنّ احتجاج «الباب العالي» على الحملة السوريّة كما خطّطتْ لها فرنسا وروسيا بالأصل، لقيَ دعماً قويّاً من النّمسا وبروسيا، في حين أنّ لورد پالمرستون، خلال النّقاشات حول التّحصينات، عيّن لوي نابليون على أنه الأكثر إثارةً للرّيبة بالنسبة إلى بريطانيا، [لكنّه] لن يستطيع أن يُلقي بثقله في الميزان مع تركيّا والقوى الجرمانيّة. ويبدو أيضاً أنّ «بطل ديسمبر / كانون الأوّل» قد تملّكه الفزَع الى حدٍّ ما، ليس فقط من النّبرة الدكتاتوريّة التي اتّخذتْها روسيا، وإنّما أيضاً وخصوصاً من الأسرار التي تتداولها صالونات «الأحزاب القديمة» والهَمْهمات المتناقَلة في «الأحياء الشعبيّة» بصدد «التّحالف الكوزاكي» [الفرنسيّ - الروسيّ].

لجعل هذا الأخير قابلاً للهضم لدى باريس، لا بدّ من أن تكون الأمور قد بلغتْ درجةً أعلى من التّعقيد. في تلك الظروف المحزنة، وفي حالةٍ ذهنيّةٍ مرتبكة بالتّأكيد،

خطّ لويس نابليون رسالته، وقد تعطّرت عدّة مقاطعَ منها بشذى العبَث.
إنّ إنكليزيّاً قد يغلبه الضّحك عندما يقرأ العبارة التي يتوجّه بها لوي نابليون إلى لورد پالمرستون «دعنا نتفاهم بنيّةٍ حسنةٍ كرجالٍ صادقين لا كلصوصٍ يرغب واحدهم في أن يخدع الآخر»، وما من فرنسيٍّ يستطيع أن يقرأ ذلك المقطع دون أن يتذكّر عبارةً مشابهةً تردُ في مسرحيّة «روبير ماكير» الشهيرة[١٣]. (...)

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

كتبتْ في ٧ آب / أغسطس، ١٨٦٠.
العنوان الأصليّ: «الضريبة على الورق - رسالة الأمبراطور» نشرت للمرّة الأولى في «نيو يورك هيرالد تريبيون»، العدد رقم ٦٠٣٠، في ٢٢ آب / أغسطس، ١٨٦٠.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

المسألة الشرقية
بعد التنظيمات العثمانية

لندن، ٢٥ آب / أغسطس، ١٨٦٠

[...] غريبٌ جدّاً، مشهدُ القارّة الأوروبيّة في هذه الآونة. المعروف أنّ فرنسا تنوء تحت مصاعب ماليّة ثقيلة، لكنّها تُنتج السّلاح على نطاقٍ لا يقلّ ضخامة عن تلك المصاعب، وبنشاطٍ ليس أقلّ زخماً، كأنّما تملك فانوس علاء الدّين السّحريّ. النّمسا تتأرجح على شفير الإفلاس، لكنْ هناك مالٌ، بطريقةٍ أو بأخرى، لإطعام جيشٍ جبّارٍ، وحَشْو القِلاع الرباعيّة بالمدفعيّة[١٤]. وروسيا، حيث فشلت العمليّات الماليّة للحكومة - ويجري الحديث عن أنّ الإفلاس الوطنيّ احتمالٌ وارد - وحيث الجيشُ يزمجر بسبب عدم دفع متأخرات [رواتبه]، حتى إنّ ولاء «الحرس الأمبراطوريّ» موضع امتحان عسير، لأنّه لم يتلقَّ مرتباته خلال الأشهر الخمسة الماضية - روسيا مع ذلك، ترسل قوّاتِها إلى البحر الأسود وقد جهّزت ٢٠٠ بارجة حربيّة في نيكولاييف، لتبحر نحو تركيّا. إنّ عجز الحكومة الروسيّة في معالجة مسألة الرّقّ [تحرير الأقنان]، والمشكلة الماليّة، وإحياء المسألة البولونيّة، يبدو أنّها عقدَت العزم على تجريب الحرب بما هي آخر مادّة تخدير. إنّ التذمّر المتصاعد من كافّة أنحاء الأمبراطوريّة، وكافّة مراتب المجتمع الروسيّ، يجري بالتالي إغراقه، بأوامر حكوميّة، في صرخة الثّأر المتعصّبة لمسيحيّي تركيّا الفقراء المسحوقين. يوماً بعد يوم، تضجّ الصحافة الروسيّة بالصّوَر والبيانات عن ضرورة التدخّل في تركيّا. يمكن اعتبار هذا المقتطف من جريدة «إنڤاليد» [«روسكي إنڤاليد»] مثالاً معبّراً عن ذلك:

«لقد بلغَت المسألة الشرقيّة مرحلةً من المؤكّد أنّها ستضعها على جدول أعمال «القوى» الأوروبيّة لفترة من الزّمن، وبما أنّها تستقطب اهتمام أوروبا بأكملها، فلا يليق بنا أن نتركها من غير نقاشٍ على صفحاتنا. الذين لا يكترثون لمصالح الإنسانيّة يمكنهم أن يتركوا هذا الموضوع يمرّ دون تعليق. أمّا نحن، فلسنا مجبَرين فقط على ذكر تفاصيل المجريات الشرقيّة، وإنّما أيضاً علينا أن نستشرف احتمالات المستقبل، خصوصاً أنّه يترتّب علينا أن نكشف للجمهور الإجراءات الواجب اتّخاذها للتخلّص من تلك الحالة غير الطبيعيّة، التي شكّلَت، وهي حقّاً تشكّل وصمة عارٍ على بلدنا والحضارة.

«نظراً إلى طبيعة الأفعال الهمجيّة التي يُسمَح الآن للأتراك بارتكابها، فنحن، من خلال تبجيلنا الحقَّ والعدالة، ملزمون بالاعتراف بأنّ أوروبا ينبغي أن توضع موضع محاسبة على العصبيّة المُسلمة، في أصولها والعواقب. ولن نتردّد في أن نتحدّث بصراحة. ما هي الدّوافع التي حدتْ بأوروبا إلى أن تخوض حرباً ظالمةً ضدّ روسيا العام ١٨٥٣ - ٥٤؟ وقد تقدّمت أوروبا نفسها بأمرين بما هما الأساس لحرب القرم. كان الأوّل هو كبح قوّة روسيا وطموحها، والثاني منع اضطهاد المسيحيّين في الشرق. لقد اعترفتْ أوروبا بالتّالي بوجود مثل ذاك الاضطهاد، لكنّها قصْدَ إزالته، أعلنتْ عن تصميمها على الحفاظ على وحدة الأراضي التركيّة بما هي شرط ضروريّ لتوازن القوى. وما إن انتهت الحرب حتى انشغلت الدبلوماسيّة بوسائل بلوغ هذا الهدف المزدوج. كانت الخطوة الأولى هي استعادة تركيّا إلى أسرة القوى الأوروبيّة، وحمايتها من تدخّل أيٍّ من تلك القوى وطغيانها. ولمّا كان تحقيق ذلك من السهولة بمكان، فقد تحقّق بالتّالي واحد من الهدفين. لكن كيف كان الأمر بالنّسبة إلى الآخر؟ هل قدّمتْ أيّ ضمانات لحماية المسيحيّين ضدّ القتل وكلّ تنوّعات الإساءة؟ مع الأسف [لا]! وضعتْ أوروبا ثقتها في هذا الموضوع في الكلمات والأوراق والوثائق، دون أيّ ضمانات مُنحتْ من أجل تحقيقها. منذ الثامن من أغسطس، ١٨٥٤، عندما بدأ البحث في وقف العمليّات الحربيّة، دُعي

«الباب العالي» إلى منح المسيحيّين والمسلمين حقوقاً دينيّة متساوية. وقد طَرحت حكومة سان بطرسبرغ المطلب ذاته، في احتفالات ٢٨ ديسمبر / كانون الأوّل ١٨٥٤، وأخيراً في مسوّدة شروط السلام التي صيغتْ في فيينّا في الأوّل من فبراير / شباط ١٨٥٦، وسجّلت لاحقاً في محاضر أوّل اجتماع لـ«مؤتمر باريس» وقد تضمّنت الكلمات الآتية: «انّ حقوق رعايا السلطنة سوف تحمى دون تمييز، ولكن دون الإساءة إلى استقلال السلطان وكرامته السياديّة. إنّ النّمسا وفرنسا وبريطانيا العظمى و«الباب العالي»، متّفقون على حماية استمرار تمتّع المسيحيّين الأتراك بحقوقهم السياسيّة والدينيّة، وهم سوف يطلبون موافقةَ روسيا على هذا المقترح في صك السلام».

حذرت روسيا حكومات أوروبا من أن تعصب الأتراك لم يتضاءل لا من حيث الزخم ولا من حيث العنف. وأنه يمكن توقع انفجارات وشيكة.

«وقد انشغل المؤتمر بالموضوع عينه في عددٍ من جلساته الأخرى، كما يتبيّن من محاضر ٢٨ فبراير / شباط، و٢٤ و٢٥ مارس / آذار. في كل هذه، كانت الرغبة هي بلوغ هدفين يلغي أحدهما الآخر - الحفاظ على الحقوق السياديّة للسّلطان، ووضع المسيحيّين من رعاياه تحت حماية أوروبا. فقد تناسى المؤتمر، بجميع أعضائه، أنّ حقوق المسيحيّين ذاتها، وقد رغبوا رغبة عارمة في تثبيتها، قد منحها «الباب العالي» مراراً متكرّرة في معاهداته السابقة مع أوروبا - معاهدات، سبق لها أنْ ألغت السلطةَ السياديّةَ لذاك المَلِك [السلطان]، وهو الملك الذي تقول أوروبا الآن إنّه ينبغي مساعدته على الاحتفاظ بعرشه. من أجل تأمين حدّ أدنى من التّناغم بين هاتين النقطتين المتناقضتين، اضطرّ السّلطان إلى إصدار الـ«خطّي همايون» الشهير، مع أنّه أقرّ بأنّه تصرَّف في ذلك بناءً على إرادته الحرّة ونزوعه السياديّ. فاضطرّ إلى ان يَعِد باحترام رعاياه المسيحيّين ومنحهم الزيد من الحقوق، مع أنّ هذا الوعد لم يدخل في معاهدة السّلم، ليكون بمثابة الضمانة لتنفيذه بما هو أحد عناصرها المكونة. بناءً عليه، تنازل المؤتمر، في البند التّاسع من المعاهدة، عن أيّ تدخّل لاحقٍ في شؤون تركيّا الداخليّة.

«ولكن هل حصل المؤتمر على أيّ ضمانٍ لتطبيق «الخطّي همايون»؟ هل ضمّنه السلطان أيّ إلزامات فعليّة؟ لم يتوفّر أيٌّ من هذا. فبالرّغم من أنّ المعاهدة تمتدح وتثمّن عالياً حكمة «الخطّي همايون»، إلّا أنّ هذه الوثيقة، كما توقّعتْ كلّ أوروبا، ظلّت كلماتٍ ميتة. والأسوأ من ذلك - أنّ أوروبا، بموجب تلك الحقوق، قد حُرِمت من أيّ حقٍّ في التدخّل الشرعيّ، مع أنّ «الخطّي همايون» قد لا يُطبّق بالمرّة، ولم يَمنع ارتكاب أبشع المجازر بعد أربع سنوات فقط على إصداره [...] مؤخّراً، حذّرت روسيا حكومات أوروبا من أنّ تعصّب الأتراك لم يتضاءل لا من حيث الزّخَم ولا من حيث العنف، وأنّه يمكن توقّع انفجاراتٍ وشيكة، مع أنّه لم تتحقّق أيّ فترة هدوءٍ انتقاليّة، على كلّ حال. ولكن حتى حينها، ظلّت أوروبا راضية بوعود «الباب العالي»، وعلّلت نفسها بالأمل أنّ الأطراف المذنبة سوف تلقى العقاب، وأنّ الأمن والنّظام سوف يستتبّان. اقتضى الامر مجزرةً جماعيّة على أيدي هؤلاء الوحوش لجعلها تغيّر رأيها. وأخيراً صمّمت أوروبا على التدخّل، بعد إبطاء ومراوغة، ما يبرّر الاعتقاد بأنّها كانت تنوي أن تترك المذنبين يفرّون. تقرّر أن يعتمد كلّ شيء على رسالة معاهدة ٣٠ مارس / آذار ١٨٥٦، وتماماً كما في حال إيطاليا في العام الذي سبَق، لم تزن عذابات شعبٍ شيئاً مقابل نصّ وثيقة دبلوماسيّة.

«لكنّ رأيَنا في كلّ هذا مختلفٌ تماماً. إنّ معاهدة أوروبا مع تركيّا، في نظرنا، تضمن مبادئ الإنسانيّة والدين والحضارة. وإذا ما خَرَقت تركيّا هذه المبادئ، فإنّها تستجلب بمفردها على نفسها تدخّل أوروبا.

«إلى العام ١٨٥٦، كانت القوى الأوروبيّة، بناءً على عدّة معاهداتٍ موقّعة مع السّلطنة، تملك الحقّ الشرعيّ في الاعتراض بالنّسبة إلى وضع الرعايا المسيحيّين. على أنّه يجوز التساؤل الآن عمّا إذا كان هذا الحقّ قد أُلغي بموجب معاهدة ٣٠ مارس، ١٨٥٦. هل تنازلت أوروبا عن امتيازاتها في حماية أبناء دينها؟ سيكون الجواب بالإيجاب إن هي راهنت على تطبيق «الخطّي همايون»، الصادر في ١٨ فبراير [١٨٥٦]، وإذا ما اقتنعت مرّة بأنّ الإصلاحات الموعودة هي ذاتها الإصلاحات المطبّقة، إذا هي أُمِلت أنّ عادات المسلمين وأهواءهم والتشريعات قابلة للتّغيير. لكن لم يكن لأوروبا، طبعاً، ولن يكون لها مثل هذا الرّأي. مأخوذةً بالاعتقاد أنّ سلامة أراضي السّلطنة العثمانيّة شرط أوحد لتوازن القوى، سمحتْ

أوروبا للسّلطان بأن ينضمّ إلى أسرة دولها. على أنّ هذا لم يُمنَح إلّا بشرط أن تتحرّر تركيّا من تقاليدها الإسلاميّة، وتصير أوروبيّةً في مؤسّساتها، وألّا يعودَ السّيف هو الذي يُقيم العدل بين المؤمنين وغير المؤمنين، وألّا يبقى المسيحيّون عبيداً لأسيادهم وألّا تعود أملاك رعايا السلطنة مَنهبةً للمسلمين. كانت تلك بالتّأكيد الفكرة الرئيسة في أوروبا العام ١٨٥٦. ومع كلّ غضبها ضدّ روسيا، وهو النتيجة الطبيعيّة لحربٍ دمويّةٍ وظالمة، لم تتملّص السلطنة من التزاماتها السابقة، بل على العكس من ذلك، طالبت بتحسينٍ متدرّج لوضع المسيحيّين. إنّ ضمان بلوغ هذا الهدف كان الغرض الوحيد للانتداب الاوروبيّ على السلطنة، وكان هو الثّمَن الوحيد الذي طالبتْ به أوروبا لقاءَ ضمان سلامة أراضي ممتلكات السّلطنة. دون ذلك، لم يكن ما يبرّر الحرب أو السّلام. بدون ذلك، لم تكن تركيّا لتُقبَل عضواً في أسرة القوى الأوروبيّة، ولا كانت تأمّنتْ حماية سلامة ممتلكاتها. إنّ الشّرطيَن متلازمان تلازماً وثيقاً بحيث لا يمكن الفصل بينهما، وهذا ما يستطيع أن يتبيّنه أيّ كان، إن كان يريد أن يتبيّن شيئاً على الإطلاق.

«صحيحٌ أنّ شكل الشرط كان يمكن أن يكون أقلّ فاعليّة ممّا هو الآن، لو أنّ النّصّ الحرفيّ للمعاهدة كانت له السلطة الكاملة. لقد تخلّتْ أوروبا رسميّاً عن التدخّل في الأوضاع الداخليّة لتركيّا بمقتضى البند التاسع، لكن حتى ذلك البند يتضمّن الإشارة إلى «خطّي همايون» الصادر في ١٨ فبراير / شباط، والذي يقضي بأن يوضع المسيحيّون على مرتبةٍ مساويةٍ للمسلمين في الحقوق. وإنّه لمن قبيل التّناغم مع قوانين المنطق الصّارمة أنّ البند التّاسع يسقط إذا ما أغفل «خطّي همايون».

«عبثاً تسعى تركيّا الآن لقمع الاضطراب الأخير في سورية. كان هذا الاضطراب حتميّاً، بسبب عدم تحسين وضع المسيحيّين، بل بالعكس صار أسوأ ممّا كان من قبل. وعبثاً تحاول بريطانيا الحيلولة دون تدخّل أوروبا، قد تكون لها سياستها الخاصّة، وقد تكون مدفوعةً بدوافع سياسيّة وتجاريّة، لسنا بصدد تقدير صوابها وأهمّيّتها، لكنّها لا تستطيع أن تبني اعتراضاتها على البند التّاسع من معاهدة باريس [...] عبثاً تحاول أوروبا إخفاء حقيقة تدخّلها بذريعة أنّه تمّ بناءً على إرادة السلطان. نقول إنّ كلّ هذا عبثٌ وبالرّغم من أنّ «إيليون» لم تصدّق نبوءات «كاساندرا»[١٥]، فما يرضينا على الأقلّ هو معرفة أنّ «إيليون» قد دمّرت».

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

كتبت في ٢٥ آب / أغسطس، ١٨٦٠

العنوان الأصلي: «أسعار القطن موازنات أوروبا والتحضيرات للحرب - المسألة الشرقيّة»

نشرتْ للمرّة الأولى في «نيو يورك دايلي هيرالد»، العدد ٦٠٤٦، ١٠

أيلول / سبتمبر، ١٨٦٠.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

الهوامش

١ سياسيّ ودبلوماسيّ بريطانيّ، شغل منصب سفير بريطانيا، ثمّ سفير فوق العادة، في السلطنة العثمانيّة بين ١٨٢٠ و١٨٥٧ لأكثر من عقدين من الزمن، في ذروة فترة النّفوذ البريطانيّ على السلطنة.

٢ أنصار لوي نابليون: نسبة إلى الثاني من كانون الأول / ديسمبر، شهر الانقلاب الذي جاء به أمبراطوراً.

٣ قصر الأمبراطور.

٤ الشريط الساحليّ لكرواتيا الحاليّة، بين ١٨١٥ والحرب العالميّة الأولى كانت جزاءً من ممالك كرواتيا والصرب وسلوفينيا (التي ما لبثت أن كوّنت مملكة يوغسلافيا)، وكان جزءٌ صغير منها تابعاً لمملكة إيطاليا. دخلتْ إيطاليا الحرب على أمل الاستحواذ عليها.

٥ فكتور دُ بيرسينيي، صديق شخصيّ لنابليون الثالث، ومن أوفى أنصاره، لعب دوراً بارزاً في انقلاب ٢ دسمبر / كانون الأوّل ١٨٥٢، شغل منصب وزير الداخليّة وأشرف على سياسة الأمبراطوريّة الاقتصاديّة وعزز قبضتها الأمنيّة استقال من مناصبه لأسبابٍ صحّيّة وشغل منصب سفير لدى بريطانيا. الرسالة المعنيّة موجّهة عبر دُ بيرسينيي إلى الحكومة البريطانيّة لغرض تحسين العلاقات بين البلدين. انظر مقالة ماركس بتاريخ ٧ آب / أغسطس، ١٨٦٠ أدناه.

٦ الإشارة إلى دور مسيحيّي الشرق، والموارنة خصوصاً هنا، في القتال إلى جانب الجيوش الصليبيّة.

٧ «الليغ»، معيار قديم لقياس المسافة، يعادل حوالي ثلاثة أميال.

٨ نيقولاوس بيكر (١٨٠٨ - ١٨٤٥) محام وكان قوميّاً ألمانيّاً ألّف العام ١٨٤٠ ما بات معروفاً باسم «نشيد نهر الراين» الذي كانت له شهرة واسعة ولُحّن عشرات المرّات. وهو ردّ على تصريح لرئيس الوزراء الفرنسيّ آنذاك آدولف تيير، الذي طالب بالضفّة الشماليّة لنّهر الراين، بما هو «حدود فرنسا الطبيعيّة» الذي تطالب به فرنسا منذ أيّام نابليون بونابارت الذي احتلّ تلك المقاطعات لفترة من الزّمن. مطلع نشيد بيكر «لن يكون لهم / الراين الألمانيّ الحرّ / ولو نعقوا مثل غربان جائعة / إلى أن تُبَحّ أصواتهم. وقد ردّ عليه ألفرد دُ موسيه بقصيدةٍ مطلعها «لقد أخذناه، نهر الراين الألمانيّ خاصّتهم» في إشارة إلى الفترة التي كانت فيها تلك المقاطعات تحت السيطرة الفرنسيّة زمن نابليون بونابارت.

٩ النّهر الذي كان قبل الحرب العالميّة الأولى يشكّل الحدود بين رومانيا وروسيا.

١٠ Duke of Saxe-Coburg هو تشارلز - إدوارد، حفيد ملكة بريطانيا، فكتوريا والأمير ألبرت.كان حتى العام ١٩١٩ أميراً في المملكة المتّحدة وحاكماً في الآن معاً على مقاطعة ساكس - كوبرغ التي كانت جزءاً من الأمبراطوريّة الألمانيّة خلال الحرب العالميّة الأولى.جرّد من ألقابه الملكيّة لأنّه خدم كضابطٍ في الجيش الألمانيّ خلال تلك الحرب.

١١ نهر يعبر فرنسا الشماليّة وبلجيكا وهولندا.

١٢ جنّيّات يحرسْن بتنّينٍ شجرات التّفاح الذهبيّة التي يتعيّن على هرقل قطفُها.

١٣ روبير ماكير، شخصيّة تظهر في عدد من المسرحيّات الفرنسيّة بدَور لصّ، ونموذج للشرّير.

١٤ القلاع الأربع تقع في مانتوا، پسبيرا، ڤيرونا، ولينياغو.

١٥ «إيليون» هو الاسم القديم لأثنيا، و«كاساندرا» هي ابنة بريام ملك طروادة. حلّت عليها لعنة أن تتنبّأ بنبوءات لا يصدّقها أحد. تنبّأت أنّ اختطاف باريس لهيلينا الطروادية سوف يؤدّي إلى اندلاع الحرب.

مسودّة البيان الشيوعي
تعاليم الماركسية

فريدريك أنغلز

ترجمة فواز طرابلسي.

بمناسبة الذّكرى السّبعين بعد المائة لصدور البيان الشيوعيّ لماركس وأنغلز نعيد نشر مسوّدة «البيان» التي كتبها أنغلز على شكل أسئلة وأجوبة حول مبادئ الشيوعيّة وسمّيت «تعاليم الماركسيّة». النّصّ العربيّ المعروف لدينا من «التّعاليم» صدر عام ١٩٣٥ بترجمة مصطفى حسني، الاسم المستعار لنقولا شاوي، الأمين العامّ الأسبق للحزب الشيوعيّ اللبنانيّ. وهي خارج التّداول منذ فترةٍ طويلة. وقد صدرت طبعة جديدة بعنوان «التعاليم الماركسيّة»، ترجمة فوّاز طرابلسي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧١.

مرّت صياغة «البيان الشّيوعيّ» بثلاثة أطوار رئيسيّة قبل أن يتولّى ماركس سكبها نهائيّاً بالقالب الّذي نعرفه. وُلدت الاشتراكيّة العلميّة فعلاً بانضمام ماركس وأنغلز إلى «عصبة البررة» الّتي أعلنت تبنّيها للهدف الشّيوعي في مؤتمرها الأوّل بلندن (حزيران / يونيو ١٨٤٧). في ذاك المؤتمر، قرّرت العصبة تغيير اسمها إلى «العصبة الشّيوعيّة» وأعلنت أنّ هدفها بات «الإطاحة بالبرجوازيّة وإقامة سلطة البروليتاريا وإلغاء النّظام الاجتماعي البرجوازي القائم على التّناقضات الطّبقيّة واستبداله بنظام اجتماعي تزول فيه الطّبقات والملكيّة الفرديّة». وقرّرت «العصبة» في مؤتمرها الثّاني (٢٨ تشرين الثاني / نوفمبر إلى ٨ كانون الأوّل / ديسمبر من العام ذاته) إصدار بيان بأهدافها وكلّفت ماركس وأنغلز بصياغته.

قبل ذلك كان أعضاء العصبة يتداولون عدّة مشاريع. ففي أيلول / سبتمبر ١٨٤٧، تقدّم ثلاثة من أعضاء لجنتها التّنفيذيّة في لندن - هم كارل شابر وهنريش باور وجوزف مول - بمشروع اعتبره ماركس وأنغلز طوباويّاً جدّاً، فتقرّر صرف النّظر عنه. وصدر مشروعٌ آخر عن المجموعة الشّيوعيّة في باريس أشرف عليه أحد أصدقاء ماركس القدامى، موزس هسّ. لكن أنغلز انتقده، فكلّفتْه المجموعة بكتابة نصّ آخر. غير أنّ المؤتمر الثّاني للعصبة ما لبث أن كلّف أنغلز وماركس بكتابة بيان «العصبة» فقرّر أنغلز التّخلّي عن مشروعه - الّذي سُمّي لاحقاً «تعاليم الماركسيّة» أو «تعاليم الشيوعيّة» - كتب إلى ماركس قائلاً: «فكّر قليلاً في فعل الإيمان (إعلان مبادئ العصبة). الأفضل، برأيي، التّخلّي عن شكل التّعاليم وتسميته «البيان الشيوعيّ» (...) سأحمل معي النّصّ الّذي أعددْت، لكنّه نصّ سرديّ محض، ومصوغ بطريقةٍ بائسة ومكتوب على عجل. (أنغلز إلى ماركس، ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٤٧، المراسلات المختارة، التّرجمة الإنكليزيّة، موسكو ١٩٦٥، ص ٤٥). بناءً عليه، وضع ماركس منفرداً الصّيغة النهائيّة لـ«البيان الشيوعيّ» مطْلع العام ١٨٤٨.

تعاليم الماركسيّة (١٨٤٧)

س ما هي الشّيوعيّة؟

ج الشّيوعيّة هي مجموعة التّعاليم حول ظروف تحرّر البروليتاريا.

س ما هي البروليتاريا؟

ج البروليتاريا طبقة من طبقات المجتمع تعتاش كلّيّاً من بيع عملها[1] ولا تجني الأرباح من أيّ نوعٍ من أنواع رأس المال، وتتوقّف حياتها أو موتها، بل وجودُها بأسره، على الطلب على عملها وترتهن بالتّالي بتعاقب الأزمات مع الازدهار الصّناعي وبتقلّبات المنافسة المنفلتة من عقالها.

البروليتاريا، أو طبقة الشّغّيلة هي الطّبقة العاملة المعاصرة.

س هل كان البروليتاريّون موجودين مذ وجد العالم؟

ج كلّا، كان دائماً يوجد طبقات فقيرة وكادحة. وفي العادة، كانت الطّبقات الكادحة هي الطّبقات الفقيرة. ولكن لم يوجد دائماً شغّيلة وفقراء يعيشون في ظروف

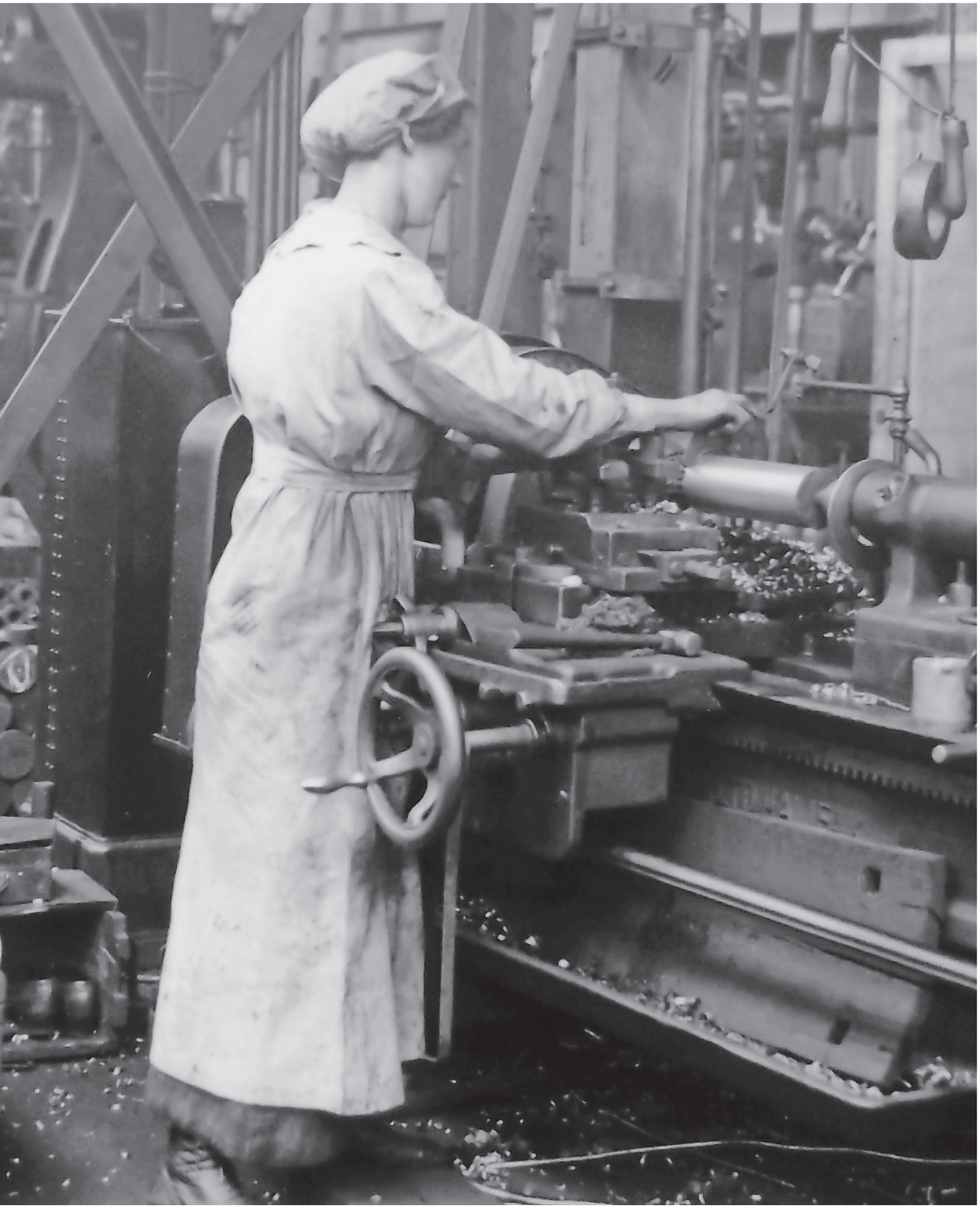

كالّتي أشرنا إليها أعلاه. لم يكن يوجد دائماً بروليتاريّون ولا كانت توجد دائماً منافسة منفلتة من عقالها.

س كيف ظهرت البروليتاريا؟

ج يعود أصل البروليتاريا إلى الثّورة الصّناعية في إنكلترا في القرن الماضي (القرن الثّامن عشر). منذ ذلك الحين، قامت الثّورات الصناعيّة في كلّ البلدان المتمدّنة في العالم[٢]. وقد مهّد للثّورة الصّناعية اكتشاف آلة البخار وآلات الغزل على أنواعها والنّول الآليّ (الميكانيكيّ) وسلسلة كاملة من الأدوات الميكانيكيّة الأخرى. وكانت هذه الآلات باهظة الثّمن لا يستطيع شراءها إلا كبار الرّأسماليّين، فأدّت إلى تغيير نمط الإنتاج السّائد برمّته وأزاحت الحرفيّين السّابقين، لأنّها بدأت تنتج سلعاً أرخص وأفضل من التي ينتجها هؤلاء بأنوالهم اليدويّة وطارات الغزل البدائيّة التي يملكون. وهذا ما يفسّر لماذا أدّى دخول الآلات إلى تسليم الصّناعة كلّيّاً إلى يد كبار الرّأسماليّين وإلى إفقاد الملكيّة الحرفيّة الصّغيرة (أدوات، أنوال، إلخ) كلّ ما لها من قيمة. فسيطر الرّأسماليّون على كلّ شيء. ولم يبقَ للشّغيلة شيء.

إن العمل سلعة كغيره من السلع. يتحدد سعره بالتالي على أساس القوانين التي تتحكم بسعر مثيلاته من السلع. إن سعر سلعة ما – في ظل منافسة الصناعة الكبيرة والمنافسة الحرة (والواحدة منها رديفة للثانية) – يساوي كمعدل كلفة إنتاج هذه السلعة.

دخل نظام المانيفاتورة[٣]، أوّل ما دخل، إلى صناعة الغزل والنّسيج. لكنّه بعدما خطا الخطوة الأولى، اتّسع ليشمل كلّ الفروع الصناعيّة الأخرى وبخاصّة الطّباعة والفخّار والصّناعات المعدنيّة. فتنامى توزيع العمل بين مختلف فئات العمّال بحيث إنّ العامل الّذي كان في السّابق يؤدّي عملاً كاملاً، صار لا يؤدّي إلّا جزءاً من العمل فقط، وسمحت قسمة العمل هذه بإنتاج السّلع بوتيرةٍ أسرع، وبالتّالي بكلفةٍ أدنى. وهكذا تقلّص دور العامل إلى ترجيع حركة ميكانيكيّة بسيطة، تستطيع الآلة أداءها على نحوٍ أفضل منه على كلّ حال. فسيطرت الآليّة (المكننة) والإنتاج الصّناعيّ الكبير على فروع الصناعة جميعها، الواحدة تلو الأخرى، بالطّريقة ذاتها التي سيطرتْ فيها أصلاً على فرعَي الغزل والنّسيج، فوقعت الصّناعات بين أيدي كبار الرّأسماليّين وحُرم الشّغّيلة من بقايا الاستقلال الّذي كانوا ينعمون به. وانخرطت المانيفاتورة في النّظام الصّناعيّ شيئاً فشيئاً يرافقها انخراط الحِرَف اليدويّة. وراح كبار الرّأسماليّين يزيحون المنتجين المستقلّين الصّغار إذ أسّسوا المشاغل الكبيرة الّتي توفّر الكثير من الأكلاف وتسمح بتوزيعٍ أدقٍّ للعمل.

هذا يفسّر ما نشاهده الآن في البلدان المتمدّنة حيث انخرطت كلّ فروع الإنتاج تقريباً في نظام الصّناعة الكبيرة الّذي حلّ محلّ الحرَف اليدويّة والمانيفاتورة. كما يفسّر الانهيار المتسارع للطّبقة الوسطى الحرفيّة السّابقة، والتّحوّل الكامل في وضع الشّغّيلة، وتكوّن طبقتين جديدتين سرعان ما انصهرت فيهما سائر الطّبقات، وهما:

- طبقة كبار الرّأسماليّين الّذين يحتكرون، في كلّ الأقطار المتمدّنة، المعاش والموادّ الأوّليّة والأدوات (آلات، مصانع) اللازمة لإنتاج هذا المعاش. وإنّها طبقة البرجوازيّين أو البرجوازيّة.
- طبقة المُعدمين الّذين لا يملكون شيئاً من متاع هذه الدّنيا، فيضطرّون إلى بيع عملهم للبرجوازيّين مقابل المعاش اللازم لإبقائهم على قيد الحياة. إنّها طبقة البروليتاريّين أو البروليتاريا.

س ضمن أيّ ظروف يبيع البروليتاريّون عملهم للبرجوازيّة؟

ج إنّ العمل سلعة كغيره من السّلع. يتحدّد سعره بالتّالي على أساس القوانين الّتي تتحكّم بسعر مثيلاته من السّلع. إنّ سعر سلعة ما - في ظلّ منافسة الصّناعة الكبيرة والمنافسة الحرّة (والواحدة منها رديفة للثّانية، كما سيظهر بعد قليل) - يساوي، كمعدّل، كلفة إنتاج هذه السّلعة. من هنا إنّ سعر العمل يساوي هو أيضاً كلفة إنتاج العمل. وكلفة إنتاج العمل هي ذلك القدَر من المعاش الضّروريّ لمواصلة العامل لعمله ولإبقاء الطّبقة العاملة على قيد الحياة. لذا، فإنّ العامل لا يتقاضى في مقابل عمله غير الحدّ الأدنى الضّروريّ لتأمين هذا الهدف. فيكون سعر العمل، أو الأجر، هو الحدّ الأدنى الضّروريّ لإبقاء العامل على قيد الحياة. وبما أنّ الأحوال الاقتصاديّة قد تسوء أو تتحسّن، فإنّ العامل يتقاضى أقلّ من هذا الحدّ أو أكثر، تماماً مثلما يتقاضى ربّ العمل لقاء بيع سلعه مبلغاً من المال قد يزيد أو ينقص حسب الأحوال. ولكنْ مثلما أنّ ربّ العمل، بعد استخراج المعدّل الوسطيّ من الأحوال الجيّدة والعاطلة، يتقاضى مقابل سلعته ما يعادل إنتاجها لا أكثر ولا أقلّ، فالعامل لا يتقاضى، كمعدّلٍ وسطيّ، إلّا الحدّ الأدنى الضّروريّ لإبقائه على قيد الحياة. ومع تغلغل

الصّناعة الكبيرة في كافّة فروع الإنتاج، يتعاظم فعل هذا القانون الاقتصاديّ المتحكّم بالأجور.

س ما هي الطّبقات الكادحة التي عرفها التّاريخ قبل الثّورة الصّناعيّة؟

ج عرفت الطّبقات الكادحة ظروفاً متباينة وشغلت مواقع مختلفة في مواجهة الطّبقات المالكة والمسيطرة تبعاً لتباين واختلاف مراحل تطوّر المجتمع. في العصر القديم، كان الشّغيلة هم العبيد، كما لا يزال الحال حتّى الآن في عددٍ من البلدان المتأخّرة وحتّى في الولايات الجنوبيّة من أميركا الشّماليّة[٤]. كان الشّغّيلة في القرون الوسطى هم الأقنان الّذين تملكهم أرستقراطيّة الأرض، كما هو الحال حتّى الآن في المجر وبولونيا وروسيا. وعرفت المدن، طوال القرون الوسطى وصولاً إلى الثورة الصناعيّة، الزّملاء العاملين في خدمة حرفيّين برجوازيّين صغار. ثمّ برز عمّال المانيفاتورة تدريجيّاً مع نموّ المانيفاتورة، إلى أن أخذوا يستقلّون في خدمة كبار الرّأسماليّين.

س كيف يختلف البروليتاريّ عن العبد؟

ج العبد يباع مرّةً واحدة. العامل مضطرّ لأن يبيع نفسه كلّ يوم وكلّ ساعة. العبد الفرد، الّذي يملكه سيّدٌ واحد، وجوده مضمون، رغم بؤس هذا الوجود، لأنّ لسيّده مصلحة في ذلك. أمّا البروليتاريّ الفرد، الّذي تملكه الطّبقة البرجوازيّة بأسرها، فوجوده ليس مضموناً لأنّ الّذي يشتري عمله لا يفعل ذلك إلّا عند حاجته إليه. والطّبقة البرجوازيّة لا تضمن البقاء إلّا للطّبقة العاملة برمّتها، بما هي طبقة. العبد لا يدخل المنافسة، البروليتاريّ غارقٌ فيها لأذنيه، يتكوّى من أدنى ذبذبة من ذبذباتها. المجتمع يعتبر العبد شيئاً، ويرفض الاعتراف به عضواً فيه. وعلى العكس من ذلك، فالمجتمع يعترف بالبروليتاريّ ككائنٍ بشريّ وكعضوٍ في المجتمع. لذا قد ينعم العبد بمستوى معيشة أرفع من مستوى معيشة البروليتاريّ. لكنّ البروليتاريّ، مع ذلك، ينتمي إلى مستوى أعلى من مستويات تطوّر المجتمع ويعتبر نفسه أعلى منزلةً من العبد. يتحرّر العبد إذا قضى على علاقة العبوديّة - من بين جملة علاقات الملكيّة الفرديّة القائمة - فيتحوّل من هو ذاته إلى بروليتاريّ. أمّا البروليتاريّ فلا يتحرّر إلّا إذا قضى على الملكيّة الفرديّة ذاتها.

س كيف يختلف البروليتاريّ عن القنّ؟

ج القنّ يملك أداة إنتاج أو قطعة أرض، أو هو يتمتّع بحقّ التّصرّف بهذه أو تلك، لقاء تسليم حصّة من المحصول أو بذل عملٍ معيّن. البروليتاريّ يعمل عند آخرين مستخدماً أدوات إنتاج ليست له، ويتقاضى لقاء عمله حصّةً من المنتوج. القنّ يعطي بينما البروليتاريّ يأخذ. القنّ وجوده مضمون. البروليتاريّ وجوده على كفّ عفريت. القنّ يقع خارج علاقات المنافسة. البروليتاريّ في صميمها. القنّ يتحرّر إذا التجأ إلى المدينة حيث يتحوّل إلى حِرفيّ، أو إذا قدّم المال لسيّده عوضاً عن المنتجات أو العمل فيتحوّل بذلك إلى مزارع حرّ، أو إذا طرد سيّدَه وتحوّل هو بنفسه إلى بروليتاريّ. باختصار، يتحرّر القنّ إذا انخرط بطريقةٍ أو بأخرى في الطّبقة المالكة أو إذا دخل علاقات المنافسة. أمّا البروليتاريّ فليس له من أمل في التحرّر إلّا إذا قضى على المنافسة ذاتها وعلى الملكيّة الفرديّة والتّمايزات الطّبقيّة.

س كيف يختلف البروليتاريّ عن الحِرَفيّ؟

ج في المحترفات القديمة، لم يكن الحِرفيّ الشابّ أكثر من عاملٍ مأجورٍ حتّى بعد أن ينهي فترة تدريبه. لكنّه يتحوّل بدوره إلى معلّم بعد عددٍ معيّن من السّنوات. هذا في حين أنّ البروليتاريّ يبقى عاملاً مأجوراً طوال حياته. الحِرفيّ، قبل أن يكون معلّماً، يكون زميلاً للمعلّم، يعيش في بيته ويأكل على مائدته. أمّا العلاقة الوحيدة بين البروليتاريّ وربّ عمله فهي مجرّد علاقة ماليّة. الزميل في المحترف ينتمي إلى الفئة الاجتماعيّة ذاتها التي ينتمي إليها معلّمه ويشاركه عاداته والتقاليد. البروليتاريّ يفصله اجتماعيّاً عن ربّ العامل الرّأسماليّ عالمٌ كامل من التّمايزات الطّبقيّة. إنّه يعيش في بيئةٍ أخرى، ويسلك نمط حياةٍ يختلف جذريّاً عن نمط حياته. ومفاهيمه مختلفة كلّيّاً عن مفاهيم الرأسماليّ. ثمّ إنّ الحرفيّ يستخدم في عمله أدواتٍ تكون عادةً ملكه أو يسهل عليه امتلاكها. أمّا البروليتاريّ فيستخدم آلةً أو جزءاً من آلةٍ ليستْ ملكه ويستحيل عليه امتلاكها. الحرفيّ يُنتج منتوجاً كاملاً في معظم الأحيان وتلعب مهارته في استخدام أدواته دائماً الدّور الحاسم في إنتاج هذا المنتوج. البروليتاريّ، من جهته، لا يُنتج إلا جزءاً من سلعة، أو هو يساهم فقط في أداء عمليّة جزئيّة من مجمل مسار العمل المطلوب لإنتاج ذاك الجزء، وتأتي مهارته الشّخصيّة في المرتبة الثّانية بعد عمل الآلة. وعلى كلّ حال، غالباً ما تكون الآلة أجدى منه من حيث كمّيّة المنتجات أو تركيبها. كان الحِرفيّ، مثله كمثل معلّمه، محميّاً من المنافسة طوال أجيالٍ عبر القيود الحرفيّة والأعراف السّائدة، بينما البروليتاريّ مضطرٌّ إلى الالتحام مع زملائه أو الالتجاء للقانون حتّى لا تسحقه المنافسة. ذلك أنّ الفائض في اليد العاملة يسحق البروليتاريّ، لا

سيّده الرّأسماليّ. الحرفيّ، مثله كمثل معلّمه، كائنٌ محدودٌ، ضيّق الأفق، خاضع للعصبيّة الفئويّة وخصمٌ لكلّ جديد. البروليتاريّ، في المقابل، مضطرّ لأن يتذكّر في كلّ لحظة التّعارضَ الكبير بين مصالح طبقته ومصالح الطّبقة الرّأسماليّة. عند البروليتاريّ، يحلّ الوعي الطبقيُّ محلّ العصبيّة الفئويّة، فيدرك أنّ تحسين أحوال طبقته لا يتمّ إلّا بتقدّم المجتمع بأسره. الحرفيّ، في نهاية الأمر، رجعيّ عندما يتمرّد - لا بل إنّه رجعيّ لكونه يتمرّد - بينما البروليتاريّ مجبَر باطّراد على أن يكون ثوريّاً. إنّ أوّل تقدّم اجتماعيّ تمرّد عليه الحرفيّون هو بروز نظام المانيفاتورة، أي عمليّة إخضاع الحرفة - بما فيها المعلّم والزّميل معاً - لرأس المال المركنتيلي الّذي انقسم فيما بعد إلى رأس مالٍ تجاريٍّ ورأس مالٍ صناعيٍّ.

س كيف يختلف البروليتاريّ عن عامل المان يفاتورة؟

ج بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر، كان عامل المانيفاتورة لا زال يملك، في معظم الأحيان، نَول الحياكة ودولاب الغزل العائليّ وحقلاً صغيراً يزرعه في ساعات الفراغ. البروليتاريّ لا يملك أيّاً من هذه. عامل المانيفاتورة يعيش، في معظم الأحيان، في الرّيف ويرتبط بربّ عمله أو مالك الأرض بعلاقات عشائريّة. البروليتاريّ يعيش في المدن الكبيرة ولا تربطه بربّ عمله إلّا العلاقة الماليّة البحتة. عامل المانيفاتورة تنتزعه الصّناعة الكبيرة من علاقاته العشائريّة، فيخسر كلّ ما تبقّى له من ملكيّة صغيرة ويتحوّل بالتّالي إلى بروليتاريّ.

س ما هي النّتائج المباشرة للثّورة الصناعيّة ولانشطار المجتمع إلى برجوازيّين وبروليتاريّين؟

ج أولاً: قضي نهائيّاً على نظام المانيفاتورة القديم وعلى الصّناعة المعتمدة على العمل اليدويّ على أثر انخفاض أسعار المنتجات الصّناعيّة في كافّة البلدان نتيجة دخول الآليّة. فإذا بالبلدان شبه البربريّة، حيث الصّناعة تعتمد بالدّرجة الأولى على نظام المانيفاتورة، تُنتزع بعنفٍ من عزلتها بعدما كانت على هامش التّطوّر التاريخيّ. فراحتْ تشتري السّلع البريطانيّة الرّخيصة وتركت عمّال المانيفاتورة المحلّيّين يتضوّرون جوعاً. هكذا عرفت العلاقات الاجتماعيّة تحوّلاً ثوريّاً شاملاً في أقطارٍ لم تكن قد خطتْ خطوةً واحدة في طريق التّقدّم كالهند مثلاً. وهذا يفسّر لماذا تجد الصّين نفسها الآن على عتبة الثورة. ذلك أنّ اختراع آلة جديدة في إنكلترا قد يؤدّي في غضون سنواتٍ قليلة إلى الحكم بالمجاعة على ملايين العمّال الصينيّين. بهذه الطّريقة صهرت الصّناعة الكبيرة جميع شعوب الأرض في بوتقة واحدة، محوّلةً الأسواق المحلّيّة إلى سوقٍ عالميّة واحدة شاسعة، حاملة التقدّم والحضارة إلى كلّ مكان بحيث بات كلّ ما يجري في البلدان المتمدّنة ينعكس حكماً على البلدان الأخرى. من هنا إنّ تحرّر العمّال حاليّاً في إنكلترا وفرنسا سوف يؤدّي إلى انتفاضات عمّاليّة في البلدان الأخرى.

ثانياً: أدّى حلول الصّناعة الكبيرة محلّ الإنتاج المانيفاتوري إلى نموّ منقطع النّظير للطّبقة البرجوازيّة ولثرواتها وقوّتها، الأمر الّذي جعل منها الطبقة الأولى في المجتمع. وحيثما تمّ ذلك، تسلّمت البرجوازيّة السّلطة السياسيّة بعدما قضتْ على طبقات العهد القديم: الأرستقراطيّة والأشراف ومثلهما - الملكيّة المطلقة. لقد قضت البرجوازيّة على سلطة الأرستقراطيّة والنّبلاء بإلغائها حقّ الابن البكر، أي عدم قابليّة الملكيّة العقاريّة للتّحويل، وغيره من الامتيازات الإقطاعيّة الأخرى، كما قضتْ على سلطة الأشراف بإلغائها الحرَف والامتيازات الحرفيّة. وأحلّت محلّ هذه وتلك المنافسة الحرّة، أي أحلّت وضعاً اجتماعيّاً يحقّ لكلّ امرئ فيه أن يمارس النّشاط الاقتصاديّ الّذي يروق له، فلا يعيقه عائق سوى عدم توافر رأس المال الضّروري للقيام بهذا النّشاط. ومن هنا فإنّ طغيان المنافسة الحرّة هو بمثابة الإعلان الرّسمي أنّ أفراد المجتمع باتوا غير متساوين بالقدر الّذي تكون فيه رؤوس أموالهم غير متساوية، وأنّ رأس المال إنّما هو القوّة الحاسمة في المجتمع. والمنافسة الحرّة هي التي سمحت للرّأسماليّين، للبرجوازيّين، بأن يصيروا الطّبقة الأولى في المجتمع. وهي ضروريّة في البدء لنموّ الصّناعة الكبيرة، لأنّها النّظام الوحيد الّذي يمكن هذه الصناعة من تحقيق غلبتها على سائر أنماط الإنتاج الاقتصاديّة. وما أن تطيح البرجوازيّة بالسّلطة الاجتماعيّة للأشراف والنّبلاء حتّى تنتقل للإطاحة بسلطتهم السياسيّة. وما أن تصبح الطّبقة الأولى اقتصاديّاً حتّى تطمح لاكتساب الأولويّة السياسيّة كذلك. ويتحقّق لها ذلك عندما تدخل النّظام التّمثيليّ الّذي يرتكز على المساواة البرجوازيّة أمام القانون والتّكريس القانونيّ للمنافسة الحرّة. ويتّخذ النّظام التّمثيليّ في البلدان الأوروبيّة شكل الملكيّة الدّستوريّة حيث لا يملك حقّ التّصويت إلّا من كان يملك كمّية معيّنة من رأس المال، ممّا يعني اقتصار هذا الحق عمليّاً على البرجوازيّين أنفسهم. النّاخبون البرجوازيّون ينتخبون نوّاباً برجوازيّين، وهؤلاء يستخدمون حقّهم في رفض التّصديق على التّشريعات الضّريبيّة لانتخاب حكومة برجوازيّة.



ثالثاً: تنمو البروليتاريا وتتطوّر مع نموّ وتطوّر البرجوازيّة نفسها. فما أن يتراكم رأس المال بيد الرّأسماليّين حتّى يتكاثر عدد البروليتاريّين. بما أنّ رأس المال هو الّذي يشغّل العمّال، وبما أنّ نموّ رأس المال هذا رهنٌ بدوره بتشغيل العمّال، فإنّ تكاثر عدد البروليتاريا يسير جنباً إلى جنب مع تراكم رأس المال. كذلك فإنّ نموّ الرّأسمالية يؤدّي إلى حشد البرجوازيّين والبروليتاريّين معاً في تجمّعات سكنيّة كبيرة حيث تعمل أعدادٌ متزايدة من البشر في الصّناعة، الأمر الّذي يسمح للبروليتاريا بأن تعي قوّتها من جرّاء تمركزها بأعداد كبيرة على رقعة محدودة. ومن جهة أخرى، بالقدر الذي ينمو فيه رأس المال ويتقدّم اختراع الآلات التي تؤدّي إلى مزيدٍ من الاستغناء عن العمل اليدويّ، تنزع الصناعة الكبيرة إلى تخفيض الأجور إلى حدّها الأدنى، فتتردّى أوضاع البروليتاريا. وهكذا فإنّ تعزيز قوّة البرجوازيّة، إذ يزيد التّذمّر ويعزّز قوّة البروليتاريا، إنّما يشكّل تمهيداً للثّورة الاجتماعيّة البروليتاريّة.

بالقدر الذي ينمو فيه رأس المال ويتقدم اختراع الآلات التي تؤدي إلى مزيد من الاستغناء عن العمل اليدوي. تنزع الصناعة الكبيرة إلى تخفيض الأجور إلى حدها الأدنى. فتتردى أوضاع البروليتاريا.

س ما هي النّتائج الأخرى للثّورة الصناعيّة؟

ج وفّرت الصّناعة الكبرى، عبر آلة البخار وغيرها، وسائل لتنمية الإنتاج الصّناعيّ إلى ما لا نهاية وبسرعة فائقة وكلفة زهيدة. وبسبب من سهولة الإنتاج هذه، اكتست المنافسة الحرّة التي أطلقتها الصّناعة الكبيرة طابعَ العنف الشّديد. فتراكض عددٌ كبير من الرّأسماليّين لتوظيف أموالهم في الصّناعة، وسرعان ما صاروا ينتجون من السّلع أكثر من قدرة المجتمع على الاستهلاك. فتراكمت السّلع المصنوعة وبرزت أزمة تجاريّة. فاضطرّت المصانع إلى التّوقّف عن العمل فأشهِر إفلاس بعض الصناعيّين، وحُكم على العمّال بأن يتضوّروا جوعاً وعمّ البلادَ بؤسٌ عظيم. ولكن بعد مرور فترة من الزّمن، أمكن بيع المنتجات الزّائدة، فعاودت المصانع عملها وارتفعت الأجور وعادت الأعمال إلى مجراها الطّبيعي. لكنّ الأمر لم يُطل على هذا النّحو، فالصّناعة ما لبثت أن أنتجت فائضاً من السّلع، فبرزتْ أزمةٌ جديدة سلكت المسار ذاته لسابقتها. وهكذا

فإنّ الأوضاع، منذ بداية هذا القرن، كانت تراوح دائماً بين فترات التّأزّم والرّكود من جهة وفترات الازدهار من جهة ثانية. فإذا بأزمة دوريّة تظهر كلّ خمس أو سبع سنوات تحمل معها للعمّال في كلّ مرّة بؤساً فظيعاً، لكنّها تنفث فيهم أيضاً روحاً ثوريّة عارمة وشاملة أخذت تهدّد بتقويض أركان النّظام القائم.

س ما هي نتائج هذه الأزمات التّجاريّة الدّوريّة؟

ج أولى هذه النّتائج أنّ الصّناعة الكبيرة، التي ولّدت نظام المنافسة الحرّة في المرحلة الأولى من مراحل نموّها، لم تعدْ تتوافق مع هذا النّظام. فاضطرّت إلى القضاء على علاقات المنافسة وعلى تسيير الصّناعة من قبل أفراد معزولين. وهذا ما تمّ فعلاً. فطالما أنّ الصّناعة الكبيرة مرتكزة على القاعدة الرّاهنة، فإنّها ستظلّ عاجزةً عن البقاء إلّا لقاء قيام اضطرابات شاملة تعصف بها كلّ خمس أو سبع سنوات وتهدّد الحضارة نفسها بالدّمار في كلّ مرّة. وهذه الاضطرابات لا ترمي بالبروليتاريّين إلى مهاوي البؤس وحسب، وإنّما تستجلب أيضاً إفلاس عدد كبير من البرجوازيّين. وعليه، فالصّناعة الكبيرة إمّا أن تندثر، وهذا أمر مستحيل، وإمّا أن تؤدّي إلى إعادة تنظيم جديدة كلّ الجدّة للمجتمع تنتزع تسيير الصناعة من يد قلّةٍ من الصناعيّين المتنافسين فيما بينهم لتضعها في يد المجتمع بأسره وفق خطّة مرسومة وتلبيةً للمصلحة العامّة.

ثانياً: إنّ الصناعة الكبيرة وما تتيحه من نموٍّ لا متناهٍ للإنتاج، تسمح ببناء نظام اجتماعيّ ينتج من المعاش ما يكفي كلّ فردٍ من أفراد المجتمع لتنمية قدراته ومؤهّلاته الخاصّة وأن يوظّفها بحرّية حيثما يشاء. وهكذا، فإنّ الصناعة الكبيرة التي تولّد البؤس والأزمات التّجاريّة على أنواعها في المجتمع الرّاهن، تملك القدرة على القضاء على هذا البؤس وتلك الأزمات إذا ما توافر تنظيمٌ اجتماعيّ آخر. من هنا يتّضح ما يلي:

— أنّ سبب كلّ هذه الأمراض كامنٌ في النّظام الاجتماعيّ القائم الّذي لا يستجيب للحاجات الرّاهنة.

— أنّ الوسائل باتت متوافرة للقضاء نهائيّاً على هذه الأمراض ببناء نظام اجتماعيّ جديد.

نرجو أن يكون إلغاء الملكية الفردية بالوسائل السلمية ممكنا. والشيوعيون هم من آخر من يتذمر لو حدث ذلك لأنهم يعلمون تمام العلم أن الثورات لا تقوم بناء على أمر يصدر. وإنما هي دائما وأبدا المحصلة الضرورية لظروف مستقلة كليا عن إرادة وقيادة الأحزاب. وحتى الطبقات.

س كيف يكون هذا النّظام الاجتماعيّ الجديد؟

ج ينبغي على المجتمع الجديد، أوّلاً بأوّل، أن ينتزع الصّناعة وفروع الإنتاج الأخرى من أيدي الأفراد المعزولين والمتنافسين ليضعها في يد المجتمع الّذي يسيّرها خدمةً للمصلحة العامّة وفق خطّةٍ مشتركة يساهم فيها الجميع. هكذا يُقضى على المنافسة ويحلّ التّعاون محلّها. ولكن بما أنّ تسيير الصّناعة من قبل أفراد معزولين يفترض بالضّرورة وجود الملكيّة الفرديّة، وبما أنّ المنافسة مجرّد وسيلة تسمح لهؤلاء الأفراد المعزولين بتسيير هذه الصّناعة، فإنّ الملكية الفرديّة لا تنفصم عن تسيير الأفراد المعزولين للصّناعة كما لا تنفصم عن المنافسة. لذا يتوجّب إلغاء الملكيّة الفرديّة هي أيضاً وإيجاد وضعٍ تكون فيه المنتجات بتصرّف الجميع، أي ما يسمّى «جماعيّة الخيرات». والواقع أنّ إلغاء الملكيّة الفرديّة إنّما يختزل، على نحو نموذجيّ ومبتسر، عمليّة التحويل الاجتماعيّ الشّاملة النّاتجة من نموّ الصناعة.

وهذا ما يفسّر لماذا يعتبر معظم النّاس أنّ إلغاء الملكيّة الفرديّة هو المطلب الرئيسيّ للشيوعيّين.

س هل كان يمكن إلغاء الملكيّة الفرديّة من قبل؟

ج كلا. إنّ كلّ تحوّل في النّظام الاجتماعيّ وكلّ تغيير في علاقات الملكيّة إنّما هو نتيجة ضروريّة لظهور قوىً إنتاجيّة جديدة باتت متعارضة مع علاقات الملكيّة القديمة. هكذا ظهرت الملكيّة الفرديّة ذاتها، ذلك أنّها لم تكن موجودة منذ بدء التّاريخ. ففي نهاية القرون الوسطى، ظهر نمطُ إنتاج جديد في الصّناعة أخذ يتعارض باطّراد مع الملكيّة الإقطاعيّة والملكيّة الجزئيّة السّائدتين في تلك الحقبة. وبما أنّ هذا الإنتاج المانيفاتوريّ لم يعد يتوافق مع علاقات الإنتاج القديمة فقد أدّى إلى ولادة شكلٍ جديد للملكيّة هو الملكيّة الفرديّة. والواقع أنّ المجتمع القائم على الملكيّة الفرديّة هو الشّكل المجتمعيّ الوحيد الذي يسمح بقيام المانيفاتورة والمرحلة الأولى من الصّناعة الكبيرة.

طالما أنّ المجتمع لم يصل بعدُ إلى مرحلة ينتج فيها سلعاً لا تسدّ حاجات الجميع وحسب، وإنّما يفيض عنها أيضاً فائضُ معيّن يسمح بتراكم رأس المال الاجتماعيّ وبتنمية القوى الإنتاجيّة، فمن الضروريّ أن يكون ثمّة طبقة مسيطرة تتصرّف بالقوى الإنتاجيّة في المجتمع، وطبقة فقيرة ومضطهدة. إنّ تركيب كلٍّ من هاتين الطّبقتين

وطابعهما يتوقّف على مرحلة تطوّر الإنتاج. فمجتمع القرون الوسطى القائم على فلاحة الأرض يعطينا السيّد الإقطاعيّ والقنّ، ومدن نهاية القرون الوسطى تعطينا رئيس الحرفة (شيخ الكار) والزّميل والمياوم، والقرن السابع عشر يعطينا المانيفاتورة والعامل، والقرن التاسع عشر يعطينا الصناعيّ الكبير والبروليتاريّ. ومن الواضح أنّ القوى الإنتاجيّة لم تبلغ حتّى الآن درجةً من التّطوّر تسمح بإنتاج كمّيّة من السّلع تسدّ حاجات الجميع، مثلما هو واضح أنّ الملكيّة الفرديّة أصبحت عقبة في وجه تطوّر القوى الإنتاجيّة.

أمّا اليوم، حيث يتكاثر عدد الرأسماليّين والقوى الإنتاجيّة من جرّاء نموّ الصناعة الكبيرة على نحوٍ لم يسبق له مثيل، وحيث توافرت وسائل تنمية القوى الإنتاجيّة بسرعةٍ وبلا حدود، وحيث هذه القوى الإنتاجيّة آخذة بالتّمركز في يد عددٍ قليلٍ من الرأسماليّين بينما تتساقط غالبيّة الشعب بسرعةٍ متزايدة إلى مصاف البروليتاريا، وحيث يصبح هذا الشّعب أكثر بؤساً وإدقاعاً في الوقت الّذي تتضاعف فيه ثروات الرأسماليّين، وحيث قوى الإنتاج الجبّارة، المتكاثرة بسرعةٍ فائقة، قد تجاوزتْ إطار الملكيّة الفرديّة والنظام البرجوازيّ الرّاهن إلى درجةٍ باتتْ تولّد الاضطرابات الخطيرة الدّوريّة في النّظام الاجتماعيّ - بسبب ذلك كلّه، فإنّ إلغاء الملكيّة الفرديّة ليس ممكناً وحسب وإنّما بات ضروريّاً أيضاً.

س هل يمكن إلغاء الملكيّة الفرديّة بالوسائل السلميّة؟

ج نرجو أن يكون ذلك ممكناً. والشّيوعيّون هم من آخر من يتذمّر لو حدث ذلك، لأنّهم يعلمون جيّداً أنّ المؤامرات السرّيّة ليست عديمة الجدوى وحسب وإنّما هي مضرّة أيضاً. كما أنّهم يعلمون تمام العلم أنّ الثّورات لا تقوم بناءً على أمرٍ يصدر، وإنّما هي دائماً وأبداً المحصّلة الضرورية لظروف مستقلّة كلّيّاً عن إرادة وقيادة الأحزاب، وحتّى الطّبقات. لكن الشيوعيّين يرون، من جهةٍ أخرى، أنّ تطوّر البروليتاريا يتعرّض للقمع الوحشيّ في كلّ البلدان المتمدّنة تقريباً، وأنّ أعداء الشيوعيّة إذ يفعلون ذلك إنّما يساهمون بكلّ قوّتهم في اندلاع الثّورة. فإذا ما أدّى ذلك إلى دفع البروليتاريا إلى إعلان الثّورة، فإنّنا، معشرَ الشيوعيّين، سوف ندافع عن قضيّة البروليتاريّين بالأفعال مثلما ندافع عنها بالأقوال.

س هل يمكن إلغاء الملكيّة الفرديّة دفعةً واحدة؟

ج كلّا، مثلما تتعذّر مضاعفة القوى الإنتاجيّة الرّاهنة دفعةً واحدة لكي تبلغ درجة من التّطوّر تسمح ببناء المجتمع الشيوعيّ بين ليلة وضحاها، كذلك يتعذّر إلغاء الملكيّة الفرديّة دفعة واحدة. والأرجح أنّ الثّورة البروليتاريّة سوف تحوّل المجتمع الرّاهن تدريجيّاً. وهي لن تتمكّن من إلغاء الملكيّة الفرديّة كلّيّاً إلّا بعد تأمين الكمّيّة الضّروريّة من وسائل الإنتاج.

س ما هو المسار الّذي ستسلكه الثّورة؟

ج إن الثورة ستعلن، ابتداءً، دستوراً ديمقراطيّاً سوف يؤدّي إلى سيطرة البروليتاريا سياسيّاً، بشكلٍ مباشر أو غير مباشر. تسيطر البروليتاريا سياسيّاً بشكلٍ مباشر في إنكلترا حيث يشكّل البروليتاريّون غالبيّة السكّان. بينما تسيطر بشكل غير مباشر في فرنسا وألمانيا حيث غالبيّة السكّان لا تقتصر على البروليتاريّين وإنّما تشتمل أيضاً على الفلّاحين الصّغار والبرجوازيّين الصّغار الّذين لم يستكملوا بعدُ عمليّة التحوّل إلى بروليتاريّين. وبما أنّ المصالح السياسيّة لهؤلاء تعتمد إلى حدٍّ ما على البروليتاريا، فإنّهم مجبرون على الانصياع فوراً لمطالب الطّبقة العاملة. وقد يقتضي ذلك افتتاح مرحلة جديدة من النّضال لن تُختتم إلّا بانتصار البروليتاريا النّاجز.

لا جدوى من الديمقراطيّة بالنّسبة إلى البروليتاريا إلّا إذا استخدمتها فوراً لاتّخاذ إجراءاتٍ تسدّد ضربات مباشرة للملكيّة الفرديّة وتكفل ضمان وجود واستمرار البروليتاريا. وأهمّ هذه الإجراءات، كما تظهر كنتيجة حتميّة للوضع وهي في ما يلي:

١◆ تقليص الملكيّة الفرديّة عبر ضريبة الدّخل التصاعديّة، وفرض الضّرائب المرتفعة على الإرث، وإلغاء حقّ الوراثة بالنسبة إلى خطّ الوراثة غير المستقيم (الأخ وأبناء الأخ، الأخت وأبناء الأخت، إلخ)، إلغاء القروض الإلزاميّة، إلخ.

٢◆ مصادرة أملاك الملّاك العقاريّين والصناعيّين وأصحاب سكك الحديد وأصحاب مصانع الأسلحة والذّخيرة، إما بواسطة منافسة صناعة الدّولة لهم وإمّا بالمصادرة المباشرة لقاء تعويضات.

٣◆ مصادرة أملاك جميع المهاجرين وأعداء الشّعب.

٤◆ تنظيم العمل وتشغيل العمّال على أراضي الدّولة وفي المصانع والمشاغل الوطنيّة بعد إلغاء المنافسة بينهم وإجبار من تبقّى من الرأسماليّين على دفع الأجر المرتفع المساوي لما تدفعه الدّولة.

٥◆ إلزاميّة العمل لجميع أفراد المجتمع إلى حين القضاء نهائيّاً على الملكيّة الفرديّة، وإنشاء الجيوش الصّناعيّة وبخاصّة بالنّسبة إلى الزّراعة.

٦◆ احتكار الدّولة لنظام النّقد والتّسليف عن طريق



إنشاء مصرف وطنيّ برأس مال تقدّمه الدّولة وبعد إلغاء كلّ المصارف الخاصّة.

٧◆ زيادة عدد المصانع الوطنيّة والمشاغل وسكك الحديد والنّقل البحريّ، واستصلاح الأراضي، وتحسين الأراضي المزروعة بالقدر الّذي يسمح فيه تراكم رؤوس الأموال ونموّ القوى العاملة في الأمّة.

٨◆ تعليم جميع الأطفال في المؤسّسات الوطنيّة على حساب الأمّة حالما يتمّ انتزاعهم من أحضان أمّهاتهم (التّعليم والصّناعة).

٩◆ بناء القصور الضّخمة على الأملاك العامّة لإسكان المواطنين العاملين في الصّناعة والزّراعة بحيث يجمع نمط حياتهم أفضل ما في حياة المدينة والرّيف ويتخلّص من كلّ سيّئات هذه وتلك.

١٠◆ تهديم كلّ المساكن والأحياء التي لا تتوافر فيها شروط المتانة والصّحة.

١١◆ حقّ الإرث المتساوي للأطفال الشرعيّين وغير الشرعيّين.

١٢◆ احتكار الدّولة لكلّ وسائط النّقل.

طبعاً، لا يمكن تطبيق كلّ هذه الإجراءات دفعةً واحدة. لكنّ كلّ واحدة منها تستجرّ التّالية بالضّرورة. فما إن تسدّد البروليتاريا أوّل ضربة قويّة للملكيّة الفرديّة حتّى تضطرّ للتّقدّم خطوات جديدة إلى أمام وتعزيز احتكار الدّولة لكلّ رأس المال ولكلّ الزّراعة والصّناعة والنّقل والمبادلات.

هذا هو الهدف الّذي ترمي إليه كلّ هذه الإجراءات. وإنّها سوف تتحقّق وتلعب دورها المركزيّ بالقدر الّذي تتنامى فيه القوى الإنتاجيّة بفضل العمل الّذي تؤدّيه البروليتاريا.

أخيراً، عندما يتمركز كلّ رأس المال والإنتاج والمبادلات بيد الدّولة، تنهار الملكيّة الفرديّة تلقائيّاً، ويُمسي المال عديم الجدوى ويتضاعف الإنتاج ويبلغ البشر درجةً من التّطوّر تسمح لهم بالقضاء على آخر العلاقات المتبقّية من المجتمع القديم.

س هل ستتحقّق الثورة في بلدٍ واحد؟

ج كلّا، فالصّناعة الكبيرة، بخلقها السوق العالميّة، قرّبت الشعوب بعضها من بعض، وبخاصّة أكثرها تمدّناً، بحيث بات كلّ شعب يتأثّر إلى حدٍّ كبير بما يجري عند الشّعب الآخر. ثمّ إنّ هذه الصّناعة الكبيرة قد وحّدت التّطوّر الاجتماعيّ في كلّ البلدان المتمدّنة بحيث باتت البرجوازيّة والبروليتاريا أهمّ طبقتين وبات التّناقض بينهما هو التّناقض الأساسيّ في المجتمع. لذا، لم يعد بمكنة الثورة الشّيوعيّة أن تكون ظاهرة محدودة بالحدود الوطنيّة. وإنّما هي ستندلع في كلّ البلدان المتمدّنة في



آنٍ واحد، أي في إنكلترا وأميركا وفرنسا وألمانيا على الأقلّ. وإنها سوف تتطوّر في كلّ بلدٍ بوتيرةٍ سريعة أو بطيئة حسب مقدار تطوّر صناعة ذلك البلد وحجم ثروته الأهليّة وضخامة قواه الإنتاجيّة. ولهذا السّبب بالذّات، سيكون مسار الثّورة بطيئاً وشاقّاً، بينما يكون سريعاً وسهلاً في إنكلترا. ثمّ إنّه لا بدّ لهذه الثّورة أن تترك أثرها في سائر بلدان العالم وأن تغيّر نمط تطوّرها تغييراً كاملاً. إنّها ستكون ثورة عالميّة ولا بدّ لها بالتّالي من أن يكون مسرحها العالم بأسره.

س ما هي نتائج إلغاء الملكيّة الفرديّة؟

ج إنّ انتزاع كلّ القوى الإنتاجيّة ووسائط النّقل وتبادل وتوزيع السّلع من يد الرأسماليّين الأفراد وتسييرها وفق خطّة مرسومة بالاعتماد على الموارد والحاجات المشتركة، يسمح للمجتمع أوّلاً بالقضاء على كافّة الآثار السلبيّة النّاجمة عن الصّناعة الكبيرة، فتزول الأزمات ويقصّر الإنتاج الموسّع عن سدّ حاجات المجتمع - بعدما كان سبباً هامّاً من أسباب البؤس - وتبرز الحاجة إلى زيادته بما فيه الكفاية للجميع. لكنّ الإنتاج الفائض عن حاجات المجتمع والحالة هذه، بدلاً من أن يولّد البؤس، يضمن سدّ حاجات الجميع، ويستظهر حاجات جديدة في الوقت ذاته الّذي يؤثّر فيه وسائل سدّ تلك الحاجات. فيتحوّل فائض الإنتاج إلى شرطٍ للتّقدّم دون أن تعصف به الاضطرابات، كما كان يحصل سابقاً. وبعد أن تتحرّر الصّناعة الكبيرة من نير الملكيّة، تشهد توسّعاً من الضّخامة بحيث إنّ توسّعها الرّاهن سيبدو أمامه بتفاهة المانيفاتورة إذا ما قيست بالصّناعة الكبيرة الحديثة. إنّ تطوّر الصّناعة سوف يوفّر للمجتمع كمّية من المنتجات تكفي لسدّ حاجات جميع أفراده. كذلك، فإنّ الزّراعة التي تعذّر عليها الاستفادة حتّى الآن من التّطويرات والاكتشافات العلميّة، في ظلّ نظام الملكيّة الفرديّة والتّفتّت، سوف تشهد حقبة تطوّر جديدة وتمدّ المجتمع بما يحتاج إليه من منتجات. وهكذا ينتج المجتمع ما يكفي من المنتجات لتنظيم توزيعها على نحوٍ يسدّ حاجات أفراده جميعاً، فيصبح انشطار المجتمع إلى عدّة طبقات متناحرة أمراً بلا معنى، لا بل إنّه يصبح متناحراً مع النّظام الاجتماعيّ الجديد. ذلك أنّ وجود الطّبقات سببه قسمة العمل. لكنّ قسمة العمل بأشكالها القديمة، معرّضة للزّوال كلّيّاً في المجتمع الجديد. ذلك أنّ الوسائل الميكانيكيّة والكيميائيّة ليست كافية بمفردها لرفع الإنتاج الصناعيّ والزراعيّ إلى المستوى المطلوب. بل يجب أن تتمّ تنمية موازية لقدرات البشر الّذين يستخدمون هذه الوسائل. ومثلما عدّل الفلّاحون وعمّال المانيفاتورة في القرن الماضي مجمل نمط حياتهم بعد انخراطهم في الصّناعة الكبيرة، وباتوا بشراً مختلفين كلّ الاختلاف عمّا كانوه من قبل، كذلك فإنّ الإنتاج الجماعيّ يتطلّب بشراً مختلفين هم أيضاً عن البشر الحاليّين المشدود كلّ منهم إلى فرعٍ مخصوص من فروع الإنتاج والمقيّد به والعاجز بالتّالي عن تنمية أكثر من مقدرة واحدة من مقدراته على حساب المقدرات الأخرى، وعن معرفة أكثر من فرع واحد من فروع الإنتاج، أو حتّى أكثر من جزء من هذا الفرع. إنّ الصناعة، في وضعها الراهن، قد تدنّت حاجتها لمثل هؤلاء البشر. فالصناعة الجماعيّة المبرمجة تفترض بشراً نمتْ مقدراتهم وكفاءاتهم في شتّى الاتّجاهات فباتوا ملمّين بمجمل نظام الإنتاج. بذلك، تزول قسمة العمل كلّيّاً، بعد أن يكون تقدّم المكننة (الآليّة) قد أمعن فيها نخراً - قسمة العمل هذه الّذي كانت تجعل من الواحد فلّاحاً والثّاني حذّاءً والثالث عاملاً في مصنع والرابع مضارباً في البورصة. ثمّ يوجّه التّعليم بحيث يؤهّل الشباب لأن يحيطوا بمجمل نظام الإنتاج بسرعة وأن ينتقلوا من فرعٍ إنتاجيٍّ لآخر وفق حاجات المجتمع أو وفق ميولهم الشّخصيّة. بذلك تنتفي عنهم أحاديّة الجانب التي تفرضها عليهم قسمة العمل. إنّ المجتمع المنظّم على أساسٍ شيوعيّ يتيح لأفراده المجال لكي يوظّفوا مقدراتهم المصقولة على نحوٍ فعّال في جميع الاتّجاهات. فتكون النّتيجة زوال جميع الفوارق الطّبقيّة. هذا يعني أنّ المجتمع الشيوعيّ لا يتوافق مع وجود الطّبقات من جهة، وهو يوفّر بذاته وسائل إلغاء الفوارق الطبقيّة من جهة أخرى.

مع إلغاء الملكيّة الفرديّة، سيزول أيضاً التّناقض بين المدينة والرّيف. ذلك أنّ ممارسة مجموعة من البشر للصّناعة والزّراعة في آنٍ معاً، بدلاً من أن تقوم بذلك طبقاتٌ متعدّدة، يشكّل لأسباب محض مادّية، شرطاً ضروريّاً من شروط التّنظيم الشيوعيّ. ثمّ إنّ تبعثر السكّان الريفيّين في مقابل تمركز السكّان الصناعيّين في المدن، ظاهرة تمثّل مرحلةً دنيا من مراحل تطوّر الزراعة والصناعة على حدٍّ سواء، وعقبةً في وجه التّقدّم بدأنا نستشعرها منذ الآن.

إنّ تعاون جميع أفراد المجتمع على الاستعمال الجماعيّ والعقلانيّ للقوى الإنتاجيّة، وزيادة الإنتاج بحيث يستطيع سدّ حاجات الجميع وإلغاء التّنظيم الاجتماعيّ حيث تشبع حاجات البعض على حساب البعض الآخر، وإزالة الطّبقات وتناقضاتها، والتّنمية الشّاملة لمؤهّلات وكفاءات جميع أفراد المجتمع عن طريق إلغاء قسمة العمل - كما

عرفناها حتّى الآن على الأقلّ، وعن طريق التّعليم المرتكز على العمل وتنويع النّشاطات التي يساهم فيها البشر وإشراك الجميع في الرّفاه الّذي يخلقه الجميع، تلك هي النّتائج الرئيسيّة لإلغاء الملكيّة الفرديّة.

س ما هو موقف النّظام الشيوعيّ من الأسرة؟

ج إنّ النّظام الشيوعيّ سوف يحوّل العلاقات بين الجنسين إلى مجرّد علاقاتٍ شخصيّة تخصّ المعنيّين بالأمر ولا يحقّ للمجتمع أن يتدخّل فيها. ويتحقّق هذا التحوّل عند إلغاء الملكيّة الفرديّة والبدء بالتّربية الجماعيّة للأطفال، الأمر الّذي يطيح بالدّعامتين الرّئيسيّتين لمؤسّسة الزّواج الحاليّة: تبعيّة المرأة للرّجل وتبعيّة الأطفال للأهل. هذا هو الجواب على

شعارات حرية الفكر وحرية المعتقد الدينى لم تكن إلا إيذانا بحلول ملكوت المنافسة الحرة فى حقل المعرفة. إن الثورة الشيوعيـــــــــــــــة سوف تعلن القطيعة الكاملة مع علاقات الملكية القديمة. فما العجب إذن إن هى أعلنت القطيعة الجذرية الكاملة. فى سياق تطورها. مع الأفكار التقليدية.

كلّ تخرّصات فلاسفة الأخلاق البرجوازيّين الّذين ينسبون للشّيوعيّة عزمهم على إطلاق مشاعيّة النساء. إنّ مشاعيّة النساء علاقة لا يعرفها إلّا المجتمع البرجوازيّ وهي تتمثّل حاليّاً بالبغاء. غير أنّ البغاء يرتكز على الملكيّة الفرديّة، ويزول بزوالها. هذا يعني أنّ التنظيم الشيوعيّ للمجتمع سوف يقضي على مشاعيّة النّساء بدلاً من أن يغذّيها.

س ما هو موقف النّظام الشيوعيّ من القوميّات؟

ج إنّ الفوارق القوميّة والتّناقضات بين الشعوب آخذة بالزّوال تدريجيّاً مع نموّ البرجوازيّة وحرّيّة التّجارة وقيام السوق العالميّة وتوحيد الإنتاج الصناعيّ والظّروف المعيشيّة المقابلة له. وهذه عمليّة سوف تستكملها البروليتاريا عندما تستولي على السلطة. إنّ وحدة نضال البروليتاريا، في الأقطار المتمدّنة على أقلّ تقدير، تشكّل شرطاً من أوّل شروط تحرّرها. وما إن يزول استغلال الإنسان للإنسان حتّى يختفي معه استغلال أمّة لأمّة أخرى. كما يزول التّناحر والعداء بين الأمم مع زوال التّناحر بين الطّبقات فيها.

س ما موقف النّظام الشيوعيّ من الدّين؟

ج (هل من حاجةٍ إلى نفاذ بصيرة لكي يدرك المرء أنّ تغيّر معاش البشر وعلاقاتهم الاجتماعيّة ووجودهم الاجتماعيّ يستتبع تغيّراً في تمثّلاتهم ومفاهيمهم وأفكارهم، باختصار، في وعيهم؟ عندما كان العالم القديم يُحتضَر، تمكّنت الدّيانة المسيحيّة من الانتصار على الديانات القديمة. وعندما تقهقرت الأفكار المسيحيّة أمام هجمة الأفكار التّقدّمية في القرن الثامن عشر، كانت آخر قلاع الإقطاع تهوي تحت ضربات البرجوازيّة الزّاحفة، التي كانت تشكّل طبقةً ثوريّةً آنذاك. ذلك أنّ شعارات حرّيّة الفكر وحرّيّة المعتقَد الدينيّ لم تكن إلّا إيذاناً بحلول ملكوت المنافسة الحرّة في حقل المعرفة. إنّ الثورة الشيوعيّة سوف تعلن القطيعة الكاملة مع علاقات الملكيّة القديمة. فما العجب إذن إن هي أعلنت القطيعة الجذريّة الكاملة، في سياق تطوّرها، مع الأفكار التّقليدية؟).

س بماذا يختلف الشيوعيّون عن الاشتراكيّين؟

ج إنّ الاشتراكيّين (الّذين يستحقّون هذه التسمية) ينقسمون إلى فئاتٍ ثلاث:

تتكوّن الفئة الأولى من أنصار المجتمع الإقطاعيّ والعشائريّ الآخذ بالانهيار يوميّاً تحت ضربات الصّناعة الكبيرة والتجارة العالميّة ووليدهما - المجتمع البرجوازيّ.

هذه الفئة من الاشتراكيّين تستخلص من أمراض المجتمع الحاليّ ضرورة الارتداد إلى المجتمع الإقطاعيّ والعشائريّ.

وكلّ ما يطالبون به يتّجه، بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، نحو هذا الهدف. إنّ الشيوعيّين يناضلون دائماً وبعناد ضدّ هذه الفئة من الاشتراكيّين الرّجعيّين، على الرّغم من عطفهم المفتعل على العمّال والدّموع الّتي يذرفون على بؤسهم.

وذلك للأسباب الآتية:

- لأنّهم يسعون إلى هدفٍ مستحيل التّحقّق.
- لأنّهم يجهدون لإعادة سيطرة الأرستقراطيّة ومعلّمي الحرف وأصحاب المانيفاتورات وما يرتبط بهم من ملوك مطلقين وإقطاعيّين وموظّفين وجنود وكهنة - أي بعث مجتمع إذا كان لا يشتمل على عين أمراض المجتمع الراهن إلّا أنّه يحمل من الأمراض الأخرى ما لا يقلّ عنها، فضلاً عن كونه لا يقدّم للعمّال المضطهدين إمكانيّة التّحرّر عن طريق الشيوعيّة.
- لأنّهم يفصحون عن أهدافهم الحقيقيّة في كلّ مرّة تعتنق فيها البروليتاريا العقيدة الشيوعيّة وتسير في طريق الثورة، فيتهاتفون للتّحالف مع البرجوازيّة لمناهضتها.

تتكوّن الفئة الثانية من الاشتراكيّين من أنصار المجتمع الراهن ممّن أثارتهم الأمراض الناتجة حتماً منه، فأصابتهم الخشية على وجوده واستمراره، فراحوا يسعون للحفاظ على المجتمع الرّاهن عن طريق تخليصه من الأمراض

المرتبطة به. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، يقترح البعض منهم اللّجوء إلى إجراءات الإحسان العاديّة، بينما يقترح البعض الآخر إصلاحات جبّارة تتذرّع بإعادة تنظيم المجتمع في الحين الّذي ترمي فيه فعلاً إلى المحافظة على القواعد التي يقوم عليها المجتمع الرّاهن، وبالتّالي المحافظة على هذا المجتمع نفسه. إنّ الشيوعيّين يناضلون بحزم وعناد هنا أيضاً ضدّ هؤلاء الاشتراكيّين والبرجوازيّين لأنّهم يعملون في الواقع في خدمة أعداء الشيوعيّين ويدافعون عن المجتمع الّذي يسعى الشيوعيّون إلى تغييره.

أخيراً، تتكوّن الفئة الثالثة من الاشتراكيّين الديمقراطيّين الّذين يشاطرون الشيوعيّين تأييدهم لقسمٍ من المطالب الواردة أعلاه، ليس بوصفها وسيلةً للانتقال إلى الشيوعيّة وإنّما بوصفها وسيلةً للقضاء على بؤس المجتمع الرّاهن وأمراضه. وهؤلاء الاشتراكيّون الديمقراطيّون إمّا أن يكونوا بروليتاريّين ينقصهم استكمال وعي شروط تحرّر طبقتهم وإمّا يكونوا ممثّلين عن البرجوازيّة الصغيرة، تلك الطّبقة التي تملك مصالح مشابهة، في أكثر من وجه، لمصالح البروليتاريا إلى حين تحقيق الديمقراطيّة والشروع بتطبيق الإجراءات الاشتراكيّة النّاجمة عنها. لذا فإنّ الشيوعيّين يتحالفون مع هؤلاء على الصّعيد العلميّ، ويسعون للتّوصّل معهم إلى سياسة مشتركة، ولكن بالقدر الّذي يمتنع فيه هؤلاء الاشتراكيّون عن تقديم الخدمات للبرجوازيّة الحاكمة ومهاجمة الشيوعيّين. وواضحٌ أنّ هذا العمل المشترك لا يستبعد نقاش الخلافات التي تفصل بيننا وبينهم.

ن ما هو موقف الشيوعيّين من الأحزاب الأخرى؟

ج يختلف هذا الموقف باختلاف البلدان. ففي إنكلترا وفرنسا وبلجيكا، حيث تسيطر البرجوازيّة، يلتقي الشيوعيّون حول مصالح مشتركة مع مختلف الأحزاب الديمقراطيّة، وتتوطّد هذه المصالح المشتركة بالقدر الّذي تقترب فيه الإجراءات الاشتراكيّة التي ينادي بها هؤلاء الاشتراكيّون من الهدف الشيوعيّ، أي بقدر ما يتصاعد دفاعهم الواضح والحازم عن مصالح البروليتاريا وتأييدهم لها. ففي إنكلترا مثلاً يمكن اعتبار حركة «الشارتريّين» ذات القاعدة العمّاليّة أقرب بكثير إلى الشيوعيّين من الدّيمقراطيّين البرجوازيّين الصّغار أو أولئك الذين يسمّون أنفسهم راديكاليّين.

في أميركا، المتمتّعة بدستور ديمقراطيّ، ينبغي على الشيوعيّين أن يتحالفوا مع الحزب الرّامي إلى قلب هذا الدّستور ضدّ البرجوازيّة وإلى تحويله لخدمة مصالح البروليتاريا. ونعني بهذا الحزب «الإصلاحيّين الزّراعيّين الوطنيّين».

في سويسرا، لا يجد الشيوعيّون رفقة طريق غير الراديكاليّين، رغم عدم تجانسهم، وأكثرهم تقدّماً المجموعات الراديكاليّة في «الفودوا» و«جينيف».

أخيراً، فإنّ ألمانيا تمهّد للمعركة الفاصلة ضدّ البرجوازيّة والملكيّة المطلقة. ولكن، بما أنّ الشيوعيّين لم يصلوا بعد إلى مرحلة المجابهة الحاسمة بينهم وبين البرجوازيّة، لأنّ هذه لم تتسلّم السلطة السياسيّة بعد، فإنّ من مصلحتهم أن يساعدوا البرجوازيّة على الاستيلاء على السلطة بأسرع وقتٍ ممكن.

لذا، ينبغي على الشيوعيّين أن يساندوا باستمرار البرجوازيّين الليبراليّين ضدّ الحكومات الاستبداديّة، ولكن دون أن يشاطروا أولئك البرجوازيّين أوهامهم ودون تغذية أضاليلهم عن العهد المتألّق الّذي سيفتتحه للبروليتاريا انتصار البرجوازيّة. إنّ الفوائد الوحيدة التي سيحملها انتصار البرجوازيّة للشيوعيّين تتلخّص:

أوّلاً، في التّنازلات العديدة التي ستسمح للشيوعيّين بأن يدافعوا عن آرائهم ويناقشوها ويدعوا لها، فيساهمون بالتالي في تحويل البروليتاريا إلى طبقة موحّدة ومنظّمة شديدة التّماسك ومتحفّزة للنّضال، وثانياً، في اليقين بأنّ الصّراع بين البرجوازيّة والبروليتاريا سوف ينشب في اليوم ذاته الّذي تتهاوى فيه الأنظمة الملكيّة الاستبداديّة. ابتداءً من ذلك اليوم، تصبح سياسية الشيوعيّين الألمان مطابقة لسياسة رفاقهم الحاليّة في البلدان التي استولت البرجوازيّة فيها على السّلطة السّياسيّة.

الهوامش

١ يستخدم أنغلز في هذا الكتاب - شأنه وماركس في «الإيديولوجيّة الألمانيّة» و«بؤس الفلاسفة» - تعبير «العمل» بدلاً من «قوّة العمل» الّذي أخذا يستخدمانه ابتداءً من الخمسينيّات (المترجم).

٢ يستعمل أنغلز (ومعه ماركس) صيغة البلدان أو الشّعوب «المتمدّنة» وفي مقابلها الشعوب «البربريّة» أو «الهمجيّة». «التّمدّن» هنا قياس تاريخيّ مرتبط بالتّطوّر الاقتصاديّ الصناعي بالدّرجة الأولى. و«الهمجيّة» أو «البربريّة» - كما يفسّرها أنغلز نفسه - تعيينللعنف الّذي تبديه هذه الشّعوب. ويعكس هذا العنف القهر الّذي ترزح تحته، كما يعبّر عن معاناتها من الاستغلال ومن قسوة ظروف المعيشة (المترجم).

٣ المانيفاتورة هي المرحلة الانتقاليّة بين نظام الإنتاج الحرفيّ وبين الرّأسماليّة الحديثة القائمة على الإنتاج المصنعيّ الآليّ الّذي يسمّيه انغلز هنا «الصناعة الكبيرة». نظام الحرف هو الإنتاج الحرفيّ في مدن القرون الوسطى الذي يتولّاه حرفيّون مستقلّون يملكون أدوات الإنتاج ويساعدهم في عملهم المياومون والزّملاء المتدرّبون. أما المانيفاتورة، فيتولّاها عمّال منزليّون يملكون أدوات الإنتاج في معظم الأحيان لكنّهم، في المقابل، يعملون لحساب تجّارٍ رأسماليّين وتقوم المانيفاتورة - في أطوارها المتقدّمة - على تجميع عمّالٍ وحرفيّين في مشاغل كبيرة يملكها أرباب العمل الرّأسماليّون. (المترجم).

٤ كُتب هذا النّصّ قبل ٢٦ سنة على اندلاع «حرب الانفصال» التي قضت على الرّقّ في أميركا الشّماليّة. حينها كان الرّق لا يزال سائداً في بعض المستعمرات الفرنسيّة وفي البرازيل، ولم يتمّ إلغاؤه هناك إلّا في عام ١٨٨٧ (المترجم).



من أوّل الباب

٨٠ **ماروتا ستي**
الاستثمار المثير للجدل في سورية

٨٦ **أنا امرأة فلسطينيّة في إسرائيل... ليس لك الحق في تعيين صفاتي**
مهى اغبارية

٨٨ **من ذاكرة التعذيب في الحرب الجزائريّة الشرفة: عودة إلى مكان قتل علي بومنجل**
ملكة رحّال

ماروتا ستي
الاستثمار المثير للجدل في سورية

The Syria Report

اصدار الاول من
حزيران / يونيو ٢٠١٨

ماروتا ستي، مشروع عمرانيّ عقاريّ في دمشق، هو أكبر مشروع استثماريّ في البلاد، ولعلّه الأكثر رمزيّة عن سورية الجديدة التي تولد إثر سبع سنوات من الانتفاضة الشعبيّة والحرب.

يتضمّن هذا المشروع العقاريّ الباهظ سماتٍ كثيرة من سمات ممارسات النّظام خلال الحرب، لكنّه يضمّ أيضاً ما يمكن توقّعه عند البدء بإعادة إعمار سورية: تدمير مناطق المعارضة، وتهجير سكّانها، ومصادرة أراضيهم، تشييد مُلكيّات باهظة قريبة من مراكز المدينة، حيث تكون أسعار الأراضي مرتفعةً جدّاً، بأبراج شاهقة، الاعتماد على شخصيّات من رجال الأعمال مجهولين غالباً قبل عام ٢٠١١ راكموا ثرواتهم خلال الحرب. وعلاوةً على كلّ هذا، يمكن أن يُعدّ مشروع ماروتا ستي بمثابة انطلاقة تجريبيّة للقانون رقم ١٠ الصادر في نيسان / أبريل عام ٢٠١٨.

المرسوم ٦٦

في أيلول / سبتمبر ٢٠١٢، وقّع الرئيس بشار الأسد المرسوم التشريعيّ رقم ٦٦ «لتطوير مناطق المخالفات والسكن العشوائيّ». حدّد المرسوم منطقتين بالذّات في دمشق، وسمح بموجبه بمصادرة أراضي المالكين الحاليّين وتعويضهم علاوةً على إعادة إعمار المنطقتين وفقاً للشروط القانونيّة.

تُعدّ المنطقتان عشوائيّتين، من المناطق السوسيو - اقتصاديّة الفقيرة في العاصمة السوريّة. تقع الأولى في منطقة المزّة، وتغطّي مساحة ٢.١٥ مليون متر مربّع وتُسمّى منطقة بساتين الرّازي - وقد غُيّر اسم المنطقة في حزيران / يونيو ٢٠١٧ إلى ماروتا ستي، الذي يعني باللغة السريانيّة القديمة «السّيادة» و«الوطن».

وتشغل المنطقة الثانية مساحة ٨.٨ ملايين متر مربع جنوبي المتحلّق الجنوبيّ من مناطق المّزة، وكفر سوسة، والقدم، وداريّا.

تقع كلتا المنطقتين في موقع استراتيجيّ قرب مركز المدينة إضافة إلى قربهما من السفارات والإدارات الأمنيّة، الأمر الذي يقوّي قدرتها على جذب المشاريع العقاريّة. وكذلك كانت كلتا المنطقتين داعمتين بقوّة للمعارضة، ما دفع النقّاد إلى الإشارة إلى أنّ تهجير السكّان كان بدافع سياسيّ من أجل التغيير الديمغرافيّ، (لم يُؤمَّن السكن البديل المنصوص عليه في المرسوم خلال السنوات الأربع المحدَّدة بعد صدور المرسوم).

وفي عام ٢٠١٥، حدّد المرسوم التشريعيّ رقم ١٩ آليّة التمويل والإدارة التي سيُطوَّر وفقها مشروع ماروتا ستي وغيره من المشاريع المماثلة. وقد سمح المرسوم لأيّة وحدة إداريّة - مدناً، أو بلدات، أو محافظات - بإنشاء شركات قابضة مساهمة مغفلة خاصّة لإدارة أملاك الوحدة الإداريّة. وقد كان المرسوم إشكاليّاً، إذ وبالرّغم من أنّه ينصّ على أن تكون الشركة القابضة المُنشأة مملوكةً للوحدة الإداريّة بالكامل، إلّا أنّ ثمّة إمكانيّة في أن تتعاقد شركات الإدارة التابعة للشرّكات القابضة، التي ستدير تلك الأملاك فعليّاً، مع القطاع الخاصّ من دون تحديد سقف ملكيّة، الأمر الذي سيفتح الطريق أمام أصدقاء النّظام لتأسيس أعمالٍ معتمدين على الأصول الماليّة العامّة. وبنتيجة هذا المرسوم، أسّست محافظة دمشق شركة دمشق الشام القابضة، ورأس إدارتها بشر الصبّان محافظ دمشق.

الأسس

برغم أهميّة المشروع الرمزيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة

بالنسبة إلى النظام، تسبَّب تطوّر النزاع السوريّ بتأجيل الشروع به عدّة مرّات. وفي نهاية المطاف، في آذار / مارس ٢٠١٦ - أي بعد عدّة أشهر من التدخّل الروسيّ في النّزاع الذي أسهمَ في استقرار النظام - دشَّن بشار الأسد انطلاقة المشروع المكوَّن من أبراج شاهقة، وما يقارب اثنتي عشر ألف وحدة سكنيّة ومنشأة تجاريّة وترفيهيّة. وقد ذُلِّلت صعوبات البناء على يد محافظة دمشق المسؤولة عن المشروع، الأمر الذي مكّن مطوّري المشروع من إطلاق العنان لتصميم الأبنية، وفتح الطريق أمام تشييد ناطحات سحاب واستثمار أرض البناء حتى أقصاها.

ارتفاع الأبنية في دمشق ومعظم المدن السورية محدود. كانت هناك مشاريع كبيرة في أطراف المدينة. لكن لم يكن أي منها داخل المدينة نفسها. إذ لم تكن المساحة الجغرافية متاحة. ولا التشريع الذي يسهل استثمار الأرض من أجل تطورات في المشاريع العمرانية العملاقة.

من المعروف أنّ ارتفاع الأبنية في دمشق ومعظم المدن السوريّة محدود - إذ لم تكن المشاريع العمرانيّة العقاريّة الفاخرة من سمات العمارة في دمشق قبل عام ٢٠١١. كانت هناك مشاريع كبيرة في أطراف المدينة، لكن لم يكن أيٌّ منها داخل المدينة نفسها. إذ لم تكن المساحة الجغرافيّة متاحة، ولا التشريع الذي يُسهّل استثمار الأرض من أجل تطوّرات في المشاريع العمرانيّة العملاقة.

وتبعاً للمسؤولين الرسميّين، مع حلول تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٦، وصل عدد المستكتبين لشراء ملكيّات في المشاريع إلى خمس وعشرين ألفاً، ومع نهاية العام، أعلن المصرف التجاريّ السوريّ المملوك من الدولة موافقته على طلبٍ قدّمته محافظة دمشق من أجل قرضٍ يبلغ عشرين مليار ليرة سوريّة (أربعين مليون دولارٍ أميركيّ) للمساعدة في تمويل أعمال البنية التحتيّة. كانت تلك خطوة غير معتادة من المصرف التجاريّ بسبب ملفّه المُتخَم بالقروض متعثّرة السّداد، علاوةً على كونه القرض الأكبر الممنوح منذ اندلاع الانتفاضة عام ٢٠١١. وفي تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٧، أعلن المصرف التجاريّ أنّ القرض بات مشتركاً مع مصارف التوفير المملوكة من الدولة، التي ساهمت بثماني مليار ليرة، فيما سيقدّم المصرف الاثني عشر ملياراً الباقية. وتؤكّد حقيقةُ أنّ المبلغ قد توفّر فيما تعاني جميع المصارف الحكوميّة من قروض متعثّرة كبيرة علاوةً على نقصٍ في تمويل مشاريع اقتصاديّة عديدة تلك الأولويّةَ التي منحتْها الحكومة للمشروع.

وما يدلّ على كميّة التمويل اللازمة لإطلاق المشروع هو ما قاله مسؤولٌ في محافظة دمشق، فيصل سرور، في آذار / مارس ٢٠١٧، حيث أشار إلى أنّه مع وجود ما يقارب ستين مستثمراً أبدوا اهتمامهم بالمشروع، ستُقدَّر تكاليف البناء للقسم السكنيّ من ماروتا ستي بمئة مليار ليرة (١٨٥ مليون دولار). وهذا المبلغ لا يشمل تكاليف البنية التحتيّة أو الوحدات التجاريّة، كما أنّه لن يكون من أجل الإثني عشر ألف وحدة التي أُعلن عنها مسبَقاً، بل من أجل خمس وعشرين ألف وحدة، ما يعني أنّ تكاليف بناء كلّ وحدة ستبلغ ٧٤٠٠ دولار.

المطوّرون

لم تدخل شركة دمشق الشام القابضة في مشاريع استثماريّة مشتركة مع المطوّرين إلّا عام ٢٠١٧. وقد كانت جميع تلك المشاريع مع رجال أعمالٍ سوريّين غير معروفين لم تكن أسماؤهم مُدرَجة ضمن لوائح المقاطعة الاقتصاديّة الأوروبيّة أو الأميركيّة، ولا يملكون سجلّات في تطوير المشاريع العقاريّة. وفي كلّ حالة من تلك الحالات، قدّمت الشركة القابضة الأرض، فيما قدّم المستثمرون الأموال.

وفي تموز / يوليو ٢٠١٧، أنشأت شركة دمشق الشام القابضة شركة مساهمة مع رجل الأعمال سامر فوز باسم شركة أمان دمشق المساهمة المغفلة، برأسمال قدره عشر مليارات ليرة (١٨.٩مليون دولار). كان لمجموعة أمان الحصّة الأكبر، حيث يتبع عضوان من مجلس الإدارة لشركة دمشق الشام، وثلاثة أعضاء لمجموعة أمان. وفي أيلول / سبتمبر ٢٠١٧، منحت دمشق الشام القابضة مجموعة أمان حقوق بناء ثلاث ناطحات سحاب بسبعين طابقاً لكل منها إضافة إلى خمس مشاريع سكنيّة أصغر، بقيمة بلغت ١٥٠ مليار ليرة (٣١٢ مليون دولار). ومع انّه لم يكن معروفاً على نطاق واسع قبل عام ٢٠١١، أصبح سامر فوز أحد أقوى اللاعبين الاقتصاديّين في سورية، إلى درجة أنّه يُسمّى الآن «رامي مخلوف الجديد»، وهو الملياردير وابن





خالة الرئيس الأسد. ويُعزى صعود السيّد فوز إلى المستويات العليا من نخبة رجال الأعمال السوريّين إلى علاقاته الوثيقة بالرئيس وحصوله على أصول ماليّة متعثّرة كان يمتلكها رجال أعمال سوريّون لم تعد لهم حظوة لدى النظام.

مع أن الرئيس الأسد منح بركته لمشروع ماروتا ستي. إلا أن المستثمرين السوريين الأساسيين كانوا غائبين على نحو ملحوظ من المشروع. ويعزى هذا إلى أن النظام يريد التخفيف من تدخل النخبة السورية والعلوية التي كانت متحكمة قبل عام ٢٠١١ في التطـــــــــــــــــــــورات الاقتصادية الجديدة.

أمّا ثاني شركاء شركة دمشق الشام القابضة فهو أيضاً رجل أعمال غير معروف، مازن الترزي المقيم في الكويت. برأسمال يصل إلى ٢٥٠ مليون دولار، سيمتلك السيّد الترزي ٥١ في المئة من أسهم الشركة المساهمة، وستمتلك دمشق الشام الأسهم الباقية، ما يعني أنّ السيطرة الفعليّة ستكون بيد السيّد الترزي. ستبني الشركة مجمعاً تجارياً بمساحة ١٢٠٠٠٠ متر مربع وستة أبنية أخرى. وعلاوةً على ذلك، سيشتري السيّد الترزي خمس قطع أرض أخرى شخصيّاً ليطوّرها بقيمة تُقدَّر بسبعين مليون دولار، الأمر الذي سيجعل إسهامه الكلّيّ في ماروتا ستي يصل، على الورق على الأقلّ، إلى ما يقارب ٣٢٠ مليون دولار.

وفي عام ٢٠١٨، أعلنت شركة دمشق الشام عن فورة في شركاتها المساهمة الأخرى. ففي كانون الثاني / يناير، أسّست شركة مساهمة مع شركة إكسيد للتّنمية والاستثمار باسم «المطوّرون» المساهمة المغفلة برأسمال قدره ٩.٢ مليارات ليرة (٢١ مليون دولار). وستمتلك إكسيد، التي أنشئت قبل بضعة أشهر من تأسيس شركة «المطوّرون»، ٥١ في المئة من الأسهم، أي ما يعادل ٤.٧ مليارات ليرة، وستقدّم السيولة النقديّة، فيما ستمتلك دمشق الشام القابضة ٤٩ في المئة من الأسهم (٤.٥ مليارات ليرة). ولم يكن مالكا شركة إكسيد، حيّان محمد ناظم قدّور ومعن رزق الله هيكل معروفين على نطاق واسع قبل عام ٢٠١١.

وفي الشهر ذاته، ساهمت شركة طلس غروب مع دمشق الشام القابضة في تأسيس شركة مساهمة باسم شركة ميرزا، برأسمال مشترك قدره ٢٣ مليار ليرة (٥٢.٧ مليون دولار). وبخلاف الشركات المساهمة الأخرى، تمتلك دمشق الشام القابضة ٧٥ في المئة من الأسهم، وسيتمثّل إسهامها في تقديم الأرض بينما ستتكفّل طلس غروب التي تمتلك الأسهم الباقية بتقديم السيولة اللازمة للمشروع. وستُخصَّص اثنتان من قطع الأرض تلك لمشاريع سكنيّة، فيما ستكون القطعتان المتبقّيتان لمشاريع سكنيّة وتجاريّة. وتصل مساحة الأراضي المستثمرة كلّها إلى ٦٠٠٠٠ متر مربع. وتعمل طلس غروب، ومالكها الأساسيّ أنس طلس في إنتاج وتوزيع المنتجات الغذائيّة، وقدّ طوّرت ماركتها التجاريّة الخاصّة بها، توليدو. وتعمل الشركة أيضاً في مصر، والأردن، والإمارات العربيّة المتحدة. ويتشارك السيّد طلس مع السيّد الترزيّ بصفات عديدة بما فيها حقيقة أنّ كليهما بنى جزءاً من ثروته في الخليج، ولا يندرج اسماهما في لوائح المقاطعة الأوروبيّة والأميركيّة.

وفي آذار / مارس، أُسّستْ شركة مساهمة أخرى، باسم بنيان دمشق المساهمة، بالشراكة بين شركتين، هما شركة القمّة للتطوير والمشاريع محدودة المسؤوليّة وشركة تميّز محدودة المسؤوليّة. وما من معلومات كثيرة عن هاتين الشركتين باستثناء أنّ شركة القمّة أسّسها في وقت سابق عام ٢٠١٨ مستثمران، [محمّد] أحمد جمال الدين وابنه [محمّد] نذير. قيمة رأسمال الشركة المساهمة ١٥.٢ مليار ليرة (٣٤.٨ مليون دولار)، وستطوّر مشروعين مختلطين [للسّكن والتجارة] في مساحة أرض تصل إلى ٣٠٠٠٠ متر مربّع. وستمتلك دمشق الشام القابضة ٦٠ في المئة من أسهم الشركة، ويمتلك شركاؤها الأسهم الباقية.

دخول رامي مخلوف

ومع أنّ الرئيس الأسد منح بركته لمشروع ماروتا ستي، إلّا أنّ المستثمرين السوريّين الأساسيّين كانوا غائبين على نحوٍ ملحوظ من المشروع. ويُعزى هذا إلى أنّ النظام يريد التخفيف من تدخّل النخبة السوريّة والعلويّة التي كانت متحكّمة قبل عام ٢٠١١ في التطوّرات الاقتصاديّة الجديدة وذلك بسبب تفشّي الفساد والمحسوبيّة بينهم، لدى رامي مخلوف على الأخصّ، الذي أُدرج اسمه في لائحة العقوبات الأوروبيّة والأميركيّة. وخلال السنوات القليلة الماضية، دفع النّظام بأمثال السيّد فوز، وهو سنّيّ، كوجه جديد غير مرتبط بالحرس القديم.

لكن في آذار / مارس ٢٠١٨، أسّست شركة دمشق الشام القابضة شركة مساهمة جديدة، باسم شركة روافد دمشق المساهمة المغفلة الخاصّة، برأسمال يبلغ ٤٨.٣ مليون دولار. ووقّع الاتفاق مع أربع شركات يملكها السيّد مخلوف والمقرّبون منه ملكيّة كليّة أو جزئيّة.

ستكون روافد دمشق مسؤولة عن ثلاثة مشاريع في ماروتا ستي على أرض تصل مساحتها إلى ٣٨٠٠٠ متر مربع. وستضمّ المشاريع بناءين بخمسة عشر طابقاً في كلٍّ منهما، ستشغل الجزء الاكبر منه وجدات سكنيّة، مع طابقين تجاريّين، وبناء آخر باثني عشر طابقاً يقع على تخوم المتحلّق الجنوبيّ في دمشق.

ستمتلك دمشق الشام ٤٩ في المئة من رأسمال الأسهم، أي ما يعادل ١٢.٧ مليار ليرة، وستساهم في تأمين الأراضي التي ستُبنى المشاريع عليها. أمّا شركات مخلوف الأربع فستمتلك ٥١ في المئة من الأسهم، أي ما يعادل ١٣.٢ مليار ليرة، وستساهم في تأمين السيولة النقديّة، بما فيها نسبة ٤٠ في المئة من المبلغ الكليّ ينبغي أن تُدفَع خلال عام واحد من تاريخ تأسيس الشركة المساهمة الرسميّ.

لا تزال معظم البيانات المتعلقة بـــــــــــــــــماروتا ستي حبرا على ورق. ويبدو أفق المشروع منفصلا كليا عن الظروف السياسية. والأمنية. والاقتصادية السائدة في سورية. ومتطلبات السوق والقدرة التمويلية للبنوك المحلية. وهي الشروط التي ترتبـــــــــــــــــط عادة بمشاريع من هذا النوع.

الشركات الأربع هي شركة راماك للمشاريع التنموية والإنسانية، وشركة العمار، وشركة تيميت للتجارة محدودة المسؤوليّة، وشركة الأجنحة المساهمة المغفلة الخاصّة. شركة العمار مملوكة لإيهاب، شقيق رامي مخلوف. وما من تفاصيل بشأن ملكيّة الأجنحة باستثناء أنّها كانت مرتبطة في الماضي بشركة تتبع لمخلوف، هي شركة تلال دمشق محدودة المسؤوليّة. أمّا بخصوص تيميت، فقد كانت شريكة في شركة مساهمة مع شركة كاسل إنڤست، وهي شركة مملوكة لنادر قلعي، شريك سابق للسيّد مخلوف، والمدير التنفيذي لشركة سيريتل، وهي مشروع مخلوف الأبرز.

ويُتوقَّع أن تُوقَّع صفقة أخرى مع السيّد قلعي، الذي أبدى اهتماماً بالاستثمار في ماروتا ستي. ففي بدايات عام ٢٠١٧، دخل السيّد قلعي في اتّفاق مع هيئة الاستثمار السوريّة من أجل عقود إعادة الإعمار لمشاريع السّكن لمحدودي ومتوسّطي الدخل، مع وجود أنباء تشير إلى أنّ الشركة، شركة زبيدي وقلعي محدودة المسؤوليّة، يمكن أن تنخرط في مشروع ماروتا ستي.

وبحلول حزيران / يونيو ٢٠١٨، باتت الشركات المساهمة الستّ تمتلك رأسمال حقّ مساهم يبلغ ١٧٢ مليون دولار، فيما ستبلغ مساهمة استثمار مجموعة أمان المملوكة لسامر فوز، واستثمار السيّد الترزي وحدهما ٦٣٢ مليون دولار.

المشروع التجريبيّ للقانون رقم ١٠

سيصبح ماروتا ستي محجّة المشاريع بالنسبة إلى المستثمرين السوريّين الجدد بما أنّه مشروع القطاع الخاصّ المهمّ الوحيد الذي يتصدّر الأنباء في سورية، والمشروع الوحيد الذي يبدو أنّ أيّ مستثمرٍ سيبدي اهتمامه حياله. وفي مطلق الأحوال، فإنّ حجم المشروع وطبيعته الاستراتيجيّة، بسبب موقعه الجغرافيّ وبعده السياسيّ في آن، يحصران جاذبيّته في الطبقة الموسرة – أي القلّة القليلة في البلاد.

وحتى الآن، لا تزال معظم البيانات المتعلّقة بماروتا ستي حبراً على ورق. ويبدو أفق المشروع منفصلاً كلّياً عن الظروف السياسيّة، والأمنيّة، والاقتصاديّة السائدة في سورية، ومتطلّبات السوق والقدرة التمويليّة للبنوك المحليّة، وهي الشروط التي ترتبط عادةً بمشاريع من هذا النّوع. وعلى أيّة حال، وبعد استعراض هذه المعلومات، أعلنت شركة دمشق الشام القابضة في نيسان / أبريل ٢٠١٨ أنّها حصلتْ على موافقة لتأسيس شركة تمويل عقاريّ، هي الأولى من نوعها في البلاد. ففي عام ٢٠١٠، أسّست الحكومة هيئة الإشراف على التمويل العقاريّ، وسمحتْ منذ عام ٢٠١٢ بتأسيس شركات تمويل عقاريّ [القانون رقم ١٥ عام ٢٠١٢].

وتكمن أهميّة مشروع ماروتا ستي في حقيقة أنّه مثال عمّا يدور في ذهن النظام بحال إعادة إعمار مدنه. إذ بعد صدور القانون رقم ١٠، الذي يوسّع صلاحيّات المرسوم رقم ٦٦ ليشمل كامل أراضي سورية، سيكون مشروع ماروتا ستي على الأرجح مثالاً يُحتَذى في مشاريع إعادة الإعمار المُخطَّط لها في المناطق التي كانت تسيطر عليها المعارضة في بابا عمرو وحلب الشرقيّة.

أنا امرأة فلسطينيّة في إسرائيل...
ليس لك الحق في تعيين صفاتي

مهى اغبارية

محامية متدرّبة، ومناضلة نسويّة وسياسيّة، فلسطين.

لأننا نعيش داخل حدود إسرائيل فذلك لا يجعلنا أقلّ فلسطينيّةً من سوانا. إنّنا نعاني من السياسات القمعيّة المريرة ذاتها، حتى لو كان عذابنا من طبيعة مختلفة ويتّخذ شكلاً مغايراً.

منذ فترة قدّمتُ طلباً للمشاركة في ندوة لنساءٍ إسرائيليّات وفلسطينيّات ستُعقد في الصيف في ألمانيا. بعد أسبوعين تلقّيت رسالةً إلكترونيّة من المنظّمين تبلغني بأنّ طلبي قد رُفض.

السبب، كما عرضوه، هو أنّي عرفت عن نفسي بأني إسرائيليّة فلسطينيّة. قيل لي، إنّ صفة الإسرائيليّ مخصّصة حصراً لليهوديّات والصفة الفلسطينيّة هي فقط للفلسطينيّات من الضفّة الغربيّة أو من القدس الشرقيّة. فأين أنا هنا؟

في رسالة الرّفض، اعترف المنظّمون بتعقيد هويّتي بما أنا امرأة فلسطينيّة في إسرائيل، بل كان للرّسالة نبرة شبه اعتذاريّة لكوني مضطرّة إلى دفع ثمن ذلك التعقيد. لكنّهم أصرّوا في الوقت ذاته على أنّ تركيب الندوة قد تقرّر سلفاً ولن يمكن تغييره، وأضافوا «نأمل أن تكون لنا مناسباتٌ أخرى للقاء في الحقل السياسيّ».

على الرّغم من نوايا المنظّمين المعلنة لتأسيس «مشروع خاصٍّ يوفر حواراً سياسيّاً ولقاءً هامّاً وممتعاً» في إطارٍ رعويٍّ ألمانيٍّ، إلّا أنّهم يتبنّون الانقسامات والتصنيفاتٍ التي فرضها الاحتلال والنكبة على الشعب الفلسطينيّ.

يعتزّ منظّمو الحدث بأنّهم ينظّمون حواراً سياسيّاً بين نساء، لكنّهم في الحقيقة ينسخون التمييز الكولونياليّ بين الفلسطينيّين الذي بقوا داخل حدود العام ١٩٤٨ والفلسطينيّين الذين باتوا لاجئين نتيجة الحرب، وهو تمييزٌ يتجاهل عنصراً حيويّاً في النزاع أي الفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل.

إنّ المقاربة الكولونياليّة تعمل بنشاطٍ وانتظام لتشكيل هويّة الإسرائيليّين الفلسطينيّين بإنكار حقّهم الأساسيّ في تعيين هويّتهم بأنفسهم. وإنّ هذا التشكيل للهويّة الفلسطينيّة مستمرٌّ بلا هوادة منذ نكبة العام ١٩٤٨، من خلال الإدارة العسكريّة، والاحتلال الذي بدأ العام ١٩٦٧ والمستمرّ إلى يومنا هذا.

إنّ التقسيم المصطنَع الذي يمارسه الاحتلال للشعب الفلسطينيّ إلى جماعتين منفصلتين، «عرب إسرائيليّين» و«فلسطينيّين»، يخلق عن قصدٍ أزمة هويّة عميقة بين الفلسطينيّين في إسرائيل.

ليست هذه المرّة الأولى التي أقع فيها أنا، الإسرائيليّة الفلسطينيّة، في منزلةٍ بين منزلتين: فمن جهة، لستُ إسرائيليّة بما فيه الكفاية، بما أنا فلسطينيّة، ولست فلسطينيّة بما في الكفاية، من جهة أخرى، بما أنا إسرائيليّة.

إنّ قرار منظّمي الندوة رفْض طلبي له معنى مزدوج: إنّه ينكر هويّتي بما أنا فلسطينيّة (بمنعي من الانضمام إلى مجموعة المشاركين الفلسطينيّين) وينكر أيضاً هويّتي بما أنا مواطنة إسرائيليّة. على الرغم من هذا التعقيد البنيويّ، وربّما بسببه، كان تصميمي على المشاركة في الندوة.

الدارج في أيّامنا هذه هو حديث الهويّة، بما هي مقولةٌ ذات سيولة وزخم وتحوّل مستمرّ. لكنّ هذا الزخم يصير هباءً بسبب واقع الاحتلال. يسهل عليّ أن أعرّف نفسي بما أنا فلسطينيّة، إلّا أنّ ظروف ولادتي وظروف حياتي والظروف التي كوّنتني قد تولّدَ عنها عنصرُ هويّة آخر بالنسبة لي.

أنا رسميّاً إسرائيليّة أيضاً، أحببت ذلك أم لم أحبّبه. هذه الازدواجيّة التي سعى الاستعمار إلى خلقها، مصدرُ تقلقلٍ، تجبرني على معاناة أزمة هويّةٍ مستمرّة، وهو أمرٌ يصعب جدّاً شرحه وتفسيره لمن لا يعيش تلك الأزمة أو

يختبرها شخصياً.

الإسرائيليّون الفلسطينيّون جزءٌ مكوّنٌ من الشعب الفلسطينيّ، في إسرائيل والضفّة الغربيّة وغزّة وأيّ مكانٍ آخر. إنكار وجود هذه الأقليّة القوميّة التي تعيش هنا سوف يرتدّ على الإسرائيليّين مثل صاعقة.

إنّ العلاقة المتبادَلة بينهم وبين إخوتهم الفلسطينيّين لا تشكّل خطراً على إسرائيل. بالعكس: إنّ صورتهم بما هم جسر بينهم ليست مجرّد كليشّيه من الكليشّيهات. الفلسطينيّون هنا ليبقوا – في أمّ الفحم والناصرة وحيفا وراحات، وفي القرى غير المعترف بها، كما في المدن المختلطة وحتى في أماكن مثل العفولة وكفر فراديم.

لقد آن الأوان للاعتراف بالإسرائيليّين الفلسطينيّين بما هم جزءٌ عضويٌّ من حلّ المسألة الفلسطينيّة. إنّهم جزءٌ من الشعب ذاته، واللغة ذاتها، والثقافة ذاتها والنضال ذاته. ومجرّد كوننا نعيش داخل حدود إسرائيل لا ينتقص بأيّ شكلٍ من انتمائنا الفلسطينيّ. إنّنا نعاني من السياسات القمعيّة إيّاها، حتى لو كان عذابنا من طبيعةٍ أخرى ويتّخذ شكلاً آخر.

لقد آن الأوان للاعتراف بأنّ لا حلّ للنزاع من دون إشراك جميع المشاركين التاريخيّين، أي جميع الفلسطينيّين. قد توجد خلافات حول تفاصيل المقترحات المختلفة، ولكن عندما يجد طرفٌ ما نفسه بما هو مكوّن أساسيّ من مكوّنات الوضع، فثمّة واجب سياسيّ كما أخلاقيّ للاعتراف بذاك الواقع.

يجب أن يوجد مثل هذا الاعتراف في مناسباتٍ مثل الندوة الألمانيّة، كما في جميع المشاريع الدوليّة المتعلّقة بالنزاع. فإذا كانت الجماعات والمنظّمات التي تسعى إلى تحقيق السلام وعَقد الصلات بين الطرفين لن تجد مكاناً لفلسطينيّين ولامرأةٍ مثلي للعب دور جسر حيويّ نحو السلام، فلماذا تكترث السلطة المحتلّة بأن ترى إلينا على هذا النّحو، بل لماذا تكترث بوجودنا أصلاً، وهي التي تحافظ على استمرار النزاع بالقوّة؟



من ذاكرة التعذيب في الحرب الجزائريّة
الشرفة: عودة إلى مكان قتل علي بومنجل

ملكة رحّال

مؤرّخة وباحثة، الجزائر. معهد تاريخ الزمن الحاضر، المركز الوطنيّ للبحث العلميّ، فرنسا. تعنى بالدرجة الأولى بالاستعمار الفرنسيّ للجزائر وبحركة التحرّر الوطنيّ الجزائريّة وقضايا التعذيب والتهجير والمفقودين، من أعمالها *Ali Boumendjel. Une affaire française, une histoire algérienne*. ٢٠١٠.

قدّم الرئيس الفرنسيّ ايمانويل ماكرون أخيراً اعتذاراً رسميّاً لأسرة الجامعيّ الشيوعيّ موريس أودان، الذي قضى تحت التعذيب في سجون الاحتلال الفرنسيّ بالجزائر العام ١٩٥٦. أثارت مبادرة ماكرون ردود فعل تطالب بفتح ملفّات التعذيب وشمول الاعتذار الرسميّ جميع ضحايا التعذيب من الجزائريّين خلال حرب التّحرير الوطنيّ. ننشر فيما يلي مقالة للمؤرّخة الجزائريّة ملكة رحّال مستوحاةً من كتابها الذي حققتْ فيه عن تصفية المحامي علي بومنجل.

البحث عن عمارة

منذ سنوات قليلة، أُتيحَت ليَ الفرصةُ لكتابة سيرة علي بومنجل، الذي كان مُحامياً ومناضلاً سياسيّاً جزائريّاً. خلال هذا البحث، بدأتُ أدرك كم هي مفيدةٌ معرفة الأماكن لفهمِ الأشياء، وتجذيرِ الكتابة: كنتُ قد رأيتُ الدار التي بناها علي بومنجل وزوجته في حيّ العناصر ودار والديه في بلكور، والعديد من الأماكن التي عاشا فيها في العاصمة. لكنّي لم أجدْ إطلاقاً العمارة التي استولى عليها المِظلّيّون الفرنسيّون في الأبيار والتي كان المُحامي قد أُلقيَ منها خلال «معركة الجزائر» سنة ١٩٥٧. لم يكن لبعض الجولات في الحيّ أيّةُ نتيجةٍ على الرّغم من استعمالي للخريطةِ التي قدّمها بيار فيدال ناكيي في كتابه. وما كان اكتشاف هذه العمارة ليبدوَ مستحيلاً، ذلك أنّ الفنّان إرنست پينيون إرنست قد وجدها لكي يرسم على حيطانها صورة موريس أودان سنة ٢٠٠٣. وفي العام نفسه، صوّر فيها جان بيار ليادو عودة هنري علّاق الذي خضع للتعذيب في المكان نفسه، وذلك في فيلمه الوثائقيّ «الحلم الجزائريّ».

لم يتيسّرْ لي اكتشافُ العمارة إلّا العام الماضي (المقالة مكتوبة في العام ٢٠١٧) عن طريق صديقٍ لي كان يذكُر أنّ والدَه أخبره عن المكان عندما كان صغيرا. وللأمانة، من هذا المُنْطَلَق، كانت فُرَص نجاحنا تبدو ضئيلة، وكنتُ أتساءل كيف أتأكّد ألّا يكون رفيقي أو والده مخطئين.

منذ طفولته، تغيّرت المحالّ، وكذلك واجهات العمارات. في ذلك اليوم المُشمِس، كان شارع علي خوجة مُزدحماً. وفجأةً دخل الصديق الذي كان يرافقني رِواقاً من خلال بابٍ مكتوب عليه: «نادي الجودو». خلف العمارة، كانت هناك ساحةٌ تُشبه أماكن الفيلم. أمّا صورة موريس أودان فقد امّحت تحت طِلاء الجدران. المهمّ أنّ هذا المبنى كان ينسَجم مع الأوصاف التي تُعطيها لنا المصادر. يقول الجنرال أوساريس في كتابه:

ذهبتُ مباشرةً إلى الأبيار، شارع كليمنصو، حيث كان بومنجل مُعتقلاً. هناك عدّة عمارات كان بعضها مُترابطاً مع بعض عن طريق جسورٍ صغيرة في مستوى شُرفات الطابق السادس. كانت زنزانة بومنجل في الطابق الأرضيّ. مَرَرتُ على مكتب الملازم D الذي بدا مُفاجأً لرؤيتي. [قال لي:]

– ماذا يمكنني أن أفعل لك يا سيّدي؟

– انظرْ، D لقد حضرتُ اجتماعاً طويلاً بحضور الجنرال ماسو. بعد خروجي من الاجتماع كان لديّ شعورٌ أنّه لا ينبغي إطلاقاً تَرِكُ بومنجل في العمارة التي هو فيها الآن [...]. وخلال نقله، لا ينبغي المرور عَبر الطابق الأرضيّ لأنّ ذلك يلفِت الكثير من الانتباه. [...] اذهب لإحضار سَجينِك، ولكي تنقله إلى العمارة المُجاورة، جُز عَبرَ الجسر الصغير في الطابق السادس. أمّا أنا فسأنتظرك

في الأسفل حتى تنتهيَ من ذلك. هل تفهمني جيدا؟ هز D رأسه ليُظهرَ فهمَه، ثمّ اختفى. انتظرتُ بعض الدقائق وعاد D لاهِثا، ليُعلمني أنّ بومنجل قد سقط. فقد صرَعه بضربة من مقبض الفأس خلف الرقبة[1].

أتيحَتْ ليَ الفرصة أنْ أكتبَ في سياقٍ آخر أنّنا لا نستطيعُ أن نثِقَ في كلام أساريس. لكن لا يوجدُ أيُّ سببٍ يجعله يكذب في وصفِ الأماكن. وفيما نحن نتأمّل العمارة من خلال الساحة ذات يوم، بدأنا نلاحظ الأشياء بوضوح أكبر: مركز المظلّيين في الأبيار الذي كان لا يزال قيد الإنشاء في ذلك الوقت مُكوَّن من عمارة واحدة بثلاثةِ مدارج. كان في الساحة أطفالٌ يلعبون وهناك رجل له عشرات من النّبتات تنمو في أصص.

كثير من الناس لا يرمون الخبز في القمامة. لكن ماذا يفعلون به إذن؟ في كل مكان من المدينة هناك أكياس من الخبز اليابس. وحتى من «الطعام». بسبب توسع غريب لعقلية التطير من التخلص من الخبز. حتى ان عمال النظافة لا يريدون أحيانا أن يأخذوا الخبز الذي لا تستطيع المدينة أن تهضمـــــــــــــــــــــــــه.

صعدنا في المدرج الأوّل لنجدَ باب السّطح مُغلقاً بالمفاتيح. في جدران المدرّج مُربّعات زجاجيّة ينفذ منها الضوء. للهندسة المعماريّة النَمَطيّة زمن الخمسينيّات سِحرٌ مميّز. تذكّرتُ عناصر الديكور الكئيبة في فيلم «السؤال» للوران هينمان (١٩٧٦). في شقوق الباب المتهالك ميّزنا شرفةً غير واضحة المعالم بل أمكننا مشاهدة البحر أيضاً. ما كنتُ لأتخيّلَ وجود هذه التفاصيل بالمرّة....

نحاول عبور المدخل الثاني. في أعلى الدرَج، الطريق مقطوعة من جديد. هناك وضِعَت أكوامٌ من الأكياس مملوءةٌ بالخبز اليابس. كثير من النّاس لا يرمون الخبز في القمامة. لكن ماذا يَفعلون به إذن؟ في كلِّ مكانٍ من المدينة هناك أكياس من الخبز اليابس، وحتى من «الطعام»، بسبب توسّع غريب لعقليّة التطيُّر من التخلُّص من الخبز. حتى انّ عُمّال النظافة لا يريدون أحياناً أن يأخذوا الخبز الذي لا تستطيع المدينة أن تهضمه.

فهمنا أنّ الشرفة تَصلُح أيضاً لوضع الأشياء القديمة التي لا يريد السكّان أن يحتفظوا بها ولا يعرفون كيف يتخلّصون منها. أثناء صعود المدرج وهبوطه، كنت أتذكّر المصادر التي قرأتها خلال بحثي:

الأمن الوطنيّ في الجزائر.
الأمن العامّ. مدينة الجزائر.
محضَر.

سنة **١٩٥٧**، في الثالث والعشرين من شهرآذار/ مارس. أمامنا CP ضابط الشّرطة وضابط الشرطة العَدْليّة، ومساعد وكيل الجمهوريّة، المعيَّن في الدائرة الثالثةَ عشرة. الأبيار.

يحضر معنا المُلازِم DM، عمره ٢٦ سنة، من الفوج الثاني للمظليّين الاستعماريّين [2e RPC]، الكتيبة الرابعة، ٩٢ شارع كليمنصو في الأبيار. ويصرّح بالآتي:

اليوم حوالي الساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة بعد الظهر، أحضر المعاون S من الفوج الثاني للمظليّين الاستعماريّين إلى مكتبي المُشتَبَه به علي بومنجل الذي كان المطلوب نقلُه إلى النيابة العامّة في المساء لحضور الاستجواب الأخير.

عندما أحضرتُ المُشتبَهَ به إلى مكتب الاستجواب، في الجزء الآخر من المبنى، عبَرنا إلى الشُرفة. كان العون S يتقدّمنا، يتبَعه بومنجل وأنا كنت أتعقّبهم.

وفجأةً اندفع بومنجل نحو طرف الشُرفة، فاندفعتُ خلفه لأمسك به ولكن بقَفزةٍ واحدة للأمام هرب منّي وألقى بنفسه في الفَراغ. كان عليّ أن أتركه كي لا أسقُط معه. نزلت إلى الساحة وبسبب الحالة الحرجة للضحيّة، أخبرت الطبيب والكولونيل من دون تأخير. نُقِل بومنجل سريعاً إلى مستشفى مايو وِفقاً لأوامر الكولونيل، ولكن يبدو أنّه قد وصل إليها وقد توفي. أشير إلى أنّ بومنجل كان قد حاول الانتحار يوم الثاني عشر من شباط/فبراير **١٩٥٧** في حسين داي حيث كانت تُوجَد مجموعتنا. وكان قد نُقل إثرها إلى مستشفى مايو وخرج منه يوم ٤ آذار/مارس الأخير.

الإمضاء بعد القراءة والإقرار.
الإمضاء: D
ضابط الشرطة[2]

النخبة التي تزعم أنّ بومنجل ألقى بنفسه طَوعاً في الفضاء هي النُخبة الرسميّة. لكنّ تقرير الطبّ الشرعيّ

١ ملكة رحال، «الشرفة. عودة إلى مكان قتل علي بومنجل - ٢٣ مارس ١٩٥٧». Billet. Textures du temps (blog). Accessed October 13, 2018.

٢ المرجع نفسه.

يؤكّد، رغماً عنه، وبشكلٍ أكثرَ تيقّناً من اعترافات الجنرال أوساريس أنّ بومنجل أُلقيَ به وهو فاقد الوعي في الفَراغ.

قصّة البحث عن علي بومنجل

قرأت اسم عليّ بومنجل للمرّة الأولى عندما كنت أعِدّ رسالة الماجستير الأولى حول نوّاب الهيئة الثانية الذين مثّلوا الجزائر في البرلمان الفرنسيّ بين ١٩٤٥ والاستقلال. خلال مناقشات برلمانيّة ذُكِر موته وهو في مركز المظليّين في خِضَمّ «معركة الجزائر». هذه الوفاة مَشبوهة حتّى لو تكلّمَ الجيش فوراً عن انتحارٍ. وزاد من وقْع الصدمة في تلك المناقشات البرلمانيّة أنّ أخا أحمد بومنجل كان عضواً سابقاً في مجلس الشيوخ الفرنسيّ.

ظلّ اسم علي بومنجل – والمشاعر التي أثارها – عالقاً في ذهني وفي مُخيّلتي. وبعد بِضع سنواتٍ، أي في سنة ٢٠٠١، أصدر پول أساريس مذكّراته التي تُثبِتُ روايةَ القتل. لمّا شاهدتُ أرملة بومنجل وأطفاله في مقابلاتٍ تلفزيونيّة، تذكّرتُ قراءاتي لخمسِ سنوات مَضَت. في هذه القضيّة على الأقلّ، كَشف سرٍّ قديمٍ لكنّه معروفٌ في آن.

كنت أستعدّ لكتابة أطروحة دكتوراه في التاريخ وكان المدير الذي سيُشرف على بحثي، بنيانين ستورا، قد رفض بعض المواضيع التي اقترحتُها. كانت لديّ رغبة في البحث في التاريخ الاجتماعيّ لكنّ مشاريع بحثي بدتْ غامضة. نَصحني بالاشتغال على حزب الاتحاد الديمقراطيّ للبيان الجزائريّ. وفي مرحلة الماجستير الثانية، اقترح عليّ سيرةً تاريخيّة لأحد أعضاء الحزب. ولكنّ السيرة كانت تمثّل في نظري حينذاك الجنس الأدبيّ الهشّ بامتياز، والذي يذكّرني بأندْريه كَسْتالو وألان ديكو اللذيْن كنتُ أسمعهما خلال طفولتي على الراديو في برنامج يُبَثُّ ظهيرة كلّ يوم أربعاء. كما كان يذكّرني بِسيَرٍ لشخصيّات سياسيّة فرنسيّة مثل ليون بلوم أو شارل ديغول التي كنّا نقرأها في حِصَص التاريخ السياسيّة في جامعة بوردو والتي كانت تثير ضجري.

سنة ٢٠٠٢، كنت أدرّس في معهد بإحدى ضواحي باريس، وقد توقفتُ عن البحث لمتابعتي دروسٍ مسائيّة في اللغة العربيّة في المعهد الوطنيّ للّغات والحضارات الشرقيّة. لم أكن أعرف من أين أبدأ أبحاثي ولا حتى عمّا سأبحثُ عنه. كان فرحات عبّاس وحزبه ينقصهما شيءٌ من الراديكاليّة في نظري (كنت مشبعة بالمشاعر القوميّة الشعبويّة وبروح الانتماء إلى العالم الثالث في الطفولة). ثمّ إنّ فكرة كتابة سيرة لم تكن تَلقى هوى في نفسي. ورغم كلّ ذلك، قبِلت هذا المشروع البحثيّ لأنّي كنت أرغبُ حقّاً في البحث التاريخيّ ولأجل علي بومنجل.

كان هذا البحث مُحبِطاً لي من زوايا عديدة. الوصول إلى عائلة بومنجل يَسير بالنسبة إليّ، لكنّ الكثير من رفاقه في السياسة كانوا قد ماتوا: أخوه أحمد بومنجل وقياديّو حزب البيان الآخرون (قدّور ساطور، أحمد فرانسيس، سيرج ميشال وآخرون لم يتيسّر لي تحديدهم»، وكذلك رفاقه في مدرسة «ديفيريي» الثانويّة في بليدة والذين سيُصبح بعضُهم قياديّين في جبهة التحرير الوطنيّ خلال الثورة، والذين كان يمكن أن يُخبِروني عن التزامه السياسيّ. مات بن يوسف بن خدّة مثلاً قبل وصولي إلى العاصمة ببعضِ أسابيع وكنت آملُ مُلاقاتَه. لقد كان جوهرُ الموضوع بالنسبة إليّ هو العلاقة بين علي بومنجل (عضوٌ في حزب البيان، وربّما في جبهة التحرير الوطنيّ آنذاك أيضاً) وعبّان رمضان، مسؤول الجبهة في العاصمة ورفيق بومنجل السابق في بليدة. كانت العائلة تؤكّد أهمّيّة هذه العلاقة ولا أحد ممّن بقوا على قيد الحياة باستطاعتِهِ أن يشهَد على هذه العلاقة التي تمَّ ربْطُها أو إعادة ربطِها في السرّ.

كانت مشكلة البحث الأخرى هي اغتيال بومنجل وموتُه: يستطيع شهودٌ أن يشهدوا بالتعذيب النفسيّ، لكن لا أحدَ كان يشهَد التعذيب الجسديّ الذي يتحدّث عنه الجميع. إضافة إلى ذلك، فإنّ التأكيد الوحيد للاغتيال يأتي من بول أوساريس الذي لم أصدّقه والذي رفض أن يقابلني باستمرار. على كلّ حال، كانت فكرة تناول فنجان قهوة معه تُثيرُ في نفسي بُروداً مُرعِباً. كنت أجهل أجزاء كاملةً من سيرة بو منجل السياسيّة كما من نشاطاتِه السريّة أو المجْريات عند اعتقاله من طرف المظليّين. بجملةٍ واحدةٍ كان من الممكن أن أصوّره كشخصٍ إنسانيّ هشٍّ دفعتْه مُجريات الحرب إلى الالتحاق بجبهة التحرير الوطنيّ. وبجملةٍ واحدةٍ أيضاً كانت لديّ القُدرة على تصويره كثوريٍّ أكثر راديكاليّة. حتى وإن كان ذلك سيُثلج صدري. هذا كان الخطر الذي يهيمن على كتابتي.

أسئلة إلى غائب

طالتْ كتابة أطروحة الماجستير. كنتُ أحقّق في كلّ جملةٍ وأُعيد كتابتَها، وأعَدتُ اختيار النعوت المستعملة الواحدَ بعد الآخر. لم يكن بومنجل شخصيّة مركزيّة، ولذلك لم يكن مؤكّداً أن تظهر سيرةٌ أخرى بعد رسالتي هذه لمتابعةِ النقاش حوله. لم أكن أُريد أن أبحثَ في قضيّة بومنجل



❖
يظهر على
يمين الصورة
علي بومنجل ومعه
صديقه مهند صلحي
الذي اعتقله المظليون
أيضاً واختفى خلال
معركة الجزائر،
أرشيف عائلة بومنجل

في محاكمةٍ تاريخيّة ولم أكن أريد تصحيح التاريخ بل أردتُ أن أكتب بدقّةٍ وموضوعيّة وإنصاف جُمَلاً مَوثوقةً في هذا الرجل الذي توفّي منذ خمسين سنة. لكنّ الشكوك حول القضيّة لم تكن لتُختَزَل. كنت أقول في نفسي وأنا أقطع مساحةَ مطبخي جِيئةً وذهاباً: أعطوني خمسَ دقائق، أو عشر دقائق، أو ربع ساعة لكي أتكلّم مع علي بومنجل. كان عندي قائمة أسئلة أودّ توجيهها له:

- يا سيّدي، كيف كانت علاقتكم مع عبان رمضان سنتي ١٩٥٦ - ١٩٥٧؟ [خمس دقائق لم تكن لتكفي]

- ماذا حدث لكم بعد اختطافكم من طرف المظلّيين في التاسع من شباط \ فبراير ١٩٥٧؟ هل عذّبوكم؟ هل قتلوكم؟

- خلال أزمة «حزب البيان» في الخمسينيّات، هل كنتم معارضين لفرحات عبّاس [رئيس الحزب]؟ ولأخيكم [القياديّ في الحزب]؟

ربّما كان عليّ أن أخاطبَه في ذلك الوقت بضمير المفرَد مع رفع التّكليف، لم أعد أدري. على كلّ حال، كان ترتيب الأسئلة يتبدّل باستمرار بحسب ما كان يبدو لي جوهريّاً (هل كان فعلاً جوهريّاً أن نعرفَ كيف مات؟ كيف عُذِّبَ؟ بالمقابل، قضيّة عبان رمضان كانت تبدو لي دائماً أساسيّةً). وبما أنّ علي بومنجل لم يكن مستعدّاً لمقابلتي، كنت أتخيّل كلّ المعلومات الأكيدة التي سأغنَمها لو تحدثت لخمس دقائق فقط مع عبان رمضان أو مع قدّور ساطور.

أن نسرد حياة فرد وأن نضفي عليها معنى. فتلك مسؤولية ثقيلـــــــــــــة. وهي تزداد ثقلا لو كان أقاربه على قيد الحياة: في جميع الأحوال سيكونون غير راضين عن قراءة الكتاب.

أن نسرُد حياة فردٍ وأن نضفي عليها معنىً، فتلك مسؤوليّة ثقيلة، وهي تزداد ثِقلاً لو كان أقاربه على قيد الحياة: في جميع الأحوال سيكونون منزعجين وغير راضين عن قراءة الكتاب. من الضروريّ أن أكونَ واثقةً من حكاياتي حتى أجازفَ بكتابتها. ولكن عندما نتحدّث عن السرّيّة، لا نستطيع أبداً أن نشهدَ أنّ الحدثَ الذي لا دليلَ لنا عليه لم يحدُث قطّ. كيف نكتب التاريخ تاركين الباب مفتوحاً لِمثلِ هذه الإمكانيّات؟ كانت اعترافات علي بومنجل التي انتزعها المظلّيّون تبدو لي زائفةً، وعلى الرّغم من ذلك هل يمكن أن أكون متأكّدةً مئة بالمئة من أنّ شبكة الاتّصالات التي اعترف بومنجل تحت التعذيب بأنّه رئيسُها لم تكن موجودةً حقّاً؟

كان لمسألة العدالة في ذلك الوقت معنىً ملموس: حوكم بول أوساريس سنة ٢٠٠٢، لا لارتكابه جريمة حرب بل لتبريرها /للدفاع عنها، للكتابة عنها، مثلَما حصل مع ناشرَيْ كتابه. كانت الملاحقات القضائيّة بمَثابةِ اعترافٍ بالعجز: في حالةِ عدم إمكانيّة الملاحقة القضائيّة لارتكاب التعذيب والاغتيال، الذي كانت تحميه قوانين العفو، حوكم بتهمة الكتابة نفسِها، وفي ذلك رسالةٌ رادعة لكلّ من تُسوِّل له نفسه الاعتراف بجرائم حربٍ أخرى. لقد ثبتَ اتِّهامُ أوساريس في نيسان/أبريل ٢٠٠٣ عندما كنت في خضَمّ الكتابة عن بومنجل. كانت عائلة بومنجل تتصوّر طرقاً أخرى لنقل قضيّته إلى القضاء، بما هي قضيةُ عدالةٍ وحقيقة. وكانت العلاقة الممكنة بين هذه القضيّة وبحثي دائمة الحضور في ذِهني. وكنت دائماً أتحدّث مع زملائي في البحث عن إمكانيّة الحديث عن هذه القضيّة أثناء المحاكمة.

بينما كنت أعِدُّ الفَصل الأخير للأطروحة، محاوِلةً إعادةَ تشكيل مسار بومنجل يوماً بعد يوم من مركز تعذيبٍ إلى آخر، كان الجنرال مارسيل بيجار ضيفاً على البرنامج الفُكاهيّ للفترة الصباحيّة في إذاعة «فرانس أنتار». وصل بيجار إلى مدينة الجزائر بعد موت بومنجل ولم يلعب أيَّ دور فيه. لكنّ بيجار احتلّ مكانه في النظام القمعي المؤسَّس على التعذيب والقتل وكان المظلّيّ الوحيد الذي اقترن اسمه بطريقة قتل السجناء التي سمّيتْ «ربطة عنق بيجار»، رجالاً ونساءً رماهم المظلّيّون في البحر من المروحيّات وأقدامهم مثبّتةٌ في أحواض إسمنت.

فيما أذكره، كان مقدّم البرنامج ستيفان بارن يردّد: ما نحبّه فيك جنرال... هو حَيَوِيّتك، دُعابَتُك، لُطفك. كان هذا في عام ٢٠٠٣. وأنا أستمع إلى البرنامج، كنت أقرأ وصْفاً لرجالٍ اختَنقوا في أحواض الخمور في حوش بيران ووصَفَ التقنيّة المعتَمَدة لسَحج سِيقان النّاجين بالمسحج مع وضع المِلح عليها. كانت هذه الحَيَويّة تثير فيّ شعوراً بالقَرَف. كانتْ لديّ رغبةٌ في تحقيق العدالة وتعديل التاريخ، أردتُ أن أكتب كتاباً يصفَع بيجار على وجهه، يصدم ستيفان بارن ويقول للإذاعة الوطنيّة الفرنسيّة إنّها وضيعةٌ وبلا كرامةٍ شأنُها شأن الجمهوريّة الاستعماريّة. كنت أرغَب أن يكون بومنجل، والعربيّ بن محيدي وعبّان رمضان، هؤلاء المفقودين اليوم، أبطالاً. كنت وما زلت مناهضةٍ للاستعمار بشراسة وهذا لم يكن يساعد على الكتابة.

هل حاول الانتحار؟

بدأتُ بالاعتقاد بأنّ ما يسمّيه المظلّيّون «محاولة انتحار بومنجل الأولى» - لمّا قالوا إنّه قطع عروقَ رقَبتِهِ بزُجاجِ نظّارتِه - هذه المحاولة يُمكن أن تكون قد حصلَت فعلاً ولم تكن محاولةَ اغتيالٍ كما تظنُّ عائلة بومنجل. كان بودّي أن أعتقِدَ عكسَ ذلك. دفعوا بومنجل إلى الاعتقادِ بأنّ عَويل المرأةِ الحقيقيّ الذي كان يُسمعُ كان عَويلَ زوجته عندما كان يُعتَدَى عليها، وخلَق ذلك لديه حالةً من الارتباك. تحت هذا التعذيب النفسيّ لم يكن الانتِحار بعيداً عن التوقُّع. كانت هذه فرضيّةً فقط ولكنّها كانت فرضيّتي. زيادةً على ذلك، لم أكن أرى في ذلك أيُّ سببٍ لإدانة بومنجل من وِجهة نظرٍ أخلاقيّةٍ. وكنت أردّد صِيَاغةً من قبيل: التعذيب يبرّر كلّ شيء، الانتحار هو إرادةٌ، هروبٌ ومقاومة. كما نرى، كانت الأخلاق موجودةً دائماً، توجّهُ كلّ شيء وعليّ أن أتحرّر منها قدْرِ الإمكان. حين اتّصلتُ بمليكة بومنجل لكي أخبرها بنهاية كتابة الأطروحة، كنت أرغب في أنْ أقولَ لها إنّ فرضيّتي كانت على تلك الشاكلة، حتى لا تُفاجِئَها عند القراءة. كان هناك صمتٌ طويل. قالت بعده: لقد ربحوا إذن. وتحدّثنا طويلاً بعد ذلك.

سعى أصدقاءُ لي من مؤرّخي الزمن الماضي إلى التقليل من شأن هذه الخصيصةِ المتعلّقة بتاريخ الزمن الحاضر. بيّنوا أنّهم، هم أيضاً، يمكنهم الحصول على «علبة أرشيف باكية»، أو على موضوعٍ مُؤلم، ويمكن أيضاً أن تتملّكهم مشاعر قويّةٌ ورغبةٌ في تحقيقِ العدالة. بلا شكّ.

على الرّغم من ذلك، هنالك مِيزة خاصّة في تاريخ الزمن الحاضر، عندما يشترط شاهدٌ أن تحقّق أنت العدالة، أو فلان أو فلانة أو ملكة رحّال، أو يتقدّم بشكوى ضدّك بتُهمة التشهير، أو يهاتفك في منتصف الليل، أو كما هو الحال هنا، يقتلك قتلاً باتّهامه إيّاك بالخيانة.

أنا أُنهي الكتابة في حالٍ من التّعَب والتركيز الشديد، وبما أنّني أحسب نفسي أخاطب الموتى، وبما أنّنا نكتب انطِلاقاً من جوهرِ حياتنا، برز أمامي موتى آخرون يطالبون، هم أيضاً، بخمسِ دقائقَ من وقتي، موتى ما زالت لديّ أسئلة أحبّ أن أوَجّهها لهم. عمّي الشهيد. [هل تعرف أنت مَن قتلك؟ وأين دفنوك؟] جدّي [هل كنتَ عُضواً في حزب البيان؟] أبي. [...]

بعد انتهاء الكتابة، انتظرتُ الأطروحةُ طويلاً قبل أن تصبحَ كتاباً. ما زالت بعضُ المشاكل عالقةً: كيف أفكّك رِواية الاستشهاد حسب العائلة بدون أن أجرحها؟



❖

من وثائقي «معركة الجزائر» لجيلو بونتكورفو، ١٩٦٦

وكيف أتحرّر من حاجة تحقيق العدالة وأكتبُ في آن كتابةً عادلةً؟ كيف يمكن أن نترك الباب مفتوحاً على الأحداث والتّفاصيل التي لم ننجح في العثور عليها أو البرهنة عليها؟ ماذا نفعل مع الأشباح، أشباح التاريخ أشباحنا نحن في تاريخنا الخاصّ؟

قراءَتي لكتاب دانيال ماندلسون «المفقودون، البحث عن ستّةٍ من ضِمن ستّة ملايين» ساهمتْ في انفِراج البحث أخيراً. كان من الممكن أن نحكي سيرة التحقيق ولو كانت نتائجه شحيحة. هنالك بالتأكيد قيمةٌ للمنهج نفسه: نستطيع أن نكتب بشكلٍ صحيح ونحترمَ ذاكرة الأموات في الوقت نفسه. كُتبتْ بعض المقاطع في الدقيقة الأخيرة بعد مناقشاتٍ حول موضوع الحِدادِ مع زملائي في «معهد تاريخ الزمن الحاضر» الذين كانوا يعرفون هذه المسألة في سياق حروب أخرى، فزوّدوني بمُعجَمٍ مهمّ وأدوات تحليلٍ.

بين العدالة والتاريخ

لما قدّمتُ الكتاب لمليكة بومنجل ووضعته مع نُسخٍ لأولادها على الطاولة، لم تنظر إليه. في الشُقّة الصغيرة، كانت تمرّ أبعد ما يمكن عن الطاولة وهي تجلب الشاي من المطبخ. تُشير بإصبَعها إلى هذا الشيء المؤلم الموضوع على الطاولة لتشكرَني عليه. كنتُ مهمومةً بعد هذا اللقاء وعُدت لزيارتها بعد بضعةِ أيّام إثر اتّصالٍ هاتفيّ. كانت المرّة الوحيدة التي تفتح لي فيها الباب بملابس البيت منذ أن عرفتها منذ عدّة أعوام. كانتْ قد بدأت القراءة لكنّها وجدتْها صعبةً. لم تكتشف بالتأكيد شيئاً جديداً في الكتاب، لكنّها وجدت الأسلوب جميلاً ومع ذلك أكثر إيلاماً. لقد كانت سيّدةً مُسنّة، وكنت أخاف من أن تفارق الحياة أصلاً مع ظهور الكتاب. غير أنّ هذا الوضع لم يستمرّ طويلاً. الأشياء لم تكن أيضا بسيطة بالنسبة إلى أحد أولادها، سامي. مع اقتراب نشر الكتاب، أصبح عدوانيّاً وقلقاً بسبب دار النشر التي لم تفعل ما كان يجب فعله حسب رأيه. عند صدوره، لم يحقّق الكتاب الذي طال انتظارُه، ما كان مأمولاً منه. لم يكن قويّاً بما فيه الكفاية. لم يكن حاسماً في كلّ الأمور. ولم يستطع أن يُصلِح الماضي. كان الأمر يتطلّب أشهراً عديدةً حتى تهْدأ التّوَتُرات.

في بداية بحثي، كنتُ أظنّ أنّ السيرة شأنٌ تافه وعديم الجدوى، لكنْ أثناء كتاباتها، طُرحت كلُّ الأسئلة الكبرى التي تخُصّ تاريخ الزمن الحاضر مع تذبْذُباتٍ رهيبةٍ بين العدالة والتاريخ، وبين الحقيقة وإصلاح الماضي. لم تكن الأجوبة بسيطةً على الإطلاق. وكانت الكتابة صراعاً مستمرّاً من أجل التاريخ.

قبل أن نغادر، حاولنا عبور المدخل الثّالث، حتى لا يبقى لنا عُذرٌ. في المدرج، كنت أفكّر في هنري علّاق، وفي موريس أودان اللذين مرّا من هنا، هما أيضاً. وأمام كلّ بابٍ أتساءل هل تم تعذيبهما في هذه الشقّة؟ وهل كانا مسجونَين هنا؟ وهل وقعت المواجهة بينهما هنا؟ في هذه الأثناء، خرج أحدُ الجيران من بيته يتسوّق. جميلة بو باشا كانت هناك. فكّرنا أيضاً في كلّ المجهولين الذين تركوا حياتهم هنا أو جزءاً من ذواتهم خلال التّعذيب.

عندما كان جلّاده يقتاده إلى الشّرفة، تعرّف هنري علّاق إلى المبنى الذي قُتل فيه صاحبه علي بومنجل. هنري علّاق هو الذي أعطاني الشهادة الأثرى والأكثر إثارة حول بومنجل. وصلْنا إلى أعلى الدرَج. انفتح أمامنا باب السطح.

المشهد رائعٌ من كلّ الجهات، والمنظر نحو الأسفل يثير الصّداع. ليس هناك سور ولا جدارٌ للشّرفة. من الجهة الأولى شارعٌ على خوجة ومحالّه التجاريّة ومنه تتصاعد أصوات نهاية النهار. ومن الجهة الأخرى، الساحة. من أيّ جهةٍ سقط بومنجل؟

شرح ضابط الشرطة العَدليّة الذي وصل إلى المكان بعد وقت قصير من الحادث في تقرير:

> في هذا اليوم أخرِج من سجن الفوج التاسع عشَرَ للهندسة لكي يُعرض على النّيابة العامّة بعد الظهر. عند اقتياده تحت الحراسة إلى مكتب الاستعلامات لإجراءِ الاستجواب الأخير، هرب فجأةً وألقى بنفسه نحو الفراغ من ارتفاع ١٥ متراً. سقط في أرض السّاحة المبلّطة وتُوفّي فوراً على أثر رضوضٍ شديدة في الجُمجُمة[٣].

من جهة الساحة إذن، أين يلعب الأطفال اليوم وأين سقى رجلٌ نبتاته؟ هل هذا هو المكان حيث مات علي بومنجل؟ في هذه الجَهة، لا نرى البحر بل الجبال. نجلس على حافّة السطح صامتين. لقد انتهيتُ من كتابة كتابي منذ سنوات، وبإمكاني أن أسمح لنفسي برؤيةِ أشباحي.

لو كانت لبومنجل لحظة وعيٍ فقط على هذه الشرفة قبل أن يُصرَع، لكان قد نظر إلىً هذه الجبال.

٣ المرجع نفسه.

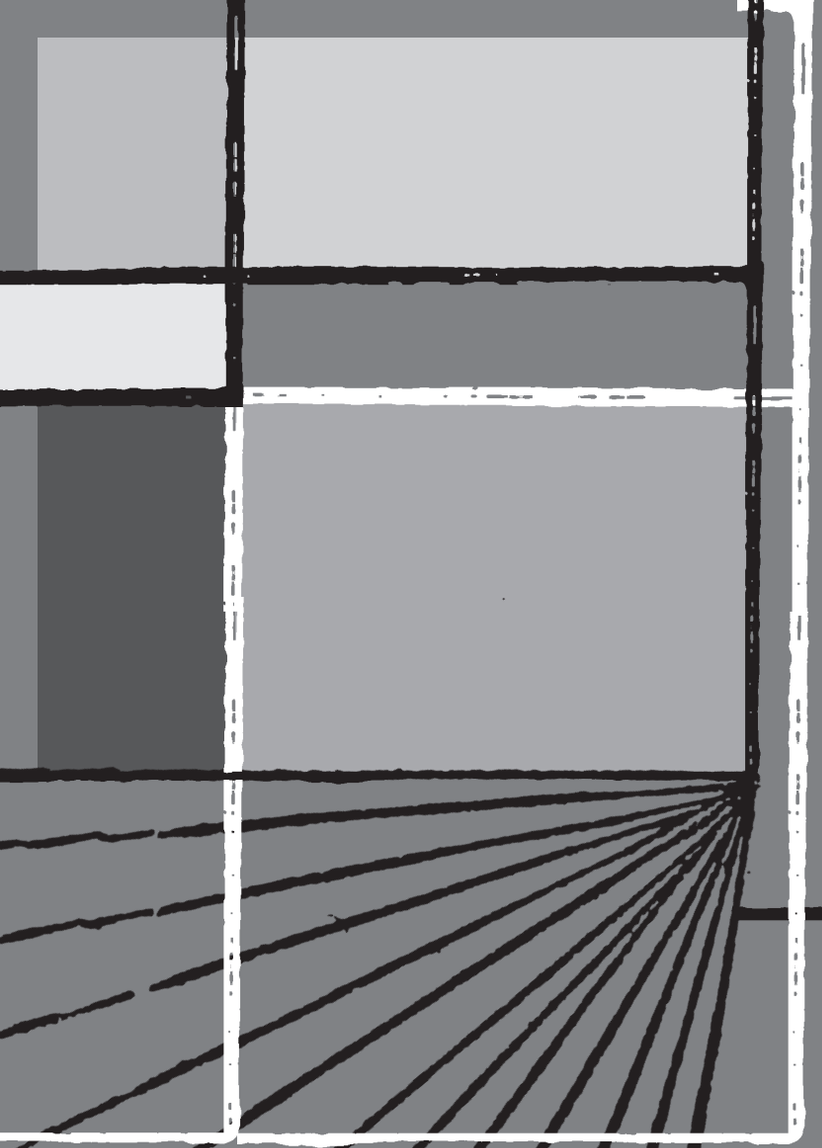

تيهاظو

٩٦ **تصوّرات عربيّة لاتفاقيّة سايكس-پيكو**
الوحدة المقدّسة ورُهاب التقسيم
فوّاز طرابلسي

١٠٩ **مقاولات الأكاديميا من الباطن**
صناعة الأبحاث الخارجيّة في المملكة المتّحدة
ميسون سكرية

١١٩ **الغرق بين ضفتَين**
اسلامٌ هنا واسلامٌ هناك
سحر مندور

١٢٢ **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**
آلاء التنّير

تصوّرات عربيّة لاتفاقيّة سايكس-بيكو
الوحدة المقدّسة ورُهاب التقسيم

فوّاز طرابلسي

مؤرّخ وكاتب، لبنان. فصل من كتاب يصدر قريباً عن دار رياض الرّيس للكتب والنشر.

وثيقة عجائبيّة وعابرة للزمن

شاءت صدفة تاريخيّة أن تتزامن ثلاثة أحداث: ذكرى مئويّة اتفاقيّة سايكس-بيكو (١٩١٦) وذكرى مئويّة إعلان بلفور (١٩١٧) مع احتلال تنظيم داعش مدينة الموصل وتدفّق مسلّحيه عبر الحدود العراقيّة - السوريّة لاحتلال مواقع عديدة داخل سورية. حينها، أعلن أبو بكر البغدادي أنّ تنظيم داعش قد كسر حدود اتفاقيّة سايكس-بيكو ووحّد العراق والشام، ما استوجب الانتقال من الدولة إلى الخلافة.

تضافرت المناسبات الثلاث على إطلاق فيضٍ من الكتابات الاسترجاعيّة عن اتفاقيّة سايكس-بيكو مترافقةً مع توقّعاتٍ حول مصيرها ومصير المنطقة. دارت التوقّعات الكارثيّة مدار الأفدح: عادت «لعنة سايكس-بيكو»، كما يسمّيها وليد جنبلاط. في الوقت ذاته كانت «اللعنةُ» تعلن نهاية سايكس-بيكو... اللعنة. واللعنة عليها، على كلّ حال، لأنّ خريطة سايكس-بيكو هي «الخريطة التي خرّبت الشرق الأوسط».

لم يخطر في بال كثيرين أنّه إذا كان الموضوع خرق حدود فالحدود السوريّة - العراقيّة مثقوبةٌ مثل مصفاةٍ منذ الغزو الأميركيّ للعراق، حتى لا نذهب أبعد من ذلك. ولا خطر في بال كثيرين أنّ دولة أبو بكر البغدادي قد لا تعمّر، وأنّ داعش قد يُهزم ويجري إخراجه من المدن التي احتلّها على الأقلّ. بل ذهب بعض المعلّقين البراغماتيّين الأميركيّين في تصديقهم أنّ دولةً جديدةً قد وُلدت، بعد نهاية سايكس-بيكو، بحيث يفيد البحث في التعامل معها. منذ زمن ليس بالقريب، انتقلت اتفاقيّة العام ١٩١٦ إلى مستوى الاستعارة بل الأسطورة ذات المفاعيل العجائبيّة المستمرّة منذ قرن ونيّف.

كان يكفي لخبر، لحادثة، لذكرى، لإطلاق الوساوس بخرائط و«مشاريع» وخوافات عن مشاريعَ حاملة التقسيم والتفتيت وعظائم الأمور.

في تزويج وثيقتين

«مات سايكس-بيكو! تعيش إسرائيل!» صاح روبرت فيسك على الطريقة المَلكيّة البريطانيّة «مات الملك! عاش الملك!». مات في سنيه المائة، ومعه التقسيم القديم للشرق الأوسط. والبقاء لإسرائيل. لكنّنا مدعوون لانتظار التقسيم الجديد. ولمّا كانت توقّعات الصحافيّين، والمحلّلين الستراتيجيّين، عادةً ما لا تكون مشمولةً بالمساءلة أو المحاسبة، فنحن لا نزال ننتظر.

هذا المشروع المندغم أو المزدوج هو الذي يسمّيه الصحافيّ طلال سلمان «سايكس-بيكو الإسرائيلي»! وقد زُوّجتْ اتفاقيّة سايكس-بيكو، بما هي وثيقة تقسيم، بإعلان بلفور، بما هو وثيقة النكبة الفلسطينيّة وقيام دولة إسرائيل. وتكاثرت الاحتفالات بهذا القران. فإعلان بلفور إمّا أنّه أتى «في مجرى سايكس-بيكو» وإمّا أنّه استكمالٌ لسايكس-بيكو بما هو عمليّة التقسيم، فيصير فصل فلسطين عن سورية الكبرى تقسيماً وقرار تقسيم فلسطين العام ١٩٤٧ بين دولتين عربيّة ويهوديّة تقسيماً، وتأسيس دولة إسرائيل الذروة في تلك العمليّة، على اعتبارها وليدة التقسيم وأهمّ ما في التقسيم الإسرائيليّ أنّه حامل مشروع تقسيم التقسيم، أي خلق كياناتٍ دينيّة مذهبيّة عرقيّة على «شاكلة إسرائيل ومثالها»، حسب التعبير الدارج، غرضها تبرير وجود الدولة اليهوديّة، وتخضع لها.

ثمّ إنّ الذكرى التاريخيّة كانت مناسبةً لإعادة التذكير بأنّ رسالةً على ورق من ٦٧ كلمة مرقّنة على آلةٍ كاتبة هي المسؤولة الأولى عن نكبة فلسطين. لم تكذّب تيريزا

ماي خبراً. أحيت رئيسة وزراء بريطانيا ذكرى قيام دولة إسرائيل بإعلانها أنّ إسرائيل «بلدٌ وُلِد من رسالة». وردّاً على مطالبةٍ من أوساط فلسطينيّةٍ وعربيّة وبريطانيّة بأنْ تعتذر بريطانيا رسميّاً عن تلك الرسالة، أجابت ماي بأنّ بريطانيا تفتخر بإعلان بلفور وإن تكن تعتقد أن بريطانيا لم تبذل ما يكفي من المساعي لتحقيق «الحقوق الدينيّة والمدنيّة» للفلسطينيّين، واسمهم الرسمي في الرسالة «الجماعات غير اليهوديّة».

اللافت في طلب الاعتذار الرسميّ البريطانيّ أنّه يطالب بالاعتذار عن رسالةٍ صدرت العام ١٩١٧. لم يطلب اعتذاراً من بريطانيا، ولو من قبيل الدعاية، عن احتلالها لفلسطين في العام ذاته، ولا عن دورها في تشجيع الهجرة اليهوديّة ومنع إنشاء مؤسّساتٍ تمثيليةٍ للفلسطينيّين وقمع ثوراتهم الشعبيّة، ولا خطر بالبال مطالبتها بالاعتذار عن تشجيع وتدريب وتسليح المليشيات الصهيونيّة المسلّحة ضدّ الفلسطينيّين، واتّخاذها قرار تقسيم فلسطين العام ١٩٤٧، وتواطؤها على تنفيذ المليشيات الصهيونيّة «خطّة داليت» التهجيريّة، ثمّ الانسحاب وتسليم أبرز المواقع العسكريّة لجيش «الهاغانا» والتنظيمات العسكريّة الصهيونيّة الأخرى. لا، في عصر بعد الحداثة، وبعد الكولونياليّة، كان المطلب هو صدور اعتذار رسميّ بريطانيّ عن رسالة جيمس بلفور إلى اللورد روتشايلد! وهو من مثل مادّة تصريح تيريزا ماي: اذا كانتْ رسالة قد بنَتْ أمّةً ودولة، يكون الاعتذار عن الرسالة معادلاً لإزالة الأمّة ودولتها! أو، على الأقلّ، نزع الاعتراف بها!

بلغ الاحتفال بتزويج سايكس-پيكو من بلفور أنّه خُلّدَ في «كوبليه» من غناء مارسيل خليفة:

«قسّمونا بيكو وشريكو / وخَلَقو الدولة الصهيونيّة».

تقاسيم على التقسيم

ترافقتْ زحمة الاستدعاءات لسايكس-پيكو مع صعود نغمة جنائزيّةٍ تقول بـ«تقسيم المقسّم»، مدفوعة بالادّعاء ذاته أنّ المرء يكشف سرّاً ويفضح تواطؤاً. رئيس مجلس النّواب اللبنانيّ، نبيه برّي، في لقاءٍ مع علي لاريجاني، رئيس مجلس الشورى الإيرانيّ، يعلّق على احتلال داعش للموصل بالإقرار الذي يعتبره بديهيّاً بتحصيل الحاصل واستشراف نتيجته الحتميّة: «ها هو سايكس-پيكو ينتهي بين العراق وسورية والتركيز الآن على إنهائه بين سورية ولبنان وسورية وفلسطين». أي أنّ إلغاء داعش للحدود بين العراق وسورية بات أمراً واقعاً والآتي أعظم: جاء دور الحلقتين اللبنانيّة والسوريّة. (الأخبار، تشرين الأوّل / ١٤ أكتوبر ٢٠١٤) وهو غريب حقّاً أنْ يتخوّف أحد أكبر أصدقاء النّظام السوريّ بين السياسيّين اللبنانيّين من إزالة الحدود بين لبنان وسورية وفلسطين على اعتبارها مؤامرة للمشروع الأميركيّ - الإسرائيليّ لتقسيم المقسّم في المنطقة.

وقد يصل التقسيم إلى طور التمزيق، خصوصاً عندما تكون جثّة اتفاقيّة سايكس-پيكو على الطاولة قرباناً لعقد مصالحةٍ حَرجة. في إحدى مبادرات المصالحة المبكرة بين حزب الله والعسكر المصريّين، مطلع الانتفاضات العربيّة (صحافة ٢ / ٩ / ٢٠١١) زار حسن عزّ الدين، مسؤول العلاقات العربيّة في الحزب، القاهرةَ والتقى شيخ الأزهر، الدكتور أحمد الطيب، واتّفقا على أنّ دور إسرائيل هو «تمزيق الأمّة». وخلال زيارة الوفد اللبنانيّ لمصر، التي استغرقتْ عشرة أيّام، سمعتْ القيادات المصريّة حديثاً مطوّلاً عن «محاولات استغلال الثغرات القائمة [في الأوضاع العربيّة] من قبَل الخارج الذي يسعى اليوم إلى سايكس پيكو جديدة».

الوله بالخرائط والوهم الخرائطيّ

الخريطة أداة استعماريّة بامتياز. إنّها إعلان الاستيلاء على الأرض بتسويرها من مستعمِرٍ آخر يروم الاستيلاء عليها. ليست الخرائط بجديدة في أدوار الفصل والتمييز، لكنْ في عصر الاستعمار لا يمكن فصل الخريطة عن وظيفتها العسكريّة، أي عن الاحتلال والقسر واستخدام القوّة والعنف. وليس من قبيل الصدفة أنّ معظم الشخصيّات المخابراتيّة البريطانيّة خرائطيّون: لورنس، سايكس، غرترود بل، نيوكومب، إلخ.

يبدأ العجب عندما تعطى الخريطة والخرائطيّ المفاعيل الإعجازيّة. كأن تقرأ مثلاً أنّ غرترود بِل «رسمتْ خريطة الشرق الأوسط» (الأخبار، ٢٢ أيلول / سبتمبر) أو أنّ مارك سايكس هو «الرجل الذي خلق الشرق الأوسط» حسب عنوان آخر سيرته.

والولَه بالخرائط وثيق الصَلة بالتفسير الجغرافيَ للتَاريخ: الإيحاء باللازمنيَة والطبيعيَة، أو التّأكيد على الأقلّ أنّ الزّمن يكرّر نفسه ما دامت عناصر الطبيعة ثابتة راسخة. وغالباً ما ترتبط حدود الخريطة بعنصرٍ جغرافيّ: مجرى مياه أو سلسلة جبال أو صحراء، على افتراض أنّ الحاجز الجغرافيّ أو الطبيعيّ يحجز فعلاً. وتنْبني على الحواجز الجغرافيّة ألوانٌ مختلفة من الموانع

والحواجز والأهمّ ما يتشكّل من أنواع التمييز الثقافيّ والعنصريّ والتّراتب الحضاريّ تختصّ به جماعات أو شعوب دون أخرى. في التصوّرات الخرائطيّة في المشرق، مثلاً، شكّلت الصحراء حاجزاً طبيعيّاً يصهر داخله القحطَ والانغلاق، في مقابل الحريّة والانفتاح والانطلاق المنسوبة إلى البحر، كما في الفكر اليمينيّ الاستعلائيّ اللبنانيّ (انظر: طرابلسي، ١٩٩٩). وفي تخصيص العناصر والتضاريس الجغرافيّة بصفاتٍ بشريّة، يُنسب إلى الجبل مثلاً الإباء والشجاعة والتسامي، إلخ. مع العلم أنّ الصحراء المعنيّة شبكة من طرق مواصلات سمّيت «بحر» عند العرب تخترمها شبكاتٌ من الطرق والمسالك والممرّات ربطتْ بين شعوبه ومناطقه ودوَله عبر التاريخ ونظّمت إيقاع حياتها.

تكاد اتفاقية سايكس – بيكو، وملحقها البلفوري، تتلخص بجملة ناقصة: تجزئة المنطقة. والتجزئة مساس بالوحدة المقدسة. هي وحدة الأمة. بمحمولها الديني والقومي. وقد تعرضت للانتهاك. وانتهـــــــاك الوحدة هو المعادل للفتنة. وما أدراك ما الفتنة!

تسرّبت الخرائطيّة إلى الفكر العربيّ، بما فيه القوميّ واليساريّ، مع خريطة سايكس-بيكو حتى باتت الخرائطيّة الجيوسياسيّة والجيواستراتيجيّة عِلماً بذاتهما. القسم الأكبر من الجيواستراتيجيا يكاد أن يختزل بتوقّعاتٍ حول الخرائط: نهاية خرائط، رسم خرائط جديدة، أو عودة خرائط قديمة. هناك دوماً مَن يريد رسم خرائط جديدة للمنطقة. يعد تخصيص فاعلين كولونياليّين من فترة التكوين، بات الرسّام مجهولاً لكنّه جبّار القدرة. ذلك أنّ البناء على مجهول جزءٌ من قوّة «المشروع» الذي لا يحتاج إلى أدلّة. زبدة الفكر الجيواستراتيجي العربيّ، الذي تقرأه في عجالات الصحافة اليوميّة أو على التلفزة فضلاً عن وسائل الاتصال الاجتماعيّة، هو التساؤل عمّا ستكونه معالم الخريطة الجديدة. لكنّك تعرف أنّ مهما تكن الحدود والتقسيمات، فإن «إعادة رسم الخريطة» له معنى واحد هو إعادة تجزئة الخريطة على أساس أصغر المكوّنات البشريّة: العشيرة والدّين والطائفة والإثنيّة، إلخ.

وإنّه لمعبّر فعلاً أن يكون لإعادة رسم الخريطة مدلولٌ أوحد هو التمثيل بجسم الأمّة. فقد سُمّيت الخريطة «الجسم الجغرافيّ للأمّة» (Kaufman، ٢٠١٥) بحيث تبدو كلّ إعادة نظر بالخريطة على أنّها تمثيلٌ في جسم الأمّة. لن نفصّل في هذا الموضوع الآن فسوف يمرّ علينا لماماً خلال الصفحات التالية.

قداسة الوحدة ورُهاب التقسيم

تكاد اتفاقيّة سايكس-بيكو، وملحقها البلفوري، تتلخّص بجملةٍ ناقصة: تجزئة المنطقة. والتجزئة مساسٌ بالوحدة المقدّسة، هي وحدة الأمّة، بمحمولها الدينيّ والقوميّ، وقد تعرّضت للانتهاك. وانتهاك الوحدة هو المعادل للفتنة. وما أدراك ما الفتنة!

في أصل كلّ خريطةٍ فكرةُ الفصل والتمييز بالخطّ. الخطّ يضع حدّاً للفوضى: الله فصَل السماء عن الأرض. ومنذ الأشكال الأولى للحياة البشريّة والجماعات تعيش داخل حَومةٍ أو دِيرة مرسومة ومميّزة الحدود في وجه الخارج. «حيثما يوجد مقدّس، توجد حَومة وحيثما توجد حومة توجد حياة»، يقول ريجيس دوبريه في نصٍّ لامع عن الحدود (Debray، ٢٠١٠ : ٣٦) على أنّ الحومة سابقة على المقدّس بحيث يمكن عكس الصيغة والقول: حيث ترتسم حَومة أو دِيرة يبدأ المقدّس. وحيث يوجد مقدّس، ينشأ التّحليل والتّحريم.

المحمول الدينيّ والقوميّ جوهريٌّ في موضوع الوحدة والانقسام. عندما يُستنزل التوحيد على الأرض، يصير الشرك والكفر هما المعادل للقبول بالتعدّد، أي أنّه انتهاك للوحدانيّة. ومثله حال الوحدة القوميّة. فكلّ تعدّدٍ، كلّ معارضةٍ، كلّ تراتبٍ اجتماعيّ، كلّ صراع، بل تحزب، انتهاك للوحدة أي تجزئة للأمّة. ومَن تحزّب خان، كما في كتاب القذّافي الأخضر. وما دمنا في النطاق القوميّ، حيث الالتحام العضويّ بين الوحدة والقوّة العسكريّة، تكتسب الخيانة بُعداً وطنيّاً يعاقب بأقسى العقوبات وصولاً للقتل. وحتى لو كان الضّعف معنويّاً، يبقى عرضةً لعقوبةٍ جزاء إدخاله الوهنَ إلى معنويّات الأمّة. القسمة والتجزئة مبعثٌ للفتنة. والفتنة نائمةٌ في صلب كلّ وحدة. من هنا التحذير الدائم من إيقاظها. ومثلها، فالخطيئة والذنب والمعصية تسكن في صميم المؤمن.

لجأ الصحافيّ سعد محيو إلى المقدّس لدراسته الخرائطيّة. عاد إلى الأصل الفقهيّ والفلسفيّ للتّوحيد عند الصوفيّين وقولهم «الحقيقة الحقيقة تكمن في الكلّ والوحدة. لا في التجزّؤ أو الفرديّة» («خرائط سايكس-بيكو ٢»، مجلة الآداب، ٢٣ / ٦ / ٢٠١٦). المَشرق مُستهدف، يقول محيو، يكفي أنّه «الحديقة الخلفيّة»



لدول النّفط. ولا حاجة للّجوء إلى فكرة المؤامرة، يمكن الاستعاضة عنها بـ«المشروع». أمام أزمةٍ نفطيّة خطيرة، وفي غياب «المشروع الحداثيّ إيّاه»، «لن يكون صعباً على المخطِّطين والأميركيّين، ومعهم بعض العرب، العملُ على إعادة رسم الخرائط الاقتصاديّة والجغرافيّة في الهلال الخصيب وأبرزها إقامة الكونفدراليّات الجغرافيّة في المشرق بمشاركة إسرائيل». هذا قبل أن يعيد هؤلاء تركيبها إلى مكوّناتها القبَليّة والعشائريّة والطائفيّة. وإعادة رسم الخرائط عند محيو هو إذاً المعادل لانتهاك الوحدة المقدّسة. والبلد الأكثر تهديداً هو العراق، والكلام من وحي احتلال داعش الموصلَ ونحو ثلث البلاد. وأدلّة محيو على ذلك الاستشهاد بعددٍ من الآراء والمقترحات لكتّاب وصحافيّين إسرائيليّين وأميركيّين. حتى أنّ محيو يكتشف أنّ الأردن قد يكون مكلّفاً، وفق ذاك المشروع التفتيتيّ، بإدارة العشائر العربيّة «بعد انهيار القوميّة العربيّة العلمانيّة». هكذا، ليكون الحديث عن التفتيت دقيقاً.

و«المشروع» ليس بجديد. قام مع برنارد لويس وتواصَلَ مع هنتنغتن والمحافظين الجدد، كما يُعْلمنا محيو، والمخطّط سابقٌ على ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١ ويتلخّص في فرض الديمقراطيّة على العالم العربيّ. هنا تبدأ التّداعيات. أزمة نفطٍ تستدعي إعادة رسم خرائط المنطقة وإقامة كونفدراليّات، و«مشروع» إقامة الكونفدراليّات يذهب بك إلى «مشروع» فرض الديمقراطيّة بالقوّة من الخارج. على أنّ ثمّة ما يجمعها جميعاً: انتهاك الوحدة المقدّسة. فإعادة رسم الخرائط هو باتّجاه التقسيم طبعاً، والكونفدراليّة تقسيم، والديمقراطيّة تعدّد، أي أنّها تقسيمٌ ما دامت تُجزّئ الوحدة.

المؤامـــــــــــــــرة هي لقاء طرفين أو أكثر لتدبير أمر ما ضد طرف آخر على غير علمه. بغض النظر عما اذا كان التدبير موثقا أو غير موثق. ما أكثر المؤامرات في التاريخ وفي السياسة. وما أكثرها في تاريخنا. بهذا المعنى ثمة ضرورة حاسمة للتمييز بين «نظرية المؤامرة» والمؤامـــــــــــــــرة.

ولا حاجة في كلّ هذه اللوحة النبوئيّة إلى أدلّة: الأمر معروفٌ وبديهيّ يفسّر نفسه بنفسه: المشروع مشروع وهو أميركيّ بمشاركة إسرائيليّة - والمشاركة الإسرائيليّة بديهيّة، فهذه ابنة التقسيم وأمّه ومُرضعته. أمّا المستحدَث فهو فرض الديمقراطيّة وقد وفد مع «الربيع العربيّ» وإن تكن مآلاته ونتائجه مرصودة أصلاً.

ما الجواب على هذا المشروع النفطيّ - الكونفدراليّ - الديمقراطيّ - الأميركيّ - الإسرائيليّ - التفتيتيّ؟ الجواب هو «قوميّة عربيّة جديدة» هي «نقيض المفهوم القديم» (على اعتبار أنّ هذا معروف) قوامها الديمقراطيّة الكاملة (وفهمنا كفاية في تميّزها عن تلك التي يسعى «المشروع» إلى فرضها علينا). وهذه الديمقراطيّة تحلّ بديلاً من الدكتاتوريّة المطلقة، وتُحِلّ سيادة القانون بدل المافيات العصبيّة الطائفيّة والعشائرية، وتحقّق المساواة بين حقوق الفرد وحقوق الأمّة، والقبول بالتعدديّة الوطنيّة والاعتراف بسيادة الدولة القُطريّة، وابتكار «حلول حضاريّة» لمسألة الأقلّيّات، كلّ الأقليّات.

وعلى الرّغم من كلّ هذا التضخّم القوميّ المنتفخ، لا يرمي النصّ مسألة الاتّحاد العربيّ أو الوحدة العربيّة ولو بوردة ... صوفيّة! المشروع هو الجواب النّاجع على ... «المشروع». ونبقى ننتظر صاحب المشروع الجديد ليشرح لنا كيف يمكن قهر «مشروع» قائم على الكونفدراليّة والديمقراطيّة بمشروع قوميٍّ عربيٍّ حداثيٍّ جديدٍ يقوم على الديمقراطيّة والاعتراف بالكيانات القطريّة (وليدة التجزئة المرذولة، راسمة الخرائط) بل كيف يمكن للمشروع الحداثيّ الديمقراطيّ ذي الحلول الحضاريّة لمسألة الأقليّات لسعد محيو ألّا يتضمّن أشكالاً وصيَغاً من الحكم الذاتيّ والكونفدراليّة أو الفدراليّة أو حتى الحقّ في تقرير المصير؟!

هنا نلتقي أوّل مواضيعنا: الوحدة بما هي مقدّس، مضادّة للتعدّد. في التعبير السياسيّ يولد التماهي بين الوحدة والمركزيّة، أي الدولة المركزيّة، ولا حاجة إلى التّداعي لنصل إلى التماهي بين الدولة المركزيّة والسلطة المركزيّة الاستبداديّة، على اعتبار أنّ الوحدة تعادل القوّة. وكلّ صيغة تنتقص من الوحدة المركزيّة - الاستبداديّة توهن عزيمة الأمّة، وتسير حكماً نحو التقسيم أي الضعف أمام العدوّ.

المؤامرة ... المعلنة!

قبل أن نغادر مفردة «مؤامرة» لأنّ الحصفاء من دارسي المؤامرات يتنازلون على المصطلح من قبيل التذاكي وادعاء الموضوعيّة وقد بات تهمةً لدى الأكاديميّين الغربيّين، ما اقتضى التهيّب من استخدامه تفادياً لاستنزال تهمة اللاعلميّ وإن يكن بديله - «المشروع» - يحمل كلّ صفات المؤامرة إلّا الاسم. المؤامرة هي

لقاء طرفين أو أكثر لتدبير أمرٍ ما ضدّ طرفٍ آخر على غير علمه. بغضّ النظر عمّا إذا كان التدبير موثّقاً أو غير موثّقٍ. ما أكثر المؤامرات في التاريخ وفي السياسة. وما أكثرها في تاريخنا. بهذا المعنى ثمّة ضرورة حاسمة للتمييز بين «نظريّة المؤامرة» والمؤامرة، بين القدرة على رصد وتقدير خطط واستراتيجيّات لاعبين أساسيين، في منطقة ما أو خصوم أو أعداء، وبين نظرة للحياة على أنّها محكومة بقوى غاشمة خفيّة، حيث لا شيء متروك للصدفة، ولا شيء يبدو كما هو، وثمّة وشائج خفيّة دائمة بين الأحداث والأشياء. والكلّ ضمن نظامٍ مغلق إيمانيّ يأبى الدليل والبرهان.

يبدو أنّ الهوَس بالمؤامرات والمشاريع يجعلها من نوعين: توجد مؤامرة سرّية، و مؤامرة معلنة، أي مؤامرة هي نقيض المؤامرة التي تحاك تعريفاً في السرّ. هذه الأخيرة لا تجري في الخفاء بل هي صريحة جهاراً نهاراً ومع ذلك فهي مؤامرة. أمّا لماذا تبقى مؤامرة فهذا ما يبلغنا به ساطع نور الدين، رئيس تحرير جريدة «المدن» الإلكترونيّة، إذ يتّهم الفدراليّة الكرديّة في سورية بأنّها «مؤامرة معلنة» («فدراليّة سوريّة: المؤامرة المعلنة»، المدن، ١١ / ٣ / ٢٠١٦) وهي مؤامرة تقسيم طبعاً، إلّا أنّ الكاتب يستدرك قائلاً «لعلّ الفدراليّة مخرجٌ عفويٌّ وفوريّ من المذابح، لكنّها ليست حائلاً دون التقسيم الذي يهدف كما يبدو إلى تخفيف العبء عن الأميركيّين والروس». تلقى هذه الجملة الملغّزة تفسيرها ببساطة في اعتبار أنّ العلنيّة إنّما هي دعوة للفدراليّة لا تلبث أن تسهم في التقسيم، وحتى لو أنّ الفدراليّة الكرديّة عفويّة ومحاولة للخروج من المذابح، تبقى مساهمة في التقسيم (أي الفتنة) على اعتبار أنّ كلّ ما هو غير حكم مركزيّ (وبالتالي استبداديّ بالضرورة) يعادل التقسيم والتقسيم يخدم الأميركيّين والروس على حدٍّ سواء (وهنا الإدغام). وهذا لونٌ آخر جديد من المؤامرات، معلن وليس مدبّراً ويمكن فهم اعتباراته، وإن يكن يخدم قوىً خارجيّة، ومع ذلك فهو مؤامرة.

ويستمرّ الحديث عن الاتفاقيّة بما هي اتّفاقيّة بعد أن تنكشف. إلى الآن لا يزال يجري الحديث غالباً عن سايكس-بيكو، بعد أكثر من قرن، على أنّها اتفاقيّة سرّيّة. سننظر في الفصول اللاحقة في أمر السرّيّة هذا: على من كانت الاتّفاقيّة سرّية وإلى متى ظلّت سرّية عموماً. وللمناسبة، يجوز التساؤل إزاء هذا الحديث الواثق، القطعيّ، عن النّصّ العتيد، وخريطته، عمّا إذا كان أصحابه قد تجشّموا ولو عناء قراءة الاتّفاقيّة أصلاً. أم تراهم يعتقدون أنّها لا تزال... سرّيّة؟!

كشف المؤامرة بما هو نبوءة

النائب اللبناني ريمون إدّه، من أوائل المبشّرين بتقسيم المنطقة والأحرى إعادة تقسيمها. مطلع الحرب الأهليّة، صرّح عميد «حزب الكتلة الوطنيّة» لأحد أنصاره هاتفيّاً من منفاهُ الباريسيّ «التقسيم سيتمّ وإنّ الجنوب سيكون من نصيب إسرائيل، فيما جبل لبنان للمسيحيّين والمناطق الأخرى للأطراف الأخرى». ويروي في حديث إلى وكالة الأنباء الفرنسيّة أنّه ذهب إلى الولايات المتّحدة ليتعرّف «على وجه الدقّة على ما يجري هناك» فتأكّدتْ مخاوفه عن وجود مشاريع تقسيميّة.

طريفٌ أن نستشهد بريمون إدّه وهو من حيث المبدأ من أشدّ السياسيّين اللبنانيّين تمسّكاً باتّفاقيّة سايكس-بيكو، على الأقلّ بجانبها الذي قضى بفصل لبنان عن سائر سورية. نسَبَ العميد إدّه مشروع التقسيم إلى إسرائيل ولكنّه لم يستثْنِ الأميركيّين، إذ اكتشف أنّ أوساطاً في نيويورك لها مصلحة في القضاء على المكانة الماليّة لبيروت، «لكي تمتصّ جزءاً كبيراً من الدولارات التي ستتدفّق على المنطقة في صورة عوائد للبترول». نحن في السبعينيّات والإشارة هي إلى الفَورة النفطيّة العالميّة. ويمضي تفصيلاً في مشروع تقسيم لبنان: «طرابلس وشمال لبنان سينضمّان إلى سورية ليشكّلا جزءاً من الدولة العلويّة المستقبليّة». أمّا ما تبقّى من لبنان فسوف يشطّر إلى شطرين يفصل بينهما طريق بيروت - دمشق، جنوباً، دولة للمسلمين والدروز بالإضافة إلى الفلسطينيّين. وشمالاً دولة المسيحيّين. وينقسم البقاع بدوره بين لبنان وسورية. وتكون بيروت العاصمة الاتحاديّة للبنان أو تصبح مدينةً حرّة. وأفاد إدّه بأنّ سورية ذاتها سوف تقسّم إلى ثلاث دول: علويّة وسنّيّة ودرزيّة. غنيّ عن لفت النظر إلى أنّ هذا التوقّع سوف يتكرّر إلى ما لا نهاية مع بدء الأزمة الدمويّة السوريّة وبكلّ النبرات الحاسمة اليقينيّة.

يختم إدّه بتكرار التعويذة إيّاها التي يقوم عليها النظام اللبنانيّ: التعايش الطائفيّ مفتاح ظهور المعجزة الاقتصاديّة، فيكرّر تصميمه على التعايش بين المسلمين والمسيحيّين «ومن أجل أن تعود إلى بيروت تلك المكانة الماليّة التي وصلتْ إليها والتي يهمّ كلّ الدول العربيّة أن تحافظ عليها. كلّ ذلك لاعتقادي بأنّ وجود لبنان

مسيحيٍّ صغير غير قادر على البقاء» («إدّه باقٍ على تشاؤمه... وفي باريس: تقسيم لبنان مقدّمة لتقسيم سورية والعراق ودول أخرى»، السفير، ٢٨ كانون الأوّل / ديسمبر ١٩٧٥).

كل نظرية مؤامرة تنطلق من واقع أو لا بد من أن تنطوي على عنصر حقيقي. حدث. تطور. رواية.

توفّي العميد إدّه قبل أن تتحقّق نبوءاته. بعد أربعة عقود ونيّف عل نبوءته، كم يلزم من الوقت لنعلن أنّ العميد ريمون إدّه أخطأ في توقّعاته؟ وربّما لنتساءل لماذا لم تَصدق نبوءته؟

ملاحظة ليستْ على الهامش: كلّ نظريّة مؤامرة تنطلق من واقع أو لا بدّ من أن تنطوي على عنصرٍ حقيقيٍّ، حدث، تطوّر، رواية، إلخ. لمّح العميد إدّه إلى موضوع حقيقيٍّ في نظريّته عن المؤامرة: الفورة النفطيّة مطلع السبعينيّات. إذاً، مؤامرة التّقسيم غرَضُها منع لبنان من أن يفيد منها. هنا التقسيم وسيلة. الغريب هو التماثل في العلاقة بين نفط / تقسيم عند إدّه ونفط / كونفدراليّة، المعادلة للتقسيم، عند سعد محيو.

مخاتلات المشاريع

الفكر الكاشف للمؤامرات فكرٌ يتحايل على مكْر، إذ لا مؤامرة جيّدة من دون مكر، على قولة صادق العظم في نصٍّ حاذق عن الاستشراق والمؤامرة. كاشف المشاريع هو الرآئي في ما وراء الظاهر، يستشرف مسقبلاً قيد الإعداد، ينسُل القطبةَ المخفيّة في نسيجٍ مُحكم، إلخ. ويزداد المكر مراوغةً عندما يستبطن أكثر من طبقة من المكر. حتى إنّ كاشف المؤامرات، عفواً «المشاريع»، لا تنطبق عليه قولة «جلّ من لا يخطئ» لأنّه يخطئ دوماً.

معلّم الصحافة العربيّة الأستاذ محمّد حسنين هيكل صاحب باع طويل في كشف مخاتلة «المشاريع». في مقابلة مع الأهرام (٢٥ / ٥ / ٢٠١٥) يبلغك أنّ ما تظنّه «ربيعاً عربيّاً» - أي حركات شعبيّة شملت ستّة بلدان عربيّة نادتْ بالحرّيّة والعدالة الاجتماعيّة والكرامة الإنسانيّة - إن هو إلّا «سايكس-بيكو جديد» لتقسيم المنطقة وتقاسم مواردها والمواقع. وقد اكتشف هيكل لا مشروعاً واحداً بل ثلاثة مشاريع ونصف المشروع سلّمها «الربيعُ العربيّ» مفاتيح المنطقة. «نصف المشروع إسرائيليّ» وغرَضه إجهاض القضيّة الفلسطينيّة. على فداحة ما يستتبعه يبقى «نصف مشروع».

المشروع الأوّل المتكامل هو مشروعٌ غربيّ - أميركيّ - أوروبيٌّ يروم إغراق المنطقة في صراع سنّيّ - شيعيّ. ويتجلّى في التشجيع الأوروبيّ - الأميركيّ لتنظيمات «الإخوان المسلمين» وإحياء اقتراحات برنارد لويس باستبدال الصراع في المنطقة من صراع عربيٍّ - إسرائيليٍّ إلى صراع عربيٍّ - فارسيّ. وأوّل ما سوف يجري تقسيمه لا العراقَ بل نفط العراق، مع أنّ هيكل لا يفيدنا بين مَن ومّن سوف تكون القسمة.

والمشروع الثّاني مشروعٌ عثمانيٌّ - تركيّ. يصف هيكل تدخّل تركيّا في سورية بأنّه «مخيف، يصعب تقدير عواقبه». لكنّه يلاحظ أنّ تركيّا التي كانت ضحيّة سايكس بيكو «هي الآن أمام إغراء أن تكون شريكاً في الإرث الجديد بعدما كانت ضحيّته في السابق. مع ذلك، يرى كبير صحافيّي مصر أنّ المشروع العثمانيّ عاجز عن وراثة المشروع القوميّ العربيّ ومَلء الفراغ.

أمّا ثالث المشاريع فمشروعٌ إيرانيٌّ لكنّه محدودٌ في إطاره «لأسبابٍ عديدة تضعها الجغرافية بالمسافات ويضعها التاريخ بالثقافات إلى جانب أنّ هذا المشروع تحت الحصار، وعليه فإنّ استراتيّجيته الآن هي الدّفاع».

يمكن التأمّل مليّاً في دقّة وصواب النّبوءات جميعها مع التوقّف والاستمتاع بنوعٍ خاصٍّ بالحصار المضروب على المشروع الإيرانيّ وطابَعَه الدفاعيّ المتجسّد في الحشد الشعبيّ في العراق، المليشيات الشيعيّة في سورية، ونفوذ حزب الله المتعاظم في لبنان حتى لا نذهب بعيداً فنصل إلى حوثيّي اليمن.

هي صيحةُ جاء الديب! وهو يجيء ولا يجيء كأنّه في مسرحيّةٍ رحبانيّة. وقد يكون الذئب مختبئاً في جرود عرسال. يكفي أن تكتشف جريدة الأخبار اللبنانيّة وجود قوّاتٍ بريطانيّة تعمل مع الجيش اللبنانيّ، وتدرّبه على تقنيّات الاستطلاع على الحدود الشرقيّة، في إطار مساهمة بريطانيا المجازة رسميّاً في «الحرب الكونيّة على الإرهاب» على جبهة الحدود اللبنانيّة - السوريّة، حتى تصيح الجريدة «سايكس حيّ فينا» (١٩ / ٩ / ٢٠١٧) وقد ألقت القبض على السياسيّ البريطانيّ، صاحب المشروع الاستعماريّ ذي القرن، متسلّلاً إلى الجيش اللبنانيّ في حربه الحدوديّة على جبهة النّصرة وتنظيم

داعش، تلك المعركة التي لم يهدأ بعدُ الاحتفال بتمجيد انتصاراتها المدوّية في عمليّة «فجر الجرود» (لا القرود) المعزّزة بالانتصارات الإلهيّة لحزب الله.

وسواس التدبير

من جهته، يعلن حبيب فيّاض أحد إعلاميّي حزب الله اللبنانيّ (السفير، ٢٣ / ٤ / ٢٠١٦) أنّ ما تشهده المنطقة هو استمرارٌ لسايكس-بيكو مع اختلافٍ في الآليّات وحفاظٍ على الأهداف والمكتسبات «ثمّة حروبٌ إقليميّة راهنة تشهدها المنطقة من خلال عناصر وأدوات محليّة، خدمة لمصالح المستعمِرين، وهم بمنأى عن الانخراط الفعليّ فيها».

لا يكتفي فيّاض بالتّجزئة كمشروع مستمرّ، فالحروب الإقليميّة الراهنة «يُراد منها في نهاية المطاف إعادة تفتيت المنطقة من خلال العودة بها إلى أصغر مكوّناتها الدينيّة والمذهبيّة والإثنيّة والقوميّة، وتالياً إعادة تشكيلها بما يضمن الإبقاء على ما أنتجه سايكس-بيكو من مكاسب وامتيازات». لا يفيدنا الكاتب طبعاً ما طبيعة المكاسب والامتيازات، ولا يشرح لنا لماذا الحاجة إلى كلّ هذا التفتيت إذا كانت اتفاقيّة سايكس-بيكو تملك ذلك المقدار من المكاسب والامتيازات.

أمّا إضافة فيّاض المميّزة إلى خصائص «المشروع» فتكمن في ما تجوز تسميته «وسواس التدبير». وكلمة السرّ هنا أنّ الستراتيجيّات التي يكشفها فيّاض أعلاه «مدروسة ومبرمَجة سلفاً». على اعتبار أنّه يجب أن تُعاب شعوبٌ ودول وحكومات وقيادات إن هي خطّطت لما تهدف إليه وصمّمتْ واختارت وسائل تحقيقه وتزوّدت بها. بل إنّ ما يستوجب الإدانة هو أن تضع دولة أو قوة ما عدّة خَطط احتماليّة، حسب الأحوال والظروف، لهذا الهدف أو ذاك من أهدافها الوطنيّة والقوميّة. هل يريد حبيب فيّاض إقناعنا بأنّ العفويّة والفوضى والاعتباط والغموض والـ«تقريباً» والـ«إن شاء الله» هي هي الفضائل والحسنات في التدبير الاستراتيجيّ، حتى لا نقول هي طبائع العرب الأصيلة؟

غريبٌ أمرهم الجيواستراتيجيّون من أبناء جلدتنا. ننتظر منهم أن يكشفوا لنا استراتيجيّات الخصوم والأعداء، «المدروسة والمبرمجة سلفاً» وأن يعدّوا لنا «خططاً مدروسة ومبرمَجة سلفاً» لمواجهتها، فإذا جلّ ما في جعبتهم هو إقناعنا بأنّ الخصوم والأعداء... يخطّطون! وأنّ خططهم «مدروسة ومبرمجة سلفاً».

عنزة ولو طارت!

ماذا لو أنّ «المشروع» المستمرّ منذ قرن، اصطدم بحدثٍ زمنيّ محدّد شكّل تقطّعاً في استمراريّته؟

بمناسبة أزمة الكيميائيّ السوريّ، أصدر المؤتمر القوميّ العربيّ بياناً استباقياً ضدّ «التسعير الخطير والمحموم نحو التحضير لشنّ العدوان على الجمهوريّة العربيّة السوريّة» من قبَل «القوى التي تمارس عدوانها على الأمّة منذ توقيع اتفاق سايكس-بيكو وإعلان وعد بلفور، في مسلسلٍ مستمرّ، حتى يومنا هذا». وقد هاجم البيان الجامعة العربيّة على موقفها «الخيانيّ بتقديم غطاء عربيّ مكشوف وغير مبرّر للعدوان على سورية» (٣١ آب / أغسطس ٢٠١٣). لا بد من أنّ القارئ قد لاحظ هذه اللازمة «الجدليّة» في عِلم «كَشْف الغطاء»: «الغطاء» دائماً «مكشوف».

لم يحصل عدوان على سورية. ولم يُصدر المؤتمر القوميّ العربيّ بياناً يفسّر للجمهور والأنصار لماذا أحجمت القوى ذاتها، التي تمارس عدوانها على الأمّة منذ قرن ونيّف، عن شنّ عدوانها على الجمهوريّة العربيّة السوريّة في صيف العام ٢٠١٣. معروف أنّ وقف العدوان ارتبط بقرارِ اتّخذه حاكم سورية بتصفية ترسانته من السلاح الكيميائيّ. ألم يكن يفترض بالمؤتمر القوميّ العربيّ، والحالة هذه، أن يهنّئ الأمّة العربيّة بالقرار الحكيم، والمناورة الذكيّة، التي لجأتْ إليها القيادة السوريّة، لإحباط العدوان المستمرّ منذ قرن ولو في هذه الحلقة من حلقاته؟ أم أنّ فكرة «القوى التي تمارس عدوانها على الأمّة منذ توقيع اتّفاق سايكس-بيكو وإعلان وعد بلفور، في مسلسل مستمرّ، حتى يومنا هذا» لا يأتيها الاستثناء من قبل أو من دبر، فالأحرى غضّ النظر عن الاستثناء؟ أم تراه المؤتمر القوميّ العربيّ قد عارض تقديم الرئيس الأسد مثْل هذا التنازل لقوى العدوان فآثروا كبت نقدهم والتذمّر، ما دام النظام يخوض مواجهته الضارية ضدّ «القوى التي تمارس عدوانها على الأمّة منذ توقيع اتّفاق سايكس-بيكو وإعلان وعد بلفور، في مسلسلٍ مستمرّ، حتى يومنا هذا»؟

حركة حماس أدخلت المستجدّات في الخرائطيّة هي أيضاً. أبلغتْنا أنّ التحالف الجديد بين الولايات المتّحدة وإسرائيل وداعش «يهدف إلى رسم خريطة جديدة للمنطقة في عمليّة إعادة تقسيم استناداً إلى الانقسامات الطائفيّة والمذهبيّة والعرقيّة، كما يجري في العراق». وأضافت أنّ غرض هذا التقسيم توجيه ضربةٍ إلى محور المقاومة في المنطقة خدمةً لإسرائيل مستفيداً من ظاهرة داعش، وفق تقسيم عملٍ مكشوف (طبعاً) حيث «دور

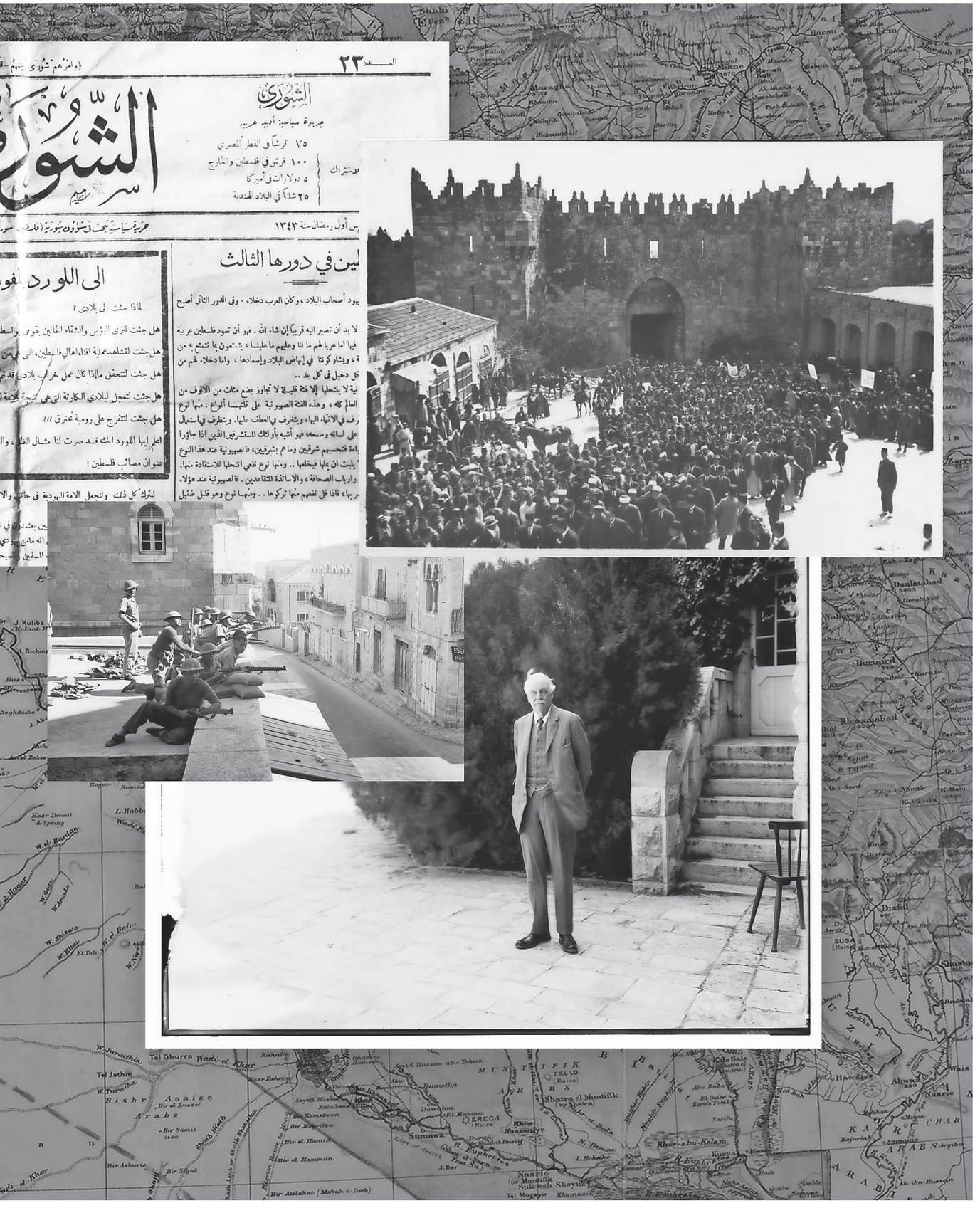
العدد ٢٣
الشورى
جريدة سياسية أدبية عربية
٧٥ قرشاً في القطر المصري
١٠٠ قرش في فلسطين والخارج
٥ دولارات في أميركا
٢٥ شلناً في البلاد الهندية
الاشتراك
الى اللورد
لماذا جئت الى بلادي ؟
هل جئت لترى البؤس والشقاء الحالين بقومي
هل جئت لتشاهد عملية افناء اهالي فلسطين
هل جئت لتتحقق ما إذا كان عمل خراب بلادي
هل جئت لتعجل لبلادي الكارثة التي هي
هل جئت لتتفرج على رومية تحترق ؟؟؟
اعلم ايها اللورد انك قد صرت لنا مثال الظلم
عنوان مصائب فلسطين !
لنترك كل ذلك ولنجعل الامة اليهودية في جانب
لين في دورها الثالث
يهود أصحاب البلاد ، وكان العرب دخلاء . وفي الدور الثاني أصبح
لا بد أن نصير اليه قريباً إن شاء الله . فهو أن تعود فلسطين عربية
فيها اما عربا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، يتمتعون بما نتمتع به من
ة ، ويشاركوننا في إنهاض البلاد وإسعادها ، واما دخلاء لهم من
كل دخيل في كل بلد ..
نية لا ينتحلها إلا فئة قليلة لا تجاوز بضع مئات من الالوف من
العالم كله ، وهذه الفئة الصهيونية على قلتها أنواع : منها نوع
رف في الانتماء اليها ، ويتظرف في العطف عليها . ويتظرف في استعمال
على لسانه وسمعه فهو أشبه بأولئك المستشرقين الذين اذا جاؤوا
باءة فتحسبهم شرقيين وما هم بشرقيين ، فالصهيونية عند هذا النوع
يلبث ان يملها فيخلعها .. ومنها نوع نفعي انتحلها للاستفادة منها .
وارباب الصحافة ، والاساتذة المتقاعدين . فالصهيونية عند هؤلاء
ربها ، فاذا قل نفعهم منها تركوها . . ومنها نوع وهو قليل ضئيل

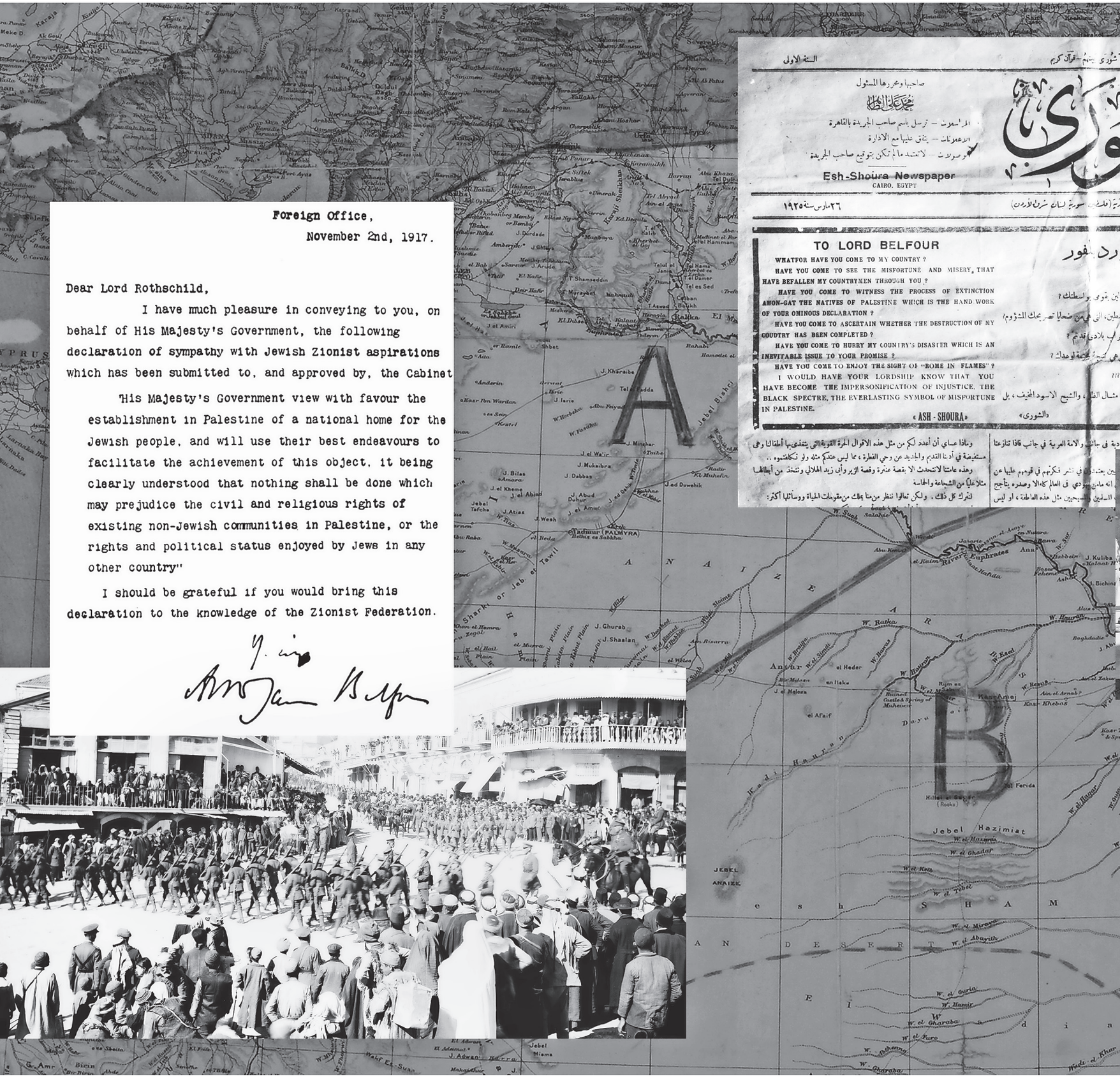

Foreign Office,
November 2nd, 1917.

Dear Lord Rothschild,

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of His Majesty's Government, the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country"

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

Y. ing

Arthur James Balfour

السنة الاولى

صاحبها ومحررها المسئول

محمد علي الطاهر

المراسلات – ترسل باسم صاحب الجريدة بالقاهرة

الاعلانات – يتفق عليها مع الادارة

الوصولات – لاتعتمد ما لم تكن بتوقيع صاحب الجريدة

Esh-Shoura Newspaper
CAIRO, EGYPT

٢٦ مارس سنة ١٩٢٥

TO LORD BELFOUR

WHATFOR HAVE YOU COME TO MY COUNTRY ?

HAVE YOU COME TO SEE THE MISFORTUNE AND MISERY, THAT HAVE BEFALLEN MY COUNTRYMEN THROUGH YOU ?

HAVE YOU COME TO WITNESS THE PROCESS OF EXTINCTION AMON-GAT THE NATIVES OF PALESTINE WHICH IS THE HAND WORK OF YOUR OMINOUS DECLARATION ?

HAVE YOU COME TO ASCERTAIN WHETHER THE DESTRUCTION OF MY COUDTRY HAS BEEN COMPLETED ?

HAVE YOU COME TO HURRY MY COUNTRY'S DISASTER WHICH IS AN INEVITABLE ISSUE TO YOUR PROMISE ?

HAVE YOU COME TO ENJOY THE SIGHT OF "ROME IN FLAMES" ?

I WOULD HAVE YOUR LORDSHIP KNOW THAT YOU HAVE BECOME THE IMPERSONIFICATION OF INJUSTICE, THE BLACK SPECTRE, THE EVERLASTING SYMBOL OF MISFORTUNE IN PALESTINE.

« ASH - SHOURA »

داعش يتمثل في إنهاء سايكس-بيكو، بينما يأتي الدور الأميركيّ هذه المرّة عبر خلق سايكس-بيكو جديد». (السفير، ٦ / ١٠ / ٢٠١٤). ما دامت الحركة تسلّم بأنّ داعش سوف يتولّى إنهاء سايكس-بيكو، يجوز السؤال: أليس حريّاً بالإسلاميّين والقوميّين واليسارو - قوميّين الترحيب بتلك المهمّة التاريخيّة مادام التقسيم «شرّاً مطلقاً». والترحيب الواجب خصوصاً من البعثيّين وهم عندما تسلّموا الحكم في سورية والعراق رفعوا اليافطات على الحدود تعلن «البعث ثورة على الحدود» دع عنك شعارهم «لا حدود ولا يهود». وبقيت الحدود وبقي الشعار على الحدود واليهود على الحدود.

في تلك الأثناء، كانت طائرات سلاح الجوّ الأميركيّ تطير ومعها طائرات الحلفاء الغربيّين، قبل أن تنضمّ إليها الطائرات الحربيّة الروسيّة، فتقذف حممها على مواقع داعش في العراق وسورية! ومع ذلك، التحالف راسخ كالطّود بين إسرائيل وأميركا وداعش!

وهي عنزة ولو طارت!

«خطوط الدم»: دراسة حالة

رالف بيترز لا يدّعي أنّه صديقٌ للعرب. لكنّه أدلى بدلوه في الحوار الدائر حول مستقبل المنطقة وإعادة رسم خرائطها حيث يشكّل مقالُه دراسةً حالةٍ تستحقّ أن تُدرس، خصوصاً أنّ عدداً لا بأس به من مؤرّخين ومحلّلين عربٍ تلقّفوه بما هو لُقيا تكشف لنا الخريطة المنتظرة.

نشر العقيد المتقاعد رالف بيترز مقالاً في عدد حزيران / يونيو ٢٠٠٦ من «مجلّة القوّات المسلّحة» الأميركيّة Armed Forces Journal يدين الحدود «العبثيّة والمشوّهة» في الشرق الأوسط التي فرضها «أوروبيّون أنانيّون»، يقصد البريطانيّين والفرنسيّين (كأنّما الولايات المتّحدة لم يكن لها علاقة بالامر في مؤتمر باريس ١٩١٩ وما تلاه من ترتيبات). وهو إذ يبرّئ الإسلام من أي مسؤوليّة عن تلك الحدود القاتلة وعن الدماء التي سفكتْها، بما فيها دماء الأميركيّين، ينسب سفك الدماء وفشل دول المنطقة، إلى تحريم المسّ بحدودٍ غير قابلة للمسّ. المقصود بالدماء دماء الأميركيّين خصوصاً لأنّ المقال مكتوبٌ تحت وطأة عدوان ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١ على مركز التجارة العالميّ بنيويورك والاحتلال الأميركيّ للعراق.

يتناول بيترز المنطقة بما هي الشرق الأوسط الكبير الذي يشمل باكستان وأفغانستان، وله آراء في كيفيّة إعادة تركيب هذين البلدين ومعهما إيران أيضاً. أمّا بالنسبة إلى المنطقة العربيّة فهذا ما لديه:

السعوديّة: «دولة غير طبيعيّة» تستحقّ أن تتجزّأ ثلاثاً:

- ١◆ توسيع حدود الأردن على حسابها شمالاً
- ٢◆ استعادة اليمن لعسير ونجران وجيزان جنوباً
- ٣◆ تخليص المملكة من المناطق الشيعيّة الشرقيّة النفطيّة
- ٤◆ إنشاء نوع من «فاتيكان مسلمة» في مكّة والمدينة يحكمها بالتناوب حكّام مسلمون من كافّة أنحاء الأرض.

فلا يبقى لآل سعود إلّا منطقة الرّياض ونجد.

العراق: كان الأحرى تقسيمه عند احتلاله إلى ثلاثة كيانات. في كلّ الأحوال، يقترح بيترز فصل كردستان عن سائر العراق لإنشاء «كردستان الكبرى» مع أكراد إيران وتركيّا (وسورية)، ولإنشاء دولة شيعيّة في جنوب العراق متواصلة مع إيران ولكن بعد تخليصها من أجزاء تُضمّ إلى بالوشستان وخوزستان. وإلى هذه الدولة الشيعيّة النفطيّة الموسّعة التي باتتْ تشمل خوزستان العربيّة والنفطيّة، والمسيطرة على الساحل الشماليّ للخليج، يمكن ضمّ إمارة أبوظبي (النفطيّة).

في الغرب تُحرَم سورية من منفذٍ إلى البحر بعد ضمّ ساحلها إلى الساحل اللبنانيّ من أجل استعادة ما يسمّيه «فينيقيا».

تصوّرت روبِن رايت، الصحافيّة والكاتبة الأميركيّة، سيناريو بعنوان «تخيّل خريطة جديدة للشرق الأوسط» (نيويورك تايمز، ٢٨ أيلول / سبتمبر ٢٠١٣) تستلهم فيه «حدود الدّم» لبيترز فتطوّرها وتفصّل فيها من أجل «تحويل ٥ بلدان إلى ١٤ بلداً». بموجب هذا التوزيع الجديد، تستقلّ كردستان السوريّة، وينقسم باقي سورية بين الغرب الذي يشمل المدن الرئيسة واللاذقيّة وصولاً إلى جبل الدروز، فيما يندمج الشرق السوري السنّيّ مع الوسط السنّيّ العراقيّ لتكوين «سنّستان»، تاركاً الجنوب العراقيّ لتشكيل «شيعستان»، أمّا الجزيرة العربيّة فيجري تقسيمها إلى منطقة شماليّة، ومنطقة غربيّة تضمّ الحجاز، وأخرى جنوبيّة متاخمة لليمن، وتترك نجد للأسرة السعوديّة لتسمّى «وهّابستان»، بعد أنْ تفصل عنها المنطقة الشرقيّة. أمّا اليمن فيعاد تقسيمه بين شمال وجنوب، ويطاول التقسيم الذي تقترحه الصحافيّة الأميركيّة ليبيا إلى ثلاثة أجزاء هي بنغازي وطرابلس وفزّان. ولا يبقى خارج التقسيم إلا لبنان وإسرائيل والأردن.

خريطة بيترز الجديدة للمنطقة مزيجٌ من خريطة عقاب للعربيّة السعوديّة لدور رعاياها في الهجوم على مركز التجارة الدوليّ بنيويورك العام ٢٠٠١، ومن استعارةٍ لخريطة

برنارد لويس الداعية إلى إعادة تكوين المنطقة لكي تتطابق فيها خرائط الدول مع التكوينات الإثنيّة والدينيّة والمذهبيّة. ومن أبرز معالم تلك الخريطة، متعدّدة الصيَغ، توسعة حدود إسرائيل لتضمّ سيناء، وتقسيم العراق إلى ثلاث دول - كرديّة وسنّية وشيعيّة - وفصل عربستان عن إيران وأجزاء أخرى من هذه الأخيرة لتكوين دولة بلوشستان.

عرض برنارد لويس خريطته المقترحة للمنطقة منذ ستينيّات القرن الماضي. لاحقاً، صار لويس مستشاراً لدى جورج بوش الأب والابن لشؤون العراق والمنطقة. نصح بالاحتلال الأميركيّ للعراق. وله ما له من اجتهادات في تفسير تصرّفات السلطة الإيرانيّة. إذاً كانت المسألةُ مسألةَ آراء واقتراحات و... مشاريع. والسؤال، لماذا لم يأخذ الرّؤساء الأميركيّون الأشدّ عدوانيّة في العقود الأخيرة بخريطة شيخ الاستشراقيّين النيو-تقسيميّة؟ هل من جواب آخر غير الافتراض بأنّ تلك المقترحات لم تنعقد عليها أغلبيّة وازنةٌ من مراكز القوى تعتبر أنّها تقع في خانة القاعدة الذهبيّة المسمّاة «مصلحة الولايات المتّحدة الأميركيّة». ولا يبدو أنّ أيّ إدارةٍ أميركيّة إلى الآن لا تخدم المصلحة الوطنيّة العليا الأميركيّة (ويبدو أنّ كلّ الإدارات الأميركيّة المتعاقبة حتى الآن لا تخدم إلّا المصلحة الوطنيّة العليا). ومهما يكن، لم تقسّم أميركا العراق بعد غزوتها الأولى أو الثانية، فخيّبت آمال الليبراليّين والممانعين معاً بالإضافة إلى أصحاب النظريّة التي تقول بالعلاقة الحتميّة بين التقسيم والسيطرة على النّفط.

المصلحة الوطنيّة العليا الأميركيّة، وحساب المصالح عموماً، كما تحدّدها الطبقة الحاكمة وإدارتها في حقبةٍ معيّنة من ولايتها، هو ما يجري إغفاله باستمرار في رصد «المشاريع» أو رسم الخرائط أو إعادة رسمها. هل كان الضابط المتقاعد يجهل أنّ العربيّة السعوديّة هي إحدى ركيزتين لأميركا في المنطقة (مع إسرائيل) بل هي الدجاجة التي تبيض ذهباً لاقتصاد بلاده، تبدأ بكونها أكبر زبون لمبيعات السلاح ولا تنتهي فوائد استتباعها مع الإيداعات والاستثمارات الترليونيّة في سندات الخزينة وفي فروع شتّى من الاقتصاد؟ أم أنّه، بدافع من غرور السيطرة العسكريّة (لأكبر قوّة عسكريّة في العالم - إلى الآن!) وشهوة اللعب بمصائر الشعوب، ولو بخطوطٍ مرسومة على ورق، ظنّ أنّه بتقطيعه أوصال العربيّة السعوديّة ينتقم لضحايا عدوان الحادي عشر من أيلول / سبتمبر، فإذا هو، على الورق أيضاً، يقتل الدجاجة التي تبيض ذهباً لبلاده!

حظيتْ بعض مقترحات بيترز الخرائطيّة بتأييد ليبراليّين عرب، ذوي قراءاتٍ هويّاتيّة للمنطقة، اكتشفوا بعد العام ٢٠٠٣ أنّ العراق أكبر ممّا يجب، فوجَب تحجيمه. ولم يختلف معهم كثيراً أنصار التفسير المشاريعيّ الذين لخّصوا احتلال أميركا للعراق بهدفٍ أوحد: تقسيمه. وذلك في انعكاسٍ بات مألوفاً عندنا للقاعدة الاستعماريّة العتيقة منذ الإمبراطوريّة الرومانيّة: «قَسِّمْ لتُسيطر!» Divide and Rule التي انقلبت عندنا فصارت «سيطِرْ لتقسّم» وقد باتت السيطرة هي الوسيلة والتقسيم هو الهدف.

يزيد من العبقريّة الإستراتيجيّة في خريطة بيترز أنّه لا يكتفي بذبح الدجاجة التي تبيض ذهباً لأميركا بل يقدّم أيضاً هديّة تاريخيّة لا تقدّر لأبرز أعدائها وأعداء العربيّة السعودية - الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة. يهَبها بيترز شريطاً سكّانيّاً في جنوب العراق النفطيّ ذي الأكثريّة الشيعيّة، يتواصل مع إيران ومناطق النّفط فيها، بحيث تهيمن الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة الموسّعة على أكبر كتلةٍ شيعيّة عربيّة - إيرانيّة على الضفّة الشماليّة للخليج، معزّزة بالموارد النفطيّة والقوّة العسكريّة إلى الكثافة السكّانيّة، وتهيمن على الخليج وعلى جنوبه والعربيّة السعوديّة، خصوصاً بعدما قرّر الضابط بيترز ضمّ أبو ظبي النفطيّة إليها!

للتّذكير فقط: هذه هي المنطقة التي تهدَّدَها صدّام حسين عندما احتلّ الكويت، وهي المنطقة التي خاضت الولايات المتّحدة وحلفاؤها الغربيّون حرب الخليج الأولى لصدّ ذلك الخطر عنها.

أصدقاء ينتقدون...

يدور في هذا الصّدد حوارٌ متعاكس طريف مع الآخر الغربيّ. الليبراليّ صاحب عقدة النّقص من الكولونياليّة، يؤكّد لك أنّ الاتفاقيّة خربت بيتك. ولا تزال.

فإنّ كثرةً من المعلّقين على المناسبة، جهةَ الغرب، يمارسون النقد أو تحميل النّفس الذنب على نفس منوال سايكس-پيكو «الخريطة التي خرّبت الشرق الأوسط». مع أنّ البعض بات يشكّك في تلك المقولة.

ستيفن هايدمان، أكاديميٌّ أميركيّ شارك في مؤتمر «مئة عام على سايكس-پيكو: نظامٌ جديدٌ للشّرق الأوسط»، في «بيت المستقبل»، مصنع أفكار حزب الكتائب، لصاحبه أمين الجميّل. في مداخلته، عرض هايدمان جملة خرائط معدّة لتقسيم المنطقة (السفير، ٢٨ / ٥ / ٢٠١٦). المفارقة في أمر بعض الخبراء الأميركيّين في شؤون الشرق

الأوسط، من أصدقاء العرب، أنّهم يعطوننا من كيسنا ما يعتقدون أنّنا نحبّ أنّ نسمع، بدل أن يزيدونا علماً عن الستراتيجيّات والسياسات الأميركيّة.

أمّا نقد اتفاقيّة سايكس فعادةً ما يتوزّع في اتّجاهين بحسب المرايا المتعاكسة بين الحداثويّة والبعد حداثويّة / والبعد استعماريّة. اتّجاه النّقد الأوّل هو لوم بريطانيا وفرنسا لأنّهما فرَضتا على المنطقة الأفكار والمصالح وأساليب الإدارة الأوروبيّة التي تفتقر إلى الرّسوخ المحلّيّ والشرعيّة المحلّيّة. وعادةً ما يعني ذلك أنّهما فرضتا عليها ترسيمة «الأمّة في دولة». ويلتحق بهذا النقد إهمال تلك الترسيمة لمسألة الأقليّات من وحي انتعاش المسألة الكرديّة في سورية بعد العام ٢٠١١.

بريطانيا أو فرنسا لم تعتبر نفسها معنية بتقديم أفضل كيان ونظام سياسي ليخدم «السكان المحليين» قدر ما كانت معنية بأفضل كيان ونظام يخدم مصالحها في السيطرة على البشر والاستيلاء على الموارد.

أمّا الاتجاه الآخر فيوجّه النّقد للقوى الغربيّة لأنّها لم تترك وراءها «أمماً في دول» وإنّما تكتّلات قبائل وجماعات دينيّة ضُمّ بعضها إلى بعضٍ على يد الإدارة الفرنسيّة أو الوجود العسكريّ البريطانيّ.

سنقف في سياق هذا الكتاب أمام هذه المسألة بوجهَيها. تكفي الإشارة هنا إلى إغفال هذا الوجه وذاك لحقيقة أنّ بريطانيا أو فرنسا لم تعتبر نفسها معنيّةً بتقديم أفضل كيان ونظام سياسيّ ليخدم «السكّان المحليّين» قدر ما كانت معنيّةً بأفضل كيان ونظام يخدم مصالحها في السيطرة على البشر والاستيلاء على الموارد.

... ومحليّون يؤيّدون

في ردٍّ على تحميل الاتفاقيّة، ومعها «الغرب»، المسؤوليّة عن التخريب المستمرّ للمنطقة على مرّ قرن، تولّدتْ نزعةٌ تنقيحيّة تردّ على اتّهام الاتفاقيّة بالتقسيم بمديح حدودها التقسيميّة أو باعتبارها أهوَن الشرور.

يدعو الصحافيّ رستم محمود إلى التفكّر في سؤال: ماذا لو لم يتدخّل الغرب في المنطقة من خلال الاتفاقيّة؟ فيجيب «هل كان ليحدث غير حروب أهليّة مدمّرة، بين قوى اجتماعيّة قويّة ومحافِظة ومستقرّة موالية للإمبراطوريّة العثمانيّة وأخرى ثوريّة وقوميّة منتفضة عليها؟». في رؤية محمود الكارثيّة، يتحوّل الماضي، عشيّة الحرب العالميّة الأولى، إلى صورةٍ طبق الأصل عن الحاضر، حيث تسود المدنَ الكبرى الحروبُ الأهليّة ويدمّر القرويّون المدينيّين وينهبونهم، فلا يبقى غير دولتين متدخّلتين في المنطقة تركيّا وإيران. لكنّ محمود يستدرك بأنّ هذا التنبّؤ يثبت أنّه لو لم يقع سايكس-بيكو لما كان حصل غير ما هو حاصل الآن. والخلاصة «إنّ تحويل هذا الخارج إلى فاعلٍ مطلق ليس سوى أداةٍ لنفي المسؤوليّة عن الذّات، وقبلَ نفي المسؤوليّة نفي فظاعة الأفعال». ليس المهمّ الدخول في افتراض مساراتٍ بديلة عن التي يجزم بها محمود، ليس فقط لأنّ سؤال «ماذا لو؟» ينقل البحث إلى مستوى الضرب بالرمل، ولكن أيضاً لأنّ ما يورده من نقدٍ على أنّ موضوع تحميل المسؤوليّة للآخرين أو للذّات يسقط على الخلاصة من خارج السياق والمحاججة التي يقوم عليها المقال. («أحوالنا الراهنة كبديل من سايكس-بيكو» الحياة، ٣٠ / ٥ / ٢٠١٦).

في مجاراةٍ لمحاججة رستم محمود، لا يستغرب حسن الشامي تمسّك «العقلاء» بسايكس-بيكو قياساً إلى ما يجري من حروب راهنة. («سايكس-بيكو كخطيئة وخشبة خلاص»، الحياة، ٢٢ / ١٠ / ٢٠١٦) المحاججة التي تقول بدور الاتفاقيّة الخلاصيّ كمثل المحاججة التي تقول بدورها في تخريب المنطقة. لكنّ حسن الشامي، مثله مثل رستم محمود، لا يفيدنا كثيراً في جدوى تمسّك «العقلاء» بالاتفاقيّة طالما أنّها لم تمنع اندلاع «الحروب الراهنة».

الصحافيّ حازم الأمين هو أحد «العقلاء» المتمسّكين بسايكس-بيكو. فهو شيعيّ، كما يعرّف نفسه، وابن قرية جنوبيّة متاخمة للحدود الفلسطينيّة والسوريّة. ولولا الحدودُ التي رسمتْها الاتفاقيّة مع الجارَين الفلسطينيّ أو السوري، لكان حازم إمّا لاجئاً وإمّا من رعايا «دولة البعث الأبويّة»، أي لتحوّل إلى ابن أقليّة صغرى في البلدين الجارين. في حين أنّ الشيعة «أقليّة كبرى» في لبنان القائم على «ائتلاف الأقليّات». فلا عجب أن يتمسّك الأمين، ابن الأقليّة الكبرى، بالكيان اللبنانيّ مع مواصلته السعي إلى تحسين شروط الشراكة الشيعيّة فيه، حسب تعبيره أيضاً وأيضاً (الحياة، ٧ / ١ / ٢٠١٦) للعلم، إنّ الأمين، في معظم كتاباته، ينعى على الشيعة، على الأقلّ بحدود ما هم ممثَّلون بواسطة حزب الله وحركة أمل، أنّهم لم يكتفوا بـ«تحسين شروط الشراكة» أكثر من اللزوم في «ائتلاف الأقليّات» بل توصّلوا أيضاً إلى السيطرة عليه سيطرةً محكمة!

مقاولات الأكاديميا من الباطن
صناعة الأبحاث الخارجيّة في المملكة المتّحدة

ميسون سكرية

أستاذة جامعية، لبنان، تدرس مادة الانثروبولوجيا في كلية كينغز كولدج، لندن. ترجمة يزن الحاج.

ثمّة فضيحة كانت تتخمّر أخيراً في الجامعات البريطانيّة بشأن مزاعم تشير إلى أنّ الطّلّاب الأجانب يدفعون لكتّاب ظلٍّ تجاريّين لتأليف أوراقٍ أكاديميّة لهم. تدّعي التّقارير المنشورة في وسائل الإعلام بأنّ الطّلّاب الأجانب يغشّون بمعدّل أربعة أضعاف مقارنة مع الطّلّاب المحلّيّين، وبأنّ الفورة التي شهدتْها صناعة كتابة المقالات المأجورة في بريطانيا قد انتعشت بفعل تزايد عدد الطّلّاب الأجانب. في عام ٢٠١٧، أصدرت وكالة ضمان الجودة في التعليم العالي البريطانيّة دليلاً إرشاديّاً للتّعامل مع مشكلة «الغشّ بالتّعاقد»، حيث يُنهي طرفٌ ثالثٌ عمل الطالب الذي يُقدّمه من ثمّ إلى مؤسّسته التعليميّة على أنّه «عمله»، محذرة من «الخطر» الذي تشكّله هذه الممارسات على المعايير الأكاديميّة في «الأمانة، والنّزاهة، والاحترافيّة» (QAA، ٢٠١٧: ١، ٦).

ولكن، في الوقت ذاته، ثمّة ظاهرة موازية لاقت اهتماماً أقلّ، تحدث أحياناً حينما يسافر الباحثون الجامعيّون البريطانيّون إلى الخارج لإنجاز أبحاثٍ مموّلةٍ بمنح. وبرغم الحفاوة التي تلْقاها أعمال هؤلاء الباحثين في الجامعات البريطانيّة بفعل نجاحها في اجتذاب دخلٍ من المنح، وإصدار منشورات، والإسهام في المعرفة العالميّة، إلّا أنّ بعض أعمال هؤلاء الباحثين تُنجَز خفيةً في الحقيقة على يد مساعدي أبحاث أجانب. وللمفارقة، غيرُ قليل من هؤلاء المساعدين كانوا طلّاباً أجانب سابقاً، وأحياناً في الجامعات البريطانيّة. وقد بات الطّلّاب الأجانب السابقون والمتخرّجون الجامعيّون المحليّون يشكّلون قوّة عمل بحثيّة مُتبرتلة [أي تحوّلت إلى بروليتاريا] أهليّة في الخارج، يُنَّفق معها خفيةً لإنجاز الأبحاث التي يُشرف عليها الأكاديميّون البريطانيّون من بعيد، إذ تفصلهم كما هي الحال غالباً هوّة اللغة، والثقافة، والجغرافيا، والاقتصاد السياسيّ الأوّليّ للإنتاج البحثيّ في قطاع القرن الحادي والعشرين الجامعيّ الذي أمسى سوقاً.

لم تحظَ قضيّة التعاقد من الباطن في إنتاج الأبحاث الأكاديميّة الخارجيّة بالاهتمام الذي تستحقّه. في هذه المقالة، سنتناول دراسة حالة عن آراء وتجارب مجموعة من مساعدي الأبحاث اللبنانيّين والسوريّين، الذين يعملون في مشاريع بحثيّة أكاديميّة بإشرافٍ بريطانيّ حول اللاجئين السوريّين في لبنان بين عامي ٢٠١٢ - ٢٠١٨. تُقدَّم أبحاث اللاجئين السوريّين في الخارج، في بريطانيا، بوصفها مشروعاً نبيلاً ومتنوّراً قائماً على مبدأ العون من أجل «مساعدة المُستضعَفين الأكثر في العالم» (BIS، ٢٠١٦)، ويُروَّج لمشاركة الكادر المحلّيّ في العمل في هذا المشروع بوصفه فعلاً خيّراً من أفعال «الشراكة العالميّة» و«بناء القدرات» في البلدان الأقلّ دخلاً مثل لبنان (BEIS، ٢٠١٧). لكنّ وجهات نظر المساعدين المحلّيّين الذين يضطلعون بالقسط الأكبر من هذه الأبحاث مختلفةٌ كلّيّاً في الغالب: فكثيرون منهم يتحدّثون عن تجربة إقصائهم عن المشاريع البحثيّة، وإحساس بالاستغلال خلال السّيرورة البحثيّة، وبالخيبة حيال قطاع الأبحاث الجامعيّة البريطانيّة. ولا تقتصر المحاجّة التي نعرضها من خلال تقديم وجهات النّظر هذه على الحاجة إلى منح اعترافٍ أكبر بعمل، وهموم، ومصالح مساعدي الأبحاث؛ بل أيضاً إلى أهميّة فهم الكيفيّة التي يصوغ فيها الاقتصاد السياسيّ للأبحاث الجامعيّة سيرورات الأبحاث، والنّتائج والآثار التي يمكن أن تشكّلها الأبحاث الجامعيّة على البيئة الاجتماعيّة الأوسع. وقد تكون تلك الآثار أقلّ إيجابيّة بكثير ممّا تُبشِّر به طلبات المنح البحثية.

في الصفحات التالية ستُناقَش تجارب الاغتراب، والاستغلال، والخيبة لدى مساعدي الأبحاث الميدانيّين

العاملين في هذه الصناعة البحثيّة. يستند التّحليل إلى مجموعة مقابلات أُجريت شخصيّاً في لبنان في صيف عام ٢٠١٧، ولندن في شتاء عام ٢٠١٨، مع اثنين وثلاثين مساعد أبحاث وُظّفوا من خلال نموذج كرة ثلج متراكمة بالاعتماد على العلاقات الشخصيّة.

صناعة الأبحاث المتعلّقة باللاجئين السوريّين

منذ عام ٢٠١٤ حتى ٢٠١٨، قُدّم ما لا يقلّ عن ثلاث وثلاثين منحة بحثيّة لمشاريع تركّز كلّياً أو جزئيّاً على اللاجئين السوريّين في لبنان، بمبلغ إجماليّ يتجاوز ٢٨.٢ مليون جنيه إسترلينيّ، لأكاديميّين بريطانيّين، من مجالس الأبحاث البريطانيّة، ومجلس الأبحاث الأوروبيّ، والأكاديميّة البريطانيّة، وإدارة التنمية الدوليّة البريطانيّة (DfID)، ومؤسّسات مثل ليفرهيولم ووِلْكَمْ. وكانت نصف هذه المنح تقريباً (خمس عشرة منحة) تصل إلى مئة ألف جنيه أو أكثر، أمّا أكبرها فتصل إلى ملايين الجنيهات. ولا بدّ أن يكون مبلغ التمويل الإجماليّ المتعلّق بهذا الموضوع أكبر، بما أنّ مبالغ مكافآت التأسيس والمكافآت الداخليّة لا تُنشر علناً دوماً.

باتت صناعة الأبحاث المتعلّقة باللاجئين السوريّين في الخارج مورد بزنس بارزاً لكثير من الأكاديميّين والجامعات البريطانيّة: فالتّقديم إلى منح الأبحاث ليس محصوراً بالخبراء الإقليميّين، بل إنّه مفتوح أمام آخرين لا يمتلكون خبرة مسبقة حيال سورية أو لبنان، وذوي مستوى معدوم أو ضئيلٍ من القدرة على التحدّث بالعربيّة أو فهمها أو قراءتها. كما أنّ الفوز بمنح الأبحاث البريطانيّة المتعلّقة باللاجئين السوريّين أصبح حدثاً سياسيّاً واجتماعيّاً. فعلى سبيل المثال، كان إطلاق مركز مشروع «ريليف RELIEF» (اللاجئون، التربية، التعليم، تكنولوجيا الاتّصالات، ومشاريع من أجل المستقبل) التابع لجامعة مدينة لندن في لبنان، والذي يبلغ تمويله ٤.١ ملايين جنيه، في تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٧، تحت رعاية رئيس مجلس الوزراء اللبنانيّ في مقرّ إقامته في السّراي الكبير، بينما حضر إطلاق مركزه في لندن في نيسان / أبريل ٢٠١٨ رؤساء الجامعة الأميركيّة في بيروت، والجامعة اللبنانيّة الأميركيّة، وجامعة مدينة لندن، والمدير التنفيذيّ لمجلس الأبحاث الاجتماعيّة والاقتصاديّة [البريطانيّ]. والسّفير اللبنانيّ في المملكة المتّحدة. كما تخلّلته قراءاتٌ شعريّة، وعروض موسيقيّة ومأدبة غداء (UCL، ٢٠١٧، ٢٠١٨).





أمّا السؤال الذي ينبغي طرحُه فهو لمَ ضخّ الأموال هذا، التي يُنفَق قسمٌ كبير منها بالتّنسيق مع الحكومة البريطانيّة، من أجل الأبحاث في هذا الموضوع، على الأخصّ في ظلّ سياق سياسات التقشّف والتّقييدات على الإنفاق الحكوميّ على الأبحاث. مع تزايد عدد اللاجئين السوريّين الذين هاجروا إلى أوروبا منذ عام ٢٠١٥ طلباً للّجوء، أُعيد تشكيل الأزمة السوريّة من جانب الزعماء السياسيّين ومعلّقي وسائل الإعلام في أوروبا بوصفها «أزمة أوروبيّة بشأن اللاجئين»، ففي المملكة المتّحدة، كانت السياسة الحكوميّة حيال أزمة اللاجئين السوريّين متّسقةً بصرامة بشأن الحدّ من تدفّق اللاجئين إلى بريطانيا، وتركّز جهدها في الإغاثة على إبقاء اللاجئين السوريّين في بلدان شرق المتوسّط أو أولى البلدان الأوروبيّة التي يصل إليها اللاجئون (McGuiness، ٢٠١٧). ومع كانون الأوّل / ديسمبر ٢٠١٧، قبلت المملكة المتّحدة لجوء حوالى تسعة عشر ألف لاجئ سوريّ، وهو أحد أقلّ الأرقام الإجماليّة والتناسبيّة (مقارنةً بعدد السكّان المحليّين) من اللاجئين السوريّين الذين استقرّوا في أيّ بلد أوروبيّ كبير (Eurostat، ٢٠١٨؛ Home Office [وزارة الداخليّة البريطانيّة]، ٢٠١٨).

لم ضخ الأموال هذا. التي ينفق قسم كبيـــــــــــــــر منها بالتنسيق مع الحكومة البريطانية. من أجل الأبحاث في هذا الموضوع. على الأخص في ظل سياق سياسات التقشف والتقييدات على الإنفاق الحكومي على الأبحـــــــــــاث.

وإنّ تصاعد صناعة الأبحاث البريطانيّة المتعلّقة باللاجئين السوريّين في الخارج مرتبطٌ بقوّة مع أجندة السياسة الخارجيّة البريطانيّة هذه. ففي عام ٢٠١٥، أنشأت الحكومة صندوق أبحاث التحدّيات العالميّة (GCRF)، لخمس سنوات، وبميزانيّة ١.٥ مليار جنيه لإنتاج أبحاث تساهم في تحقيق استراتيجيّة المساعدات البريطانيّة؛ ويتحقّق هذا عبر إقامة شراكات «على مستوى عالٍ»، و«على قدَم المساواة» مع كوادر أكاديميّة في الجنوب العالميّ لخلق «مجتمع عالميّ للباحثين» الذين سيكون بمقدورهم معاً تناول تحدّيات التّنمية العالميّة (BEIS، ٢٠١٧: ٣، ٦، ٧). ويشكّل هذا الصّندوق بحدّ ذاته مصدر تمويل، حيث يتبع لإدارة التّنمية الدوليّة البريطانيّة، ويكون مُلزَماً قانونيّاً بدعم أجندة المساعدات الخاصّة بالحكومة. وكذلك، عام ٢٠١٥، أعيد تعريف أجندة المساعدات هذه على يد الحكومة بحيث أن تصبّ المساعدات الخارجيّة كلُّها مباشرةً في مصلحة «السياسة الخارجيّة والأمن القوميّ» البريطانيّ: أي أنّ ضبط تدفّقات الهجرة التي أشعلَها النّزاع السوريّ يُعدّ بكلّ وضوح أولويّةً من أجل هذه المصالح (HM Treasury، ٢٠١٥: ٣). كما أنّ الصندوق هو مصدر التمويل الأكبر للأبحاث المتعلّقة باللاجئين السوريّين في الخارج، حيث يساهم بنسبة سبعين في المئة من التمويل الإجماليّ حيال هذا الموضوع للأكاديميّين البريطانيّين منذ عام ٢٠١٥. والأمر الجدير بالذّكر هو أنّ الإنفاق البريطانيّ على الأبحاث المتعلّقة باللاجئين السوريّين في لبنان (ودول شرق المتوسّط كلّها) يُقزّم المبلغ الذي يُنفَق على اللاجئين السوريّين في المملكة المتّحدة أو الراغبين باللجوء إليها. فمنذ عام ٢٠١٤، كانت هناك سبع منَح تقريباً قُدّمت إلى أكاديميّين بريطانيّين لدراسة كلّ ما يتعلّق باللاجئين السوريّين في المملكة المتّحدة، أكثر من نصفها (أربع منح) هي منح دكتوراه، بينما لم تتجاوز المنح الثلاث الأخرى مبلغ ٨٠٩ آلاف جنيه. كانت الحكومة قادرةً بقوّة على حرف الانتباه البحثيّ إلى مجالاتٍ اعتبرتْها أولويّات سياسيّة (جهود غوث اللاجئين في شرق المتوسّط) وبعيداً من مجالات لا تريد التعامل معها (مثلاً، توسعة برامج إعادة التوطين في المملكة المتّحدة): إذ بينما يمكن نظريّاً إنفاق أموال صندوق الأبحاث على أبحاثٍ داخل بريطانيا، إلّا أنّ توجيهات الصندوق تحثّ الباحثين، عمليّاً، على تطوير برامج الأبحاث في الخارج مع شركاء دوليّين في بلدان ذات دخل أقلّ لرفع فرَص نجاح التّمويل إلى أقصاها (Barnett، ٢٠١٦).

وتعتمد معظم هذه المشاريع البحثيّة المموّلة بريطانيّاً المتمحْورة حول اللاجئين السوريّين في لبنان (وفي بلدانٍ أخرى) على توظيف وتشغيل مساعدي أبحاث من الخارج إلى حدٍّ كبير. ومعظم هؤلاء المساعدين لبنانيّون، مع وجود بعض السوريّين الذين يُوظَّفون من أجل تسهيل الدخول إلى جماعات اللاجئين. ومساعدو الأبحاث اللبنانيّون هؤلاء شابّات (في عشرينيّاتهنّ) ومن الطّبقة الوسطى، ثنائيّات اللغة (العربيّة والإنكليزيّة) ويمتلكن شهاداتٍ عليا (معظمهنّ يحملْن درجة ماجستير من لبنان أو بريطانيا)، ويوظّفن على نحوٍ مستقلّ عن طريق شبكات التّواصل الاجتماعيّ أو الجامعات المحلّيّة في لبنان. وعادةً ما يتقاضى مساعدو الأبحاث المستقلّون (الفريلانسر) أجراً في اليوم أو الساعة يتراوح تبعاً لنوع العمل المُنجَز (على

سبيل المثال، ١٠٠ دولار يومياً للعمل الميدانيّ، ٥٠ دولاراً في الساعة للترجمة وتفريغ التسجيلات، ٢٠ دولاراً في الساعة للمراجعات المكتوبة)، بينما يتقاضى المساعدون الموظَّفون عن طريق الجامعة راتباً (١٥٠٠ دولار شهرياً مثلاً) يغطّي واجبات البحث كلّها. ويقفز كثيرون من

الباحثون المشرفون المستقرون في بريطانيا يقضون عادة وقتا قصيرا في لبنان. ولا يقومون إلا بدرجة ضئيلة من البحث بأنفسهم. أو لا شيء على الإطلاق: ومعظمهم لا يملك إلا قدرة محدودة أو معدومة في معرفة اللغة العربية. بل إن بعضهم لم يزر مواقع عمل مشاريعه بالمرة؟

هؤلاء المساعدين من مشروع بحثيّ إلى آخر، بما أنّ هذا عمل بعقد موقّت يتراوح بين عِدّة أشهر وسنتين، وقد عمل بعضهم في مشاريع عديدة مموّلة بريطانيّاً تتعلّق باللاجئين السوريّين في لبنان. وحالما يوظَّفون، يوقّع مساعدو الأبحاث عقود «بنود ميثاق» تُفصّل مسؤوليّات عملهم: وتشمل هذه المسؤوليّات اختيار مواقع العمل والتّفاوض بشأن الدخول إليها، تطوير العمل الميدانيّ ومواعيد المقابلات، جمع معطيات العمل الميدانيّ، تفريغ معطيات العمل الميدانيّ، وترجمتها، وتحليلها، تحضير وكتابة أوراق متعلّقة بالعمل ومراجعات، وأحياناً كتابة مسوّدات مقالات بحثيّة. أمّا الباحثون المشرفون المستقرّون في بريطانيا فيقضون عادةً وقتاً قصيراً في لبنان، ولا يقومون إلّا بدرجة ضئيلة من البحث بأنفسهم، أو لا شيء على الإطلاق (مع وجود بعض الاستثناءات): ومعظمهم لا يملك إلّا قدرةً محدودة أو معدومة في معرفة اللغة العربيّة، بل إنّ بعضهم لم يزر مواقع عمل مشاريعه بالمرّة؟ يشكّل مساعدو الأبحاث اللبنانيّون قوّة العمل المأجورة في صناعة الأبحاث البريطانيّة المتعلّقة باللاجئين السوريّين في لبنان، حيث يضطلعون بالقسم الأكبر من إنتاج تلك الصناعة. وسنتناول آراءهم وتجاربهم، بحيث نعرف وجهة نظر العامل حيال كيفيّة عمل هذه الصناعة فعليّاً.

الاغتراب في صناعة الأبحاث المتعلّقة باللاجئين

«كنتُ أجلس مع المستمعين فيما كانت [الباحثة المشرفة] تقدّم بحثنا»، تتذكّر إحدى مساعدات الأبحاث اللبنانيّات: «كانت تقدّم البحث كما لو كان من عملها، وتُحيل إلى كلام اللاجئين السوريّين كما لو أنّها أجرت المقابلات بنفسها، وقد كنّا (أنا وباقي مساعدات الأبحاث اللواتي أنجزن البحث) مجرّد جزءٍ من الجمهور، لم يكن لنا وجود». وتتابع المساعدة كلامها: «في لحظة ما، كانت [المشرفة] تقرأ من الورقة التي كتبتُها وقالت إنّ «أحد اللاجئين قال لي» كما لو أنّها هي مَنْ أجرت المقابلات. «كنتُ أحاول ابتلاع غضبي واشمئزازي»، تواصل المساعدة كلامها: «انتهى الاجتماع، واحتفى الجميع بالدكتورة الكبيرة وصفّقوا لها على عملها العظيم، وقد صفّقتُ معهم». هذه التجربة المتعلّقة بمحو الأشخاص من العمل الذي أنجزوه بأنفسهم قصّة منتشرة بين مساعدي الأبحاث في صناعة الأبحاث البريطانيّة المتعلّقة باللاجئين السوريّين في لبنان. كما أنّه مثال نموذجيّ عن إقصاء العامل، حينما تجد المساعدة نفسها على نحو حرفيّ «غريبةً في العالم الذي صنعتْه [هي بنفسها]» (MacIntyre، ١٩٥٣، مُقتبَس في Jaeggi، ٢٠١٤: ٣).

ينبع اغتراب مساعدي الأبحاث من حقيقة أنّ المساعدين هم عمّال بأجرٍ متعاقدون من الباطن، «يعملون على إنجاز مشروع شخصٍ آخر» لا يُشرفون عليه أو يديرونه (Harvie، ٢٠٠١: ١١٥). والحال هذه، غالباً ما يعايشون إحساساً من «العجز وفقدان الكرامة، الأمر الذي يُسهم في إثارة الاستياء، والغضب، والإحباط» (Harvey، ٢٠١٨: ٤٢٧). لكنّ لمفهوم الاغتراب، كما يشير هارفي (٢٠١٤: ٢٦٧)، «معانيَ متنوّعة،» ولا ينتج حصراً من علاقات العمل بأجرٍ في مكان العمل، بل من الاقتصاد السياسيّ الأوسع الخاصّ بصناعة الأبحاث البريطانيّة المتعلّقة باللاجئين السوريّين في الخارج أيضاً. وبالنّسبة إلى مساعدي الأبحاث في هذه الصناعة، فإنّ الافتقار إلى السيطرة على المشاريع التي يعملون ضمنها ليس هو السبب الوحيد الذي يخلق «وضعيّة» الاغتراب، بل يُضاف إليه الإحساس بأنّ هدف وتركيز هذه المشاريع غريب في الغالب (أو مُقصى عن) المشاغل المباشرة للّاجئين السوريّين والجماعات المحليّة الأخرى في لبنان. وبحسب شكوى إحدى المساعدات: «أظنّ أنّ بعض الباحثين [البريطانيّين] لا يملكون أدنى معرفة بشأن الأوضاع السوريّة... إذ يُجرون بعض الإحصاءات حول بعض الأفكار المرتبطة بالأبحاث المتعلّقة باللاجئين في أماكن أخرى ويكتفون بتطبيقها على لبنان. فمثل معظم الأبحاث [المتعلّقة باللاجئين]، سيتركّز البحث على الهويّة والوطن والانتماء. لكنّ هذا أمرٌ مختلف: فالأدبيّات

الفلسطينيّة حول الوطن والهويّة نتجت بعد جيلين [من العيش كلاجئين]. الوضع السوريّ مختلف، إذ هناك حرب، ولا يزالون عاجزين عن العودة... هم لا يفكّرون بمفهوم الوطن حاليّاً. إذ من الرفاهيّة التفكير بمثل هذه المواضيع الآن. لدى [اللاجئين السوريّين] حاجات ملحّة، ومع ذلك يأتي الباحثون ... بمواضيعهم، ويتركون على عاتقنا التعامل مع الأمر والتوسّل إلى السوريّين كي يقولوا شيئاً عن تلك الأمور، وعلينا نحن أن نعاني من العواقب».

لا تقع مسؤوليّة تقديم المواضيع البحثيّة البريطانيّة المتعلّقة باللاجئين السوريّين أو الإشراف عليها على مساعدي الأبحاث اللبنانيّين أو جماعات اللاجئين السوريّين في لبنان. «ليس لدينا تمويل محليّ [من أجل أبحاث اللاجئين]، وتأتي جميع التمويلات من خارج [لبنان]،» يقول مساعد أبحاث، «وبما أنّ التمويل أجنبيّ، تُكتَب طروحات البحث في الخارج».

ولا يكون الإشراف التامّ من مسؤوليّة الباحثين المشرفين البريطانيّين دوماً، إذ قد يعانون أيضاً من اغتراب عن مشاريعهم التي يشرفون عليها رسميّاً. ويروي مساعدا أبحاث آخران تجربتهما حيال الطلب من الباحث المشرف تغيير موضوع مشروعهما، حالما أدركا أنّه عديم الصّلة باللاجئين السوريّين في لبنان. «ليست لديّ السُّلطة التي تخوّلني تغيير الموضوع»، أجابهما الباحث المشرف، «بما أنّ التمويل يأتي وفق توجّه معيَّن من أجل إنجاز البحث [حول هذا الموضوع]»، إذ إنّ تغيير وجهة الأبحاث المموَّلة من صندوق أبحاث التحدّيات العالميّة يتوافق دوماً مع سياسة الإغاثة البريطانيّة الحكوميّة، التي (كما أشرنا سابقاً) ترتبط مع أجندات الأمن القوميّ البريطانيّ والسياسة الخارجيّة.

ويُبدي مساعدو الأبحاث اللبنانيّون أيضاً إحساساً قويّاً بالاغتراب عن سيرورة الأبحاث بحدّ ذاتها: «عند نهاية كلّ يوم، أعود إلى البيت وأنا أشعر بغضب كبير، أكره حالي لأنّني فرضت نفسي على السوريّين»، تقول إحدى المساعدات وتضيف: «هم يريدون التحدّث عن معاناتهم اليوميّة، ولكن ما المشكلة، فأنا بحاجة إلى تغيير الحديث وسؤالهم عن بعض المواضيع المُقرَّرة في مكانٍ آخر». ويحاجج بعض المساعدين بأنّ ثمّة أمراً جوهريّاً ضائعاً لدى الباحثين المشرفين في الاقتصاد السياسيّ لأبحاث النّعاقد من الباطن، وما يتمّ التعاقد عليه خفية لا يقتصر على العمل المعرفيّ، بل يطاول العمل العاطفيّ والعلاقات الإنسانيّة أيضاً. فالترتيب الجديد لكيفيّة إنجاز الأبحاث لا يساعد الباحثين على إلقاء تبعة تجميع الأبحاث وتحليلها على الآخرين وحسب، بل أيضاً الألَم الناجم عن الاضطرار إلى التعامل مع هذه المواضيع، ألَم التعامل مع قصص تسمعها كلّ يوم وتحسّ بأنّك عاجزٌ عن فعل أيّ شيءٍ حيالها، ألم التّواصل مع النّاس والإحساس بالبؤس لأنّك موجودٌ في هذا العالم، الإحساس بالبؤس لأنّك تواصل حياتك. يحصل الباحثون على النتاج الصّافي في نهاية المطاف، من دون الدموع، والغضب، والإحباط، والإحساس بكراهية نفسك، لأنّك عاجز ويائس. بمعنى آخر، من خلال أبحاث التّعاقد من الباطن، ليس المساعدون وحْدهم مَنْ يعانون من وضع الاغتراب وتجربته، بل أيضاً الباحثون المشرفون في بعض الأحيان، إذ إنّ كثيرين من هؤلاء الباحثين لم يعودوا يتعاملون مع مواضيعهم البحثيّة بكونهم بشراً حقيقيّين من لحم ودم، بل بوصفهم نتاجاتٍ نصّيّة تفريغ تسجيلات، ملاحظات ميدانيّة، مسوّدات أبحاث يمكن أن تتحوّل إلى أنواعٍ أخرى من النّتاجات النصيّة كي تلبّي شروط مموّلي منحهم البحثيّة ومتطلّبات المهنة الأكاديميّة (Newman، ٢٠١٦).

الاستغلال في صناعة الأبحاث المتعلّقة باللاجئين

«إنّهم يسرقون عملنا، يسرقون مستقبلنا، يسرقون إحساسنا بالقيمة» هكذا تلخّص إحدى مساعدات الأبحاث اللبنانيّات تجربتها في العمل في صناعة الأبحاث البريطانيّة المتعلّقة باللاجئين السوريّين. الإحساس بالتعرّض للاستغلال سائدٌ في أوساط مساعدي الأبحاث في هذه الصناعة، ويتركّز على ثلاث قضايا محوريّة: الأجور المجحفة وشروط العمل بالساعة، الوعود الزائفة (أو المضلِّلة) التي يُطلقها الباحثون المشرفون، والإقصاء من التأليف الأكاديميّ. وتركّز تمظهرات الإحساس بالاستغلال على مظاهر بنيويّة لا شخصيّة (أو فرديّة) من هذا المفهوم، أو ما يعرّفه مكيون (McKeown ٢٠١٦: ١٧٤) بكونه «النّقل القسريّ للسّلطات الإنتاجيّة من الجماعات التي تُصوَّر بكونها أدنى مرتبةً اجتماعيّة [في المنظومة الاقتصاديّة] لمصلحة جماعاتٍ تُصوَّر بكونها أعلى مرتبة اجتماعيّة». ويحسّ مساعدو الأبحاث بأنّهم مرغَمون على العمل وقبول شروط الوظيفة في عروض العمل داخل صناعة الأبحاث البريطانيّة المتعلقة باللاجئين السوريّين، وذلك بفعل الافتقار إلى الخيارات البديلة. وكما يُوضح أحد المساعدين: «ما من بنيةٍ حقيقيّة لحماية حقوقنا، وبوسع المموّلين والباحثين المشرفين استغلال حالة نقص

فرص العمل [في لبنان] وأوضاع [المتخرّجين الجامعيّين] المتقلقلة، وبالطبع الأعداد الهائلة لحمَلة شهادة الماجستير الباحثين عن فرصة عمل. بإمكانهم مواصلة استغلالنا، واحداً إثر الآخر. لن يفتقروا أبداً إلى حمَلة ماجستير جدد، ساذجين، باحثين عن خبرة، وبالطبع باحثين عن فرصة عمل».

يمتلك لبنان واحدا من أعلى معدلات طلاب التعليم العالي في المنطقة العربية. علاوة على أعداد كبيرة من الطلاب الجامعيين الساعين إلى الحصول على شهادات من الخارج، لكنه يمتلك أيضا مستويات عالية من بطالة المتخرجين الجامعيين.

يمتلك لبنان واحداً من أعلى معدّلات طلّاب التعليم العالي في المنطقة العربيّة، علاوةً على أعداد كبيرة من الطّلّاب الجامعيّين الساعين إلى الحصول على شهادات من الخارج: لكنّه يمتلك أيضاً مستوياتٍ عالية من بطالة المتخرّجين الجامعيّين، التي لطالما عُدّت بمثابة «أزمة» للشباب، وواحداً من أعلى معدّلات هجرة الخبرات في العالم (El-Ghali and McClure، ٢٠١٠؛ Kawar and Tzannatos، ٢٠١٣). وعموماً، يدرك مساعدو الأبحاث أنّ الباحثين المشرفين واقعون في قبضة منظومة العمل غير الحرّ ذاتها، بالرغم من أنّهم يشغلون مواقع أكثر تميّزاً وينتفعون من استغلال مساعديهم. «أحياناً أحسّ بالحزن حيال الباحثين المشرفين، بما أنّهم مرغَمون على الالتزام بمواعيد نهائيّة لتسليم ما قيل لي إنّها «نتاجات» إلى المموّلين»، تقول إحدى المساعدات وتضيف: «قيل لي إنّ الأمر يصبح أسهل حين يصير المرء أستاذاً جامعيّاً، لكنّ هذا ليس صحيحاً، كما يبدو».

ومع أنّ بعض مساعدي الأبحاث يتقاضون أجوراً جيّدة، إلّا أنّ شواغل العمل المأجور بالنّسبة إلى مساعدين كثيرين تتركّز على ساعات العمل الطويلة، غير المأجورة عادةً، المتأصّلة ضمن العمل الأكاديميّ، وعلى تفاوتات الأجور بين تصنيفات المساعدين المختلفة. ويتحدّث المساعدون الذين يتقاضون رواتب ثابتة بعد توظّفهم عبر الجامعات المحليّة في المشاريع البحثيّة البريطانيّة عن اضطرارهم إلى العمل أكثر من الساعات الرسميّة المُقرَّرة: «نتقاضى رواتب شهريّة ثابتة بصرف النّظر عن مقدار العمل الذي ننجزه... كمّ العمل الذي أنجزه كلّ شهر يفوق بكثير قيمة راتبي. أستخدم سيّارتي الخاصّة، وتتعطّل السيّارة أحياناً [وعليّ دفع تكاليف إصلاحها]. أتنقّل بين طرابلس والبقاع وبيروت. أكتب ملاحظات ميدانيّة كثيرة ليلاً لأنّ الباحثة المشرفة تودّ أن «تحسّ بأنّها موجودة هنا معي»... أعمل ليلاً أحياناً، كما أعمل مراراً يومَي السبت والأحد... هذا استغلال».

وعادةً ما يتقاضى مساعدو الأبحاث الفريلانسر الذين يعملون بالساعة أجوراً تغطّي ساعات العمل المنجَزة كلّها، لكن بخلاف مساعدي الأبحاث الذين يتقاضون رواتب ثابتة، يفتقر [الفريلانسر] إلى الدخل الشهريّ المضمون وإلى فرصة الحصول على التأمين الصحيّ. وتتركّز هموم ذوي الأجور الأخرى على التّفاوتات بين الأجور التي يتقاضاها مساعدو الأبحاث اللبنانيّون، والأجور التي يتقاضاها العمّال السوريّون ضمن جماعات اللاجئين الذين يسهّلون إجراء الأبحاث والمقابلات مع السكّان المحلّيّين. «هذا ظلم كبير، إنّهم يدفعون للسوريّين عشرة دولارات لقاء كلّ يوم عمل، بينما نتقاضى نحن أجوراً أعلى بكثير»، تقول إحدى مساعدات الأبحاث اللبنانيّات: «هم ينجزون العمل كلّه، ومن دونهم لم نكن لنتمكّن من الحصول على أيّ شيء». وتقول مساعدة أخرى، «أتذمّر بشأن عدم تقاضيّ أجراً مُجزياً، لكنّني أتلقّى تعاملاً أفضل بكثير ممّا يتلقّاه الحرّاس السوريّون الذين يدلّوننا على العائلات ويقضون وقتهم معنا».

وتتردّد تلك الهموم على ألسنة المساعدين السوريّين أنفسهم. إذ كما يشير حارس سوريّ: «بالنسبة إليّ، إنّ من الجيّد أن أتقاضى عشرة دولارات يوميّاً، حيث أكتفي بمرافقة الباحثين وإعطائهم جميع المعطيات التي يحتاجون إليها، بما أنّني عاطل من العمل. ولكن هل هو أجر جيّد؟ لا بالطبع. كنتُ أدرّس في سورية وأعرف الكثير. ينتهي بي الأمر أحياناً إلى إعادة صياغة أسئلة [الباحثين]، التي تكون سخيفة كلّيّاً، وتُطرَح من أناس لا يعرفون أيّ شيء عن تاريخ سورية، ومجتمعها، وثقافتها. كلّ ذلك [العمل] غير محسوب. ولكن ما الذي بوسعك فعله حين تكون محتاجاً؟ تحصل على ما تحصل، وتكون ممتنّاً».

يشتكي مساعدو الأبحاث اللبنانيّون والعمّال السوريّون على السّواء، أيضاً، من وعودٍ زائفة أو مضلّلة يطلقها بعض الباحثين، كي يغروهم بالعمل معهم في مشاريعهم. يتحدّث الحرّاس السوريّون عن الوعود التي يغدقها الباحثون عليهم (أو يحثّونهم على التّصديق) بأنّ مشاركتهم في أبحاثهم ستساعد في تحسين أوضاعهم

حيث ستُسمَع أصواتهم على مستوى دوليّ. «نتلقّى أصناف الوعود كلّها [من الباحثين]، سيساعدوننا في إسماع العالم صوتنا، سيساعدوننا في الحصول على تأشيرة دخولٍ لأقاربنا الشباب الذين يرغبون بالهجرة إلى أوروبا، وسيساعدون في جعلنا نحصل على مساعدات. للوهلة الأولى، سيصدّق المرء هذا الكلام، طبعاً. لم يكن عدد الباحثين كبيراً في سورية، وبالنسبة إلى البعض، هذه أوّل تجربة لنا في أن نكون موضوعاً للبحث... قضيّة تأشيرة الدّخول هي الحلم الأكبر. وبما أنّنا لا نملك أدنى فكرة عن كيفيّة الحصول عليها، كنّا نظنّ أنّ مجرّد الحديث إلى شخص [من بريطانيا] سيساعدنا على الهجرة [إلى هناك]... الأمر كلّه جديد علينا، وحين تكون الأمور جديدة، يكون الاستغلال في أقصى درجاته».

أكثر ما يحرض الشعور بالاستغلال (والاغتراب) بين مساعدي أبحاث لبنانيين كثيرين هو حرمانهم من وضع أسمائهم كمؤلفين أكاديميين. على الأخص بعدما وعد باحثون مشرفون كثيرون مساعديهم بوضع أسمائهم في الصيغة النهائية. عند بداية عملهم معاً.

أمّا بالنّسبة إلى مساعدي الأبحاث اللّبنانيّين، فهناك الأمل الأبديّ بأنّ قبولهم بعقد عمل موقّتٍ كمساعدِ أبحاثٍ سيُفضي إلى وظيفة أكاديميّة مُجزية وأكثر أماناً في وقتٍ لاحق. لكن بالنّسبة إلى الوضع الحاليّ، يتلقّى المساعدون وعوداً صريحة من بعض الباحثين المشرفين بأنّ العمل في مشاريعهم سيساعدهم على التقدّم في حياتهم الأكاديميّة وعود «تتلاشى في الهواء» لاحقاً. «في مقابلة [عملنا] الأولى، قالت الباحثة المشرفة إنّها ستساعد في ترشيحي إلى برنامج دكتوراه في جامعتها المرموقة»، تقول إحدى مساعدات الأبحاث وتتابع: «أحسست بحماسة شديدة حيال الأمر. سننشر اسمينا معاً وسيكون هذا جيّداً في سيرتي الذاتيّة». وتقول مساعدة أخرى: «أخبرني باحثي المشرف حينما بدأت العمل معه بأنّ نشر الأبحاث سيساعد في ترشيحي إلى برنامج الدكتوراه».

وربّما كان أكثر ما يحرّض الشعور بالاستغلال (والاغتراب) بين مساعدي أبحاث لبنانيّين كثيرين هو حرمانهم من وضع أسمائهم كمؤلّفين أكاديميّين، على الأخصّ بعدما وعد باحثون مشرفون كثيرون مساعديهم بوضع أسمائهم في الصيغة النهائيّة، عند بداية عملهم معاً. ولا يقتصر عمل بعض المساعدين على جمع معطيات العمل الميدانيّ، وتفريغها، وترجمتها وتحليلها، وإنجاز مراجعاتٍ مكتوبة، بل يكتبون أيضاً مسوّدات كاملة لمقالات بحثيّة مستندة إلى تلك المعطيات والتحليلات. وكما تشير إحدى المساعدات: «أتقاضى أجراً كي أثبت نفسي باحثةً، لا كي أكتب ورقة تُنشَر بلا اسمي، مع أنّني كتبتُ ٩٠٪ منها. ما العمل الذي يتقاضى عليه الباحث المشرف أجره؟ الإشراف على البحث والسرقة الأدبيّة؟... حين يُتَّهم الطّلّاب بالسرقة الأدبيّة لأنّهم نسخوا بضع جمل، بينما يُكافأ الأساتذة المشرفون حين يستولون على أبحاث كتبها مساعدوهم يكون أولئك المساعدون قد وقعوا ضحيّةَ ازدواج المعياري حبث يكافأ السارق ويعاقب المسروق!».

حاول باحثان الإصرار على إدراج اسميهما كمؤلّفَيْن تحت المقالات البحثيّة التي كتباها من أجل المشاريع التي عملا فيها، وفي كلتا الحالتين كانت الإجابة هي نفسها. «تلقّيت إيميلاً من قسم HR [الموارد البشريّة] في الجامعة [البريطانيّة] التي يعمل فيها الباحث المشرف، يقولون لي فيه إنّ البحث ملك للجامعة وقد تقاضيت أجري لإنجاز العمل»، يقول أحد المساعدين. «أرسل إليّ الباحث المشرف إيميلاً يقول لي فيه إنّ المعطيات كلّها والملكيّة الفكريّة للمشروع ملك للباحث المشرف وجامعته»! تعقّب على هاتين الحالتين ضحيةٌ ثالثة: «قال لي الأستاذ المشرف بأنّ هذه «مسألة مهنيّة» ولا ينبغي أن تؤثّر على علاقتنا العمليّة في المشروع».

خاتمة: الخيبة حيال التعليم العالي البريطانيّ في الخارج

أحد أهداف صندوق أبحاث التحدّيات العالميّة الجديد التابع للحكومة البريطانيّة، الذي يموّل قسماً كبيراً من صناعة الأبحاث المتعلّقة باللاجئين السوريّين في الخارج، هو تقديم «أفضل الممارسة العالميّة»، عبر رعاية «جماعات بحثيّة وتحالفات تعليميّة جديدة» علاوةً على «صوغ شراكات قويّة ودائمة بين المجتمعات البحثيّة في بريطانيا ومثيلاتها في الجنوب العالميّ» (BEIS، ٢٠١٧: ٦، ٩). وبالنّسبة إلى مساعدي الأبحاث المحليّين العاملين في هذه الصناعة، في لبنان على الأقلّ، كانت تجربة الاغتراب والاستغلال تُفضي إلى اتّجاهٍ مختلف تماماً، نحو خيبةٍ



متنامية حيال المؤسّسة الأكاديميّة، والتعليم العالي البريطانيّ على الأخصّ. وتتركّز خيبة مساعدي الأبحاث، جزئيّاً، في انهيار المُثُل التي كانوا يؤمنون بها سابقاً بشأن معرفة الخبراء: إذ غالباً ما يُصدَم المساعدون حين يدركون ضحالة القدرات المحدودة لـ (بعض) الباحثين المشرفين، بما فيها افتقارهم إلى المهارات اللغويّة وخصوصاً العربيّة، وافتقارهم إلى الفهم العميق لسورية أو لبنان، واعتمادهم على المساعدين في الاضطلاع بالمسؤوليّة حيال جزء يتزايد دوماً من السيرورة البحثيّة. كما تتركّز الخيبة على القيمة الاجتماعيّة الأوسع للبحث الأكاديميّ، حين يشاهد المساعدون ويلمسون طبيعة المقاولات وأحياناً طبيعة المصلحة الخاصّة في صناعة الأبحاث المتعلّقة باللاجئين، تلك الطبيعة التي تعمل على استخلاص المعلومات من مجتمعات اللاجئين في لبنان (وأماكن أخرى) من أجل إنجاز نتاجاتٍ أكاديميّة وإرضاء متطلّبات المموّلين. وفيما تكون ردّة فعل بعض المساعدين هي التّعامل بسينيكيّة مع العمل الأكاديميّ، أو التطلّع إلى إيجاد طرق جديدة ليصبحوا نوعاً «مختلفاً» من الأكاديميّين، يحسّ البعض الآخر برغبةٍ تدفعهم إلى ترك البحث الأكاديميّ كلّه. «إنّ فكرة إنجاز البحث ثمّ الاكتفاء بالمغادرة، الإنصات إلى قصص النّاس وآلامهم، واستخدامها كمادّة من أجل كتابة الأوراق البحثيّة، ومن ثمّ نسيان الأمر كلّه»، تقول إحدى المساعدات وتضيف: «لست واثقة من أنّني قادرة على احتمال الأمر، لم أُخلق من أجل هذا، لا يبدو الأمر صحيحاً بالنسبة إليّ».

التعامل مع هذه المشكلات يعني الدعوة إلى أجور منصفة. وعقود عمل مضمونة. وتأليف مشترك وحقوق ملكية فكرية لمساعدي الأبحاث في جميع أنحاء العالم.

ولقد حاججت أدبيّات نقديّة سابقة تناولت قضيّة مساعِدي الأبحاث الميدانيّين في الخارج من أجل انفتاح أكبر ونقدٍ عاكسٍ في الكتابة الأكاديميّة حيال دور المساعدين في الميدان مطلقين دعوةً من أجل «معاودة الكتابة عن مساعدي الأبحاث في اعتباراتنا الجمعيّة» (Middleton and Cons، ٢٠١٤: ٢٧٩). وتشدّد هذه الأدبيّات على الحاجة إلى التمعّن بحرص في الأبعاد الاقتصاديّة والسياسيّة والإثنيّة لعلاقات العمل بين الباحثين المشرفين ومساعدي الأبحاث، والتمعّن على الأخصّ في مسائل التأليف، وحقوق الملكيّة الفكريّة، والأجور، وشروط العمل كلّها. وفي مطلق الأحوال، إذا أردنا الوصول إلى الفهم الدّقيق للمشكلات الناتجة في تجربة مساعدي الأبحاث العاملين في صناعة الأبحاث المتعلّقة باللاجئين السوريّين في الخارج (وغيرها من الأبحاث)، فنحن بحاجة إلى توسيع وجهة نظرنا. ولا تتشكّل ظاهرة الاغتراب، والاستغلال والخيبة بين أوساط مساعدي الأبحاث الخارجيّة في المشاريع البحثيّة ذات الإشراف البريطانيّ من خلال علاقات العمل داخل مكان العمل وحسب، بل أيضاً من خلال الاقتصاد السياسيّ الأوسع المتعلّق بكيفيّة إنتاج الأبحاث الأكاديميّة في الحقبة الراهنة. وبهذا، نشير خصوصاً إلى: الانتقالات في العلاقات بين البحث الأكاديميّ والدولة، والمصلحة المتزايدة للحكومة البريطانيّة في توجيه أجندات البحث ومحو الحدود بين البحث، والإغاثة، والسياسة الخارجيّة، ومصالح الأمن القوميّ، وتصاعد نزعة المقاولة البحثيّة وثقافة المَنَح في الجامعات البريطانيّة، والتغيّرات المتزامنة في أدوار العمل ومسارات المهنة الخاصّة بالباحثين الأكاديميّين البارزين، تشعّب قوّة العمل الأكاديميّة العالميّة، والتوسّع المتواصل لهامش متقلقلٍ من المتخرّجين الذين لا تُتاح لهم إلّا عقود عملٍ موقّتة متزعزعة، التفاوتات المستمرّة في السلطة، والثروة والمعرفة بين الأكاديميّين في بريطانيا وباقي الشمال العالميّ، بالمقارنة مع المجتمعات التي يتعامل معها هؤلاء الأكاديميّون في لبنان وأماكن أخرى في الجنوب العالميّ، وانتشار نموذج كليّ للتّعاقد من الباطن في الحياة الأكاديميّة، حيث لا يُترَك إلّا فتاتٌ، في حال تُرك أيّ شيء، لا يمكن تقسيمه أو تلزيمه بالنّسبة إلى الآخرين من أجل دفع أجورهم على أساس موقّت عن طريق التّفويض.

والتّعامل مع هذه المشكلات يعني الدعوة إلى أجورٍ مُنصفة، وعقود عملٍ مضمونة، وتأليفٍ مشترك وحقوق ملكيّة فكريّة لمساعدي الأبحاث في جميع أنحاء العالم. بل ويعني أكثر من هذا، إذ يستلزم إعادة تفكيرٍ جوهريّة وإعادة تكوين للإنتاج العالميّ للأبحاث الأكاديميّة، في ما يخصّ العلاقات بين البحث الجامعيّ والدولة، الباحثين الأكاديميّين والسيرورة البحثيّة، التدريب البحثيّ وتوظيف الباحثين، وأخيراً وليس آخراً، توزيع الثروة، والسلطة، وتوجيه الأجندات والممارسات البحثيّة بين الباحثين الأكاديميّين العاملين في بقاعٍ مختلفة في الشمال والجنوب العالميّين.

الغرق بين ضفتَين
اسلامٌ هنا واسلامٌ هناك

سحر مندور

باحثة وروائيّة، مصر ولبنان. عملت في جريدة السفير طوال سنوات عدة، وكتبت أربع روايات، منها «حب بيروتي» (٢٠٠٨) و«مينا» (٢٠١٢).

قرّرت الانتظار حتى عودتي إلى لندن بعد زيارة إلى القاهرة في نيسان / أبريل من العام ٢٠١٥ لاختيار موضوع أطروحة الماجستير التي اعتزمت إعدادها. تعلّمت الكثير في الجامعة بعد مضيّ أشهر قليلة على وجودي في العاصمة البريطانيّة، غير أنّني شعرت بأنّ قائمة أولويّاتي أضحت تتّسم بطابعٍ ما بعد استعماريّ، إذ أصحبت قضايا الإسلاموفوبيا والتطرّق إلى الاستشراق والعنصريّة والمركزيّة الأوروبيّة ومفاهيم ووجهات نظر مهمّة أخرى تسيطر على أفكاري.

بيد أنّ هذه المسائل لم تكن القضايا التي كافحت من أجلها ومعها خلال الـ١٧ سنة الماضية التي عشتها كناشطة في لبنان. كان كفاحنا في بلاد الأرز ضدّ الإسلام ومؤسّساته، والمسيحيّة ومؤسّساتها، والدكتاتوريّين القوميّين والليبراليّين الجدد والفساد، ناهيك عن الاستبداد والإجحاف الهائلين. كانت بُنى الاستبداد تلك كامنة في كلّ قضيّة كافحنا من أجلها، فعلى سبيل المثال حاربنا كلّ هذه البنى حين كنّا نتحرّك لحماية النّساء من العنف الأسريّ. ثمّة العديد من النقاشات والمعارك البارزة هنا وهناك (في الغرب والشرق) مثل الإسلام والنوع الاجتماعيّ، والاستعمار، والعنصريّة، إلّا أنّ الأوساط الأكاديميّة الغربيّة ما بعد الاستعماريّة غالباً ما تحارب الإسلاموفوبيا في الغرب الأوروبيّ الأميركيّ فيما نخوض معركتنا ضدّ الإسلام السياسيّ والاجتماعيّ في هذه المنطقة من العالم.

وعلى الرّغم من إقراري بأنّ التموضعات المختلفة تخلق أولويّات مختلفة، إلّا أنّني مقتنعة بأنّ بعض الباحثين المتخصّصين في مابعد الاستعمار أغفلوا الالتزام الهامّ بمثل هذه التّموضعات ولم يُعدّوا مداخلاتهم بطريقة متناسبة. لذلك أعتقد أنّ دراسة التموضعات بطريقة نقديّة تسمح بإنتاج خطابٍ جوهريّ يدعم المضطهدين ضدّ جميع البنى القمعيّة هنا وهناك (في الغرب وفي الشرق) إلا إذا تمّ اعتماد مقاربة هرميّة لهذه المسألة عن وعيٍ أو من غير وعي.

أرادت باحثةٌ مرموقة في واحدة من أعرق الأوساط الأكاديميّة في العالم الإعراب عن تضامنها مع النساء الأفغانيّات اللاتي تعانين من طالبان، والقاعدة، والفقر، والنظام الأبويّ وعقودٍ من الحروب الاستعماريّة. لهذه الغاية حُصرتْ كرامة تلك النسوة بالبرقع ووجّهت انتقادات حادّة إلى تجمّع نسويّ محليّ لتحدّيه الإسلام. هذا ليس عملاً تضامنيّاً بل تفسيرٌ من أعلى إلى أسفل، اختارت الباحثة من خلاله المشاركة في الخطاب الاستعماريّ الذي يحكم الأوساط النخبويّة عوضاً عن تناول القنابل والقوانين المجحفة التي تحاصر تلك النساء. انجرّت الباحثة مع حماسة الحرب ما بعد الاستعماريّة ضدّ الخطابات الاستعماريّة، وأهمّيّة هذه الحرب ومركزيّتها وعنفها بدل أن تهتمّ بمآسي الحياة في أفغانستان والعراق وسورية ولبنان ومصر وليبيا واليمن وغزّة.

واجهتُ في جامعة أكسفورد المحافظة وفي بعض حلقات النّقاش التي حضرتها في كليّة الدراسات الشرقيّة والأفريقيّة في جامعة لندن، بشكل متكرّر، باحثين مرموقين يدّعون أنّ الإسلامويّة هي ثقافة «تلك المنطقة» وإن رغب أحدهم في أن تحكم هذه النسخة من الإسلام، ينبغي أن يكون ذلك الحكم ديمقراطيّاً وسياسيّاً كما واجتماعيّاً.

يُصار عند ذاك تأطير الإسلام السياسيّ كحقٍّ ممنوح لنا من قبَل الباحثين المتخصّصين في مرحلة ما بعدَ الاستعمار الذين يستفيدون من أدوات علمانيّة لوضع تصوّرهم حول المنطقة. تتمحور الفرضيّة الاستعماريّة حول حقيقة أنّ الغرب الاستعماريّ تمكّن على الدوام من

بناء تحالفات مع البنى الإسلاميّة الاستبداديّة والطغيانيّة من دون أن يكون لديه انطباع بأنّه معادٍ للإسلام. وتمّ الترحيب بعد ذلك بملايين من الجنيهات الإسترلينيّة التي صبّت لشراء قصورٍ قبالة حديقة هايد في لندن أو مطلّة على جادة الشانزليه في باريس من دون الاهتمام بمسألة معاداة الإسلام.

وحتى قبل ظهور الدولة الإسلاميّة في الشام والعراق (داعش)، لم يعد شعار «هذا ليس الإسلام الحقيقيّ» مجرّد خطاب ما بعد استعماريّ إذ أصبح شعاراً يرفعه الملوك والدكتاتوريّون العرب كما ورؤساء الدول الغربيّة وحكوماتها. وهو يتناسب تماماً مع شعار «أنا شارلي» (Je Suis Charlie) ويتناغم بشكل مثاليّ مع الانقسام القطبيّ الذي يشهده العالم منذ العام ٢٠٠١.

هذه القطبيّة قائمةٌ وتسيطر على العالم الذي تحكمه العولمة، ولكنّني لا أعتقد أنّها تميّز بين الخير والشرّ، وبين الشرق والغرب، وبين الإسلام والحداثة العلمانيّة أو بين أي ثنائيّة بارزة أخرى بعد الآن. هناك بالفعل استقطاب أو انقسام، لكنّه يفصل الاقتصادات العالميّة عنّا ويحميها من العدالة الاجتماعيّة. إنّ الباحثين المتخصّصين في مرحلة ما بعد الاستعمار يدركون ذلك. فهم يعلمون أنّ الإسلام هو عبارة عن بنية تتسّم في بلداننا بنسبةٍ عالية من الاستبداد والأبويّة والاضطهاد.

الإسلام هو عبارة عن بنية تتسم في بلداننا بنسبة عالية من الاستبداد والأبوية والاضطهاد.

إنّ ما يتسبّب بالفجوة بين الباحثين في الغرب والناشطين في الشرق هو «نعرف ولكن سنصمت في الوقت الحاضر» أو «نعرف لكنّ الموضوع مبالغ به أو غير ملائم» أو «نعرف أكثر ممّن يعانون من الطغيان نفسه» وهي فجوة يستدعي رأبُها تحمّل هؤلاء الباحثين حصّتهم من المسؤوليّة في تشجيع أو الترويج للخطابات التبريريّة تجاه الدّين الذي اكتسى طابعاً مؤسّساتيّاً. يحتاجون إلى مراجعة الدّور الذين تمّ تضليلهم للقيام به من دون التخفيف من الامتيازات إلى درجة خسارتها. على العكس من ذلك، فقد تعزّزت مسيرتهم المهنيّة. أظنّ أنّ الوقت قد حان للعمل على رأب الفجوة لأنّ الحاجة برزتْ لدى هؤلاء الباحثين إلى تحديث نهج محاربة الإسلاموفوبيا أو الخروج عنه للاقتراب من صياغة خطابٍ قادرٍ على معالجة العنصريّة والدولة الإسلاميّة في الشام والعراق في آن.

إنّ هذا الخطاب جوهريّ لميثاقيّتهم وضروريّ لإنتاج المعرفة في الوقت الرّاهن. في الواقع لن يقدّم هذا الخطاب أيّ جديد إنّما سيعالج واقع الظّلم والاستبداد كشبكة عالميّة من البنى المترابطة بشكل وثيق وذات الطابع المحليّ. تُتّخذ القرارات بشأن السياسات الدوليّة عالميّاً وتُدار الاقتصادات في أسواقٍ أكبر، وأصبحت التحالفات الدوليّة هي التي تدير الحروب، فأضحى التعذيب في مصر ضمن الأخبار العبر وطنيّة، فيما يقوم داعش بإعادة رسم حدوده وهويّاته.

لذلك أؤمن بضرورة تنظيم مقاومة هذه البنى بطريقة متقاطعة أيضاً. إنّها بنية استبداديّة كبيرة واحدة تختلف من حيث الحدّة والواقع والمبرّرات، وبالتّالي فإنّ وجود خطاب يؤطّرها على هذا النّحو أمر طبيعيّ.

أعتقد أنّ الرأسماليّة وسياساتها وأسواقها الاستعماريّة تمكّنت من السيطرة على الكثير من المواقع والخطابات ومنصّات الناشطين من خلال آليّات لا رجوع فيها. وأؤمن بأنّ ثنائيّة الـ«إمّا / أو» ومقاييس الديمقراطيّة والحداثة الناجمة عنها، سيطرتْ منذ زمن طويل على النقاشات الأكاديميّة.

كانت مناقشة الخطاب الاستعماريّ حول المرأة المسلمة مهمّة ولكن هل كان من المناسب تبجيل الحجاب في أفغانستان لهذا الغرض؟ هل كان من الملائم إسكات أو تشويه أعمال فرقة «دام» التي تناولتْ جرائم الشرَف في فلسطين واتّهام الفرقة بخدمة الأجندات / الخطط الاستعماريّة الإسرائيليّة والغربيّة؟ وعلى صعيد آخر فإنّ مكافحة الإسلاموفوبيا محقّة في أوساط المغتربين والمنتشرين، لكن هل تعتبر المعتقدات الدينيّة السبب الأوحد لاضطهاد المسلمين هناك؟ وهل من المناسب أكاديمياً مقاربة الإسلام هناك بطريقة غير سياقيّة باعتباره مختلفاً عن الواقع الإسلاميّ في منطقتنا؟

أختم بأنّ الجثث الغارقة في البحر المتوسّط كانت عالقة بين ضفّتين وليس ضفة واحدة!

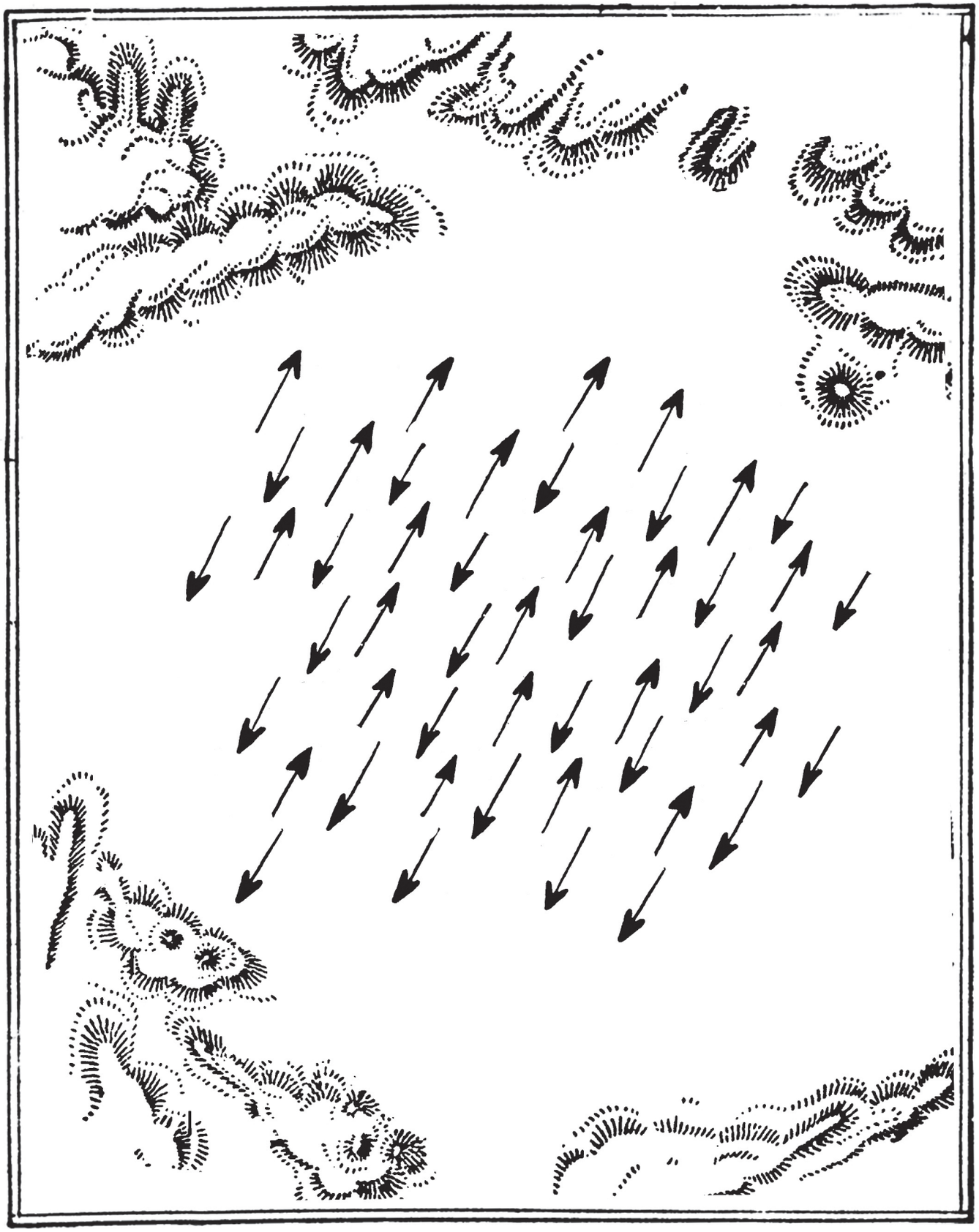

وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ

آلاء التنير

معمارية ومصممة من بيروت. تعمل حالياً على تنظيم ترينالي ميلانو في ربيع العام ٢٠١٩ إلى جانب كبيرة القيمين في متحف الفن المعاصر في نيويورك باولا انطونيلي.

إقراراً بمسؤوليّتنا المشتركة عن الأرواح التي زهقت في البحر المتوسّط، وفي لفتةٍ إلى تيودور جيركو، نحَتَ جايسون ديكير تايلور تمثالاً تحت الماء أطلق عليه اسم «طوف ميدوزا» ويجسّد زورقاً مطّاطيّاً متداعياً يحمل مجسّماتٍ لمهاجرين. وعلى الرّغم من أنّ مصير هؤلاء غير معروف إلّا أنّ شكل التمثال سيتحوّل مع مرور الزّمن. إذ ستقوم الشعب المرجانيّة، والطحالب، والقشريّات، وغيرها من الكائنات الحيّة باستيطان التمثال وتحويله وبثّ حياةٍ جديدة في أجساد المهاجرين الإسمنتيّة مضفيةً بُعداً جديداً معقّداً على التمثال كنظام إيكولوجيّ بحريّ.

السطح

فشلت الجهود المتزايدة التي بذلتْها البلدان الأوروبيّة لضبط حركة المهاجرين في البحر المتوسّط في وضع حدٍّ لموجات الهجرة اللاشرعيّة. فقد أدّتْ عوضاً عن ذلك إلى تجزئة مسارات الهجرة وتنوّعها وتسبّبت بفورةٍ في أنشطة التّهريب. استناداً إلى تقارير صادرة عن «يوروبول»، وكالة تطبيق القانون التابعة للاتّحاد الأوروبيّ، تسهّل شبكات التّهريب الغالبيّة العظمى من حركة الهجرة البحريّة غير الشرعيّة عبر البحر المتوسّط[١]. إذ يُنقل المهرّبون المهاجرون غالباً على متن سفنٍ مترنّحة تكون عادةً زوارق مطّاطيّة متردّية أو مراكب صيد خشبيّة متداعية[٢]. يزيد الاكتظاظ الشديد من مخاطر الرّكوب على متن السفن ذات الهياكل المتردّية. وتكون غالباً غير قادرة على تحمّل رحلاتٍ طويلة وبخاصّةٍ في ظروفٍ جوّيّة سيّئة.

وفي ردّ فعلٍ على أزمة الهجرة المستفحلة، وبهدف توحيد جهود المراقبة فيما بينها، أنشأت الدّول الأعضاء في الاتّحاد الأوروبيّ نظام مراقبة الحدود الأوروبيّة (EUROSUR) الذي يهدف إلى تعزيز التحكّم بالحدود البحريّة والبرّيّة الخارجيّة للاتّحاد الأوروبيّ من خلال تشجيع التعاون بين وكالات الحدود الأوروبيّة ونشر طَيفٍ واسع من تقنيّات المراقبة فائقة التطوّر. تشمل هذه التقنيّات، المرْكبات الجوّيّة غير المأهولة (UAVs) وأنظمة المراقبة عبر الأقمار الصناعيّة، وأجهزة الاستشعار البحريّة بالإضافة إلى أجهزة رادار يتمّ التحكّم بها من البحر والبرّ والجوّ من بين تقنيّات متعدّدةٍ أخرى. وعلى الرّغم من أنّ الرّوايات الرسميّة، كما ورد في تقرير «فرونتيكس» إلى البرلمان الأوروبيّ حول وظيفة نظام «EUROSUR»، تحرص على وصف النظام بأنّه جهد كبيرٌ يرمي إلى تحسين تحديد موقع الأشخاص في خطر أو الذين يحتاجون إلى المساعدة في عرض البحر[٣]، يشير آخرون إلى أنّ هذا النظام هو عبارة عن إطار عملٍ لتبادل المعلومات مصمّمٍ لتعزيز نجاح عمليّات اعتراضِ سفن اللاجئين وإعادتهم من حيث أتَوا[٤].

هناك قوانين واتفاقيّات ومعاهدات بحريّة إقليميّة ودوليّة تحكم سيادة الدول بدرجاتٍ متباينةٍ على مناطق مختلفة على المياه. ترتبط هذه القوانين والاتفاقيّاتُ والمعاهدات بممارساتٍ بحريّة علميّة وثقافيّة وإيكولوجيّة واقتصاديّة وتشمل بناء هياكل اصطناعيّة مثل منصّات النّفط والغاز بالإضافة إلى صيد الأسماك[٥]. كما يتمّ بموجبها تقسيم البحر إلى مناطق للبحث والإنقاذ تقوم دولٌ مختلفة بحسبها بتنظيم عمليّاتِ مساعدة الأشخاص المعرّضين للخطر فيها. إلّا أنّ هذه العمليّة تصبح معقدّة حين تتداخل منطقة البحث والإنقاذ التابعة لدولة ما مع المنطقة نفسها الخاصّة بدولة أخرى كما هو الحال بين إيطاليا ومالطا[٦]. ولسخرية القدَر، يقدّم هذا التعقيد القانونيّ والسياسيّ إلى الدَول ثغرً قانونيّةً للتنصّل من

مسؤوليّاتها في مجال الإنقاذ أو لرفض إنزال المهاجرين الذين تمّ إنقاذهم إلى أراضيها.
تشكّل أعالي البحار بالتالي مساحةً ملتفّةً من آليّات الحكم ذات التنظيم الرّخو مع قوانين بحريّة متباينة وغالباً موضع نزاعٍ ما يزوّد الدول المعنيّة بفرصةٍ كبيرة للتنصّل أو التبرّؤ بنجاح من واجباتها ومسؤوليّاتها في سياق حقوق الإنسان والقانون البحريّ. بالإضافة إلى ذلك ومنذ نهاية عام ٢٠١٦، أطلقت دولٌ أوروبيّة، وعلى نحوٍ خاصّ الحكومة الإيطاليّة، حملةً عدائيّة منظّمة لنزع الشرعيّة عن عمل سفن الإنقاذ التي تديرها منظّمات غير حكوميّة وعرقلتُه في مسعىً لصدّ موجات الهجرة في مسار وسط المتوسّط، واعتمدتْ سياساتٍ ترمي إلى: أوّلاً توسيع منطقة البحث والإنقاذ الخاصّة بليبيا بحيث يصبح من الصّعب على السّفن الأوروبيّة وسفن المنظّمات غير الحكوميّة العمل ضمن هذه المناطق، الأمر الذي أدّى إلى ارتفاع عدد المهاجرين الذين يضطرّون إلى العودة إلى المخيّمات الليبيّة التي تشهد انتهاكاتٍ صارخةً ودوريّة في حقوق الإنسان الخاصّة، وثانياً تزويد حرس الشّواطئ في ليبيا بمزيدٍ من المعدّات والموارد، وثالثاً إقفال الموانئ الإيطاليّة أمام سفن الإنقاذ التي تديرها المنظّمات غير الحكوميّة[٧].

ونتيجةً لهذا الموقف من الهجرة، ارتفعت معدّلات الخسائر في الأرواح على نحو مقلق للغاية في البحر المتوسّط. وبحسب تقارير صادرة عن مكتب مفوّض الأمم المتّحدة لشؤون اللاجئين، فإنّ واحداً من أصل ثمانٍ وثمانين شخصاً لقي حتفه في البحر في عام ٢٠١٦، الأمر الذي يمثّل ارتفاعاً حادّاً بالمقارنة مع واحدة من كلّ ٢٦٩ حالة وصول في عام ٢٠١٥. وبعد مضيّ أقلّ من ثمانية أشهر على بداية عام ٢٠١٨، أصبحتْ هذه الأرقام مقلقةً أكثر حيث وصلتْ نسبة الوفيّات إلى واحد من كلّ ٣٥ مهاجراً[٨].

أيّ رجال، أيّ وحوش، أيّ عرف غير إنسانيّ
أيّ قوانين، أيّ عادات وحشيّة لهذا المكان
تغلق شاطئاً فارغاً أمام رجالٍ يغرقون
وتعيدنا إلى البحر القاسي من جديد؟
الإنيادة، الكتاب الأوّل، ٧٦٠ - ٧٦٣[٩]

تحت الماء

في دراسة له حول مصر في القرن العشرين، يشير تيموثي ميتشل إلى أنّ مصر تعرضّت في صيف عام ١٩٤٢ إلى نوعين من الغزو: ففي حين شكّل الجنود الألمان الغزاة الأكثر وضوحاً إلّا أنّ الغزو الثاني كان من البعوض الحامل للملاريا. ويشير ميتشل إلى «أنّ نصف الغزاة كانوا من البشر، لذلك فهو العنصر الوحيد الذي يؤتى على ذكره على الرّغم من أنّ الإصابات في المعركة الأخرى كانت أكبر»[١٠].

وقد تبيّن أنّ وجود عوالق بحريّة مثل السوطيّات (dinoflagellates) بنسَب تركيزٍ مرتفعة يتسبّب بما يُعرف عادةً بالمدّ الأحمر. يتحدّث هوميروس في إلياذته الشهيرة عن البحر ذي اللون النبيذيّ الدّاكن في معرض وصفه لسطح البحر المتوسّط، وهو توصيف يتكرّر في القصائد وأثار حيرة اليونانيّين لعقود طويلة. ومعروفٌ أنّ تكاثر الطحالب الحمراء حالةٌ تشكّل فيها العوالق النباتيّة تجمعّات كثيفة ومرئيّة بالقرب من سطح المياه تؤدّي إلى تغيّر لون المياه وتحوّله إلى الأحمر.

وبحسب العلوم الجنائيّة الخاصّة بالغرق، فإنّ جثث الموتى في مياه البحر تتسبّب في طفرة في كثافة العوالق النباتيّة حولها ولا سيّما الدياتومات (diatoms) أي العوالق النباتيّة أحاديّة الخلايا، والسوطيّات (dinoflagellates)[١١]. ويؤدّي وجود أعداد كبيرة من الجثث / الأجسام المتّصلة في المياه إلى زيادة كبيرة في نموّ هذه العوالق. وعلى نحوٍ مماثل، جمَع تمثال ديكير تايلور جثثاً متراكمة لمهاجرين تمّ التخلّي عنهم عمداً وعوالق نباتيّة لتشكّل مستوطنةً حمراء جديدة في البحر المتوسّط. تؤدّي هذه الحركة على سطح المياه إلى حالةٍ من التّتريف (النمو المفرط) في العمود المائيّ فتؤدّي كثرة السوطيّات إلى نضوب الأكسجين من تلك المناطق وهي حالة يصعب فيها على معظم الكائنات البحريّة البقاء على قيد الحياة، وتمهّد السبيل أمام الكائنات الانتهازيّة، مثل قنديل البحر، للتكاثر. ولعلّ أحد أسباب صمود قناديل البحر يعود إلى أنّ سلالاتها تتحمّل مستوياتٍ متدنّيةً من الأكسجين بشكل أفضل من الكائنات الأخرى ذات الحاجات التنفسيّة الأكبر. كما يُعتقد أنّ نقص التأكسج يعزّز شراسة قناديل البحر بما أنّها تستفيد من أكل الفريسة الضعيفة. وبالتالي ينجم عن تحوّل المنظومة البيئيّة تكاثرُ الطّحالب الضارّة مؤذيةً سلسلةً غذائيّة تصبّ في مصلحة قناديل البحر وتشجّع تكاثرها وتؤدّي إلى انتشار حادّ ومتكرّر لقناديل البحر[١٢].

هناك خصائص متعدّدة لسيطرة قناديل البحر على البيئة البحريّة من ضمنها: التّداخل مع البنية التحتيّة

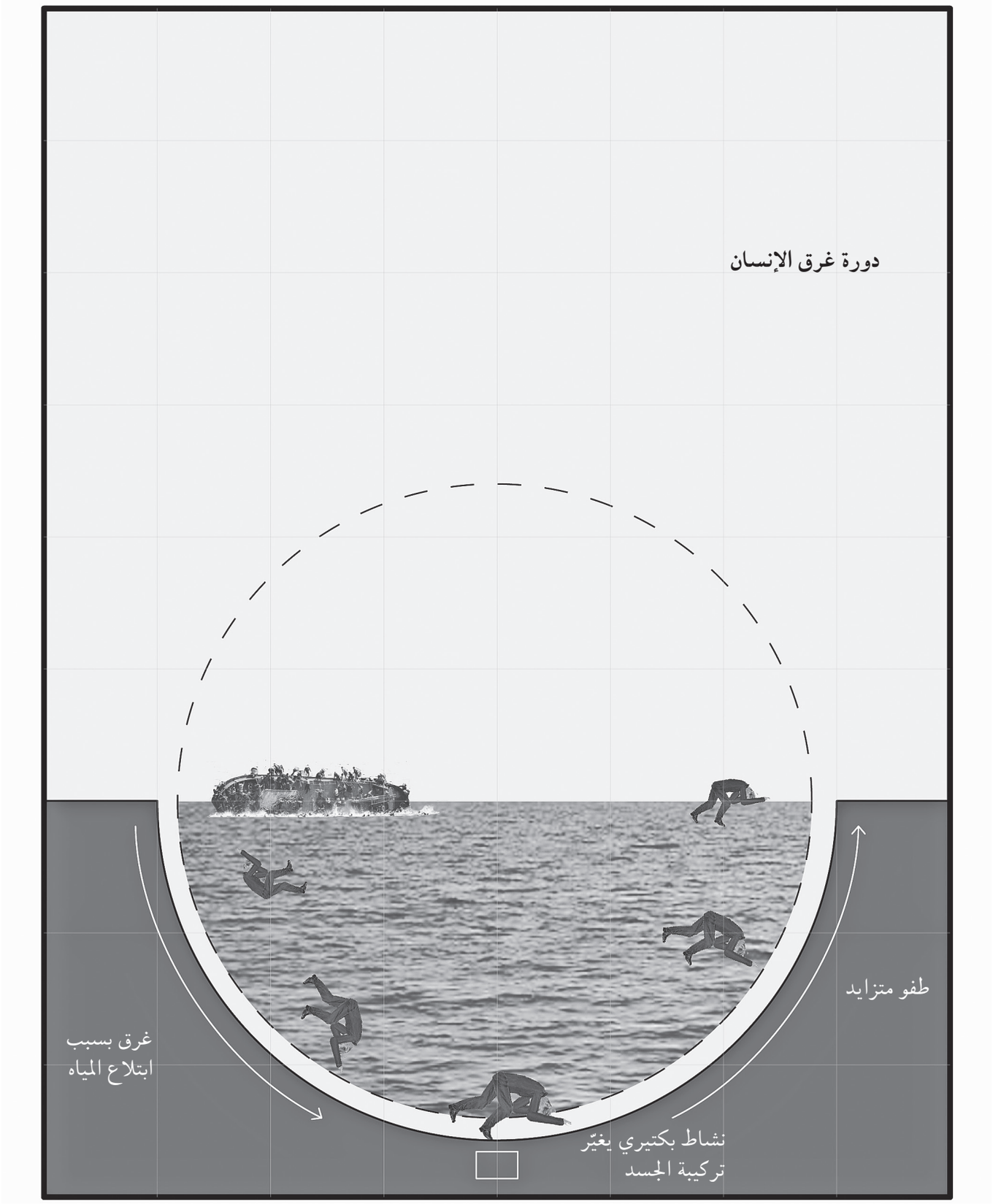
دورة غرق الإنسان
طفو متزايد
غرق بسبب
ابتلاع المياه
نشاط بكتيري يغيّر
تركيبة الجسد

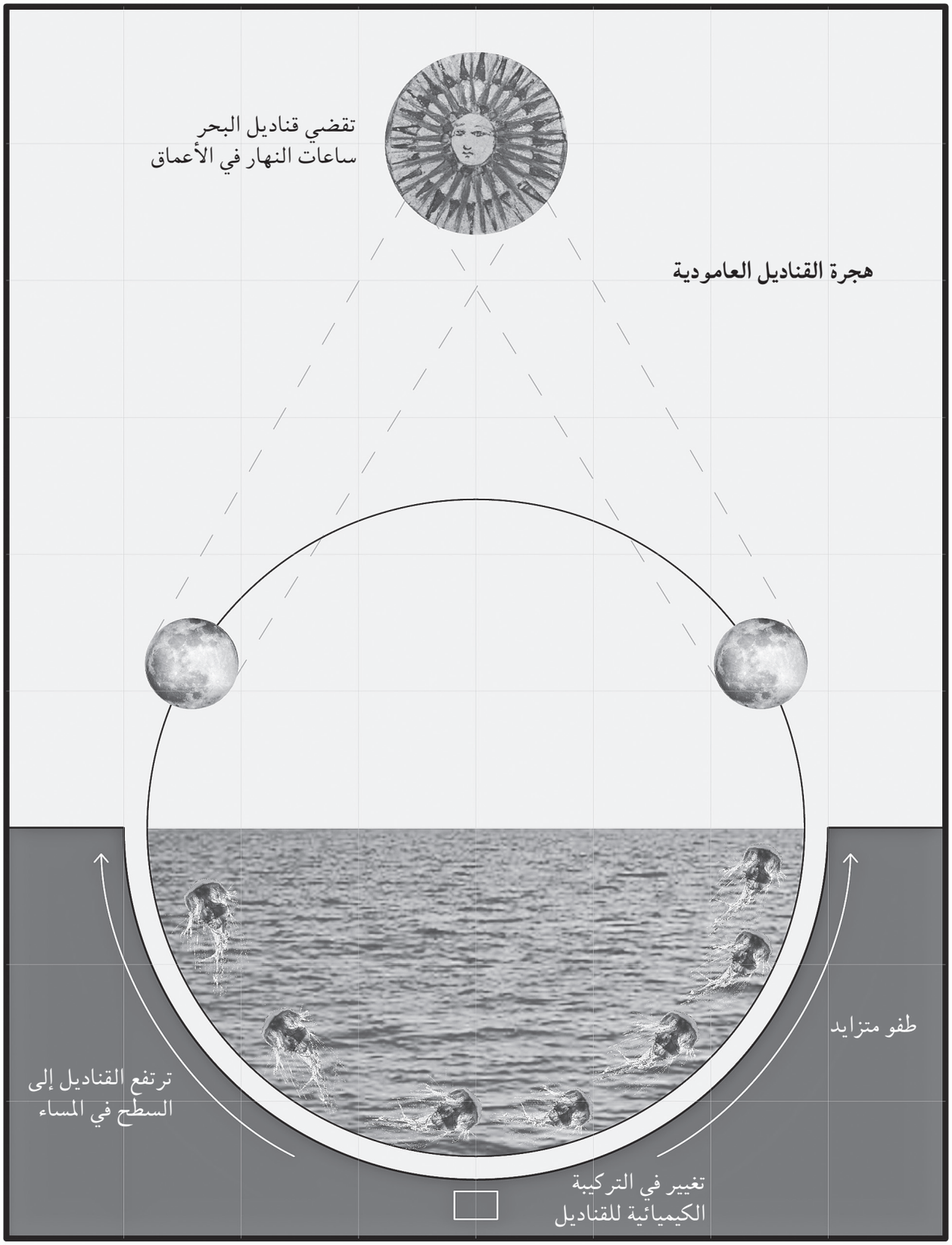
تقضي قناديل البحر
ساعات النهار في الأعماق
هجرة القناديل العامودية
طفو متزايد
ترتفع القناديل إلى
السطح في المساء
تغيير في التركيبة
الكيميائية للقناديل

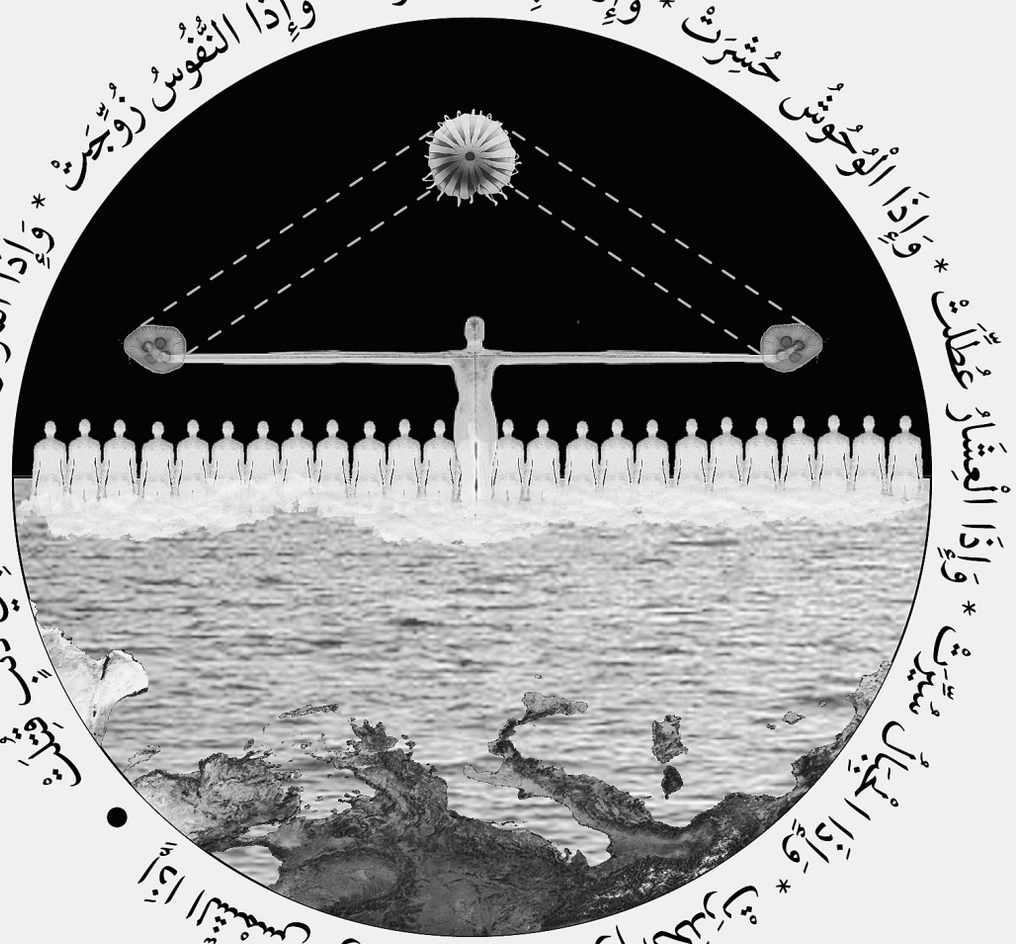
إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ

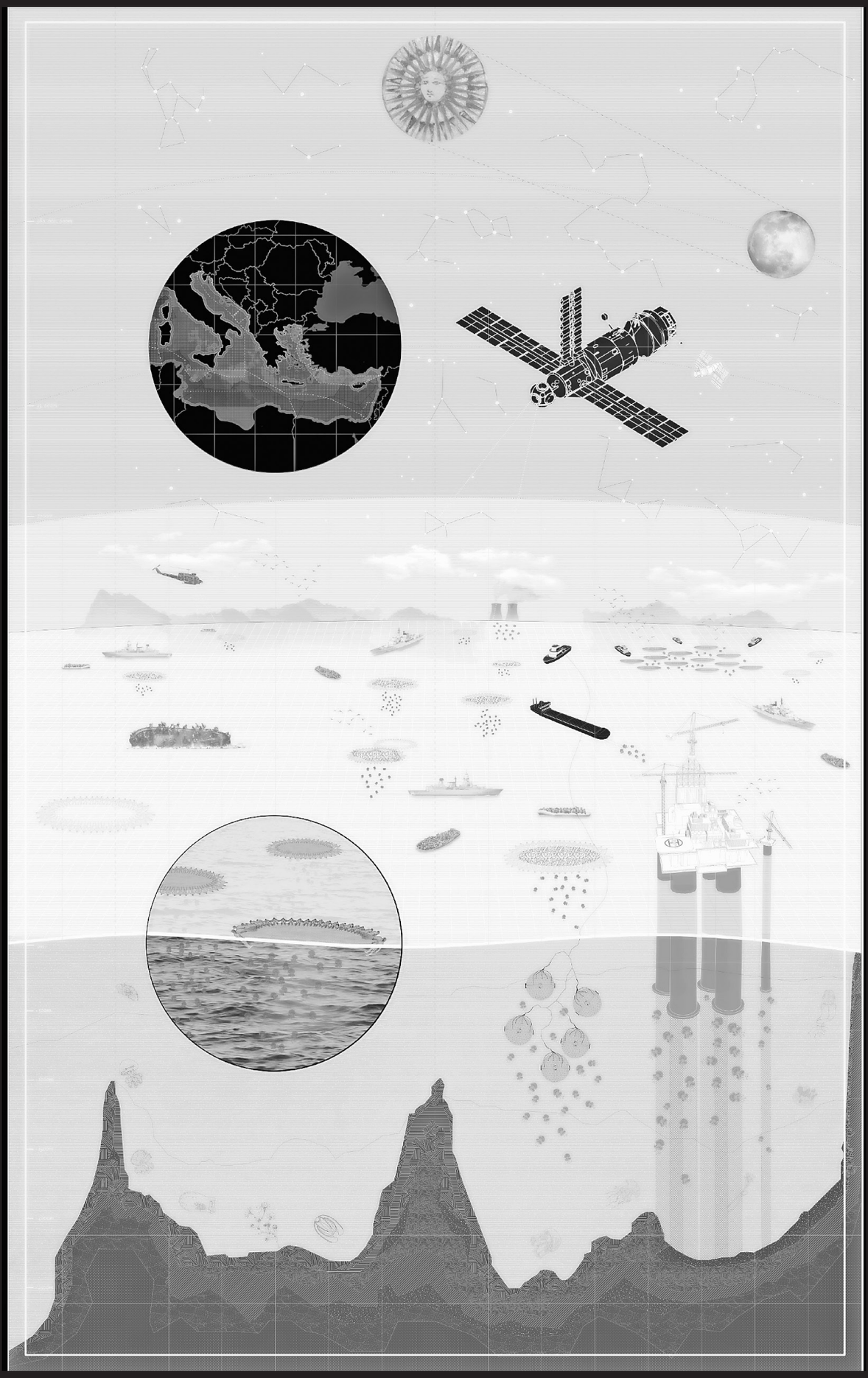

البشريّة على الشاطئ وفي عرض البحر بما أنّها تسدّ الأنانيب تحت المياه. ففي السنوات الأخيرة اضطرّت السّلطاتُ الإسرائيليّة مرّات متعدّدة لإقفال مفاعل

من خلال إزالة العوائق والحدود بين البشر والقوى الطبيعية. توسع نطاق المقاومة والصمود من البحر إلى السماوات حيث تنقل أجهزة المراقبة (الأقمار الصناعية) صورا لبقع حمراء تتشكل حول أجساد المهاجرين المنسية عمدا على سطح المياه.

أوروت رابين للطّاقة النوويّة في الخضيرة، أكبر مفاعل نوويٍّ في إسرائيل، بسبب انتشار أسرابٍ كبيرة من قناديل البحر في حوض التبريد وأنابيب سَحْب مياه البحر، الأمر الذي تسبّب في كلّ مرّة بخسائرَ تقدّر بآلاف الدولارات[١٣]. كذلك تؤدّي إلى تغيير البيئة البحريّة من خلال تحويل السلسلة الغذائيّة لمصلحتها[١٤] وإبادة تربية المائيّات من خلال القضاء على مزارع الأسماك. إذ تتمكّن أسراب قناديل البحر مدفوعةً بالتيّارات البحريّة من الدّخول عبر شبَاك الأقفاص في عرض البحر وتتسبّب بالأذى الفعليّ للأسماك المحتجَزة. وفي بعض الحالات أدّى دخول قناديل البحر الأقفاصَ إلى نفوقٍ جماعيّ للأسماك ذات الزّعانف جرّاء تسمّمها. تجدر الإشارة إلى أنّ تربية المائيّات تعتبر مصدراً أساسيّاً لانتاج الأغذية في البحر المتوسّط، وبالتّالي فإنّ اجتياح قناديل البحر لمزارع الأسماك يؤدّي إلى تبعاتٍ اقتصاديّة مقلقة للغاية على هذه المرافق. ففي عام ٢٠٠٩ أدّى النفوق الجماعيّ الذي يسبّبه دخول أسراب من قناديل البحر إلى مزرعةٍ للأسماك في تونس إلى إفلاس الشركة التي تدير المصيدة، وفي عام ٢٠١١ تسبّبت حادثةٌ مماثلة بخسائر فاقتْ عشرات آلاف الدولارات لشركة إسبانيّة[١٥]. كذلك تتسبّب القناديل بتضرّر السياحة الشاطئيّة بسبب التهديد الذي تفرضه لسَعاتها، وتؤثّر على اقتصادات الدول من خلال عرقلة تدفّقاتٍ كانت تعتبر موثوقةً في السابق لرؤوس الأموال. إنّ الزّيادة الكبيرة في أعداد قناديل البحر والتعطيل الناجم عنها الذي يطاول الصناعات البشريّة وتراكم رأس المال لها أهمّيّة سياسيّة هائلة بما أنّ أيّ دولة لن تشهد استقراراً سياسيّاً إذا لم تكن مقتدرةً اقتصاديّاً.

إذا لم يأتِ حّظنا الصعب بالتعاطف
أو حقوق ضيافة، أو قوانين إنسانيّة
فإنّ الآلهة عادلون وسينتقمون لنا

الإنيادة، الكتاب الأوّل، ٧٦٤ - ٧٦٦ [١٦]

دوّامات حمراء في مياه البحر الزّرقاء

اضطهَدت القوى الاستعماريّة الجديدة الشعوب وجعلتْها غير مرئيّة في المياه، كما أخلّت بتوازن الأنظمة البيئيّة البحريّة من خلال استغلال الموارد الطبيعيّة بطريقة لا سبيل للرّجوع عنها. فمن خلال إزالة العوائق والحدود بين البشر والقوى الطبيعيّة، توسّع نطاق المقاومة والصمود من البحر إلى السماوات حيث تنقل أجهزة المراقبة (الأقمار الصناعيّة) صوراً لبقع حمراء تتشكّل حول أجساد المهاجرين المنسيّة عمداً على سطح المياه. في تلك اللحظة ترتفع أسراب قناديل البحر من أعماق البحر إلى السطح فتتكاثر وتحتلّ البحر. يمنح مثلُ هذا التّحالف المتخيَّل بين الأصناف والكائنات صورةً عن الواقع غير المُنصف الذي تفرضه الرأسماليّة العالميّة على البشر والطبيعة، ترسم عالَماً يترنّح دائماً بين الحقيقة المختلّة والمستقبل الحافل بالأمل.

الهوامش

١ Europol, Interpol (2016), *Migrant Smuggling Networks*
٢ Med, *Risks, Rights & Safety at Sea*
٣ Frontex (2015), *Report to the European Parliament and the Council on Art 22 (2) of Regulation (EU) No 1052/2013 - The functioning of Eurosur*, report no. 20.580/2015
٤ Hayes, B. and Vermulen, M (2012), *Borderline The EU's New Border Surveillance Initiatives Assessing the Costs and Fundamental Rights Implications of EUROSUR and the «Smart Borders»*
٥ United Nations Division For Ocean Affairs and The Law Of The Sea (1982), United Nations Convention on the Law of the Sea
٦ The Med, *The Sea as Frontier*
٧ Blaming The Rescuers, Report
٨ Missing Migrants, Total of Deaths Recorded in the Mediterranean from 01 January to 18 July
٩ Virgil. Dryden, J. and Keener, F. (1997). *Virgil's Aeneid*
١٠ Mitchell, T. (2002), «Can The Mosquito Speak?», *Rule of Experts: Egypt, Techno-Politics, Modernity*, p. 22
١١ Gannon, K. and Gilbertson, D. (2014), «Brian Richard Welzien», *Case Studies in Drowning Forensics*, pp. 96 - 99
١٢ Gershwin, L. (2013) *Stung*, pp. 168 - 180
١٣ Ibid, pp. 350 - 358
١٤ Gershwin, L. (2016), *Jellyfish: a natural history*
١٥ Bosch-Belmar, M., Azzurro, E., Pulis, K., Milisenda, G., Fuentes, V., Kefi-Daly Yahia, O., Micallef, A., Deidun, A. and Piraino, S. (2017). «Jellyfish blooms perception in Mediterranean finfish aquaculture», *Marine Policy*, 76: 1 - 7
١٦ Virgil. Dryden, J. and Keener, F. (1997). *Virgil's Aeneid*



الملحق

١٣٠ **أن تكتب بلغة أجنبيّة**
إتيل عدنان

١٣٩ **الحركة السوريالية**
في بيروت الثلاثينيّات
«دخلنا الفنّ من باب المطبخ»
جاد تابت

١٥٠ **عندما تحكي المرأة**
صورة النساء في أدب الأطفال
نجلا جريصاتي خوري

١٥٨ **بورخيس يبحث عن ابن رشد**
سالار عبده

١٦٠ **مسكب ورد في فلسطين**
رياض بيدس

١٦٣ **نظريّة التّلقّي**
من المتلقّي العدوّ
إلى المتلقّي المهادن
أسماء السكّوتي

١٧٣ **في الحيّ الّذي نسكن**
زينب سرور

أن تكتب بلغة أجنبيّة

إتيل عدنان

روائية وشاعرة ورسامة ومؤلفة مسرحية من سورية ولبنان. من اعمالها المترجمة الى العربية «الستّ ماري روز»، «سفر الرؤيا العربي»، «مدن ونساء: رسائل الى فواز»، «قصائد الزيزفون»، «باريس عندما تكون عارية»، «في قلب قلب مدينة أخرى».

اللغات تبدأ في البيت. لذا سوف أبدأ بقصّة علاقتي بعدّة لغات وبالطريقة التي أثّر بي استخدام لغات لم يكن لي أن أتكلّمها أو أستخدمها في كتابة الشعر أو النّثر بشكل طبيعيّ. أبدأ ببعض المعلومات عن بيئتي العائليّة وكفاحها حول هذا الموضوع. كانت أمّي يونانيّة من إزمير، هذا عندما كانت إزمير، قبل الحرب العالميّة الأولى مدينةً ذات أغلبيّة يونانيّة، تسكنها جماعةٌ ناطقة باليونانيّة داخل السلطنة العثمانيّة. وأبي كان عربيّاً. ولد في دمشق بسورية. في سنّ الاثنتي عشرة، دخل الكلّيّة العسكريّة في إسطنبول، التي كانت تسمّى «الكلّيّة الحربيّة». كان ذلك في أواخر القرن التّاسع عشر. كانت دمشق جزءاً من السلطنة العثمانيّة وكان أبي ضابطاً عثمانيّاً. ولمّا كانت تركيّا حينذاك حليفةً لألمانيا القيصريّة، تلقّى والدي تدريبه بالتركيّة والألمانيّة والفرنسيّة، إضافة إلى دراسته السابقة بالعربيّة. كانت الفرنسيّة تُدرّس في السلطنة العثمانيّة كثقافةٍ عامّة، للأسباب ذاتها التي كانت تدرّس فيها أيضاً في روسيا.

أبي المسلم تزوّج من أمّي الأصغر منه سنّاً بكثير والتي تمثّل أيضاً ثقافةً مغايرةً عن ثقافته. كان ذلك مطلع الحرب العالميّة الأولي حوالي العام ١٩١٦ على ما قيل لي. كانا يتكلّمان التركيّة بينهما، ذلك أنّ اليونانيّين القاطنين في تركيّا كانوا جميعهم يعرفون القليل من التركيّة ولكنّهم يتكلّمون اليونانيّة في البيت والمدرسة. كانتْ حياتهم قريبةً جدّاً من كنيستهم وتتداخل لديهم الثقافة والدِّين. ونادراً ما كانت الزيجات تنْعقد خارج الجماعة الثقافيّة إيّاها.

كانت الإمبراطوريّة العثمانيّة سلطنة. ما يعني أنّها لم تكن دولةً ذات جماعة متجانسة من النّاس. كانتْ إمبراطوريّة لم تكن التركيّة فيها اللغة الأكثر تداولاً بين السكّان. ثمّ إنّ التركيّة ذاتَها كانت مليئةً بالمفردات والتعابير العربيّة لأنّ الأتراك، وهم مسلمون، كانوا يدرسون القرآن في المدرسة. وكان ثمّة أرمنٌ أيضاً في السلطنة يتكلّمون الأرمنيّة إضافةً إلى التركيّة. وهكذا فالكلّ تقريباً كان يعرف ولو بعضاً من لغة الآخر إضافةً إلى لغته مع أنّ الكلّ متجذّرٌ في لغة جماعته وحياتها. ولذا أقول إنّ التركيّة كانت اللغة المشتركة لأهلي. درستْ أمّي في دَيرٍ إلى أن بلغت الثانية عشرة، كان للفرنسيّين أديرةٌ في كلّ المدن الرئيسة وكان «المتعلّمون» يدرسون الفرنسيّة. القليل من الفرنسيّة، على الأقلّ. لذا كان والداي يفهمان الفرنسيّة، يألفان القراءة والكتابة فيها. كانت أمّي تتكلّم التركيّة لكنّها لم تدرسها. لذا فعندما أمضى والدي فترةً من الوقت على جبهة الدردنيل، قرب إسطنبول، خلال تلك المعارك الكبرى، كان يكتب لها الرسائل بالفرنسيّة. كانت لغته رومنطيقيّة، على غرار الرّوايات الألمانيّة والنمساويّة أو الروسيّة في ذلك الزّمن. ولأنّ تلك الرّسائل كانت محفوظةً بعنايةٍ تعتزّ بها أمّي وتسعد، أمكنني قراءتها بعد سنوات عديدة. كان يمكنها أن تجد مكاناً لها داخل رواية «الحرب والسلام» لتولستوي: فهي تتحدّث عن الحبّ، عن الحرب، عن الحياة وعن الموت. كتبها تحت هدير المدافع بالحبر الأسود وبخطٍّ يرسم الحروف بوضوح تامّ. لقد فُقِدت الآن، لكثرة التنقّلات في حياتي ولامبالاتي زمن الشباب.

اللغة العربيّة الممنوعة

ولدتُ في بيروت، لبنان، لأنّ والديّ غادرا تركيّا في نهاية الحرب العالميّة الأولى واستقرّا في بيروت. كانت بيروت قريبةً من دمشق، مسقط رأس أبي. بعد عدّة سنوات من ذلك، وُلدت في عالمٍ مختلف تماماً عن العالم الذي عرفه أبواي. كان الحلفاء قد احتلّوا المشرق العربيّ وقسّموه، واحتفظ الفرنسيّون لأنفسهم بمنطقةٍ قسّموها إلى سورية

ولبنان. وفي لبنان، باشروا فوراً في بناء شبكةٍ من المدارس الفرنسيّة يديرها قساوسةٌ ورهبانٌ وراهبات.

هكذا ارتدتُ مدرسة راهباتٍ فرنسيّة ودرسْت باللغة الفرنسيّة. شهد أبناء جيلي بلداً يحكمه فرنسيّون تمتّعوا لأنفسهم، ولصالح لغتهم وعوائدهم، بالهيبة للذين يمسكون بالسلطة. درسْنا في الكتب ذاتها التي كان يَدرس فيها الصبية الفرنسيّون في أوروبا، وقد بدتْ باريس كأنّها عاصمة الدّنيا فحفظنا أسماء العديد من الأشياء لم نكن نعرفها ولم نشهدها قطّ من قبل: أنهراً فرنسيّة، جبالاً فرنسيّة، تاريخ ذوي العيون الزّرق الذين بنوا إمبراطوريّة. كانت الرّاهبات اللواتي عانت عيالهنّ تحت اجتياح جيوش القيصر يكرهْن الألمان وقد نَقلْن إلينا كرْه الألمان. بمعنى ما، كنّا نتنشّق هواءً بدا فيه أنّ الانتماء لفرنسا يعني التفوّق على أيّ كان، والبداهة أنّنا لم نكن فرنسيّين. لكنّ خير ما نستطيع هو أن نتكلّم بالفرنسيّة على الأقلّ. تدريجيّاً، شعَرَ جيلٌ كاملٌ من الصّبيان والبنات المتعلّمين بأنّهم متفوّقون على الأولاد الأفقر حالاً الذين لا يرتادون المدارس ولا يتكّلمون غير العربيّة. وقد جرى التماهي بين اللغة العربيّة وبين التخلّف والعار. بعد سنوات، علمْت أنّ الأمر نفسه يجري على امتداد الإمبراطوريّة الفرنسيّة، في المغرب وتونس والجزائر وأفريقيا السّوداء والهند الصينيّة.

كنا نتنشق هواء بدا فيه أن الانتماء لفرنسا يعني التفوق على أي كان. والبداهة أننا لم نكن فرنسيين. لكن خير ما نستطيع هو أن نتكلم بالفرنسية على الأقل. تدريجيا. شعر جيل كامل من الصبيان والبنات المتعلمين بأنهم متفوقون على الأولاد الأفقر حالا الذين لا يرتادون المدارس ولا يتكلمون غير العربية. وقد جرى التماهي بين اللغة العربية وبين التخلف والعـــــــــــــار.

الأسلوب المستخدَم لتعليم الفرنسيّة للأطفال كان بذاته نوعاً من التطبيع النفسانيّ الذي لم يعترض عليه أحد، حيث النّاس يعتقدون أنّ كلّ ما تفعله الرّاهبات هو خيّر دوماً ويتّجه دوماً نحو الأفضل: وهكذا فكلّ المدارس المدارَة من الفرنسيّين يجري تكليف عددٍ من التلامذة المختارين بأن «يتجسّسوا» على الآخرين: فكلّ من يُسمَع في الصّفّ أو خلال الاستراحة وهو يتكلّم العربيّة يَلقى عقاباً وتوضع حصى صغيرة في جيبه: كان التكلّم بالعربيّة يعادل اقتراف خطيئة. كان معظم التلامذة يتحدّثون العربيّة في البيت ولكن لمّا صاروا هم أنفسهم آباء وأمّهاتٍ، بدأوا يتحدّثون بالفرنسيّة أو العربيّة لأطفالهم، او بمزيج من اللغتين.

بالعودة إلى طفولتي، تأخذني الذّاكرة إلى أبعد ما تستطيع، فأتذكّر أنّني كنت أتكلّم اليونانيّة والتركيّة إلى أن بلغْت الخامسة، عندما بدأت أرتاد المدرسة. ولأنّني كنت أتكلّم الفرنسيّة ويوجد فرنسيّون في المدينة - وبعضهم جيران تستخدم أمّي الفرنسيّة معهم وهي اللغة التي تعلّمتها في إزمير في طفولتها - صرنا أسرةً تستخدم الفرنسيّة أكثر فأكثر في البيت: تتكلّم بها أمّي بسرور وأبي يتردّد في استخدامها. ولذلك أسباب: أبي عربيّ يقيم في بلدٍ عربيٍّ ويتكلّم العربيّة في تعامله مع النّاس في البلد أو بين أصدقائه. أمّا أمّي، التي لا تجيد العربيّة، فكانتْ تتماهى إلى حدٍّ ما مع الفرنسيّين، مع أنّها لم تفكّر مرّة أنّ كونها يونانيّة يجعلها شبيهةً بهم. لا، كانت تعرف لغتهم فقط، وعلى نحوٍ منقوص، وتستخدمها، وقدْ شرعت تستخدمها أيضاً معي، أنا الطفل الوحيد في زواجها.

أذْكر والدي، الذي كان هرماً قياساً إليّ كطفلة ويبدو كَجَدّ بالنّسبة إلى باقي الأطفال، كأنّه يصحو من حلم، بين فينةٍ وأخرى، وينشغل له بال فجأة، فيقول لأمّي ما معناه: «لسنا في فرنسا، وكلّ هذا الكلام الفرنسيّ ليس مناسباً. على الطّفلة أن تتعلّم العربيّة»، فتجيبه: «لماذا لا تعلّمها أنت؟» فيصمت أو يتمتم ببعض الكلمات بالعربيّة يبدو كأنّ البيت كلّه قد ابتلعها. عندما كنتُ في السادسة أو السّابعة أذكر أنّ أبي كان له قلَم حبر يحبّه بنوع خاصّ، ولمّا كان عليه أن يملأ معاملاتٍ إداريّة أحياناً، ولأنّ العربيّة هي اللغة الرسميّة، كان يكتب بخط مستقيم وأنيق، سطراً بعد سطر في لغة لم تكن عندي أجنبيّة ولا مألوفة. ولقد علّمني الأبجديّة العربيّة، وجعلني أنقلها حوالي مئة مرّة، وكنت أرسم الحروف باجتهاد.

ثمّ أخذ لفترةٍ وجيزةٍ يستخدم كتاب الصّرف والنّحو العربيَ - التركيّ المتبقّي من حياته المغامرة. يقول لي بفخر إنّه الكتاب ذاتُه الذي كان يستخدمه في «الكلّيّة العسكريّة» عندما كان برتبة صفّ ضابط. كان الكتاب سميكاً، ضيّقاً، أصفر الأوراق، وغلافه مليءٌ بالكتابات المتداخلة. تعلّمت فيه تصريف الأفعال وبعض العبارات التي تشرح استخدامات الأفعال. أضجر أحياناً أو أسهو خلال الدّرس، فيؤنّبني بلطف، لكنّه كان سريع الغضب جدّاً، يلجأ إلى أمّي كشاهدٍ ليقول: «حالةٌ ميؤوس منها،

هذا ما ينبغي على المدرسة أن تعلّمها إيّاه، الرّاهبات مجرّد رُسُل دعاية. كلّ شيء دعاية في هذا البلد!» كان متعَباً من تلقين دورسٍ غير مبرمَجة، وربّما، ولعلّه السّبب الأكثر جدّيّة، لأنّه رجل هُزم في الحرب، وشاهدٌ على نهاية إمبراطوريّةٍ قاتَلَ من أجلها وجُرِح وتلقّى الأوسمة. لم يكن هذا الضّابط العثمانيّ رجلاً تربويّاً: طلب منّي مرّةً أن أجلس وأنقل كتاب الصّرف والنّحو برمّته، صفحةً صفحةً: «انقلي هذه الدروس» قال «وسوف تتعلّمين العربيّة». أتذكّر أنّي بين حينٍ وآخر كنت أجلس وأنقل (لعلّي فعلتُها خلال سنةٍ، سنتين، أو في موسمٍ واحد، لم أعد أتذكّر) يعني أنْ أنقل بدقّة، كلمةً بعد كلمة، كلماتٍ أفهم أبجديّتها لكنّي نادراً ما أفقه معانيها - لم أحاول أن أفهم ما أكتب ومع ذلك كنت أدّعي أنّي أتعلّم لغةً دون جهد، لمجرّد أنّي أدوّنها. لا بد أنّ ثمّة ما هو منوّمٌ في تلك التمارين لأنّي لاحقاً، ولأسبابٍ مختلفة، صرت أقوم بالحركة ذاتها عمليّاً. وعن هذا سوف أتحدّث لاحقاً.

كانت بيروت تدور مدار ثلاث جامعات تمثل اللغات الثلاث وثلاث طـــــــــــــــــرق في الحياة وثلاثة خيارات فكرية. وأكـــــــــــــــــاد أن أقول: ثلاثة مصائر. وكما هو متوقع. فالكتاب والمجلات الأدبية بل حتى الصحف لحقت بالدارج.

إنّ نقْل لغةٍ أجهلها لم يجعلني أتعلّم العربية، ووجودي في مدرسةٍ تمنع استخدام العربيّة جعلني أشعر بالوحدة الخانقة وبالرّغبة في أن أتخلّى عن تلك المهمّة. وقد ساعد أبي في ذلك دون أن يعي ذلك، قال لي مرّة ربّما من قبيل الحنين إلى أيّام دراسته في الكلّيّة العسكريّة - أذكر ذلك بوضوح تامّ، ولعلّي بلغتُ العاشرة حينها - قال: إنّ مستقبل العالم هو في العلوم وفي الكيمياء خصوصاً، وإنّه سوف يرسلني إلى ألمانيا عندما أكبر لأتخرّج ككيميائيّة. سعدتُ لأنْ أحلم بمثل هذا الحدث الاستثنائيّ، أم تراه كان عذراً لعدم تعلّم العربيّة؟ كلّ ما أعرفه أنّي، بعد سنوات عدّة، وتحت ضغطٍ حكوميّ رسميّ، بدأت المدارس الفرنسيّة تدرّسنا حصّةً للّغة العربيّة لساعتين في الأسبوع، فذهبْت إلى رئيسة الرّاهبات في المدرسة وأبلغتها بأنّي سوف أسافر للدّراسة ذات يومٍ إلى ألمانيا ولست بحاجةٍ إلى مثل ذاك الدرس. قالت: حسناً، إن كان هذا هو رأي أهلك. صرت أخذ دروساً في اللاتينيّة مع أبناء الأسَر الفرنسيّة ولكنّي لم أتخطّ الفصول الأولى. الربيع في بيروت يزيد الشّغَب عند التّلامذة ويليه الصّيف بسرعة: لذا فإنّ دروساً مثل اللاتينيّة والرّسم والخياطة وعلم النّبات لم تكن لتثير حماسة أحد، فما بالك أن يضاف إليها درس اللغة العربيّة! أضحت العربيّة لغة من الدّرجة الثانية في بلد اللغة العربيّة ذاته.

بيروت الكوزموبوليتيّة وأوّل الشعر

كنت في الثّانوية عندما اندلعَت الحرب العالميّة الثانية. شاهدتُ بيروتَ تتحوّل إلى مدينةٍ ذات مكانةٍ عالميّة. اتّخذَت الجيوشُ الفرنسيّة والبريطانيّة منها مراكزَ لقياداتها وشعّ الوجهُ الكوزموبوليتيّ للمدينة برومنطيقيّةٍ مميزّة أعدّتْنا لها الأفلام السينمائيّة. إلى سكّانٍ يضمّون اليونانيّين والإيطاليّين والأكراد والأرمن إضافة للسكّان الأصليّين، إضيف جنودٌ من جنسيّات مختلفةٍ تتكونّ منهم جيوش الحلفاء: أستراليّون وكنديّون ونيوزيلنديّون وأفارقةٌ سود وبولونيّون أحرار. تحوّلت بيروت إلى صورةٍ مصغّرةٍ من العالم، زوبعةٍ صغيرةٍ من الحرب والمرَح. لم تشاهد الحربَ الحقيقيّة، اكتفتْ بمشاهدة الجيوش التي كانت تمزّق العالم إرباً.

بالنّسبة إلى الفتاة الصغيرة التي هي كنتُها، عنى ذلك وجوهاً «جديدةً» و«أحداثاً» جديدةً ولغاتٍ جديدة. بتْنا على وعْي «لأهمّيّة» اللغة الإنكليزيّة، وأخذتْ أسرُ لبنانيّة، سكنت في الإسكندريّة والقاهرة ثمّ عادتْ إلى لبنان، تستعيد الإنكليزيّة التي تعلّمتْها لكي تواكب مجرى التاريخ. زادتْ نسبة اللبنانيّين في الجامعة الأميركيّة في بيروت وقد كانت للطلّاب الأجانب في الأساس. صارت المدينة ثنائيّةَ اللغة، في طريقها لأن تصير ثلاثيّة اللغة. عندما جاء اللاجئون الفلسطينيّون إلى لبنان بعد عشر سنوات من ذلك، كان الأرقي علماً بينهم يجيد العربيّة والإنكليزيّة معاً وإذا قطعة تجاريّة كاملة من المدينة، المجاورة للجامعة الاميركيّة، تستخدم الإنكليزيّة لا الفرنسيّة بما هي لغة التبادل التجاريّ.

تخلق الجامعات بيئاتٍ ثقافيّة حولها. وكانت بيروت تدور مدار ثلاث جامعات تمثّل اللغات الثلاث وثلاث طرق في الحياة وثلاثة خيارات فكريّة، وأكاد أن أقول: ثلاثة مصائر. وكما هو متوقّع، فالكتّاب والمجلّات الأدبيّة بل حتى الصحف لحقت بالدّارج. كان ذلك نوعاً من الثّراء، انفتاحاً على العالم، وضَرباً من التنوّع مذهلاً. لكنّه، في بلدٍ أصغرَ من أن يستوعب رياح التّغيير العاتية والاستقطاب

الثقافيّ، خلَق تيّاراتٍ جوفيّة من التوتّر سوف تتفجر بعد جيل وتدمّر البلد عمليّاً.

شيئاً فشيئاً، طوّر لبنان حياة ثقافيّة غنيّة، لكنّها مبعثرة إلى فئات لغويّة: كان ثمّة شعراءُ كبار (جورج شحادة) يكتب بالفرنسيّة، وفيما معظم الكتّاب لا يزالون يكتبون بالعربيّة كان ثمّة كتّابٌ وشعراء وصحافيّون بدأوا يكتبون بالإنكليزيّة. تلك الظاهرة قلّصت جمهور كلّ فئةٍ من تلك الفئات، في بلد لا يزيد سكّانه على ثلاثة ملايين نسمة. وتلك مشكلة حقيقيّة. ذلك أنّ شاعراً أو كاتباً لم يكن له شعورٌ قطّ بأنّه أو أنّها يتوجّه / تتوجّه إلى الأمّة جمعاء. أنا كنتُ أكتب بالإنكليزيّة. بدأتُ كتابة الشعر في العشرين من العمر: كانتْ قصيدةً طويلة عنْونتُها «كتاب البحر»، هي قصيدة ترى إلى العلاقة المتبادَلة بين الشمس والبحر في لونٍ من الإيروسيّة الكَونيّة. لاحقاً، واجهتْني مشكلةٌ لأنّ القصيدة مكتوبة بالفرنسيّة. عادةً ما تُتَرجم أعمالي الشعريّة إلى العربيّة وتُنشر في مجلّتين أو ثلاث مجلّات من أهمّ مجلّات الأدب العربيّ. لم يُترجَم «كتاب البحر» إلى الآن لأنّ البحر بالفرنسيّة مؤنّث في حين أنّ الشمس مذكّر، والعكس هو الحال في العربيّة: وكلّ قصيدتي تشتغل على مجاز أنّ البحر مؤنّث والشمس هي المحارِب، او هي المبدأ الذكوريّ. لذا فالقصيدة غير قابلةٍ للتّرجمة، وهي، في صميم معناها، لا يمكن حتى التفكّر بها باللغة العربيّة.

في متنصف الخمسينيّات، سافرتُ إلى باريس لدراسة الفلسفة في جامعة السوربون وكتبتُ بعض الشعر. التقيت الطلبة الأميركيّين في المدينة الجامعيّة وبعدَ زيارةٍ سريعةٍ لبيروت، هبطتُ في نيويورك في كانون الثاني / يناير ١٩٥٥ وبعدها ببضعة أشهرٍ كنتُ في بركلي بكاليفورنيا. لم أدرك أنّ تغيير جامعاتٍ ليس مجرّد استمرارٍ للدّراسة في مكانٍ آخر. كان انقلاباً كاملاً في تفكير المرء، هزّةً أرضيّةً صغيرةً في حياة الطّالب. والانتقال من جامعة السوربون الى جامعة كاليفورنيا في بركلي العام ١٩٥٥ أشبه بالانتقال من كوكب إلى آخر. ولمّا كنتُ أجيد أربع لغاتٍ سلفاً، إلى هذا الحدّ أو ذاك من الإجادة، هل أدركتُ أنّ اللغة مشكلة محتملة؟ لا أزال غيرَ مدركةٍ للأمر حقّاً. ما أعلمه هو أنّي وصلتُ إلى بركلي، في فرع الفلسفة عندما كانت الجامعات الأنكلو - سكسونيّة تتعاطى بالألسنيّة خصوصاً (ويجب أن أضيف المنطق الرمزيّ) ما زاد في الطّين بلّة بالنّسبة لي. لم يخطر ببالي أنّ عشر كلماتٍ وخمسَ جمَل أجيدُها بالإنكليزيّة ليست تحضيراً كافياً لحضور مثل تلك الحصص الدراسيّة المعقّدة. جهدْتُ ما استطعت: صرت أقرأ مجلّة «تايم» بنَهَم، وأستمع إلى أسطوانات الجاز، وفي ستة أشهر صرت مندمجة إلى حدٍّ كبيرٍ في الحياة الجامعيّة الأميركيّة، ولو من الناحية الشكليّة.

الوقوع في غرام اللغة الأميركيّة

مع ذلك حصل أمرٌ سوف يقرّر مصيري: أغرمتُ باللغة الأميركيّة. طربتُ للطّريقة الكاليفورنيّة في تكلّم الإنكليزيّة: الأسلوب، الترخيم، العامّيّة، المطبوعات الأميركيّة، اللغات «المتخصّصة» للألعاب الرياضيّة الأميركيّة، الاستماع إلى مباريات البيسبول أو الركبي وهي أشبه بالدّخول إلى عوالمَ سرّية. لست أدري ما إذا كنتُ أحببتُ تلك الألعاب لذاتها او للّغة الطقوسيّة المتكاملة التي تصاحبها. لكنّي كنت فخورة بوصف تلك الألعاب لأصدقاء وفقاً لمصطلحاتها المخصوصة. وكنت سعيدةً لاستخدام تعابير مجازيّة، على اعتبار أنّي أفهم حكْي رعاةِ البقر وحديث أهل البلدات الصغيرة. في أميركا، علمتُ أشياء لم يكن لي أن أرويها في أيٍّ من اللغات التي أجيدها، لأنّ تجاربي في تلك اللغات كانت محدودة، أو بدتْ كذلك، أو ربّما أنّها مألوفة جدّاً بحيث تحرمني من الشعور بالاستكشاف. الحديث في أميركا كان مثل صعودِ مجرى نهر الأمازون، مليئاً بالمخاطر، ضاجّاً بالغرائب.

كانت الأمور مختلفةً في الجامعة. لقيتُ صعوباتٍ جمّةً لأهتمّ بدروسي الجديدة، كان عليّ أن أعيد توجيه عاداتٍ ذهنيّةً ومشاعر عميقة الجذور. أذكر مدى دهشتي، أو صدمتي، عندما سمعت من زميل يوغسلافيٍّ أنّ الموضوع الذي أقترحه لإعداد رسالة الدكتوراه قد رفِض. كان يريد الكتابة عن نيتشه فقالوا له إنّ هذا ممنوعٌ لأنّ نيتشه ليس فيلسوفاً وإنّما هو شاعر، علماً أنّ الأمر تغيّر منذ الثورة الثقافيّة في الستينيّات وأشكّ الآنَ أنّه يمكن رفض مثل هذا الموضوع للأسباب ذاتها. لكنّني ظللْت غير قادرةٍ على تفهّم قرار الفرع، لأنّي كنت أعتبر أنّ الفلسفة، بعد هولدرلِن وهايدغر، تجد تعبيرها الأسمى في الشِعر.

كتبت القليل في تلك الأيّام لأنّي كنتُ في حالةٍ من الاكتشاف الدائم، ينفتح أمامي عالَمٌ جديدٌ بأكمله يوماً بعد يوم، وكان ذلك يتضمّن اكتشاف الطبيعة بما هي قوّة، وجمالها المراوِد، ومسألة أحلام يقظة وقد باتت هَوَساً عندي. فالسير في سيارة على الطرقات العامّة الأميركيّة أشبهُ بكتابة الشعر بجسدي كلّه. لم أبقَ أكثر

من بضع سنوات في الجامعة ولم أكتب أطروحتي لنيل الدكتوراه. وجدتُ وظيفةً بتدريس الإنسانيّات في كلّيّةٍ صغيرة بمنطقة «مارين»، القريبة من سان فرانسيسكو. كنتُ سعيدة. بدأتُ مهمّةً جديدةً، تجربةً جديدةً، وحقّقتُ الشعور بحدٍّ من الاستقرار، وهي التعليم مهنةً لها وتائرها الخاصّة، أعادتْ إليّ الرغبة في الكتابة. كنتُ لا أزال أعدّ نفسي ناطقةً بالفرنسيّة مع أنّي كنت أدرّس بالإنكليزيّة. ولكن عندما أخذتُ أفكّر بجدّية عن الشعر والكتابة مجدّداً، اكتشفتُ مشكلةً ذات طبيعة سياسيّة. كنّا زمنَ حرب الاستقلال الجزائريّة، والصحيفة اليوميّة تحمل بانتظام أخباراً عن جزائريّين يُقتلون في الحرب، أو أخبار الفظائع التي يبدو أنّها تصاحب أعمال العنف واسعة النّطاق. أدركتُ فجأةً، وبدرجةٍ من العنف، أنّي منحازةٌ بداهةً وعفويّاً إلى الجزائر، وأنّي أشارك شعوريّاً في الحرب، فاستنكرتُ اضطراري إلى التعبير عن نفسي باللغة الفرنسيّة. لم تعدْ لي، اليوم، مثلُ ردود الأفعال تلك نحو اللغة الفرنسيّة لأنّ المشكلة حُلّت من فترة طويلة. لقد حَلّ السلامُ بين الجزائر وفرنسا. كانت الأمور مختلفةً حينها: بدا أنّ المصير العربيّ كلّه يعتمد على مآل ذلك النّزاع. كان حلمُ الوحدة العربيّة حيّاً جدّاً في تلك الفترة وصارت الجزائر رمزاً له.

من لغة الرسم إلى الشعر بالإنكليزيّة

أدركتُ أنّي لن أستطيع الكتابة بحرّيّة بلغةٍ تجابهني بنزاعٍ عميق. كنت مضطربة في قطاعٍ أساسيٍّ من حياتي: قطاعِ التعبير المُجدي عن الذّات. حدّثُ مباغت حلّ مشكلتي، كان حلّاً مثل فتح نافذةٍ جانبيّة، كأنّ الشمس لم تشرق الشمس ذات يومٍ حيث يُتوقّع لها أن تشرق وإنّما من مكانٍ قريبٍ منه، في نقطة أخرى من الأفق. في المجمّع بجامعة بركلي التقيت امرأةً كانتْ رئيسة فرع الفنّ في الكلّيّة. اسمها آن أوهانلون. تجاذبْنا أطراف الحديث وسط ممرٍّ من الورود عندما أبلغتُها أنّ إحدى الحصص التي أدرّسها هي عن فلسفة الفنّ، سألتْني عمّا إذا كنت أرسم، وعندما قلتُ «لا» استغربتْ كيف يمكن لشخصٍ أن يدرّس مادّةً لا يمارسها، فكان جوابي، الذي أذكره بوضوح، أنّ أمّي قالت لي إنّي خرقاء. فقالت: «وهل صدّقتِها؟!».

لم يكن للحديث الحاسم أن يطلق يديّ فوراً ولكنّه، مثل كوكب يغيّر مداره، وجّه اهتمامي، ثمّ كامل طاقاتي، نحو شكل فنّيٍّ جديد، أي نحو دنيا جديدة من الاهتمامات. كنت أذهب إلى دائرة الفنّ في أوقات الفراغ وأبدأ بالرّسم. سرعان ما أدركتُ أنّ هذه لغة جديدة وحلٌّ لمعضلتي: لم أعد بحاجةٍ لأن أكتب بالفرنسيّة بعد الآن، سوف أرسم بالعربيّة. حصل كلّ ذلك حوالي العام ١٩٦٠. صرت رسّامةً شغوفة. أغرقتُ نفسي في هذه اللغة الجديدة. كان الفنّ المجرّد المعادلَ للتّعبير الشعريّ، لم أعدْ بحاجةٍ إلى استخدام الكلمات، بل الألوان والخطوط. ولم أعد أحتاج إلى الانتماء إلى ثقافةٍ ذات منحىً لغويّ وإنّما إلى شكلٍ مفتوح من التعبير، بعد سنوات عديدة، بينما كنت أجول في المغرب، تحادثْت أنا ورسّام مغربيٌّ قال إنّ سبب وجود عدد من الرسّامين الجيّدين في المغرب في رأيه هو في الطريقة التي حلّ بها أفضلُ الفنّانين المسألةَ اللغويّ، يقصد الجيل الذي نشأ تحت سيطرة الثقافة الفرنسيّة. كانتْ روحي طليقة. أدركتُ أنّ بمستطاع المرء أن يتحرّك في اتّجاهاتٍ مختلفةٍ وأنّ الذّهن، عكس الجسم، يمكنه أن يتّجه في عدّة اتّجاهات في آنٍ معاً وأنّي أتحرّك لا على سطوح مفردةٍ بل داخلَ عالَمٍ ذهنيٍّ كرويٍّ، وأنّ ما نحسبه مشكلاتٍ قد يكون توتّراتٍ أيضاً، تشتغل بطرائق أكثر غموضاً ممّا ندرك. لمّا كنتُ أدرّس بالإنكليزيّة، صرتُ أشعر مع الوقت براحةٍ متزايدةٍ مع هذه اللغة الجديدة التي أستخدم. بل إنّي لم أكن أستخدم هذه اللغة الجديدة فقط، كنت أعيشها.

ثمّ كانت حرب فيتنام. أميركا في فيتنام. فيتنام في النفسيّة الأميركيّة. الحرب على التلفزيون. الاحتجاجات في الشوارع. الثورة الثقافيّة التي تجري في أميركا كانت فيتنام أحد منابعها، ومن نتائجها أنّ الحرب تحوّلت إلى نقطة استقطاب أدبيّة، إلى شاغلٍ للشّعراء وموضوع ديناميّ. كتب الشعراء ضدّ الحرب، بل ناضلوا ضدّ الحرب من خلال الشعر. في أحد الأيّام، كنتُ قد تأثّرت بنوعٍ خاصٍّ بصور الحرب على شاشة التلفزيون وكنت متعبةً وخائبة - وجدْت على طاولة غرفة استراحة الأساتذة مجلّةً أدبيّة تشبه جريدةً من قياس الرُبع، تقول إنّها تُوزّع مجّاناً، وترحّب بالشعر بما هو فعلٌ ضدّ الحرب. كانتْ تلك «إس.بي. غازيت» S.B. Gazette (حيث السين والباء كناية عن ساوساليتو وبلڤيدير على التوالي). عدتُ إلى البيت، ثبّتّ ورقّة في راقنتي وكتبت قصيدةً كما لو أنّي لم أكن أدري ما أنا فاعلة. أغنية الفارس المستوحد في أميركا «الحاضرة» وأرسلتها إلى «إس. بي. غازيت». بعد أيّام قليلة تلقّيت ملاحظةً مكتوبةً على عجَل بالقلم الرّصاص على صفحةٍ منزوعةٍ من دفترٍ تقول «قصيدة لقيت ترحيباً كبيراً» وفي أسفل «أرسلي

المزيد» والتّوقيع «ليون سبيرو». هكذا صرت شاعرة في اللغة الإنكليزيّة!

كتبتُ عدداً من القصائد الإضافيّة، أملتْها المشاعر والأحداث، وشعرتُ بأنّي أنتمي إلى الحركة العارمة لشعراء أميركا في زمنٍ كان الشعر فيه ينمو في ذلك البلد مثل الموسيقى أو العشب. ذات يوم سأل أحد الصحافيّين روبرت كينيدي، ربّما للمرّة العاشرةً في حياته، كيف يشعر في غياب أخيه. بكى بوبي كينيدي تلك الليلة مستشهداً بمناجاة روميو عن جمال جولييت في الليل. تأثّرت أيّما تأثّر لمشاهدة رجلٍ يبكي علناً على أخيه الميت، في ثقافةٍ تُنكر على الرّجال البكاءَ على اعتباره دليلَ ضعف، ويعبّر من خلال شكسبير عن شعوره بالوحدة الداخليّة للحبّ، فكتبتُ له وقلت إنّه يسعدني أن يقرأ القصيدة التي كتبتُها، القصيدة الأولى، الأغنية. تلقّيت جواباً رائعاً يقول لي فيه إنّه تأثّر للنّص.

ظهر مشهد من طفولتي: لذة الكتابة. سطرا بعد سطر. لجمل عربية لم أفهمها تماما. تناولت قصائد حديثة لكبار الشعراء العرب و«اشتغلت» عليها. اكتفيت بغرابة فهمي لها: جمل لم أفقه منها إلا الكلمة المفتاح. كان الأمر مثل النظر من وراء حجاب. أو مشاهدة مشهد استثنائي من خلال شاشة. كأنما الشاشة لا تمحو الصور وإنما تخفف منها وتجعلها تبدو أكثر غموضا مما هي بالفعل.

تصلني رسائل تسألني إن كنت أوافق على المشاركة في قراءات شعريّة أو لديّ أشعارٌ كتبتُها وأعيد نشرها في مجموعاتٍ بأصواتٍ متعدّدة. تلقّيت رسائل من شعراء من الولايات المتّحدة أو أميركا اللاتينيّة أرسلتْ لمجرّد تبادل الأفكار. كان ذلك زمناً صار فيه الشعر، لبضع سنوات، الدين الأوحد الذي لا آلهة له ولا معتقد، لا عقوبات، لا تهديدات، لا دوافع خفيّة، لا استخدامات تجارية، لا شرطة ولا ڤاتيكان. كان أخويّةً مفتوحةً للنّساء والرجال والأشجار والجبال.

الدفاتر اليابانيّة

كنت على أهبة الدخول إلى اللغة الإنكليزيّة مثل مكتشف: كلّ كلمةٍ تستيقظ إلى الحياة، التعابير مخلوقات، ظروف المكان والزمان شاسعةٌ بلا حدود، الأفعال أسهمٌ منطلقة، مجرّد أداةٍ مثل «داخل» أو «خارج» مغامرة! كانت الكتابة رياضة، والجُمل أحصنة خيل، تشقّ المدى بطاقاتها الحيويّة، وما أجملَ التخييل عليها! لكنّ الأشباح القديمة لم تختفِ. لم يختفِ العالم العربيّ من حقل اهتمامي. بالعكس. بدأتُ زيارة المغرب في فصول الصيف، بدأت زيارة المغرب أو تونس أو أعود إلى الأردن وسورية ولبنان. صادقتُ عدداً من الشعراء الذين يكتبون بالعربيّة أو الفرنسيّة. لكنّ الشعر والرسم ظلّا منفصلين، لكنْ ذات يوم عندما قرّرت أن أكتب، او للدّقّة، عندما قرّرت أن أنقل شعراً بالعربيّة، بقصد دمْج «الخطّ» مع التلوين المائيّ والحبر، وقد كان دارجاً حينها، سلكت سبيلاً لا يزال أمامي. عثرتُ على الأوراق اليابانيّة المطويّة وهي أشبه بالكتب القديمة من المحفورات الخشبيّة اليابانيّة حيث كلّ ورقةٍ مزدوجةٍ تشكّل صورةً مرتبطةً بالتي تليها أو مستقلّة عنها. إذْذاك، ظهر مشهدٌ من طفولتي: لذّة الكتابة، سطراً بعد سطر، لجُملٍ عربيّة لم أفهمها تماماً. تناولتُ قصائد حديثةً لكبار الشّعراء العرب و«اشتغلت» عليها. لم أسع ليترجمها لي أحد، اكتفيت بغرابة فهمي لها: شذرات من هنا ومن هناك، جملٌ لم أفقه منها إلّا الكلمة المفتاح، كان الأمر مثل النظر من وراء حجاب، أو مشاهدة مشهد استثنائيّ من خلال شاشة، كأنّما الشاشة لا تمحو الصور وإنّما تخفّف منها وتجعلها تبدو أكثر غموضاً ممّا هي بالفعل.

سنةً بعد سنة اشتغلت على تلك الأوراق الطويلة، مثل لفائف أفقيّة، بخطّي غير السويّ، مدركةً أنّه النقيض من حرفة الخطّ التقليديّة، إذ هو قراءةٌ عبر فنّ الفعل الشعريّ. لقد عرضتُ تلك الأعمال في غاليريهات في الولايات المتّحدة وبعض العواصم العربيّة. أثارتْ أسئلة، واستدعتْ مناقشات حامية، وأربكت النّاس في معظم الأحيان، ووجدتْ طريقها إلى المجلّات، في مقالاتٍ أو دراسات نقديّة. إنّها تمثّل بالنّسبة إليّ المصالحة التي لم أكن لأتوقّعها إلّا حين حصلتْ، بعدّة خيوطٍ تكوّن منها نسيج حياتي. لقد انخرطت في المصير الثقافيّ للعرب بوسائط غير مباشرة جدّاً، وأمل أنّ التنقيب لم ينته بعد.

أين أنا الآن؟ توقّفتُ عن التعليم مطلع السبعينيّات وعدْت الى بيروت. غادرْت الولايات المتّحدة فجأة. جئت مدينةً تعيش أجمل سنواتها. رميت نفسي في مركز بركانٍ نشط. كان الأمر بديعاً. وجدت نفسي في عالَم ناطقٍ بالفرنسيّة، بالفرنسيّة والعربيّة، ولكن بالفرنسيّة فيما خصّني، إذ عملتُ في الصفحات الثقافيّة لجريدة يوميّةٍ بالفرنسيّة تأسستْ حديثاً. سعدتُ لأكون مجدّداً حيث يبدو أنّ التاريخ يُصنع فيه، أن أمضي عطلةً في حلب





بدلاً من جبال «السييرا»، وأن أصير أعرف عن القاهرة ودمشق أكثر ممّا أعرف عن نيويورك. كانت هذه النقلة إلى أراضٍ جديدةٍ منعشة ومثيرة. كانت بيروت قد تقدّمت بسرعةٍ إلى درجة أني حسبتها مدينةً جديدة.

كتبتُ بالفرنسيّة طبعاً ونحّيت الإنكليزيّة جانباً بحكم الضرورة. كنت مشغولةً جدّاً لأجد وقتاً للتّأمل فيما يستتْبعه ذلك على «مهنتي الأدبيّة». لم يكن الأدب مهنةً بالنسبة لي، المهنة متروكة للكتب. كتاباتي هي مثل التنفّس بالنّسبة لي: شيء أمارسه.

نشبتْ حربٌ مأسويّة وخبيثة في بيروت العام ١٩٧٥. تفجّرتْ حيوات النّاس مع انفجار الأبنية، ومثل قطَع من الأبنية المتهدّمة تشظّت في كلّ الاتّجاهات. بعضنا غادر إلى باريس. اللبنانيّون النّاطقون بالفرنسيّة غادروا إلى باريس. النّاطقون بالإنكليزيّة قصدوا لندن أو نيويورك. البعض ذهبوا إلى البلدان العربيّة، لأغراضٍ تجاريّةٍ معظم الأحيان. أنا غادرْت إلى باريس بعد سنتين من اندلاع الحرب، لا لأمكث فيها الى الأبد، بل في انتظار أن تهدأ الأحوال في لبنان. لم تهدأ الأحوال، كما نعرف كلّنا، بل سارتْ من سيّئ إلى أسوأ، من حرب أهليّة إلى احتلال. عندما كنت في باريس، سمعتُ عن أمر رهيب حدث في لبنان: امرأة عرفتها قليلا ولكنّي احترمتها كثيراً تعرضتْ للخطف من قبَل أفراد مليشيا مسيحيّة وعُذّبتْ وقتلتْ. لن أسرد قصّتها هنا، أكتب فقط لأقول إنّ «أسباب» محنَتها لم تكن مقبولة أخلاقيّاً. ألّفتُ كتاباً، روايةً مبنيّة على الواقع، عن ذلك الحادث المفجع: «سِتّ ماري روز» كتاب كُتب في باريس وطُبع في باريس بالفرنسيّة.

كانت لي أسبابي الخاصّة لأنْ أعود إلى كاليفورنيا، بعد سنوات من ذلك، إذ ازدادتْ صعوبة العودة إلى بيروت أكثر فأكثر. أغلقت الصحيفة التي كنت أعمل فيها. وكان لا بدّ من مواجهة مصاعب أخرى.

العودة إلى كاليفورنيا. ما الذي أستطيع أن أفعله في كاليفورنيا غير التصوير والكتابة. أدركتُ أنّي أفكّر بسعادةٍ أكبر، بسيولةٍ طبيعيّة أكثر، عندما لا أكون في حربٍ مع محيطي. بل أقول إنّ كتابتي متأثّرة، والأحرى إنّها تنمو، مثلاً ينبت الزّرع من ترابٍ وماء، من الأرض التي أسكن. لذا حينما أكتب في أميركا، أكتب بالانكليزيّة. فماذا عساي أقول عن كوني لست أستخدم لغتي الأمّ ولا يساورني شعورٌ جدّيٌّ بأنّه يجب عليّ ذلك، أو شعور بالتّواصل المباشر مع جمهوري؟ إنّه نظير التساؤل كيف سأبدو لو أنّي كنت شخصاً آخر. لا أجوبة على مثل تلك الأسئلة. تلك الأسئلة شبه محاولة القبض على التأمّلات في راحة اليد. ثمّة عددٌ متزايد من الكتّاب يستخدمون لغةً «دوليّة»، مثل الإنكليزيّة، أيْ يستخدمون عمليّاً لغةً أخرى عن لغتهم بسبب التاريخ أو بسبب المنفى أو بسبب الذائقة الشخصيّة.

يقـــــــــــــــول لنا هذا القرن مرات عديدة أن نبقى على حدة. أن نصرم كل الروابط. ألا ننظر إلى الخلف أبدا. وأن نمضي لاحتلال القمر. وهذا ما حققته. هذا ما أحققـــــــــــــه.

العربية جنّتي المحرّمة

هل أشعر بأنّي منفيّة؟ نعم. إنّي أشعر بذلك. إلّا أنّ هذا الشعور غائرٌ، وقد استمرّ طويلاً، بحيث بات هو طبيعتي ولست أستطيع القول إنّي اتعذّب كثيراً بسبب ذلك. بل ثمّة لحظاتٌ أشعر فيها حتى بالسعادة لذلك. الشاعر هو الطبيعة الإنسانيّة في أصفى أشكالها، قبل أيّ شيءٍ آخر. لهذا فالشاعر إنسانيٌّ مثلما السيّارة سيّارة أو شجرة الكرز شجرة كرز. كلّ أمرٍ آخر «يلي». كلّ أمر آخر مهمّ، لكنّه قد لا يكون مهمّاً أحياناً. الشعراء متجذّرون عميقاً في اللغة وهم يتجاوزون اللغة أيضاً.

قد يقف أحدهم ويسألني: لماذا لم أتعلّم العربيّة بمفردي في وقت من الأوقات؟ هذا سؤال يقضّ مضاجعي أحياناً. لكنّي لن أواصل إلقاء تبعات ذلك على النظام الكولونياليّ القديم (مثلما فعل فرانس فانون بطريقة جميلة جدّاً). لست، وليس الكتّاب العرب، مثلاً في وضعٍ مشابهٍ لكتّاب أفريقيا السّوداء التي تولّت الإدارة الكولونياليّة الفرنسيّة والحكومات المحلّيّة محوَها محواً كاملاً. الكتّاب العرب مسؤولون كامل المسؤوليّة عن اللغة التي يستخدمونها. لم أقتطع وقتاً من حياتي اليوميّة لتكريس كلّ جهودي لتعلّم اللغة العربيّة بما هي لغةٌ كاملة متكاملة. عندما تكون الشمس ساطعةً والبحر أزرقَ لن أستطيع أن أقفل نوافذي وأن أمضي لأدرس أيّ شيء. أنا شخصٌ ينتمي إلى الحاضر الدائم. لذا أبقى «في الخارج»، وهكذا ظلّت العربيّة جنّتي المحرّمة. أنا في الآن ذاته غريبة عن الأرض ومن سكّانها الأصليّين، غريبة عن لغتي الأمّ وابنتها. يقول لنا هذا القرنُ مرّات عديدةً أن نبقى على حدة، أن نصرم كلّ الرّوابط، ألّا ننظر إلى الخلف أبداً، وأن نمضي لاحتلال القمر. وهذا ما حقّقتُه. هذا ما أحقّقه.

الحركة السوريالية في بيروت الثلاثينيّات
«دخلنا الفنّ من باب المطبخ»

جاد تابت

معمار ونقيب المهندسين اللبنانيّين. قدّم جاد تابت هذا العرض في ورشة «الطليعة وشبكة علاقاتها، السوريالية في باريس، وشمال أفريقيا، والشرق الأوسط منذ الثلاثينيّات» في «المنتدى الألمانيّ لتاريخ الفنّ» في باريس و«المعهد الألمانيّ للأبحاث الشرقيّة» في بيروت، في ١٥ و١٦ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٦. ترجمة يزن الحاج

هذه ليست ورقة أكاديميّة. إنّما هي مقدّمة لقصّة كنت أحاول إعادة تركيبها منذ سنوات عديدة، كهاوٍ لا كباحثٍ صارم، محاولاً ملء فجوات المادّة الأرشيفيّة مستعيناً بذكريات العائلة والأصدقاء.

إنّها قصّة خمسة شبّان في بيروت خلال حقبة الانتداب الفرنسيّ، ومواجهتهم غير المعقولة مع الطليعة الحديثة.

إنّها قصّة منسيّة، وتشكّل جزءاً من الانتفاضات الثقافيّة، والسياسيّة، والاجتماعيّة الراديكاليّة التي عمّت هذه المنطقة خلال النّصف الأوّل من القرن العشرين، منذ سقوط الإمبراطوريّة العثمانيّة حتى صعود الحركات القوميّة في الخمسينيّات.

بدأ كلّ شيء في حديقة: غوطة دمشق، الواحة التي رسمها نهر بردى، الذي يفصل المدينة عن المروج الجافّة المتاخمة للبادية السوريّة. اعتاد أربعة شبّان السفر مرّةً كلّ شهر من بيروت بالقطار لزيارة صديقهم الأكبر سنّاً الذي استقرّت عائلته في دمشق منذ سنوات عدّة. خمسة شبّان تلاقوا في مدرسة الفرير - إخوة المدارس المسيحيّة في بيروت وباتوا أصدقاء متلازمين دوماً.

كانوا أنطون تابت، أبي، الذي كان يدرس الهندسة ويحلم بالرسم والعمارة، جورج شحادة وأنطوان موراني اللذين كانا يدرسان الحقوق ويحلمان بالشعر، إسكندر أبو شعر الذي أراد أن يصبح رسّاماً ونعمة إدّه، أكبر الأصدقاء سنّاً، الذي أنهى دراسة الحقوق وكانت عائلته تقيم في دمشق. خمسة شبّان دخلوا الفنّ «من باب المطبخ» كما كتب جورج شحادة في إحدى قصائده الأولى.

كان لبنان وسورية آنذاك تحت حكم الانتداب الفرنسيّ. بعد هزيمة العثمانيّين عام ١٩١٨ وما تبعها من تفكّك الإمبراطوريّة العثمانيّة، أطلقت معاهدة سيفر وقبلها مؤتمر سان ريمو بداية الانتداب البريطانيّ في فلسطين والانتداب الفرنسيّ في لبنان وسورية، بحسب اتفاق سايكس - بيكو الذي وقّعته القوّتان الأوروبيّتان. في أيلول / سبتمبر ١٩٢٠، أعلن الجنرال غورو تأسيس دولة لبنان الكبير وعاصمتها بيروت، وقد مُنحت المنطقة الجديدة علماً يتكوّن من العلم الفرنسيّ مع إضافة الأرزة اللبنانيّة.

لكنّ هذه المستعمرة التي فرضتها القوى الأوروبيّة واجهت معارضة قطاعات كبيرة من المجتمع. في آب / أغسطس ١٩٢٥، دعا الزعيم الدرزيّ سلطان باشا الأطرش الجماعات الإثنيّة والدينيّة المتنوّعة في سورية إلى معارضة الهيمنة الأجنبيّة على أراضيهم. ومع أنّ الثورة السوريّة الكبرى أخفقت في تحرير سورية من الانتداب الفرنسيّ، إلّا أنّها مثّلت أحد أكبر وأطول عصيان شعبيّ في المشرق العربيّ في مرحلة ما بين الحربين العالميّتين، وكان لها أثر عميق في انتشار الأفكار القوميّة والمناهضة للاستعمار.

في هذه الأثناء، سرَّع قيامُ الانتداب الفرنسيّ سيرورةَ التحديث التي كانت التنظيمات في جميع أرجاء الإمبراطوريّة العثمانيّة قد أطلقت شرارتها منذ منتصف القرن التّاسع عشر. وكان أقصى تجلّيات هذه السيرورة في بيروت التي أصبحت عاصمة دولة لبنان الكبير، مقرّ الإدارة المركزيّة للانتداب وواجهة فرنسا في المشرق. ومن خلال انتزاع الملكيّات وتهديمها عملت السّلطات الفرنسيّة على تجديد وسط مدينة بيروت، وافتتحتْ شوارع جديدة تحمل أسماء المنتصرين (شارع الجنرال أللنبي، جادّة المارشال فوش، شارع المارشال ويغان، إلخ.)، وأُزيل النّسيج المدينيّ القديم ليفسح في المجال لمخطّطات جديدة، صُمّمت بالتوافق مع مبادئ الفنون الجميلة.

الفرسان الخمسة

على الصعيد الثقافيّ، كان المسؤولون الفرنسيّون يناصرون

الحركة الفينيقيّة وترويجها لهويّة لبنانيّة منفصلة عن هويّة البلدان الشرق أوسطيّة المجاورة. كانت مجلة شارل قرم المجلة الفينيقيّة تصدر في فرنسا، وقد اجتذبت النخبة المسيحيّة المثقّفة اللبنانيّة.



مع أنهم كانوا يتحدثون العربية. إلا أن الفرنسية كانت لغة الثقافة بالنسبة إليهم. وفي مطلق الأحوال. كانوا يشعرون بعدم ارتياح إزاء البيئة التقليدية المحافظة التي كانت تسم مجتمع بيروت في ظل الانتداب الفرنسي. الذي يميزه مزيج من الريفية والأبهة الطنانة.

كان الرسّامون الأكاديميّون ميّالين إلى البورتريهات واللوحات الفولكلوريّة، وهيمنت الإحالات الاستشراقيّة والثيمات الدينيّة على المشهد الفنيّ، بمعجم يتأرجح بين النيو-كلاسيكيّة والرومانتيكيّة المُلَطَّفة.

في هذا الجوّ بالذّات كان «الفرسان» الخمسة، كما كانوا يسمّون أنفسهم[1]، يتجوّلون بين بيروت ودمشق والمنتجعات الصيفيّة المجاورة في جبال لبنان: بحمدون، بلدة عائلة تابت وبكفيّا حيث كانت عائلة شحادة تستأجر بيتاً صيفيّاً.

كان «فرساننا» الشّبان كلّهم فرنسيّي الثقافة، ومع أنّهم كانوا يتحدّثون العربيّة، إلّا أنّ الفرنسيّة كانت لغة الثقافة بالنسبة إليهم. وفي مطلق الأحوال، كانوا يشعرون بعدم ارتياح إزاء البيئة التقليديّة المحافظة التي كانت تسم مجتمع بيروت في ظلّ الانتداب الفرنسيّ، الذي يميّزه مزيج من الريفيّة والأبّهة الطنّانة.

كتب جورج شحادة لأنطوان موراني عام ١٩٢٦: «عزيزي أنطوان، الأمور كلّها جيدة في بيروت، نشعر بالملل، نشعر بالملل. ... جاءتني هديّة منذ أسبوعين هي مسدّس براوننغ دوّار، يتّسع لستّ رصاصات أو سبع. ها قد حانت فرصة عظيمة كي تقتلني حين يؤون الأوان... لديّ ثلاث رصاصات، سأترك لك واحدة».

جاء الخلاص من ... برشلونة. كان غابرييل بونور، مدير المعهد الفرنسيّ في العاصمة الكتالونيّة، قد عُيّن مفتّشاً للتعليم الثانويّ في سورية ولبنان عام ١٩٢٣، ومن ثمّ بات القنصل الثقافيّ الفرنسيّ عام ١٩٢٨. وعلاوةً على كونه مريداً مقرّباً من أندريه سواريز، كان بونور ناقداً للشعر في مجلة نوفيل روفو فرانسيز [المجلة الفرنسيّة الجديدة]، حيث كان مهتماً على الأخصّ بالحركة السوريّاليّة وساعد



في ترويج أعمال ماكس ياكوب، مارسيل جواندو، أونري ميشو، رينيه شار، بيير جان جوف، وآخرين.

في ذلك الوقت، كانت الحركة السوريالّية قد رسّخت نفسها في المشهد الثقافيّ في أوروبا. بدأت مجلة ريفولوسيون سوريياليست [الثورة السوريالّية] إصدار أعدادها عام ١٩٢٥، كما نُظّم أوّل معرض للفنّ السوريالّيّ على يد أندريه بروتون وروبير دسنوس في باريس في العام نفسه.

لا نعرف تماماً كيف التقى بونور بفرساننا. وعلى أيّة حال، سرعان ما ترسّخت علاقة وطيدة فتحتْ آفاقاً جديدة للشبّان الخمسة.

اللقاء بسوريالّيي باريس

حدثت نقطة فاصلة عام ١٩٢٧ حين سافر أنطون تابت إلى باريس لـ«يتخصّص» في العمارة بعدما نال شهادته في الهندسة[٢]. قدّمه بونور إلى أندريه لوت، الرسّام الفرنسيّ المشرف على الرسم السوريالّيّ في مجلّة نوفيل روفو فرانسيز وإلى أوغوستو بيريه، مروّج عمارة الإسمنت المسلّح في فرنسا آنذاك.

من خلال هذه العلاقات، التقى تابت بسوريالّيي باريس واكتشف الاهتمامات الفنيّة والسياسيّة التي تعتنقها الحركة السوريالّية. كانت تلك فترةً تشهد فيها السوريالّية تحوّلاً في موقعها من حركة سياسيّة ترفض الانضواء تحت أيديولوجيا محدَّدة، إلى تحالف مع الماركسيّة واعتناق لخطاب مناهض للكولونياليّة تبدّى بوضوح في الموقف الراديكاليّ الذي اعتنقوه حيال حرب الريف في المغرب.

عام ١٩٢٩، إثر عودة تابت إلى بيروت، لاحتْ فرصة جديدة للشلّة على يد جورج نقّاش، الصحافيّ الشهير الذي يرأس تحرير جريدة لوريان، أهمّ الجرائد الناطقة بالفرنسيّة في بيروت. في ١٦ حزيران / يونيو من ذلك العام، صدر ملحق أدبيّ ضمّ تقديماً لجورج نقّاش، وقصائد لجورج شحادة وأخته لوريس، ومجموعة «جثث مُتقَنة»[٣] لأنطوان موراني، وتأريخاً عمرانيّاً غير تقليديّ لأنطون تابت.

كان من المفترض أن يكون ملحق لوريان ليتيرير إصداراً شهريّاً. وفي الواقع، لم يصدر منه إلّا عدد واحد. وكما قال لي أبي، كان السبب هو البغض القويّ بين الشلّة وبين رسّام كان مشهوراً آنذاك، هو جورج داوود قرم، الذي كان يشجب علناً الماركسيّة، والتحليل النفسيّ، والسوريالّية وأشكال الفنّ الحديث قاطبةً، مُسبّحاً بحمد إحياء النهضة الكلاسيكيّة. كان من المفترض أن يضمّ العدد الثاني من الملحق لوحةً تمثّل قدماً تحمل فرشاة رسم بعنوان «الرسّام جورج قرم»، وقد كان معناها الضمنيّ يشير إلى تعبير فرنسيّ يعني أنّ قرم رسّام فاشل «يرسم مثل قدم» (Il peint comme un pied).

لم يكن ممكناً قبول مثل هذا الموقف الاستفزازيّ في جريدة برجوازيّة مثل لوريان، لذا توقّف الإصدار، ما تركنا أمام عدد وحيد من الملحق الأدبيّ.

في السنوات الأولى من العقد الجديد، أثّرت أحداث متلاحقة في الشلّة. فيما توظّف جورج شحادة على يد غابرييل بونور كمساعد له في خدمات التعليم العام التي أنشأتها سلطات الانتداب، عمل أنطوان موراني في مكاتب شركة الخطوط الحديديّة «دمشق، حماه، وتوابعها» وعمل نعمة إدّه محامياً في شركة محاماة كبيرة في دمشق بينما افتتح أنطون تابت مكتبه الخاص لهندسة العمارة، ليصبح بسرعة رائد العمارة الحديثة في لبنان وسورية.

وبحلول عام ١٩٣٣، سافر شحادة بدوره إلى باريس حيث تقرّب من شاعر شابّ من الإسكندريّة، هنري القيّم وصديقته مارته كازال، التي ستلهم شخصيّة جوستين في رباعيّة الإسكندريّة للورنس داريل. برفقة صديقيه الجديدين، زار شحادة أندريه لوت، وسان جون بيرس، وجان بولان، وماكس جاكوب، كما نشر قصائده الأولى في نوفيل روفو فرانسيز.

وبعد عودة شحادة إلى بيروت، توسّعت الشلّة بضمّ قادمين جدد: جورج سير، رسّام فرنسيّ جاء إلى بيروت عام ١٩٣٤ وجلب معه تأثير الحركات الحداثيّة في باريس. وصار مشغله في عين المريسة، حيث كان يدرّب أجيالاً شابّة من الرسّامين، مكان لقاء الشلّة.

كان القادم الجديد الآخر الذي انضمّ إلى الشلّة هي روزماري أوليبه، شاعرة فرنسيّة باتت مساعدة بونور المقرّبة، ومن ثمّ عفويّاً حبيبة أنطون تابت.

ثمّة لوحة أهداها جورج سير لأبي مؤرّخة في عام ١٩٣٦ تُصوِّر «غداءً على العشب» في مرتفعات تلّة الخيّاط، حيث يبدو بيت الرسّام اللبنانيّ عمر الأنسي في الواجهة. وبإيحاء رمزيّ، نجد مواضع الشخوص المختلفين في المشهد في دائرة حول غابرييل بونور، الذي يقف وحيداً في مركز اللوحة.

ومن الفترة ذاتها، هناك صورتان شخصيّتان لجورج شحادة رسمهما سير وتابت، بورتريه لتابت رسمه سير، حيث يحمل باقة كبيرة من الأزهار ملفوفةً بالجريدة

الشيوعيّة الفرنسيّة لومانيتيه، وقصيدة لجورج شحادة بعنوان «أنطون تابت، معماريّ»، كُتبت أوائل الثلاثينيّات ونُشرت للمرّة الأولى عام ١٩٥٠ في باريس عن دار GLM.

السوريّاليّون في السياسة الدوليّة

لكنّ أواسط الثلاثينيّات شهدتْ أيضاً أحداثاً كبرى لعبت دوراً ملموساً في إعادة تعريف الانتماءات السياسيّة ضمن الشلّة. في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٥، اجتاح موسوليني إثيوبيا منتهكاً بوضوح المادّة العاشرة من ميثاق عصبة الأمم. منحت المملكة المتّحدة وفرنسا لإيطاليا حريّة التصرّف كي تضمن حياد إيطاليا في حال نشوب نزاع مع ألمانيا. وقد تسبّبت السّمة الكولونياليّة للحرب واستخدام الأسلحة الكيميائيّة على يد القوّات الإيطاليّة بردود أفعال متباينة لدى الرأي العام العالميّ. فبينما أصدرت حفنة من المثقّفين اليمينيّين الفرنسيّين بياناً يمتدحون فيه تفوّق الغرب وحقّه في «إدخال التحضُّر إلى البلدان المتخلّفة»، صدر بيان مضادّ يدعو إلى احترام القانون الدوليّ وقّعه كتّاب وفنّانون أوروبيّون، كانت للحركة السوريّاليّة فيه مشاركةٌ فعّالة.

في أيار / مايو ١٩٣٦. أعلن عن تأسيس الحركة المناهضة للفاشية في سورية ولبنان من خلال بيان كتبه أنطون تابت. وفي المجال الثقافي والفنيّ. امتدح البيان الفن الثـــــــــــــــوري الذي يلعب دورا في الصراع ضد الفاشيـــــــــــــــة.

اجتذب الصعود المتسارع للفاشيّة الإيطاليّة والنازيّة الألمانيّة بعض المقلّدين في لبنان وسورية. إثر حضوره في الألعاب الأولمبيّة الصيفيّة في ميونخ عام ١٩٣٦، أسّس بيار الجميّل حزب الكتائب اللبنانيّة، وهو تنظيم يمينيّ مسيحيّ شبه عسكريّ. كما تبدّى صعود الأيديولوجيّات الشموليّة أيضاً في تأسيس أنطون سعادة للحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ الذي يهدف إلى توحيد المنطقة التي سمّاها «سوريا الطبيعيّة»، وتبدّى أيضاً في تأسيس حزب النجّادة، وهو تنظيم قوميّ عربيّ انتشر بين شباب المسلمين السنّة، أسّسه محيي الدين النصّولي وعدنان الحكيم، وكلاهما من المعجبين المتحمّسين بأدولف هتلر وبنيتو موسوليني.

في أيار / مايو ١٩٣٦، أُعلن عن تأسيس الحركة المناهضة للفاشيّة في سورية ولبنان من خلال بيان كتبه أنطون تابت. وفي المجال الثقافيّ والفنيّ، امتدح البيانُ الفنَّ الثوريَّ الذي يلعب دوراً في الصراع ضد الفاشيّة. وبعد انتخابه رئيساً للمنظّمة الجديدة، تقرَّب تابت من الحزب الشيوعيّ وبات منخرطاً أكثر فأكثر في النّشاطات السياسيّة.

ومع أنّ أصدقاءه لم يقتفوا خطاه في هذا الدّرب، إلّا أنّ علاقتهم لم تنقطع وواصلت الشلّة لقاءاتها بانتظام. لكنّ تبايُن المواقف السياسيّة تفاقمَ بعدما تزوّجت شقيقة جورج شحادة من الدبلوماسيّ الإيطاليّ جيورجيو بنتسوني الذي كان يمثّل النظام الفاشيّ في بولندا ويوغوسلافيا.

ثمّة إهداء كتبه شحادة عام ١٩٣٧ على الصفحة الأولى من مجموعة قصائد مكتوبة على الآلة الكاتبة قدّمها إلى تابت، يبدو أنّه يشير إلى أنّ تلك الفترة شهدت سجالات محتدمة بين الصديقين:

«إلى مدير أعمالي الشعريّ أنطون (...) برغم الديمقراطيّات والدكتاتوريّات كلّها»

وسوف يخلق اندلاع الحرب العالميّة الثانية وضعاً جديداً تماماً. فبعد استسلام فرنسا في حزيران / يونيو ١٩٤٠، باتت سورية ولبنان تحت حُكم حكومة فيشي. حُظرت الحركة المناهضة للفاشيّة وسُجن تابت لفترة قصيرة. ولكن في أيار / مايو ١٩٤١، وبعد انقلابٍ أسهمَ في سيطرة رشيد عالي الكيلاني المناصر لدول المحور على مقاليد الحكم في العراق، أعادت بريطانيا احتلال العراق وشنّت حملة عسكريّة بدعم من قوى فرنسا الحرة للسيطرة على سورية ولبنان.

لكنّ هزيمة جيش المشرق التابع لحكومة فيشي لم تُسهم بطبيعة الحال في إنهاء خطر حملة مضادّة على يد قوّات المحور. في نيسان / أبريل ١٩٤٢، كان فيلق أفريقيا التابع لرومل على مسافة أقلّ من ١٥٠ ميلاً من القاهرة، ما شكّل تهديداً على قناة السويس وحقول النّفط الشرق أوسطيّة والفارسيّة. ولم ينقلب مسار حملة شمال أفريقيا إلّا في تشرين الثاني / نوفمبر من العام ذاته بفضل معجزة انتصار البريطانيّين في معركة العَلَمين.

وفي سورية ولبنان، تعزّزت البروباغندا المناصرة للفاشيّة حينما فرّ الزعيمان الحاج أمين الحسيني ورشيد الكيلاني إلى برلين. كان بونور، وأوليبه، وسير قد انضمّوا إلى قوّات فرنسا الحرّة من البداية وأبدوا نشاطاً فعّالاً في تنظيم الحملة الأيديولوجيّة المضادّة.

تغيّر اسم «الحركة المناهضة للفاشيّة» ليصبح «الحركة المناهضة للفاشيّة والنازيّة» التي واصلت نشاطها، فيما

ساهم تابت، مع مثقّفين بارزين مثل عمر فاخوري، ورئيف خوري، والشاعرة والمناضلة النسويّة إميلي فارس إبراهيم في تأسيس مجلّة «الطريق» الثقافيّة الناطقة بالعربيّة، التي كانت تهدف إلى ربط النّضال ضدّ الفاشيّة بالنّضال من أجل الحريّة والاستقلال الوطنيّ.

وفي حقيقة الأمر، ومنذ انتصار قوّات فرنسا الحرّة على جيش فيشي، أعلن الجنرال جورج كاترو، المندوب المفوَّض من الجنرال ديغول، استقلال لبنان بالنّيابة عن حكومته. ومع ذلك، واصل الفرنسيّون الإمساك بمقاليد السلطة الفعليّة حتى تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٣، حينما أدّت الاحتجاجات الشعبيّة والضغط الدوليّ إلى استقلال لبنان. وفي هذه الأثناء، باتت بيروت مركز لقاء لعدد من المثقّفين الفرنسيّين، من كتّاب وفنّانين هربوا من نظام فيشي الرجعيّ. كما قدّمت العاصمة اللبنانيّة ملاذاً آمناً نسبيّاً للمناضلين ضدّ الفاشيّة وللّاجئين اليهود.

مؤسّسات ثقافيّة جديدة

تحت إدارة أونري سيريغ ودانييل شلومبرجيه، أصبح المعهد الفرنسيّ للآثار الشرقيّة، الموجود في قصر الأمير عبد القادر الجزائريّ القديم قرب حيّ الزيتونة، منتدى للسّجالات والنّقاشات المحتدمة بشأن الصّلات بين الثقافة والسّياسة. كما كان مكتب أنطون تابت في منطقة المعرض يستضيف، في الخميس الأوّل من كلّ شهر، محاضرات عامّة عن الماركسيّة يلقيها المستشرق اليهوديّ الفرنسيّ مكسيم رودنسون. وكان أفراد الشلّة يشاركون بفاعليّة في هذه النّشاطات الثقافيّة.

وعلى نحو عفويّ، باتت العلاقات بين أفراد الشلّة أمتن أكثر بعد زواج أنطون تابت وأنطوان موراني بشقيقتَيْ نعمة إدّه ماري وسارة. وفي الوقت ذاته، تلاشى سوء الفهم السياسيّ الذي أثّر سلباً على هذه العلاقات بعد إقدام النظام الفاشيّ على اعتقال صهر شحادة، الدبلوماسيّ الإيطاليّ جيورجيو بنتسوني، بسبب معارضته للتحالف بين موسوليني وهتلر.

وفعليّاً، كانت السنوات الأولى التي تلت استقلال لبنان ثريّة في المشهد الثقافيّ على الأخصّ. عام ١٩٤٤، أسّس غابرييل بونور في بيروت المدرسة العليا للآداب، وهي معهد تعليم عالٍ للآداب والعلوم الإنسانيّة، عُيّن شحادة سكرتيراً عامّاً له. وتأسّست الأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة في العام ذاته، حيث تُقدّم دورات تعليميّة في العمارة، والرسم، والنحت، والموسيقى. ومع مرور السنوات، حقّق الفنّ الحديث أولى انتصاراته وصار مقبولاً على نطاق كبير في المجتمع اللبنانيّ.

مخترقين للحدود الوطنيّة، بدأ الفنّانون الحديثون تعزيز علاقاتهم بنظرائهم في البلدان المجاورة. دعت جماعة الفنّ والحريّة المصريّة فنّانين عدّةً من لبنان ليشاركوا في «المعرض الثالث للفنّ المستقلّ» الذي افتُتح في فندق الكونتيننتال في القاهرة. وإلى جانب جورج سير وأنطون تابت، شارك فنّانان فرنسيّان يعملان في لبنان (أونري بيير فورتييه وجانفييف مورون) والفنّان اللبنانيّ عمر الأنسي في هذا المعرض.

إنّ تحديد الموعد الدّقيق لافتتاح المعرض يثير إشكاليّات دائمة. تشير معظم الإحالات إلى أيار / مايو ١٩٤٢، وهذا صعب التّصديق بما أنّ رومل كان على مشارف القاهرة في ربيع ذلك العام. وقد اكتشفتُ لاحقاً ملاحظةً صغيرةً أرسلها جورج سير لأبي يتحدّث فيها عن أيار / مايو ١٩٤٣، وهذا التاريخ أكثر ترجيحاً، مع أخذ الوضع العسكريّ والسياسيّ آنذاك بالاعتبار.

ومع أنّ جماعة «الفنّ والحريّة» كانت حركةً سوريّاليّة أساساً، فمن الواضح أنّ الأعمال التي أُرسلت من لبنان ذات صلة ضئيلة بالسوريّاليّة. وبذلك يمكن تأويل سبب إرسال الدعوات إلى فنّانين من لبنان بكونها محاولةً من الجماعة المصريّة لبناء علاقات إقليميّة إلى جانب العلاقات التي توطّدت مع رموز الحركة السوريّاليّة العالميّة.

وتوسّعت هذه المحاولة لتكوين شبكة فنيّة إقليميّة على نحو أكبر ذلك العام مع افتتاح معرض كبير في متحف بَصَلْئِيل اليهوديّ في القدس بعنوان «الفنّ الحديث في لبنان». نُظّم المعرض على يد غابرييل بونور، وروزماري أولييه، وجورج سير الممثّلين للّجنة العامّة لفرنسا المُحارِبة في لبنان.

اتّسعت جماعة الفنّانين الذين شاركوا في معرض الفنّ والحريّة لتضمّ فنّانين ومعماريّين آخرين ليعبّروا بشكل أفضل عن مظاهر الفنّ الحديث المتنوّعة في لبنان. امتدّ المعرض الذي ضمّ ٧٢ عملاً فنيّاً من ١٢ كانون الأوّل / ديسمبر ١٩٤٣ حتى ٤ كانون الثاني / يناير ١٩٤٤ بمشاركة ٧ رسّامين ونحّاتين ومعماريّين لبنانيّين وفرنسيّين مقيمين يمثّلون التيّارات الفنيّة الحديثة في لبنان. وكان من المفترض افتتاح معرض بعنوان الفنّ الحديث في فلسطين في بيروت في وقت لاحق من عام ١٩٤٤ ولكن لم يُفتَتح هذا المعرض لأسبابٍ مجهولة.

تكشف المراسلات المحفوظة في أرشيف متحف



بصلئيل اليهوديّ عن تباين آمال الأشخاص المتعدّدين الذين شاركوا في هذا الحدث الفنّيّ. فبينما سلطات فرنسا الحرّة تعدّ معرض القدس حدثاً سياسيّاً يعبّر عن عودة فرنسيّة في منطقة تسيطر عليها بريطانيا، كان الفنّانون المشاركون في المعرض يتوقون في المقام الأوّل لتقوية العلاقات مع المشهد الفنّيّ الفلسطينيّ، بهدف خلق تآزرات ثقافيّة على الصعيد الإقليميّ.

ومن جهة أخرى، تعبّر المراسلات المتبادلة بين مدير متحف بصلئيل اليهوديّ، مردخاي نركيس، والمنظّمة الصهيونيّة العالميّة عن النيّة المُضمَرة في أن يكون المعرض خطوةً أولى باتّجاه الاعتراف بالحركة الصهيونيّة في لبنان وسورية. وقد تكون هذه الآمال المتناقضة هي السبب في أنّ محاولة تكوين علاقات دائمة بين الفنّانين الحديثين في لبنان وفلسطين، وعلى الصعيد الإقليميّ على نحو أوسع، قد باءت بالفشل.

نكبة فلسطين والانقلابات

على النّقيض من جوّ الانتشاء الذي ساد بعد الانتصار على الفاشيّة وفي السنوات بعد الاستقلال، أمسى الوضع السياسيّ قاتماً أكثر ممّا كان عليه في أواخر الأربعينيّات. تسبّبت الحرب العربيّة - الإسرائيليّة بنكبة فلسطين وبإحداث تغيّرات هائلة في أنحاء الشرق الأوسط.

استقرّ اللاجئون الفلسطينيّون في مخيّمات لجوء في جميع أرجاء العالم العربيّ فيما بدأت الجماعات اليهوديّة بمغادرة البلدان العربيّة والهجرة إلى دولة إسرائيل حديثة الولادة علاوةً على أوروبا والولايات المتّحدة.

أفضت الظروف الجديدة التي انبثقت من هذه التحولات الراديكالية إلى تقلص قدرة الثقافات المحلية على التواصل مع الثقافات الأخرى وإلى نكوصها نحو مواقف منصاعة ضيقة. وتشوهت الحداثة بفعل خطاب قومي سياسي.

وأشعلت الهزيمة العربيّة سلسلة من الانتقاضات التي هزّت المنطقة العربيّة. شهدت سورية ومصر انقلابات عسكريّة غيّرت التوازنات السابقة واعتنقت أجندة قوميّة صارمة مناهضة للإمبرياليّة، تبدّت عبر خطاب وطنيّ حماسيّ. أمّا الحرب الباردة التي حلّت محلّ التعاون الدوليّ في فترة ما بعد الحرب فقد طرحت استقطابات جديدة إضافةً إلى توتّرات سياسيّة وعسكريّة انعكست على وضعٍ إقليميّ غير مستقرّ.

وأفضت الظّروف الجديدة التي انبثقت من هذه التحوّلات الراديكاليّة إلى تقلّص قدرة الثقافات المحليّة على التواصل مع الثقافات الأخرى وإلى نكوصها نحو مواقف منصاعة ضيّقة. وتشوّهت الحداثة بفعل خطاب قوميّ سياسيّ تمحور حول تأويلات تبسيطيّة أحاديّة لأفكار التقدّم، والنّماء، والازدهار أو التطوّر. وبالتالي، فإنّ محاولات الطليعة الثقافيّة العربيّة في التّحريض على كسر الحواجز الوطنيّة من أجل المشاركة في مشروع حداثة راديكاليّة علاوةً على التزامها بثقافةٍ ذات سمة عالميّة بدت عتيقة الطّراز مقارنةً بهذه الوقائع المحليّة الجديدة.

أُرهقت الأزمنة بفعل وطأة قضايا ومشاغل أثّرت على العلاقات بين أفراد الشلّة اللبنانيّة. بالرّغم من مواجهات جرت أحياناً، مثل الكتابة الجماعيّة لمسرحيّة شحادة «سهرة الأمثال» عام ١٩٥٣ أو معارضة الحملة التي أطلقتها دوائر عسكريّة فرنسيّة حين عُرضت مسرحيّته «حكاية فاسكو» على مسرح «أوديون» عام ١٩٥٨، تشرذمت الشلّة إلى مصائر منفصلة، تروي قصصاً فرديّة.

تشتّت ومصائر فرديّة منفصلة

غادرت روزماري أولييه لبنان عام ١٩٤٧ وعُيّنت في منصبٍ ملحق ثقافيّ في السفارة الفرنسيّة في أستراليا. وهنا، أُلقي القبض عليها في عمليّة جاسوسيّة غامضة. بعدما اتُّهمت بإفشاء معلومات للاستخبارات السوفياتيّة - كي جي بي عن الخطط العسكريّة الفرنسيّة في الهند الصينيّة، نالت براءتها إثر محاكمة طويلة ولكنّها باتت تعاني من البارانويا.

حين زرتها في باريس عام ١٩٦٨، استقبلتْني في غرفة خدم صغيرة لأنّها كانت تجزم بأنّ شقّتها في جادّة بوردونيه تعجّ بأجهزة التنصّت التي دسّتها السي آي إيه. وقد فارقت الحياة في باريس أواخر السبعينيّات.

غادر غابرييل بونور لبنان عام ١٩٥٢، حينما نشرت مجلّةٌ رسالةً شخصيّة كان قد أرسلها إلى صديق مصريّ، هو الفيلسوف عبد الرحمن بدوي، ينتقد فيها سياسة فرنسا في الجزائر والمغرب. وبعدما استدعتْه الكي دورسيه [وزارة الخارجيّة الفرنسيّة] ليتبرّأ من كلامه، رفض واستقال من المؤسّسة الفرنسيّة. سافر إلى مصر حيث رأس قسم الأدب الفرنسيّ في جامعة عين شمس، ومن ثمّ إلى جامعة الرّباط عام ١٩٥٩. تقاعد عام ١٩٦٥

وعاد إلى قريته مسقط رأسه في بريتاني حيث فارق الحياة عام ١٩٦٨. ومع نهاية الأربعينيّات، قاسى جورج سير أزمةً وجوديّةً، حيث بات يتشكّك في مكانته في المشهد الفنيّ المعاصر. وبعدما وقع أسير حوار عسير مع ما بعد التكعيبيّة، بقي منقسماً بين ارتباطه القويّ بالحياة الثقافيّة اللبنانيّة ورغبته في أن يُعترَف به في المشهد الفنيّ الباريسيّ. توفّي في بيروت عام ١٩٦٤. وقد انتقلت مجموعته الفنيّة، بحسب وصيّته، إلى كلٍّ من مدبّرة منزله وإلى زوجة جورج شحادة، بريجيت كوليريه.

جرّب أنطوان موراني ونعمة إدّه فتح شركة للاستيراد والتصدير خلال الخمسينيّات. وللأسف، لم يكن ذهناهما تجارياً أو ربّما كانا شغوفين بالشعر أكثر من الإدارة. عانيا من الإفلاس مرّات عديدة، وكان تابت يسدّد ديون صديقيه القديمين. وسافر نعمة إدّه إلى باريس بعد اندلاع الحرب اللبنانيّة. وقد عانى من مرض ألزهايمر في سنواته الأخيرة، وكان يردّد قصائد شحادة الأولى طوال اليوم.

صار أنطون تابت أحد أهمّ رموز حركة العمارة اللبنانيّة الحديثة خلال الخمسينيّات وبات منغمساً في السياسة أكثر فأكثر. كان عضواً في مجلس السِّلم العالميّ، وهو منظّمة دوليّة قريبة من الحزب الشيوعيّ شاركت بفاعليّة في ولادة وتطوّر حركة عدم الانحياز في آسيا وأفريقيا، وقد نال جائزة لينين للسلام مع فيديل كاسترو عام ١٩٦١. توفّي تابت في بيروت عام ١٩٦٤. وبعد عدّة سنوات من وفاته، وجدتْ عائلته رسائل وصوراً متعلّقة بشلّة الأصدقاء، في دُرج سريّ مُقفل.

جورج شحادة صار ... شحادة. نُشرت قصائده على نطاق واسع وتُرجمت إلى لغات عديدة، وعُرضت مسرحيّاته في جميع العواصم الأوروبيّة. بعد اندلاع الحرب اللبنانيّة، غادر إلى باريس عام ١٩٧٦ وتوفّي فيها عام ١٩٨٩. يقول زوّاره إنّه، في سنواته الأخيرة، كان دائماً ما يستذكر قصص شلّة الفرسان، مستعيداً ذكرى أصدقائه القدامى.

إلى أنطون تابت، معمارياً
جورج شحادة

في هذا المنزل الجنوبي
حيث تفسد حبّات الفستق،
كنتَ تبحث عن الممحاة
لتمحو خطاياك.

لا شك بأن عالِم الفِراسة
سوف يستسلم إذا كان عليه أن ينتظرك
طفلة نجلاء العينين
تحت سَدْل / كُمّة المصباح، طاقيةِ حَبر الفاتيكان الأعظم.

إنك تتنهّد عند كل درجة مئويّة:
القطن ثلج البلدان الحارّة!
وفي رأس المرسى
يلتمع بطن البواخر.

إنك تدخّن غلايين من الكلوروفورم
على طبقة أرضيّة من الكبّاد،
وهناك الحدائق طافحة
بلحى عَنزٍ ووَرد.

القاطراتُ تتماسك بالأيدي
لتتجوّل في الجبل،
وأشجار الكينا على الطريق
تذكّرك بألسنة «ايزوب».

تريدُ لعظامك أن تتمرّى
في الأحواض التي تكشف البَخت،
وفي مساءات الأمطار العظيمة
ندرك كم عبثية هي زخّات المياه!

الهوامش

١ إشارة إلى رواية الفرسان الثلاثة (١٨٤٤)، للروائيّ الفرنسيّ ألكسندر دوما الأب (١٨٠٢ - ١٨٧٠)، حيث نجد أسماء أبطالها الأربعة: دارتانيان والفرسان الثلاثة كما في الصورة. (المترجم)

٢ تعليق جانبيّ على موضوع التواريخ وسنوات الميلاد. في ذلك الوقت، نادراً ما كانت تواريخ الولادة المُسجَّلة في الأوراق الرسميّة دقيقةً. إذا اعتاد الناس على الكذب بشأنها كي يساعدوا الفتيات على إيجاد أزواج، وكذلك من أجل تأجيل اللحظة التي يُرغَم فيها الشبّان على الالتحاق بالخدمة العسكريّة. وكمثال على هذا، فإنّ تاريخ ولادة أنطون تابت بحسب السجلّات الرسميّة هو ١٩٠٧. ولكنّنا نعرف بأنّ تابت تخرّج من كليّة الهندسة عام ١٩٢٦، بحيث يكون قد تخرج وهو في التاسعة عشرة، وهو عمر غير معقول، بخاصة ونحن نعلم أنّ معظم المدارس والكليّات كانت مغلقة لعدة سنوات خلال الحرب العالميّة الأولى.

٣ الجثّة الفاتنة cadavre exquis: أسلوب سوريالي في الكتابة والرسم يتشكّل فيه العمل من خلال تراكب كلمات أو صور، تبدأ الثانية من حيث انتهت الأولى، بحيث تكون علاقة التراكب منطقيّة من دون أن يكون النّتاج الأخير منطقياً بالضرورة.

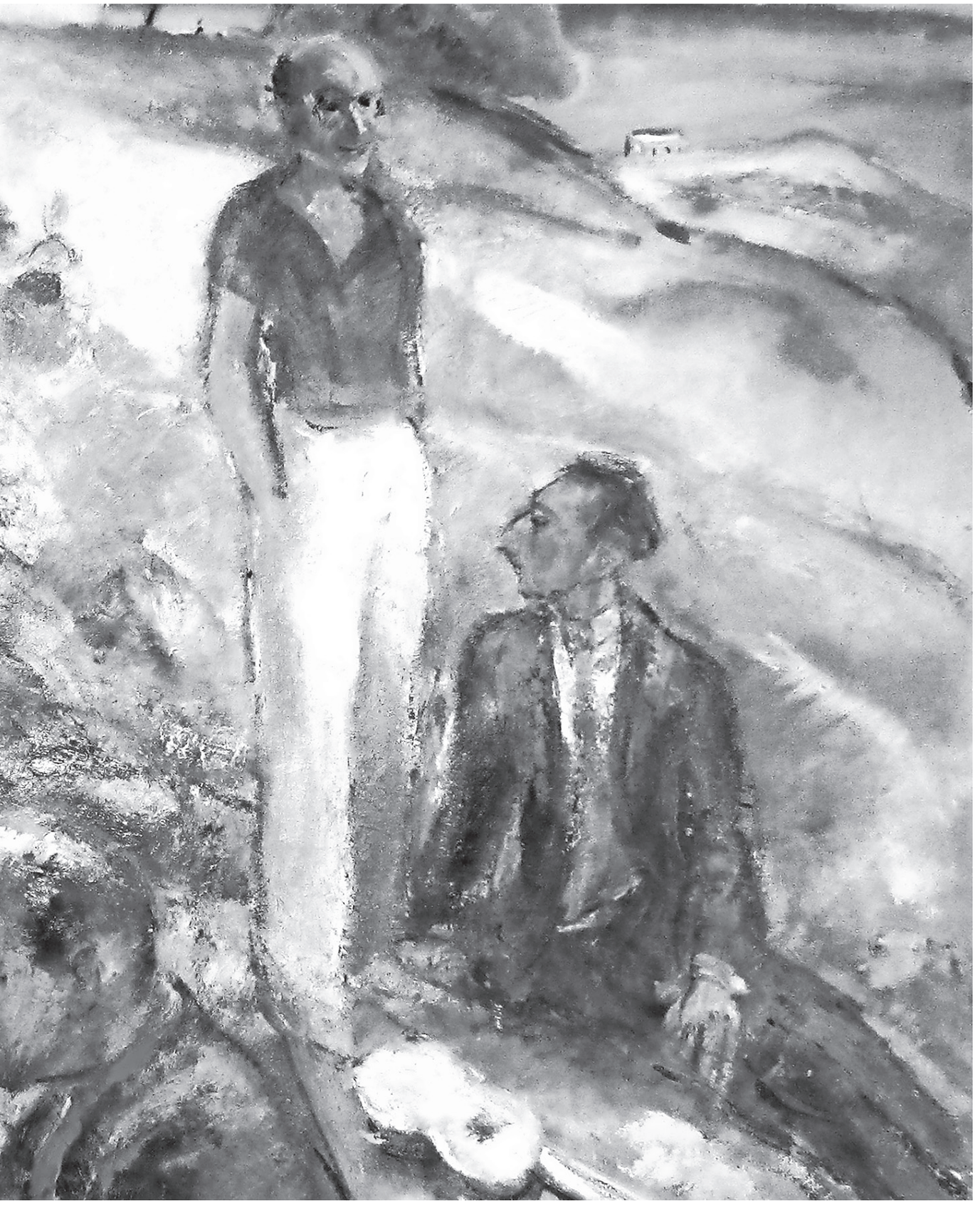

❖
تفاصيل من لوحة
لجورج سير، ١٩٣٦



عندما تحكي المرأة
صورة النساء في أدب الأطفال

نجلا جريصاتي خوري

كاتبة وباحثة في الثقافة الشعبية، من أعمالها «عدّيات وعدّيات» (٢٠٠٩)، «حكايات وحكايات / حكايات شعبية من لبنان» (٢٠١٤)، «يا ريتني عصفور» (٢٠١٥). الكتب في هذا المقال كانت تلك التي وصلت الى لجنة تحكيم جائزة بوغوصيان - السبيل لكتب الأطفال عام ٢٠١٧ والتي كانت الكاتبة احد اعضائها.

بدايةً، وقبل أن أقرأ صورة المرأة في أدب الأطفال، كان عليّ الذهاب إلى تعريف الذكَر والأنثى كما وردا في المعاجم العربيّة:

- الذكَر: «العضو الذي تبوّل منه الذكور».
- الإناث: «جمع الأنثى والموات كالحجر والشجر وصغار النجوم.» (محيط المحيط)

قلت لأبحث عن نساء ونسوة. كنت أعتقد أنّ أصل كلمة نساء من «إنسان» و«إنْس»، كما في حكايات جدّتي «إنس ولاّ جنّ؟». وجدت أنّ نساء ونِسوة ونِسوان، جمع «امرأة». «سمّيت امرأة لأنّها من امْرِئ أخذت»، بحسب التوراة.

لا داعيَ لإكمال بحثٍ لغويّ تخطّى الزمن مضمونَه الرجعيّ، حيث يُعَرَّف الصبيّ بـ «رأس القوم»، والصبيّة في الصّحاح بـ «الجارية». صحيح أنّ هذا الزمن ولّى، لكن لا بدّ من الاعتراف بحقيقةٍ ثقافيّة هي أنّ اللغة ليست فقط وسيلة اتّصال، بل هي أداةٌ تحمل المفاهيم والقيَم. هكذا تغيّرت حديثاً بعض المفردات في مجتمعنا: نسمّي «رأس العبد» الطربوش، و«المعاقين» ذوي الحاجات الخاصّة، و«العميان» المكفوفين، و«الكرسون» ميتر، و«الصانعة» خادمة. المفردات مجرّد مؤشّر إلى ثقافة معيّنة.

في بحثي عن صورة المرأة في أدب الأطفال، عليّ أن أبحث عن صورة الرجل أيضاً، وعن علاقة المذكّر بالمؤنّث. هنا ألاحظ في اللغات التي أعرفها، العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة، أنّه لا يوجد ضمير «حياديّ» كلّيّاً، فالضمائر تعكس الذكورة والأنوثة. وعندما نتكلّم عن مجهول، مثلاً، في لغتنا المحكيّة، نقول «شخص»، «إنسان»، «حداً» أو «بني آدم»، ونفهم أنّ هذه المفردات مذكّرة، لكنّها تتضمّن أيضاً «فلان» و«فلانة»، ففي العامّيّة كما في الفصحى يُستخدم المذكّر في حال جمع الجنسين.

هذه الأمور تجعلني أقرأ أدب الأطفال بروحٍ سمحة بما يخصّ هذا الجانب من اللغة، المنعوت بالجنسيّ، فلنجرّد المذكّر من ذكوريّته، ولنعتبره مصطلحاً لغويّاً حياديّاً، ولا داعيَ لطرح أسئلة لا أجوبة عليها.

هذا في اللغة، أمّا في الرسوم، فإنّنا نميّز فوراً بين الجنسين، إنْ لم يكن من الملبس أو الشَّعر، فمن خصائص جسديّة، كالصدر للمرأة أو الشارب للرجل، وما إلى هنالك. وبالطّبع، هذا ليس خاصّاً بالرسوم للأطفال. إنّ التحايل من خلال الصورة أسهل أحياناً ممّا هو عليه في اللغة: كيف يمكننا أن نخمّن جنس الطفل في الرسمة، أو صغير الحيوان، أو الأشكال الهندسيّة، أو الوحوش، الـ«مونسترز»، وقد نال هؤلاء نجاحاً منذ أكثر من خمسين سنة في أدب الأطفال في العالم، وهم رائجون اليوم في بلادنا.

أعتقد أنّ سوق الأطفال ومن ضمنه أدب الأطفال، هو اليوم في أَوَجّ ازدهاره في بلادنا: من متاجر الألعاب والملبوسات إلى الحضانات الخاصّة والرياض ونوادي النّشاطات والأفلام والبرامج التلفزيونيّة والقنوات المخصّصة لها. أمّا فيما يخصّ الكتاب، فهناك أعدادٌ لا سابق لها من دور نشر خاصّة بالأطفال، وكتّاب، ورسّامين ونقّاد وجوائز، أجنحة كاملة في المكتبات، ومعارض الكتاب تكتظّ بالزّائرين لا سيّما بتلاميذ المدارس أثناء الدّوام الدراسيّ، فالكتاب بابٌ للمعرفة.

الأسئلة المطروحة أمامنا اليوم حول الكتاب الموجّه للأطفال، هي حول هذه النمطيّة السائدة في العالم: هل وقعنا نحن أيضاً في المظاهر النمطيّة والكليشّيهات الجنسويّة؟ وماذا عن المضمون؟ وهل يمكن التحدّث عن أدب الأطفال اليوم من دون أن نعود إلى حكايات الجدّات التي تربّت أجيالٌ من الأطفال عليها حتى بدايات هذا القرن؟

هذا ما حاولتُ دراسته في مجموعتين من أدب الأطفال: المجموعة الأولى: الكتب الحديثة، والمجموعة الثانية: الحكايات الشعبيّة.

أ - المجموعة الأولى: الكتب الحديثة

تمّ اختيار عيّنة مؤلّفة من ٩٠ كتاباً صادرة عن دور نشر لبنانيّة، بين سنة ٢٠١٤ و٢٠١٧ وموجّهة لقرّاء الـ٧ و٨ سنوات. سأنطلق من هذه العيّنة من كتب الأطفال، وهي بالطّبع مجرّد عيّنة، لكنّها تحمل مؤشّرات تسمح لنا بأن نقرأ موضوعنا من خلالها. سننظر عن قرب إلى هذه الكتب.

أوّلاً هذه بعض الأرقام:

◆ الكتّاب: هم أساساً كاتبات ٧٠٪ إناث، و٣٠٪ ذكور. بحسب دراسة إحصائيّة أُجريت سنة ٢٠٠٨، في أوروبا، «فإنّ عدد الكاتبات هو الغالب بين الكتب الموجّهة للصغار بين الصفر والثلاث سنوات. أمّا في الكتب الموجّهة لقرّاء بين ٣ و٦ سنوات فإنّ عدد الكاتبات يساوي عدد الكتّاب الذكور. ومن قرّاء الستّ سنوات وما فوق يزداد عدد الذكور ويتقلّص عدد الكاتبات»[١]. هل كلّما ارتفعت سنّ القرّاء ازداد عدد الكتّاب الذكور وتقلّص عدد الكاتبات في بلادنا؟ لم أتمكّن من الحصول على جواب دقيق. ولكن لمَ لا؟

◆ الرسّامون: هم أساساً رسّامات ٧٥٪ إناث، و٢٥٪ ذكور. تتساءل الدراسة المذكورة سابقاً عن التوزيع الجنسانيّ للمهامّ في هذا الميدان، حيث إنّ أغلبيّة مؤلّفي كتب الأطفال إناث، أمّا أغلبيّة الرسّامين فهم ذكور. في عيّنتنا نسبة الرسّامات تعادل نسبة الكاتبات.

الكتاب من الخارج

◆ عنوان الكتاب: ٤٧٪ الجنس غائب من العنوان، و٥٣٪ الجنس مذكور في العنوان: ٢٥ ٪ إشارة إلى الأنثى، و٢٨٪ إشارة إلى الذّكَر.

◆ الشخصيّة على الغلاف: ٦٤ كتاباً، أي أكثريّة الأغلفة، تبرز شخصيّات واضحة الجنس. هذه الشخصيّات تتوزّع كما يلي: ٥٨ ٪ للذكور، و٤٢ ٪ للإناث.

الكتاب من الداخل

◆ التصنيف: ٤٣ ٪ من النّصوص هي قصص، أيّ نصوصٌ تتألّف من بداية وعقدة ونهاية؛ ٣١٪ معلومات، أي إنّ هدف النصّ هو إيصال معلومات بشكل واضح؛ ٢١٪ أيضاً معلومات، لكنّها مموّهة في قصّة؛ و٥ ٪ وثائقيّة.

نلاحظ هنا أنّ الأنواع الأدبيّة متنوّعة نسبيّاً، إذا أضفنا إليها الشريط المصوّر وبعض النّصوص المسجّعة. لكن إذا نظرنا عن قرب، فسوف نلاحظ وجود اتّجاهين: إيصال المعلومات بأيّ شكل كان (وثائقيّ ٥ ٪ + في قالب قصّة ٢١٪ + معلومات بحتة ٣١٪ = المجموع ٥٧٪) يشكّل أكثر بقليل من نصف العيّنة. والقصّة، كنوع أدبيّ، تشكّل أقلّ بقليل من نصف العيّنة، ٤٢٪.

◆ حضور الكتاب: ٤٤٪ حضور الكتاب في النصّ، و٣٦٪ في الرسم، و١٨٪ غائب من المجموعة. نضمّ في هذه التسمية «كتاب»، أيضاً الحاسوب وأيَّ شكل من الكتابة أو أيّ نشاط مشابه.

◆ حضور الحيوانات أو الحشرات (ولو مرّة واحدة عابرة): إنّها حاضرة في ٣٧ كتاباً، والرسوم، في ٣٦ كتاباً. أحياناً كثيرة تأتي كإضافة من قبل الرسّام / الرسّامة، لا كعنصر توضيحيّ لما ورد في النصّ.

المضمون

◆ المكان حيث يدور السرد: ٣٩٪ في «الداخل»، أي داخل غرفة أو في الصفّ، ويضمّ هذا الداخل أيضاً الحديقة أمام المنزل، أو ملعب المدرسة مثلاً. ٢٧٪ في الخارج، أي في الشارع أو الغابة مثلاً. ٢٧٪ في «الداخل» والخارج معاً، في الكتاب نفسه. ٧٪ المكان غير محدّد.

◆ سلْطة الكبار: نلاحظ سلطة الكبار، أي الراشدين، في ٤٣ كتاباً من أصل الكتب الـ ٩٠ من العيّنة، حيث نلاحظ سلطة الأهل، بمعنى العائلة الموسّعة، في ٢٧ كتاباً. وحضور الراشدين، من غير الأهل، في ١٦ كتاباً. ما تبقّى، أي ٤٧ كتاباً، هي مسألة ثانويّة، أي سلطة لا تذكر.

◆ المهن المحدّدة: ٣٠٪ من المهن مذكورة بصفتها تعريفاً لشخصيّة ذكوريّة، مثل الملك ورائد الفضاء والمزارع. و٦٪ من النساء يعملن خارج البيت، في مصبغة أمّ بلال وفرن أمّ حبيب ومعلّمة. المهمّ هنا هو الفرق الكبير عدديّاً، في النماذج المطروحة للذّكور والإناث. يبني الأطفال منذ الصغر هويّتهم الجنسيّة، بنات / صبيان، كما يبنون الثقة بالنّفس واحترام الذّات. فالاحتمالات التي تقدّمها هذه العيّنة، ضئيلةٌ جدّاً وضيّقة جدّاً، إذا قارنّاها مع الاحتمالات المطروحة أمام الذّكور.

خلاصة أوّليّة

حتى الآن يبدو أنّنا أمام معادلاتٍ دقيقة تراعي التّوازن وتقدم ما يمكن أن نُطلق عليه اسم الكتب النظيفة، التي

١ **الجنسيّة في أدب الشبيبة: كتب الأطفال.** هيلان أنجلو، إلودي بيجو، بيار بيّو، ماري كيّفيك وأدلين شليّه. المعهد الجامعيّ للتكنولوجيا في ديجون - مهن الكتاب والتراث.

تخدم أغراضاً تربويّة وتسويقيّة في الآن نفسه. هناك جهود في الرسم والكتابة من أجل الوصول إلى هذه المعادلة. لكنّ هناك مجموعة من الأسئلة التي لا جواب عنها، وخصوصاً في حقل الكتابة القصصيّة، التي من المتوقّع أن تقدّم ببنيتها التشويقيّة والخياليّة حوافزَ للقراءة والمتعة. ملاحظتي الأساسيّة تنطلق من التناقض بين التطوّر الكمّيّ والتجاريّ لأدب الأطفال، وبين شكاوى المربّين من الأطفال الذين لا يقرأون، وإذا قرأوا، يقرأون فقط الكتب التي تفرضها المدرسة، أو يقرأون الكتب باللغة الأجنبيّة.

أننا أمام معادلات دقيقة تراعي التوازن وتقدم ما يمكن أن نطلق عليه اسم الكتب النظيفة. التي تخدم أغراضا تربوية وتسويقية في الآن نفسه. هناك جهود في الرسم والكتابة من أجل الوصول إلى هذه المعادلة. لكن هناك مجموعة من الأسئلة التي لا جواب عنها. وخصوصا في حقل الكتابة القصصية. التي من المتوقع أن تقدم ببنيتها التشويقية والخيالية حوافز للقراءة والمتعة.

هناك في رأيي ثلاثة أجوبة محتملة عن هذا السؤال. الجواب الأوّل يرتبط بالمسألة اللغويّة، حيث نلاحظ، وبسبب الخضوع لمعايير الأسواق العربيّة، تركيزاً على اللغة الفصحى. أنا لا أعتقد أنّ الفصحى تشكّل عائقاً جدّيّاً، شرط تحديثها وانفتاحها على لغة الكلام العاميّة، وتحريرها من الصيَغ الجاهزة. فهناك انفصامٌ بين لغة الكتاب ولغة الحياة، ويجب تقليص الهوّة بين لغة الكتاب ولغة الحياة، عبر لغة بسيطة، تتضمّن كلماتٍ مأخوذة من لغة العامّة. ولا أجد مانعاً لنشر كتب بالعاميّة، وخصوصاً لصغار الأطفال، شرط أن تكتب العاميّة بعربيّة صحيحة.

الجواب الثّاني، هو الخضوع للمعايير المحافظة التي تسهّل تسويق الكتاب في المدارس، وفي الدول العربيّة التي تعتمد سياسة تربويّة محافظة. من تحريك كلمات الكتاب، كأنّنا في صفٍّ مدرسيّ، إلى الابتعاد عن المواضيع الشائكة والخطرة، فيبدو العالم ورديّاً وبلا ايّة مفاجآت، ويعقّم الحكاية، مُفقداً الكتاب قدرته على غواية القارئ.

الجواب الثالث، هو الابتعاد عن تراث الحكايات الخرافيّة، التي قام جزءٌ كبير من أدب الأطفال في الغرب بتحديثها. هذا الابتعاد عن المقترب الخرافيّ العجائبيّ، الذي يحمل في داخله أبعاداً نفسيةً وينمّي الخيال، يحوّل القصّة إلى ما يشبه الموعظة الاجتماعيّة الأخلاقيّة. ومن جهة ثانية، ألاحظ ابتعاداً عن الكتاب - اللعبة، وكلّنا يعلم أنّ اللعب هو أداة تشويق وتعليم في الآن نفسه.

قصّة الأطفال هي عملٌ يجمع الخيال والواقع في إطارٍ واحد. فالقصّة تحرّر القارئ عبر دعوته إلى رحلة مشوّقة في عالم الخيال الذي هو الامتداد الطبيعيّ للواقع. هنا يقع النّقص الأساسيّ. وهنا نشعر بضرورة إحداث ثورة جذريّة في عالم كتب الأطفال. هذه الثّورة هي شرط تحوّل الكتاب من حاجةٍ تربويّة مفروضة، إلى حاجة فرديّة يسعى الطّفل إلى اقتنائها وقراءتها.

ملاحظات تفصيليّة

من جهة أخرى تبدو هذه الكتب مخصّصة للرّواة، لا من أجل أن يقرأها القارئ - الطّفل. فهو لا يعبّر باللغة المستخدمة فيها. إذا أراد أن يروي بدوره القصّة لنا أو لصديق مثلاً، فعليه أن يبذل جهداً مضاعفاً ليتذكّر تسلسل الأحداث - وهذه متعة - ولتذكّر المفردات - وهذا أقرب إلى الواجب المفروض. المواضيع التي تعتبر حسّاسة معروضة بشكل واقعيّ مؤلم، عنف مجّانيّ كما في كتب: بدر ذو الرجل الواحدة، سما، عبّودي الطفل المميّز، ماما مصابة بالسرطان. كان من الممكن استخدام قصص حيوانات، أو وضع القصّة في قالبٍ فكاهيّ. ونلاحظ غياب موضوعاتٍ أساسيّة كالتربيّة الجنسيّة والعنصريّة والطائفيّة.

سأبدأ بالكتب الجميلة، شكلاً ومضموناً، وهي كثيرة، اخترتُ منها:

◆ بستاني أين أنت؟

يكتشف المزارع أنّه جزءٌ من كلّ ولكلّ واحد خصوصيّته. شرح النسبيّة من خلال القصّة، في سياقٍ منطقيّ وبسيط. نفهم معنى التواضع واحترام الغير وقبوله، دون استخدام هذه الكلمات المجازيّة. الكتاب مكتوب بخطّ اليدّ. لم يحافظ على نسق واحدٍ في الكتابة: الفراغ بين الكلمة والأخرى، أو عدد النّقاط قبل الفاصلة وبعدها، أو عدد النّقاط بعد إلى آخره.

◆ درّاجة على الحبال

ديك وأرنب في نزهة على درّاجة. لغة تسمح للقارئ - الطفل أن يقرأ بنفسه. كلمات سهلة، تقطيع الجمل واضح، تكرار ولازمة وقافية، وقصّة مرحة طريفة. نعرف النهاية من عنوان الكتاب.

❖ بستاني أين أنت، تأليف: د. نبيهة محيدلي، رسوم: لينا مرهج، دار الحدائق، ٢٠١٧


بالفعْلِ، كان هناكَ بستانٌ بعيدٌ، لم يكنْ يعرفُ عنه شيئاً من قبْلُ. لكنَّ البستانَ كانَ صغيراً.. إذاً..
آه!!
همساً
متأكِّدٌ أنا
من أنَّه الأكبرُ. نعم.. إنه الأكبرُ حجماً
هيه .. هيه
لِلتَّصحيح، بستاني ليس
الأوحدَ في هذا الوادي. ولكنْ..

◆ حين غرق جدّي

غرق الجدّ في النّوم. سوء تفاهم ناتج من اللعب على الكلام. قصّة جميلة، جديدة، طريفة وناجحة. نموذج للجملة الطويلة.

◆ النَمَسة «نَموستيكو»

برغشة تروي عن نفسها من وجهة نظرها. روح النّكتة، نمط غير مألوف، اسم الشخصيّة - العنوان موفّق، لكن إذا كانت «نمسة» صحيحة؟ فلم لا «ناموسة»؟ أو إذا كانت غير صحيحة فلم لا «برغشة»؟ نلاحظ غياب البحث العلميّ للحكاية، الشخصيّة ليست مؤنّثة، فالأنثى فقط هي التي تعقص (بحاجة إلى بروتيين لتبيض، الدمّ الذي تمصّه يساوي ٣ أضعاف وزنها) والأنثى هي التي تُصدر صوتاً لتجذب الذّكَر إليها (٤٠٠ ذبذبة في الثانية).

◆ أين أجدك؟

تلميذة تبحث عن قبّعتها، ونتبع معها مراحل لبسها. تشجيع الاستقلاليّة. نتعلّم من أخطائنا. سرد أسماء الملابس بشكل طبيعيّ وجميل. اختيار المفردات غير منطقيّ: استخدام كلمات محكيّة مثل «كنزة»، «شال» و«غمّيضة». وهذا ممتاز لأنّ ليس هناك مرادف لها بالفصحى، وهي أليفة منذ قرن وقد خدمت عسكريّتها. لكنّ هناك كلماتٍ فصحى مثل «ملابس»، «مظلّة» و«قبّعة»، لا داعي لاستخدامها بما أنّ مرادفها المحكيّ صحيح: «ثياب»، «شمسيّة» و«برنيطة»، خصوصاً أنّ الكلمات التي تثقل النصّ كثيرة مثل «القفّاز» و«السّترة».

◆ لو كان عندي ديناصور

طفل يحلم بديناصور في بيته. يزن الإيجابيّات والسلبيّات. نصّ جميل وممتع، ينمّي الخيال والمنطق. يبدأ النّصّ بإيجابيّات وجود الديناصور وينتهي بالسلبيّات، فتأتي النهاية مغلقة ووعظيّة. عكس ذلك، كان سيفتح مجالاً للحلم والطرافة.

لا تكتمل اللوحة إذا لم نطّلع على الرسوم. إذا كان عليّ أن أبسّط الموضوع، أقول باختصار إنّ أكثريّة الإخراج والرسوم هي من أعمال محترفين، بقدر ما هي أكثريّة النصوص لا تزال نصوص هواة.

هناك عددٌ مهمٌّ من الكتب يتوجّه للراشدين - حنين وبكاء على أطلال القرن الماضي - والطفل ليس سوى ذريعة لإيصال الرسالة، «إحكي الجارة لتسمع الكنّة». فالمهامّ والاهتمام يتعلّقان بمهامّ الكبار، وباهتماماتهم:

◆ تعليم اشارات السَّير: درّاجتي والمرور، سائق سيّارة ماهر.

◆ تعليم تربية الأطفال: الأخطبوط الذي فقد شهيّته، حكاية طفلة اسمها ميرال، دعوني أكبر.

◆ الحفاظ على البيئة والتراث على المستوى الوطنيّ: حجر وقنطرة وقرميد، ذاكرة المدينة، عندما تكلّمت النفايات، مرجانة لا تستطيع الغناء، يوم اختفت الأشجار.

هناك أيضاً عدد كبير من الكتب يقدّم معلومات ناقصة أو خاطئة علميّاً و / أو تربويّاً. سأقدّم مثلاً واحداً عن كلّ ملاحظة.

◆ المعلومات النّاقصة علميّاً: حجر وقنطرة وقرميد

تلميذة مدرسة تبحث عن حلٍّ ولا تعرف «طعم النّوم»، حتى جمعت رفاقها في مظاهرة ضدّ هدم البيوت التراثيّة، «الشّعب يريد رحيل البلدوزر! ». النقص هو في إغفال أن هناك جمعيّات كثيرة تدعو لتحرّكات ومسيرات ونشاطات - مثل أيّام التراث الوطنيّ اللبنانيّ - نذكر منها «جمعيّة تشجيع المواقع الطبيعيّة والأبنية القديمة في لبنان» و«جمعيّة حماية التراث اللبنانيّ» وغيرها.

◆ المعلومة الخاطئة علميّاً: عبّودي الطّفل المميّز

الرّاوي وَلد له «وحمة» - ما نسمّيه «شهوة» - على وجهه. يقول أنّه «لا يمكن علاجه إلّا... بالليزر» و «للّيزر أخطاء عدّة»، ويعدّد ٦ منها. الخطأ هو في اختيار كلمة «أخطاء»: «للّيزر أخطاء عدّة». هل هذه أخطاء في الحسابات أو الجرعات أو ما شابه؟ أم هي مجرّد آثار جانبيّة محتملة لهذه العمليّة، كما هو الأمر لأيّ دواء أو عمليّة جراحيّة؟ ولا يذكر النصّ نسبة النجاح لهذه الطريقة.

◆ المعلومة النّاقصة تربويّاً: الجدّة نويل

بائع الحليب الفقير يشتري الألعاب ويوزّعها على الأطفال متنكّراً ببابا نويل الذي لم يأت تلك السنة، لذا قرّرت الجدّة أن تكون بابا نويل وأهدته قالباً من الحلوى. فبكى من الفرح. النقص هو في عدم ذكر أنّ للعطاء عدّة أبعاد: «فرح العطاء يعادل بل ربّما يفوق فرح الأخذ»، «إذا كان لديك الكثير، فأعط من أموالك، وإذا كان لديك القليل، فأعط من قلبك».

◆ المعلومات الخاطئة تربويّاً: حكاية طفلة اسمها ميرال

حكاية أمّ عاجزة عن تربية ابنتها، تأتي ضيفة غريبة على الأسرة، ميزتها أنّها تكتب كتباً للأطفال، فتعلّم الأم التصرّف السليم مع ابنتها. الخطأ: هل يجوز تخفيض صورة الأمّ لهذه الدرجة في عين القارئ الصغير؟ والخطأ الآخر: هل يجوز أن يكون الجمال مقياساً اخلاقيّاً؟: «تشبهين تلك البنت البشعة والمشاكسة التي لا يمكنُ أن يحبَّها أحدٌ. ولستِ البنتَ الحُلوةَ والذكيّةَ التي يحبُّها الجميع».

لا بدّ أن أذكر أيضاً أنّ هناك حذفاً للمؤشّرات الأساسيّة



❖

حكاية طفلة اسمها ميرال، تأليف: وفاء الحسيني، رسوم: علي شمس الدين، دار كتاب سامر، ٢٠١٦

الجوهريّة في حياتنا العائليّة والاجتماعيّة والثقافيّة، ربّما هذا الغياب محصور صدفة في هذه العيّنة؟ أم أنّ هذا شرط من شروط النشر؟ أم مراقبة ذاتيّة إراديّة؟ أم ماذا؟ لا أدري.

أمّا القصص والحكايات، فهذه مسألة تدفعنا إلى التواضع والاعتراف بأنّ خبرتنا لم تكتمل أو لم تنضج بعد في هذا الحقل. ذكرنا في التّصنيف أن ٢١٪ هي قصص مموّهة هدفها إيصال المعلومات و٤٣٪ من النصوص هي قصص. أيّ أنّ النسبة الإجماليّة للقصص هي ٦٤٪. القصّة، كما ذكرت، لها بداية وعقدة ونهاية. والقصّة الناجحة، برأيي، أو بالأحرى، القصّة الجميلة، هي التي تحتمل عدّة مستويات من القراءة، تماماً مثل لوحة فنّيّة جميلة، أو قطعة موسيقيّة. أقرأ القصّة الجيّدة أكثر من مرّة، وأتمنّى لو يقرأها رفاقي، وأخبّرهم إيّاها. هذه المواصفات نادرة في الكتب التي اطّلعت عليها.

في النّهاية، هذه النواقص والأخطاء من هنا وهناك ليست كبيرة في آخر المطاف. لا يزال لدينا نقص في الكتّاب المحترفين وفي المحرّرين المحترفين، دورهم هو لفت نظر الكتّاب على هذه النّواقص والأخطاء بالذات في نصوصهم قبل الطبع والتسويق.

أخيراً، تبقى المسألة الهامّة، وهي مسألة اللغة حين نتوجّه إلى الصغار بهدف التسلية والترفيه. فاللغة تحدّد الفكر. وكي لا أطيل، أدعوكم لقراءة افتتاحيّة الباحثة هالة البزري في العدد الأوّل من مجلّة «مرسال» مجلّة فصليّة عن أدب الأطفال - خريف ٢٠١٧، تحت عنوان «بأيّ لغةٍ أو لغات يُنشر الكتاب الموجّه للطفل في البلاد العربيّة؟».

ليس لي ما أضيفه إلى هذا النصّ الممتع سوى نداءٍ إلى دور النشر من أجل المجازفة في نشر - ولو حتى كتاب واحد سنويّاً - باللغة الأمّ للأطفال، أي باللغة المحكيّة: فتكون الكتابة أقرب إلى الفصحى مع احترام اللفظ العامّيّ عبر الحركات.

ب - المجموعة الثانية: الحكايات الشعبيّة

وهي كناية عن ١٠٠ حكاية جمعتها من لبنان، وصدرت عن دار الآداب في جزئين تحت عنوان «حكايات وحكايات».

نعتبر عادة أنّ الحكايات الشعبيّة، ويسمّيها البعض الشفهيّة أو التقليديّة أو حكايات الجدّات، هي حكايات موجّهة للأطفال. لكن أودّ أن أذكّر أنّ ما نعتبره اليوم أدباً للأطفال، لم يكن يتوجّه إليهم في البداية. مثلاً كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفّع (القرن الثامن)، يهدف في الأساس إلى تعليم مبادئ الحكم الرشيد للحكّام أو «ألف ليلة وليلة» (القرن العاشر)، الذي انتقل من كونه أدباً شعبياً إلى استخدام الكثير من حكاياته في أدب الأطفال.

هذه المقدّمة لأقول أنّ حكاياتنا أيضاً لا تتوجّه أصلاً للأطفال، على الأقلّ ليس جميعها. ذكرت في مقدّمة كتابي أنّ تجربتي الطويلة مع الرّاويات - وهنّ يشكّلن تسعين بالمئة من الرواة الذين استمعت إليهم - سمحت لي بأن أفترض أنّ هذه الحكايات هي «حكايات نساء لنساء». لا أرى ضرورة لإعادة صوغ دفاعي عن هذا الاقتراح الذي شرحته في تلك المقدّمة، بل ربّما من المفيد أن أذكر أنّني اخترت منها ٣٠ حكاية نساء لنساء، أنا وصديقتي عناية بشناق أنكلر، وترجمَتها هي إلى الإنكليزيّة تحت عنوان: «Pearls on a Branch / Oral Tales» أي «لولو بغصونُه»، صدر الكتاب في آذار / مارس ٢٠١٨، في نيويورك، عن دار أرشيبيلغو برس.

هذا يفترض طريقةً مختلفة في النظرة إلى صورة المرأة، اذ لا غلاف ولا رسومات، ولا زمنيّة، هذا ما يميّز الحكاية الشعبيّة، وتوزيع عدد الشخصيّات بين ذكور وإناث لا يحمل الدلالة نفسها، لا نُفاجأ هنا بأنّ الأنثى هي الشخصيّة المحوريّة في أكثر من نصف القصص: الشخصيّة الرئيسيّة: ٦٣٪ أنثى - ٣٧٪ ذكر؛ لكن في الـ ٣٧٪ ذكر؛ هناك ٤٪ الزوجان معاً (أمّ عويش وأبو عويش، حكاية الماش، يوم يلّي شتّت كبّة، الشيخ عصفور) و٥٪ حكايات الشاطر حسن (عمليّاً حكاية واحدة بنسخاتها المختلفة).

كانت هذه الحكايات تُروى منذ أكثر من مئة سنة. كانت المرأة المثاليّة في مجتمعنا وثقافتنا، هي المرأة الجميلة، مهمّتها الإنجاب والاهتمام بزوجها، وأولادها وبيتها، وهي مطيعة، كتوم «لها فمٌ يأكل وليس لها فمٌ يحكي»، تتغلب على المصائب بالصبر وصفاء الروح، وتضحّي بطموحاتها الشخصيّة من أجل متطلّبات الأسرة: كبرنا وكان رأينا أنّ المرأة في مجتمعنا هي الضحيّة بامتياز.

كلّ هذه الصفات تتمتّع بها الفتيات والنّساء في هذه الحكايات، وهذه هي الصورة النمطيّة للمرأة الشرقيّة التقليديّة، ولكنْ إلى جانب هذه الصفات التي ترضي الجميع، من محافظين وذكوريّين ورجعيّين، هناك صفاتٌ أخرى وهناك نظرة أخرى لهذه القيَم، التي لم تتخلّ عنها المرأة.

- مهمّتها الاهتمام ببيتها ومهمّة الرجل أن يعمل في الخارج، لكنّ المرأة تقود السفينة بسبب عدم فاعليّة

الرّجل. يكفي العنوان (الفقير فقير من مرته والزنكيل زنكيل من مرته).

◆ نعم، إنّها مطيعة لزوجها، لكنْ في المقابل، عليه أن يكون مطيعاً لها. في (أبو علي الحطّاب) لم يُطع الرجل زوجته فندم وأكلتْه الغولة: «- من أين آكلك؟ - كليني من دَينتي يلّي ما سمعت كلمة مريمتي!».

أما حكاياتنا نحن. فهي مبتدعة من براعة النساء ورغباتهن. فنستكشف العالم من خلال عيونهن. الصور النمطية. لا سيما صورة المرأة الضحيـــــــــــــــــــــــــــة. كلها جاهزة لمن يشاء من القراء والمستمعين. وصورة المرأة المتمردة. المتحررة. موجودة أيضا فيى حكاياتنا. إن بحثنا عنها. وجدناها.

◆ صحيح أنّها كتوم، والصمت يحتاج إلى شجاعة، لكنّها وجدت علاجها بنفسها، في (الستّ يدب) تشكو همّها وتروي قصّتها للحجر بصوتٍ مرتفع.

◆ نعم، مهمّتها الإنجاب والاهتمام بزوجها، لكن إن كان زوجها ظالماً معها، تهجر الزوج والمنزل إلى زوجٍ آخر ومنزلٍ آخر (بيت بلا همّ).

نلاحظ في هذه الحكايات أنّ المرأة رغم الصفات النمطية المسبقة تقدم صورة مختلفة وجذّابة

◆ انّها ذكيّة وحكيمة، وجدت وحدها وسيلة لتنقذ نفسها وأخوتها بعد أن رماهم والدهم في الغابة (الغوليّة).

◆ متمرّدة مغامرة وشجاعة (السّبيل)، تهجر المنزل متنكّرة هرباً من والدها الظالم.

◆ جريئة، تبادر هي بتحديد موعد عبر استخدام الألغاز للرّجل الذي يعجبها (خيط وفنجان ومقصّ)

◆ تتزوّج وفقاً لاختيارها (حمّام الأكابر).

◆ تقاوم إرادة والدها وتقرّر مصيرها بيدها (حبّة الفلفل) حيث تقابل حبيبها خفية كلّ ليلة في غرفتها.

تحتاج هذه الصورة المختلفة إلى استخدام جرعات من الخيال والسّحر، من أجل أن تحقّق هذه الأنثى غرضها:

◆ مكحلة تتسبّب بحريق رهيب ومرآة تتحوّل إلى بحيرة (ثريّاً).

◆ تؤشّر للأشياء فتطيعها وتحضر إليها (أمّك الشمس وبيّك القمر).

◆ طواويس تبيض بيضاً للحبل لـ«تحبل البنت بلا عريس» (ستّ التناقيش)،

◆ حيوانات تتكلّم وأزهار تلقي الأشعار ...

هنا عليّ أن أذكّر بأنّ أغلبيّة الحكايات الشعبيّة ترويها النّساء. ما يميّز حكاياتنا نحن، هو أنّ هؤلاء النساء يروينها لنساء. نساء يروين عن عيوب الرجل بمتعة، وكأنّها تنتقم، أو لتسليط الضوء على صفاتها هي بشكلٍ أفضل: عيبه الأساسيّ هو أنّه ضعيف الشخصيّة وتهيمن عليه زوجته.

◆ هذا نموذج من حوار في (أمّ عوّيش وأبو عوّيش):

◆ «سألته: - ماذا نأخذ لها معنا؟

◆ أجابها: - ما رأيك أنت؟

◆ قالت: - خبز تنّور!

◆ أجاب: - وأنا رأيي خبز تنّور!

فقالت له أمّ عوّيش: - نعمل برأيك يا رجل!» وهكذا عملت برأيه طوال الحكاية.

◆ الفارة الصغيرة (الفارة بدّها عريس) تعطي الأوامر لعريسها، فيطيعها بلا نقاش.

◆ في (الضّفدع والضّفدعة) تغضب من زوجها، فتدير ظهرها وتعود إلى بيت أهلها. ينهار الزّوج ويتوسط أصدقاءه لإرجاعها.

في نهاية هذه الحكايات ليس هناك درس أخلاقيّ، ولو وجدنا في الحكاية شيئاً من ذلك فإنّ الحكاية لا تستخلص أيّ مغزى أو عبرة. تتميّز هذه الحكايات عن عيّنة الحكايات الحديثة التي ذكرْتها، بأنّها تغذّي الخيال، فالخيال شرط الإبداع، بل هو أهمّ من المعرفة. نرى في الحكايات الشعبيّة عالماً موازياً فيه جنّ ومارد وغول وغولة وعفاريت... كلّها خيّرة وشرّيرة معاً، هذه الظاهرة تميّز حكاياتنا عن الحكايات الشعبيّة الغربيّة الرّائجة، يكفي أن نتعامل معهم بلطف ليتأنسنوا.

تقول سيمون دو بوفوار في كتابها «الجنس الثاني»: «إنّ أدب الأطفال والأساطير والحكايات والسرديّات، يعكس الأساطير المبتدَعة من كبرياء الرّجال ورغباتهم: فتستكشف الفتيات الصّغيرات العالم، وتحلّ شفرة قدرهنّ من خلال عيون الرّجال». أمّا حكاياتنا نحن، فهي مبتدعة من براعة النساء ورغباتهنّ، فنستكشف العالم من خلال عيونهنّ. الصوَر النمطيّة، لا سيّما صورة المرأة الضحيّة، كلّها جاهزة لمن يشاء من القرّاء والمستمعين. وصورة المرأة المتمرّدة، المتحرّرة، موجودة أيضاً في حكاياتنا، إن بحثْنا عنها، وجدناها. وإذا أعطتنا صورة عن المرأة المقموعة، المظلومة، فهي تحرّضنا لنثور على التصرّفات الإستسلاميّة. إنّ كاتبات وكتّاب، ورسّامات ورسّاميّ الكتب الحديثة، هم ورثة هؤلاء الرّواة.

بورخيس يبحث عن ابن رشد

سالار عبده

كاتب وروائي إيراني-أميركي. يدرّس الكتابة الخلّاقة في الجامعات الأميركيّة. له عدّة روايات باللغة الإنكليزية. منه *Poet Game* (٢٠٠٠)، *Opium Tehran* (٢٠٠٤)، *At Twilight* (٢٠١٤).

ترجمة مريم حيدري

شاعرة ومترجمة، إيران.

في نهاية القصة التي كتبها بورخيس عن أعظم شُرّاح أرسطو في القرون الوسطى، ذكر: يختفي ابن رشد في اللحظة التي أتوقّف فيها عن الإيمان به.

وكما ارتأى بورخيس، إنّ ابن رشد الذي كان يعرف كلّ شيء، لم يستطع فهمَ شيء واحد، وكان ذلك هو المسرح. وهكذا حين بلغ الفيلسوف العربيّ الإسباني المنشأ فنَّ الشعر لأرسطو، ارتبك تماماً. ماذا كان يقصد أرسطو بمصطلح «التراجيديا» و«الكوميديا»؟ لم يعرف ابنُ رشد. لم يهيئه قطّ أيّ شيء قد درسه بكثير من الجهد في العالم لفكرة الدراما.

لكن لو كنت أعرف آنذاك الكاتب الأرجنتيني، لكنت حدّثته عن رضوى قرطبة. ولماذا هي؟ لأنّه وفق الوثائق الاستعرابيّة نصف واضحة المعالم التي كانت تستخدم ذات حين كعلف للماعز، إنّ الأمر آل برضوى إلى طليطلة سنوات ١١٩٠. وهناك التحقتْ بحركة الترجمة الكبيرة للمدينة، والتي جلبت حكمة الإغريق القديمة إلى أوروبا.

كنت سأحدث بورخيس عن ذلك اليوم، حين تذكّرتْ رضوى بعد عدّة سنوات كيف أتى ابن رشد ذات مرّة يتيمة إلى باب بيتها. الرجل العجوز آنذاك، والموشك على النفي من إسبانيا، حدّثها أنّ هناك عملاً له غيرَ منتهٍ بعد، وعليه إنجازه. سألته: «هل من نهاية حقّاً لعمل تفسير أرسطو؟»

ترك ابن رشد عينيه مسمّرتين نحو الأرض، فكان قد سمع أنّ رضوى في أيّامها الهائجة كانت تخيط قصائد الحبّ على هدب ثوبها كما كانت تفعل الأميرة «ولّادة»، وتميس سافرة في شوارع غرناطة. قال: «لا تسخري منّي!».

كان الرجل والمرأة، وبينهما ما يقارب نصف قرنٍ من العمر، واقفَينِ هناك، في بيت حجريّ في الحيّ اليهودي المتضائل يوماً بعد يوم في توليدو، بينما طائفة من الفرسان البورغنديّين الذّين قد قدموا مؤخّراً إلى هناك من جهة الشمال، كانوا يطلبون حصّتهم من دماء المسلمين واليهود، موقدين نيران الصِّعاب هنا وهناك.

تمتم ابن رشد مع نفسه: «لا تبحث عن توليدو في توليدو، يا أبا الوليد، بل أغمض عينيك، واذهب إلى مكانٍ آخر».

كانت تعرف أنّه لا أحد يعلم بوجوده في توليدو، فكان قد تنكّر في هيئة تاجر. كما كانت تعرف أنّ رحلته من الجنوب قد كلّفتْه القليل ممّا تبقى له من سنوات عمره، ولابدّ. عظامه كانت هشّة. وعملُه على أرسطو لا يعرف النهاية.

- «ما الذي أتى بك إليّ أيّها الشيخ؟».

- «قيل إنّك تستطيعين رؤية المستقبل. ما هو الشيء الوحيد الذي رأيتِه ولن يغادر ذهنَك؟»

- «أنا متأكّدة أنّ ابن رشد العظيم لم يأتِ إلى توليدو ليسمع بصيرتي».

- «تفضّلي بإجابتي».

وقد فعلتْ، «لقد رأيتُ مكتبة ما. مكتبة أكبر من كلّ ما نعرف. وأكبر من مكتبة قرطبة الكبرى».

- «لا شك...».

مرّة أخرى كانت تعرف ماذا كان يريد أن يقول - بأنّها ولا شكّ كانت تبالغ في حجم تلك المكتبة. لكنّها لم تكن تبالغ. بل كانت قد رأتها في رؤياها، مكتبة بحجم العالم. وأضافت: «في مدينة لم توجَد بعد. في أرض ليست بعدُ مهيّأة».

اتّخذ ابن رشد مقعداً. كان البورغنديون يزأرون. وشوارع اليهود تُفرغ.

- «ما اسم تلك المدينة؟».

- «بوينس آيرس».

- «مدينة قشتالية؟».

هزّت رضوى رأسها. وحدّق ابنُ رشد بها لأوّل مرة. فكرتْ أنّ عينيه كانتا ظلّاً من الأخضر، وبأنّه لا ينظر إليها الآن لأنّه يريد ذلك، بل لأنّه كان متعَباً، وكان باستطاعتها أن تنعشه بخريطةٍ من المستقبل.

- «لا، ليست قشتالية. بل جهة أخرى».

وأخبرتْه أنّ رجلاً نصف أعمى، هناك، في تلك المكتبة، يتخيّل ابنَ رشد العظيم، وبأنّه حالَ ما يتوقّف ذلك الرجل عن تخيّلِه، يختفي ابن رشد، كما لو لم يكن موجوداً أبداً.

تمتم الفيلسوف ثانية، «يختفي... كما سوف يغادر الإسلامُ الأندلسَ ذات يوم».

- «ثمّة وقتٌ ليحين ذلك».

- «لكنّك لا تساعدين الوضع، يا رضوى».

- «أنا مترجمة، ليس إلّا».

-«ليتكِ كنت كذلك وحسب، فقد ذاع الخبرُ، ليبلغ إشبيلية، بل فاسَ، بأنّ رضوى لا تترجم فقط، بل إنّها تحاكي».

ذات يوم كانت تعتقد رضوى أن الشخصيات في كليلة ودمنة، الكتاب الذي كانت تترجمه مع فريق الرهبان الكلونيّين، يمكنها أن تُمثّل. ارتعدت توليدو المسيحيّة إثر الفكرة التي كانت تقول إنّ النّاس يمكنهم أن يتشبهوا بالحيوان، ويمثّلوا كما لو أنّهم أشخاص غير أنفسهم. شيء ما جديد كان يولد هناك. أخذت الهمسات تتعالى. والذين كانوا يمسكون العلم بأيديهم، ولم يكن عددهم بكثير، استحضروا ذلك الاسم الإغريقي، وتحدّثوا عن فنّ الشعر. والآن كان ابن رشد نفسه حاضراً هنا، ليوبّخ رضوى على وقاحتها.

دفاعاً عن نفسها، قالت: «المحاكاة تكريمٌ، يا شيخ». سعَل ابن رشد، وفي ذلك أبصرتْ رضوى موتَه. فتساءلت: أين تقع بوينس آيرس هذه؟

قال الفيلسوف: «محاكاة العالم الأبدي تؤدّي إلى الفوضى. فهل يا ترى سوف تكون ثمّة نهاية إن كانت هناك محاكيات للأبدية؟ ثمّ محاكيات المحاكيات، وهكذا دواليك».

كان يُنفى ابن رشد آنذاك من أفريقيا من قبل السلطان لأنّه، فضلاً عن أمور ما، كان قد تجرّأ في الحديث عن الطبيعة الأبديّة للكون. وهي كانت قد وقعتْ في غرامه من أجل ذلك، من أجل جرأته في اعتبار اللانهاية شيئاً ممكناً. واليوم... حتى ابن رشد العظيم كان يتراجع اليوم عن مبدئه الخاصّ.

شعرتْ أنّ قلبها يتألّم، فقالت: «ولكن، لئن كان العالم غير متناهٍ، فما يهمّ إذن إن أضيفت لانهاية إلى لانهاية؟».

- «أنت تهزئين منّي، يا رضوى».

لم تُخبره أنّه كان هو الذي يهزأ من نفسه، وأنّ الأبديّة غير معنيّة بالإضافات إليها أو الطروح منها. وكان الرجل أذكى من ألّا يعلم ذلك. إلا... إلّا أنّها هي التي ربّما كانت هائمة بين اللانهاية والأبديّة، حينما قد لا يكون الاثنان في الحقيقة شيئاً واحداً أو الشيء ذاته.

مكثت رضوى في أفكارها. هنا كان أعظم فيلسوف العصر. وكان قد أتى إليها لأنّها قد تخيّلته متخيّلاً من قبل رجل نصف أعمى في مكان يُدعى بوينس آيرس، حيث لا يقع في قشتالية، ولا في أيّ جهة أخرى من عالمهم المعروف. كانت هي قد بلغت اللانهاية، أمّا هو، فما الذي جاء لكي يفعله هنا؟ أن يسحبها من اللانهاية هذه؟

قالت: «إن كان هذا يرضيك، سأكفّ منذ اليوم هذا عن الترجمة، وعن المحاكاة». بدا أنّ كلماتها طمأنتْه. «دعي المسيحيّين يسلكون طريقهم نحو ثمار شجرة المعرفة وسمومها».

وكانتْ لتسأل: وماذا عن طريقنا نحن؟ ماذا عن تنافر الرجال الذين ينفونك من مياه الوادي الكبير المطمئنة... وماذا عن الحقيقة؟ ماذا عن البحث المخلص عن اللانهاية؟ إلّا أنّ الوقت كان قد تأخّر. وتخيّلتْ رضوى أنّ جفنَي الرجل نصف الأعمى بدأتا تتثاقلان في مكان ما في بوينس آيرس، بينما كانت إسبانيا بأسرها تتحوّل إلى دخان، وتزول في السُّبات.

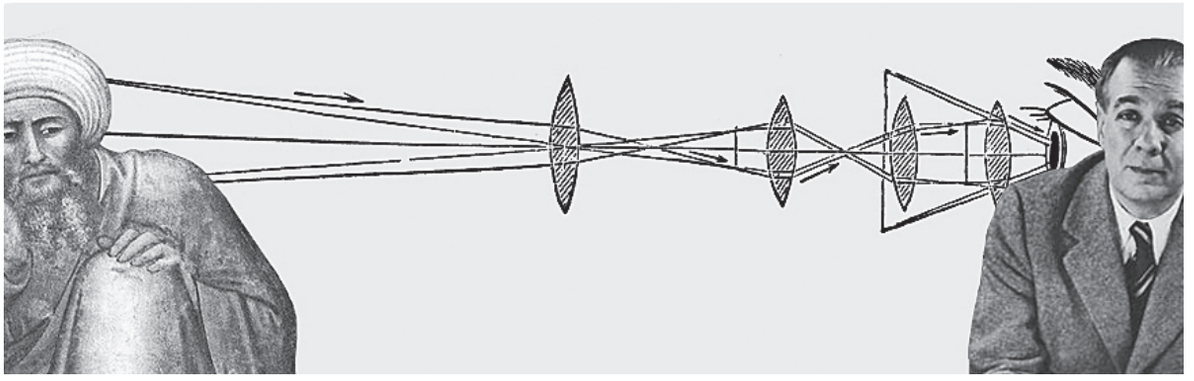

مسكب ورد في فلسطين

رياض بيدس

كاتب وروائي، فلسطين من أعماله «باط بوط» (١٩٨٠) «الجوع والجبل» (١٩٨٩) «حكاية الديك الفصيح» (٢٠٠١) «المحو» (٢٠١٣).

العائلة تجتمع لمشاهدة التلفزيون / أكثر من كمبيوتر مفتوح / ولد منغمس في لعبة آي باد / في الطبيعة الخضراء يمشي شخص ما.
(١٠ آذار ٢٠١٣)

ما قبلَ الغروب / يحوم أبو زهور حول شجرة الحامض / يزقزق مسبّحاً كلّ ما في الكون / يحطّ على غصنٍ ثمّ ينام.
(١٠ آذار/مارس ٢٠١٣)

الشجرة الكبيرة التي اقتلعت / ربّما بكَتْ بصمت / (هل تبكي الأشجار؟!) / لا شيء سيملأ الفراغ الذي تركتْه.
(١١ آذار ٢٠١٣)

في منطقة بيت جمال / أجلس وحيداً تحت شجرة زيتون معمّرة تشهد لي / جرّافاتٌ إسرائيليّة تعمل بلا كللٍ على جرف كلّ ما هو فلسطينيّ هناك / مستوطنات تمتدّ وتتمدّد كسرطانٍ في جسد الأرض الطيّبة / لن يبقوا على تلك البقعة الفلسطينيّة الرّائعة / طيور حجل تدرج باعتزاز/ غزلان تظهر وتختفي / زعتر برّيّ في أوجّ نضوجه يمنع قطفه / فراشات جميلة تحوم حول رأسي.
(١٢ آذار ٢٠١٣)

مسكب ورد

مسكب ورد صغير / كانتْ أمّي تُعنى به في صغرنا / تغضب (وهي التي نادراً ما تغضب) عندما ننتزع وردةً هباءً / لم نرَ أمّي تضع ورداً على الطاولة ولو لمرّة واحدة / بل كانت تضع القليل أمام تمثال العذراء مريم / عندما كبرنا قليلاً أدركنا سرّ ذلك المسكب العزيز على قلب أمّي / في اليوم السّابق ليوم الجمعة الحزينة كانت أمّي تقطف كلّ الورود / وباكراً كانت هي وأختي تحملها كلّها / إلى حيث يرقد أبي وشقيقاي الذين قضوا باكراً قبل الأوان / أمّي لم تحضر الأعراس / دأبت على حضور الجنازات فقط / كبرتْ أمّي وأضناها التّعب قبل الأوان / المسكب الذي عنت به خرب تماماً / كانت تنظر إليه أحياناً بأسى كبير / كما لو أنّ موته كان شبيهاً بموت أولئك الذين تحبّهم جدّاً ورحلوا باكراً. / مسكب ورد من أجل الأموات فقط؟! / مع العمر تحوّلت أمي أيضاً إلى مسكب ورد.
(١٣ آذار ٢٠١٣)

كان الزوّار القلائل الذين يزوروننا من حينٍ لآخر يرحلون كما جاؤوا / دون أن يتركوا أثراً / أمّا موتانا فكانوا دائمي الحضور / وكان مكوثهم معنا محبّباً إلينا / أحبّوا المكوث معنا بعد موتهم وأحببنا أن يكونوا معنا طيلة الوقت / كم زارونا في نومنا وصحونا واهتمّوا بكلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في حياتنا / مع الأموات عشنا أكثر ممّا عشنا مع الأحياء / في عمق كلّ واحدٍ منّا عشّش موتٌ كثيف / أمواتنا لا يرحلون بل يرحل الأحياء دون أن يتركوا أثراً / وردٌ من أجل الأموات الرائعين الذين يزدادون حضوراً بيننا.
(١٤ آذار ٢٠١٣)

الشاحنة القديمة / التي أقلّت عمّالاً فلسطينيّين غلابى / اصطدمت بقطار / كلّهم ماتوا / على الأرض تناثرتْ زوّاداتهم / كانت معظمها تحتوي على الخبز والزعتر / وبعض البصل.
(١٩ آذار ٢٠١٣)

وطنٌ مع بعض التصرّف!
لم يتركوا لنا مكاناً على الأرض / لا البلاد التي نعشقها / ولا الزيتون / ولا الأبواب القديمة التي عرفنا / ولا الشبابيك التي كنّا نطلّ منها على العالم / ولا الربيع المقبل / نهبوا بلاداً كاملة / ولم يُبقوا لنا إلّا ما لا نريده / بقايا قرى مدمّرة / أسيجة لا تسمح لنا بزيارة أطلالنا / وذاكرة قويّة تأبى الاستكانة والرضوخ / غزاةً أتوا / غزاةً بقوا / لا هدنة مع الغزاة / لا أمل مع الغزاة / لا منفى مع غزاة لا يرحمون / لم يتركوا لنا مكاناً على الأرض / ولا حتى بقعة صغيرةً من أجل قبر بسيط!
(٢٢ آذار ٢٠١٣)

كرغيف خبز طازج / أقتسمُ النهاراتِ الطويلة جدّاً / مع آخرين أدمنوا عشق الحياة.
(٢٦ آذار ٢٠١٣)

منذ أكثر من ألفي عام / لا يزال يسير على مياه بحيرة طبريّا / يأكل مع صيّادي البحيرة البسطاء / ويأسف لوحشيّة العالم التي تزداد / أراد أن يعود من حيث أتى / لكن كلّ الطّرق سُدّت في وجهه / فعمد إلى تلقين السمَك / دروس المحبّة والعطاء.
(٢٨ آذار ٢٠١٣)

بعدما صارت بلادي منفاي / لا حاجة إلى منفى جديد / ماء النهر الذي كان صافياً / تعكّر جدّاً.
(٢٨ آذار ٢٠١٣)

رخامٌ من حرير
(إلى روح الشاعر الأصيل والمترجم الكبير بسّام حجّار)
في رخامك الأصيل / ثمّة مرونة كالحرير / تصطاد من غزالة الحياة أسرارك العميقة / في محترفك الفنّيّ / تعكف على نصوصك وترجماتك / عكوف النسّاك على صلواتهم ليل نهار / أوجاع اليأس كثيرة / لا تفضي بها إلّا لأوراقك المزهرة / ما من توقّعات عندك / ولا جدوى من أملٍ باذخ لا يفضي حتى إلى ولو مشحة من الحياة / في اللغة التي لا تشبه أيّ لغة أخرى تحفر سهولك ووديانك وجبالك وأخاديدك / كما لو كنت تحتسي دائماً أجود أنواع النبيذ / ذائقتك الشاهقة لا ترضى إلّا بكلّ ما هو نبيلٌ وجميل / في الكون الفسيح الصغير تشيّد لك بيتاً من كلماتٍ ونور / تعيد ترتيب قصائدك / وتنام نومة الأبد / إيه بسّام حجّار.
(٣٠ آذار ٢٠١٣)

برجكَ الصّامد المنيع سينهار / حبّ الجمال الحرّ سيجعلك إنساناً آخر / لا تخف / إنّها هناك / هي الأخرى تنظر إليكَ بافتتان / كلّ ما عليك فعله / هو أن تتقدّم صوبها / لا تخف / لا داعيَ للكلمات / الجمال الحرّ يناديك.
(٣٠ آذار ٢٠١٣)

على أسطورةٍ يبنون ويؤسّسون لحكايتهم / الزيتون والصبّار والزعتر والأرض وحتى الصخور، كلّها تشهد لي / لا يريدون إلّا أن أشهد لهم / شهادتي بسيطة وواضحة :/ هم من هناك / وأنا من هنا / وما بقي ليس إلّا ظلماً.
(١ نيسان/أبريل ٢٠١٣)

يحترف اليأس الهادئ / لا جدوى من اليقين / كلّ يوم يحترف تدميراً ذاتيّاً عالي الجودة / تفترش وجهه ابتسامةٌ خجولة / لا تدلّ على موتٍ بطيء.
(١ نيسان ٢٠١٣)

المرأة الجميلة التي غادرتْ / ثيابها أمامه كما وُلدتْ عارية / أخافتْه / في الفراش استعدّ هو عارياً / كنمرٍ كسير / ... عندما ارتدى ثيابه / طلبت منه أن يأخذ معه كيس القمامة / ولأنّه كان فاشلاً جدّاً / وكانت المرّة الأولى والأخيرة سأل بصوت كسير / «أين أجد كيس الزبالة؟» / بيدها بامتعاضٍ شديدٍ ودون أن تنظر صوبه كما لو كان من سقط المتاع / أشارت إلى مكان الزبالة. غاب نهائيّاً دون أن يترك أثراً وراءه - / ربّما خيبة في قلب تلك المرأة الجميلة.
(١ نيسان ٢٠١٣)

أعود إليها لأبتعد / أقترب منها لأبتعد / لا لغز في الأمر / لا مكان للوسط في الحبّ.
(٣ نيسان ٢٠١٣)

في ساعات المساء / أجلس على الشّرفة وحيداً / أرقب غروب الشمس / عصفور أبو زهور متعدّد الألوان / كلّ مساءٍ يأتي مزقزقاً / بحثاً عن غصنٍ يأوي إليه / شجرة الحامض العتيقة / تنتظر أوبته بلهفة وشوق / يرتاح على غصن كثيف الأوراق / ويمدّ منقاره الطويل / كما لو كان سلاحاً ضدّ المزعجين أو الأغراب / يبيت كما لو كنت بعيداً عنه / وبيني وبين نفسي أردّد وأتساءل / أنّه ربّما هو الوحيد الذي لا يعتبرني غريباً / أضيء لمبة الشرفة / فلا ينزعج / أغبطه لا بل أحسده على نومه / ما من قلق أو أرق عنده / ولا همّ ولا يحزنون / ألا ليتني كنت عصفوراً / هل يحسدني أبو زهور على أيّ شيء / لا أعتقد.
(أبو زهور هو: تميّر فلسطين أو عصفور الشمس الفلسطينيّ Palestine sunbird).
(٦ نيسان ٢٠١٣)

لا يوجد منفى على الأرض / أقسى من تلّ ابيب / في تلك المدينة البيضاء / كلّ ما هنالك يوحي / بالرفض المباشر وغير المباشر / لك كفلسطينيّ / كنقطة زيتٍ عائمة على ماء / لا صفو لك فيها بالمرّة / في المواجهة ضدّ كلّ الرفض وضدّ الجميع / أقف وحيداً رغم كلّ هشاشتي التي لا براء منها / ما من طواحين للهواء / ولا للبشر / في الليل أزور يافا / هناك أستعيد بعضاً من توازني / الساعة القديمة التي تستقبلك حال وصولك ما زالت تعمل بانتظام / ليل غنيٌّ بفيضٍ من التفاصيل والحياة.
(١٣ نيسان ٢٠١٣)

جرحٌ لا ينام

يقتفي الأعداء آثاره كلّ يوم / في كلّ مكان / جذوره تتشرّش في أعماق الأرض / على ضفافها ينبت الزعتر وأشجار الزيتون / والصبّار والتّين واللوز / مذاق ثمارها طيّب جدّاً / أعداء الجرح يمعنون في قتله كلّ يوم / لكنّه لا يستسلم / لئلّا يموت / الجرح لا يغفو ولا ينام / أجمل الورود تنبت منه / يعيش مقدار حبّة خردل أو أقلّ / في السماء وعلى الأرض / ثمّة بشائر ربيعٍ بعيد!
(١٥ نيسان ٢٠١٣)

كلّ الملائكة عادوا صفر اليدين!
(١٨ آذار ٢٠١٨)

نظريّة التّلقّي
من المتلقّي العدوّ إلى المتلقّي المهادن

أسماء السكوتي

طالبة بماجستير الأدب المقارن، معهد الدوحة للدراسات العليا.

بين بروكست وجنّيّة الأمنيات

ترتبط نظريّة التلقّي في الأذهان بالستينيّات وبما جاءت به مدرسة كونستانس الألمانيّة من مفاهيم عن أفق الانتظار والمتلقّي الضمنيّ، وغيرها من المفاهيم التي انتقلتْ بالنّقد الأدبيّ من التّمركز حول النّصّ إلى الاهتمام بمتلقّيه. ولكن، هل فعلاً ظلّ الحديث عن المتلقّي غائباً عن كلّ النّقّاد حتى اكتشفه إيزر بين عشيّةٍ وضُحاها ودون سابق إنذار؟ هل لنا حقّاً أن نتصوّر سيرورة النّقد الأدبيّ على هذا القدر من الانسجام والتّمرحل الصّارم حيث لكلّ مرحلة زمنيّة كتّابها الذين لم يكتبوا قبلها أو بعدها شيئاً، وموضوعاتها التي لم ترِد سوى في فترة زمنيّة محدّدة ثمّ اختفتْ بعدها إلى غير رجعة؟ هل لنا فعلاً أن نتصوّر تاريخ الأدب على هذ النّحو من التدفّق الهادئ وهذا التعاقب الأتوماتيكيّ حيث يُسلِم التركيز على المؤلّف إلى التركيز على النّصّ إلى إهمال الإثنين والتركيز على القارئ دونهما؟ أ ليس من المنطقي أن تكون - ولو لمحات - إلى فكرةٍ لاحقةٍ قد برزتْ في مرحلة سابقة، وألا يمكن كذلك أن يكون آخر هذه الأفكار (نظريّة التلقّي في حالتنا هذه) حاضراً في عصرٍ سابق له بقرون؟

ما أحاول أن أخوض فيه في هذه الورقة هو مقارنة لرؤية النّقد العربيّ القديم للقارئ برؤية نظريّة التلقّي الحديثة له، طبعاً هذا ليس بغرض تأكيد أسبقيّة العرب لنظريّة التلقّي، ولا افتخاراً لالتفاتهم له، ومن ثمّة الحكم برفعة النّقد العربيّ القديم، بل بغرض مقارنة نظرتين للعالم، من خلال مقارنة نظرتهما للمتلقّي، فحسب الطرح الذي أحاول أن أبيّنه في هذه الورقة، لم ير الفكر العربيّ في المتلقّي سوى عدوٍّ أو خصم، عليه إمّا أن يتحايل عليه أو يغالبه حتى يغلبه، وبذلك يكون القارئ عند العرب أشبه بمتربّص واقفٍ للمبدع بالمرصاد في نهاية طريقه. إنّه بروكست ثانٍ يقطع الطريق على ضحيّته (النّصّ) ويضعه إمّا على سريره الطويل إذا كان قصير القامة ليشرع بعدها في جرّه من ساقَيه حتى يوافق طولَ السّرير، أو يضعه على سريره القصير إذا كان طويل القامة ليبتر من قدميه ما تجاوز «حدّ» السّرير. أمّا رؤية التلقّي الحديث للقارئ فتتلخّص في كونه عنصراً مساعداً للنّصّ، يملأ بياضاته ويبعث فيه في كلّ قراءة حياةً جديدة، أو بتعبير إيكو: إنّه القارئ النموذجيّ الذي يمثّل «مجموع شروط النّجاح والسّعادة Felicity conditions المحدَّدة نصّيّاً، والتي يجب الالتزام بها لتحيين النّصّ في إطار محتواه القدراتيّ»[1]، وهو بذلك أشبه بالجنّيّة التي ساعدت سندريلّا وحوّلت أسمالها إلى فستان سهرة، وبذلك يكون للمتلقّي من هذا المنطلق وضعٌ خوارقيّ يتمثّل في التّحويل والبعث وبثّ روحٍ جديدة في النص. إنّه إلهٌ جديد، ولكنّه على عكس الإلهَ الأوّل الذي عرفتْه الثقافة العربيّة مهدّداً هادماً، كان إلهاً بنّاءً يرمم ما تداعى من النّصّ، ويكتب على هوامشه صانعاً نصوصاً جديدة.

تجدر الإشارة أخيراً، إلى أنّ مقارنتي هذه ليستْ بغرض إثبات ذاتٍ تنافسيّة أو ساديّة لدى العرب وأخرى رحيمة وديمقراطيّة لدى الغرب، بل بحثاً عن أسباب هذا التحوّل، ليس فقط التحوّل في النّظرة إلى الآخر بل وكذلك في تعريف الذّات ورؤية العالم.

الثقافة العربيّة الكلاسيكيّة: المتلقّي العدوّ

كان أو ما كان، حسبما أخبرتنا كتب التّاريخ، أنّه بأرضٍ سعيدة تسمّى بلاد العرب، كانت هناك شخصيّة محوريّة في قلب كلّ قبيلة، شخصيّة مبدعة تشعر بما لا يشعر به غيرها، لها شيطان تابع يُملي عليها قولها آناء الليل وأطراف النّهار، وبعد أن تحصل على إلهامها تقف وسط





القبيلة لتُسمع قولها للقاصي والدّاني، فيشرع الرّواة في حفظ هذا القول وترديده في المجالس. في هذا العالم، حيث لا نجد إلّا الرّمال والشّمس الحارقة كان الشّاعر هو الوسيط بين الأرض والسّماء، ومن ثمّة كانت أقواله حكمة ودرساً على كلّ فردٍ أن يحفظه وإلّا فقَدَ الخيط الذي امتدّ له من السّماء.

في ذاك الزّمن الجميل، كان يكفي للشّاعر أن ينطق، في غير حاجة إلى تسويغٍ أو تعليلٍ لقوله، لأنّ أقواله أصلاً كانت نتيجة لما تمليه عليه الحياة وحوادثها من دواعٍ للقول، كانت الجماعة شيطانه[2]، والقول في حدّ ذاته سبباً كافياً لوجوده. لكنّ كلّ هذا انقلب في اللّحظة التي وعَتْ فيها الجماعة بأنّها يمكن أن تستبدل الشّاعر بوسائط أخرى أكثر قداسة، كالدّين مثلاً، إذ مع ظهور الإسلام لم يغدُ للجّماعة إله فحسب بل أيقونة، ومعنى تستعمر وتتوسّع باسمهما (من الغريب أنّ الدّين الذي جاء لمصالحة البشر مع السّماء كان سبباً في تكريس وجود الأرض في حياتهم)، كلّ هذه التّغيّرات جعلت المبدع يبحث عن اعتراف به في مكان آخر، وكان خطأه أنّه بحث عنه بين يدَي السّلطة، لينتقل من السّاحة إلى البلاط، ومن لسان القوم إلى مكدٍ.

بمجرد أن انتقل من الشفافية إلى الكتابة تساقطت عليه هموم أخرى. ذاك أن الشاعر على كل حال كان يقف وجها لوجه أمام عدوه وينظر إليه. هذه النظرة وإن كانت تخيف الشاعر وتشيؤه كانت تحصل في سياق تخاطبي متزامن يتيح له فرصة الأخذ والرد.

لم تقف مأساة هذا البطل الباحث عن معنى لوجوده والمسكون بلا جدواه هنا، بل امتدّت لتصيبه بلعنةٍ تمثّلت في توقّف مصيره وقوت يومه على مزاجيّة حاكم ملّ من كلّ شيء فأبى إلّا أن يشغل وقته بالتّسلّي بالشّاعر، وبذلك انتقل الشّاعر من حالة الاستقرار إلى الترحّل، إذ غدا عليه أن يتنقّل في مملكة الإسلام الواسعة بحثاً عن أذن تسمعه ويد تمتدّ له بالعطاء، وبذلك كان عليه أن يُسمع لكلّ أذن ما تحبّ أن تسمعه، لينتقل من ثمّة من التّركيز على القول إلى التّركيز على أثر القول، أو من التبليغ إلى البلاغة، أي الانتقال من النّص إلى المتلقّي. هذا المتلقّي الذي عليه أن يُسوّق نفسه أمامه ويجمّل وجهه في عينيه. وبذلك، يكون المتلقّي الممدوح أوّل وجهٍ من وجوه هذا الآخر الذي يقيّم المبدع ويسعّر بضاعته، ويضطرّه في كلّ لحظةٍ لأن يأتي بقولٍ جميل مسلٍّ قبل أن ينصرف عنه إلى شاعر آخر وقصيدة أخرى.

لم تقف مصيبة المبدع عند هذا الحدّ، فبمجرّد أن انتقل من الشفافيّة إلى الكتابة تساقطتْ عليه هموم أخرى. ذاك أنّ الشّاعر - ولو أنّه فقَدَ سبب وجوده - إلّا أنّه على كلّ حال كان يقف وجهاً لوجه أمام عدوّه وينظر إليه - ولنتصوّره بطلاً ولنقل إنّه كان ينظر إليه بتحدّ قائلاً: «أنا أمامك انظر إليّ». هذه النّظرة وإن كانت تخيف الشّاعر وتشيّؤه إلّا أنّها على كلّ حال، كانت تحصل في سياقٍ تخاطبيّ متزامنٍ يتيح له فرصة الأخذ والرّد. أمّا في حالة الكاتب «الرأس المقطوعة التي تتكلّم»[3]، فلم تكن هذه الإمكانيّة متاحة، فبما أنّ الكتابة عمليّة سابقة بالضّرورة لفعْل التلقّي، فقد كان الكاتب على إدراكٍ تامّ بأنّه ما يفتأ أن يقتل بعد أن يضع نقطة النهاية، أو بالأصحّ أن يعدم على مرأى منه، إذ تظلّ عيناه مفتوحتين شاهدتين على عمليّة التشريح وهي تقتلع أمعاءه، وهو أمام هذه المجزرة التي تحصل في عقر جسده لا يستطيع أن يحرّك ساكناً، وحُدهما العينان تتحرّكان، أمّا اليد فقد كانت آخر حركة لها هي أن تضع نقطة النّهاية. ليس النّصّ إذن كما قيل لنا جزءاً من كاتبه بل هو كاتبه كلّه: هو جسده، ولأنّه كان يدرك تماماً هذه المصيبة التي وضع نفسه فيها سواء نطق أم صمت، فقد كان يحرص دائماً على أن يحتمي بسلطةٍ وأن يذكّر - بمناسبةٍ أو يدونها - على طول كتابه أنّ قوله قد كان استجابةً لأمر.

ماذا يحصل عندما لا يجد المؤلّف سلطة للاحتماء وراءها؟ آنذاك يخترعها اختراعاً كما فعل ابن حزم في مقدّمة طوق الحمامة، حيث بدأ كتابه بالحديث عن رسالةٍ أرسلها صاحبها (الحقيقي أو المتخيّل)، رغم «بعد الشّقّة وتنائي الديار وشحط المرار..»[4]، ليطلب من الكاتب تصنيف رسالةٍ في صفات الحب ومعانيه وأسراره. وقد يذهب الكاتب إلى أبعد من ذلك، فيؤكّد أنّ أمر الكتابة كان نتيجة حلم، وبذلك فهو يستدعي صورة التّابع التي حُرم منها المبدع منذ انتقل من الشفاهيّة إلى الكتابة، ولعلّ أبرز مثالٍ على هذه الوضعيّة يتجلّى في مقدمة مقامات الزمخشري، إذ يقول الكاتب متحدثاً عن نفسه بصيغة الغائب: «والذي ندبه لإنشائها أنّه أُريَ في بعض إغفاءات الفجر كأنّما صوت به من يقول له: يا أبا القاسم أجل مكتوب وأمل مكذوب، فهب من إغفاءته تلك مشخوصاً به ممّا هاله من ذلك وروعه ونفّر طائره فزّعه،

وضمّ إلى هذه الكلمات ما ارتفعت به مقامة وآنسها بأخوات قلائل»[٥]. ليس طلب الكتابة أمراً خارجيّاً فقط، بل كذلك نابعاً من مجهول (أُريَ) ومتوجّه إلى غائب، وإذا كان الرسول قد تلقّى الرسالة بضمير المخاطب المبشّر لوجوده، فإنّ الزمخشريّ قد تلقّاه بضمير الغائب الذي يعفيه من المسؤوليّة ويؤكّد لمتلقّيه في الآن ذاته أنّه محض تابعٍ لمرسِل غيبيّ.

أما المعري فكان ممن استعانوا بسلطة الأرض. ولكن بغرض الحديث عن السماء كما يحلو له. هكذا. لم يكتف بالتوجه إليه بالقول ولا بذكر أمره بالكتابة في المقدمة بل تجاوز ذلك إلى جعل المسرود إليه بطلا في النـــــــــــــــــص.

أمّا السّيوطي في كتابه التحدّث بنعم الله[٦]، فبما أنّه قرّر أن يكتب عن نفسه في هذا النّصّ، فقد وجد نفسه في معضلة كيف يتحدّث عن نفسه وأيّ تعليل أو على الأقلّ تعلّة Pretext يشرْعن بها هذه الرغبة وهو ليس سلطة ولا محتمياً بسلطة ويعيش وسط قوم لا يرون للنّصّ من معنى إلّا في مدى تعبيره عن الجماعة، كيف للفرد إذن أن يخرج من كلّ هذه المُساءلات ويعبّر عن صوته؟ ليس له إذن إلّا أن يحتمي بالله، ويؤكّد مرّات ومرّات في مقدّمته إنّ الكتابة عن الذّات لم تكن سوى نتيجة للرّغبة في حمد الله على نعَمه، واستجابة لأمره «وأمّا بنعمة ربّك فحدّث»، وهو ما لا يختلف بشيء كبير عمّا فعله الزمخشري بتعلّله بالحلم. هكذا، يكون الاحتماء بالسّلطة العليا المجرّدة بصفةً في وجه السلطة المتحقّقة الأرضيّة، أن تحتمي بالسماء كي لا تحاسبك الأرض، ولعلّ هذا كان سبب إجزاء السندباد البحريّ العطاءَ للحمّال، لأنّه توجّه مباشرة للسّماء ولم يترك للبحريّ الغنيّ بذلك إلّا الوسائلَ الأرضيّة للدّفاع عن نفسه، أي الحكاية والمال.

أمّا المعرّي فكان ممّن استعانوا بسلطة الأرض، ولكنْ بغرض الحديث عن السماء كما يحلو له، فلكي يقسّم المعرّي الشّعراءَ بين جحيم ونار ويلعب دور الإله، كان لا بدّ له من أن يورّط متلقّيه (السلطة الأرضيّة) ويجعله مركز قوله. هكذا، لم يكتفِ بالتوجّه إليه بالقول ولا بذكر أمره بالكتابة في المقدّمة («قد وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور ومن قرأها مأجور»[٧]) وإقران ذكره بالدّعاء له ومدحه («مولاي الشيخ الجليل»[٨]، «أدام الله الجمال ببقائه»[٩]،«سمع الشّيخ، ثبت الله وطأته»[١٠]) فحسب، بل تجاوز ذلك إلى جعل المسرود إليه بطلاً في النّصّ، ليشرع بذلك في تتبّع جوالاته بين الجنّة والنّار لأكثر من مائة صفحة قبل أن يشرع في الجواب على رسالته، وكأنّه لم يستطع أن يدخل صلب الموضوع إلّا بعد ضمان انصياع المسرود له وتأكّده من تعطيل كافّة ملَكاته النقديّة قبل أن يشرع في الكلام «الجادّ»، أو ربّما لأنّه خاف من أن يحاكم لاتّخاذه دور الإله وتوزيعه الشّعراء والنحاة بين فضاءي الجنّة والنّار، فلم يجد بدّاً من توريط متلقّيه، ليؤكّد له أنّه مذنب مثله لأنّه استمرّ في قراءة النّصّ ولابدّ أن يكون قد استمتع بحكايته، ومن ثمّة فهما شريكان في هذه اللذّة المحرّمة.

وسيلة أخرى، وظّفتها الحكاية سواء الشفويّة (الليالي) أو المكتوبة (كليلة ودمنة) للتنصّل من مسؤوليّة القول ومن ثمّة من عين المتلقّي الحمراء، هي افتتاح الحكي بعبارات من قبيل: «بلغني» أو «يُحكى أنّ»... ذاك أنّ المتكلّم يدرك تماماً أنّ المتلقّي لن يغفر له أن يصدّق كلاماً ويكتشف بعد ذلك خطأه، وبذلك، يجد المتكلّم نفسه في ورطة، ذلك أنّ عليه من جهة أن يستميل المتلقّي ويقنعه بصحّة ادّعاءاته لكي يضمن إقبال هذا الآخر عليه ومن ثمّة إزجاء العطاء له (للعطاء وجهان، أوّلهما إيجابيّ بالحصول على مكافأة ماليّة وثانيهما سلبيّ بالتخلّص من مصيبة أو موت محقّق في إطار «السّرد وسيلة الأعزل»)، وعليه في الآن ذاته ألّا يقنع متلقّيه إلى حدّ أن يتماهى مع الحكاية ويطالبه بدليل عليها. بذلك نستشعر بأنّ القول في الثّقافة العربيّة لم يكن مسؤوليّة فحسب، بل وحملاً ثقيلاً قد يؤدّي بقائله نطَقَ أم صمَتَ إلى حبل المشنقة، وكأنّما المتكلّم أثناء السّرد مهرّج يمشي على حبلٍ معلّقٍ بين السّماء والأرض، أو ربّما كانت كلّ محاولة للكتابة شبيهة باجتياز الصراط، وبذلك يتّضح أنّ اللسان كان وسيظلّ قريناً للمشاكل والهموم، ولكن، ماذا بعد الصّراط؟ وماذا بعد القول؟ ليس بعده إلّا الحساب وليس بعد الحساب سوى تقرير المصير والدّخول إلى الجنّة أو النّار. ولعلّ أفضل روايةٍ تناولت هذه الوضعيّة المقلقة للقول هي رواية عين الفرس للميلودي شغموم التي تحكي عن قصّة راوٍ حكى لأمير عن مدينة متخيّلة فصدّق الأمير وجود المدينة وطالب الحاكي بأن يدلّه على مكانها، فلمّا فشل في ذلك حكم الأمير عليه بالنّفي إلى تلك المدينة المتخيّلة مكمَّم الفم وعلى عنقه زجاجة السمّ التي عليه أن يتجرّعها بعد انتهاء مدّة النفي.

لقد كان المتلقّي في الماضي هو من يمنح رخصة الكلام،

فحتى شهرزاد لمّا رغبت في التّحايل بالحكي لم تتوجّه إلى شهريار مباشرةً لتقول سأحكي لك حكاية، كان لابدّ عليها قبل ذلك أن تخلق «جوّاً» وتمهّد للحكاية بأن توحي له بطلبها (أو بالأحرى بأمرها)، وإلّا شعر باستغفاله ومن ثّمة رفض الإصغاء إليها، وجرّد حكيها من شرعيّته. هكذا، تآمرت شهرزاد مع أختها لتبثّ فيه هذه الرغبة في الاستماع، تبثّ فيه بمعنى أن يشعر بأنّ الزّمام في يده وبأنّه غير مجبَر على السماع، وحتى بعد انتهاء الحكاية وضمان شهرزاد لحياتها، لم تستطع أن تكتب حكاياتها بل ظلّت في حاجة إلى أمر شهريار الذي لم يسمح لها بالكتابة، وإنّما سمح لها بأن تملي حكاياتها على كتبةٍ آخرين يكونون رجالاً طبعاً، لأنّ فعل الكتابة كان فعلاً ذكوريّاً بحتاً، إذ للمرأة أن تحكي وللجدّة أن تنيم صغارها بواسطة الحكاية ولكن ليس لغير المذكّر أن يدوّن كلامه، ومن ثمّة فقد كان فعل الحكي لاحقاً لمناورة Manipulation بثّ الرّغبة غير المباشرة مع التأكّد دائماً بإشعار المتلقّي أنّه هو من يدير دفّة الحديث، وبذلك تكون الكتابة أشبه بالمشي في حقلٍ للألغام تدرك بأنّك مهدّد فيه في كلّ لحظة ومن ثمّة ليس لك إلّا أن تمشي فيه إلى نهايته على أطراف أصابعك في انتظار لحظة الانفجار. وحتى الإشارة إلى أنّ شهرزاد كانت تقف عن الكلام عند الصّباح لا أظنّه يعني أنّ شهرزاد تتحكّم في المحكيّ وتوقفه حسب مزاجها معلّقة شهريار بحبل التشويق إلى الغد، بل إنّها كانت مرغَمةً على ذلك لأنّ الصّباح كان هو «زمن الجِدّ»، أي زمن الحكم والبتّ في شؤون العباد، وبالتالي لم تكن شهرزاد هي التي تعلّق الحكاية بل جدول شهريار المشغول بأمور أهمّ من اللهو والحكي هو من يقطع عليها حبل حديثها.

لا نكاد نجد في الثّقافة العربيّة خرقاً لصورة السارد الضعيف والمتلقّي السلطة إلّا في قصة السندبادين حيث يكون السّارد هو السندباد البحريّ أي السندباد التّاجر الغنيّ الذي لف العالم وتزوّد بمعرفةٍ فضائيّة وغرائبيّة واسعة، بينما متلقّيه السّندباد البرّيّ ليس سوى حمّالٍ فقير وقف على باب السّندباد شاكياً حظّه متظلّماً للسّماء عن سوء توزيعها للأرزاق ومنحها للتّاجر الغنيّ كلّ هذا العزّ، بينما هو معدَم لا يكاد يجد قوت يومه. لا تسمع السّماء ولا سكّانها شكوى السّندباد البرّيّ، لكن السّندباد البحريّ لحسن الحظّ يسمعها فينادي الحمال ويشرع في سرد قصص مغامراته سبعة أيّام متواصلة، وبالإضافة إلى الحكاية يمنحه في كلّ يوم جائزةً ماليّة. ما الذي يدعو السّندباد الغنيّ لفعل كلّ هذا وهو غير مضطرّ ولا مَدين للآخر بأيّ شيء؟ إنّه يفعل ذلك لأنّه شعر بأنّ الآخر قد استنقص من شأنه خصوصاً أنّه لم يتوجّه إليه لائماً بل توجّه بشكواه إلى الله، ربّما شعر بأنّ هذا الآخر المسكين قد ينبّه الإله إلى شطَطه ولاعدالته ومن ثمّة يكون سبباً في إعادة الحساب معه! أو ربّما - وبعيداً عن السماء - أنّه شعر بأنّ الحمّال ينتقص من شأنه، ويرى أنّ الغنى الذي هو فيه نتيجة لصدفةٍ قدريّةٍ كان يمكن أن تكون من رزق أيّ أحد، ومن ثمّة فقد اعتبرها التّاجر شتيمةً أن يُعدّ محظوظاً وهو الذي غامر ودفع حياته ثمناً ليصل إلى ما وصل إليه، وبذلك يكون السّرد مرّة أخرى نتيجة رغبةٍ لتسويغ الوجود، أي إبرازاً لأهمّيّة المتكلّم وردّاً على هذا الآخر الذي يرغب في أن يسلبه كينونته حين ينعته باللاجدارة. وبذلك، فالسّندباد البحريّ رغم توفّره على المال إلّا أنّه ظلّ بحاجة إلى الاعتراف، وكأنّه كان بسرد حكاياته المبرزة لبطولته، ينتزع هذا الاعتراف من متلقّيه انتزاعاً. ليس هذا فقط، بل هو في إزجاء العطاء له كان يحاول أن يقلب المعادلة وأن يشعره بأنّه - أي الحمّال - الذي كان يدعو عليه قبل قليلٍ يأخذ شيئاً لم يتعب فيه، بينما هو - السّندباد البحريّ - استحقّ كلّ ما بلغه من نعمة، ودليل ذلك الحكايات التي ظلّ يحكيها مدّة سبعة أيّام.

يقدّم كتاب كليلة ودمنة وجهاً آخر من وجوه العلاقة المتوتّرة بين المتلفّظ والمتلقّي، انطلاقاً من صورة المتكلّم المدرك لغباء متلقّيه وسطحيّته، لذلك فهو يؤكّد أنّه يلجأ للحكاية فقط لأنّ مخاطَبيه (أو جزءاً منهم على الأقلّ) لن يعوا الدّرس الأخلاقيّ بغير هذه الوسيلة، وبذلك يؤكّد بيدبا في أكثر من مناسبة في الكتاب أنّ «الحكماء يصوغون الحيَل من أجل القيام بدورهم التعليميّ، وأعظم حيَلهم وضْع الأمثال على ألسنة الحيوانات. ذلك أنّهم لا يخاطبون العقلاء فقط، وإنّما السخفاء كذلك. لو كانوا لا يخاطبون إلّا العقلاء لما احتاجوا إلى صياغة الحكايات»[11]. يصبح المتلقّي إذن صبيّاً والمبدع وصيّاً عليه، ورغم مخالفة هذه العلاقة لسابقاتها إلّا أنّها تظلّ واحدةً من التّمظهرات العديدة لفكرةٍ وحيدةٍ هي العلاقة العموديّة بين السّارد والمسرود له، إذ هناك دائماً فوق وتحت، سماء وأرض، يد عليا ويد سفلى، ولعلّ أبو العبر أحسَنَ التعبيرَ عن هذه العلاقة بالطريقة التي كان يلقي بها شعره والتي جاء وصفها في كتاب الأغاني على النحو الآتي: «كان يجلس على سلّم وبين يديه بلّاعةٌ فيها ماء وحمأة، وقد سدّ مجراها، وبين يديه قصبة طويلة، وعلى رأسه خفّ، وفي رجليه قلنسيتان، ومستمليه في


السخف يدهره ادنى امر يساق اليه من خسيس او نفيس كالذى يملك الشئ اليسير
ويذهب من يده وهذه صورة كاملة وذمنة يتحادثان ويتجاريان فتامل

جوف بئر، وحوله ثلاثة نفر يدقّون بالهواوين، حتى تكثر الجلبة ويقلّ السماع، ويصيح مستمليه من جوف البئر من يكتب عذّبك الله، ثمّ يملي عليه..»[١٢]. المتلقّي في هذا السيناريو في قعر بئر ينتظر أن يسمع ما يمليه عليه مبدعٌ جالس على أعلى سلّم وبين الإثنين مطبّلون ومغنّون. قد يبرز المتلقّي في هذا المشهد بمظهر الضحيّة، ولكنّنا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نخفي أنّه ربّما كان يستحق شيئاً من هذا الانتقام الساديّ بعد كلّ ما أذاقه للمبدع من عذابات.

إنّ العلاقة بين المتلفّظ والمتلقّي في المخيّلة الكلاسيكيّة إذن، كانت دائماً علاقة توتّر قائمة على الصّراع بين جلّاد وضحيّته (بغضّ النّظر عن أيٍّ منهما يؤدّي أيّ دورين). إنّها حرب كلاميّة البقاء فيها للأقوى، أن تحكي لتعيش، وإذا كنت مطمئنّاً على حياتك فأنت تحكي لتعيش بكرامة بعد أن تنتزع من الآخر اعترافه بك، ولعلّ هذا يذكّر بقولة الجاحظ: «وينبغي لمن كتب كتاباً ألّا يكتبه إلّا على أنّ النّاس كلّهم له أعداء»[١٣].

استعارة سماوية مرتبطة بيوم الحساب وتقرير المصير بين الجحيم والنار أو على الأقل الحصول على صحيفة الغفران وضمان استراحة ولو مؤقتة من نظرة الآخر. واستعارة دنيوية حربية قائمة على النظر إلى هذا الآخر كعدو يجب أن أحصن لساني منه لكي لا يجد ثغرة ينفذ إليّ منها ويستعمرني داخل جسدي.

يتوزّع النّقاش عن الكلمة في الفكر العربيّ إذن بين استعارتين: استعارة سماويّة مرتبطة بيوم الحساب وتقرير المصير بين الجحيم والنّار أو على الأقلّ الحصول على صحيفة الغفران وضمان استراحة ولو مؤقّتة من نظرة الآخر، واستعارة دنيويّة حربيّة قائمة على النّظر إلى هذا الآخر كعدوّ يجب أن أحصن لساني منه لكي لا يجد ثغرة ينفذ إليّ منها ويستعمرني داخل جسدي. هكذا، يغدو كلّ كاتبٍ في الثقافة الكلاسيكيّة شهرزاداً مستميتةً للإبقاء على حياتها، وكلّ قارئ شهريارَ قد ينقلب في أيّ لحظةٍ إلى جلّاد يعضّ اليد التي امتدّت لإنقاذه. إلّا أنّ الوضع - لحسن الحظّ أو سوئه - ما لبث أن تغيّر في العصر الحديث، ليغدو الشهريار (ربّما لأنّه بلغ أرذل العمر) كائناً مهادناً يساعد النّصّ ويعينه على أداء مهمّاته ومعانيه.

الثقافة الغربيّة الحديثة: المتلقّي المهادن

رافقت الحداثة انقلابات كبيرة، إذ أصبح العالم أكثر اتساعاً والبشر أضيق خلقاً، كما غدت الدعاية أطول بينما الأغنية لا تتجاوز دقيقتين، ولكن لعلّ أهمّ انقلابٍ عرفتْه الحداثة هو التحوّل من الحديث عن النّصّ كبنيةٍ مغلقةٍ إلى تناوله كأثَر مفتوح ذي سيرورة دلاليّة لامتناهية. ما الذي دعا إلى هذا التحوّل الخطير؟ إنّه الالتفات إلى ذلك المتلقّي الذي يوجد على الطرف الآخر من الرسالة.

ربّما كانت أوّل التفاتةٍ إلى المتلقّي مع رواية الدون كيشوت، ذاك القارئ الساذج الذي يصدّق كلّ ما يقرأه، إلى درجة الخروج على جوادٍ أعجفَ لإقرار العدالة في العالم. وبذلك، كانت أوّل نظرة للمتلقّي إذن على الضفّة الأخرى نظرة شفقة تدرك بأنّ هذا الآخر في حاجة إلى مساعدتها، ومن ثمّة كانت أولى بوادر العلاقة بين المتلفّظ والمتلقّي - وإن احتفظت بعموديّتها - سلميّة إنسانيّة.

بحلول القرن الثامن عشر، شرع المتلقّي في التّمظهر بصورة جديدة، هي صورة المتلقّي الذي لم يعد يحتاج إلى نظرة الحنوّ من المبدع، ولعلّ هذا المقطع من جاك القدري كفيل بأن يُبرز ملامح هذا التحوّل، نقرأ في الرواية على لسان السارد - في تعليقه على جملة لـ«جاك»، يقول فيها إنّه يعاني رهاباً من الماء Hydrophobie: «آه، مصاب برهاب الماء؟ جاك قال إنّه مصاب برهاب الماء؟... لا، أيّها القارئ، لا، أعترف بأنّ الكلمة ليست له، ولكن بهذا التشدّد النقديّ، أتحدّاك أن تقرأ مشهداً كوميديّاً أو تراجيديّاً، أو حواراً واحداً، أيّاً كان، دون أن تفاجئ كلمة الكاتب على لسان شخصيّته»[١٤]. إنّ المتلقّي هنا، لا يختلف في شيء عمّا صوّره به الجاحظ، إنّه عدوّ متربّصٌ بأخطاء السّارد، ولكنّه في الآن ذاته، متلقٍّ أفقيٌّ منفتحٌ على الحوار وإلّا فلمَ توجّه إليه السّارد بتلك اللهجة المتحدّية، وهو ما لم يكن متاحاً لا للتوحيديّ الذي كان يخاطب وزيراً يمثّل السلطة، ولا للمادح الذي بالإضافة إلى توجّهه إلى متلقٍّ سلطةٍ كان يتوجّه بقوله كذلك إلى مصدر رزق. إنّ المتلقّي في نصّ جاك القدري لا يمثّل أيّ تهديد للمتكلّم، ذلك أنّ مشكلته مع النّصّ لا مع الناطق به، لذلك يدعوه السارد إلى أن يقارن بين نصّه ونصوص أخرى، ومن ثمّة فالمتكلّم والمتلقّي معاً على إدراك تامٍّ للمسافة التي تفصل بينهما، وهو ما لم يكن متوفراً في السّياق الكلاسيكيّ حيث كان المتلقّي هاجساً يسكن المتكلّم حتى قبل أن يتكلّم. ولعلّ أبرز مثالٍ على استحالة الكتابة أثناء التفكير في القارئ قد تجلّى في

رواية كالفينو If on a winter's night a traveler التي تحكي قصّة كاتبٍ عجز عن الكتابة منذ شرع في التجسّس على قارئةٍ تسكن قُبال بيته، فأصبح كلّما كتب كلمة أطلّ من النافذة ليرى أثر ما كتبه على وجهها[١٥].

تبدأ العلاقة الثالثة (الأولى عمودية قائمة على شفقة المبدع على المتلقي. الثانية أفقية قائمة على نقد النص) بين المبدع والمتلقي في العصر الحديث. من لحظة إدراك الإثنين لوجوب أن يحتفظ كل منها بموقعه ويترك مسافة بينه وبين الثاني. أي أن ينسى الكاتب متلقيه أثناء الكتابة. لينساه هو بدوره أثناء القراءة.

تبدأ العلاقة الثالثة (الأولى عموديّة قائمة على شفقة المبدع على المتلقّي، الثانية أفقيّة قائمة على نقد النّصّ) بين المبدِع والمتلقّي في العصر الحديث، من لحظة إدراك الإثنين لوجوب أن يحتفظ كلّ منها بموقعه ويترك مسافة بينه وبين الثاني، أي أنْ ينسى الكاتب متلقّيه أثناء الكتابة، لينساه هو بدوره أثناء القراءة، ذاك أنّه إذا تذكّر كلٌّ منهما صاحبه، فلن يخطّ الأوّل حرفاً، كما ستصبح كلّ كلمةٍ يقرأها الثّاني وثيقة للبحث عن مدى مطابقتها مع ما يعرفه عن حياة صاحبها. بعد اتّخاذ المسافة إذن، يدرك كلّ حقوقه وواجباته، وفي هذا السّياق لا يمكن أن نتحدّث عن الحقوق من دون أن نذكر لائحة الحقوق التي سنّها دنيال بناك للقارئ، وهي[١٦]:

◆١ حقّ عدم القراءة
◆٢ حقّ تخطّي الصفحات
◆٣ حقّ عدم قراءة الكتاب إلى نهايته
◆٤ حقّ إعادة القراءة
◆٥ حقّ قراءة أيّ كتابٍ: رغم وجود كتب جيّدةٍ وأخرى سيّئة، على القارئ أن يقرأ الإثنين معاً، من دون توجيهٍ خارجيّ، إلى أن يدرك ذات يوم، أنّها لم تعدْ تكفيه، متعة حسّيّة عاجلة، بل يطمع في أكثر من ذلك، يطمع في لذّة يتعب في بنائها، لينتقل شيئاً فشيئاً، وتلقائيّاً، من الكتب الأكثر مبيعاً Best-seller، إلى الأكثر نخبويّة.
◆٦ حقّ البوفارية (مرض قابل للانتقال نصّيّاً)، أي الحقّ في التّماهي مع العوالم النصّيّة، إلى حدّ البكاء على مصائر الشّخوص، دون تدخّل الآخر «البالغ»، المتعجّب من تعاطف القارئ مع كائنات تخييليّة.
◆٧ حقّ القراءة في أيّ مكان
◆٨ حقّ التصفّح، أي أن يختار القارئ أيّ كتاب شاء، ويفتحه على أيّ صفحة، من دون أن يضطرّ للعودة إليه.
◆٩ حقّ القراءة بصوت عالٍ
◆١٠ حقّ الصّمت، أي أن يحتفظ القارئ بما فهمه من قراءته لنفسه، من دون أن يجبره أحد على الشرح أو التعليق أو التلخيص.

ولكن، ماذا لو كان القارئ «سئيلاً» ثقيل الدّم يأبى أن يحترم حدوده ويكتفي بحقوقه؟ ليس للكاتب آنذاك إلّا أن يضع ميثاقاً صريحاً مع قارئه، ميثاقاً يكون بادرة هدنة تنتهي عندها الحرب الملحميّة التي امتدّتْ قروناً، لعلّ أوّل مظاهر هذا الميثاق وأبسطها هي افتتاحيّات الكتب التي تعلن لقارئها أنّه محض خيالٍ وأنّ شخوصها وإن كانت تتشابه مع الواقع إلّا أنّها تخييلٌ بحت، طبعاً من دون أن ننسى الافتتاحيّات التي عبّرتْ عن الفكرة نفسها ولكن على نحوٍ أكثر أناقةً sophisticated، على غرار بداية «مجانين بيت لحم»، حيث جاء: «في هذه الرواية الشهرزاديّة، مثل ما في الروايات الأخرى قليل من الحقائق، كثير من الخيال، وثرثرة... تماماً مثل الحياة»[١٧]، ليتّضح بذلك أنّ افتتاحيّة الكتاب لحظةٌ برزخيّةٌ فارقة بين لحظة تفكير الكاتب بمتلقّيه ولحظة تخلّصه منه.

ولمّا كانت الافتتاحيّات التخييليّة غير كافية لإقرار هذه المسافة، فقد تولّى النّقد إتمام المهمّة، وكان أبرز مَن تحدّث عن شروط العلاقة بين ثلاثيّة الكاتب - النّصّ - المتلقّي هو أمبرتو إيكو الذي أعلن أنّ «النّصّ آلةٌ كسول يطلب من قرّائه القيام بجزءٍ من مهمّة التأويل، بعبارة أخرى، إنّه جهازٌ الغاية منه إثارة تأويلات... فدراسة نصٍّ ما لا تعني دراسة مؤلّفه، وفي الوقت ذاته، لا يمكن للقارئ أن ينتقي تأويلاً يستمدّ مضمونه من استيهاماته فقط: يجب أن يتأكّد أنّ النّصّ يبيح، بهذا الشكل أو ذاك، قراءةً تتمّ من زاويةٍ بعينها، بل قد يشجّع عليها»[١٨]. وبذلك فقد تجاوز إيكو ثنائيّة المؤلّف والقارئ والتفت إلى النّصّ الذي يتحكّم فيهما معاً، فهو من جهةٍ يتحرّر بمجرّد انتهائه من سلطة كاتبه، هذا الكاتب الذي «يتحوّل - مباشرةً بعد الانتهاء من كتابة النّصّ - إلى قارئٍ لا سلطة له على مساره التدليليّ، ذاك أنّ النّصّ هو الابن الذي لا تقوم علاقته مع أبيه إلّا على العقوق»[١٩]، وهو من جهةٍ ثانيةٍ امرأة لعوب تُوهم جميع عشّاقها (القرّاء) بأنّها تبادلهم الحبّ، فيما لا تحبّ سوى نفسها.

لعلّ وعْي القارئ والكاتب بكونهما ضحيّتين للنّصّ (الذي لم تقتصد البنيويّة في مدحه ومركزته) وأحد الأسباب التي دعتْهما لتوقيع الهدنة، فلا الكاتب يملك

النّصّ مع أنّ اسمه على غلافه، ولا القارئ يملكه لأنّه في كلّ قراءةٍ جديدةٍ يكتشف أنّه يجهل أكثر ممّا يعرف. هكذا، يكتشف الإثنان في النهاية أنّ الحرب ليستْ بينهما، بل بينهما وبين النّصّ الذي ظلّ طوال قرونٍ يحفر لهما ويوقع بينهما كي لا يلتفتا إلى كونه هو السلطة، هو الإله الخفيّ الذي لا يراه أحد، ومع ذلك هو الذي يوجّه جميع المصائر.

خاتمة

إنّ العداوة مع المتلقّي إذن في السّياق الكلاسيكيّ، كانت نتاجاً مباشراً لنظرته التشييئيّة للذّات، نظرته التي تجرّد الذّات من قداستها وتساؤلها من دون كلماتٍ عن علّة وجودها، وبذلك لا تجد الذّات الكاتبة بدّاً من الدّخول في معركة إثبات نفسها وتأكيد ضرورة وجودها. لقد كان العدوّ إذن في هذا السّياق واضحاً، إنّه هو هذا الآخر الّذي أريد أن أنتصر عليه ولكن دون أن أقتله لأنّه يظلّ سبباً في وجودي، إذ لا قيمة لقولي إلّا بمدى تأثيره فيه / عليه. لكنّ الأمر ما لبث يختلف مع مجيء الحداثة، حيث غدا العدوّ هو النّصّ، هذا الكائن اللغويّ الجميل الذي ما يلبث أن يعضّ اليد التي أنجبتْه، وتلك التي تبنّته وبعثتْه في جسدٍ جديد، ذاك أنّه بانتقاله من جسدٍ إلى جسدٍ يفقد طبيعته المادّيّة ويستحيل روحاً تمتصّ كلّ الأرواح التي يقترب منها، ليبقى وحده هائماً عابراً الحدود والأزمنة.

ولكن، ماذا يحلّ بالمبدع وقارئه، بعدما تخلّى عنهما وسيطهما، وأصبح إشكالاً في حدّ ذاته لا يحتاج إلى أيٍّ منهما؟ لا أظنّ أنّه يبقى من خيارٍ أمام الإثنين إلّا عُقد تصالح، والاعتراف بأنّ الحرب الحقيقة ليست ممثّلة على الخشبة، بل وراء السّتار حيث يكمن النّصّ إلهاً خفيّاً.

الهوامش

١ Umberto Eco, *Lector in fabula, ou La coopération interprétative dans les textes narratifs*, traduction Par Myriam Bou zaher, Paris, Grasset, 1985, p: 80.

٢ عبد الفتاح كيليطو، **الأدب والغرابة، دراسات بنيويّة في الأدب العربيّ**، الطّبعة الرّابعة (الدار البيضاء:توبقال، ٢٠٠٧)، ص ٥٦.

٣ عبد الفتاح كيليطو، **العين والإبرة، دراسة في ألف ليلة وليلة**، ترجمة: مصطفى النحّال، (الدار البيضاء: نشر الفنك، ١٩٩٦)، ص٦٨.

٤ محمد علي بن حزم، **كتاب الحبّ والجمال: طوق الحمامة، في الألفة والألاّف**، (دمشق: مكتبة عرفة، د.ت.)، ص١.

٥ كيليطو، **الأدب والغرابة**، ص: ٨٨ - ٨٩.

٦ جلال الدين السيوطي، **كتاب التحدث بنعمة الله**، تحقيق: اليزابيث ماري سارتين (القاهرة: المطبعة العربية الحديثة، د.ت.).

٧ أبو العلاء المعريّ، **رسالة الغفران**، تحقيق: محمد عزّت نصر الله، (بيروت: المكتبة الثقافيّة، ١٩٦٨)، ص ٢٥.

٨ **رسالة الغفران**، ص ٢٦.

٩ نفسه، ص ٤٠.

١٠ نفسه، ص ٤٨.

١١ كيليطو، **الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي** (الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٨)، ص ٣٦.

١٢ أبو الفرج الأصفهاني: **الأغاني**، ورد لدى: عبد الفتاح كيليطو، **الحكاية والتأويل؛ دراسات في السرد العربيّ** (الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٨)، ص ٥٠ - ٥١.

١٣ ورد لدى: عبد الفتاح كيليطو، **الأدب والارتياب** (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧)، ص٩ - ١٠.

١٤ Denis Diderot. *Jacques le Fataliste*, Paris: L'aventurine, (2000), p.228-229.

١٥ «كل يوم قبل أن أبدأ عملي، أتوقّف للحظة لأنظر إليها بمنظاري. أشعر في هذا الهواء الرقيق والشفّاف بأنّني أستطيع أن أتبيّن من خلال شكلها الثابت علامات تلك الحركة اللامرئيّة، التي تمثلها القراءة، انسياب النّظرة والنّفس، بل وأكثر من ذلك، رحلة الكلمات عبر الإنسان(..) الرحلة التي تبدو موحّدة وفي المقابل دائمة التحوّل والتشكّل.كم من سنة مرّت مذ كنت أستطيع أن أتيح لنفسي شيئاً من القراءة غير المهتمّة؟ كم من سنة مرّت مذ كان بإمكاني أن أستسلم لكتاب كتبه آخر من دون أن يكون له علاقة بما أكتب؟ أدير رأسي، وأرى المكتب ينتظرني، آلة الكتابة بورقتها البيضاء، الفصل الذي ينتظر بدايته.منذ أصبحت عبداً خاضعاً للكتابة، انتهت لذّة القراءة بالنّسبة لي».
Italo Calvino. *If on a winter's night a traveler*, translated by William Weaver, New York: Harcourt, (1981) p: 169.

١٦ Daniel Pennac. *Comme un roman*, Paris, (1992). pp: 167 - 198.

١٧ أسامة العيسة، **مجانين بيت لحم**، الطبعة الثانية (بيروت: نوفل، ٢٠١٥).

١٨ أمبرتو إيكو، **اعترافات روائيّ ناشئ**، ترجمة: سعيد بنكراد. (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٤)، ص ٤٨ - ٤٩.

١٩ عفط، محمّد. «النّصّ السرديّ التخييليّ، بين التعدّد القرائيّ والأحاديّة الإقرائيّة»، ضمن: مؤلف جماعي (**الأجناس الأدبيّة بين القراءة والإقراء**)، منشورات وليلي، سلسلة التكوين المستمر، الكتاب الرّابع، مكناس، ٢٠٠٢.

المراجع

إيكو، أمبرتو. **اعترافات روائيّ ناشئ**، ترجمة: سعيد بنكراد (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٤)

ابن حزم، **كتاب الحبّ والجمال: طوق الحمامة؛ في الألفة والألاّف**، دمشق: مكتبة عرفة، د.ت.

السيوطي، جلال الدين. **كتاب التحدّث بنعمة الله**، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، القاهرة: المطبعة العربيّة الحديثة، د.ت.

عفط، محمّد. «النّصّ السرديّ التخييليّ، بين التعدّد القرائيّ والأحاديّة الإقرائيّة»، ضمن: مؤلف جماعي (**الأجناس الأدبيّة بين القراءة والإقراء**)، منشورات وليلي، سلسلة التكوين المستمر، الكتاب الرّابع، مكناس، ٢٠٠٢

العيسة، أسامة. **مجانين بيت لحم**، الطبعة الثانية، بيروت: نوفل، ٢٠١٥

كيليطو، عبد الفتاح. **الحكاية والتأويل، دراسات في السّرد العربيّ**، الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٨

كيليطو. **العين والإبرة، دراسة في ألف ليلة وليلة**، ترجمة: مصطفى النحّال، الدار البيضاء: نشر الفنك، ١٩٩٦

كيليطو. **الأدب والغرابة، دراسات بنيويّة في الأدب العربيّ**، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء: توبقال، ٢٠٠٧

كيليطو، **الأدب والارتياب**، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى،٢٠٠٧

المعرّي، أبو العلاء. **رسالة الغفران**، تحقيق: محمّد عزّت نصر الله، بيروت: المكتبة الثقافيّة، ١٩٦٨

Diderot, Denis. *Jacques le Fataliste, Paris*: L'aventurine, 2000

Eco, Umberto. *Lector in fabula; ou La coopération interprétative dans les textes narratifs*, traduction Par Myriam Bouzaher, Paris, Grasset, 1985

Daniel Pennac. *Comme un roman*, Paris : Gallimard, 1992

في الحيّ الّذي نسكن

زينب سرور

صحافية وجامعية، لبنان.

في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيد. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدة. في الحيّ الذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدة. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدة تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدة تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض وعن رفع اليد لجلب كأس ماء. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض وعن رفع اليد لجلب كاس ماء، يستغرقان في الإنصات إلى أسطوانةٍ مخدوشة. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض وعن رفع اليد لجلب كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض وعن رفع اليد لجلب كأس ماء، يستغرقان في الإنصات إلى أسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئًا منها. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعين واحدة تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض وعن رفع اليد لجلب كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض وعن رفع اليد لجلب كأس ماء، يستغرقان في الإنصات إلى أسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئًا منها. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعين واحدة تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة

يعيد إلى حياتهما ما فات منها. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّفٍ فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحية الصّوت وتسند كلتا راحتيها إلى سرير صديٍّ يصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحية الصّوت وتسند كلتا راحتيها إلى سريرٍ صديٍّ يُصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً، فيهيم ما تبقّى من الجسد فوق ما لم يُلمَس منذ زمن حتّى يصل إلى كائنٍ يتكوّرعلى نفسه ويغطّي بذراعه عيناً نصف مغمضة، فتتذكّر المرأة لحظة رحيل أبنائها. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحية الصّوت وتسند كلتا راحتيها إلى سريرٍ صديٍّ يصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً، فيهيم ما تبقّى من الجسد فوق ما لم يُلمَس منذ زمن حتّى يصل إلى كائنٍ يتكوّرعلى نفسه ويغطّي بذراعه عيناً نصف مغمضة، فتتذكر المرأة لحظة رحيل أبنائها، تنظر ناحية الرّجل فلا تَراه. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحية الصّوت وتسند كلتا راحتيها إلى سريرٍ صديٍّ يصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً، فيهيم ما تبقّى من الجسد فوق ما لم يُلمَس منذ زمن حتّى يصل إلى كائنٍ يتكوّرعلى نفسه ويغطّي بذراعه عيناً نصف مغمضة، فتتذكّر المرأة لحظة رحيل أبنائها. تنظر ناحية الرّجل فلا تَراه، لكنّ عينيها تلامسان طيفاً خفيفاً يسحب بصرَها نحو الأعلى فتجده هناك هائماً، طائراً، رقيقاً. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ

تديـــــــــــــــــــــــــــــــر المرأة نصف وجه ناحية الصوت وتسند كلتا راحتيها إلى سرير صدىٍ. فيهيم ما تبقى من الجسد فوق ما لم يلمس منذ زمن حتى يصل إلى كائن يتكورعلى نفسه.

مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أن الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحية الصّوت وتسند كلتا راحتيها إلى سريرٍ صديءٍ يصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً، فيهيم ما تبقّى من الجسد فوق ما لم يُلمَس منذ زمن حتّى يصل إلى كائنٍ يتكوّرعلى نفسه ويغطّي بذراعه عيناً نصف مغمضة، فتتذكّر المرأة لحظة رحيل أبنائها. تنظر ناحية الرّجل فلا تَراه، لكنّ عينيها تلامسان طيفاً خفيفاً يسحب بصرَها نحو الأعلى فتجده هناك هائماً، طائراً، رقيقاً، فتمسك بيده الطّليقة وتشدّه ناحيتها، فيضع كفّيه على خصر بات شبه منسيّ ويبكي. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس

صوت ميراي ماتيو يطلق العنان للبكاء. في الحي الذي نسكن رجل وحيد يحب امرأة وحيدة تملك قطة بعين واحدة تخاف على الدوام فقدان جرائها.

ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحية الصّوت وتسند كلتا راحتيها إلى سريرٍ صديءٍ يصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً، فيهيم ما تبقّى من الجسد فوق ما لم يُلمَس منذ زمن حتّى يصل إلى كائنٍ يتكوّرعلى نفسه ويغطّي بذراعه عيناً نصف مغمضة، فتتذكّر المرأة لحظة رحيل أبنائها، تنظر ناحية الرّجل فلا تَراه، لكنّ عينيها تلامسان طيفاً خفيفاً يسحب بصرَها نحو الأعلى فتجده هناك هائماً، طائراً، رقيقاً، تمسك بيده الطّليقة وتشدّه ناحيتها، فيضع كفّيه على خصر بات شبه منسيّ ويبكي، وصوتُ ميراي ماتيو يطلق العنان للبكاء. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان

جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحيته وتسند كلتا راحتيها إلى سرير صديءٍ يصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً، فيهيم ما تبقّى من الجسد فوق ما لم يُلمَس منذ زمن حتّى يصل إلى كائنٍ يتكوّرعلى نفسه ويغطّي بذراعه عيناً نصف مغمضة، فتتذكّر المرأة لحظة رحيل أبنائها، تنظر ناحية الرّجل فلا تَراه، لكنّ عينيها تلامسان طيفاً خفيفاً يسحب بصرَها نحو الأعلى فتجده هناك هائماً، طائراً، رقيقاً. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أن الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحيته وتسند كلتا راحتيها إلى سريرٍ صديءٍ يصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً، فيهيم ما تبقّى من الجسد فوق ما لم يُلمَس منذ زمن حتّى يصل إلى كائنٍ يتكوّرعلى نفسه ويغطّي بذراعه عيناً نصف مغمضة، فتتذكّر المرأة لحظة رحيل أبنائها، تنظر ناحية الرّجل فلا تَراه، لكنّ عينيها تلامسان طيفاً خفيفاً يسحب بصرَها نحو الأعلى فتجده هناك هائماً، طائراً، رقيقاً، فتمسك بيده الطّليقة وتشدّه ناحيتها، فيضع كفّيه على خصر بات شبه منسيّ ويبكي. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحية الصّوت وتسند كلتا راحتيها إلى سريرٍ صديءٍ يصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً، فيهيم ما تبقّى من الجسد فوق ما لم يُلمَس

منذ زمن حتّى يصل إلى كائنٍ يتكوّرعلى نفسه. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحيته وتسند كلتا راحتيها إلى سريرٍ صدئٍ يصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا

فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النهوض. وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء. يستغرقان في الإنصات لأسطوانة مخدوشة تدور بلا توقف فلا يلتقطان شيئا منها.

توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف فلا يلتقطان شيئاً منها، فيظنّان أنّ الصّمم أصابهما لولا عويلٌ خافتٌ صادرٌ من زاوية الغرفة يعيد إلى حياتهما ما فات منها، تديرُ المرأةُ نصف وجهٍ ناحيته وتسند كلتا راحتيها إلى سريرٍ صدئٍ يصدر ضجيجاً متى احتكّ به أدنى الأجساد وزناً، ثمّ تندفع فتطير عالياً عالياً. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشةٍ تدور بلا توقّف. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء، يستغرقان في الإنصات لأسطوانةٍ مخدوشة. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض، وعن رفع اليد لالتقاط كأس ماء. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض فصارا عاجزين عن النّهوض. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما لحظة فتك بهما المرض. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها كما فقد الرجل والمرأة أبناءهما. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدةٍ تخاف على الدّوام فقدان جرائها. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدةً تملك قطّة بعينٍ واحدة. في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيدٌ يحبّ امرأةً وحيدة.
في الحيّ الّذي نسكن رجلٌ وحيد.

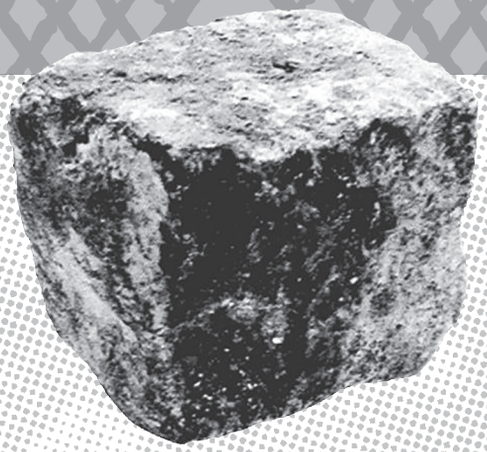

ملف

المخيّلة في السلطة



١٧٨ **من وثائق أيار ٦٨**
«عن البؤس في الوسط الطالبي»
أمميّة مبدعي الأوضاع

١٨٣ **أيار ١٩٦٨**
في هذا الزمن، سيدي
روجيه عسّاف

١٨٥ **فن عام ١٩٦٨ خيرٌ من لا شيء**
جيرار-پاري كلافيل







من وثائق أيار ٦٨
«عن البؤس في الوسط الطالبي»

أمميّة مبدعي الاوضاع

صدر هذا البيان العام ١٩٦٦ بعنوانه الكامل «حول البؤس في الوسط الطالبيّ، منظوراً إليه في أوجهه الاقتصاديّة والسياسيّة والنفسانيّة والفكريّة خصوصاً وفي بعض وسائل علاجه». الناشر طلاب جامعة ستراسبورغ. تبيّن لاحقاً أنّ مَن صاغه هو المناضل اليساريّ التونسيّ مصطفي الخيّاطي عضو «أمميّة مبدعي الأوضاع» L'internationale Situationiste. وهي تنظيم من ثوريّين ومثقّفين ومفكّرين سياسيين تأسس العام ١٩٥٧ (وحُلّ العام ١٩٧٢) حاول الجمع بين ماركسيّة معادية للستالينيّة وبين التيارات الفنيّة المعاصرة: الدادائيّة والسوريالّية. استلهم مبدعو الأوضاع، (الذين كانوا يرفضون هذه التسمية) عدّة مفاهيم من مفكّرين ماركسيّين جدد أمثال جيورجي لوكاش - الشّمول، الاستلاب، صنميّة السلعة - وهنري لوفيفر وراوول ڤانجيم - نقد الحياة اليوميّة - وغي دُبور، وهو أحد مؤسّسي التّنظيم - المجتمع المشهديّ - وغيرهم. أبرز مبتكراتهم الردّ على الرأسماليّة، التي تخلق رغبات مزيّفة، ببناء أوضاع هي لحظاتٌ من الحياة تتحقّق خلالها الرّغبات الإنسانيّة الاصيلة. شدّدوا على قلب مصطلحات الرأسماليّة ضدّها، عارضوا كلّ الإيديولوجيّات ومجّدوا اللعب والأعياد والحرّيّة والتفكير النقديّ.

لعب «مبدعو الأوضاع» دوراً هامّاً في انتفاضات أيّار / مايو ١٩٦٨ بفرنسا وخصوصاً في حركات احتلال الجامعات وفي إطلاق المخيّلة بلا حدود والدّمج بين السياسة والفنّ، وأبرز تعبيراته الغرافيتي والملصقات. وكان بيان «حول البؤس في الوسط الطالبيّ» الذي مثّل أحد النّصوص التأسيسيّة لكلّ هذه الابتكارات. نعيد هنا نشر مقاطع رئيسة منه ليس فقط لأنّه يضيء المناخات السياسيّة والفكريّة والثقافيّة والفنيّة لتلك الفترة بل لما فيه من استباقٍ لظواهر سوف تتضخّم في ظلّ العولمة والنيوليبراليّة: التسليع والمجتمع الاستهلاكيّ، المشهد والإعلان ووسائل الاتّصال الاجتماعيّ، موقع الطلّاب والشباب من الاقتصاد الرأسماليّ ومن آفاق التغيير الثوريّ، إلخ.

الطّلاب في الموقع الفصامي

كلّ التحليلات والدراسات الجارية عن الوسط الطالبيّ أهملت الجوهري إلى الآن. لم تتجاوز مرّةً وجهة نظر الاختصاصات الجامعيّة (علم النفس، علم الاجتماع، علم الاقتصاد) فبقيت إذاً مخطوطة في الأساس. ترتكب جميعها ما سمّاه فورييه «خفّة منهجيّة» لأنّها تتطرّق بانتظام إلى «القضايا الأساسيّة» متجاهلةً المنظور الشموليّ للمجتمع الحديث. إنّ صنميّة الوقائع تحجب المقولة الجوهريّة والتفاصيل تنسينا الشمول. نقول كلّ شيء عن هذا المجتمع عدا ما هو عليه فعلاً: سلعة ومشهد.

إنّ تمسرُح الصنميّة في ظلّ الرأسماليّة الحديثة يفرض على كلٍّ منّا استكانة معمّمة. والطالب ليس بمنأى عن هذا القانون. له دورٌ مؤقّت يحضّره لدور نهائيّ سوف يتولّاه بما هو عنصر إيجابيّ ومحافظ في تشغيل النظام السوقيّ. إنْ هي إلّا عمليّة تدريب...

الطالب كائن موزّع بين مكانةٍ حاضرة ومكانة مستقبليّة، كلتاهما مرسومة بطريقة واضحة، وهو سوف يجتاز الحدود بطريقة آليّة. إنّ وعيه الفصاميّ يسمح له بأن ينعزل في «مجتمع تدريب»، وأن يجهل مستقبله وأن يسعد بالاتّحاد الصوفيّ الذي يمنحه إيّاه حاضر محميّ

من التاريخ. فلا أسهل من كشف مآل انقلاب الحقيقة الرسميّة، أي الاقتصاديّة: الواقع الطالبيّ يصعب النّظر اليه وجهاً لوجه. في «مجتمع البحبوحة»، ينتمي الوضع الفعليّ للطالب إلى مجال الفقر المدقع. يعود ٨٠٪ من الطّلاب إلى شرائحَ يزيد دخلها عن دخل العامل، فيما ٩٠٪ منهم ينخفض دخلهم دون مستوى دخل الأجير العاديّ. إنّ بؤس الطّالب يبقى ما دون بؤس المجتمع المشهديّ، أي البؤس الجديد للبروليتاريا الجديدة. وفي زمنٍ يتحرّر فيه قسمٌ متزايد من الشّباب من المسبقات الأخلاقيّة ومن السلطة العائليّة لينخرط سريعاً في علاقات الاستغلال المفتوحة، يحافظ الطالب على نفسه، في كلّ المستويات، في وضعٍ «أقليّةٍ مستدامة» طائشة ومُطيعة. وحين تتعارض أزمتُه الشبابيّة المتأخّرة بعض الشيء مع عائلته، فإنّه يرتضي، بلا تذمّر، أن تعامله المؤسّسات المتنوّعة التي تدير الحياة اليوميّة بما هو طفل.

◆◆◆◆◆

إن متطلّبات الرأسماليّة الحديثة تتطلّب من القسم الأكبر من الطّلاب أن يكونوا «كوادر صغيرة»، أي ما يوازي وظيفة العامل الماهر في القرن التاسع عشر. إزاء هذا الذي يسهل حدسه، لهذا المستقبل الداهم إلى هذا الحدّ أو ذاك، من «يعوّض» عليه بؤس الحاضر المهين، يؤثِر الطالب الالتفات نحو حاضره وتزيينه بمفاخر وهميّة. حتى إنّ التعويض نفسه محزن إلى حدّ أنّه لا يستحقّ التعلّق به فلن يأتي الغدُ الطروب، بل سوف يغوص بالتأكيد في التّفاهة. لذا يلجأ الطالب إلى حاضرٍ يعيشه على نحوٍ غير حقيقيّ.

بما هو عبدٌ صبور، يظنّ الطالب عن نفسه أنّه حرّ، على أنّ حريّته بحجم عبوديّة سلاسل السلطة التي تكبّله. مثله مثل عائلته الجديدة، الجامعة، يظنّ نفسه الكائن المجتمعيّ الأكثر «استقلاليّة» في حين أنّه تابعٌ مباشرة وفي آن معاً، لأعتى نظامَين من أنظمة السلطة الاجتماعيّة: العائلة والدولة. إنّه ابنهما المهذّب والمعترِف بالجميل. وفق المنطق الصبيّ الخاضع ذاته، يشارك في كلّ قيم النظام وأضاليله ويستبطنها. ما كان أوهاماً مفروضة على موظفين، يصير إيدلولوجيا متجسّدة يروّجها جمهور من المؤهّلين ليكونوا كوادر صغيرة في المستقبل.

التعويض بالثقافة

بسببٍ من وضعه الاقتصاديّ الفقير المدقع، الطالب محكوم بنمط عيش لا يُحسد عليه. لكنّه سعيد باستمرار من حاله، يُعلي بؤسه التافه إلى «نمط حياة»: التشرّد والبوهيميّة.

إلّا أنّ البؤس الفعليّ للحياة اليوميّة الطالبيّة يَلقى تعويضه المباشر، الغرائبيّ، في تعاطي أفيونه المفضّل: السلعة الثقافيّة. في المشهد الثقافيّ، يستعيد الطالب على نحوٍ طبيعيّ موقعه بما هو مُريد كلّي الاحترام. ولكونه قريباً من موقع الإنتاج دون أن يدخله بأيّ حال - فالحَرَم محرّم عليه - يكتشف الطالب «الثقافة الحديثة» بما هو مُشاهدٌ مُعجَب. في زمن أعلِن فيه «أنّ الفنّ قد مات» يبقى الطالب هو المواظِب الوفيّ على ارتياد المسارح ونوادي السينما، والمستهلك النَهِم لجثّة الفنّ المجلّدة التي توزَّع في أغلفة «سيلوفان» في السوبرماركت على ربّات بيوت أيّام البحبوحة. يشارك الطالب في هذا بلا تحفّظ، ولا أفكار مسبقة، بل دون وضع المسافة اللازمة بينه وبينها. فلو أنّ «بيوت الثقافة» ما وجِدتْ لكنّ الطالب اخترعها. إنّه يؤكّد تمام التوكيد صحّة تحليلات أسخف ما أنتجتْه سوسيولوجيا التسويق الاميركيّة: استهلاك المباهاة والتمييز الدعائيّ بين منتجاتٍ متماثلة في تفاهتها.

◆◆◆◆◆

يسعد الطالب أكثر من أيّ كائن آخر بأنّه «مسيّس». لكنّه يجهل أنّه بذلك يشارك في المشهد ذاته. إذ ينسب لنفسه كلّ الأشلاء السخيفة ليَسار قد أبيد من أربعين سنة بالنّزعة الإصلاحيّة «الاشتراكيّة» والردّة الستالينيّة المضادّة للثّورة.

◆◆◆◆◆

الطالب نتاج المجتمع الحديث، مثله مثل [المُخرِج جان لوك] غودار والكوكا كولا. لا يمكنه مناهضة استلابه الجذريّ إلّا بإعادة النظر الجذريّة في المجتمع ككلّ. وتلك عمليّة نقديّة لا يمكن أن تتمّ أبداً في الحقل الطالبيّ: فالطالب، بذاته، يدّعي قيمةً مزيّفة، تمنعه من أن يعي استلابه الحقيقيّ، فيبقى بالتالي في صميم الوعي الزائف. لكنّ الشباب يتمرّد عندما يبدأ الاحتجاج ضدّ المجتمع الحديث، غير أنّه تمرّدٌ يناظره فوراً نقد شامل للسلوك الطالبيّ.

الاحتجاج الطالبي

لا يكفي أن يسعى الفكر وراء تحقّقه / واقعه، يجب أن يسعى الواقع نحو فكره.

بعد فترة طويلة من السبات والردّة المضادّة للثورة الدائمة، ترتسم، منذ بضع سنوات، حقبةٌ جديدة من الاحتجاجات يبدو أنّ حاملها هو الشباب. لكنّ مجتمع المشهد، في تصوره عن ذاته وعن أعدائه، هو الذي يفرض المقولات الإيديولوجيّة لفهم العالم والتاريخ. وهو يُرجِع كلّ ما يجري فيهما إلى نظام طبيعيّ يسيّر الأشياء وينطوي على منتجات حديثة حقيقيّة تعلن تجاوز هذا النظام في إطارٍ مغلق من الجِدّة الوهميّة. إنّ تمرّد الشباب ضدّ نمط الحياة المفروض عليهم ليس في الواقع إلّا الإرهاص بانقلابٍ أوسع سوف يشمل مجموع الذين يعانون على نحوٍ متزايد من استحالة العيش، أي إنّه مقدّمة لحقبة الثورة الآتية. لكنّ الإيديولوجية المهيمنة وأجهزتها اليوميّة، التي تستعين بآلياتٍ مجرّبة لتشويه الواقع، لا تستطيع إلّا أن تختصر هذه الحركة التاريخيّة الحقيقيّة إلى شبه مقولة اجتماعيّة - طبيعيّة هي فكرة الشباب، حيث يفترض أن التمرّد جزء من طبع الشباب الجوهريّ. وهكذا ينسَبُ تجديدُ شباب التمرّد إلى التمرّد الأبديّ للشباب، ينبعث حيّاً في كلّ جيلٍ ويخبو عندما «ينخرط الشابّ في الإنتاج الجدّي وفي النشاط الهادف إلى أهداف محدّدة وحقيقيّة».

لقد كان «تمرّد الشباب»، ولا يزال، موضوع نَفخٍ إعلاميٍّ حقيقيّ جعل منه مشهداً لـ«تمرّد» ممكنٍ يُعرض علينا قصدَ التأمّل لكي نُمنع من أن نعيشه، بما هو المجال الشاذّ - المستوعَب سلفاً - والضروريّ لتشغيل النظام الاجتماعيّ. إنّ هذا التمرّد ضدّ المجتمع يطمئِن المجتمع لأنّه محكومٌ عليه أن يبقى جزئيّاً، في إطار التمييز الذي تتعرّض له «مسألة» الشباب - مثلما توجد مسألة المرأة، أو مسألة السود - ومحكوم على ذاك التمرّد ألّا يستمرّ إلّا لفترة محدّدة من العمر. في الواقع، إذا كان ثمّة من مسألة «شبابيّة» في المجتمع الحديث، فهي الأزمة العميقة لهذا المجتمع الذي يستشعرها الشبابّ بحدّةٍ أكبر من سواهم. هذه المسألة حديثة، لأنّها نتاج هذا المجتمع الحديث بامتياز، أكان لجهة الاندماج غير المشروط فيه، أم لجهة رفضه رفضاً جذريّاً. ما يجب أن يفاجئ ليس أنّ الشباب يتمرّد، وإنّما أنّ «الراشدين» هم على هذا القدر من الخنوع. هذا ليس تفسيراً أسطوريّاً، إنّما هو تفسير تاريخيّ: ذلك أنّ الجيل السابق خبر الهزائم على أنواعها وابتلع كلّ أكاذيب فترة التفكّك المعيبة للحركة الثوريّة.

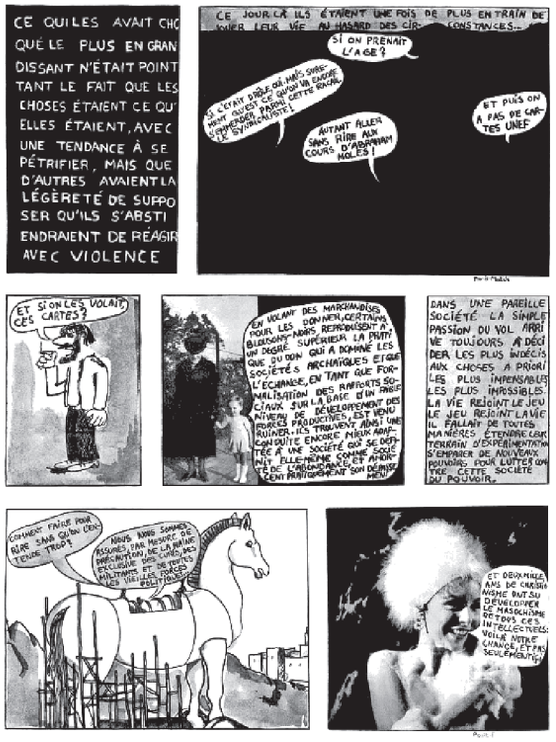

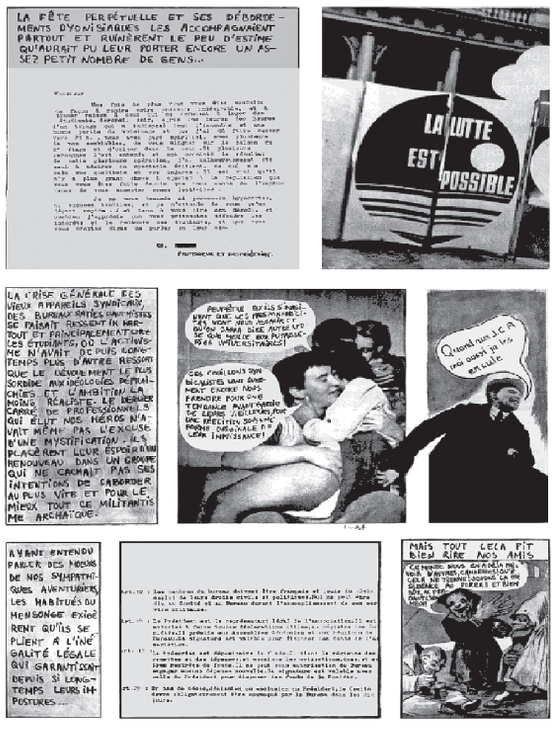

❖ الرسم لأندريه برتران وقد نشر في النسخة الانكليزية من المنشور «عن البؤس في الوسط الطالبي»، العام ١٩٦٦


ten days that shook the university
LA PRÉSIDENCE PASSE ENCORE, MAIS LA TRÉSORE-
PROMETTANT DE TRESORIÈRE.
...C'EST L'ARGENT EN EFFET LE MOTIF DE TOUTES LES DISCORDES, DE TOUTES LES
UN MOT LE CRÉATEUR DE LA PROPRIÉ
SI L'ON N'ÉTAIT PLUS OBLIGÉ DE DON
QUELQUE CHOSE EN ÉCHANGE DE CE QUE NOUS AVONS BESOIN POUR NO-TRE EXISTENCE, L'OR PERDRAIT SA VA-LEUR ET PERSONNE NE CHERCHERAIT ET NE POURRAIT S'ENRICHIR PUISQUE
DE CE QU'IL AMASSERAIT NE
LUI PROCURER
LEUR CONNAISSANCE DE LA VIE NE DEVAIT RIEN A LEUR PRÉSENCE ÉPISODIQUE DANS L'ENCEINTE DES FACULTÉS NI AUX QUELQUES DIPLOMES QU'ILS AVAIENT ACQUIS PAR LES MOYENS LES PLUS DIVERS ET LES MOINS AVOUABLES.
DE QUOI T'OCCPES TU EXACTEMENT ?
DE LA RÉIFICATION
JE VOIS, C'EST UN TRAVAIL TRÉS SÉRIEUX, AVEC DE GROS LIVRES ET BEAUCOUP DE PAPIERS SUR UNE GRANDE TABLE.
NON, JE ME PROMÈNE. PRINCIPALEMENT JE ME PROMÈNE.
the situationists at Strasbourg
MES PRINCIPES ET MES GOÛTS FIRENT MON BONHEUR DEPUIS MON ENFANCE. ILS FURENT TOUJOURS L'UNIQUE BASE DE MA CONDUITE ET DE MES ACTIONS. PEUT-ÊTRE IRAI-JE PLUS LOIN, JE SENS QUE C'EST POSSIBLE. MAIS POUR REVENIR, NON. J'AI TROP D'HORREUR POUR LES PRÉJUGÉS DES HOMMES, JE HAIS TROP LEURS CIVILISATIONS, LEURS VERTUS ET LEURS DIEUX POUR Y JAMAIS SACRIFIER
RAVACHOL JULES, DIT KOENIGSTEIN FRANCISQUE, NÉ LE 11 OCTOBRE 1854. TAILLE 1m666; PROFESSION: TEINTURIER. RELATIONS: RÉVOLUTIONNAIRES. CAUSE DE LA DÉTENTION: DESTRUCTION D'IMMEUBLES ET DÉTENTION D'ENGINS EXPLOSIFS.
L'EXCELLENCE DE CE SAVOIR THÉORIQUE NE POUVAIT ALLER SANS UNE PRATIQUE APPROPRIÉE. ILS AVAIENT PEU À PEU SU RECONNAITRE CEUX AVEC QUI LA DÉTÉRIORATION DE LA MACHINE SOCIALE SERAIT UN JEU IMPITOYABLE. C'EST AINSI QUE LES POURPARLERS AVEC L'«INTERNATIONALE OCCULTE» S'ENGAGÈRENT.
POTV: BE NE DIC
situationist international

الشباب وهمٌ دعائيّ

منظوراً إليه بذاته، يشكّل «الشباب» أسطورةً إعلانيّة وثيقةَ الارتباط بنمط الإنتاج الرأسماليّ، بما هم تعبير عن ديناميّته. أمكن إعطاء تلك الأولويّة الوهميّة للشبيبة بسبب إعادة انطلاق الاقتصاد بُعيد الحرب العالميّة الثانية وانخراط فئةٍ كاملة من المستهلكين الأكثر طواعية في

أن تكون طليعيا يعنى أن تسير على وقع خطى الواقـــــــــــح.

السوق، وهو دور للشباب منحهم بطاقة هويّة في المجتمع المشهديّ. لكنّ التفسير الغالب للعالم عاد ليتناقض مع الواقع الاقتصاديّ - الاجتماعيّ (لأنّه متأخّر عنه)، وهنا الشباب تحديداً هم المبادرون إلى توكيد زخم لا يقاوَم للعيش وهم المنتفضون عفويّاً ضدّ الضَّجَر اليوميّ والوقت الضائع الذي لا يزال المجتمع القديم ينتجه عبر أشكال الحداثات المختلفة. إنّ الفئة المتمرّدة من الشّباب تعبّر عن الرّفض الجذريّ القاطع للأوضاع الحاليّة لكنّها لا تملك منظوراً لتجاوزها. إنّ رفضها عدميّ. وإنّ هذا المنظور قيد البحث وهو لن يتبلور إلّا على النطاق العالميّ. يتعيّن عليه تحقيق تجانس النقد النظريّ وتنظيم هذا التجانس عمليّاً.

لا عودة إلى خلف

يجب إنتاج وضْع يجعل من المستحيل كل عودة إلى وراء «أن تكون طليعيّاً يعني أن تسير على وَقع خطى الواقع». إنّ النّقد الجذريّ للعالم الحديث يجب أن يكون موضوعه الآن الشمول. ويجب أن يرتبط بلا فكاك بماضيه الحقيقيّ، على ما هو عليه في الحقيقة، وعلى آفاق تطوّره. فمن أجل التمكّن من إعلان حقيقة العالم الراهن، وبالبداهة من أجل بلورة مشروع الانقلاب الشامل عليه، يجب التمكّن من كشف كلّ تاريخ العالم المخفيّ، أي النظر بطريقةٍ متحرّرة من الخرافة، نظرة جذريّة أساساً، إلى تاريخ كلّ الحركة الثوريّة الأمميّة، التي افتتحها منذ أكثر من قرن بروليتاريّو بلدان الغرب، في«هزائمها» كما «انتصاراتها».

إنّ المجتمع المسيطر، الذي يهنّئ نفسه بحداثته المستدامة، ينبغي عليه الآن البحث عمّن يستطيع أن يبادله الحديث، أي أنْ يبحث عن النّفي الحداثيّ الذي ابتدعه هو نفسه: «لنترك الآن للموتى أن يدفنوا موتاهم وأن يبكوا عليهم». إنّ التحرّر العمليّ من أوهام الحركة التاريخيّة يعني تحرّر الوعي الثوريّ من الأشباح التي تقضّ مضجعه، وإنّ ثورة الحياة اليوميّة تواجه مهمّاتٍ جبّارة ينبغي عليها الاضطلاع بها. المطلوب إعادة ابتكار الثورة، مثلها مثل الحياة التي تبشّر بها. إذا كان المشروع الثوريّ لا يزال كما كان - أي مشروع إلغاء المجتمع الطبقيّ - فذلك لأنّ الشروط التي ينمو في ظلّها لم تتحوّل جذريّاً في أيّ مكان بعد.

الثورة عيد

إنّ سيطرة البشر الواعية على التاريخ الذي يصنعونه تمثّل ذلك المشروع الثوريّ. التاريخ الحديث، مثله مثل التاريخ الماضي، هو نتاج الممارسة الاجتماعيّة، هو الحصيلة، غير الواعية، لكلّ النشاطات الإنسانيّة. في حقبة سيطرتها الشموليّة، أنتجت الرأسماليّة ديناً جديداً: المشهد. إنّ المشهد هو تحقيق الإيديولوجيا على الأرض. ... ومثلما كان «نقد الدين» هو الشرط الأوّل لكلّ نقد، فإنّ «نقد المشهد» هو الآن الشرط الأوّل لكلّ نقد.

لا يمكن للتاريخ الحديث أن يتحرّر، وأن يستخدم بحرّية منجزاته التي لا تعدّ ولا تحصى، إلّا من خلال القوى التي ينبذها: العمّال فاقدي السلطة على ظروف حياتهم، وعلى معنى نشاطاتهم ومنتوجاتها. مثلما كانت بروليتاريا القرن التاسع عشر وريثة الفنّ الحديث وأوّل نقدٍ واعٍ للحياة اليوميّة، فإنّها الآن لن تستطيع أن تلغي نفسها بنفسها دون أن تحقّق الفنّ والفلسفة في الآن ذاته. إنّ تحويل العالم، وتغيير الحياة مهمّة واحدة، وهما الشعاران غير المنفصلين اللذان يرافقان إلغاء البروليتاريا بما هي طبقة، وحلّ المجتمع الحالي بما هو ملكوت الضرورة، والارتقاء إلى ملكوت الحرّية وقد بات في حيّز الإمكان. إنّ النقد الجذريّ وإعادة البناء الحرّة لكلّ السلوكيّات والقيَم التي فرضها الواقع المستلَب يشكّلان برنامج الحدّ الأقصى، والإبداع المتحرّر في بناء كلّ لحظات الحياة وأحداثها هو الشِعر الوحيد الذي يستحقّ الاعتراف به، الشِعر الذي يبتدعه الجميع، الشعر الذي هو بداية المهرجان الثوريّ. إنّ الثورات البروليتاريّة تكون أعياداً أو لا تكون، لأنّ الحياة التي ترهص بها سوف تولد هي ذاتها تحت رايات الأعياد. إنّ اللعب هو العقلانيّة النهائيّة للعيد، ذلك أنّ العيش دون وقتٍ ضائع والاستمتاع دون قيود، هي القواعد الوحيدة التي يعترف بها العيد.

أيار ١٩٦٨
في هذا الزمن، سيدي*

روجيه عسّاف

مؤلف ومُخرج مسرحيّ، لبنان.

يجب أن أقول لك، سيّدي، إنّنا في ذلك الزمن لم نكن نحلم، سيّدي، لم نكن نحلم، كما نحيا.

كان لنا شعر طويل، كنّا ندخّن سجائر «جيتان»، كنّا نحكي، نحكي، لأنّ الكلمات كانت نديّة، طافحة بالمعنى: حريّة، مساواة، ثورة. عندما نكون ملايين نحلم في الوقت ذاته، لن يعود ذلك حلماً، يصير أن نحيا اليوم ما كنّا نريد أن نحياه غداً، جميعنا معاً.

يجب أن أقول لك، سيّدي، في ذلك الزمن، لم نكن مجانين، سيّدي، لا، لم نكن مجانين، كنّا نتعاشق.

كنّا نتقاسم كلّ شيء. الأفكار قبل أيّ شيءٍ آخر. والأفكار تتحرّك، تمارَس، تتعرّض للانتقاد، الأفكار لها جذورٌ وتتغذّى من تاريخ وحكايات، تخرق الأرض وتنتصب، وتبرعم أينما كان، فيكون لها أغصان وأوراق وثمار. الحقيقة لا توجد في الأفكار الجامدة، إنّها ابنة الضرورة، لا برامج أقلّيّات تريد قولبة العالم حسب مثالها، إنّها فعل ملايين البشر الذين يتكوّن منهم الشعب، إنّها الضرورة التاريخيّة وقد تحوّلتْ إلى واقع.

اعذرني، سيّدي، إنّي أتحدّث مثلما كنّا نتحدّث في ذلك الزّمن، كنّا جميعاً فلاسفة، بلى، لكن هكذا تكون الثّورات، تصير الفلسفة فيها ضرورةً مطلقة، يوميّة، كلّ خلايا الدماغ تشتغل خلال الثورة، لا كما هو الحال في ظلّ الديمقراطيّة، حيث تعطي صوتك فلا يبقى لك شيء تقوله. في كلّ الأحوال، لو أمكن الانتخابات أن تغيّر الأمور فعلاً، لكانوا منعوها.

يجب أن أخبرك، سيّدي، في ذلك الزّمن، كانت مجموعة من الطلّاب اللبنانيّين في باريس تشاغب ضدّ عرضٍ لمسرحيّة «البرجوازيّ النبيل» في «المدينة الجامعيّة»، كانوا يصيحون «يسقط البرجوازيّون! يسقط النبلاء»، فألغي العرض.

أي نعم، سيّدي، يجب أن تعلم أنّنا في ذلك الزّمن لم نكن مهذّبين، لم نكن مهذّبين، سيّدي، كنّا نضحك / ساخرين.

ذات يومٍ في بيروت، قمنا بالثورة على المسرح، سيّدي، اعتمرنا الكوفيّات الفلسطينيّة، رفعْنا «الكتاب الأحمر» باليد اليسرى والقبضة المضمومة باليمنى. وأسقطْنا الحكومة ثمّ جاء الجنود الإسرائيليّون وأنشدنا في وجوههم «ما همّ أن نموت»، الكلمات لتشي غيفارا ترجمها عصام محفوظ ولحّنها وليد غُلمية. ثمّ في الفجر، نزلنا إلى وسط المدينة وشربنا كوباً من السّحلب.

يجب أن أقول لك، سيّدي، إنّه في ذلك الزمن، كان وسط المدينة لنا.

ذات يوم، غداً، بعد عشر سنوات، بعد قرن، سوف نعلنها الثورة، سيّدي. نعم، اعرف أنّ الأفق يبتعد عندما نتقدّم صوبه. لكنّ إعلان الثورة هو وسيلة حياة في أيّامنا هذه. فكلّ مرّة تشاهد فيها مظلمة، كلّ مرّة تسمع فيها كذبة، كلّ مرّة تشهد فيها على عذاب إنسان سبّبَه له إنسان آخر: رجلٌ لامرأة، بالغ لطفل، عسكريّ لمدنيّ، أبيض لأسود، مؤمنٌ لوثنيّ، مؤمن لمؤمنٍ آخر، [كلّما شاهدت] متسوّلاً، متعطّلاً من عمل، لاجئاً، ضحيّة: تمرّد، قليلاً أو كثيراً، ما همّ، المهمّ أنّك تكون قد عشت بضع لحظات أو بضع ساعات من فرح ذلك الزّمن.

يجب أن أقول لك، إنّه في ذلك الزمن، لم نكن نَهرم، سيّدي، لم نكن نهرم، كنّا خالدين.

بلى، اعلم، سيّدي، أنّه قد سقط عددٌ من الموتى، موتى أموات وموتى أحياء، بلى، اعلم ذلك، بعضهم أثرى، أو صار وزيراً، لكنّ الثورة ليست شأن أفراد. أنا وأنت، سيّدي، أفراد، إنّما الثورات تصنعها الأفكار، والأفكار تعيش أكثر من البشر. والصّوَر، توجد صوَر تولد كالنّبات على تلك الجدران المتشقّقة وتفيء إلى الذّاكرات. إنّ

* مستوحاة من أغنية لجاك بريل.

جرّافات «سوليدير» تجرف كلّ شيء، الجدران والأزهار، لكنّ الصور باقية.

يجب أن أقول لك، سيّدي، إنّنا لم نكن فقراء في ذلك الزّمن، سيّدي، لم نكن فقراء، كنّا شعراء.

خذ مثلاً، يان بالاش، هل تتذكّره؟ هو طالبٌ تشيكيّ عمره ٢١ سنة، يدرس الفلسفة. عندما كان ربيع براغ يلفظ أنفاسه، والدبابّات السوفييتيّة تمعس الثورة، مثلما تُمعَس قطّة المجارير في الشارع، قرّر أن يحترق بالنّار في ساحة «ڤنسسلاس». كان يركض، شعلة حيّة. رسالته المكتوبة دعوة إلى الإضراب المستمرّ. كلماته الأخيرة في المستشفى «لا يمكن أن أستمرّ أكثر من ذلك... مستحيل... على الإنسان أن يقاتل / يناضل قدر المستطاع... ولعلّ ذلك لم يعد بالمستطاع هنا...». بعد عشرين سنة من ذلك، العام ١٩٨٩، هناك من سمع نداء بالاش، حشدت «ثورة المخمل» مئات الألوف من النّاس وأسقطت النظام الشموليّ / الاستبداديّ. ڤاكلاڤ هاڤيل، مخرج مسرحيّ، انتُخب رئيساً للجمهوريّة.

يحب أن أقول لك، سيّدي، إنّه في ذلك الزمن، لم نكن لبنانيّين، ولا فرنسيّين، ولا تشيكيّين، لا، سيّدي، كنّا الإنسانيّة جمعاء.

اليوم، سيّدي، لا، أمس، شعرٌ أشقر متجعّد اشتعل ليلة عيد الميلاد، صبيّة في السادسة عشرة من عمرها صفعتْ جنديّاً إسرائيليّاً. عهد تميمي في السجن، لكنّ خصلاتها الشقراء المتجعّدة لم تخمد نارها.

هل سوف التقيك بعد عشرين سنة، سيّدي؟

الوقت متأخّر، يجب أن تعود إلى بيتك.

تصبح على خير، سيدي، غداً سيكون يوماً جميلاً.



فن عام ١٩٦٨خيرٌ من لا شيء

جيرار-پاري كلافيل

مصمّم غرافيكيّ اجتماعيّ.شارك في محترف كليّة الفنون الزخرفيّة في أيّار/مايو عام ١٩٦٨ ثمّ انضمّ إلى بيار برنارد وفرانسوا مياهي لتأسيس مجموعة «غرابوس» وهو اليوم عضو في جمعيّة «Ne pas plier يرجى عدم الطوي».

في أيّار / مايو عام ١٩٦٨، كنتُ في الرّابعة والعشرين من العمر. وكُنتُ قد فرغت تماماً من الدراسة، أعمل كرسام غرافيكيّ ومدير فنّيّ في استوديو للازياء. كانت هذه إحدى الوظائف الأولى التي تبوّأتها. عندما بدأت الاحتلالات، نحو منتصف شهر أيّار / مايو، قصدتُ كليّة الفنون الزخرفيّة Arts Déco حيث إنتاجُ الملصقات يوازي في وتيرته ما ينتج في كليّة الفنون الجميلة. في الأولى، برز الحضور النقابيّ القويّ للاتّحاد الوطنيّ لطلّاب فرنسا. في السنوات السابقة، وخصوصاً عام ١٩٦٧، ظهر تحوّلٌ على الفولكلور، كلّ الموسيقى وطقوس التطبيع، إلى نشاطاتٍ نقابيّة أو فعاليّات تضامن مع فيتنام، أو ضدّ حرب الجزائر، التي كانت لا تزال حيّة في الذاكرة. كان الوضعُ مسيّساً: لم يخرج من العدَم.

على أرض الواقع، كان البعض منّا قد تعارف مع بعضٍ إذ التقينا خلال فترة الدراسة في باريس أو في أكاديميّة الفنون الجميلة في وارسو. لم يكن الطلّاب وحدهم الذين ارتادوا الأكاديميّة بل ارتادها أيضاً العديد من الطلّاب القُدامى الذين أصبحوا مُحتَرفين. أصدقائي هناك: بيار برنارد، الذي درس هو أيضاً في بولندا إلى جانب هنريك توماشفسكي، وفرانسوا مياهي الذي لا يزال طالباً ومسؤولاً نقابيّاً في كليّة الفنون الغرافيكيّة.

ويمكن القول إنّني كنت بالأحرى منتجَ صورٍ يشارك في إنتاج الملصقات في المحترف أكثر منه في الحركة الطلابيّة بحدّ ذاتها. حضرت بالتّأكيد بعض المناقشات والجمعيّات العامّة وشاركْت أيضاً في بعض التظاهرات. شاركتُ في الأحداث الكبرى، بيد أنّني لم أكن قائداً إطلاقاً لأيّ نشاط. عندما يتعلّق الأمر بصورة معيّنة، كنت أتكلّم لأنّه لا بدّ من الاعتراف بأنّ لنا خبرةً في هذا المجال، وأنّ لنا ممارسةً مختلفةً في الرّسم الغرافيكيّ بعد زيارتنا بولندا. كذلك، كنا نتمتّع بالجرأة!

تميّزتْ تلك الحقبة بالحبور. ففي عام ١٩٦٨، فُتِحَ الباب واسعاً أمام حريّة التعبير، فبرزتْ قوّة التلاعب بالكلمات ومخاطرها. يتحادث النّاس في الشارع. هناك حشد: تأتي، تحتجّ وتعترض، يمكنك أن تُناقِش. فُضول معرفة الآخر لا يُضاهى. وهذا مُبهِج! بصرف النّظر عن التحرّكات الكُبرى، والتظاهرات الحاشدة، والمشاريع الضخمة، هناك تحوّل يتمثّل في إثارة الخوف في نفوس الطبقة البرجوازيّة، واحتلال الشارع، وتحقيق النصر، وتجسيد أقصى درجات الجنون، وبثّ الشِعر في السياسة والحياة...

انا أمارس صراع الطبقات

إلى جانب عملي، اكتشفتُ بيئةً ليست بيئتي. سبق لي أن رأيتُ الوجه الآخر من خلال عاملات مصانع النسيج، الواقفات بالصفّ أمام آلاتهنّ، في أردأ ظروف الاستغلال. كانت ظروفاً تشبه الظروف التي خضع لها والداي العاملان فضلاً عن البطالة التي خَبِرَها والدي. وهكذا، تفتّحت عيناي على الصراع الطبقيّ، مع العلم أنّني كنت في وضع جيّدٍ نوعاً ما، لي أجرٌ وشروط عمل مقبولة. بالنسبة إلى ربّ العمل، أنتَ الفنّان الشابّ، أنتَ قبلة الأنظار، فكأنّك نوعاً ما مهرّج الملك. وهذا الوضع يجعلك راضياً شريطة أن تكون مصمّم الغرافيك في الخدمة، وقد اختبرت ذلك في تلك الحقبة. بالنسبة إلى أرباب العمل، ويا للسّخرية، كان من الجيّد أن يشارك مديرهم الفنّيّ الشابّ في التحرّك، مع ملصقاته الاحتجاجيّة المعارِضة.

السعادة تُظَلِّل الأجواء. وقد تمكّنا من أن نتناول ببهجةٍ غامرةٍ ما أمكن من أكثر المواضيع شعريّة وسياسيّة. في وقتٍ لاحق،أنتج العام ١٩٦٨ ما سُمِيَ بالحريّة الجنسيّة، لكن مع ذلك لا بدّ من تلطيف هذا التعبير، نظراً للذكوريّة

المسيطرة التي ظلّت عنيفة. بالنسبة إلى بعض الشرائح الاجتماعيّة، سمح ذلك بممارسة هذه الهيمنة الذكوريّة على نحوٍ أسهل بكثير، وأميلُ إلى القول، من خلال ثقافة حريّة مزوّرة. حتى وإن زاد ذلك من ممارسات العلاقة الجنسيّة. كانت حريّة الأجساد لا تزال بحاجةٍ إلى إنجاز.

عموماً، دَفَع هذا الجوّ الكثير من الفنّانين والحرفيّين إلى التلاقي، ما سمح بتشريع العمل الجماعيّ. وقد أتاح ذلك بالتالي تأسيس مجموعة مصمّمي الغرافيك «غرابوس» Grapus مع بيار برنارد وفرانسوا مياهي. لكن هذا ليس كلّ شيء. ففي الوقت الذي كنّا ننجز فيه الملصقات، كنّا نعي ضرورة تنظيم دراساتنا ومهنتنا. عُدتُ إلى بولندا لأعاين أساليب الدراسة التي كانت مختلفة عنها في فرنسا. وذهب آخرون إلى أماكن أخرى. حدث ذلك في شهر حزيران / يونيو، أو بعده مباشرةً. كان فرانسوا مياهي، بصفته مسؤولاً في «الاتّحاد الوطنيّ لطلّاب فرنسا»، عضواً في لجان إصلاح التعليم. وقد أفضى ذلك إلى تأسيس «معهد البيئة» عام ١٩٦٩ وهو عبارة عن حلقة ثالثة تشكّلت على غرار «مدرسة المعلّمين العليا» في شارع «أولم» في ألمانيا، المنبثقة هي أيضاً عن مدرسة«بوهاوس». في تلك الحقبة، ظهرت انقسامات اجتماعيّة وسياسيّة هنا أيضاً: نحن الطلاب من أصولٍ متواضعة، أصبحنا مناضلين شيوعيّين، أردْنا للأوضاع والشهادات أن تدوم. أمّا الطلاب اليساريّون من البرجوازيّين الصغار، فما كانوا ليأبهوا: كانوا أكثر عداءً للشيوعيّين منهم للرأسماليّين فضربوا عرض الحائط بكل شيء في غضون عامين. وأخيراً، لم يكونوا وحدهم طبعاً مَن نسفوا هذه التجربة: رأت السلطة أيضاً أنّ هذه المغامرة تفوح منها رائحة المؤامرة.

عام ١٩٦٨. ظهرت رغبة في الاختبار بلا توقف وكان الفشل جزءا من شروط النجاح. لم نكن نأبه يوما للوقوع في الخطأ.

لكن بالعودة إلى الوراء: في أيّار / مايو عام ١٩٦٨، في كليّة الفنون الغرافيكيّة، لا بدّ من النظر أيضاً إلى الديكور، إلى الجماليّة. إنّها مدرسة من طوابق عدّة. في الطابق الرابع مشغلُ السيريغراف. كنّا نحتفظ بالأجزاء المتبقّية من لفافات الصحف الكبيرة ونجعل هذه اللفافات الطويلة تتدلّى من الطابق الرابع إلى الأسفل في بيت السلالم. ثمّ نقصّها ونلصقها على الفور... كان لكلّ واحدٍ منّا مشروع رسمٍ ليعرضه أثناء الجمعيّة العامّة، فتدور حوله نقاشاتٌ كثيرة. ولاحقاً عندما نعود إلى المحترف، كنّا نفعل ما يحلو لنا، هذا هو المبدأ. يعود القرار إلى من يُنجز العمل. إنّها باختصار ديمقراطيّة مباشرة من دون أن تكون توجيهيّة مبالغة.

متعة التشارك

العنصر المهمّ في محترفات عام ١٩٦٨ الشعبيّة، والذي غالباً ما يُحذَف من روايات تلك الحقبة، هو الترويج والنشر. بادئ ذي بدء، صحيحٌ أنّ هناك فوضى صوَر في كلّ مكان، إلّا أنّها فوضى حميدة. وهذا ما يحفز على التفكير، والتذوّق النقديّ، وشاعريّة النظرة. عندما ننظر إلى ملصقات عام ١٩٦٨، باستثناء البعض منها، نجد الكثير من«الرسوم الصغيرة». لكنّ العلاقة التي تجمع بينها هي التي تعطي هذه الرسوم معناها. إنّ متعة لصق هذه الصور والاستحواذ عليها قويّة قدْر متعة ابتكارها وصنعها. اكتشفنا ذلك في تلك اللحظة وحفظنا، في «غرابوس»، ثمّ في جمعيّة «يرجى عدم الطوي»، مدى أهميّة شروط الترويج والنشر. عندما ننشر شعار «صراع الطبقات» أو«الحلم للجميع» أثناء التظاهرات، نصبح مؤلّفي فكرة وممثّليها. ثمّة بهجة حقيقيّة في هذا اللقاء، في العلاقة الفاعلة وفي التشارك.

تمحور عام ١٩٦٨ على المشاركة الجماعيّة. دردشات في كلّ مكان. إلى جانب التظاهرات والقمع والفولكلور طبعاً. فضلاً عن العنف ضدّ الطلّاب في بعض الأحيان، وعنفٌ أقلّ وضوحاً ضدّ العمّال. أو حتى أيضاً تشديد في حدّة الخطابات. هذا ما حفظناه، في حين أنّه في العمق، عبارة عن نضالاتٍ عمّالية مذهلة وعن مكتسباتها. وتماماً كما كان العمّال في المصانع المحتلّة يفكّرون في بناء الحرّيّات والمساواة، كنّا نحن نتخيّل الظروف الممكنة لعملنا على الأشكال وعلى اللغة. تعلّق الأمر ببناء السياسة والمشروع والتعليم. ذلك كلّه فيما نحن نتسكّع بجديّة.

أنْ تمارس الثورة يعني ابتكار الجديد. هنا كنّا في سياق البحث الابتكاريّ. لم نعهد في السابق هذا البرود الذي عرفناه منذ ذلك الحين. عام ١٩٦٨، ظهرت رغبةٌ في اللعب، في الاختبار بلا توقّف وكان الفشل جزءاً من شروط النّجاح. لم نكن نأبه يوماً للوقوع في الخطأ، أو لارتكاب حماقة جسيمة. كنّا ننتج، كنّا نجرّب حظّنا. وكانت حيويّة رهيبة تفيض عن مفهوم العمل الفنّيّ. كانت الجودة كامنةً في هذه المسيرة، وفي عمليّات التبادل قدْر ما كانتْه في الصورة بحدّ ذاتها.





❖
داخل المحترف
الشعبي في
العام ١٩٦٨

نهاية فترة الاحتلال وإخلاء الشرطة مبنى كليّة الفنون الزخرفيّة، لعلّ هذا حكم بوقف آليّة مؤقتة، لكن استمرّ كلّ شيء. واصلنا التفكير في «معهد البيئة»، ثمّ في «غرابوس». وهذا ما أطعمنا حتى التخمة طوباويّات وخيالات كما لو أنّها فيتامينات. فالطوبى ليست شيئاً يجعلنا نضع مشاريع بعيدة المدى، بل هي ما يسمح لنا بأن ننجز على الفور، بقوّة الحلم، والخيال أجزاءً من هذه المشاريع. وبفضل هذه الحيويّة، ولأنّنا كنا منظّمين ضمن مجموعات في «غرابوس»، تمكّنّا من مقاومة نقص المال والاستغلال كما العصبيّة الشلليّة، ومن أن نفعل ما يحلو لنا في جوٍّ من الرفقة التامّة، والأخوّة المناضلة.

من المُلحّ أن نأخذ وقتنا

ليس التاريخ كمّاً من الأخبار المتفرّقة. فالثورة الفرنسيّة لم تنتهِ. و«كومونة باريس» لم ينتهِ، العام ١٩٦٨ لم ينته ولا النضالات الكبرى لعام ١٩٩٥ انتهت. لا ينتهي أيّ شيءٍ أبداً. في لحظةٍ معيّنة، تبرز حركة ما ومُثُلٌ عُليا، وتُبنى الاحتمالات على النّضالات التي لم تتحقّق بعد. ليس الأمر وكأنّ ذلك كلّه انتهى. فالأشياء في حركةٍ دائمة، وهي ليست متجسّدة في حدَثٍ واحد. لقد رمَوا لنا بثقافة الفوريّة، وثقافة النتيجة، لكنّ المسيرة، وجَودتها، هي في الواقع تعليمٌ وتربيةٌ. تنتقل المعرفة من خلال مسيرة، لا من خلال سحر حدث.

عندما نفكّر في الأمر، نجد ما يستدعي الندَم على هذا التخطيط الدماغيّ المسطّح، هذا الخطّ المستقيم المفتقِد إلى الذبذبة والذي نعرفه اليوم. وهي طريقة لئلّا نفعل أيّ شيءٍ آخر سوى إدارة هذه المحنة. بيد أنّ عام ٦٨ لم يقتصر على إدارة المحنة والمقاومة وحسب، تمحور أيضاً على الابتكار، وعلى النّضال في سبيل تحقيق السعادة المرجوّة. نلاحظ بوضوح الشعارات الشاعريّة والممتعة والمسليّة. إنّها تفتح أمامنا أفقاً من الإمكانات، وتنشئ خيالاً اجتماعيّاً. وهذا ضروريّ جدّاً، فيما التّخييل السياسيّ للحركات الاجتماعيّة في يومنا هذا، لا يتمثّل بأكثر من مقاومة المِحَن. لم يعد أحدٌ يجرؤ على التصدّي لتحدّي المطالبة بالسعادة. لم يعد الأمر يتعلّق بتضميد الجراح وحسب، بل يستلزم أيضاً تحسين جودة ما كان رديئاً بالأصل. وابتكار ما هو جديد!

في السنوات الأولى لـ«غرابوس»، بعيد عام ١٩٦٨، كان المناضلون في الحقل السياسيّ أو النقابي يخشون التعابير التي يعتقدون أنّهم عاجزون عن السيطرة عليها لأنّها عائمة! لم يكن ينبغي أن تكون التعابير عائمةً بل ينبغي أن يكون المعنى راسخاً جدّاً، قد رأيناه وعرفناه من قبل، بالتّالي مألوفاً ومملّاً. غالباً جدّاً تحصل خيانة فكرة جديدة بسبب تعابير قديمة رديئة. كانت تلك معركة كبرى، كان لا بدّ من استعادة متعة التعبير عن فكرٍ سعيد، وعدم تحويل فكرٍ تقدّميّ إلى شكلٍ أكاديميّ مملّ. ذلك أنّه بحجّة إفهام الفكرة بشكلٍ أفضل، ينبغي أن نجعلها بلا إثارة للاهتمام، تستحيل مشاركتها. الأكيد أنّه، عندما تتحرّر الكلمة، عندما نستعيدها، تطغى الصيغُ السعيدة وتتجاوز على الفور الحماقات الصغيرة المحتملة. عندما ينكبّ الجميع على ذلك، تتضافر الجهود، فيحدث غليانٌ وتغمرك الرغبة في الانطلاق والتقدّم.

ما الذي يجعل المسؤولين الذين يَنعمون اليوم ببعض السلطة داخل الأحزاب والنقابات والمدن يزرعون الملل في ممارساتٍ هي رغم ذلك سخيّة وتضامنيّة؟ هل يخشون مواجهة صراع قد ينتج منه شيءٌ جديد إلى حدٍّ ما؟ يُواجهوننا بحجّة نقص الموارد، طبعاً، لكنّها في معظم الأحيان حجّةٌ واهية. يمكننا دائماً أن نعمل من خلال تدوين شيءٍ ما على قصاصة ورقٍ بيدنا - وهذا ما أثبته لنا عام ١٩٦٨. لكننا دخلنا في نظام للتواصل من أغبى الانظمة على الإطلاق. التواصل يجتاح الجماعة. ما ينبغي أن نتشاركه هو الرغبة في التحوّل. الإعلام هو بمثابة تدريب!لا يتعلّق الأمر بالمعرفة وحسب، فإن كانت المعرفة مملّة، فما من فرصة أبداً في مشاركتها.

إشعارٌ بحلم

بعد عام ١٩٦٨ عاد الواقع الاقتصاديّ والثقافيّ الاجتماعيّ إلى الواجهة مع دعوةٍ إلى مراعاة البيئة، إن أردنا التحدّث كعلماء الاجتماع. وقد غطّت قوانين الأصول العائليّة والاجتماعيّة بسرعة على الاكتشافات الثوريّة. دخل الكثيرون إلى أوساطنا في سبيل إيجاد عملٍ أو عقد زواج جميل. بيد أنّ ذلك الإضراب العامّ المذهل والتضامن بين الطلّاب والعمّال هما مصدر لتحو!لات مستقبليّة. وبفضل معهد البيئة، ثمّ «غرابوس»، و«جمعيّة يرجى عدم الطوي»، تمكّنّا من العمل ضمن أشكالٍ من التضامن الجماعيّ. وتجنّبت بلا شكّ ما حدث للبعض الذين انتقلوا من فترةٍ البهجة الغامرة إلى فترةٍ من الكآبة. أنا لم أندم على شيءٍ مطلقاً. لم أستمدّ إلّا ما هو جيّد من عام ١٩٦٨، والأفضل أن يبقى لي منه.

❖ ♣
حرروا التعبير

❖ ❖
يا اساتذة الجامعات
انكم تصيبوننا
بالشيخوخة المبكرة

❖ ♣
ماذا لو أحرقنا
جامعة السوربون؟

❖ ❖
مات الفن
لا تستهلكوا جثته

❖ ❖
ستسعد البشرية
يوماً ما يشنق آخر
بيروقراطي بمصارين
آخر رأسمالي


LIBEREZ
L'EXPRESSION

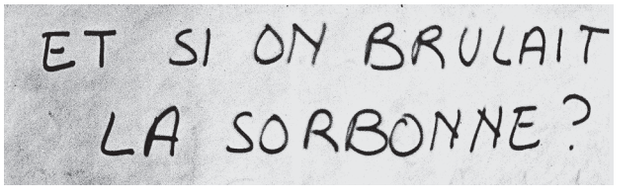
ET SI ON BRULAIT
LA SORBONNE ?

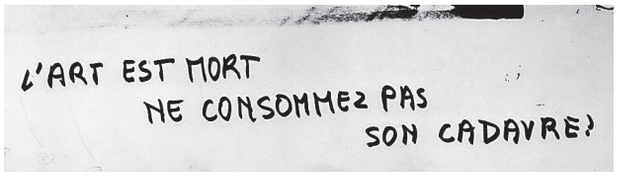
L'ART EST MORT
NE CONSOMMEZ PAS
SON CADAVRE?

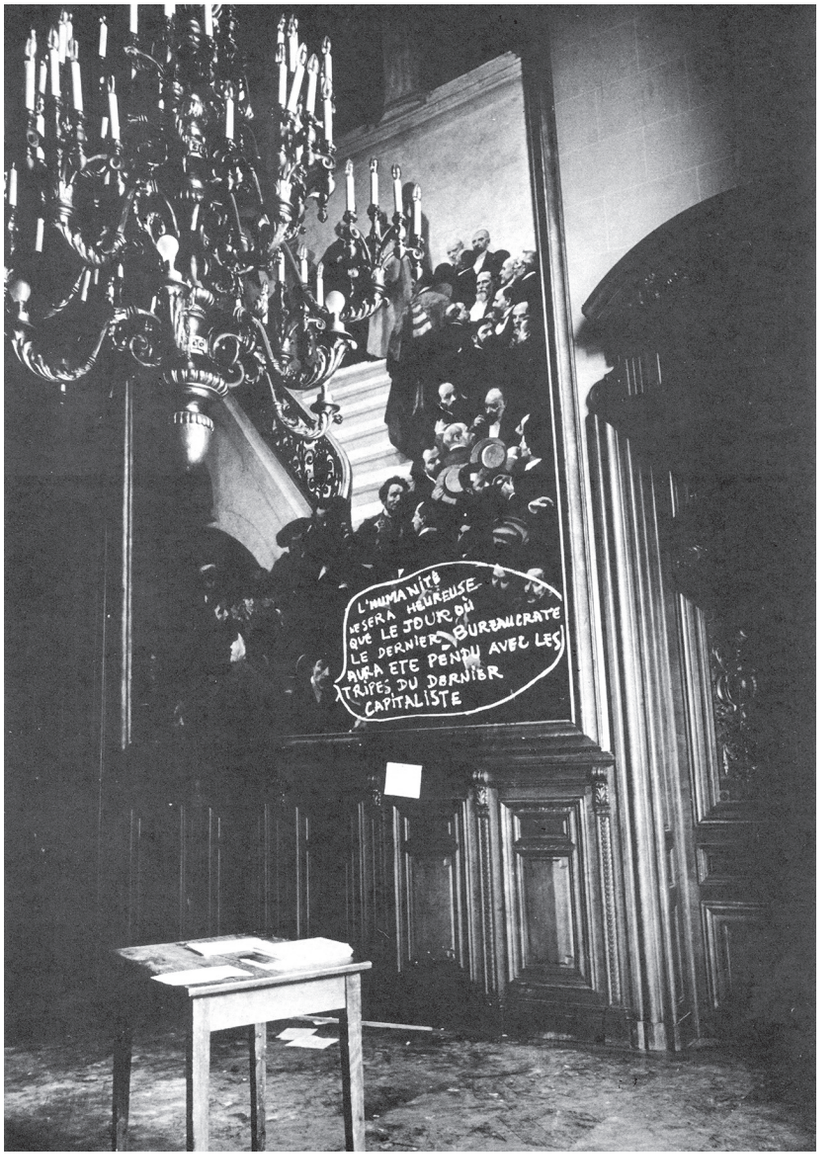
L'HUMANITÉ
NESERA HEUREUSE
QUE LE JOUR OÙ
LE DERNIER BURBEAUCRATE
AURA ETE PENDU AVEC LES
TRIPES DU DERNIER
CAPITALISTE

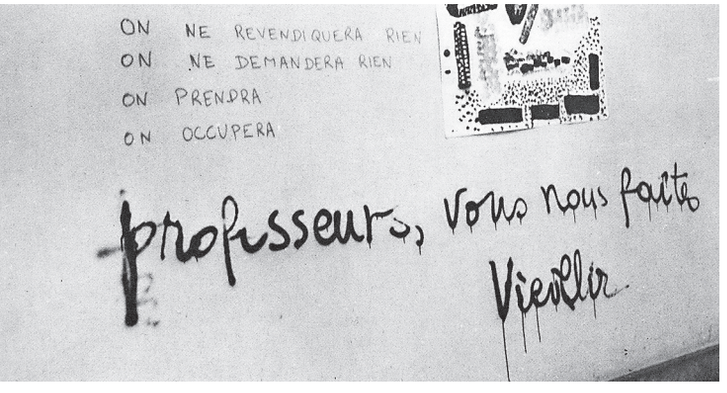
ON NE REVENDIQUERA RIEN
ON NE DEMANDERA RIEN
ON PRENDRA
ON OCCUPERA
professeurs, vous nous faites
Vieillir



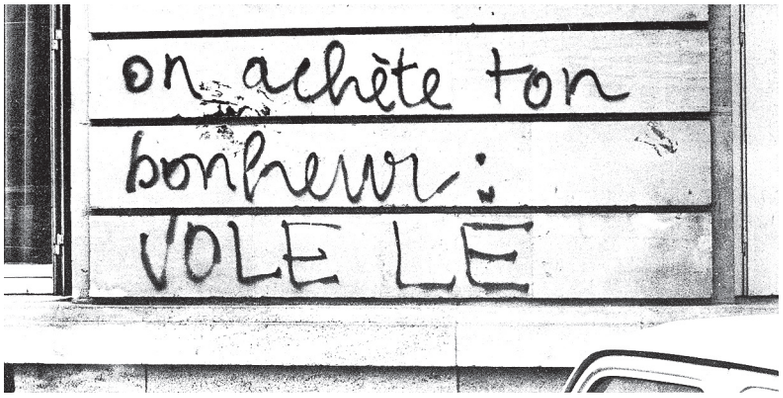

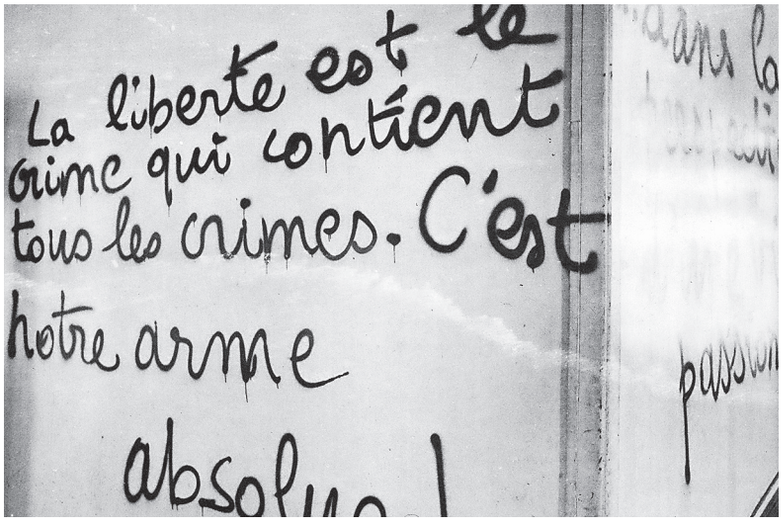



❖ ❖
يشترون سعادتك
فاسرقها

❖ ❖
الحرية هي الجريمة التي
تحتوي كل الجرائم.
هي سلاحنا المطلق!

❖ ❖
مُدنية
نظافة
جنسانية

❖
أعتبر احلامي واقعاً
لأنني أؤمن
بواقعية أحلامي

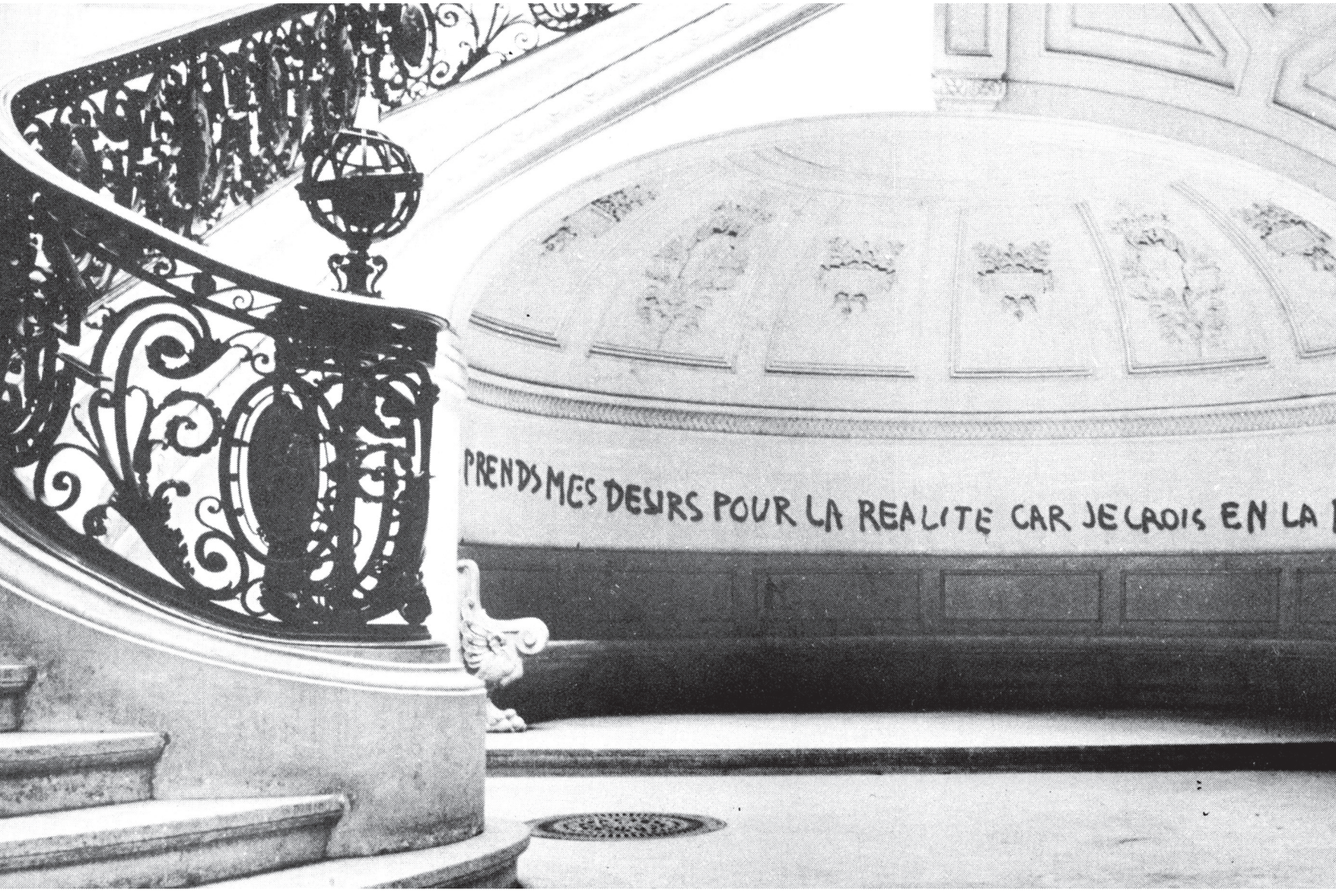
PRENDS MES DESIRS POUR LA REALITE CAR JE CROIS EN LA



ايار ١٩٦٨

ملصقات طبع
حرير من «الحترف
الشعبي» ومحترف
«آرت ديكو»
تعود للعام ١٩٦٨
من مجموعة
جان - بول أشار

١. لا

٢. من اجل تعليم
في خدمة الشعب
لا للجامعة الطبقية

٣. إعلام حر

٤. أيها
البرجوازيون لم
تفهموا شيئاً

٥. الحدود = قمع

٦. الفن بخدمة
الشعب

الصورة في
الخلفية: كن قاسياً






INFORMATION LIBRE
FRONTIÈRES
RÉPRESSION
BOURGEOIS
VOUS
N'AVEZ
RIEN COMPRIS
L'ART
AU SERVICE
DU PEUPLE



١

٢

٣

١٩٦٨ أيار

١. لا تسمحوا باستغلالكم

٢. اكملوا الصراع فالرأسمالية تهوي

٣. أوقفوا البطالة

٤. العمال سوف ينتصرون

٥. في ظل الرأسمالية: تغيير الادارة غير مفيد حتما يجب اسقاط النظام

٦. اذا رميتم الطلاب في الشارع، سيبقون هناك

٧. صحف: لا تبتلع

٨. هل نحن فضلات؟

الصورة في الخلفية: استهلكوا أكثر تعيشون أقل


PRESSE
NE PAS AVALER
SI VOUS JETEZ les ETUDIANTS DANS LA RUE
RESIDENCE NANTERRE
FERMÉ
ILS Y RESTERONT
TOUS AU MEETING merc. 11
15H devant Restau. Universit. NANTERRE
LES TRAVAILLEURS
VAINCRONT
Consommez plus
CHANGER DE GERANT NE SERTÀ RIEN
CAPITALISME
DE GAULLE
POMPIDOU
C'EST LE SYSTÉME QU'IL FAUT ABATTRE
COMITÉ D'ACTION 15e
SOMMES-NOUS DE TROP DANS NOTRE QUARTIER?



١. الجمال في الشارع

٢. كن شاباً واصمت

٣. تحت ال٢١ سنة
هذه ورقة اقتراعكم

٤. (ديغول)
هو الفوضى

٥. كل ليلة عند
الثامنة مساءً،
تتكلّم معكم الشرطة

٤


MOINS
DE
21ANS
voici votre
bulletin de
VOTE

٢


SOIS
JEUNE
ET
TAIS
TOI
ATELIER POPULAIRE
EX-ECOLE DES
BEAUX-ARTS

٥


LA POLICE VOUS PARLE
tous les soirs
à 20h.
ORTF

٣


LA CHIENLIT
C'EST LUI !



١



٢

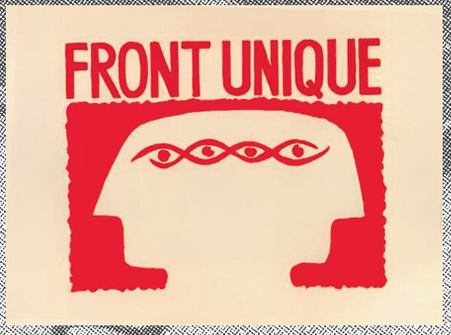

٣



١. عندما
يدلي الأهل
باصواتهم الاولاد
يدففعون الثمن

٢. جبهة واحدة

٣. بانت الشرطة
في كلية
الفنون الجميلة
فبانت كلية
الفنون الجميلة
في الشارع

٤. شباب قلق دائماً
على المستقبل

٥. اعلان حر

٦. العمال
الفرنسيون
والعمال المهجارون
متحدون

٧. الثورة ضرورية

الصورة في
الخلفية: اختبئ
ايها الشيي!
انحني وارعى


une jeunesse que l'avenir inquiète trop souvent
TRAVAILLEURS FRANCAIS IMMIGRES TOUS UNIS
A TRAVAIL EGAL SALAIRE EGAL
A LAVORO UGUALE SALARIO UGUALE
A TRABAJO IGUAL SALARIO IGUAL
ΙΔΙΑ ΔΟΥΛΕΙΑ ΙΔΙΑ ΠΛΗΡΩΜΗ
A TRABALHO IGUAL SALARIO IGUAL
KAKAV UČINAK TAKVA ZARADA
لأعمال مساوية أرباح مساوية
INFORMATION LIBRE
REVOLUTION ESSENTIELLE



١. الكلام لنا

٢. نحن الأقوى

٣. جامعات في خدمة الرأسماليين: فلتسقط

٤. نعم لاحتلال المصانع

٥. انا اشارك انت تشارك هو يشارك نحن نشارك انتم تشاركون وهم يستفيدون

٦. من اجل تعليم في خدمة الشعب

٧. كي تبقى الأجور متدنية الرأسمالية بحاجة للبطالة

٨. ايها العمال! تضامن مع اخوانك العمال والطلبة

الصورة في الخلفية: ممنوع المنع


POUR MAINTENIR LES BAS SALAIRES
LE CAPITALISME A BESOIN DU CHOMAGE
ATELIER POPULAIRE MARSEILLE
COMITE D'ACTION ETUDIANTS.TRAVAILLEURS
je participe
tu participes
il participe
nous participons
vous participez
ils profitent
PAYSAN!
SOLIDAIRE DE TES FILS OUVRIERS ETUDIANTS
pour un ENSEIGNEMENT
au service du PEUPLE

١



٢



١. الف ليلة وليلة
لحجارة الرصيف

٢. القوة للشعب

٣. ضد الاتجاهات
الممنوعة، طرقات
تفتح الاحتمالات

٤. فلندع الخوف من
الاحمر للوحوش ذات
القرون

٥. انتم الفن

٣

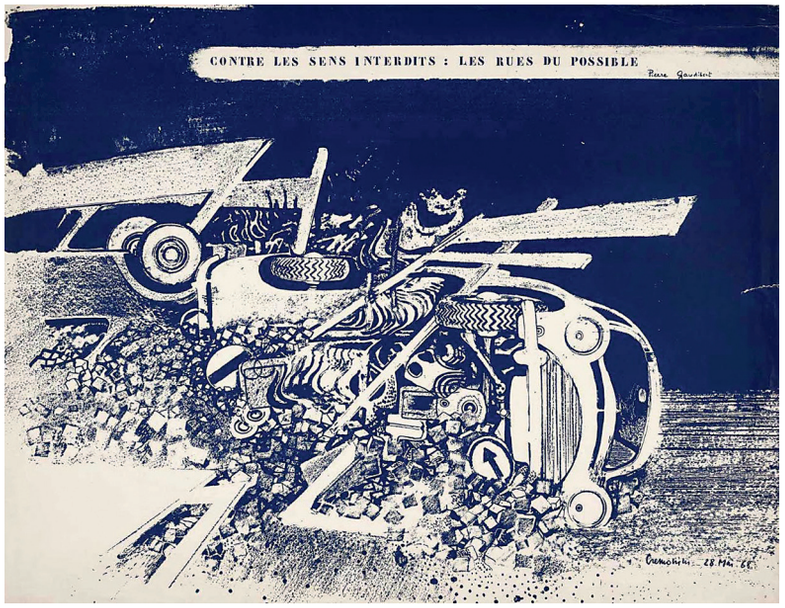
CONTRE LES SENS INTERDITS : LES RUES DU POSSIBLE

٤


LAISSONS LA PEUR DU ROUGE
AUX BETES A CORNES

٥


l'art
c'est
VOUS

٢



١

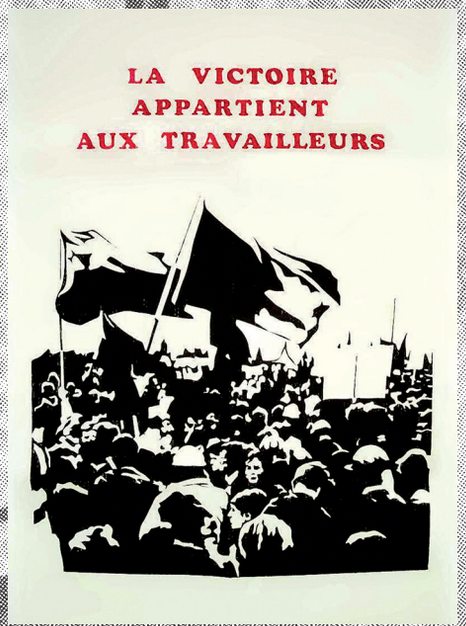

١. النصر للعمال

٢. يحيا احتلال المصانع

٣. اقترعوا كل مرّة، وانا اهتم بالباقي

٤. الوحدة بين المزارعين والعمال

٥. النضال مستمر

٦. ايار ٦٨ بداية نضال ممتد...

٧. كل الصحافة سامة اقرؤا البيانات والملصاقات وجرائد الحائط

٣



الصورة في الخلفية:
الاعلانات تتحكم بكم

manipul


MAI 68
DEBUT
D'UNE LUTTE
PROLONGEE
unité
ouvriers
paysans
TOUTE LA PRESSE
EST
TOXIQUE
lisez : les tracts
les affiches
le Journal mural
LA LUTTE CONTINUE

الصور في الصفحات ٢٠٦ و٢٠٧ و٢٠٨ و٢٠٩ هي لمارسيلو برودسكي من ضمن عمله «١٩٦٨: نار الأفكار» وهو واحد من أهم الأسماء في الساحة الأرجنتينية المعاصرة. الفنان التشكيلي والناشط في مجال حقوق الإنسان، نفي من الأرجنتين في العام ١٩٧٦ بعد انقلاب الجنرال فيديلا وعاش لفترة في مدينة برشلونة الإسبانية. في عمله هذا يستخدم برودسكي صوراً مدهشة من اللحظات الفاصلة في التاريخ عن تظاهرات الطلاب والعمال في أواخر الستينيات منها تظاهرات ضد حرب فيتنام في برلين ولندن وأمستردام وشيكاغو وطوكيو. كذلك حملات الطلاب ضد الأنظمة العسكرية والدكتاتورية في البرازيل والمكسيك والأرجنتين وفرنسا والسنغال وموزمبيق ولبنان والبرتغال. يكشف برودسكي عن اللحظات الحاسمة في تاريخ العالم وكيف أثرت عواقبها على مفهومنا للمجتمع.



Der Polizeichef von Saigon, der südvietnamesische General NGUYEN NGOC LOAN, erschießt am 1. Februar 1968 in den Straßen Saigons den VietKong-Gefangenen NGUYEN VAN LEM, auch unter dem Namen BAY LOP bekannt.
Diese Plakatwandreproduzierte wenige Monate später das Foto der Exekution des AP-Fotografen Eddie Adams in den Straßen der westdeutschen Stadt Bonn.

Die deutsche Bewegung gegen die Notstandsgesetze und den Vietnamkrieg war in den meisten deutschen Großstädten aktiv. Diese Demonstration in Bonn, der damaligen westdeutschen Hauptstadt, fand am 11 Mai 1968 statt. Die Reproduktion des von Eddie Adams, einem der Ikonen des Vietnamkrieges, aufgenommenen Fotos der Exekution wurde nur 3 Monate nach der Hinrichtung in eine Plakatwand verwandelt. Das 1933 verabschiedete Ermächtigungsgesetz ermöglichte den Nazis die absolute Kontrolle über den Staat und war der Anfang vom Ende jeglichen Formen von demokratischem Dissens. Foto von Interfoto/Adsky. 1968 Das Feuer der Ideen.



Studentenführer Rudi Dutschke (links) vor den demonstrierenden Studenten während einer Demonstration gegen den Vietnamkrieg und die Notstandsgesetze der deutschen Regierung im Februar 1968. Dutschke war maßgeblich an der außerparlamentarischen Opposition (APO) beteiligt. Nur 2 Monate später schießt der rechtsradikale Terrorist Josef B. Rudi Dutschke in den Kopf. Er überlebt den Anschlag, stirbt aber an den Folgen der Verletzung im Dezember 1979 in Aarhus, Dänemark, im Alter von 38 Jahren. Foto von Wolfgang Kunz, Adsky. 1968 Das Feuer der Ideen, Marcelo Brodsky.



O 17 de Abril de 1969 a comitiva do Presidente Tomás chegava a Pau D. Dinis de Coimbra para a inauguração do novo edifício de Matemáticas. A comitiva era precedida de um desfile militar. Povo e estudantes empunharam cartazes de protesto frente ao desfile dos soldados do exército. Fotos de Fernando Marques, Varela Pé Curto e Carlos Ramos. Secção Fotográfica. Biblioteca Geral. Universidade de Coimbra. Marcel Bredsky 1/7



The larger banner at the back says "Bangla artists and artisans committee for Struggle". Artists played a very important role in the lead up to the war of liberation, both as artists and as activists and organisers. Many of the people in the photograph went on to become respected freedom fighters.

The woman on the left in the front row (holding the first letter Sha, of Shadinata), Sayeeda Kamal is an artist who had her first solo exhibitions of water colours at the Drik Gallery in Dhaka. She was a nurse at a makeshift hospital for the guerrilla fighters. Narration by Shahidul Alam. 1968 the Fire of Ideas 1/7 M.Bredsky

Outraged artists hold placards bearing the Bangla letters Sha Dhi Na Ta (Independence) protesting the postponement of the opening of the National Assembly by President Yahya Khan on March 1st, 1971. Bangladesh became independent on March 26th, 1971. Photo: Rashid Talukder/Drik Picture Agency



Após a revolução dos Cravos em Portugal, o povo angolano começou a se manifestar exigindo a luta pela independência total do país. A população de Luanda, concentrada no Largo de Fronte ao Palácio do Governo Colonial, se concentra para reclamar a independência total e completa, após a longa guerra (1961-1974) contra o regime colonial. No 11 de novembro de 1975 assinam se o tratado de Alvor que reconheceu a Angola independente. Foto: Carlos Guimarães. Angola 1974.

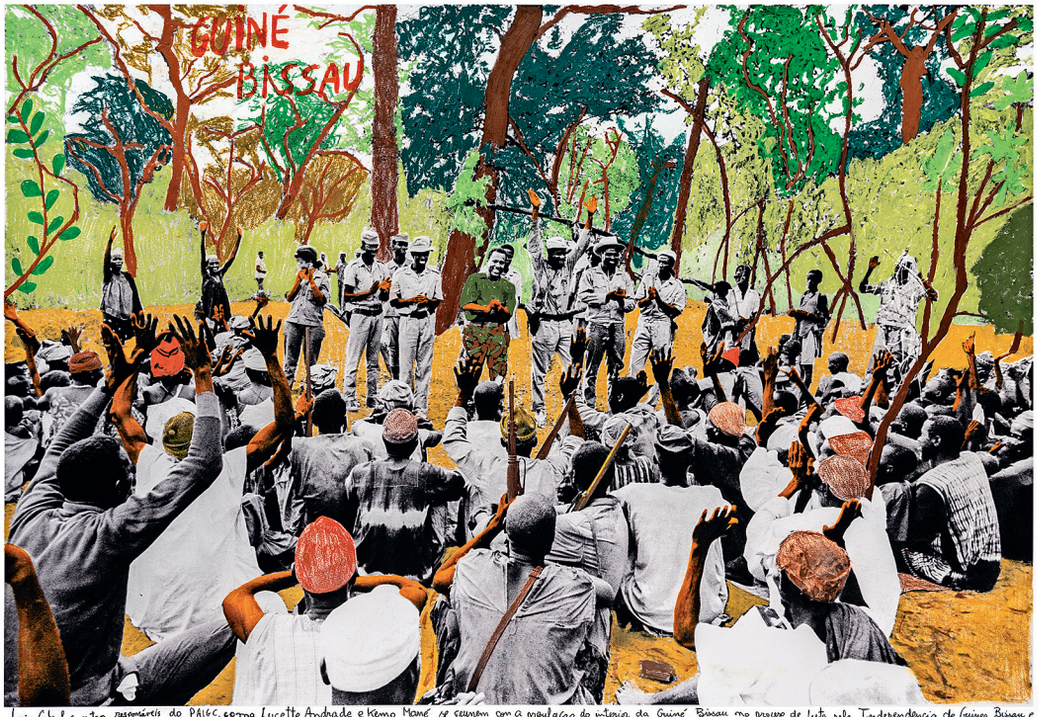

Luis Cabral e outros responsáveis do PAIGC, como Lucette Andrade e Kemo Mané se reunem com a população do interior da Guiné Bissau no processo de luta pela Independência da Guiné Bissau e Cabo Verde. Amilcar Cabral, fundador do Partido Africano para la Independencia de Guiné y Cabo Verde foi morto pelo serviço português de espionagem no dia 20 de fevereiro de 1973, quando a vitória da independência já era iminente. Foto: Gilles Caron. Arquivo Amilcar Cabral. Fundação Mário Soares, Lisboa

TUNIS
تونس

LEBANON
لبنان

EGYPT
مصر

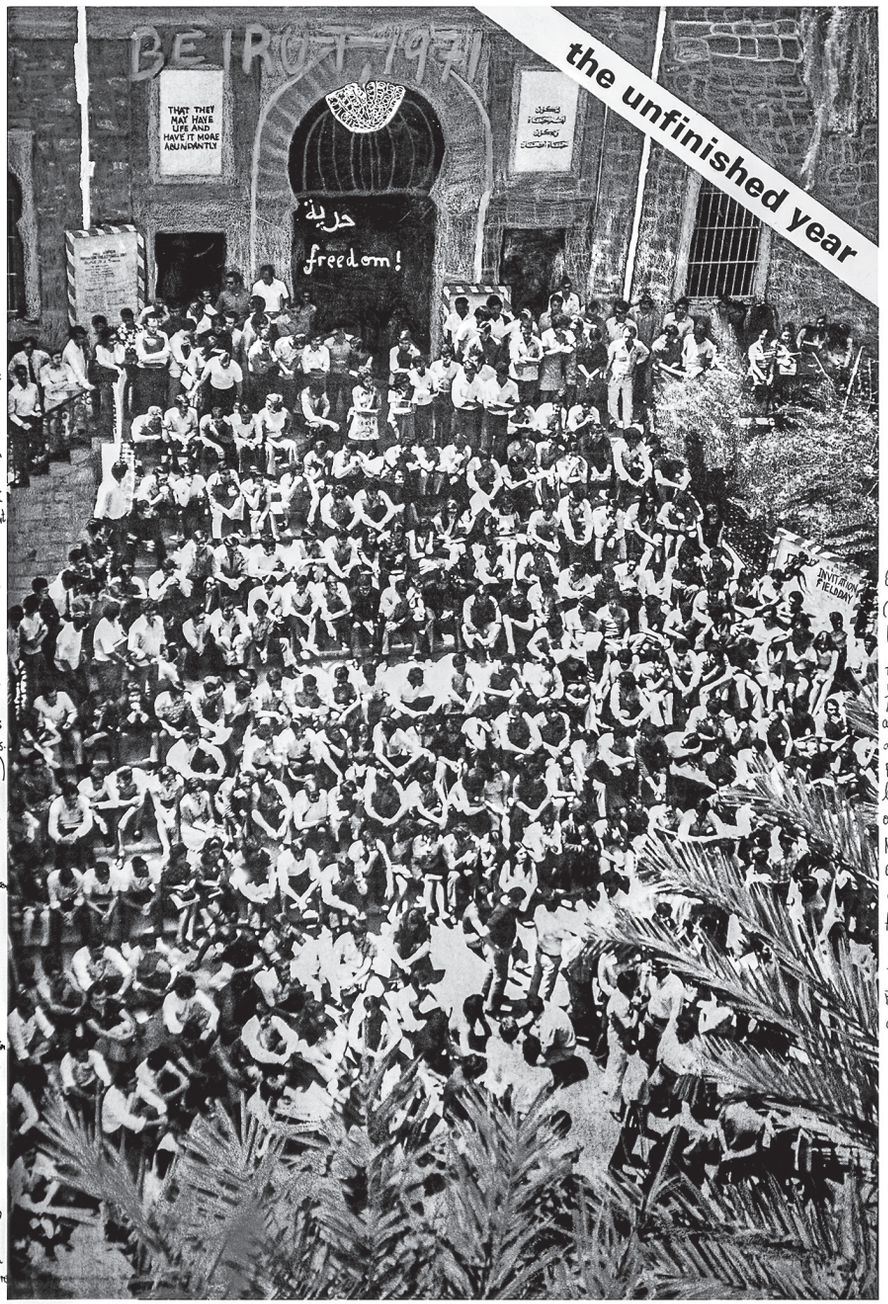

the unfinished year

TUNIS 1968

The build up to the March 68 protests occured on the eve of the celebration of the National Independence day on March 20th. The movement of solidarity with Viet Nam extended after the call of Dr Slimane Ben Slimane. The commitee organized a rally to protest the visit of the U.S. Vice President Hubert Humphrey and the South Vietnamese Minister of foreign affairs. Meanwhile the Committee for the liberation of political prisoner Ben Jannet gathered support among the students. The activist group Perspectives called for resistance and a crowd of 2000 students gathered in the Faculté des Lettres and spread to neighboring schools. (from Barleigh Hendrickson)

Le 6 Juin 1967 le militant Ahmed Ben Jannet est arrêté et condamné à 20 ans de travaux forcés par le Tribunal Militaire de Tunis. La contestation s'amplifie et le mouvement réussit à rallier la colère populaire. Ils militent pour une société moderniste, l'instauration d'un Etat démocratique où les libertés seraient défendues, le pluralisme garanti, l'emancipation de la femme et la diffusion de l'enseignement. Ainsi le mouvement s'inscrit-elle dans la sillage des plusieurs épisodes contestataires. Au lieu d'écouter les revendications du peuple, le régime de Bourguiba a répondu par le déploiement d'un appareil répressif (du texte tortuel et douloureux est le chemin de la démocratie, par l'écrivain tunisienne Tounes Thabet)

Neither the national Archives of Tunis Nor the "Centre de Documentation Nationale" keep ANY IMAGES of the popular uprising of March 1968 in Tunis. The Intelligence Service banned all images for 60 years.

CAIRO 1968

The spark was a strike called on February 21st, 1968 by workers in Helwan. The action continued as students from all of Cairo's Universities and other workers joined. The demands sent out by the students at the Engineering Faculty (Polytechnic of Cairo University called for the establishment of freedom of Expression and of the Press, a truly representative parliament and new laws allowing political organization.
No images of the action can be found online or in Egyptian sources, they seem to have vanished.
The text comes from Betty Anderson's book as summarized by Jadaliyya. Her service is the book on the student movement in Egypt by Ahmad Abdalla, a prominent Human Rights Activist who heads the Egyptian Commission for Rights and Freedoms, who was arrested on April 25th, 2016 and released on September 10th, 2016 by decision of the Criminal Court of Cairo.

Students assembling at the front door of the American University of Beirut, Lebanon, in May 1971. A collective strike was called by the Commutee for Academic freedom in March 1968. The movement supported professor Sadiq Al-Azm whose contract was cancelled by the Academic authorities of the AUB. The role students should play in society and the need to "make people more conscientious and to awaken them" was the initial step which was later extended to social and political demands.
Photo from the Archives and Special Collections of the Library of the A.U.B. as published in the 1971 issue of Outlook magazine.

1968 the Fire of Ideas, 1/7. Marcel Brodsky



❖

طلاب ومتظاهرون
يواجهون الشرطة
في السادس من
أيار / مايو ١٩٦٨.
الصورة لجاك ماري من
وكالة الصحافة الفرنسية


C.G.T.
F.S.M
LIBERTÉ SYNDICALE
C.G.T
Syndicale
BATIMENT
Val d'Oise






EN GRÈVE
ILLIMITÉE

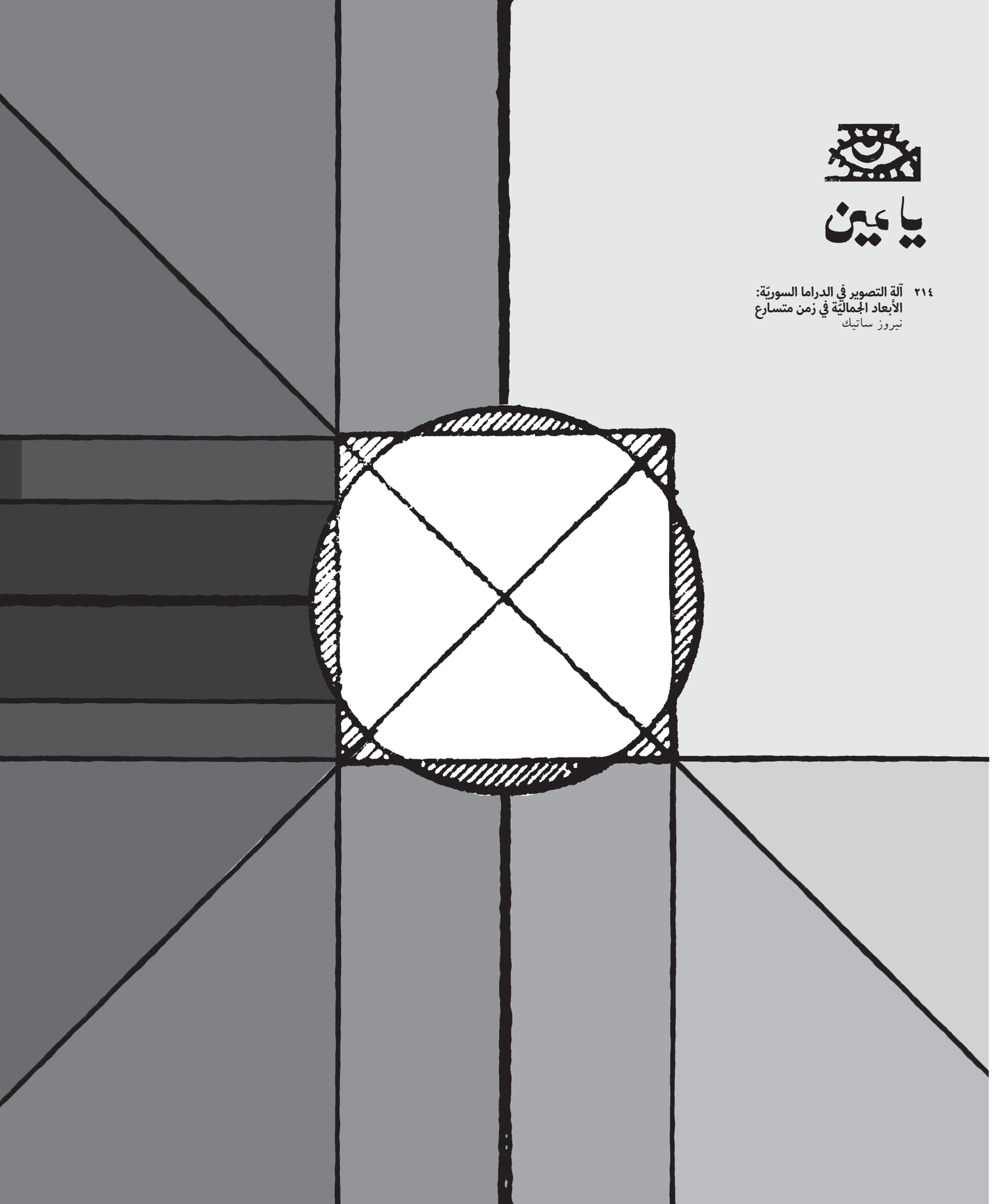

يا مين

٢١٤ آلة التصوير في الدراما السوريّة:
الأبعاد الجماليّة في زمن متسارع
نيروز ساتيك

آلة التصوير في الدراما السوريّة:
الأبعاد الجماليّة في زمن متسارع

نيروز ساتيك

باحث سوري في قضايا سوسيولوجيّة المجتمع السوريّ. حاصل على ماجستير في علم الاجتماع والإنتربولوجيا من معهد الدوحة للدّراسات العليا.

مقدّمة

بنت النظريّة النقديّة أفكارها على نقد الحداثة الغربيّة بمدارسها واتّجاهاتها المختلفة، لكن مدرسة «فرانكفورت» تميّزت بجذريّتها في نقد وتوصيف الواقع الاجتماعيّ المشيّأ للإنسان، وطرحتْ أسئلة حول إمكانيّة تحقيق التغيير والتحرّر الاجتماعيّ. اكتفى ماكس هوركايمر في كتابه «النظريّة التقليديّة والنظريّة النقديّة» بنقاش ذلك نظريّاً[١]، لكنّه لم يكشف عن الكيفيّة التي تنقلنا من التّنظير الإيديولوجيّ إلى الفعل الجماعيّ المتحرّر. وهو ما حاول الإجابة عنه مع زملائه في مدرسة فرانكفورت من الجيل الأوّل (ثيودور أدورنو وهربرت ماركوز)، لكنّهم تباينوا في الإجابة على ذلك. فقد رأى ماركوز أن عمليّة تغيير بنية المجتمع القائم والماثل، تكون بالبحث عن بديل ثوريّ أو بالأحرى قوى سوسيولوجيّة جديدة لم تلج بعد في مؤسّسات المجتمع القائم، وهي القوى الهامشيّة في المجتمع التي لم يتمّ استقطابها وإدماجها، كالمنبوذين، والعاطلين من العمل، وأضاف إليهم ماركوز الشّباب والطّلبة الذين تشتعل جوّانيّتهم رفضاً ومعارضة، علماً بأنّ هربرت ماركوز يعتقد بأنّ البروليتاريا أصبحت غير قادرة بتاتاً على تغيير الوضع الماثل[٢]. لكنّ الاشتغال النظريّ للتّغيير الاجتماعيّ لمدرسة فرانكفورت، ارتكز على نقاش دور الفنّ في تغيير الواقع الإنسانيّ المشيّأ في زمن الحداثة الغربيّة. لم ير ماركوز وزميله أدورنو إلى إمكانيّة تحقيق هذا التّغيير إلّا عن طريق البُعد الجماليّ الإستطيقيّ والفنّيّ، لأنّ الجماليّة هي عبارة عن عمليّة احتجاج ورفْض كلّياني لسطوة العقلانيّة الأداتيّة، فالفنّ صار هو الملاذ الوحيد لضياع الإنسان المعاصر، وفيه يمكن إحقاق عالم إنسانيّ مهيب، فالرّوايات الأدبيّة مثلاً خير براديغم ينتهج للتّغيير في المجتمع[٣]، وذلك على الرّغم من اعتقادهما بأنّ الفنّ أيضاً أصبح خاضعاً لهيمنة العقليّة الأداتيّة كذلك بدرجاتٍ متفاوتة[٤].

وفي ذات السّياق لم يخرج والتر بنجامين عن هذا التّوجّه لمدرسة فرانكفورت، والذي نقم أيضاً كثيراً على تقدم الدّولة الرأسماليّة المعاصرة وقدرتها الكبيرة في السّيطرة على الحشود، ممّا جعل العمل الفنّيّ ينخرط في خدمة السّياسة العامّة للدّولة والنّظام الحاكم. وتأتي السّينما على رأس هذه الفنون، ولا يحتاج هذا الأمر إلى برهنة كبيرة لأنّه حينما طرح سؤال لفائدة من يسير نمط الإنتاج السينمائيّ على هذا النّحو، لم تعسر عليه الإجابة، بأنّها ليست لمصلحة الطّبقات المضطهَدة وعامّة الجماهير[٥]. لكنْ على الرّغم من ذلك بقيت نظرتُه أكثر تفاؤليّة وتقدّماً من وجهة زميله في المدرسة أدورنو، حيث يعتقد بنجامين بأنّ صار من الممكن إنتاج الأعمال الفنّيّة إنتاجاً جماهيريّاً ضخماً مع تطوّر التّكنولوجيا، إلّا أنّ معنى الفنّ هو الذي تغيّر بمرور الزّمن في عصر إعادة الإنتاج الآليّة الحديثة[٦]. فكثيراً ما وُجدتْ ردود فعلٍ سلبيّة على أعمال بيكاسّو للّوحات المجزّأة المشظّاة، لكنّ التردّي البصريّ في أفلام تشارلي شابلن اعتُبر تقدّميّاً وثقافيّاً. أي أنّ إعادة إنتاج الأشياء، بما في ذلك الأعمال الفنيّة، قد كان لها أثرٌ على الإدراك، وجعلتنا نقبل زواليّة الأشياء وانتقالها، أو حالتَها العابرة[٧].

تحاول هذه الدّراسة تأويل التّعالق بين تاريخ آلة التّصوير والجماليّة في الدّراما السوريّة. ولذلك تطرح سؤالاً مركزيّاً هو: كيف أثّر التطوّر التكنولوجيّ في آلة التّصوير على الجماليّة في الدّراما التلفزيونيّة السوريّة؟ وتشتقّ عنه سؤالين فرعيّين هما:

- أولاً: كيف اختلفتْ نوعيّة الأعمال التلفزيونيّة الرّاهنة عن الأعمال القديمة؟

ثانياً: هل يمكن أن تنقل الدّراما السوريّة في تصويرها للوقائع الاجتماعيّة أصلانيّتها وجمالها الحقيقي؟

يتشكّل مجتمع الدّراسة من المصوّرين والمخرجين العاملين في الدّراما السوريّة وشركات إنتاج آلات التّصوير. في ستّينيّات القرن الماضي، خضع المصوّرون لدوراتٍ تدريبيّة على أيدي مصوّرين مصريّين أو مصوّرين سوريّين سينمائيّين. بعدها أوفدت الحكومة السوريّة بعثاتٍ لتعلم تقنيّات التّصوير في الاتّحاد السوفياتّي ودول أوروبا الشرقيّة. ووصلتْ أوّل دفعةٍ من المصوّرين من تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٧٧، لكنّ البعثات التعليميّة توقّفتْ بعد منتصف الثمانينيّات. استورد التلفزيون السوريّ معدّات التّصوير من الدّول الأوروبيّة خصوصاً ألمانيا وهولندا، وفي نهاية الثمانينيّات، بدأ باستيرادها من اليابان وبخاصّة من شركتي سوني وباناسونيك.

ستعتمد الدّراسة في أسلوب جمع بياناتها على عيّنة من الأعمال التلفزيونيّة السوريّة في فترات زمنيّةٍ مختلفةٍ وتقارن الجودة فيما بينها، إضافةً إلى مجموعةٍ من المقابلات مع مصوّرين ومخرجين سوريّين. اختيرت آلة التّصوير في الدّراما السوريّة لأنّها توصلني للفنّ وفهم دوره في إطار مدرسة فرانكفورت والتي تركز إلى حدٍّ كبير على الفنّ

نجد صاحب آلة التصوير الحاذق يستطيع بصورة واحدة أن يضفي المعنى على العالم والوجود.

وتتباين آراء مفكّريها حول دوره في التّغيير الثوريّ.

نختار في هذه الدّراسة، للبحث عن معلوماتٍ للنّصّ، عيّنةً من المسلسلات السوريّة أُنتجتْ في أزمنةٍ مختلفة، تراعي ما هو المطلوب تحليله ونقاشه في الدّراسة. استقيتُ المعلومات من مسلسل «أسعد الورّاق» في نسختيه عام ١٩٧٥ - ٢٠١٠ للمقارنة بين جماليّة النسختين قبل تطوّر تقنيّات آلة التّصوير وبعده. كذلك سنرصد مسلسلاتٍ صَوّرت تحرّكاتٍ جماهيريّة قديمة وحديثة، للبحث عن قدرتها على التعبير ومحاكاة هذه التحرّكات الشعبيّة، وهي: «هجرة القلوب إلى القلوب» الذي أُنتج في عام ١٩٩١، ويرصد التغيّرات الاجتماعيّة والسياسيّة للفلّاحين في القرية السوريّة؛ «الولادة من الخاصرة: منبر الموتى»، الذي أُنتج في عام ٢٠١٣ وحاول أن يحاكي يوميّات الانتفاضة السوريّة في ٢٠١١؛ ومسلسل «غداً نلتقي» الذي عرض في عام ٢٠١٥، ويناقش يوميّات اللاجئين السوريّين في لبنان.

أوّلاً - تأصيل نظريّ لمفهومَي الأداة والجماليّة

سعى الإنسان إلى السيطرة على الطبيعة وترويضها، ولكي تتمّ عمليّة هيمنته على الطبيعة واستغلالها، تمّ تسخير التقنيّات التكنولوجية العالية وتوظيفها باعتبارها مجرّد أدواتٍ ووسائل استعماليّة يمكن توجيهها لما يخدم أغراض السّيطرة، غير أنّ تسخير الإنسان لهذا الأمر قد ترتّب عنه ظهور ظاهرة الهيمنة على الإنسان ذاته، وهو ما أطلقت عليه النظريّة النقديّة «الأداتيّة»[٨].

الأداة كمفهوم تقنيّ

إنّ الحديث عن الأداة ينحو بنا إلى اعتبارها الوسيلة التقنيّة التي تسمح لنا بأن نستخدمها بغية صنع مادّة ما أو إحقاق مهمّة ما. وقد يرُيد بها البعض إجراءً أو عمليّةً لتحقيق غرضٍ محدّد[٩]. ويمكن اعتبار الأداة من الأغراض التي يوجّه بها الإنسان الطبيعة ويحبكها، فقد كانت منذ القدَم الوسيلة المثلى لتحقيق المنافع للإنسان، وتمكينه من بسط سيطرته على الطّبيعة، إلّا أنّ هذه الأداة قد تتحوّر من الطّبيعة إلى الإنسان، فتتحوّل إلى وسيطٍ للسّيطرة والهيمنة على الإنسان ويصبح هو في حدّ ذاته أداةً في يد التكنولوجيا.

تُصوّر الفينومينولوجيا الأداة على أنّها صورة من التكشّف الماهويّ للكينونة، أو بالأحرى الكشف عن المرئيّ[١٠]، فصاحب الأداة هو الذي يجعل الأشياء تتكشّف، فمثلاً الفنّان أو صاحب آلة التصوير، بآلته يجعل الأشياء مرئيّة. يقول موريس ميرلوبونتي في كتابه المركزيّ العين والعقل: «تسكن العين المرئيّ كما يسكن الإنسان بيتاً»[١١]، ونفهم من ذلك أنّ الإنسان من خلال الأداة يعيد تشكيل علاقته مع العالم بالكشف عنه أو بالأحرى بالكشف عن ماهيّته، لهذا ركّز الفينومينولوجيّ موريس ميرولوبونتي على الرّسم كفنٍّ اقتدر بحقّ على السعي إلى الكشف عن الحقيقة باعتبارها تكْشف، فالصورة الموجودة في العالم شيء يختلف كلّيّاً عن الصورة نفسها المرسومة من طرف الفنّان. إذ يسعى الفنّان دوماً لإظهار الأشياء الموجودة ولكنّها غير مرئية، لهذا نجد صاحب آلة التّصوير الحاذق يستطيع بصورةٍ واحدة أن يضفي المعنى على العالم والوجود ويكون أقرب إلى الحقيقة. فمثلاً الذي يأخذ صورةً من مشهد حرب أو ثورة، يجعلها مرئيّة برغم أنّ

أناساً كثراً كانوا على مقربة منها، لكنّ المصوّر استطاع أن يكشفها للعالم من خلال الصورة، وبالتالي فالأداة هي نوعٌ من الانبجاس الذي يعطي معنىً للعالم ومعنىً لوجود الأشياء التي نلتقيها دوماً في حياتنا ولكنّنا في الحقيقة لا نراها حتى يأتي المصوّر أو الرّسّام أو الفنّان في السّينما ويرينا إيّاها ويجعلها مكشوفة. وباعتقادي أنّ الأداة أو ما تنتجه، لا يمكن أن تكشف عن الحقيقة وماهيّتها، ففي اللحظة التي يقوم بها الإنسان بالتدخّل لإنتاج الشّيء، لا بدّ من انشباكه بالمنتوج مباشرة بأفكاره وآرائه وأهوائه ومصالحه ورغباته وتصوّراته. ما يخرج منتوجاً ليس أصلانيّاً، بل هو مزيجٌ من العمل الإنسانيّ والمادّة الأوّليّة.

الجماليّة في الفنّ

تمنحنا الثّقافة كينونةً أكثر شموليّة واستيعاباً يوضّح بجلاء ما يخبو عن هويّتنا وكذلك خصوصيّتنا، هذا الكيان يتجذّر فينا في التّاريخ الأزليّ والرّاهن، المتواشج مع فكر الفرد والمنجرّ عن سلوكيّاته. ويعتبر الفنّ من التّمظهرات الكبرى التي يجسّد الثقافة في أبهى حلّةٍ لها، بحكم أنّ الفنّ هو شكلٌ من أرقى الصوَر المعبّرة عن الثّقافة في أبهى تمثّلاتها، والتّفكير في الفنّ هو في حقيقة الأمر تعبيرٌ عن الجماليّة، بحكم أنّ الرّاهن اليوم صار يتعلّق أكثر من أيّ وقت مضى بالجماليّة بحكم قدرتها البديعة على تصوير الواقع والتعبير عنه أصدق تعبير، هذا المصطلح أثير تداوله ابتداءً من النّصف الثاني من القرن الثامن عشر، وهو يقابل لفظ الإستطيقا والذي يكون موضوعه المركزيّ: الجميل في مقابل القبيح[١٢].

الأداة هي نوع من الانبجاس الذي يعطي معنى للعالم ومعنى لوجود الأشياء التي نلتقيها دوما في حياتنا ولكننا في الحقيقة لا نراها حتى يأتي المصور أو الرسام أو الفنان في السينما ويرينا إياها ويجعلها مكشوفة.

تكمن جماليّة الفنّ في قدرته على تمثيل واقع الإنسان تعبيراً قويّاً بنقل أجمل الصّوَر والتمثّلات التي تساهم في تكوين الصورة الثقافيّة للمجتمع. فجماليّة فنّ الرسم مثلاً تكمن في قدرة الفنّان على التّعبير عن تهجّمه ونقده لحالة اجتماعيّة معيّنة أو تعبيره عمّا يختلج في نفسه، أو تعبيره عن تقزّز الرّسّام من الحياة الاجتماعيّة الصعبة التي يعيشها ويعانيها مثلما كان الحال بالنّسبة إلى الرّسم كفنّ في الاتّحاد السوفياتيّ سابقاً ممّا ولّد نوعاً من الخوف من الفن والذي يقود إلى الرّقابة كما عبّر عن ذلك الباحث عرفات نعيم، وهذه بدورها تؤدّي إلى تقييد حرّيّة التعبير وسلب الفنّان حقّه في الإبداع والتعبير[١٣]. لكنّ الغائب عنده أنّ الخوف من الفنّ وفقدانه القدرة على التّغيير الاجتماعيّ غير مرتبطٍ بالأنظمة الاستبداديّة، وإنّما في بنية النّظام العالميّ ككلّ والرأسماليّ قبل الاشتراكيّ. فالفنّ في مجتمعاتنا المعاصرة فقَدَ وظيفته التي أنيط له القيام بها، وأصبح يخضع كلّيّاً لمنطق التّجار والسّلعة، وذاب بشكلٍ أعمىً في اللعبة الاستهلاكيّة، وفي براثن الإعلانات، والصّفقات الإعلاميّة، وتبقى الدّوافع التي تسيرّه مادّيّة اقتصاديّة بحتة. كما صار الفنّ اليوم متدهوراً بصورة مقيتةٍ لأنّه تمّ اعتماد وسائل وأنماط وآليّات تمّ توظيفها للتّحكّم والسّيطرة عليه وإدماجه في الوضع الرّاهن، وكذلك توجيهه لخدمة إيديولوجيّاتٍ سائدةٍ والعمل على النّشر الإعلاميّ للأعمال الفنّيّة والأدبيّة والموسيقيّة والمسرحيّة والسينمائيّة، عن طريق تحويلها إلى بضاعةٍ سوقيّة يُرتجى منها النّفع المادّيّ فقط.

البحث عن الجماليّة الأصيلة

حقيق بنا أن نعترف بأنّ مفهوم العبق أو الهالة عند المفكّر والتر بنجامين سيمكّننا من وعي التمثّلات السوسيولوجيّة للجماليّة في الأعمال الدراميّة السوريّة. لكن ما هو العبق أو الهالة؟ حظي مفهوم العبَق أو الهالة باهتمام واسع من لدن بنجامين (أحد أهمّ مفكّري الجيل الأوّل لمدرسة فرانكفورت)، معتبراً إيّاه نسيجاً متفرّداً من الزّمَكان، وظهوراً متفرّداً لبعيدٍ، مهما كان على مقربة منّا، والعبق هو جوهر ما يمتاز به العمل الفنّي الذي يغدقه بنوع من القداسة والتّبجيل، خصوصاً أنّ العمل الفنّيّ كان في خدمة التّقاليد والطّقوس الدينيّة في العصور الكلاسيكيّة والوسيطيّة، وحينما نعمد إلى إفراغ العمل الفنّيّ من عبقه يتقهقر ويضمحلّ من النّاحية الفنّيّة، ويفقد أصالته، فحينما نعيد الإنتاج التقنيّ يتلاشى عبق العمل الفنّي[١٤].

مهما اكتملت إعادة إنتاج الأعمال الفنّيّة فإنّها تفتقر إلى شيءٍ يتمثّل في وجودها الآن وهنا، أيْ وجودها المتفرّد في المكان الذي توجد فيه. إنّ الآن وهنا العمل الفنّيّ الأصلانيّ يشكّلان ما يسمّى أصالته، لكنّ هذا الأخير يؤسّس لتقاليدَ جديدة اقتدرت على نقل هذا العمل كعمل واحد ومماثل إلى يومنا هذا، وكلّ ما يتعلق

بالأصالة يمتنع عن إعادة الإنتاج وليس فقط إعادة الإنتاج التقنيّ. ومع ذلك فإنّ الظّروف الجديدة التي يمكن أن يتموضع فيها منتوج إعادة الإنتاج التقنيّ لا تلامس العمل الفنّيّ عينه، ولكن لا ريب في أنّها تنقص من حضوره هنا والآن. وبهذا يمكننا أن نحمل كلّ هاته المواصفات في ماهيّة العبق أو الهالة، فما يضمحلّ في عهد إعادة الإنتاج التقنيّ هو عبق العمل الفنّيّ. يمكننا القول إنّ تقنيّة إعادة الإنتاج تنزع الموضوع المعاد إنتاجُه عن مجال الموروث، لهذا بقي الاستنساخ الآليّ للعمل الفنّيّ أيْ عدد نسخه، وهذا عن طريق استعمال التقنيّة، وما ترتّب عن ذلك من النّشر الجماهيريّ واسع النّطاق قد يؤدّي إلى فقدان العمل الفنّيّ لأصالته، من حيث إنّه عملٌ فريدٌ من نوعه فيزول عنه العبق الذي كان يمثّل حقيقته الفنّيّة[١٥].

ثانياً - آلة التّصوير في الدّراما السوريّة

جسّد الإنسان بالرّسم ذاته وما حوله من أماكن وأشياء ومعاني ميتافيزيقيّة. لكنّ هذا التّجسيد بقي تصوّراتٍ خياليّة لما يدور في ذهنه أو يحلم ويفكّر به، ما جعله يبحث عن شيء حقيقيّ يجسّده بشكله وحقيقته على ما هو. فاكتشف الصورة الفوتوغرافيّة في عام **١٨٣٩**، والتي بدأ استخدامها كدليلٍ وبرهان على حقائق معيّنة، وليس لاكتشاف المعنى كما في لوحات الفنّ التشكيليّ[١٦]. ظلّت الصّورة جامدة ترصد لحظة واحدة في زمن متسارع، فلم تُرض شغف الإنسان في مراقبة ذاكرته، فأضاف الإنسان إلى دورها في التقاط صورةٍ واحدة إلى عرضٍ مقطع فيديو في منتصف الثلاثينيّات من القرن الماضي، يوثّق حياة الإنسان إلى ما لانهاية. ظلّت ذاكرة الإنسان الجديد العامل في التلفزيون عالقةً في شغفه الأوليّ برصد الخيالات والأحلام وجماليّات المعاني، فنقل التّجربة السينمائيّة إلى التلفزيون، فبدأ بإنتاج الأعمال الدراميّة التلفزيونيّة في أميركا في عام **١٩٤٧**، ومنها انتقلتْ إلى جميع أنحاء العالم. ونعنى في هذه الورقة دراسة الحالة السوريّة من هذا العالم.

تاريخ آلة التّصوير في سورية

تأسّس التلفزيون السوريّ في عام **١٩٦٠** في فترة الوحدة بين سورية ومصر. ولم يبدأ إنتاج الأعمال الدراميّة التلفزيونيّة إلّا مع منتصف الستينيّات، وكانت التقنيّات التلفزيونيّة المستخدَمة في الدّراما هي تلك المستخدمة في العمل التلفزيوني التقليديّ. كانت الدّراما السوريّة تصوّر ضمن الإستديوهات فقط عن طريق ثلاث آلات تصوير موجودة في الاستديو حيث يجري التمثيل، وجهاز يدعى Vision Mixer موجود في غرفة التّصوير (خاص بجمع الصور مع بعضها البعض). تختصّ كلّ آلة تصويرٍ في تصوير جزءٍ من المشهد (تلتقط الأولى الشّخص المتحدّث والثانية الشّخص المتحدَّث إليه، والثّالثة المشهد العامّ)، وبناءً على تعليمات المخرج، يتناوب المصوّرون على التّصوير، ويتمّ دمج المشاهد عبر جهاز Vision Mixer، لتخرج وفق مقطع فيديو واحد. في تلك الفترة لم تكن التقنيّات التكنولوجيّة تسمح بإجراء عمليّة المونتاج، وبالتّالي فإنّ تصوير الحلقة كان متتالياً لمدّة ستين دقيقة دون توقّف. وإذا ما حدث أيّ خطأ، كان يتمّ إعادة الحلقة بكاملها منذ البداية. كانت آلة التّصوير كبيرة الحجم تجرّها دواليب داخل الإستديو، وزنها حوالي ثلاثين كلغ، شرائط التسجيل فيها على شكل بكرات. صنعتْ هذه الآلة من معدنٍ مع داراتٍ إلكترونيّة وأربع عدسات مختلفة الأبعاد بداخلها أنابيب زجاجيّة، ثمّ استُبدلت الأنابيب الزجاجيّة برقاقات، ومن ثمّ بطبقةٍ حسّاسة.

تطوّرت التقنيّات التكنولوجيّة مع نهاية السبعينيّات، حيث وُجدت آلات تصويرٍ ذات شريط تسجيلٍ يُدعى «يوماتيك» وهو شريط مغناطيسيّ على شكل كاسيت عرضه إنشٌ واحد. وهو ما مثّل قفزةً نوعيّة في التصوير في الدّراما السوريّة، حيث صَغُر حجم آلة التّصوير، وأصبح بالإمكان حملها على الكتف، الأمر الّذي سمح بالتّصوير خارج الإستديو، والأهمّ هو القيام بعمليّة المونتاج، فأصبح بالإمكان تصوير المشاهد واللقطات دون أيّ تراتبية في المشاهد والحلقات.

لم يكن هناك أيّ آلة تصوير خاصّة في السّوق السوريّة حتى عام **١٩٨٨**، حيث كان المصدر الوحيد هو الاستئجار من التلفزيون السوريّ. ومع انتهاء الحرب الباردة واتجاه الحكومة السوريّة نحو تعزيز دور القطاع الخاصّ بإصدارها قانون الاستثمار رقم ١٠ في عام **١٩٩١**[١٧]، انتشرت آلات التّصوير في السّوق السورية، وبل حظيتْ شركات القطاع الخاصّ بآلات تصويرٍ لم يحظَ بها التلفزيون السوريّ إلّا بعد سنين طويلة، ومعها حدثت طفرة نوعيّة في تطوّر أشكال آلات التّصوير وتقنيّاتها في الدّراما السوريّة. بدأت الطفرة مع نهايات الثمانينيّات مع آلات تصوير الديجيتال SP، شريطها صغير عرضه نصف إنش. تكاثرت التقنيّات في التسعينيّات وبداية الألفيّة الجديدة،

يا عين





فدخل إلى الدّراما السوريّة نظام الأنالوغ، ومن ثمّ SP البتاكام، فالبتاكام ٤٠٠، ثمّ آلات تصوير HD، إلى أن وصلتْ آلة تصوير تسجل على أقراص مدمجة (CDو DVD) واسمها RED. بعدها جاءتْ آلة تصوير تخزن على «كارت» الذاكرة أشهرها آلة تصوير تسمّى «أليكسا» في حوالي عام ٢٠١٠، وهي الأكثر استعمالاً في يومنا هذا بأنواعها المختلفة، وتتمتّع بمزايا تقنيّة عالية على مستوى الجودة في التصوير أو سهولة الاستخدام والتقنيّات التكنولوجيّة[١٨].

ومن اللافت أنّ إفادات المصوّرين في الدّراما السوريّة الذين أجريتْ معهم مقابلات شخصيّة هي أنّ المتغيّرات التقنيّة في آلة التصوير كانت طفيفة، ولم تشكّل فارقاً حقيقيّاً في جماليّة الصورة في الدّراما السوريّة، وإنّما سّهلت العمل، وجعلتْه أسرع. يشير الباحث عبد الله محمود عدوي في كتابه «الجماليّات في الإعلام التلفزيونيّ» إلى دور آلة التّصوير في تكوين جماليّة الأعمال التلفزيونّية العربيّة، وما هي الأساليب التي يجب على المصوّر اتّباعها لتجميل الصورة وضمان جودة المنتج الإعلاميّ[١٩]. لكنّ الإنسان عندما فكّر في اختراع آلة التّصوير كان هدفه منها هو نقل الجماليّة، وليس تصنيعها صناعة، أو على الأقلّ ليس تجميل القبيح.

الجماليّة في الأعمال الدراميّة السوريّة

صُورَ مسلسل «أسعد الورّاق» في نسخة عام ١٩٧٥ بآلةَ التّصوير الكبيرة القديمة التي كانت تصوّر الحلقة كاملة من دون توقّف ضمن الإستديو. بينما صوّرتْ نسخة عام ٢٠١٠ في الحارات السوريّة بأحدث آلات التّصوير في السّوق. وعلى الرّغم من ذلك، لم تشكّل تقنيّة التّصوير الجديدة فارقاً في جودة الصورة في المسلسل أو في نوعيّة العمل، بل بدا العمل القديم أجملَ وأكثر صدقيّة في الأداء والتّعبير والصورة، حتى أنّ كلّ حلقة فيه مثّلتْ عملاً مسرحياً مستقلّاً متميّزاً. وهو ما يعيدنا إلى والتر بنجامين في أنّ النسْخ المستمرّ للأعمال الفنّيّة يفقدها جماليّتها. فبينما شكّلت النّسخة القديمة هالةً فنّيّة عاشها السوريّون في السّبعينيّات، لم يعلَق الإنتاج الجديد في ذاكرة السوريّين كحالة شعبيّة، وقلّص من جماليّة العمل الأصليّ.

في منظور آخر حول العلاقة بين التجمّعات الشعبيّة المتحرّكة والدراما السوريّة، قدّم مسلسل «هجرة القلوب إلى القلوب» ١٩٩١ عرضاً عميقاً لحياة الفلّاحين في إحدى قرى ريف دمشق قبل الاستقلال وبعده، رصد فيه الغزو البدويّ للقرية، وتجمّعات موالية للسلطة، ويوميّات الحياة الريفيّة، وانتفاضات ضدّ السلطة. صُوّر العمل عبر آلة تصوير تعمل وفق نظام «اليوماتيك نصف إنش». استخدم للتصوير أربع كاميرات واحدة محمولة على عربة النّقل وثلاث كاميرات في داخل العربة. وفي بعض المشاهد تمّ تصوير لقطات في القرية وجزء داخل الإستديو لأوّل مرّة في الدراما السوريّة[٢٠]. وعلى الرّغم من هذه الصّعوبات في التّصوير فقد نجح العمل في تقديم جودة عالية في الصورة وتقنيّة تلفزيونيّة دراميّة عالية المستوى.

أمّا مسلسل «منبر الموتى» في العام ٢٠١٣، والذي حاول أن يحاكي لحظة انطلاق الشّرارة الأولى للثّورة السوريّة في درعا، وما تلاها من تظاهرات عارمة في سورية، فقد تمّ تصويره بواسطة كاميرا أليكسا[٢١]. وعلى الرّغم من المزايا التقنيّة العالية لهذه الآلة، فقد جاءت صورة العمل تقليديّة على غرار مثيلاتها من الأعمال الدراميّة الأخرى، وبأقلّ درجة في الجودة من مسلسل «هجرة القلوب إلى القلوب». لكنّ الفشل الذي مني به المسلسل هو لحظة تصوير انطلاق الانتفاضة السوريّة، ومشهدَة التظاهرات في المسلسل. فقد بدا أداء الفنّانين ضعيفاً بحيث يتّضح للمشاهدين بأنّه تمثيلٌ لا يقترب من حقيقة التظاهرات وجماليّتها، والتي جسّدت لوحاتٍ فنّيّة شعبيّة غنائيّة لم يصوّرها العمل.

صوّر مسلسل «غداً نلتقي» الذي عرض في العام ٢٠١٥ بؤس حياة اللاجئين السوريّين ومشاكلهم في لبنان، وقدم جودة عالية في الصورة أدهش جمالهُا كلّ من تابع العمل، بل كانت الشيء الأكثر تميزاً في المسلسل. صُوِّرَ المسلسل بكاميرا «سوني f ٥٥»، وظهرت الصورة بشكل سينمائيّ جميل. لكنّ ذلك لم يتعلّق بنوع وحداثة الكاميرا وإنّما كان عملاً جماعيّاً اتُّفق عليه بين المصوّرين والمخرج ومهندس الدّيكور، في ضبط ألوان الديكور والملابس والمكياج، لتتناسب مع بعضها لكي تخرج الصورة بشكل سينمائيّ، ولم يكن لنوع آلة التصوير دورٌ أساسيٌّ في جودة الصورة ومظهرها السينمائيّ[٢٢]. والمفارقة أنّ هذه الكاميرا أقلّ تقنيّةً من كاميرا «أليكسا» التي صوّر بها «منبر الموتى». وعلى الرّغم من المهنيّة في العمل، لم يصف المسلسل بؤس واقع اللاجئين السوريّين في لبنان بشكله الحقيقيّ، فقد عكستْ مشاهداتي في بيروت صوراً أكثر قتامة، تروي وجوهُها القهرَ والألمَ أكثر من الدّموع التي زُرفتْ في المسلسل أو المواقف الإنسانيّة الصّعبة.

ومن خلال هذه الأعمال الفنّيّة الثّلاثة، يمكننا القول بأنّ عبق أو هالة التحرّكات الشعبيّة في سورية تكمن في أصلانيّتها بأحداثها الحقيقيّة، ولا ضير في تصويرها في أعمال فنّيّة لإعادة إنتاج الأشياء التي لا تقوى العين المجرّدة على رؤيتها (بحسب والتر بنجامين)[٢٣]، لنقُل جماليّتها من خلال آلات التصوير في الدّراما التلفزيونيّة السوريّة، لكنّ المشكلة في أنّ معنى الفنّ قد تغيّر بخضوعه للشّروط الرأسماليّة وعدم الجدّيّة في إنتاج ما هو جميل.

تكمن الجماليّة في العمل الأصليّ، فالحقيقة في الوقائع ذاتها بعبقها الخاص، فلا يمكن لأحد مهما بلغ من الاحترافيّة أن ينقل شعور شخصٍ هتف في تظاهرات يسجّلها التّاريخ، ولا أن يصوّر حياةَ الفلّاحين بتعقيداتها الجميلة والمريرة بعمل تلفزيونيّ، أمّا مرارة حياة اللاجئ فلا يمكن سؤال أحد عنها غير اللاجئ. وإن استطاعت بعض الأعمال التلفزيونيّة من خلال آلات التصوير نقل شيء من هذه الجماليّات، إلّا أنّ استنساخها في أعمال أخرى لم يؤدّ إلى جودة أعلى، بل قلّص من جماليّة العمل الأوّل.

يرى مارتن هايدغر في كتابه «التقنيّة - الحقيقة - الوجود» أنّ الأداة هي منحىً نمطيّ لانكشاف مكنونات الإنسان[٢٤]، وفي مثالنا هذا فإنّ آلة التّصوير بحسب هايدغر، تكشف من خلال الدّراما السوريّة معالمَ الوجود في الوقائع الاجتماعيّة السوريّة، إلّا أنّها في الحقيقة قد يكون لها تمثّلات مختلفة عمّا هو في الظاهر. فآلة التّصوير في الدّراما السوريّة عكستْ أبعاداً أخرى في تنافس شركات الإنتاج العالمية والسباق الرأسماليّ في الإنتاج والربح. ففي التسعينيّات من القرن الماضي، أنتجت شركتا سوني وباناسونيك آلة التّصوير ذات نظام الديجتال، لكنّ أسعار باناسونيك كانت أرخص، فردّت عليها سوني، للمنافسة، بإنزال نظام «ديجتال أكس أكس» بجودة أعلى. حينها تسابقتْ شركات الإنتاج السورية لاستيراد تلك الآلات الجديدة[٢٥]. أي أنّ ما مثّلته ليس كشفاً لمكنونات الأحداث السوريّة، وإنّما التراكم الرأسماليّ في الإنتاج لشركات صناعة آلات التّصوير.

وجدت السلطة السورية، بنهجها الرأسمالي القائم على توسيع دور القطاع الخاص في الدراما السورية أداة من أدوات السيطرة على المجتمع السوري. فقدمتها للجماهير السورية بأنها منجز من «منجزاتها ونجاحاتها» بعدما احتلت الدراما السورية مكانة الصدارة نسبيا في العالم العربي.

خاتمة

نقلتْ آلة التّصوير في الدّراما السوريّة بعض الأبعاد الجماليّة للوقائع الاجتماعيّة السوريّة، لكنّها لم ترتق إلى درجة تجسيد الحدث بجماله الأصليّ، وخاصّة فيما يتعلّق بالتحرّكات الشعبيّة الواسعة. ولم يؤدّ استعمال أحدث آلات التصوير في العالم في إعادة إنتاج الأعمال الدراميّة القديمة إلى الاقتراب من الحدث الأصليّ أو تحسين جودتها، بل شكّل تراجعاً على مستوى الأداء والجودة. وإن قدّمت بعض الجماليّات في العديد من الأعمال التلفزيونيّة، فإنّ ذلك لا يتوقّف على التقدّم التكنولوجيّ لآلات التصوير، وإنّما على شروط أخرى يجب البحث فيها.

دخلَت الدراما السوريّة في هذه الدوامة مع توسع دور القطاع الخاصّ والشركات الخليجيّة في إنتاج الأعمال التلفزيونيّة في سورية بشكل تدريجيّ، بلغ ذروته بعد عام ٢٠٠٠، الأمر الذي أدّى إلى إنتاج كمٍّ كبيرٍ من المسلسلات، يصل عددها إلى حوالى أربعين عملاً في السنة، وذلك بسبب سهولة التصوير واستخدام التقنيّات السريعة في التصوير والمونتاج، وذلك مع استيراد أحدث آلات التصوير في العالم. وهو ما أثّر على نوعيّة الأعمال التلفزيونيّة السوريّة، إذ طغت الكمّيّة على حساب النوعيّة.

وجدت السلطة السوريّة، بنهجها الرأسماليّ القائم على توسيع دور القطاع الخاصّ في الدّراما السوريّة أداة من أدوات السيطرة على المجتمع السوري. فقدّمتها للجماهير السوريّة بأنّها منجزٌ من «منجزاتها ونجاحاتها» بعدما احتلّت الدّراما السوريّة مكانة الصّدارة نسبيّاً في العالم العربيّ. كما سمحتْ للدّراما السوريّة بإعطائها مساحة هامشيّة من الحرّيّة، لتقدّمها على أنّها أجواء من الانفتاح والحرّية، كمتنفّس للشعب السوريّ، في إيهامه بأنّ صيرورة عمليّة الإصلاح السياسيّ جارية، بينما هي تتعمّق في استبدادها من حيث الجوهر.

لم يشكل تطوّر التقنيّات التكنولوجيّة في آلات التصوير دوراً فارقاً في جماليّة أعمال الدراما التلفزيونيّة السوريّة، وهو ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ التكنولوجيا لا تؤدّي بالضرورة إلى تحسين المستوى الثقافيّ للإنسان. تفتح هذه الفجوة التساؤل عن قدرة المسرح السوريّ من بين الأشكال الفنّيّة الدّرامية، على التعبير عن حقيقة وماهيّة الوقائع الاجتماعيّة السوريّة.

الهوامش

١ ماكس هوركايمر، **النظريّة التقليديّة والنظريّة النقديّة**، ترجمة: مصطفى الناوي (الدارة البيضاء، عيون المقالات، ١٩٩٠).

٢ يمكن الرجوع في ذلك إلى كمال بومنير، **جدل العقلانيّة في النظريّة النقديّة لمدرسة فرانكفورت** (منشورات الاختلاف، مؤسّسة محمد بن راشد آل مكتوم، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى (٢٠١٠) ص ١٨١ - ٢١٦.

٣ حميد حمادي، التجربة الفنيّة والفهم الجماليّ عند ثيودور أدورنو، بحث في كتاب **ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستطيقا (مقاربات فلسفيّة)** «مجموعة مؤلّفين» (الجزائر، منشورات الاختلاف، ٢٠١١) ص ١٣٣ - ١٤٠.

٤ كمال بومنير، **النظريّة النقديّة لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركايمر إلى أكسل هونيث**،(الجزائر، منشورات دار الاختلاف، بيروت، الدار العربيّة للعلوم ناشرون - الرباط، دار الأمان، ٢٠١٠)، ص ٦٣ - ٨٩.

٥ لطفي حجلاوي، في مشكل الإبداع الفنّي عند والتر بنجامين، لمجموعة مؤلّفين، **مدرسة فرانكفورت جدل التحرّر والتواصل والاعتراف** (الجزائر، دار ابن النديم - بيروت دار روافد الثقافيّة، ٢٠١٢) ص ٩٤.

٦ ألن هاو، **النظريّة النقديّة مدرسة فرانكفورت**، ترجمة ثائر ديب (القاهرة، المركز القومي للتّرجمة، ٢٠١٠) ص ١١٨.

٧ المرجع السابق، ص ١٢٠ - ١٢١.

٨ كمال بومنير، **النظريّة النقديّة لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركايمر إلى أكسل هونيث**، مرجع سبق ذكره، ص ١٩ - ٢٠.

٩ للتعمق أكثر في بيان تاريخيّة الأداة يمكن الرجوع إلى:
Sam Lilley, Men, *Machines and History: A Short The Story of Tools and Machines in Relation to Social Progress*, Cobbett Press, 1948.

١٠ إدموند هوسرل، **فكرة الفينومينولوجيا**، ترجمة أحمد الصادقي (اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩) ص ٣٠.

١١ موريس ميرلوبونتي، **العين والعقل**، ترجمة حبيب الشاروني (الاسكندرية، منشأة المعارف بالإسكندرية) ص ٩.

١٢ مارك جيمينيز، **ما الجماليّة؟**، ترجمة شربل داغر (بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩) ص ٤٤٤.

١٣ عرفات النعيم، الخوف من الفنّ، الخوف في الفن(بلغاريا، الأكاديميّة الوطنيّة للفنون الجميلة،مجلة صوفيا، العدد ٢٥) ص ٥.

١٤ كمال بومنير، **مدخل إلى قراءة فلسفة فلتر بنيامين** (دراسة ونصوص)، (بيروت / الرياض، منشورات ضفاف - الجزائر، منشورات الاختلاف - الرباط، دار الأمان، ٢٠١٣)، ص ٣٧.

١٥ كمال بومنير، **جدل العقلانية في النظريّة النقديّة لفرانكفورت** (بيروت، الدار العربيّة للعلوم بيروت - الجزائر، منشورات الاختلاف، ٢٠١٠) ص ١٢٦.

١٦ Fetveit, Arild. «Reality TV in the Digital Era: A Paradox in Visual Culture?» *Media, Culture & Society* 21, no. 6 (November 1999): 787 - 804. https://doi.org/10.1177/016344399021006005.

١٧ منير الحمش، **الاقتصاد السوري في أربعين عاماً، دراسة تحليليّة للتّطورات الاقتصاديّة والاجتماعيّة في سورية ١٩٧١ - ٢٠١٠** (بيروت، منتدى المعارف، ٢٠١١) ص ١٧٩.

١٨ جمعت المعلومات حول تاريخ تطوّر شكل وتقنيّات آلات التصوير في الدراما السوريّة من شهادتي: ثائر موسى(مخرج تلفزيونيّ وسينمائيّ سوريّ) في مقابلة شخصيّة أجريت معه في الدوحة بتاريخ ٢٥ أيّار / مايو ٢٠١٦،حنا ورد (من أهمّ مصوري الدراما السوريّة) مقابلات عبر السكايب توزّعت بين تاريخ ٢٨ أيار / مايو - ١ حزيران / يونيو ٢٠١٦.

١٩ عبد الله محمود عدوي، **الجماليات في الإعلام التلفزيوني** (الدوحة / بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٦) ص ٩٦ - ٩٧، ص ١١٧ - ١١٩.

٢٠ من شهادة مصور المسلسل عبد القادر شربجي، مقابلة عبر السكايبي بتاريخ ١٠ حزيران / يونيو ٢٠١٦.

٢١ سامر رضوان (مؤلّف العمل)، معلومة حصل عليها الباحث في حوار معه عبر الفيسبوك بتاريخ ٣٠أيار / مايو ٢٠١٦.

٢٢ محمود مغراوي (مدير التصوير في مسلسل «غداً نلتقي»)، محادثة هاتفية مسجلة بالصوت عبر الواتسآب بتاريخ ١٤ حزيران / يونيو ٢٠١٦.

٢٣ آلن هاو، **النظرية النقدية مدرسة فرانكفورت**، ترجمة: ثائر ديب (القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠) ص ١١٩.

٢٤ مارتن هايدغر، **التقنية - الحقيقة - الوجود**، ترجمة: محمد سبيلا وعبد الهادي مفتاح (بيروت - الدارة البيضاء،المركز الثقافي العربي،١٩٩٥).

٢٥ من شهادة عبد القادر شربجي، مصدر سبق ذكره.

المراجع

أولًا: المصادر الأوليّة

سامر رضوان، تواصل إلكتروني عبر الفيسبوك بتاريخ ٣٠ أيار / مايو ٢٠١٦

عبد القادر شربجي، مقابلة عبر السكايب بتاريخ ١٠ حزيران / يونيو ٢٠١٦

حنّا ورد، مقابلات عبر السكايب توزعت بين تاريخ ٢٨ أيار / مايو - ١ حزيران / يونيو ٢٠١٦

ثائر موسى، مقابلة شخصيّة، أجريت معه في الدوحة بتاريخ ٢٥ أيار / مايو ٢٠١٦

محمود مغراوي، تواصل إلكتروني عبر الواتس آب بتاريخ ١٤ حزيران / يونيو ٢٠١٦

الأعمال التلفزيونيّة جميعها متوافرة على موقع اليوتيوب

ثانيًا: المصادر الثانويّة

بومنير. كمال، **النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركايمر إلى أكسل هونيث** (الجزائر، منشورات دار الاختلاف، بيروت، الدار العربيّة للعلوم ناشرون - الرباط، دار الأمان، ٢٠١٠)

مدخل إلى قراءة فلسفة فلتر بنيامين (دراسة ونصوص)، (بيروت / الرياض، منشورات ضفاف - الجزائر، منشورات الاختلاف - الرباط، دار الأمان، ٢٠١٣)

جيمينيز. مارك، **ما الجمالية؟**، ترجمة شربل داغر (بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩)

حجلاوي. لطفي، **في مشكل الإبداع الفنّي عند والتر بنجامين**، لمجموعة مؤلّفين، مدرسة فرانكفورت جدل التحرّر والتواصل والاعتراف (الجزائر، دار ابن النديم - بيروت دار روافد الثقافيّة، ٢٠١٢)

الحمش. منير، **الاقتصاد السوري في أربعين عاماً دراسة تحليليّة للتطوّرات الاقتصاديّة والاجتماعيّة في سورية ١٩٧١ - ٢٠١٠** (بيروت، منتدى المعارف، ٢٠١١)

عدوي. عبد الله محمود، **الجماليّات في الإعلام التلفزيوني** (الدوحة / بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٦)

كمال بومنير، **جدل العقلانية في النظرية النقديّة لفرانكفورت** (بيروت، الدار العربيّة للعلوم بيروت - الجزائر، منشورات الاختلاف، ٢٠١٠)

ميرلوبونتي. موريس، **العين والعقل**، ترجمة حبيب الشاروني (الإسكندريّة، منشأة المعارف بالإسكندريّة)

هاو. آلن، **النظرية النقدية مدرسة فرانكفورت**، ترجمة: ثائر ديب (القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠)

هايدغر. مارتن، **التقنيّة - الحقيقة - الوجود**، ترجمة: محمد سبيلا وعبد الهادي مفتاح (بيروت - الدارة البيضاء، المركز الثقافيّ العربيّ، ١٩٩٥)

هوسرل. إدموند، **فكرة الفينومينولوجيا**، ترجمة أحمد الصادقي (اللاذقيّة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩)

المجلّات العلميّة: النعيم. عرفات، **الخوف من الفن**، الخوف في الفن (بلغاريا، الأكاديميّة الوطنيّة للفنون الجميلة، مجلّة صوفيا، العدد ٢٥)

باللغة الإنكليزيّة: Arild Fetveit, «Reality TV in the digital era: a paradox in visual culture», London and New Delhi, magazine media, culture, Society, Vol. 21

Sam Lilley, Men, *Machines and History: A Short The Story of Tools and Machines in Relation to Social Progress*, Cobbett Press, 1948

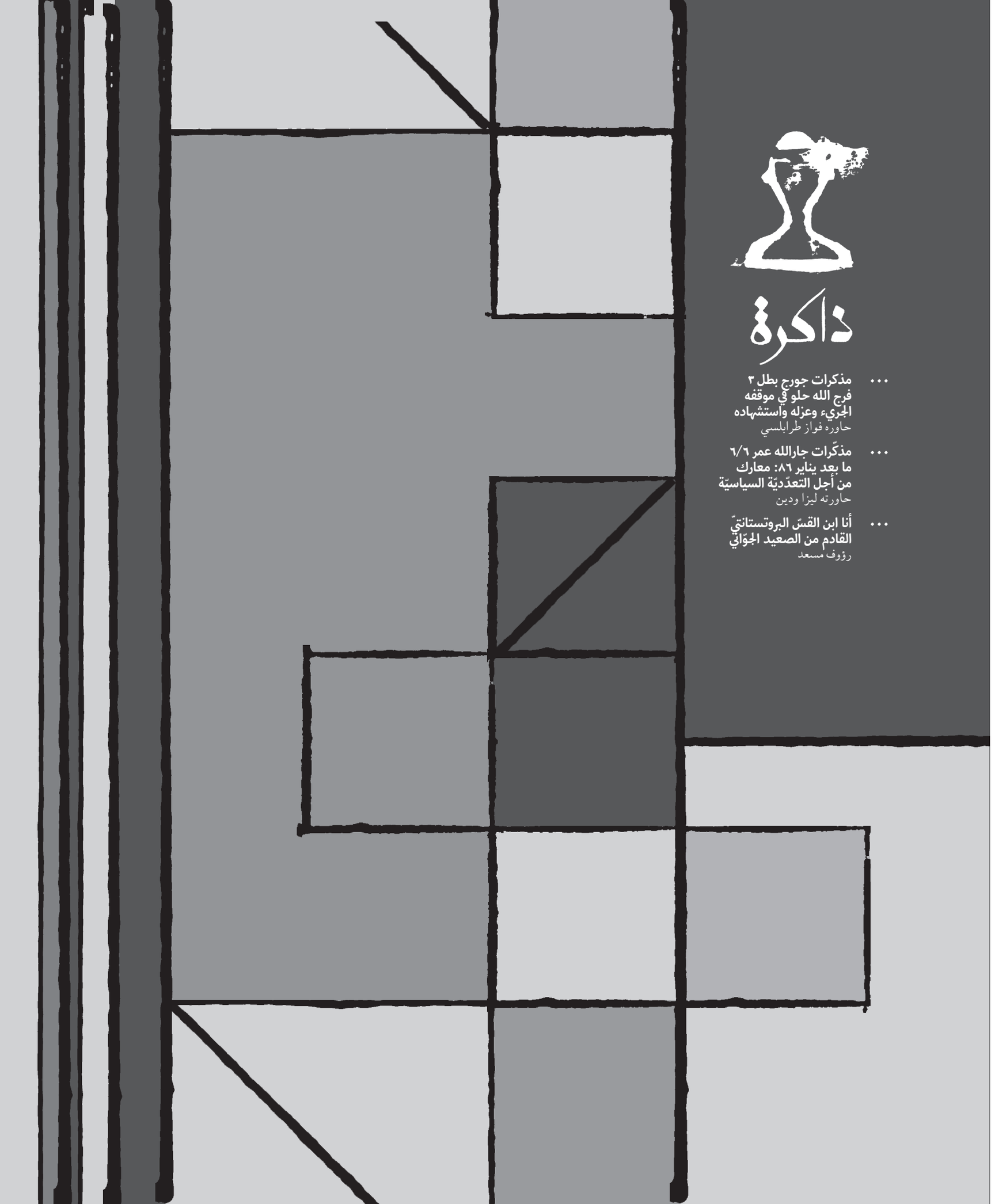

ذاكرة

- **مذكرات جورج بطل ٣ فرج الله حلو في موقفه الجريء وعزله واستشهاده**
  حاوره فواز طرابلسي
- **مذكّرات جارالله عمر ٦/٦ ما بعد يناير ٨٦: معارك من أجل التعدّديّة السياسيّة**
  حاورته ليزا ودين
- **أنا ابن القسّ البروتستانتيّ القادم من الصعيد الجوّاني**
  رؤوف مسعد

مذكرات جورج بطل ٣
فرج الله حلو في موقفه الجريء وعزله واستشهاده

حاوره فواز طرابلسي

مؤرّخ وكاتب، لبنان.

تقنيات العمل السرّي

تميّز الحزب بقدراته في العمل السرّيّ وبجهازه الاستثنائيّ في هذا المجال. لهذا السبب لم يسجّل حدوث سوى عددٍ محدودٍ من الأخطاء. مرّةً واحدةً فقط انكشفت لنا مطبعة كانت موضوعة في أحد منازل الأشرفيّة. قام الأمنيّون يومها بملاحقة بائعي مخدّرات، فأجروا مسحاً على المنازل. عندما دخلوا أحدَها وجدوا للأسف رفيقاً عراقيّاً، كان نائباً في البرلمان خلال فترة الثلاثينيّات ومن زعماء «الحركة الوطنيّة» ثمّ انتمى إلى «الحزب الشيوعيّ»، كما كان لاجئاً سياسيّاً عمل في المطبعة على غرار الكثير من أمثاله ممّن هربوا من القمع في بلادهم ولجأوا إلى لبنان. سعتْ هذه الشخصيّات إلى ملء وقتها فعملتْ غالباً خلال النهار في الطباعة أو الكتابة أو الترجمة.

كانت هذه المطبعة الوحيدة التي اكتُشفتْ منذ تاريخ تأسيس الحزب في العام ١٩٢٥. صدرت صحفٌ سرّيّة ووُزّعت منشورات. صحيح أنّه تمّ اعتقال أشخاص أثناء قيامهم بتوزيع هذه المنشورات لكن لم تذهب الأمور أبعدَ من ذلك. يعود الفضل في هذه الميزة التي اكتسبها الحزب الشيوعيّ إلى منظّمة الحزب الأرمنيّة، ذلك أنّ الأرمن نقلوا تقاليد للحزب الشيوعيّ اللبنانيّ لم تستفد منها باقي الأحزاب حيث لم تتوفّر لها في الأساس لأنّ الحزب الشيوعيّ كان الحزب اللبنانيّ الوحيد الذي ضمّ في صفوفه شيوعيّين أرمن. كانت هناك أحزابٌ أرمنيّة، إلّا أنّ الشيوعيّين الأرمن - البلاشفة دخلوا في الحزب الشيوعيّ اللبنانيّ ولم يُنشئوا حزباً خاصّاً بهم. تعلّم الشيوعيّون الأرمن اللغة العربيّة أفضل من الأرمن الذين تقوقعوا بعضهم على بعض.

حرص الأرمن على أن تتمركز البيوت المخصّصة للعمل السرّيّ في أحياء يسكنها أغنياء ولو كانت أعلى تكلفة، بسبب نمط حياة هؤلاء المختلف عنه لدى سكّان الأحياء الشعبيّة، فالأخيرة تعجّ بأشخاصٍ يعرف بعضهم بعضاً، يطلّون من النّوافذ، يدقّقون في هويّة الجار الجديد وزوّاره، كما أنّ شوارعها مليئة بالأطفال.

اخترنا على سبيل المثال «فيلّات» كانت إحداها في منطقة حرج بيروت تملّكتها عائلةٌ بيروتيّة معروفة. وُضعت فيها مطبعة كبيرة وطُبعت فيها صحيفةٌ مؤلّفة من أربع صفحات كبيرة سُميت «في سبيل سلم دائم، في سبيل ديموقراطيّة شعبيّة»، وكان ذلك في أواخر الأربعينيّات من القرن الماضي بعد حلّ الكومنترن وتأسيس الكومنفورم. طُبعت هذه الصّحيفة لفترة، وقد قضى فرج الله الحلو جزءاً من وقته في ترجمتها بعد تعرّضه للاضطهاد وعزله عن العمل القياديّ. وعملتْ فيها أيضاً مجموعةٌ من الرّفاق الاستثنائيّين من الذين انعزلوا عن العالم بشكلٍ شبه كامل منهم الرّاحل عزيز صليبا وغسان الرفاعي. وعمل الاثنان لفترةٍ طويلة في العمل السرّيّ، ليس فقط في الكتابة والتصحيح بل كذلك في الطباعة وأصبحا من القادة في الحزب (أعضاء مكتب سياسيّ). وبدأت طباعة هذه الصّحيفة في هذه الفيلا وانتهت فيها لأنّ الموقع كان بعيداً عن البشر ولا يثير تساؤلات أحد.

يعود عدم حدوث خللٍ في العمل السرّيّ جزئيّاً إلى الاعتماد على عائلات أرمنيّة في فتح منازل ورعاية المقيمين فيها. على سبيل المثال، أنا تنقّلتُ في أكثر من منزل كان في أحدها سيّدةٌ وزوجُها وفّرا الأمان برعاية الأب والأمّ. وقدّمتْ كذلك بيوت عائلات شيوعيّة كثيرة خدماتٍ استثنائيّة للّذين جاؤوا من قادة وكوادر أحزاب شقيقة لاجئين إلى لبنان، فجرى تعزيزهم وتكريمهم. تمتّع خالد بكداش بهذه الخدمات إلى أبعد حدود، فهو أقام في بيروت بصورة شبه دائمة حتى عندما كان نائباً. عندما

لم يكن هناك دورة لمجلس النواب، كان يأتي إلى بيروت ويفضّلها على دمشق.

عادةً في العمل السرّيّ، يفترض بالشخص التخفيف من علاقاته الاجتماعيّة قدر الإمكان حتّى إذا كان لديه كثيرٌ من المعارف. ويتوجّب عليه أحياناً قطع علاقاته ببعض الناس ليتوقّف هؤلاء عن زيارته أو التّعرّف إليه إذا ما رأوه في مكانٍ عامّ.

كان آرتين على صلة بالبلاشفة قبل أن يأتي إلى لبنان حيث درس الطب في الجامعة اليسوعية واعتقل أثناء الثورة السورية. وحكم عليه بالإعدام إلى جانب فؤاد الشمالي وشقيقه نسيم الشمالي. هكذا انتهت علاقة آرتين بكلية الطب لأنه سجن في قلعة قدموس وبقي فيها ثلاث سنوات.

في ذلك الحين، اقتضت الضّرورة تغيير بعض الأماكن المُفعمة بالحركة، منها، على سبيل المثال، تلك التي تُعقد فيها اجتماعات لجنة مركزيّة أو اجتماعات القيادات المحليّة، الفرعيّة والمحافظات. ولم يكن من المفترض العودة إلى منزلٍ عُقد فيه اجتماع، الأمر الذي خلق مشكلةً على اعتبار أنّه يجب استخدام العديد من المنازل. في وثائق اطّلعتُ عليها، هي عن مذكّراتٍ أعدّها أولاد فريد شهاب عن والدهم حين كان المدير العامّ للأمن العام، والمسؤول حينها عن مكافحة الشيوعيّة طوال سنوات عديدة، تبيّن لي أنّ الاختراقات الأمنيّة كانت نادرة الحدوث وأنّ معظم التقارير عن نشاط الحزب ملفّقة وكذلك المعلومات عن تركيب المكتب السياسيّ واللجنة المركزيّة والمواقع الحزبيّة الأخرى. حتى التقارير التي تدّعي معرفةً بتنظيم الحزب وأساليب عمله كان معظمها ملفّقاً. كان الّذين يتخاذلون لدى توقيفهم أو في السّجون فيدلون بمواقعَ وعناوين وأسماء، يستبعدون فوراً وتتغيّر العناوين والأسماء، والّتي كانت في أغلبها أسماء سرّيّة على كلّ حال. ويوُضع المعتقلون الشّيوعيّون تحت رقابةٍ حقيقيّة [من الحزب بعد إطلاق سراحهم]. وتتّخذ التدابير الفوريّة لتبديل المنازل التي يعرفها المعتقل ولتغيير ما أمكن تغييره ممّا يعرف من عمل الرفاق، مهما بلغ وضع ذلك المعتقل أو موقعه وسمعته.

قد يكون الخرق الوحيد الخطير في عملنا السرّي هو الذي أدّى إلى القضاء على فرج الله الحلو، والمتمثّل بخيانة رفيق رضا وتسليمه للمخابرات التي قتلتْه تحت التعذيب في دمشق في عهد الوحدة مع مصر ومرحلة السعار في معاداة الشيوعيّة.

دّور آرتين مادايان التأسيسيّ

يرجع الفضل في عملنا الدقيق والناجح في المراحل السرّيّة والمراحل العلنيّة في ذلك الوقت للأرمن وتحديداً لآرتين مادايان، أحد مؤسّسي الحزب، صاحب الدور الفعليّ في تنظيم هذا العمل وقيادته. أعتقد أنّ تكوينه لعب دوراً أساسيّاً. كان في البدء طالباً في اسطنبول وأعتقد أنّه امتلك تجربةً حزبيّة سابقة، وكان آرتين على صلةٍ بالبلاشفة قبل أن يأتي إلى لبنان حيث درس الطبّ في الجامعة اليسوعيّة واعتُقل أثناء الثورة السوريّة، وحُكم عليه بالإعدام إلى جانب فؤاد الشّمالي وشقيقه نسيم الشّمالي. هكذا انتهتْ علاقة آرتين بكلية الطبّ لأنّه سُجن في قلعة قدموس وبقي فيها ثلاث سنوات. والقلعة موجودة في جبال العلويّين وكان فيها إلى جانب زعماء الكتلة الوطنيّة في سورية، وقد تنقّلوا بين معتقلات عديدة، منها جزيرة أرواد. أخبرني آرتين أنّه ترك في قلعة قدموس رسالةً منه ومن فؤاد الشّمالي وشقيقه نسيم الشّمالي على اعتبار أنّهم قد يعدَمون. أخبرني أيضاً أنّهم بعد كتابة الرسالة وضعوها في قنّينة ثمّ حفروا حفرةً وخبّأوها في زاوية أحد الجدران.

استمرّت هذه التقنيّات في العمل السرّيّ، والّتي يعود الفضل فيها للأرمن، حتى الحرب الأهليّة. لعب الشيوعيّون الأرمن دوراً مميّزاً في تاريخ الحزب الشيوعيّ وقدّموا عدداً وافراً من الشهداء في مراحل عديدة. وسبق أن ذكرتُ عندما تطرّقت إلى الذين توجّهوا إلى الشّوف خلال أحداث العام ١٩٥٨، أنّ الثّلثين منهم كانوا من الأرمن. هذا التاريخ المجيد عند الشيوعيّين الأرمن أصبح من الماضي. ليس لدى الحزب حاليّاً منظّمة أرمنيّة بكلّ ما للكلمة من معنى. وجودُه بين الأرمن أقلّ من قليل. طالت هجرةٌ أرمنيّة كبيرة حتى الشيوعيّين الأرمن. امتلك الشّيوعيّون وجهتين للهجرة: أرمينيا والولايات المتّحدة.

حضرتُ في السنوات القليلة الماضية أكثر من مأتم داخل أحياء أرمنيّة كان الشّيوعيّون فيها كثراً إن لم أقلّ الأكثريّة، منها حيّ خليل البدوي وحيّ كامل هاجين. في آخر مأتم حضرتُه لرفيقٍ مهندس أرمنيّ منذ حوالي السّنة، تعجّبتُ للعدد القليل من النّاس في كنيسة خليل البدوي. سألت أحدَ الرّفاق فأجابني: أين تعيش؟ ما

تبقّى من العائلات الأرمنيّة ومنها العائلات الشيوعيّة لا يبلغ عدد أصابع اليد الواحدة. الهجرة وغلاء الأرض في أطراف الأشرفيّة، وزّعتْ أرمن هذه الأحياء بين المهاجرين، ومن لم يهاجر باع بيته واشترى في أحياء بعيدة مساكنها رخيصة.

خافت البرجوازية السورية من تطور الحركة الشعبية وازدياد نفوذ الشيوعيين والبعثيين.

تعرّضت المنظّمة الأرمنيّة للضّرب لألف سببٍ وسبب لكنّها كانت منظّمةً قويّة. شخصيّاً، عملتُ على سبيل المثال لفترةٍ خلال العام ١٩٥٩ بعد الحربِ الأهليّة الأولى في الأشرفيّة وضواحيها، داخلَ الأحياء التي تسكنها أكثريّة مسيحيّة. بلغ عدد أفراد المنظّمة التي عملت معها أكثر من أربعمائة شخصٍ من العائلات المسيحيّة العربيّة، وما يوازي هذا العدد من الأرمن إلى عددٍ وفير من الشيوعيّين بين الوافدين الذي أقاموا في حي الوادي المطلّ على الكورنيش، هذا بالإضافة إلى أرمن برج حمّود والأشرفيّة. كذلك انتشر الأرمن في أحياء بيروتيّة عديدة منها البور والوتوات. سكن هذا الأخير حوالي ثلاثين ألف أرمنيّ. اليوم لم يعد أحد أو بالكاد. وتمّ هدم نادي الإنترانيك الرياضي الأرمني.

لا أعتقد أنّ في لبنان عائلة لم ينتسب أحد أعضائها إلى الحزب. تواجد هذا الأخير في جميع أحياء المجتمع وجميع القرى والبلدات. تواجد في الوسطين الأورثوذكسي والماروني بوفرة، في جميع مدن وقرى جبل لبنان، وأيضاً في المناطق ذات الأكثريّة الكاثوليكيّة: زحلة، مشغرة، رأس بعلبك والقاع. وفي الوسط الشّيعي تواجد بقوّة وكذلك فعل في طرابلس وعكّار والأقاليم والبقاع. وعُرف عن الحزب الشيوعيّ اللبنانيّ أنّه حزبٌ علمانيٌّ وطنيّ عابرٌ للطّوائف والمناطق، وقد بلغ عدد المنتسبين إليه بعيد المؤتمر الأوّل في مطلع العام ١٩٤٤ عشرين ألف شخص.

الوحدة والخلاف مع عبد النّاصر

تطوّرت الظروفُ في سورية بعد إسقاط آخر الديكتاتوريّات السّابقة للوحدة. حصلت تغييراتٌ في الجيش السوري بعد اغتيال عدنان المالكي أدّت إلى وصول ضبّاطٍ شيوعيين وأصدقاء لهم إلى قيادة الجيش والمواقع الهامّة فيه. تصدّت المقاومة الشعبيّة الواسعة إلى جانب الجيش على طول الحدود مع تركيا للأحلاف الاستعماريّة والتّهديدات التركيّة الجدّيّة على الحدود الشماليّة، وكان للشيوعيّين دورٌ مميّزٌ بها. لبّى هؤلاء الضبّاط مع زملائهم في حزب البعث خصوصاً طموحات عبد النّاصر بإقامة وحدةٍ بين مصر وسورية.

ربطتني معرفةٌ شخصيّةٌ بثلاثة من هؤلاء الضبّاط بينهم عفيف البزري الذي كان قريباً جدّاً من الحزب الشيوعيّ. بقيت على تواصل مع البزري ولقاء عندما جاء إلى لبنان وعمل مع المقاومة الفلسطينيّة. وثاني هؤلاء الثلاثة يُدعى أحمد عبد الكريم وهو ما زال على قيد الحياة. والتقيتُ قبل أكثر من شهرين في مستشفى الجامعة الأميركيّة في بيروت بعبدو، نجل رفعت الكردي الذي كان وزيراً للاتّصالات [في سورية، ممثّلاً الحزب الشيوعيّ السوري]. أخبرني عن زواجه من ابنة أخ أحمد عبد الكريم وقال إنّ الأخير يقيم في بلدته حوران، كما أخبرني أنّ منزله صار مزاراً بعد تحوّله إلى مرجع بسبب اتّخاذه موقفاً علنيّاً ضدّ النظام وبسبب صعوبة التعرّض له.

التقيتُ هؤلاء الضبّاط الثلاثة مراراً بعد الوحدة. أخبروني كيف ذهبوا إلى مصر زعماء لسورية وطلاب وحدة، ليتحوّلوا لاحقاً إلى وزراء مركزيين لم يُمنحوا أي سلطة. يذهبون إلى المكتب ومنه يعودون. تبع الوزراءُ الإقليميّون الذين تحت سلطتهم مباشرةً لعبد النّاصر. أمّا هم فتمّ إهمالهم بشكلٍ كاملٍ ووضعوا في شبه إقامةٍ جبريّة.

خافت البرجوازيّة السّوريّة من تطوّر الحركة الشعبيّة وازدياد نفوذ الشيوعيّين والبعثيّين. أقبل البعثيّون حينها على الوحدة أيضاً انطلاقاً من عقيدتهم القوميّة: أمّة عربيّة واحدة ذات رسالة خالدة. أمّا الشيوعيّون فكانوا من صنّاعها وذلك من خلال الضبّاط الموالين لهم. أراد الجميع الوحدة، لكن أيّ وحدة؟ اندماجيّة أم اتحاديّة؟

ما أعرفه أنّ الشيوعيّين ألحّوا على وحدةٍ اتحاديّة تأخذ بعين الاعتبار الظروفَ الموضوعيّة في كلٍّ من البلدين، وكذلك مستوى الحياة السياسيّة وقوّة الأحزاب ووجودها التاريخيّ . شكّل موقف الشيوعيّين هذا صّدىً لموقف الحزب التاريخيّ من الوحدة العربيّة ودعْوته إلى تحقيقها على المستوى الوطنيّ العربيّ. كان عديد الحزب الشيوعيّ ونفوذه كبيرين في سورية، لذا من الطبيعي أنّه فكّر بطبيعة الوحدة بين بلدٍ كبيرٍ كمصر وآخر صغير كسورية، مع الانتباه إلى الفوارق بين البلدين.



في مصر حينها، تمّ احتكارُ الحياة السياسيّة من قبل تنظيم رسميّ فوقيّ، فيما قبع الشيوعيّون وبقيّة الأحزاب في السّجون. لذلك خاف الشيوعيّون السوريّون من الوحدة الاندماجيّة. وقد برّرت الحياةُ خوفهم، فقد تمّ القضاء على الحياة السياسيّة وحُلّت الأحزاب وامتلأت السجون بالمناضلين الشيوعيّين.

أعلن شكري القوتْلي الوحدة الاندماجيّة. لم يفعل ذلك الضّباط كما أنّهم لم يعترضوا عليها.

في الواقع، تناولت المحادثات نظام حكم شبه اتّحادي، من حكومة مركزيّة وحكومتين إقليميّتين، وكذلك المجالس. لكنّ ما حصل على أرض الواقع كان خلاف ذلك تماماً. الحكومة المركزيّة التي ضمّت الضبّاط الذين رافقوا شكري القوتلي [إلى مصر لمفاوضات الوحدة] وُلدت ميتة ووُضع وزراؤها في شبه إقامةٍ جبريّة في القاهرة ومُنعوا من زيارة سورية. وفي الواقع، تمّ تعيين المشير عبد الحكيم عامر حاكماً عسكريّاً مطلق الصلاحيّة في سورية.

على الرغم من ذلك لم يطالب الشّيوعيّون بالانفصال بل بإعادة النّظر بالأساس في طبيعة الوحدة. من أسقط الوحدة هي البرجوازيّة السوريّة ومن تآمر هو حزب البعث. أمّا الحكومة الانفصاليّة فقد منعت خالد بكداش من العودة إلى سورية بعد الانفصال. ينبغي أن يُعرف التّاريخُ على حقيقته.

في البداية. برز موقف الحزب من الوحدة واضحا لكنه سرعان ما ارتبك عند إعلانها بالشكل الذي أعلنت فيه. كان من المفترض أن يكون الحزب متفقا مع ضباطه على التوجه نحو إقامة وحدة اتحادية لا اندماجية. وقد نشطوا في ذاك الاتجاه.

عمل عبد النّاصر على حشد الجماهير، كفّر أمامها الشّيوعيّة والشيوعيّين في الوقت الذي كانت فيه الرجعيّة السوريّة وحلفاؤها القوميّون (البعث خصوصاً) يعملون على الإطاحة بالوحدة، وقد نجحوا للأسف الشديد.

موقف الحزب المرتبك من الوحدة

في البداية، برز موقف الحزب من الوحدة واضحاً لكنّه سرعان ما ارتبك عند إعلانها بالشّكل الذي أعلِنتْ فيه. كان من المفترض أن يكون الحزب متّفقاً مع ضبّاطه على التّوجّه نحو إقامة وحدةٍ اتّحاديّةٍ لا اندماجيّة، وقد نشطوا في ذاك الاتجاه. وأعتقد أنّ خالد بكداش لم يعارض الوحدة لأنّه كان صاحب القرار عند اتّخاذه.

ليلة إعلان الوحدة لاحظتُ الارتباك على وجه فرج الله. كنت حينها في مطبعة جريدة «النّور» عند منتصف الليل. ذهبتُ إلى دمشق عن طريق طرابلس. لم أعد أذكر لماذا ذهبتُ عن طريق الشّمال وما إذا حصلت مشكلةٌ في ذلك الحين على الحدود بين لبنان وسورية. ما أذكره فقط أنّي ذهبتُ عن طريق حمص. حين وصلتُ إلى الحدود سمعتُ عبر الراديو شكري القوتلي يقول «هذا اليوم التاريخيّ العظيم». أعلن القوتلي الوحدة وأنا أقف تماماً على الحدود. توجّهتُ مباشرةً إلى دمشق وإلى مطبعة «النور» لرؤية كريم مروّة، ذلك أنّ مكتب التحرير موجودٌ إلى جانب المطبعة. وكريم كان قد توجّه قبل بضعة أشهر، بناءً على اقتراح فرج الله، للعمل في الجريدة. وقد سأل عنه فرج الله في وقتٍ سابقٍ خلال زيارتنا إلى دمشق وأخبرناه حينها أنّه بعدما عمل مع اتّحاد الشباب الديمقراطي العالمي عاد وتسجّل في الجامعة وهو يقوم بالتّدريس في شمسطار. أقام كريم ثلاثة أشهر في سورية وعمل في جريدة «النّور». ولأنّ سورية في ذلك الحين كانت قد خرجت حديثاً من الدّيكتاتوريّة ولم تتوافر فيها البنية التّحتيّة، كان جميع العاملين في الجريدة، الذين يجمعون الأحرف ويطبعون على الماكينات، من رفاقنا اللبنانيّين.

سيطر الارتباك في تلك اللحظات على العمّال بسبب عدم استلامهم الافتتاحيّة ليُعرف من خلالها الموقف. وبينما أنا أنتظر كريم لمعرفة موقفهم، وصل فرج الله حاملاً الافتتاحيّة. أشرف على عمليّة صفّها بسبب كثرة التّشطيب والتعديل التي أدخلت عليها. من قام بالتّشطيب؟ لا أتصوّر أنّ فرج الله وحده من قام بذلك، أعتقد أنّ مجموعةً بكاملها ضلعتْ بهذه العمليّة، أقلّه ثلاثةٌ منهم: خالد ونقولا وفرج الله، ذلك أنّ هؤلاء كانوا القادة الفعليّين في الحزب.

بدا الارتباك في الافتتاحيّة: مع الوحدة وإنّما، والـ «إنّما» غير واضحة. أُعلنت وحدة اندماجيّة فوراً، ولم يريدوا أخذ موقفٍ حادٍّ منها، لكنّهم في الوقت نفسه أرادوا تمرير رسالةٍ مفادها أنّ الوحدة الاندماجيّة لن تنجح. هذا هو سبب الارتباك. خرج كلامٌ إنشائيّ من دون معنى، يهرب عبره المرء من قول القضيّة بصراحة. حدث هذا الأمر لأنّ الموضوع أربك الحزب. أنا متأكّدٌ أنّ الحزب توقّع وحدةً اتّحاديّة - كونفدراليّة أو فدراليّة

- لكنّه لم يتوقّع وحدةً اندماجيّة، ولهذا السّبب فوجئوا بالإعلان كما فوجئ الضّباط. على الأقلّ، هكذا حدّثني عفيف البزري. قال لي إنّهم فوجئوا لأنّهم لم يذهبوا إلى مصر على هذا الأساس، لكنّ عبد النّاصر وضعهم تحت الأمر الواقع بضغطٍ من البعثيّين ومن بينهم أكرم حوراني. وممّا قاله البزري كذلك «وُضعنا تحت الحراسة مباشرةً. قبعنا بين منازلنا والمكاتب لا نتحرّك إلّا برفقة أحد الأشخاص».

وعلى الرّغم من ارتباك الحزب، لم يتّخذ موقفاً، وقد سار الشيوعيّون فيما بعد بالأمر خصوصاً لعدم وجود اضطهادٍ فيه. لكنّ خالد بكداش عبّر عن رفضه للوحدة الاندماجيّة من خلال سفره إلى موسكو وتغيّبه عن الجلسة البرلمانيّة التي كان يفترض أن تتمّ فيها الموافقة على الوحدة الاندماجيّة.

شهدتُ على عودته من موسكو. عندما فعل كتب البنود الثلاثة عشر وأطلعني عليها. يومها التقيتُ بحسين مروة ومحمّد دكروب في دمشق. قالا لي إنّهما يريدان الذّهاب لزيارة بكداش. عرفتُ خالد جيّداً. لطالما زرتُه في منزله بحيّ الأكراد، ذاك الذي خصّصه للزّيارات من دون موعد مسبق. والد خالد كان ضابطاً كبيراً في الجيش التركيّ، وكان منزله قديماً واسعاً مصنوعاً من الطّين، يحوي ساحةً كبيرة تتّسع لإقامة مهرجان، وهو ما زال حتّى اليوم على حاله. على عكسي، لم يكن حسين مروّة ومحمّد دكروب يعرفان خالد مسبقاً. أرادا رؤيته للمرّة الأولى. ولأنّ غياب خالد كان كثيراً ووضعُه في الغالب سرّيّاً، تكفّلتُ بإيصال الرّجلين إليه.

لم أكن قد التقيتُ خالد منذ مدّة، تحديداً منذ أيّام الثّورة في العام **١٩٥٨**. لدى توجّهنا للقائه، كانت أصداء عملي بالثورة قد وصلته. رحّب بي، وقال «أهلاً رفيق جورج رفعت لنا رأسنا». شرحتُ له أنّني أتيت بلا موعد لأنّ حسين ومحمد يريدان رؤيته. كان يعرف عنهما من دون أن يكون قد رآهما سابقاً. في ذلك الوقت، كان محمّد يتولّى إصدار «الثقافة الوطنيّة» وحسين لم يكن يحتاج إلى تعريف.

أثناء جلوسنا، قال خالد إنّه يفكّر بإصدار بيانٍ يقول فيه إنّه لا بدّ للوحدة من إصلاح. وأخبرنا أنّه كتب البنود الثلاثة عشر التي قرأها لنا عن ورقةٍ تحوي الكثير من التّشطيب مكتوبة بخطّ يده. لذلك، يمكنني القول إنّني ودكروب ومروة أوّل من قرأ هذه البنود حتى قبل فرج الله ونقولا.

أهمّ ما حوتْه تلك البنود اعتبار أنّ الوحدة انحرفت وينبغي أن يعاد النظر فيها من الجذور، إلى جانب حديث عن الديمقراطيّة والاحتكارات المصريّة، وتصرّف المصريّين مع السوريّين كمستعمرين لمستعمرة على غرار ما كانت تفعل فرنسا، لكنّ خالد لم يستخدم لفظة «مستعمر» بل تحدّث عن «هجمة رأس المال المصريّ». كما دعا خالد إلى العودة للفدراليّة، واعتبر أنّ الوحدة بصيغتها الحاليّة ستعيد النظام الرجعيّ إلى سورية، وقال إنّ كلّ مكاسب سورية التي تحقّقت منذ العام **١٩٥٤** مهدّدة بسبب تصرّفات الوحدة وتصرفات المصريّين. وحوَت بنودُه مآخذ كثيرة على المصريّين، تحديداً الضبّاط منهم، لأنّهم يتصرّفون كسادة، والآمر الناهي لديهم هو المشير عبد الحكيم عامر.

تسبّبت البنود [التي أصدرها خالد بكداش] بتشديد الحملة على الشيوعيّين، ذلك أنّها شكّلت صوتاً مخيفاً في سورية يدعو إلى إعادة النظر في أساس الوحدة، وهو ما عنى رفض الوحدة عمليّاً كما كان يريدها ويمارسها عبد النّاصر والمصريّون. صحيح أنّهم دفعوا ثمنها لكن دفع ثمنها المصريّون كذلك. وقد دفعت البنود عبدَ النّاصر إلى إلقاء خطابه الشهير في الإسكندرية الذي هاجم فيه الشيوعيّة، الأمر الذي فتح المجال لإرهابٍ لا مثيل له في مصر وسورية ضدّ روّادٍ من الرّفاق الذين صمدوا، وهم كثرٌ منهم رياض الترك. أخذوا يرمون الترك في البحر ثمّ يعيدون التقاطه وقد أدخلوا رأسه في كيسٍ لدفعه إلى الاعتراف، لكنّه صمد. سُجن رياض لثلاث سنوات في عهد عبد النّاصر وسبع عشرة سنة في عهد حافظ الأسد، أي إنّ مجموع السنوات التي قضاها في السجن هو عشرون سنة. كما تعرّض للاعتقال بضعة أشهر أيّام بشار الأسد. ومن بين الذين صمدوا أيضاً مراد القوتلي وهو ابن عائلة كبيرة، جدّه لأمّه هو عبد القادر الجزائري.

صمد معظم الشّيوعيّين ما عدا قلّةً متخاذلةً منهم. وباعتقادي أنّ من تخاذلوا هم الذين هربوا. للأسف هرب كلّ كبار أعضاء اللجنة المركزيّة وجاؤوا إلى لبنان. وهذا ما جعل فرج الله يتحمّل أعباء كلّ ما كان يجري في سورية، وما جعل اللبنانيّين يلعبون دوراً أساسياً مثلي ومثل كميل مجدلاني وسوانا. بالإضافة إلى عملنا مع فرج الله كنّا نوزّع المناشير في سورية ونقوم بإيصالها إلى المعنيّين. استخدمنا سياراتنا لذاك الغرض. كان هناك بضعة أشخاص نلتقي بهم في أماكن محدّدة ونقوم بتسليمهم المناشير لتوزيعها. تُكتب المناشير وتُطبع في

بيروت ثمّ ننقلها إلى سورية للتّوزيع. في بعض الأحيان تولّى لبنانيّون مقيمون في سورية أو يتردّدون من لبنان

لما قامت الوحدة. ظل فرج الله المسؤول الوحيد من قيادة الحزب في دمشق مسؤولا عن الحزب في سورية بعدما غادر معظم الكوادر السوريين إما إلى السجون أو إلى المنافي وخصوصا لبنان. وكان من الطبيعي أن يبقى أحد القادة في سورية. إما خالد أو نقولا أو فرج الله. وقع الاختيار على فرج الله.

على سورية توزيعَ تلك المناشير، ذلك بسبب سيطرة حالٍ من الرّعب والذّعر والانهيار على الشيوعيّين السوريّين. وقد سيطرت تلك الحالة بعدما فوجئ الشيوعيّون السوريّون بالحملة العنيفة ضدّهم خصوصاً أنّ معظم القيادات خرجت من سورية. في ذلك الوقت لم يكن أحدٌ من أعضاء في اللجنة المركزيّة من السوريّين في سورية. كانوا في بيروت أو في موسكو. كان يوسف فيصل في بيروت، وأنا اهتممتُ به داخل بيتٍ سرّيّ.

إلقاء القبض على فرج الله

بعدما انتهتْ مفاعيل «رسالة سالم»[1] سيّئة الذّكر وأعيد إليه الاعتبار، كان فرج الله يقيم في دمشق، وذلك بعد سقوط ديكتاتوريّة الشّيشكلي وعودة الحياة إلى البرلمان كما إلى سائر الأعضاء البارزين في قيادة الحزب. عمل فرج الله على إصدار جريدة النّور اليوميّة، وكان المسؤول الفعليّ عن سياستها. واستمرّ مقيماً في دمشق برغم تردّده على بيروت.

ولمّا قامت الوحدة، ظلّ فرج الله المسؤول الوحيد من قيادة الحزب في دمشق مسؤولاً عن الحزب في سورية بعدما غادر معظم الكوادر السوريّين إمّا إلى السجون أو إلى المنافي وخصوصاً لبنان. وكان من الطّبيعيّ أن يبقى أحد القادة في سورية، إمّا خالد أو نقولا أو فرج الله. وقع الاختيار على فرج الله. وفي هذا الإطار أريدُ أن أنفي نظريّة المؤامرة وسوء النّيّة لأنّها غير صحيحة وأرى أنّ من روّج لها كاذب، ففرج الله هو من طلب البقاء لأنّه كان المسؤول والمطّلع على شؤون التنظيم وكلّ تفاصيل الحياة الحزبيّة في سورية، وليس خالد هو من اقترح ذلك للتخلّص منه.

في ذلك الوقت بدا خالد بكداش قلقاً جدّاً على فرج الله، بعَث رسالة من موسكو تدعو إلى ضرورة رحيل فرج الله عن دمشق فوراً لوجود خطرٍ جدي عليه. وهو ما أكّده لي نقولا الشاوي ويوسف فيصل. بلغ هذا الأمر فرجَ الله فقدم إلى لبنان. ووفقاً لما يرويه يوسف فيصل ونقولا، فإنّ هذا الأخير وآرتين انفردا بفرج الله وبحثا معه رسالة خالد وسألاه عنها. عندها اعترف فرج الله بأنّ الوضع قد أصبح خطراً، لكنّه أكّد في الوقت نفسه أنّه لا يستطيع عدم العودة إلى سورية بسبب ضرورة تأمين استمرار بعض الصّلات على أن يكون ذلك آخر مشوارٍ له إلى سورية. وكان هذا بالفعل المشوار الأخير لفرج الله الذي أودى بحياته.

كلّفتُ بالتنقّل بين بيروت ودمشق لتأمين الصلة بفرج الله ونقل رسائل مكتوبة وأخرى شفهيّة له ومناقشته حول بعض القضايا وأخذ رأيه. وفي بيروت اقتصرت صلاتي واتصالاتي حول هذا الموضوع على نقولا وآرتين.

توليتُ نقل مطبوعاتٍ إلى فرج الله. نقلتها بالسيّارة نفسها التي نقلْت فيها السّلاح. أمّا الرسائل، سواء تلك التي كنت أنقلها له بعد نقاشٍ مع آرتين ونقولا أو تلك التي كنت أنقلها منه وأتناقش معه فيها، فكانت شفهيّة. في بعض الأحيان، عندما لم يكن الوضع الأمنيّ مخيفاً والمكان يسمح لنا، كنّا نتناقش لنحو ساعة من الزمن. أكثر ما التقينا كان إمّا في منازل سرّيّة أو في الطّرقات.

في إحدى المرّات توجّهتُ إلى دمشق للقاء فرج الله. أعطاني ثلاثة مواعيد مختلفة المكان والزمان ليلتقيني وأسلّمه أشياء وأتسلّم منه أخرى ونتحدّث معاً. توزّعت المواعيد الثلاثة على أوقاتٍ مختلفة من النّهار: موعد قبل الظّهر وآخر بعده والثّالث في المساء. توجّهتُ بالسّيّارة، وكان عليّ أن أتجوّل بين الموعد والآخر بانتظار أن ألقاه.

كان بالإمكان الجلوس لبعض الوقت في القهوة، إلّا أنّ الوضع الأمنيّ كان بوليسيّاً، فرجال الأمن يتجوّلون في كلّ مكان.

لم يأتِ إلى أيٍّ من مواعيد قبل الظّهر أو بعده. قضيتُ الوقت متنقّلاً منذ الصّباح بانتظار موعد المساء وكان عليّ العودة إلى بيروت لأنّ بقائي في دمشق يزيد المخاطر.

وبينما أنا أتنقّل، مررت أمام مطعمٍ يُدعى «مطعم الريّس»، صاحبه لبنانيّ ويقع بالقرب من فندق الشّام حيث توجد ساحة وفي وسطها تمثالٌ لفلّاح. خلال مروري بالسّيّارة بالقرب من المطعم، لفت نظري اقتراب سيّارتين اصطفّتا قرب بعضهما البعض على طريقة الاستخبارات. فُتحت أبواب السيّارتين معاً ونزل منها شبّان وبنات. رأيت بينهم رفيق رضا.

١ هي الرسالة التي أجبر فرج الله الحلو على كتابتها بمثابة نقد ذاتي على موقفه المعارض لخالد بكداش وسائر قيادة الحزب من تأييد الحزب الشيوعيّ السوريّ - اللبنانيّ لقرار تقسيم فلسطين العام ١٩٤٧ وقد نُحّي فرج الله عملياً من قيادة الحزب لموقفه هذا.

عرفتُ رفيق رضا عن قرب ولزمنٍ طويل يوم كنت أتردّد على جريدة «الصّرخة» في بيروت وكان من المشرفين عليها. عاش رفيق فترةً في فرنسا بالـ «سكسيون كولونيال» («شعبة المستعمرات» التابعة للحزب الشيوعيّ الفرنسيّ وتضمّ مندوبين للأحزاب الشيوعيّة في المستعمرات والبلدان الواقعة تحت الانتداب). كان رفيق صاحب خبرة واسعة، ومسؤولاً حزبيّاً مثقّفاً. عرفْته لحظة رأيته يترجّل من السيّارة، عرفته من ظهره وحركته وكذلك من صوته. عندما التقيتُ فرج الله مساءً بين السّاعة السّابعة والسّاعة الثّامنة أخبرته بما رأيت. أجابني بأنّ الأمر مستحيل برغم تأكيدي على ذلك. قال إنّ النّاس تتشابه، مضيفاً: شُبّه لك.

لم يقتصر الأمر على رفيق رضا. أثناء تنقّلي خلال النّهار سيراً على الأقدام، صادفتُ زوج ابنة خالي المولودة في الاسكندريّة والمتزوّجة في دمشق. وزوجها موظّفٌ في شركة الكهرباء والمفوضيّة الفرنسية العليا سابقاً. عندما رأيته ارتعب ورمى نفسه بين السّيّارات التي كادت تصدمه، كي يصل إلى الرّصيف الثّاني. أخبرتُ فرج الله أيضاً بذلك وأكّدت له وجود حالة من الرّعب بين السوريّين.

هنا ربّما شعر فرج الله بحاجتي إلى التشجيع فألقى عليّ محاضرةً عن صمود الشّعب السوريّ وأهميّته، معتبراً أنّ زوج ابنة خالتي لا يعكس الحالة الفعليّة لأهل دمشق. ساعد فارق السّنّ بيننا على إلقاء دروسٍ عليّ، ذلك أنّ فرج الله كان يبلغ حينها من العمر حوالي خمسةً وخمسين عاماً بينما كنتُ أنا في التاسعة والعشرين. لكنّه بدا في الوقت نفسه خائفاً من أن أكون قد تأثّرت من حال الرّعب التي شاهدتها.

وصـــــــــــــل فرج الله إلى المنزل بعدما شاهد شارة الجهوزية. بمجرد أن فتح باب المنزل بالمفتاح الذي كان فيى حوزته. فوجئ بالأمن داخله. كل ما ورد فيى الرواية أن فرج الله قال عبارة واحدة «أنا فرج الله الحلو. وأنا مسؤول عن كل موقف الحزب فيى سورية ولا يوجد مسؤول غيري». كانت هذه الكلمات آخر ما قاله.

بعدما تناقشتُ مع فرج الله وعدتُ إلى بيروت في تلك الرّحلة الأخيرة إلى دمشق، ظهرتْ مانشيت في «النّداء» عن اعتقال رفيق رضا في العاصمة السوريّة. استمرّت الحملة في الجريدة لثلاثة أو أربعة ثمّ توقّفت. لم يتحدّث الحزب عن الموضوع. عرفت وقتها أنّه أصبح هناك شكّ في رفيق رضا. في الحقيقة أخطأ فرج الله لأنّه كان على علمٍ أنّ رضا يعرف ببعض صِلاته، أي الأشخاص الذين ارتبط بهم وقاموا بتأمين خدماتٍ له. ولم يعلم فرج الله أنّ «بوحبلة» اعتُقل. وبوحبلة رفيقٌ من ضمن مهمّاته تأمين المنازل السرّيّة لفرج الله ومرافقته. أدّى اعتقال رفيق رضا إلى اعتقال بوحبلة، الذي لم يكن شخصيّة معروفة بل كُلّف فقط بخدمة فرج الله وكان من بين الأشخاص الذين يعملون دائماً «تحت الأرض».

تعاون رفيق رضا مع الشّرطة فور اعتقاله. وقد تأكّد فيما بعد أنّه قد تعاون مع الشرطة من قبل. حينها كان رفيق رضا في حوالي الخمسين ومتزوّجاً من شابّة في العشرين من عمرها. وبحسب ما قيل، ابتزّوه بزوجته. عندها ربطتُ بين رؤيتي له في دمشق مع الشابّات الصغيرات، أي أنّه كان برفقة زوجته وجماعة الأمن ممّن يتعاون معهم.

عندما تعاون رفيق رضا مع الشّرطة أخبرهم أنّهم إذا ما كانوا يريدون الوصول إلى فرج الله فما من وسيلة لذلك سوى بوحبلة. اعتقلوا الرجل، فلم يصمد كثيراً كما فعل غيره نظراً إلى أنّه لم يكن كادراً مجرّباً ولم يتصوّر أنّ أحداً سيعتقله. تعاون بوحبلة معهم، فأخبرهم أنّ ثمّة احتمال أن يأتي فرج الله إلى منزلٍ يعرفه عندما يزور دمشق، وأنّه متفقٌ مع فرج الله على وضع منشفة من لونٍ معيّن على حبل غسيل المنزل، ما يعني أنّ المنزل آمن. بوحبلة خان، وفعلاً صار ينتظر فرج الله في إحدى الشّقق حيث تمّ الإيقاع بالأخير.

وصل فرج الله إلى المنزل بعدما شاهد شارة الجهوزيّة. بمجرّد أن فتح باب المنزل بالمفتاح الذي كان في حوزته، فوجئ بالأمن داخله. كلّ ما ورد في الرّواية أنّ فرج الله قال عبارة واحدة «أنا فرج الله الحلو، وأنا مسؤولٌ عن كلّ موقف الحزب في سورية ولا يوجد مسؤولٌ غيري». كانت هذه الكلمات آخر ما قاله، قُطع بعدها الحديث مع الأمن، وذلك باعتراف الضبّاط خلال المحاكمة. ويروى أيضاً أنّهم عندما وجدوا معه كمّيّة كبيرة من المفاتيح تعرّض للضّرب حتى الموت من دون أن يعترف.

كُشِف في هذه المحاكمة أيضاً دور بوحبلة. لم يعرف أحدٌ عن هذا الرّجل سوى فرج الله ورفيق رضا. لم يكن بوحبلة عميلاً، لكنّه لم يصمد بعد اعتقاله من قبل الأمن بل تعاون معهم. في الأصل بوحبلة طيّب وبسيط، وهو ما دفع فرج الله إلى استخدامه، مثل الذين كانوا يُستخدَمون

المباحث تختطف فرع ال

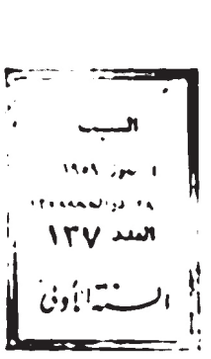

زبانية المباحث يخت
اللبناني الكب

حياة فرنج الله الحلو

نبأ الاختطاف الاجرامي يهز اللبن

منذ ايام ، وعلى وجه التحديد في الخامس والعشرين من ش
حزيران المنصرم ، اختطف رجال المباحث في دمشق الانسان ف
الله الحلو الوجه اللبناني الكبير والمناضل العربي الجريء ، ل
صفوف الحركة الوطنية من اجل استقلال وحرية لبنان وسو
وسائر البلاد العربية ، القائد المعروف في الحزب الشيو
اللبناني ، اختطفوه بينما كان سائرا في احد شوارع ، وز
في اقبية التعذيب الرهيبة ، مواخفوا امر انتقاله الكفر ح
الآن ، خوفا من ردة فعله الرأي العام في لبنان والشرق الأو
وفي العالم ايضا .

ان فرح الله الحلو يعاني الآن على ايدي جلاوزة المباحث
على ايدي رجال المباحث وزبانيته زكريا محيي الدين
صنوف التعذيب والتنكيل مناضل لبناني وجه وطني
الوحشية ، على الرغم من انه العربي على اختلاف اتجاهاتها

حول مؤتمر الذروة العربي

استعرض موضوع مؤتمر القمة العربي في الاسابيع الاخيرة على اصدار ٣٠ وكالة السياسية والرسمية في العالم العربي . وهذا الموضوع مشكل صلة وثيقة بالمشروع الذي عهد به هيرشولد الى هيئة الامم المتحدة مؤخرا، واثار جميع القراءات سواء الاختلاف الصحفيين استغلها العديد من الاشخاص .

وجميع الاسئلة التي وردت من الاوساط العربية العالمية بشأن مؤتمر القمة العربي هذا ، تشير الى ان القضية الرئيسية فيه ستكون قضية الموقف الذي يجب على العرب ان يقفوه من مشروع هيرشولد . واصبح من المعروف انه قد وافقت بعد دون فرنسة على حضور مؤتمر القمة . اما بريطانيا فقد رفضت حضوره حتى الآن .

بالطبع ليس هناك من عربي واحد يرى مصلحة في ان يتخذ العرب موقفا موحدا من مشروع هيرشولد ، وفي ان يحاول احد موقف موحد من قضية حقوق العرب في جميع الظروف عن قضية اللاجئين الفلسطينيين الذي يشكل هذا اساسا من القضية الصهيونية .

كما ان من مصلحة العرب ان يكونوا مجموعة الكلمة ، موحدي الهدف في مفاهيمهم حتى حلول القضية الوطنية لرد العدوان الاستعماري الغربي عليهم سواء مباشرة ام بصورة غير مباشرة .

ولكن هناك بعض المتشائمين في الموقف العربي تشير الى التوضيح والتصريح ولا يزال سير السؤال .

عاد هيرشولد الى القاهرة في اخر الشهر الماضي ، ثم غادر منها بعد ومن المباحثات مع حكام القاهرة . ولم يصدر شيء واضح عن نتائج هذه المباحثات التي يشكل الجانب الاكبر منها مشروع سكرتير الامم المتحدة لوقف الاعتداء . وبالطبع كان السؤالون في الجمهورية العربية المتحدة على موقف هيرشولد الذي توضحه في مشروعه . ولقد اكدت هذه المشروعات على ذلك . وهناك دول عربية مثل لبنان والعراق ، اعلنت رفضها رسميا لمشروع الموطن ولقد اعلنت موقفها بصراحة بعدن مباحثات مع صاحب المشروع ودون ان تنتظر مؤتمر القمة .

وعكس هذا موقف العراق ولبنان على انهما متصلان على الذهاب الى مؤتمر القمة ـ اذا لم ـ للمباحثات مع الاخرين على اساس رفض مشروع هيرشولد .

اما القاهرة وحلفاؤها كما اشرنا الى عقد مؤتمر القمة ، فقد سمح موقفها العربي حتى الآن ، اي بتصريح واضح عازم بشأن شروع هيرشولد وتحمل المسؤولون الكبار الذكاء فيما اشيع حتى الآن عن موقفها من مؤتمر القمة العربي وضرورته دون التعرض الى جوهر القضية الاساسية التي سيتناولها المؤتمر .

وهذا من قبل العرب واعتباره ما عدا وكالات الانباء عن ان بعض المصادر المسؤولة تعتقد ، ان السكرتير العام للامم المتحدة لم يصادر القاهرة بشكل الحدود واحدا يمكن من احراز بعض التقدم نحو حل بعض القضايا التي تعترض فيها ... وتصميم هيرشولد لا يمكن ان يعني هنا الا ان يحصل على نوع من الموافقة على مشروعه المعروف التي لا يمكن ان يرى سواها .

واذا كان موقف حكام القاهرة لا يخرج عن اجماع العرب على رفض مشروعات هيرشولد فعلما لم يصرحوا به حتى الآن . ليكون العرب على حيرة من امرهم ولتضطروا بعض الشيء لتتبع مؤتمر القمة العربي والذي له مبررا وهدفا واضحا واضحا .

اما انا كتب به حكام القاهرة وحلفاؤهم بعض استخدام هذا المؤتمر

الله الحلو بدمشق وتخفيه

٢ ـ اشارة الهجوم على العراق

في حديث عبد الناصر الى «الاهرام»

[illegible]

يختطفون بدمشق القائد الوطني

لبير فرج الله الحلو

لو معرضة للخطر في سراديب المزه

ز اللبنانيين فيتداعون للقيام بحملة واسعة لانقاذ المجاهد الكبير

[illegible]

ومصالحه الحيوية .

ولم تخلق الشعوب العربية ، سواء في سوريا او لبنان او الاقطار الاخرى ، معركة من معاركها الوطنية الا كان فرج الله الحلو واخوانه في صفوف الكفاح الاولى .

وفي عام ١٩٢٦ اعتقلته سلطات الانتداب الفرنسي في دمشق ايام الاضراب الخمسيني الشهير الذي ارغم بعده الاستعمار الفرنسي على توقيع معاهدة ١٩٢٦ السورية ـ الفرنسية .



في مثل هذه القضايا على اعتبار أنّهم كانوا على الأقلّ مجهولين من الشّرطة. راحوا يأخذونه إلى جلسات التّعذيب مع جملة المعتقلين الآخرين، لكنّهم على الأرجح لم يعذّبوه. ولم يتمّ كشفه إلا من قبل الشّرطة السوريّة، عندما فتحت فرجيني حلو دعوى بصفتها وليّة الدّم. وفي المحكمة تبيّن كيف حدثت العمليّة لأنّه تمّ اعتقال الضبّاط المسؤولين عن مقتل فرج الله إذ كانوا لا يزالون حينها في سورية. أراد النظام الجديد الذي أتى في ذلك الوقت، نظام البرجوازيّة السوريّة، أن ينتهي من كلّ هذه التركيبة. أصبحت محاكمة المسؤولين والتّحقيق معهم أمراً يسيراً.

روى الضبّاط ما جرى حيث قاموا بفضح دور بوحبلة الذي خرج من السّجن حينها مع رياض الترك ومراد القوتلي ومجموعات كثيرة صمدت في السّجن، والذين أصبح معظمهم قادة في الحزب الشيوعيّ. والقوتلي صار وزيراً.

ووفقاً لما رواه سامي جُمعة، رجل الأمن الذي تولّى اعتقال فرج الله، فقد أذيب جثمان فرج الله بالحامض الكبريتي. وجمعة هو الوحيد الذي رأى فرج الله بعد اعتقاله. وقد أصدر كتاباً منذ حوالي أربع أو خمس سنوات، كتب مقدّمته مصطفى طلاس وصدر عن «دار طلاس». روى جمعة في الكتاب عمليّة اعتقال فرج الله وموته، حاول تبرئة نفسه من المسؤوليّة عن مقتله وإن كان قد اعترف بأنّه أسهم في اعتقاله. وأشار جمعة إلى أنّه توجّه إلى منزله للرّاحة وأثناء غيابه تمّ تعذيب فرج الله وقتله. واتّهم سامي جمعة أحدَ الضبّاط ويدعى عبد الوهّاب الخطيب، بالمسؤوليّة عن القتل.

جاء رفيق رضا إلى فرج الله وهو رهن الاعتقال وقال له: لكي تنجو بحياتك افعل مثلي. حاول رفيق رضا إقناع فرج الله بالتّعاون متسائلاً ما الذي يجنيه من عناده. حاول ابتزازه ببناته الثلاث متحدّثاً عن صغر أعمارهنّ. وبالرّغم من محاولات ابتزاز رفيق رضا لفرج الله بعائلته، صمد فرج الله تحت التعذيب وغاب عن الوعي، فوضعوه تحت درج، وذهبوا لتناول القهوة أو الطعام على أن يعودوا لإكمال تعذيبه، فوجدوه ميتاً. مات فوراً من الليلة الأولى. لم يقضِ سوى ساعاتٍ بين أيديهم. هو في الأساس كان يشكو من قلبه ويتناول الأدوية، كما كان يتّبع نظاماً غذائيّاً معيّناً. على سبيل المثال، يتناول «وقية لحمة هبرا مشويّة وكاسة لبن وصحن حمّص خلال وجبة العشاء».

روى سامي جمعة في كتابه أيضاً كيف أربكهم اعتقال فرج الله وموته، خصوصاً بعدما جاء الأمر من مصر بضرورة إخفاء القضيّة بأيّ طريقة. دفنوه بعد قتله في بستانٍ لدى جمعة، ثمّ أخرجوا جثّته ووضعوه في حوض مرحاض إحدى الشقق وذوّبوه بالأسيد لإخفاء أيّ أثرٍ له.

ارتباك عبد النّاصر وكذب هيكل

بوصول خبر اعتقال فرج الله، قام الحزب بحملة لبنانيّة وعربيّة ودوليّة للإفراج عنه، وشكّلنا لجنة دوليّة من شخصيّات كبيرة للمطالبة بذلك. في ذلك الحين لم نكن متأكّدين من أنّه توفّي، أو بتعبيرٍ أدقّ لم نرد الاعتراف بذلك. كان رئيس اللجنة الدوليّة برلينغوير الأب، [والد إنريكو برلينغوير، الأمين العامّ للحزب الشّيوعي الإيطالي] وقد كان سيناتوراً اشتراكيّاً. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه توجد صورة لبرلينغوير الأب في بيروت وهو يحمل طفلة فرج الله الصغيرة. تزوّج فرج الله كبيراً في السّنّ، حوالي الخمسين عاماً على غرار باقي قادة الحزب. خالد ونقولا مثلاً تزوّجا في الفترة العمريّة نفسها تقريباً.

ارتبك عبد النّاصر عندما علم بالأمر، فالضبّاط جاءت إليهم أوامر بإنهاء القصّة لأنّ هذه القضيّة لا يمكن تحمّلها أمام الدّول الاشتراكيّة والاتحاد السّوفياتي. نحن قدنا حملةً كبيرة. يومها، حصلت تدخّلاتٌ كثيرةٌ مع عبد النّاصر أصرّ خلالها على نفي أيّ علاقة له. تيتو، الصينيّون، الرّوس، جميعهم اتّصلوا بعبد النّاصر للكشف عن مصير فرج الله. في ذلك الوقت كان فرج الله مسؤولاً كبيراً لكنّهم للأسف أصرّوا على الإنكار، منهم محمّد حسنين هيكل الّذي ظلّ مصراً حتّى وفاته على أنّ ليس هناك من يُدعى فرج الله الحلو، وذلك في أحد كتبه التي كتبها بعد وفاة عبد النّاصر. التقى به كريم مروّة وعاتبه، فقال له إنّه سيصحّح ما ورد في الكتاب لكنّه أعاد طبعه من دون أن يصحّح... استمرّ المصريّون في كذبة عدم وجود قضيّة لفرج الله الحلو تماماً كما لم يكن هناك رياض الترك لدى حافظ الأسد، في وقتٍ كان هذا يضعه على مدى سبعة عشر عاماً في قبوٍ تحت الأرض.

اللقاء الأخير مع فرج الله

لا أتصوّر أن فرج الله كان وقتها يتردّد على منزله كثيراً، إذ كان تواجده في بيروت سرّيّاً خصوصاً أنّه قضى أغلب وقته في سورية. في آخر مشوار له في بيروت، قبيل استشهاده بفترة قصيرة، طلب منّي إيصاله إلى مكان في العاصمة، مكان قريب للّيسيه الفرنسيّة حاليّاً عند مدافن رأس النّبع. تواجد في جريدة «النّداء» في الصيفي ومعه حقيبة صغيرة.

أخبرني أنّ لديه موعداً لمقابلة أصدقاء في رأس النّبع. وبطبيعة الحال لم يخبرني أنّه سيعود إلى سورية، لكنّي شككت بأنّه قد يفعل. وبالفعل لم أره بعد ذلك الحين لأنّه لم يعد لزيارة الجريدة، حتى تلقّيتُ خبر اعتقاله. مَن نقَل إليّ الخبر هو الرّفيق عزيز صليبا الذي عمل طويلاً مع فرج الله، وكان يومذاك يعمل سكرتير تحرير لجريدة «النّداء».

أخبرت نقولا أنني سبق أن حذرت فرج الله لدى رؤيتي لرفيق رضا مع أشخاص اشتبهت بأنهم من الأمن. فقال لي إنه كانت توجد ثقة كبيرة برضا، بوصفه رفيق عمر وابن جيل واحد رافقنا منذ الثلاثينيات.

عندها بدأتُ بمراجعة الأمور في ذهني وذهبت لرؤية نقولا. أخبرتُه أنّني سبق أن حذّرتُ فرج الله لدى رؤيتي لرفيق رضا مع أشخاصٍ اشتبهت بأنّهم من الأمن، فقال لي إنّه كانت توجد ثقة كبيرة برضا، بوصفه رفيق عمر وابن جيلٍ واحدٍ رافقنا منذ الثلاثينيّات. لم يتصوّر أحدٌ إمكانيّة خيانته مع أنّه كان يجب أن نلتفت إلى مسألة زواجه المتأخّر على الرّغم من أنّنا نحن أيضاً تزوّجنا متأخّرين.

ابتزّ الأمنُ رفيق رضا عبر تهديده بالتعرّض لزوجته في حال لم يتعاون معهم. لطالما استخدم الأمن بشكل أساسيّ أساليب الابتزاز هذه. تحوّل رفيق رضا عميلاً وبقي كذلك حتى وفاته. وقد لجأ مع بعض المشاركين في قتل فرج الله إلى القاهرة وبقي هناك.

لم يستطِع أحدٌ الجزم بأنّ فرج الله استشهد. شككنا بالأمر إلى أن جاءنا الخبرُ اليقين. وبعدما أخذنا فترةً كافية حتى تأكدنا بالكامل من الخبر، أقمنا له مأتماً حاشداً في حصرايل برغم عدم وجود جثمانٍ له. تماشياً مع العادات، أقمنا المأتم في قريته وأقمنا فيها مهرجاناً حاشداً خطب فيه نقولا والعديد من الأشخاص من بينهم شفيق الحوت، الذي تعرّف إلى فرج الله يوم كان عضواً في الحزب في المنظّمة الطالبيّة في الجامعة الأميركيّة. ترك خطاب شفيق الحوت كبيرَ الأثر، لأنّه كما فرج الله، أدين في الحزب وأبعد عنه خلال فترة كانت النّظرة فيها إلى كلّ رفيق فلسطينيّ في حزبنا هي أنّه عميل محتمل.

ما أذكره أنّ لبنان بأكمله شارك في جنازة فرج الله، من بينهم حسب ما أذكر ريمون إدّه، الذي تعرّضت سيارته على طريق حصرايل غير المعبّدة إلى تمزّق العجلات، ما اضطره إلى وضع سترته على كتفه والإكمال سيراً على الأقدام للمشاركة. رأيته يتصبّب عرقاً لحظة وصوله. كلّ الطبقة السياسيّة في لبنان شاركتْ باستثناء قلّة من المرتبطين بالمخابرات المصرية. جاءت هذه المشاركة الكبيرة أوّلاً لأنّ فرج الله اسمٌ كبير، وثانياً بسبب احتمال أن يكون في الأمر موقفٌ من سورية وعبد النّاصر.

ونحن عانينا من مؤيّدي عبد النّاصر في لبنان حتى على صعيد توزيع الصّحيفة. لطالما اعتُدي علينا من قبل البعثيّين والقوميّين العرب. أذكر أنّه في إحدى المرّات، في منطقة الغبيري بالضّاحية الجنوبيّة لبيروت، بينما كان الشّباب يوزّعون الصحيفة، تمّ الاعتداء على أحدهم ويُدعى سعد سمهون. ضربوه بموسى من رقبته حتّى آخر ظهره. أردنا معالجته لكن لم نستطع نقله إلى المشفى خوفاً من اعتقاله، فنقلْته بسيّارتي بينما جلس إلى جانبه شخصٌ تكفّل بضمّ الجرح في ظهره. أخذناه إلى الدكتور غبريال بو شعر، وكان طبيباً جرّاحاً ورفيقاً لنا، وابن عائلة شيوعيّة. سمهون أصبح فيما بعد رئيس نقابة بائعي الخضار بالجملة، وهو شقيق لرفيق سمهون عضو المكتب السياسيّ سابقاً.

بالنسبة لي، أعيد الاعتبار الحقيقي لفرج الله باستشهاده على الرّغم من أنّه كان قد أصبح مسؤولاً حزبيّاً في سورية وأعيد إلى قيادة الحزب، لكنّه ظلّ بعيداً عن الواجهة حتى استشهاده. أعيد الاعتبار لهذا القائد ولتاريخه في المهرجان الحاشد وفي تكريم الحزب لذكراه على مرّ الأيّام. من حسن حظّ الحزب أنّه لم يحكم ولم يستول على السّلطة، في سورية أو لبنان، لكان أعدم فرج الله سنة الـ ١٩٤٨ - ١٩٤٩ على غرار ما حصل في أحزاب أخرى. من حسن حظّ فرج الله أنّه لم يُقتل على يد أصدقاء وهو يهتف يعيش خالد بكداش مثل الجنرالات في موسكو الذين كانوا يهتفون وهم يُعدمون «يعيش ستالين». لم يحصل هذا الأمر فقط في موسكو بل في العديد من البلدان التي استلم فيها الشّيوعيّون السلطة.

ما أفظع هذه الجرائم التي ارتُكبتْ باسم الإنسان وكرامة الانسان وحرّيّة الإنسان وحقوقه الأساسيّة وعلى رأسها حقّه في الحياة!

عُرف عن فرج الله الحلو أنّه خلوقٌ دمثٌ طويل البال وهادئ، يتعامل مع الرفاق أخاً وصديقاً، يقنع ولا يفحم، على قدر عالٍ من الثّقافة وكاتبٌ من الكتّاب الذين ينطبق على كتاباتهم أسلوب السّهل الممتنع. لم يؤلّف كتباً لكنّه ألقى مئات الخطب، وكتب مئات الافتتاحيّات في «صوت الشّعب» وصحف الحزب، منها «النّداء» التي صدرتْ قبل أشهر.

مذكّرات جارالله عمر ٦/٦
ما بعد يناير ٨٦: معارك من أجل التعدّديّة السياسيّة

حاورته ليزا ودين

أستاذة العلوم السياسية في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة. من مؤلفاتها «السيطرة الغامضة» (١٩٩٩) و«الجموع، السلطة، الأداء في اليمن» (٢٠٠٨).

شكّلت أحداث كانون الثاني / يناير ٨٦ منعطفاً هامّاً بالنسبة إلى حياتنا وأفكارنا وبالنسبة إلى الحزب الاشتراكيّ اليمنيّ والمجتمع اليمنيّ كلّه. هي أحداث تاريخيّة لكنّ الحروب والكوارث تصنع أحياناً تاريخاً جديداً أيضاً للشّعوب والنّاس. تلقّيتُ بعد أحداث يناير رسالة. كنّا في قيادة الحزب نتلقّى رسائل من أعضاء الحزب في صنعاء وبعض الأصدقاء. من ضمن هذه الرسائل واحدةٌ من الدّكتور علي محمّد زين الدّين الذي كان يومها يُعدّ رسالة الدكتوراه في جامعة السوربون وكان واحداً من المثقّفين والمفكّرين اليساريّين المهتمّين بهذه التّجربة [في الجنوب]. وكتب لنا رسالةً عبّر فيها عن احتجاجه وأسفه لما حصل. لكنّه أردف أنّ تجربة الجنوب وتجربة الاشتراكيّة أو التّجربة اليساريّة في عدن سقطت تاريخيّاً بسبب هذه الأحداث، بصرف النّظر عن الطّرف الذي انتصر في الحرب. خلاصة الرسالة أنّ التّجربة وصلتْ إلى نهايتها.

كنت يومها مأخوذاً بالحماسة للدّفاع عن التّجربة. وأعتقد أنّ الطرف الذي انتصر في الحرب غير مسؤول عمّا حصل. وأنّه يجب علينا أن ندافع عن التّجربة وأنّها هي التي انتصرتْ وستنتصر في المستقبل. وبذلك أجبتُ على هذه الرسالة والرسائل المماثلة برسالةٍ، وقُرئتْ داخل الشّمال والجنوب، رفضتُ فيها الانتقادات ودافعت عن التّجربة، ووصفتُ الانتقادات التي نتلقّاها بأنّها عبارة عن أفكارٍ برجوازيّة صغيرة. كانت الرسالة طويلة، حماسيّة وعاطفيّة ومكتوبة تحت وطأة الحدث وبلغة المنتصر ومن منظاره الذي لا يستطيع أن يرى بوضوح ما الذي سيأتي بعد لحظة الانتصار. مع الوقت بدأنا ندرك الآثار العميقة لأحداث يناير ١٩٨٦. والشّواهد والبراهين والأدلّة تتجلّى في الحياة اليوميّة. وكان واضحاً أنّ الأحداث أضعفتْنا. لكنّ نقاط الضّعف لم تظهر لنا إلّا بالتدرّج. وبدأنا نصل إلى نتيجة أنّ الحزب يضعف. وحكاية العنف أصبحتْ تُبعد النّاس من حولنا. كنّا نعتقد أنّ اللوم في الحرب يقع على الطّرف المنهزم، لكن اتّضح أنّنا كلّنا مسؤولون عن الذي حدث ولم نكن نستطيع أن نبرّر الحرب التي دارتْ رحاها داخل الحزب والمجتمع. هنا، بصراحة، أخذت في التّفكير لماذا حدث هذا؟ سبب التحوّل من أفكار المنتصرين إلى التّفكير المختلف؟

اتّضح لي أنّ التّجربة أثبتتْ أنّه لم يكن هناك طرف منتصر. كان الانتصار وهماً وقد اتّضح أنّنا كلّنا مهزومون. كان النّاس يقولون: كلّكم مسؤولون عن الّذي حدث. ولم يفرّق الناس بين المنتصر والمهزوم. من هم النّاس الذين كانوا يقولون ذلك؟ النّاس العاديّون، المجتمع، المواطنون العاديّون يقولون لنا عندما نحاول أن نكسب النّاس في الشّمال إلى صفوف الحزب، وبالذّات المثقّفين والأدباء، كانوا يهربون منّا. أصبحوا يرون أنّ الحزب ليس على ما يرام. حتّى المثقّفون أنصار التّجربة في الخارج صُدموا بما حدث وقالوا إنّه من غير المعقول أن يعود النّاس من الحلم بالاشتراكيّة إلى قتال مناطق ومحافظات واقتتالٍ بالسّلاح وبالسّيف.

كانت النّتائج تُظهر كلّ يوم أنّها سلبيّة برغم الحملة الإعلاميّة. ولم نكن قادرين على تصحيح الأمور لأنّنا كنّا نصنع خطاباً إعلاميّاً عاطفيّاً انفعاليّاً كخطاب صنعاء بعد حرب عام ١٩٩٤. والتاريخ يكرّر نفسه كما قال هيغل. والتّاريخ في اليمن يكرّر نفسه أكثر من مرّة، ولكن على عكس ما يقول ماركس: في المرّة الأولى مأساويّ وفي الثّانية ملهاة ومهزلة ومضحكة. هذا الّذي حصل، وهو كان في كانون الثاني / يناير ١٩٨٦ مأساويّاً وفي عام ١٩٩٤ [حرب الوحدة والانفصال] كرّر التّاريخ نفسه

بحيث لم يكن قادراً على القول إنّه مأساويّ أو تراجيديّ، المهمّ أنّها كانت حرباً داخليّة، كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦ وأيار / مايو ١٩٩٤ كلّها حروبٌ داخليّة، كلّها نزاعاتٌ على السّلطة. هي استخدمت العنف لكنّها تمّت تحت شعاراتٍ مقدّسة تحت شعاراتٍ كبيرة: الانتصار لليسار عام ١٩٨٦ هو قضيّة الحزب، والانتصار في ١٩٩٤ تمّ باسم قضيّة الوحدة. والطّرف المنتصر يتوهّم أنّه منتصرٌ وهو مهزوم. لكنّه يرفض المصالحة والتّصحيح. ولا سماعَ لصوت العقل، لا سماعَ للآخر.

أزمة شخصيّة

بعد أحداث يناير ١٩٨٦ بستّة أشهر، كلمة قالها لي علي محمّد زيد ظلّت تزورني باستمرار: برغم مكابرتك فإنّ التّجربة سقطتْ تاريخيّاً. أنا فكّرت بأنّ العالم يتغيّر. بدأت أقرأ ما يدور في العالم. بدأت التّجربة السّوفياتيّة وحكاية المصارحة والمكاشفة «البروسترويكا» و«إعادة البناء». نحن كنّا مرتبطين فكريّاً وإيديولوجيّاً بمركز الاشتراكيّة الأوّل الذي هو روسيا. أهمّ فكرة لغورباتشوف، أنّ في الفكر الاشتراكيّ ليس ثمّة مركزٌ يفكّر للعالم كلّه أو يمتلك الحقيقة مثل الفاتيكان. أهمّ ما قام به غورباتشوف أنّه أنهى هذه الحقبة من التّفكير، فرأيتُ أنّنا أصبحنا نفكّر بمشاكلنا لأنفسنا.

أنا المؤمن بالعدالة والاشتراكية. عدت لأقرأ تاريـــــــــــــخ الاشتراكية. ووجدت أن الاشتراكية كانت متحدة مع الديمقراطية.

كنت أعتقد أنّ هذا بديهيّ. أنّ الآخرين يفكّرون للعالم، وأنّ موسكو هي مركز تفكير العالم الثوريّ، وأنّ هذا أمر بديهيّ، أنّ لهذه الأمميّة رأساً. كنّا نفكّر هكذا وأحياناً كنّا نتباين. ولكن في السّياق العامّ كانت هذه الفكرة مقبولة. وعندما أتى غورباتشوف بدأنا نفكّر نحن في السّياق العامّ، لكنْ نحن كنّا شيئاً مختلفاً. حصلتْ عندنا أحداثٌ لم يحصل مثلها في روسيا، فنحن نمتلك خصوصيّة، نمتلك تطوّراً تاريخيّاً مختلفاً، عندنا متطلّبات الحياة مختلفة. بعد غورباتشوف بدأ السّوفيات يتصرّفون بشكلٍ مختلف. نحن لدينا مشاكلنا وأنتم لديكم مشاكلكم، وإنّ هذا الذي تعتقدون أنّه محصّن مركز العالم الثوريّ الذي هو موسكو مركز قيادة العالم، وأنّه مثاليّ وأنّه عالمٌ مثاليّ، لديه مشاكل كثيرة أنتم لا تعلمونها. قوموا أوّلاً بحلّ مشاكلكم.

هذه القضايا جعلتْني أفكّر كثيراً. أمرٌ آخر فكّرت به: لماذا يتقاتل أبناء الحزب الاشتراكيّ فيما بينهم؟ لمَ القتال الذي حصل في يناير ١٩٨٦؟ حسناً، ممكن القول إنّ الذي حصل في يناير خطأ، لكنْ ما الذي حصل قبل يناير، أحداث سالمين في ١٩٧٨ في الجنوب، وقتل الحمدي في العام نفسه في الشّمال، وخروج الإرياني والسّلّال من البلاد. ليس عندنا نقْلٌ للسّلطة صحيح: الإمام يحيى قُتل في صنعاء، وابنُه أحمد قَتل الآخرين وقتل حتّى إخوتَه، ثمّ هو الآخر قُتل. فيما بعد تمّ إخراج البدر بانقلاب. جاء السلاّل وخرج بانقلاب ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٦٧ وهو الثّوري، ثمّ جاء الإرياني رئيس المجلس الجمهوريّ بانقلاب وخرج بانقلاب عليه من قبل الشّيخ عبد الله بن حسين الأحمر وسنان أبو لحوم، وإبراهيم الحمدي كان متعاوناً معهم هو ومجموعة أخرى والجيش. ثمّ جاء الجيش وقام بانقلاب على الحمدي. وكان يُقال إنّ الحمدي قائدٌ استثنائيّ لكنّه ذُبح في بيت نائبه أحمد حسين الغشمي. في الجنوب قُتل سالمين وأخرج عبد الفتّاح إسماعيل من السّلطة. خرج علي ناصر من السلطة بالقوّة. أخرج الذي قبله قبل ذلك بالقوّة قحطان الشعبي، وفيصل عبد اللّطيف قُتل في صراع على السلطة.

إذاً هذه المعارك المتواصلة التي لم تتوقّف من أجل السّلطة هل هي فعلاً كانت من أجل المقدّسات كما كنّا نقول دائماً؟ كلّ حرب كانت تدور تحت شعارٍ مقدّس: الثورة، الجمهوريّة، الوحدة، التصحيح، إلى آخره. أحياناً نقول من أجل الديمقراطيّة وأحياناً من أجل السّلطة. لم يكن هناك طريقٌ لتبادل السّلطة.

الاشتراكيّة والديمقراطيّة شيءٌ واحد

هذه فكرة. والفكرة الثّانية أنّ كلّ شخصٍ يستولي على السّلطة يدمّر الذي قبله، يدمّر الموروث الثقافيّ والاجتماعيّ. كلّ من يستولي على السّلطة يدمّر الذي قبله في حلقةٍ متوالية. يدمّر الذي قبله، حتّى أحجار البناء التي يُمكن أن يُشار فيها إلى اسم الحمدي أو السّلاّل أو الإرياني أو سالمين يتمّ تدميرها من قبل الحكّام الجدد. ينهبون الآثار ثمّ يُدمّرون معها الاقتصاد. أخذتُ أفكّر في هذه الأمور وأعيشها وأقول ما هو الحلّ لهذه الأوضاع؟ كنتُ وما زلت مؤمناً بالاشتراكيّة، لكنْ أخذت أفكّر: أنا المؤمن بالعدالة والاشتراكيّة، إنّ الاشتراكيّة لا يُمكن أن تكون عدوّة الديمقراطيّة. وعدْت لأقرأ تاريخ الاشتراكيّة، ووجدتُ أنّ





الاشتراكيّة كانت متّحدة مع الديمقراطيّة. والذي حصل بعد ثورة البلاشفة وفي المؤتمر الثّاني تقريباً، أو بعد محاولة اغتيال لينين من قبل إحدى النساء، حاول أن يعمل بسياسة «النيب» والتي هي اللبراليّة في الاقتصاد، لكنّه لم يعد بعد ذلك قادراً على أن يمارس الليبراليّة في السياسة نتيجة للصّراع على السّلطة. لينين كان كبيراً، مثلاً حلّ مجلس الدّوما لأنّه لم يوافق على قانون الإصلاح الزراعيّ. لم يكن لها من لزوم. إذاً أنا فكّرت لدى العودة إلى العديد من المؤلّفات ووجدتُ أنّ الاشتراكيّة والديمقراطيّة شيءٌ واحد. طبعاً الموضوع الذي كان يجري في العالم كلّه أنّ الديمقراطيّة التي بدأت بعد الموجة الثّالثة التي أتتْ بعد ثورة البرتغال.

الديمقراطيّة ظاهرة عالميّة. أنا قلت إنّ مشكلتنا هنا في اليمن في غياب الديمقراطيّة، والحلّ هو في العودة إلى الديمقراطيّة، لكن لم يكن لديّ تصوّرٌ كافٍ للموضوع. كان لديّ تصوّرٌ ضبابيّ لهذه القضيّة. لم يكن لديّ تصوّر كيف يمكن أن نصل إليها ولمن هي، من الذي يكون داخلها ومن الذي يكون خارجها؟ هذا الكلام كان في نهاية العام ١٩٨٦ وبداية العام ١٩٨٧. في هذه المرحلة عشتُ أزمةً شخصيّة فكريّة عميقة وصراعاً وتناقضاً بين قناعاتي السّابقة والتي كانت من المسلّمات وبين الوقائع التي تظهر على الأرض. كلّ يوم وبذور التفكير الجديد تتفتّح، يعني كنت أعيش صراعاً فكريّاً حقيقيّاً.

قلـــــــــــــت إن مشكلتنا هنا في اليمن في غياب الديمقراطية. والحل هو في العودة إلى الديمقراطية. لكن لم يكن لدي تصور كاف للموضوع. كان لدي تصور ضبابي لهذه القضية.

بدأتُ بالحديث مع بعض أعضاء المكتب السياسيّ الذين كانت علاقتي الشخصيّة معهم قويّة، تكلّمتُ مع الأخ يحيى الشّامي وكنتُ أقول له إنّنا معارضون للنّظام في الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة ومعارضون للمؤتمر الشعبيّ العامّ الذي يحكمون باسمه ونطالبه بالدّيمقراطيّة، لكنّنا نقيم نظام الحزب الواحد في عدن، إذاً لا مصداقيّة لنا. هذه هي القضيّة التي كنت أناقشهم بها. نحن نطالب بالتّغيير الديمقراطيّ في صنعاء الذي يجب أن يكون لنا نصيبٌ فيه. وفي الوقت نفسه نؤيّد نظام الحزب الواحد في عدن. وهذا يُضعف صدقيّتنا. نريد تعدّديّة في صنعاء، لكنّنا لا نقبلها في عدن. نعارض طريقة الحكم في صنعاء ونؤيّدها في عدن. الأخ يحيى الشامي كان لديه تصوّرٌ لهذا الموضوع. ولا أعرف من بدأ بطرح ذلك، أنا أم هو. وكان رأيه فعلاً مع هذا واتّفقنا على أنّه بما أنّنا نطالب بالديمقراطيّة في صنعاء فيجب أن نطالب بها ونسعى إلى إقامتها في عدن. كان هذا النّقاش يجري وأنا كنت أتابع الكثير ممّا يُنشر في العالم وبالذّات كلّ ما يُنشر في العالم العربيّ حول الديمقراطيّة. أتابع النّدوات. وكنتُ أتابع أيضاً ما يُنشر عن «البروسترويكا» في العالم، ربّما ليس غروراً لكن هذه هي الحقيقة. واللافت أنّ زملائي يعترفون بأنّي كنتُ أتابع أكثر منهم.

رسالة إلى المكتب السياسيّ

«استمرّيت في العيش داخل القضيّة. وفي شهر آذار / مارس من العام ١٩٨٧، وسنتأكّد من التاريخ، فكّرت أنّه يجب أن أتّخذ موقفاً. استدعيت الأخ علي الصّراري الذي كان مدير مكتبي وكان يساعدني في الأفكار وكان شابّاً نشيطاً، وقلتُ له إنّي أريد أن أسجّل وجهة نظر حول قضيّة الديمقراطيّة والتعدّديّة في اليمن، وفي الجنوب أوّلاً الحزب الاشتراكيّ اليمنيّ». وأرّختُ الرسالة في أوّل نيسان / إبريل من العام ١٩٨٧. وهي موجّهة لعلي سالم البيض، الأمينِ العامّ، وأعضاء المكتب السياسيّ ووقّعتُها باسم خالد عمر، وهو اسمي الحركيّ حينها أيّام العمل السرّيّ في الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة، حيثُ كنت أوقّع الرّسائل وكلّ شيء باسم خالد عمر. وخلاصة الرسالة أنّها عبارة عن وجهة نظر أوّليّة أتحدّث فيها عن كلّ المشاكل التي حصلتْ وعن ضعف التنمية والصّراع على السّلطة. والمشاكل التي حصلتْ كلّها سببها انعدام الديمقراطيّة وعدم الاعتراف بالآخر في المجتمع. وافترضتُ أن يكون هناك نظامٌ من التعدّديّة الحزبيّة المفيدة، استبعاد الفئات الرجعيّة بتفكير اليوم، لكنّي غيّرت أفكاري بعد ذلك، وكنتُ يومها مع تعدّدية ثوريّة إذا جاز التّعبير. كما أنّ هذه القناعات اهتزّت بعد ذلك كما سأروي فيما بعد لأنّني عندما أجد الحقيقة عند شخصٍ آخر لا أعاند، وأحياناً تتعرّض افكاري لهزّاتٍ بتأثيرٍ من أفكار الآخرين، فأتراجع عنها من دون عناد. وأذكر كلّ شخصٍ بتأثيره عليّ ولا أخجل من ذلك، فأنا كتبتُ هذه الرسالة بشكلٍ سريّ وسلّمتها إلى علي البيض، ووُزّعتْ على أعضاء المكتب السياسيّ. وكانت لديّ رغبة أن تناقَش الرّسالة رسميّاً لكنّ الأمين العامّ لاحظ عدم

تقبّل لهذه الرّسالة، وفكّر أنّ مناقشتها يمكن أن تؤدّي إلى إلى آثارٍ سلبيّة عليّ أنا بالذّات. لذلك جمّد الموضوع لديه لبعض الوقت فيما سكتّ أنا ولم أطالب بشيء.

ندوة عن التعدّديّة وتسريب

لكنْ حدثتْ بعض التّطوّرات التي أخرجت المسألة إلى السّطح. كان يمكن لهذه القضيّة أن تبقى داخل الحزب لمدّة سنة أو سنتين، لكنّ أموراً عديدةً طرأتْ وقتَها. أوّلاً أنا أخذت أنشطُ وأناقش مع بعض الكوادر مسألة تطوير الفكر السياسيّ للحزب الاشتراكيّ اليمنيّ. كنتُ أعقد مع بعض الشّباب ندواتٍ أسبوعيّة، ومن ضمن الشّباب مثلاً عبد العزيز ثابت الكادر في الحزب، وهو مثقّف من عدن، ومنصور هائل وعمر عبد العزيز وعلي محمّد الصّراري. كنت أتناقش معهم في ندواتٍ سرّيّة أسبوعيّة تتناول نقْد الفكر السياسيّ للحزب الاشتراكيّ اليمنيّ. كنّا نتبادل الرّأي في بيتي أحياناً، وفي بيت عبد العزيز ثابت أو بيت منصور في حائل أحياناً أخرى، وكان منصور مدير تحرير صحيفة «١٤ أكتوبر» الحكوميّة. كان هؤلاء جميعاً شبّانا مثقّفين ولديهم تطلّعاتهم. كنّا نتبادل الرّأي وكانوا ينظرون إليّ بصفتي أكبرهم سنّاً والذي يقود عمليّة التجديد، لكنّي كنت أعدّهم جزءاً من العمليّة ويساعدونني في تطوير الأفكار. كنت أناقش معهم أفكار الحزب بشكل نقديّ، باحثين عن تطوير هذا الفكر.

وضعت المبررات لمنع الإسلاميين من المشاركة في التعددية التي اقترحتها لأنهم يرفضون الديمقراطية. قال لي أدونيس: لا. هذه أتركها للشارع وأتركها للناس.

حدث في ظلّ هذه الندوات والمناقشات غير المعلنة أنْ زار عدن الشّاعر العربي علي أحمد سعيد «أدونيس» وفوّاز طرابلسي، المثقّف اللبناني، ومحمّد كشلي. وتمّ ترتيب ندوة في منزل الدكتور عمر عبد العزيز. كان عنوان النّدوة «حول أزمة حركة التّحرّر العربيّة وقضايا أخرى»، وشارك فيها أدونيس، فوّاز طرابلسي، محمّد كشلي، عمر عبد العزيز وهو مدير معهد الفنون في عدن، عبد الواسع قاسم وهو رئيس تحرير مجلّة «قضايا العصر» التي كان لها إسهام كبير في تنظيم النّدوة، منصور هائل، رئيس تحرير صحيفة «١٤ أكتوبر»، محمود سعيد، المسؤول الإعلاميّ في سفارة دولة فلسطين في عدن، وجار الله عمر. ونشرتْ موادّ النّدوة في مجلّة «قضايا العصر» العدد السّادس حزيران / يونيو **١٩٨٩**.

شارك المذكورون في النّدوة التي كانت مسجّلة ولم يكن من المفترض نشرها في ذلك الوقت، لكنْ تمّ تسريب الشّريط إلى صحيفة «صوت العمّال» التي تصدر عن اتّحاد عمّال اليمن في عدن. وكان هناك حديث واضح عن التعدّديّة والدّيمقراطيّة. ورد على لساني نقدٌ للتّجربة القائمة في الجنوب والحزب الاشتراكيّ اليمنيّ، وقلتُ إذا لم تكن له معارضة فهو يعارض نفسه حتّى ينتهي. وقلت إنّ مجريات التّطوّر تشير إلى الوراء إذا لم يكن هناك تفكير جديد وتغيير، ملخّص الفكرة التي وردت هي فكرة التعدّديّة السياسيّة. وقلت إنّ الديمقراطيّة يمكن أن تكون مقيّدة وأن تقتصر على القوى الثّورية فقط. وأتذكّر أنّ أدونيس ردّ على مفكّرتي بشأن التعدّديّة أكانت ثوريّة أم للثوريّين. وكان هذا الرّأي ناتجاً من الخوف لأنّ الوضع في البلد اليمن، وفي الحزب لا يحتمل ديمقراطيّةً مفتوحة. قال أدونيس إنّ النّظام الذي سينشأ عن هذه التعدّديّة هو نظامٌ غير شرعيّ لأنّك تستبعد الإسلاميّين في دعوتك. قلت نعم، الإسلاميّون يسيطرون على جزءٍ من الشّارع ومعنى هذا أنّ أيّ انتخابات وأيّ تعدّديّة ستكون منقوصة في شرعيّتها لأنّ جزءاً من الشّارع ليس معها إذ إنّ الرّأي العامّ جزءٌ منه ممنوعٌ من التعبير عن نفسه، عن وجهة نظره. ولأنّ جزءاً من الشارع العربيّ يسيطر عليه الإسلاميّون وهمْ جزءٌ من الرّأي العامّ ويجب أن يشاركوا فيه. وأنا كنت قد وضعت المبرّرات لمنع الإسلاميّين من المشاركة في التعدّديّة التي اقترحتُها لأنّهم يرفضون الديمقراطيّة، وإنّهم إذا وصلوا إلى الحكم فلن يخرجوا منه على اعتبار أنّهم يحتكرون الحقيقة. قال لي أدونيس: لا، هذه أتركها للشارع وأتركها للنّاس. ردُّ أدونيس هزّني. جلست أفكّر في هذا الموضوع واستغرقت في التّفكير حتى بداية التّسعينيّات وحتى قيام الوحدة، غيّرت أفكاري ووجهة نظري وصرت أعتقد مثل أدونيس، أنّ من المهمّ أن نشارك الإسلاميّين في التعدّديّة وأنّهم إذا وصلوا إلى السلطة وأحرزوا الأغلبيّة في الأصوات فليحكموا، وعلى الشّعب أن يحكم عليهم بعد ذلك. صحيح لا يزال لديهم تحفّظات تجاه الآخر، صحيحٌ أنّ ما هو موجود في السودان أو أفغانستان يثير شكوكاً حول إمكانيّة وسهولة أن تتحوّل بعض الحركات الإسلاميّة، لكنّني متأكّد أنّ المستقبل سيأتي بتغييراتٍ في الحركات الإسلاميّة وفي تقبّلها

للآخر. وما حدث في إيران الآن من فوز للإصلاحيّين، والانقسام الذي حصل في السّودان يدلّان على أنّ من غير الممكن أن تحلّ المشاكل إلّا بالديمقراطيّة وقبول الآخر.

صحيفة «الراية». الصادرة عن دائرة التوجيه السياسي في القوات المسلحة. كانت تهاجم الفكرة. وكان هذا يجري وسط الحزب والجيش. والقيادة صامتة. هي الطرف الوحيد الذي لا يتكلم في الموضوع. وكان هذا الموقف يعكس الارتباك.

كما قلت فإنّ النّدوة نُشرت في صحيفة «صوت العمّال». وعلم المجتمع بعد ذلك بالآراء التي طرحتُها في النّدوة. وفجأةً نشرتْ صحيفةٌ تصدر في قبرص وصحف في بيروت مذكّرة التعدّديّة. سُرّبت الرّسالة إلى الخارج دون علمي. وأنا الآن أؤكّد أنّه لم يكن لي أيّ دور على الإطلاق في تسريبها. سرّبها أحد الأشخاص من أحد المكاتب إلى صنعاء ولست أدري من هو. ثمّ وصلتْ إلى يد الرئيس علي عبد الله صالح وسُرّبت إلى الخارج على يد أنصار علي ناصر محمّد في صنعاء، وعلّقوا عليها كما علّق عليها الأستاذ عبد الرحمن بن علي الجفري في كتيّب حمل عنوان «تفنيد وجهة نظر جار الله عمر» لأنّ المقترح عن التعدّديّة كان قد استَبعد حقّ رابطة أبناء الجنوب والإسلاميّين في ممارسة نشاطهم، وهنا أخذت الضّجّة الصحافيّة والسياسيّة تتعاظم وانقسم الكتّاب والصّحافيون بين مؤيّد ومعارض في الحزب الاشتراكيّ وخارجه في الشّمال والجنوب.

حملة وتهديدات

هنا بدأت المشكلة. كانت ردود الفعل داخل الحزب في معظمها رافضة لهذه الفكرة أو لهذا التّوجّه. هاجمت الصحافة الفكرة من جملة من هاجموها، وكانت الحملة ضدّ التعدّديّة السياسيّة منسّقة ومتكاملة. وبطبيعة الحال لم يكن ثمّة صحف أهليّة وحزبيّة، وكانت الصّحف تصدر هنا [في صنعاء حيث تجري المقابلة] عن الحكومة وفي عدن عن الحزب، ولكن كانت في عدن صحيفة «صوت العمّال» الوحيدة التي حاولت أن تخالف، وكان يرأسها محمّد قاسم نعمان، وهو نقابيّ معروف في عدن. طبعاً تولّت صحيفتا «النّوري» و«الراية» الردّ على التعدّدية برغم أنّ «النّوري» كانت أكثر اعتدالاً. كانت تحاول أن تناقش. أمّا صحيفة «الراية»، الصادرة عن دائرة التوجيه السياسيّ في القوّات المسلّحة، فكانت تهاجم الفكرة. وكان هذا يجري وسط الحزب والجيش. والقيادة صامتة. هي الطرف الوحيد الذي لا يتكلّم في الموضوع. وكان هذا الموقف يعكس الحيرة أو الارتباك، مع أنّ الموقع الذي تحتلّه هذه القيادة يجعلها مطلعة أكثر من سواها على الأوضاع في البلاد وتتوافر لديها معلومات كثيرة عن المتغيّرات الدوليّة، بما في ذلك المتغيّرات التي أخذتْ تلوح في أفق المعسكر الاشتراكيّ خصوصاً بعد البيرسترويكا السّوفياتيّة. القيادة كانت تخشى أن تصطدم مع قواعد الحزب وكوادره الّتي عُبّئت وامتلأت بمسلّمات وبدهيّات لا تقبل النّقض وكأنّ الانتصار في يناير ٨٦ كان مئة في المئة، وكان من الصّعب أن تفاخر القيادة بشعبيّتها بين القواعد داخل الجيش والحزب. غير أنّ هذا الصّمت لن يدوم طويلاً.

بالنّسبة لي بدت المسألة سهلة في البداية وكأنّ الأمر مجرّد تعبير عن وجهة نظر يأخذها الآخرون أو يرفضونها. لكن اتّضح فيما بعد أنّ المسألة أكثر تعقيداً ممّا كنتُ أتصوّر. فما إن بدأت الحملة على الأفكار التي طرحتُها، واستمرّت الكتابات تطرح أو تتوالى في «الراية» وإلى حدٍّ ما في «النّوري» وفي صحيفة «الثّورة» في صنعاء وكانت تهاجم التّعدّديّة وتقول إنّ هؤلاء الّذين خرّبوا البلاد لم يكتفوا بما فعلوه في الماضي، فها هم الآن يريدون أن ينقلوا الحزبيّة إلى العلنيّة ويدمّروا اليمن كما دمّر لبنان. وكان الدّستور في الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة يحرّم الحزبيّة ويعتبرها خيانة. سمعت رئيس الجمهوريّة شخصيّاً يهاجم التعدّديّة في العام ١٩٨٨ في خطابٍ علنيّ. لكنّ الهجوم في عدن كان أكثر قساوة لأنّ الذين اعترضوا في عدن يمكن تقسيمهم إلى عدّة فئات. بعض الأشخاص اعترضوا لأنّها ليست متدرّجة من حيث التطبيق. وأشخاص اعترضوا على اعتبار أنّ التعدّديّة كانت مفاجئة من دون تمهيد. وبعض آخر لم يُبد موقفاً فلم يؤيّد ولم يرفض. لكنّ بعضَ كوادر الحزب كانوا مقتنعين بأنّ هذه مؤامرة لتدمير النّظام الوطنيّ الدّيمقراطيّ في الجنوب وخيانة للاشتراكيّة، وقد تكون من قبيل العمالة لاستخباراتٍ أجنبيّةٍ بهدف تدمير الثّورة كما النّظام.

هنا أخذت الضّغوط تتزايد وباتت التهديدات جدّيّة. طبعاً هؤلاء النّاس لم يكونوا سيّئي النّوايا. كانوا يهدّدون لأنّهم كانوا يعتقدون أنّهم على حقّ وأنّهم يحمون الثّورة ويحمون النّظام. أخبرتْني زوجتي أنّها تتلقّى اتّصالاتٍ

هاتفيّة. وأنا أيضاً كنت أتلقّى تهديدات هاتفيّة لكن لم أكن أعلمها بها. كانوا يقولون لي نحن نحبّك ونحترمك لكنّ هذا العمل الذي قمتَ به غير مفهوم لنا، ونحن لا نشكّك فيه لكن ربّما هو سوء تقدير، نتوقّع أن تتراجع عن هذا الموضوع. وانتقلت التّهديدات إلى الزّوجة والطّلب إليها أن تقنع زوجها بأنّه أخطأ وعليه أن يتراجع. وكانوا يقولون لها: أنتم هنا تعيشون في ظلّ نظام الحزب، وهو عضو مكتب سياسيّ في الحزب، فإذا انتهى الحزب ستصبحون أنتِ وأولادكِ في الشارع لا تملكون عملاً، تصبحون مشرّدين، وأنتم مشرّدون من الشّمال وهذه مغامرة، وهو يغامر بحياتك وحياة أولادك.

حوارات في المرجعيّة

كانت الزوجة تخبرني بهذا وأشرح لها الأمر وتقتنع. وفي إحدى المرّات اتّصل بعض الكوادر من الحزب ومن الجيش وقالوا: إنّ هناك أناساً يريدون زيارتي في المنزل. قلت أهلاً وسهلاً. قابلْتهم في المنزل وشربنا القهوة، ومنهم مجموعة من الشباب في الجيش المخلصين للحزب، وهم من الذين درسوا في معاهد الاتّحاد السوفياتي. دخلوا في مناقشاتٍ حول الأفكار التي طرحتُها وقالوا «نحن لا نصدّق ما يُقال عنك أنّك خائنٌ وعميل. لكن نقول لكَ بصراحة الآن: لم نعد نفهم ماذا تريد أن تفعل. هل تخلّيتَ عن الاشتراكيّة كغاية نهائيّة؟ هل أنت غير مقتنع

انتقلت التهديدات إلى الزوجة والطلب إليها أن تقنع زوجها بأنه أخطأ وعليه أن يتراجع.

بالاشتراكيّة؟ نريد أن تردّ علينا بوضوح». قلت لهم لا لم أتخلّ عنها ولكنّني أريد أن أعمل من أجل التّلاحم بين الدّيمقراطيّة والاشتراكيّة، فليس هناك اشتراكيّة من دون ديمقراطيّة، وليس هناك عدالة من دون ديمقراطيّة. وأخذت أشرح لهم كيف كان الوضع في بداية الاشتراكيّة والديمقراطيّة عند نهاية الحرب العالميّة الأولى. وبيّنتُ لهم أنّ الاشتراكيّة الحقيقيّة تسودها الديمقراطيّة. وشرحت لهم تجربة السّويد على سبيل المثال، وأنّه يمكن الجمع بين الاشتراكيّة والديمقراطيّة، وأنّهما لا يتناقضان بل هما شيءٌ واحد. وكنت أشرح لهم الخلاف الذي جرى بين كاوتسكي ولينين وروزا لوكسمبورغ، وما حصل في المؤتمر الثّاني للحزب الاشتراكيّ الدّيمقراطيّ الروسيّ. وفوجئوا بمعلوماتٍ لم يكونوا يعرفونها. لم يصدّقوها. وقلت لهم إنّه قبل محاولة اغتيال لينين كان هناك أحزاب، كانت هناك تعدّديّة، وحتّى الحزب الدّيمقراطيّ الرّوسيّ كان يسمح بالأجنحة، كان هناك المناشفة والبلاشفة، كان هناك اليسار واليمين والوسط. قالوا نحن نعرف المناشفة والبلاشفة، لكنّ المناشفة خَوَنة. قلتُ أصبحوا خونة فيما بعد، لكنّهم كانوا جناحاً معترفاً به. وشرحتُ لهم أنّ المصيبة جاءت عندما تمّ منع التعددية. شرحتُ لهم أهمّيّة الديمقراطيّة بالنّسبة إلى الاشتراكيّة. وطبعاً هذه كانت عندي يومها تصوّرات أوّليّة. هنا بعد هذا الشّرح انقسموا إلى قسمين، عددٌ منهم تقبّل الموضوع وقال إنّ المسألة تحتاج إلى نقاش. وأذكر أنّي قلت لهم يومها: تأكّدوا أنّ روسيا ستصل إلى التّعدديّة قريباً لأنّ غورباتشوف كان موجوداً يومها وكان هناك صراع شديد، هو يريد أن يخطو خطوةً نحو العلنيّة والحزب يمنعه، والقوميّون استغلّوا الموضوع للانقسام عن الاتّحاد السّوفياتي. وكان هناك ارتباكٌ لكن كان واضحاً أنّه كان يريد أن يصل بالمسألة إلى الاشتراكيّة الديمقراطيّة. طبعاً الموضوع في روسيا كان كلّه يتحرّك، وكنّا نتوقّع أنّ روسيا ستصل إلى التّعدّديّة. ولكنْ تبقى الاشتراكيّة منتصرة لأنّ هناك حزباً يساريّاً قوياً، ويكون الشّيوعيّون في وضع قويّ بل أقوى ممّا هم عليه الآن. لو أعلنوا التّعدّديّة لربّما كانوا في وضعٍ أفضل لو تمكّنوا من الانتقال بشكلٍ سلميّ وهم الآن في كتلة قويّة وزيغانوف يطالب بتحقيق تجربة السّويد.

قلتُ إنّ الكوادر الذين حضروا إلى المنزل انقسموا إلى قسمين، قسمٌ قال هذا موضوعٌ جيّد لكن نريدك أن تخرج لتتحاور معنا. قلت: جيّد. وقسمٌ آخر قال إنّ هذا الكلام مرفوض وإنّهم تأكّدوا اليوم أنّك تجرّ البلاد والحزب إلى كارثة. ونهضوا منفعلين وانسحبوا ولم يقولوا مع السّلامة. وبقي الآخرون لبعض الوقت. بعدها بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع اتّصل بي مدير الدّائرة السياسيّة في القوّات في وزارة الدّفاع، وكانت صحيفة «الرّاية» صحيفة الجيش تقود الحملة ضدّ فكرة التّعدّديّة. قال لي إنّ القوّات المسلّحة تستنكر هذه الدّعوة! وطلب منّي، بما يُشبه الإنذار، أن أتراجع، وقال: «أنا أطلب إليك باسم القوّات المسلّحة وكوادر الحزب في القوّات المسلّحة أن تتراجع عن دعوتك هذه وألّا تجرّ البلاد إلى كارثة». في الحقيقة هو إنسانٌ غير معروف عنه أنّه عنيف. ولكن أحياناً يخلط آراء كثيرة بين الجدّ والمزاح. قلت له «أنا أجرّ البلاد إلى

الحرب بالتّعدّديّة؟ الحرب هي عندما لا يكون هناك تعدّديّة، عندما لا يكون هناك اعتراف بالطّرف الآخر. والحروب في الماضي وقعتْ لأنّه لم يكن هناك تعدّديّة حزبيّة. لكن أنا أعتقد أنّ هذا ليس موقف القوّات المسلّحة كلّها. وحتّى لو كان موقف القوّات المسلّحة فأنا أتوقّع أن تتفهم الموضوع عندما يكون هناك مناقشات أكثر وتوضيح أكثر».

كان العديد من المثقفين في الشمال والجنوب المستقلين غير متوقعين أن تأتي هذه الفكرة من جار الله خصوصا أن الإعلام قد أظهرني بعد أحداث يناير ١٩٨٦ في عدن كإنسان محارب هو الذي قاد العنف ضد علي ناصر وجماعته.

وبعد ذلك كان هناك لقاء وفد من المدنيّين، وكان يذكّرني به قبل أيّام الأخ عبد الواسع سلام وزير العدل. وكانوا حريصين، وكان بعضهم يهدّد باسم الجيش، وأنّ القوّات المسلّحة مستنفرة. وكنت أنا أجيب «أنا يهمّني موقف الحزب أوّلاً». إثر هذا الجوّ المشحون بالتّهديدات وبالتّوتّر والإنذارات، اقترح البعض أن تتوقّف الحملة الصحافيّة على جار الله عمر وعدم فصله من الحزب لأنّه كانت هناك دعوة إلى فصلي من الحزب وتجريدي من المسؤوليّة ثمّ محاكمتي. ربّما كانت هناك مقترحات أخرى لست متأكّداً منها. طبعاً كلّ هؤلاء ليس لديهم موقفٌ شخصيٌّ منّي على الإطلاق. وطلبوا أيضاً أنْ أعلن التخلّي عن دعوتي إلى التعدّديّة السياسيّة في مؤتمرٍ صحافيّ. واقترح بعضهم طردي إلى خارج البلاد، فيما اقترح آخرون حلّاً وسطاً تضمّن إعلاني عن اعتذاري للحزب والتّخلّي عن الدّعوة إلى التعدّديّة السياسيّة مقابل توقّف الحملة عليّ.

وأخبرني الأخ سعد سالم فرج قبل أيّام، وكان محافظ حضرموت حينها، أنّ الحديث عن الديمقراطيّة وعن التعدّديّة وإبعاد جار الله عمر من قيادة الحزب لأنّه يريد أن يخرّب في الجنوب كما خرّب في الشّمال: نحن كنّا نقول هذا الكلام وأنتم لم تصدّقونا وإنّ هذا العمل الذي يقوم به جار الله هو ضدّ مصلحة اليمن شمالاً وجنوباً.

لن أتراجع

المهمّ اشتدّت الضغوط من كلّ مكان. وطرح هذا اقتراح التراجع عن الفكرة. طبعاً، أعضاء المكتب السياسيّ لم يكن منهم من فاه ببنت شفة، بمن فيهم الأمين العامّ علي سالم البيض. قلت: أنا والله لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذه الدعوة لما تركتها. ربّما من يسمع هذا يقول هناك مبالغة، لكنّني كنت قد وصلت إلى هذه الحالة العصبيّة ولديّ استعداد لأيّ شيء على ألّا أتراجع عن هذا الأمر، لأنّ لا مساحة للمناورة أو الحلول الوسط. وهذا كان نصّ الحديث. طبعاً الإخوان عندنا في الحزب لم يكن لديهم علم بهذه الأحاديث حتّى أنّ بعضهم دُهش لبلاغته.

الغريب يومها أنّه حتّى الصّحف المعارضة لنظام الجنوب في الخارج، المؤيّدة لعلي ناصر والرّابطة وجبهة التّحرير، كانت تهاجمني على اعتبار أنّ الفكرة ليست كاملة وغير واضحة، لكنّهم كانوا يقولون إنّ هذا دليل على انقسامٍ داخل الحزب في عدن، إذاً فجار الله عمر هو سبب الانقسام.

استمرّت الأحوال على هذا المنوال لبضعة أشهر إلى أن لاحت التّغيرات الدوليّة وخاصّةً في الدّول الاشتراكيّة. بدأت أحداث بولندا وراحت الأمور تتسارع والدّيمقراطيّة في موجتها الثالثة أخذت تنتشر أكثر فأكثر في العالم. لكنّ مشكلتي أنّ دعوتي لم يكن هناك من يدافع عنها في الخارج أو الصحف التي كانت تصدر في الخارج لأنّني كنت إنساناً مغموراً غير معروف. واليمن بلد متخلّف صغير غير مهمّ بالنسبة إلى العالم. لم يكن هناك انتشارٌ للفكرة في الصحف الخارجيّة وكان العديد من المثقّفين في الشّمال والجنوب المستقلّين غير متوقّعين أن تأتي هذه الفكرة من جار الله خصوصاً أنّ الإعلام قد أظهرني بعد أحداث يناير ١٩٨٦ في عدن كإنسانٍ محارب هو الذي قاد العنف ضدّ علي ناصر وجماعته. وكان هذا على خلاف الحقيقة. لم يكن هنا في صنعاء تعاطف معي حتّى من المثقّفين من خارج الحزب. ولم يكن هذا الكلام منتشراً في صحف عالميّة أو في العالم العربي.

لكن مع الوقت أخذتُ أخرج للحديث مع النّاس. وكانت واحدة من المصادفات أنّ العديد من الدّبلوماسيّين اليمنيّين السّفراء في الخارج عقدوا مؤتمراً لهم في عدن، وكان هناك يومها السفير عبد الله الأشطل وغيره من الدّبلوماسيّين الذين يعرفون تلك المتغيّرات. أثناء المؤتمر دعَوني كي ألقي محاضرة عن سياسة الحزب الاشتراكيّ اليمنيّ في الدّاخل والخارج. وكانت بالنّسبة لي فرصةً كبيرة وثمينة لكي أطرح وجهة نظري. وتكلمت مع الدبلوماسيّين بلغةٍ جديدة



غير مألوفة في قاموسنا الحزبيّ. ربطتُ في كلمتي بين أهمّيّة الديمقراطيّة وخدمة مصالح البلد. ودعوت إلى دبلوماسيّة جديدة ونهج دبلوماسيّ جديد في عالم متغيّر. وكان الكلام مثيراً وجديداً بالنّسبة إليهم. الحقيقة أنّ الدّبلوماسيّين أثارهم الموضوع وشاركوا في المناقشات عن التّعدّديّة والدّيمقراطيّة. وسألتهم كيف سيكون بلدنا بلداً ديمقراطيّاً متعدّداً في نظر الآخرين؟ هل ستكون له مكانة كبيرة لدى البلدان التي تتواجدون فيها؟ فردّ الكثير منهم بنعم. ثمّ خرج أغلبهم إلى مجالس مختلفة كان أهمّها اللقاء مع ضبّاط وكوادر ووزراء الداخليّة، ودار النّقاش نفسه، وبدأ الحصار يتحلحل وبدأ الكثير من النّاس يتفهّمون، خاصّةً مع المتغيّرات العالميّة التي كانت تجري وبشكل متسارع.

هنا حصلت تطوّرات جديدة. الأمين العامّ المساعد سالم صالح محمّد، والأمين العامّ علي سالم البيض قاما بزيارات متعدّدة لبلدان أوروبا الشرقيّة. علي البيض زار بلغاريا وألمانيا والاتّحاد السوفياتيّ والتقى زعماءها ووصل إلى استنتاج مفاده أنّ العالم الاشتراكيّ ينهار. وفي موسكو يتحوّل أو هو يتغيّر في أحسن الأحوال. بعدما خرجت الفكرة وأصبحت علنيّة مورستْ عليّ ضغوط كثيرة من داخل الحزب وبعض كوادر الحزب في الجيش كي أتخلّى عن الفكرة. «وإذا لم يتخلّ جار الله ويعتذر عمّا بدر منه يمكن أن نتّخذ ضدّه إجراء حزبيّاً». لكن خلال فترة الجدال تلك، وذلك المخاض العسير حصلتْ متغيّرات عديدة.

أوّلاً، كانت الأحوال تتدهور بسرعة في البدان الاشتراكيّة والدّعوات إلى الانفتاح والدّيمقراطيّة تزداد وشعوب تلك البلدان تتحرّك باتجاه الديمقراطية. وعلى الصعيد اليمنيّ تمكّنت أنا وبعض الإخوة الذين اقتنعوا بالفكرة من توضيح بعض الأفكار من خلال حضور بعض المؤتمرات: مؤتمر الدّبلوماسيّين في عدن، ومؤتمر ضبّاط الشرطة واجتماعات مع بعض ضبّاط الجيش. ووضّحت هذه الأفكار وكذلك المناقشات مع الوفود التي كانت تأتي إلينا إلى البيت وتطلب منّي التراجع عن الفكرة. وكنت أتناقش معهم، وقد اقتنع البعض أنّ الدّيمقراطيّة لا تتعارض مع الاشتراكيّة بل هي تؤصّلها وتجلعها أكثر شعبيّة وأكثر مشروعيّة.

العلّة في المركزيّة الديمقراطيّة

هنا قادة الحزب الاشتراكيّ وتحديداً الأمين العامّ علي سالم البيض والأمين العامّ المساعد سالم صالح محمّد وبعض أعضاء المكتب السياسيّ زاروا بعض البلدان الاشتراكيّة واطّلعوا على حقيقة الأمر ووجدوا أنّ الأوضاع تتغيّر بسرعة وأنّ المعسكر الاشتراكيّ إمّا ينهار وإمّا ينشغل كل بلد بوضعه وبحالته في أحسن الأحوال، وبعض البلدان تتصرّف كما يناسبها. وكان الأمين العامّ قد عاد من زيارةٍ لبلغاريا وألمانيا الديمقراطيّة وبعض البلدان الأخرى منها الاتحاد السوفياتي. بدأوا بما لديهم من معلومات يتساءلون أو يفكّرون عن الحل وكأنّ لديهم رغبة في تأييد الفكرة. لكن كانت الرّغبة والقناعة تصطدمان بتلك القناعات الإيديولوجيّة السابقة التي تقوم على الحديّة والمسلّمات. لذلك كانت الرّغبة لدى قيادة الحزب في التعامل مع الفكرة بالتدرّج. بالنّسبة لي، كنتُ أرغب في أن تأخذ الفكرة مجراها نحو النّقاش ومن ثمّ التّطبيق، لأنّ الزّمن كان يجري بسرعة وكنتُ أدرك أنّ التّأخير يضرّ بالتّجربة في الجنوب وأنّ المبادرة سوف تساعد الحزب والتّجربة في الجنوب على الخروج من الأزمات السياسيّة والاقتصاديّة المتتابعة.

هنا أخذ بعض كوادر الحزب بتغيير وجهة نظرهم وتأييد الفكرة واتّخاذ موقفٍ محايد. وهذا كان بالنّسبة لي شيئاً إيجابيّاً. غير أنّ الجديد المؤثّر على الصّعيد الدّاخليّ هو ظهور بعض الكتابات الصّحافيّة الصّريحة والعلنيّة في صحيفة «صوت العمّال» تدعو إلى تأييد فكرة التعدّديّة وتشرح مضمونها وتدافع عن جار الله عمر صاحب الدّعوة. وكانت أوّل مقالة ظهرت في صحيفة «صوت العمّال» تدافع عن الفكرة بتوقيع فتاةٍ يمنيّةٍ مثقّفةٍ، وكانت هذه المبادرة من قبَل امرأة كان لها موقفٌ إيجابيّ وهي مستقلّة من خارج الحزب. تلتْ ذلك مقالةٌ أخرى من قبل أحد المحامين يدافع عن التعدّديّة الحزبيّة. وتراجعت الأصوات التي ترفض الفكرة، سواء داخل الحزب أو خارجه. أنا من جانبي كنتُ مستمرّاً في شرح فكرتي ولكنْ على قدرٍ كبيرٍ من الحذر والحصافة «الاتّزان غير المتهوّر». أتذكّر هنا أنّه حتى في المذكّرة التي دعوتُ فيها إلى التعدّديّة، راجعتُ بعض الأفكار وأجّلتُها بمقترحٍ من الأستاذ علي محمّد الصراري. كنتُ قد طرحتُ في المسوّدة الأولى أنّ مقولة المركزيّة الديمقراطيّة التي طرحها لينين هي سبب كلّ المشكلات وكلّ الإخفاقات في البلدان الاشتراكيّة والأحزاب الاشتراكيّة والشّيوعيّة لأنّ هذه الفكرة، أو المقولة، كانت تعني الالتفاف على الديمقراطيّة وإلغائها

وإبقاء المركزيّة، وهي أدّت إلى انعدام الشفافيّة وإلى السيطرة الإداريّة وإلى خلق أحزابٍ إداريّة وإلغاء العمل المؤسّسي داخل الأحزاب واستبدالها بالأمين العامّ في نهاية المطاف والذي بدوره يلغي المكتب السياسيّ والمكتب السياسي يُلغي اللجنة المركزيّة واللجنة المركزيّة تلغي المجتمع وفي النهاية يبقى الأمين العامّ والذي يصدر القرارات إلخ. طلب منّي علي الصراري إلغاء هذا النّصّ من المذكّرة. لماذا؟ لأنّه ينطوي على خطرٍ كبير بالرّغم من أنّ الفكرة برأيه صحيحة ولكن ستكون مرفوضة داخل الحزب وستقابَل بردود فعل عنيفةٍ بالنّظر إلى المكانة التي يحتلّها لينين. ولينين مكانته تضفي عليها نوعاً من القداسة لدى الأحزاب الاشتراكيّة والشيوعيّة في العالم. اقترح تأجيل الفكرة إلى ما بعد. كما كنتُ أنا حريصاً في شرحي وتوضيحي أن أقول للحزبيّين إنّ الحزب قويّ والمعارضة ضعيفة، وأنّ لا خطر على الحزب وعلى الحكم، لذلك لا ينبغي الخوف من الديمقراطيّة ومن التعدّديّة. وساعدني في هذا الموضوع أنّ مذكّرة التعدّديّة نفسها لم تتحدّث عن تعدّديّة مطلقة بلا حدود، إنّها مقيّدة.

أدى النفط إلى إعادة طرح قضية الوحدة على جدول أعمال الحكومتيـــــــــــن في صنعاء وعدن فما دام هناك نفط فسوف يؤدي إلى رفاهية أو حرب. ولا رفاهية إلا بتوحيد اليمن.

أمّا العامل الثّاني الذي ساعد على انسياب الفكرة من دون أن تتعرّض لمكروه فهو أنّ علاقتي الشخصيّة مع أعضاء الحزب وقيادته كانت علاقة جيّدة. ولم تكن لديّ ردود فعل تجاه النّاس الذين انتقدوني. كنتُ أتفهّم وجهة نظرهم وأعتبرها موقفاً سياسيّاً ووجهة نظر مشروعة تجاه فكرة هي جديدة علينا جميعاً. وأعترف هنا بأنّ معظم زملائي في المكتب السياسيّ واللجنة المركزيّة كانوا في مجالسهم الخاصّة وغير العلنيّة يدافعون عنّي، حتّى الذين كانوا ضدّ الفكرة كانوا يدافعون عنّي كشخص ويقولون إنّه ليست لديّ نوايا سيّئة، وإنّ نواياي حسنة. وفي إحدى المرّات ذهب الأمين العامّ إلى منطقة الضّالع، وهي من المناطق المهمّة في الكفاح ضدّ الإنكليز ولديها الكثير من الكوادر والقادة المدنيّين والعسكريّين، وعقد لقاءً مع أعضاء الحزب وضبّاط الجيش، وقال لهم إنّ الفكرة التي طرحها جار الله عمر هي وجهة نظر قابلة للنّقاش ومن حقّه أن يطرح وجهة نظره.

وفي بداية عام **١٩٨٩** تسارعَت التّغيّرات في تفكير أعضاء الحزب وقيادته. وعقد المكتب السياسيّ اجتماعاتٍ عدّة حول الموضوع. وبدأت تطرح فكرة الإصلاح الاقتصاديّ والاجتماعيّ الشّامل على بساط البحث. وكان بعض أعضاء المكتب السياسيّ يطرحون ضرورة الإصلاح الاقتصاديّ والانفتاح على رأس المال المحلّيّ وفي مقدّمتهم حيدر أبو بكر العطّاس وفضل محسن عبد الله والدكتور ياسين سعيد نعمان وآخرون.

النّفط يعيد طرح قضيّة الوحدة

بداية ذاك العام أبلغت بعض الشركات التي تنقّب عن النّفط في حضرموت عن اكتشاف كمّيّات تجاريّة من النّفط القابلة للاستثمار خلال أشهر. كان التّنقيب قد بدأ قبل فترة. وكان من ضمن الحقول المكتشفة حقل وادي جنّة في شبوة وهو على مقربة من الحدود بين الشطرين.

وبسبب هذا الاكتشاف حصل توتّر وتنازع بين حكومتَي صنعاء وعدن حول مستقبل الحقل النفطيّ وملكيّته. وبلغ التوتّر درجةَ حشد القوّات المسلّحة على الحدود بين الشّمال والجنوب. وكان هذا في العام **١٩٨٨**، وقد اتّخذ المكتب السياسيّ قراراً بالتّفاهم مع حكومة صنعاء والعمل من أجل الوصول إلى حلّ سلميّ بشأن الحقل المذكور، ولو أدّى الأمر إلى الاستغلال المشترك للحقل برغم وجوده في أراضي الجنوب، وهذا يعني أن يكون موقف الجنوب مرناً إلى حدٍّ كبير برغم أنّه في أراضي دولة الجنوب. وهنا أدّى النّفط وظهوره في الجنوب ومشكلة النّزاع مع الشّمال والمتغيّرات الداخليّة والخارجيّة، إلى إعادة طرح قضيّة الوحدة على جدول أعمال الحكومتين في صنعاء وعدن ما دام هناك نفط فسوف يؤدّي إلى رفاهيّة أو حرب. ولا رفاهيّة إلّا بتوحيد اليمن. وقد أرسل فضل محسن عبد الله إلى صنعاء كما أرسل في أحيان أخرى صالح أبو بكر بن حسينون، وزير النفط حينها، رحمه الله. واستمرّ مندوبون بالتوجّه من عدن إلى صنعاء في رحلاتٍ مكّوكيّة للتفاوض حول النّفط. وقدّم الجنوب تنازلاً تعبيراً عن حسن نيّة ومن أجل السّلام، باستعداده لاقتسام المنطقة واستغلالها بصورة مشتركة. وتمّ الاتّفاق على حلّ مشكلة النّفط بالمشاركة بين الدولتين. وبدأت الشركات تنقّب. وبعد انخفاض التّوتر، انتقلت المفاوضات بين الشطرين إلى

البحث في تحسين العلاقة وحصل انفراجٌ بين الشّمال والجنوب تمهيداً لبحث موضوع الوحدة من جديد بحسب الاتفاقيّات السابقة.

واتّفقت الحكومتان من خلال وزراء الداخليّة على إلغاء الحواجز بين الشّمال والجنوب والسّماح للأشخاص بالتّنقّل بحرّيّة بين الشّطرين عن طريق البطاقة الشخصيّة، وكذلك بحرّيّة نقل السّلع. وقد أتاح هذا الاتّفاق للمواطنين فرصة الزّيارات المتبادلة والاطّلاع على الأوضاع كما هي في الواقع، كما تبادل المصالح. وأدّى هذا إلى اتّخاذ قرارات جديدة تماماً. اتّخذ المكتب السياسيّ في عدن قراراتٍ أهمها قراران، قضى الأوّل بتغيير الخطاب السياسيّ للحرب تجاه الشّمال نحو الدّعوة إلى الانفتاح على بعضهما البعض وقبول الحلول الوسَط، وإقامة الوحدة اليمنيّة على أساسٍ سلميّ، ومراعاة المصالح بين الطرفين. وتجلّى تطبيق هذا القرار من خلال الخطابات التّي كان يلقيها الأمين العامّ علي سالم البيض الموجّهة إلى الشعب اليمنيّ وإلى القيادة في الشّمال.

أمّا القرار الثّاني فنصّ على تشكيل لجان حزبيّة وحكوميّة ضمّت سياسيّين وخبراء اقتصاد وعلماءَ وغيرهم، مهمّتها دراسة الأوضاع بشكلٍ عامّ وتقديم توصيات حول إصلاحٍ اقتصاديّ وسياسيّ وحول كيفيّة تحقيق الوحدة اليمنيّة بالتّعاون مع حكومة صنعاء وعن طريق الإقرار المشترك بالمصالح المتبادَلة. وقد أتاح هذا التطوّر الجديد على خلفيّة التغيّرات الداخليّة والخارجيّة الإقرار بأنّ الوحدة اليمنيّة لا يمكن أن تتحقّق بالقوّة. كنّا نعتقد في الماضي بأنّها حتماً ستتحقّق سلميّاً وعلى قاعدة الاعتراف بالمصالح المشترَكة وقبول كلّ طرفٍ للآخر.

كانت هناك لجنة حكوميّة برئاسة د. ياسين سعيد نعمان ولجنة حزبيّة برئاسة الأمين العامّ المساعد سالم صالح محمّد، ولجان أخرى من الخبراء وأساتذة الجامعات والخبراء الاقتصاديّين. وكان معظم أعضاء المكتب السياسيّ أعضاء في اللّجنة. وكنتُ أنا في اللجنة الحزبيّة والوزراءُ في اللجنة الحكوميّة، وكان علي البيض يُشرف على كلّ اللجان بوصفه الأمين العام للحزب الاشتراكيّ اليمنيّ. وبعد أربعة عشر شهراً من الدّراسة خلصت اللجان إلى مجموعة من التّوصيات مدوّنة في كتيّب، آمل أن نحصل عليه، ضمّ مجموعةً من التوصيات التي أقرّت ضرورة الإصلاح الاقتصاديّ والسياسيّ للنّظام بما في ذلك التعدّديّة السياسيّة وحرّيّة الصحافة. كما أقرّت التقدّم بمشروعٍ لتحقيق الوحدة اليمنيّة على مراحل تبدأ بالكونفدراليّة وتتصاعد إلى الوحدة الاندماجيّة الكاملة. طبعاً هذه التّوصيات من اللجنة أخذتْ وقتاً طويلاً حتّى قُدّمت إلى اللجنة المركزيّة وتمّ إقرارها.

التعدّديّة السياسيّة أم الوحدة أوّلاً؟

من جانبي أنا، وبرغم موافقتي على الإطار العامّ لعمل اللجان وإقرارها، كان رأيي يومها أنّ دولة الجنوب أو الحزب الاشتراكيّ في الدّولة في الجنوب لا بدّ من أن يسارع إلى تغيير نظامه السياسيّ وإعلان التعدّديّة السياسيّة قبل إقامة دولة الوحدة وتحقيق الانفتاح الداخليّ والخارجيّ على القوى السياسيّة والاجتماعيّة المختلفة في الدّاخل والخارج قبل أن يذهب إلى تحقيق الوحدة لأنّه بهذا يؤمّن لنفسه دخول الوحدة وهو قويّ.

وعندما انتهت اللجان وقدّمت توصياتها بخصوص الإصلاح السياسيّ والاقتصاديّ وموضوع العلاقة مع شمال اليمن وقضيّة الوحدة، ظهرت آراء كثيرة جدّاً. البعض كان يطالب بالوحدة الفوريّة ووثيقة الإصلاح كانت تطرح الكونفدراليّة أوّلاً. وأذكر أنّ هناك ورقة مقدّمة من أعضاء في مجلس الشّعب الأعلى في الجنوب وقّع عليها نحو مئة عضو يطالبون فيها المكتب السياسيّ باتّخاذ خطواتٍ جادّة لتوحيد شطرَي اليمن. هذه كانت مبادرة من أعضاء في مجلس الشّعب الأعلى في عدن.

كان رأيي أنّ الأولويّة يجب أن تكون لتغيير النّظام السياسيّ في عدن من خلال قيام الحزب بثورة سلميّة على النّفس. وتبدأ المسألة بإدخال تغييرات دستوريّة على النّظام في عدن والقيام بانفتاحٍ سياسيّ واقتصاديّ واسعٍ في الدّاخل والخارج وتصفيةً مشكلة الخلافات السّابقةً داخل الحزب وفي المجتمع وآثار الخلافات السّابقة، إعادة الاعتبار للنّاس الذين تضرّروا من الصّراعات السابقة ومن النّظام السّابق في الجنوب. أعني هنا أنّ الحزب في الجنوب يعيد تأهيل نفسه استعداداً للمهمّات المقبلة، وكذلك تصفية مشاكل الماضي ومن ضمنها ترسيم الحدود مع سلطنة عمان حيث كانوا قد قطعوا بها شوطاً كبيراً. وكان عبد الواسع سلام، الذي شغل منصب وزير العدل في دولة الوحدة لاحقاً، قد توصّل مع العمانيّين إلى اتّفاق شاملٍ من خلال اللجنة التي كانت تحت إشراف وزير الخارجيّة والأمين العامّ للحزب، لكن لم يجرؤوا على الإعلان عن الاتّفاق مراعاةً لشعور الإخوان في الشّمال حتّى لا يغضبوا، لكوننا شعباً واحداً.

أنا ابن القسّ البروتستانتيّ
القادم من الصعيد الجوّاني

رؤوف مسعد

كاتب مسرحيّ وروائيّ وصحافيّ، مصر. من أعماله «صباح الخير، يا وطن - شهادة من بيروت المحاصرة» (١٩٨٣) «بيضة النعامة» (١٩٩٤) «صانعة المطر» (١٩٩٧) «إيثاكا» (٢٠٠٠). يعيش في هولندا.

أن يولد طفل في أسرة مصريّة كبيرة العدد تقليديّاً (بولادتي أصبحنا ثلاثة أولاد وبنتاً ثمّ وُلدت بنت بعد مولدي بسبع سنوات) وربّ الأسرة قسٌّ بروتستانتيّ إنجيليّ، من أسرة أرثوذكسيّة، كما يبدو من لقب بعض أجداده «القمص»، قادم من أعماق الصّعيد الجوّاني ليتحوّل من فلّاح إلى قسّ ويدرس في الكليّة الأميركيّة في أسيوط بالمجّان لتؤهّله ليصبح رجل دين.

إذن، أبٌ متمرّدٌ، لأسبابٍ تخصّه لم يفصح لنا نحن أولادَه وأسرتَه عن انتمائه الأرثوذكسيّ، فليس ببعيد أن يكون ابنه الأصغرُ الذي هو أنا قد اكتسب التمرّد منه فخطا أبعدَ بكثيرٍ من الأب وتحوّل إلى الشيوعيّة والإلحاد وهو في سنوات المراهقة أي حوالي السادسة عشرة والسابعة عشرةَ من عمره.

سنوات الفقر والتمرّد

لم يأتِ تمرّدي من ترَفٍ ثقافيّ طبقيّ ولكن رغبةً في تقويم واقع مجتمع كبير هو المجتمع المصريّ ومجتمعٌ أصغر هو المجتمع المسيحيّ المصريّ، خصوصاً حينما أسقط المرض والدي وقررتْ له الكنيسة معاشاً قدره أربعة جنيهات. كان مرتّبه حوالي خمسة عشر جنيهاً عام ١٩٥٤ وهو عام مرضه الذي أقعده الفراش إلى حين وفاته عام ١٩٦٠.

هكذا كان تأثير الفقر في حياتنا كأسرة تأثيراً من الدّرجة الأولى، كما يقال، أي مباشرة بدون وسائط جانبيّة، بل فقرٌ يأخذ بالواحد إلى التمرّد أو إلى الإجرام. هو فقر الوجبات المتكرّرة من فول وعدس أو «سحب» البقالة البسيطة من سكّر وشاي «على النوتة». أي بالنسيئة حتى بداية الشهر ووقت التسديد والقهر والحرمان من بعض ما يتطلّبه مراهق في نهاية الدراسة الثانويّة وبدايات الجامعة حيث الاختلاط مع البنات ومحاولة التظاهر بالأناقة وبعض «الفكّة» أُشَخْلِلُ بها في جيبي وأستطيع أن أجلس مرّة واحدة على بوفيه الكليّة وأشرب الشاي مع بنتٍ أحاول أن أقنعها بحبّي بواسطة أشعاري البسيطة لها. كنت دوماً في احتياج لقميصٍ أو حذاءٍ جديدٍ وبالتالي كان عليّ أن «أدبّر حالي»، أن أجد عملاً ما أتقاسم دخله بيني وبين والدتي التي أرعبها استلامها لميزانيّة بسيطة لأسرةٍ كبيرةٍ ملحاحة إضافة إلى شراء الأدوية للوالد طريح الفراش.

هكذا واجهتُ الفقر في حياتي الخاصّة لكن - من حسن حظّي - أنّي لم أنحرف إلى الجريمة. لكنّي قبلت الماركسيّة التي أنقذتْني من المصير المشؤوم فكنت بين أفرادٍ يقطعون انتماءاتهم الدينيّة لينتموا - بفخر - إلى علمانيّة إلحاديّةٍ تريد تغيير العالم إلى الأحسن خصوصاً أنّني قد خبرْت الفقر يوميّاً لمدى سنوات دراستي في القاهرة بعدما تنقّل الوالد القسّيس في كنائس مصريّة فقيرة من الأقصر إلى بلدة تدعى «نواي» في الصعيد قريبة من «ملوي» الصعيديّة حيث يقال إنّ عائلة أبي مقيمة فيها. وهي قرية ليست بها مياه نقيّة ولا صرف صحيّ ولا كهرباء. ثمّ انتقل الوالد إلى بلدة في الدلتا بالقرب من طنطا ودسوق اسمها «شبراخيت» يقال إنّ عسكر نابليون أقام بها فترةً من الوقت، لذا تجد بين أهلها البعض من الذين شعْرهم أشقر وعيونهم زرقاء وبشرتهم فاتحة اللون وليست سمراء مثل غالبيّة أهل مصر. وقد رأيت هذه البلاد بعد انتقال العائلة إلى القاهرة بعد مرض الوالد حيث كان أخي الأكبر قد التحق بكليّة الطبّ في القصر العيني واستأجر شقّة صغيرة مع زميل له بمنطقة العباسيّة من غرفتين وجئنا نحن بقضّنا وقضيضنا من شبراخيت لنعسكر كلّنا في غرفته حتى قرّر زميله ترك الشقّة كلّها لنا وعشنا بها سنوات. هي شقّة صغيرة من

غرفتين صغيرتين وصالةٍ صغيرة في حيٍّ قاهريٍّ لا علاقة لنا به سوى البقّال الذي يبيع لنا بالنّسيئة على النّوتة كما ذكرت!

لن أذهب إلى الكنيسة!

ثمّ انتقلنا إلى حيٍّ أقلّ أهمّيّة وشبه عشوائيّ هو حيّ «دير الملاك» من الناحية الأخرى للعباسيّة، وهو حيّ تحلّق به المسيحيّون الذين بنوا منازلهم العشوائيّة حول «دير الملاك ميخائيل»، وبه كنيسة إنجيليّة صغيرة ومعظم شوارع الحيّ غير مرصوفة ما إن تنزل عليها الأمطار حتى تتحوّل إلى برَك مليئة بالماء القذر مختلطة بالصرْف الصحّيّ. وفي دير الملاك أعلنت جهاراً أنّني لن أذهب إلى الكنيسة وأنّني لا أؤمن بالدّين، ودارت معارك بيني وبين أخي الأكبر الذي كان متديّناً وصلتْ إلى الصراع البدنيّ، وتقاطعنا حتى بعدما ذهب هو للعمل في أميركا ورفضتُ أنْ ألتقي به في بعض زياراته إلى مصر لأنّي كنت احمل ضغينة له إذ رفض أن يدفع لي ما يساوي مائة جنيه مصريّ كانت غرامة ملحقة بسنوات السجن من المحكمة العسكريّة التي حاكمت القضيّة الشيوعيّة التي حُشرت فيها.

عدم دفعه الغرامة التي طلبتْها أمّي منه في خطابٍ جعلني أعمل ثلاثة أشهر في قسم الشّرطة في منطقة بابٍ شرقي بالإسكندريّة التي انتقلتْ إليها الأسرة وأنا في السجن لتلتحق أختي الأصغر بجامعتها حسب مجموعها في امتحان الدراسة الثانويّة. كان أمامي اختيار وحيد، إمّا أن أدفع الغرامة «مصاريف»، كما يسمّونها، أي بالعمل في القسم وتنظيف مراحيضه مثلاً، أو أن أبقى في السجن لثلاثة أشهر إضافيّة. وطبعاً قرّرتُ العمل بالقسم.

هكذا خرجت من «سجن الواحات» الصحراويّ إلى مدينة الإسكندريّة الرّحبة في شهر نيسان / إبريل بداية أشهر الصيف وتكوّنت المجموعة الشيوعيّة من النّزلاء الذين خرجت معهم آخر مجموعة تخرج من ذلك السّجن بمناسبة زيارة خروتشوف إلى مصر للمرّة الأولى للاحتفال مع ناصر بانتهاء المرحلة الأولى من بناء السّدّ العالي بأسوان الذي ذهبنا إليه بعد ذلك (صنع الله إبراهيم وكمال القلش وأنا) في أول وآخر تجربة عمل مشترك لثلاثتنا لوضع كتابٍ عن السّدّ العالي. اتّخذنا هذا القرار في سجن الواحات مع عبد الحكيم قاسم حيث أسّسنا مجموعة تمّ اعتبارها «متمرّدة » على الواقعيّة الاشتراكيّة وهاجمْنا تصريح خروتشوف و«جهله» بالفنّ حين أعلن أنّ الفنّ التّجريديّ هو كالرّسم بذيل حمار. وبالطّبع وجد





تصريُحه هذا قبولاً من المدرسة الماركسيّة التقليديّة المصريّة في الكتابة وكان يمثّلها آنذاك في السجن إبراهيم عبد الحليم ومحمّد صدقي، والأخير عاملٌ مثقّف، ثمّ النوبيّ محمّد خليل قاسم النوبيّ الذي كتب «الشمندورة» عن بلاد النّوبة، وهذه أوّل رواية نوبيّة فتحت الطريق لكتّاب نوبيّين بعد ذلك، منهم يحيى مختار الذي كان زميلي في السجن لمدّة سنتين ثمّ خرج براءةً بعد المحكمة العسكريّة في الإسكندريّة، ولم يمتهن الصّحافة التي درسها معي في الجامعة. وهو لا يزال - أطال الله عمره - يكتب رواياته النوبيّة الهامّة والجميلة.

في «سجن الواحات»

في سجن الواحات بدأت «آخذ نفَسي» فقد تمّت محاكمتي وصدَرَ الحكم وأصبحت سجيناً بعدما كنتُ «معتقلاً» لمدّة سنتين قَيد التّحقيق في سجن القناطر الذي انتقلت منه إلى سجن «الحضرة» في الإسكندريّة لأنّ السّادة القضاةَ العسكريّين قرّروا أن تكون المحاكمة في الصّيف الإسكندراني حتّى يستمتعوا بهواء الإسكندريّة المرطّب للبشرة بينما نُشوى نحن في الزّنازين!

القضيّة كان المتّهم الأوّل بها أبو سيف يوسف أبو سيف، وهو سكرتير الحزب الشيوعيّ المصريّ، بعد الانقسام، وأصبحت كلّ كتلة منقسمة تعتبر نفسها الحزب الشيوعيّ. وكان المتّهم الثّاني إسماعيل المدوي ذا ثقافةٍ فرنسيّةٍ عالية ترجَمَ كتاب «بولتزر» في الفلسفة الماركسيّة، وهو شخص صداميّ قرّرت الدولة أن تتخلّص منه بعد الإفراج عنّا فأودعتْه مستشفى الأمراض العقليّة لأنّه حاجج سارتر الذي كان ضيف الدّولة المصريّة باعتبار أنّ وجوده في مصر ضيفاً على الدّولة يعطي صكّاً للنّظام المصريّ الناصريّ الدّيكتاتوريّ. كان أيضاً في القضيّة سامي خشبة، ابن المترجم المعروف دريني خشبة، مترجم الإغريقيّات الملحميّة، ومعنا أيضاً حسين شعلان وهما خرّيجا قسم صحافة وقد عمل كلاهما في «الأهرام» ووصلا إلى مناصب عالية فيها، كما عمل شعلان رئيساً لتحرير «الأهالي»، الصحيفة الأسبوعيّة لحزب التجمّع. كان بالقضيّة أيضاً عبد السّلام مبارك ابن الدكتور زكي مبارك الشهير، وشخصيّات أخرى. كنّا ستّة عشر متّهماً وأنا كنت المتّهم الرّابع عشر، وتمّ الحكم على المتّهمين الأوائل تسعَ سنواتٍ سجناً وعليّ بأربع سنوات.

التحقْت بالتّنظيم الماركسيّ «طليعة العمّال» وأنا في السّادسة عشر وبقيت فيه حتى الثّالثة والعشرين من العمر، ثمّ تحوّلت إلى «حدتو» في سجن القناطر وبقيت مع «حدتو» حتى بعد حلّ الحزب ونحن في الواحات قبل العفو بوقت قليل.

كان العفو في نيسان / أبريل ١٩٦٤، ثمّ حصلتُ على منحةٍ من اتحاد الكتّاب المصريّين للسّفر إلى بولندا لدراسة اللغة البولنديّة عام ١٩٧٠، وذهبت للعمل في العراق عام ١٩٧٥ حيث فاتحني كمال القلش الذي كان يعمل في صحيفة «الثورة» العراقيّة بالانضمام مرّة أخرى إلى «الحزب»، فانضممت حتى استقلْتُ منه نهائيّاً عام ١٩٨٠. وأذكر أنّ ميشيل كامل كان يحضر من وقت لآخر من باريس ليرأس الخليّة التي كنت عضواً فيها مع الشاعر محسن الخيّاط والفنّان عدلي فخري (رحمهما الله)، وطلبت منه الاستقالة فسألني إن كنت أعترض على «خطّ الحزب السياسيّ» فقلت له بالعكس، لكنّ هناك أفراداً في الحزب أرفض أن أُسجن معهم ولا أحترمهم (لكن هذه حكاية أخرى!).

ومن يومها وأنا شخصيّة مستقلّة خارج نطاق الأطر التنظيميّة.

بيروت، عدن، أديس أبابا، بغداد...

هذه جردةٌ سريعة لحياتي التنظيميّة كان أهمّ ما فيها تكوين فرقة مسرحيّة بسيطة في بيروت مع باسمة الحسيني (التي ترأس الآن منظّمة «المورد الثقافي» اللاربحيّة) سمّيناها «سبعتعشر يناير» على اسم الانتفاضة في مصر أيّامها، وارتبطنا بروجيه عسّاف مؤسّس فرقة ومسرح «الحكواتي» الذي دعمَنا كثيراً بل ساعدّنا على أن نقدّم المسرحيّة للمخيّمات المصريّة في لبنان. كنت أنا ممثّلاً فيها بينما بسمة تقوم بالإخراج مع أنّني درست الإخراج في وارسو.

وكان الحزب قد اتّفق مع منغستو هيلا ماريام (أو من يمثّله في عدن) بتأسيس إذاعة تحريضيّة تبثّ إلى مصر من إثيوبيا فطلبوا منّي الذهاب لتأسيس هذه الإذاعة (هذه أوّل مرّة أعترف فيها بهذا العمل!) في إثيوبيا. كنت قد طلّقت زوجتي البولنديّة وتزوّجت زوجتي المصريّة التي كانت تدرس الطبّ في بغداد. كذلك كنت قد ألغيت اتّفاقي مع مؤسّسة السينما والمسرح العراقيّة التي عُيّنت فيها براتب جيّدٍ حين تركت وارسو وقدمت مباشرةً إلى العراق بتوصية من السفير العراقي في بيروت (أعدمه صدّام). عملت في المؤسّسة حوالي سنتين لكنّ صدّام انقلب على الحزب الشيوعيّ العراقيّ وأعدم بعض أفراده

من الذين كانوا بالجيش العراقيّ، فلم أشأ مواصلة العمل في العراق ومعظم مَن أعرفهم من الشيوعيّين فارّون أو في السجون، فقرّرت الاستقالة دون أن أذكر السّبب الحقيقيّ خوفاً على حياتي، وذهبتُ إلى بيروت حيث وجدت عملاً في قسم التّرجمة بجريدة «السّفير» اللبنانيّة ومنها عملتُ بعد ذلك في «مجلّة اللوتس» الخاصّة باتّحاد كتّاب آسيا وأفريقيا سكرتيراً لتحرير الطّبعة العربيّة التي كان يرأسها معين بسيسو، ثمّ في «بيروت المساء» مجلّة منظّمة العمل الشيوعيّ التي بقيت فيها حتى خروجي النّهائيّ من لبنان حيث كان يرأس التحرير فوّاز طرابلسي الذي ساعدني أيضاً على الخروج الآمن من بيروت وأعطاني مبلغاً من المال كان هو ما ساهمتُ به في تأسيس «دار شهدي للنّشر». سافرتُ مع زوجتي المصريّة إيمان إلى عدن للتمرين والمساعدة على فتح إذاعة فيها موجّهة إلى صعيد مصر ضدّ السّادات. ثم ذهبت إلى أديس أبابا فلم أجد ما وعدني الحزب به حيث كان الوعد أنْ تواصل إيمان دراستها في السنة الثالثة في كليّة الطبّ بأديس أبابا، لكنّهم أصرّوا على إرجاعها إلى السّنة الأولى فرفضنا ذلك، كما سوّفوا في موضوع الإذاعة ولم أجد ترحيباً منهم بنا، فقرّرتُ الرجوع مرّة أخرى إلى عدن ومواجهة المسؤول المصريّ هناك بما لاقيتُه في إثيوبيا. فحدثتْ بيننا مشادّة ومنعني من دخول الإذاعة في عدن بحجّة أنّي «أذيع في خطٍ سياسيّ معادٍ للحزب» فطلبتُ التّحقيق معه! ولمّا لم يحصل وفهمْت أنّه لنْ يحصل استقلتُ كما ذكرْت آنفاً.

بيـــــــــــــــــروت كانت بالنسبة لي كواحة أحتمي بها من حر بغداد وتوترها السياسي. ذكرتني كثيرا بالإسكندرية التي أحبها أكثر من القاهرة وضجيجها خصوصا أن الإسكندرية استقبلتنـــــــــــــــي مباشرة بعد صحراء «الواحات».

عادتْ زوجتي إلى بغداد وطلبتْ منّي أن ألتحق بها مجدّداً، وبالفعل أبلغت طلال سلمان بموقفي (وكنت لا أزال في «السفير») وذهبت إلى بغداد لاستكشاف «الجوّ» وطلبت من عبد الأمير معلّة الالتحاق مرّة أخرى بالعمل (وكان وقتها رئيس المؤسّسة ثمّ أُعدم بعد ذلك على أيدي جلاوزة صدّام، وهو الذي كتب سيرة صدّام في «الأيّام الطّويلة» وأقنع توفيق صالح بإخراجها)، لكنّه واجهني بأنّي نزلت إلى مصر وانتقدت صدّام حسين في التلفزيون المصريّ.

الحقيقة أنّي خفْت وحاولت إثبات براءتي لأنّي حقيقةً لم أذهب إلى مصر إلّا في منتصف شهر حزيران / يونيو عام **١٩٨٢**، وأخبرني أحد الأصدقاء في المؤسّسة بأنّ غالب هلسه هو من أشاع ذلك فعاتبتُه (كان يعمل في مجلّة عراقيّة اسمها «أقلام») فادّعى أنّه كان يمزح! لكنّي قرّرت عدم البقاء في بغداد وعدم العمل في العراق وأخبرت إيمان بذلك ورجعت إلى بيروت، فطلبتْ هي الطلاق وهكذا حصل.

بيروت كانت بالنّسبة لي كواحةٍ أحتمي بها من حَرّ بغداد وتوتّرها السياسيّ. ذكّرتْني كثيراً بالإسكندريّة التي أحبّها أكثر من القاهرة بعجيجها وضجيجها خصوصاً أنّ الإسكندريّة استقبلتْني مباشرةً بعد صحراء «الواحات».

أمستردام أو الاستقرار

حين أتأمّل حياتي الآن، وأنا في الحادية والثّمانين، أعجب لتصاريف القدَر معي وبي. فها أنا أعيش في مدينة أمستردام لأكثر من خمسة وعشرين عاماً بشكل منتظم وقد رتّبت حياتي منذ أن استقررتُ بهولندا وقرّرت البقاء هنا رغم صعوبات اللغة التي لم أستطع إجادتها لاسيّما أنّني قدمتُ إلى هولندا بعد سنّ الخمسين، بالتّالي ليس من السهولة أن يستقبل عقلي لغة جديدة بسرعة.

أمدّتني هولندا باستقرارٍ عقليٍّ ونفسيٍّ، ففيها أنهيت «بيضة النّعامة» وكتبت كلّ أعمالي، وفيها أسّستُ أسرةً مع زوجتي الهولنديّة آنّا ماريكا بورما وأنجبنا بنتاً سمّيناها يارا تعمل حالياً طبيبة في المستشفى التعليميّ وسوف تتزوّج قريباً صديقها الذي تعرفه منذ سنوات. أنهى ابني ديدريك (ديدي) «ماستر» في الاقتصاد السياسيّ ويعمل الآن في الحكم المحلّيّ لمدينة أمستردام. أحببْت أمستردام ورضيَتْ بي لأنّها مدينة على مقاسي فلم أعدْ أحبّ المدن الكبرى مثل القاهرة ولندن مثلاً ولا البلدات الصغيرة.

بدأتُ كتابة «بيضة النعامة» بعد لحظة تنوير خاصّ في بيروت إبّان الحرب الإسرائيليّة على لبنان **١٩٨٢** حين قرّرت العودة إلى مصر بأسرع ما يمكن خصوصاً أنّ جواز سفري كان قد أوشك على انتهاء فترة صلاحيته ولم يبقَ أمامي سوى عشرة أيّام لذلك. حانت اللحظة وأنا جالس ذات مساء في شرفة الشقّة التي أقيم بها في نزلة «كاراكاس» وقد تحطّم زجاجها بفعل القصف الإسرائيليّ وقد بات مصير الفلسطينيّين معروفاً: «الهجرة إلى بلاد

أخرى». كان عدلي فخري يقيم في المبنى ذاته ويذهب يوميّاً للغناء في الخنادق والمعسكرات الفلسطينيّة اللبنانيّة للمقاومة. قال عدلي إنّه باقٍ وسيرحل مع الفلسطيّنيين أينما رحلوا. قلت له إنّي مغادر وراجع إلى مصر التي غبت عنها غيبة طويلة لاثنتي عشرة سنة متواصلة ولم يرجعني إليها شوق ولا محبّة بل «الشديد القويّ» كما يقول المصريّون، أي غصباً عنّي.

ما إن استقرت بي الحياة في مصر حتى بدأت أكتب لأنني كنت أريد أن «أكتشف» من أنا. لم تكن هذه الرغبة واضحة في البداية.

قبل وصولي إلى القاهرة كان قد تمّ اغتيال السادات في السّادس من تشرين الأوّل / أكتوبر ثم عُيّن حسني مبارك رئيساً للجمهوريّة. رجعت إلى مصر بسهولة وبدون استجوابات أمنيّة. أقمت فترة في شقّة محسن الخياط (رحمه الله) ثمّ استأجرت شقّة مفروشة أقمت بعدها مع صنع الله إبراهيم، وطوال مدّة إقامتي في القاهرة كنت أبحث عن سكنٍ أستقرّ فيه بمفردي. فقد عشت سنوات قبل الزواج بمفردي في بولندا ثمّ في بغداد وبيروت وتعوّدت على الحياة المستقلّة أدبّر شؤوني بنفسي ولا أستعين بإنسانٍ إلّا عند الضرورة القصوى. كنت قد تزوّجت وطلّقت مرّتين وقرّرت الابتعاد عن مؤسّسة الزواج لاعتقادي بعدم صلاحيّتي لها.

أخيراً حصلت على عمل براتب غير محدّد حين وافقت على أن أؤسّس مع أرملة شهدي عطيّة الشافعي وابنته حنان «دار شهدي للنّشر» ووضعتُ ما بقي معي من النقود التي أعطانيها فواز كنصيبي في المساهمة فيما وضعتْ روكسان أرملة شهدي بضعة آلاف الجنيهات هي نصيبها الذي حكمتْ لها به المحكمة التي أقامت أمامها دعوى بجريمة قتل شهدي في السجن وهو «أمانة» لدى مصلحة السّجون. ثمّ توالى تقديم الدعاوى ضدّ الدولة وطلَبُ تعويضات عن سجننا جميعاً، وكان القضاة يحكمون في هذه القضايا بسرعة وقد حكموا لي بعشرة آلاف جنيه!

لم يزوروني في السجن

أسّسنا المكتب في شقّة تمتلكها عائلة روكسان اليونانيّة المتمصّرة بالزمالك في شارع إسماعيل محمّد. هي شقّة لطيفة تشرف على معهد الموسيقى الشرقيّة من ناحية وعلى «النّادي الروسيّ» من ناحية أخرى وكنت أسكن في غرفة وجعلت الغرفة الأخرى والصالة هي «دار شهدي».

في تلك الأيّام بدأت أكتب في «بيضة النّعامة» ولم أكن أعرف تحديداً ماذا أكتب ولا أين أنا ذاهب في كتاباتي هذه. كان السبب الأساسيّ نفسيّاً أي أنّي حينما جلست تلك الليلة في بيروت في شرفتي المحطّم زجاجها وقرّرت العودة إلى مصر كنت قد قرّرت العودة أيضاً إلى الكتابة التي تخلّيت عنها لحوالي اثنتَي عشرة سنة هي سنوات دراستي في بولندا والعمل في بغداد ولبنان أي سنوات «عدم استقرارٍ وتخزين لا واعٍ» للأحداث. لكنْ ما إن استقرّت بي الحياة في مصر حتى بدأت أكتب لأنّي كنت أريد أن «أكتشف» مَن أنا. لم تكن هذه الرّغبة واضحةً في البداية لكنّها أخذتْ تتّضح خلال العمل في الكتابة.

أذكر حين وصلت شقّتنا الجديدة في الإسكندريّة أنّي سألت أهلي «أين كتبي ومكتبتي؟» فقيل لي إنّهم أعطوها أو باعوها بثمنٍ بَخسٍ «لبْتاع الروبابيكيا» فحزنْت كثيراً وأحسست بأنّ جزءاً خاصاً منّي قد ضاع نتيجةً لتبرّؤ أهلي منّي ومن موقفي السياسيّ. فحين كنت أقضي الحكم في الإسكندريّة لمدة ثلاثة أشهر أو أكثر لم تأت أمّي إلى المحكمة سوى مرّة واحدة، وكذلك أخي رمسيس الذي يكبرني بسنتين. لم يزوراني في السجن وكانت خالتاي المقيمتان في الإسكندريّة وقتها تأتيان بشكلٍ شبه منتظم خصوصاً بعد تصعيب الإذن بالحضور. كانتْ أمّي وباقي الأسرة يتحدّثون عن «اختفائي» لمن يسأل عنّي معلّلين الأمر بأنّي أدرس في منحة في الخارج باعتبار أنّ سجني السياسيّ مصدرُ عارٍ لهم!

وما إن أعلنت دولة ناصر العفو النهائي عنّا وإلغاء العقوبات المترتّبة على عقوبة السجن حتى شددْت الرّحال إلى القاهرة أبحث عن الرفاق وعن عمل. لم أكن أريد البقاء مع أهلي وقد اعتبروا رؤيتي السياسيّة وتضحياتي عاراً يخفونه! فذهبت إلى من هم يشبهونني وأصدقاء لي من السودان، هم أسرة طبيب مصريّ سودانيّ اسمه داوود إسكندر وكانوا يساعدوننا ماليّاً أيّام الفقر الكئيب فدقَقْت باب الأولاد في بيتهم في مصر الجديدة ومعي شنطة (حقيبة) صغيرة بها مقتنياتي القليلة، فرحّبوا بي واعتبروني «الابن الضّالّ» الذي رجع بعد غيبة سنوات... ولا أزال ألتقي بهم حتى الآن من وقتٍ لآخر إذ إنّهم يقيمون ويعملون في إنكلترا.

ثقافة الناس للناس

٢٥٦ **فؤاد حداد كبير شعراء العامّية في مصر**
«أمل المساكين» و«صوت الجموع المفرَد»
وئام مختار وياسر علوي

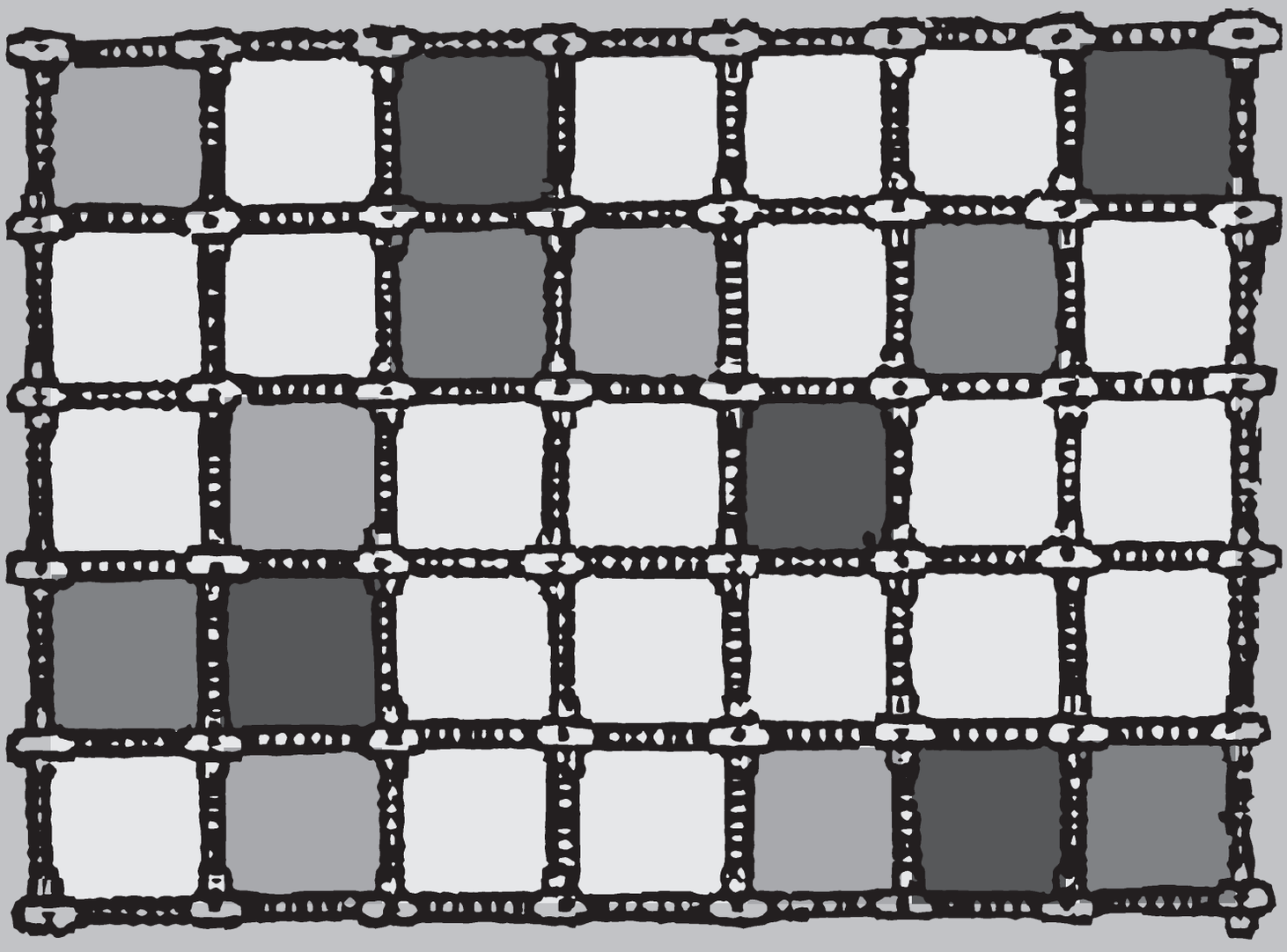

فؤاد حداد كبير شعراء العامّيّة في مصر
«أمل المساكين» و«صوت الجموع المفرَد»

وئام مختار
كاتبة وباحثة مصرية.

ياسر علوي
جامعي وناقد موسيقي.

هو فؤاد سليم أمين حدّاد، المولود بحيّ الظاهر بالقاهرة في ٢٨ تشرين الأوّل / أكتوبر ١٩٢٨، والده من بلدة «عبيه» بلبنان، وأسرته مسيحيّة بروتستانتيّة. اهتمّ الوالدان بتعليم سليم حتّى تخرّج من الجامعة الأميركيّة في بيروت، متخصّصاً في الرياضيّات الماليّة، وجاء إلى القاهرة ليعمل مدرّساً بكليّة التّجارة بجامعة فؤاد الأوّل - جامعة القاهرة حاليّاً - ويحصل على لقب البكويّة، وعندما أُنشئت نقابة التجاريّين في مصر، منحتْه العضويّة رقم واحد.

أمّا والدته زكيّة، فهي من مواليد القاهرة في ١٩ حزيران / يونيو ١٩٠٧، جاء أجدادها السريان الكاثوليك إلى مصر واستقرّوا فيها وولد أبواها في القاهرة، أبوها من عائلة أسود التي جاءت من دمشق الشام وأمّها من عائلة بولاد من حلب، وفي المعتقل تحوّل «فؤاد حدّاد» إلى الإسلام.

يقول فؤاد حدّاد عن نفسه:

«أنا مصريّ من أصلٍ شاميّ لا يغتفر احتشامي
هينطلق من حيشاني صوت الجموع المفرَد»

تعلّم في مدرسة الفرير ثمّ مدرسة الليسّيه الفرنسيّتين، اطّلع مبكّراً على التراث الشعريّ العربيّ في مكتبة والده، وكان منذ طفولته يريد أن يصبح شاعراً، ولمّا سُئل عن السبب أجاب «لأساعد النّاس حتى تكون حياتهم أفضل».

بدأ فؤاد حدّاد النشاط الأدبيّ تزامناً مع نشاطه السياسيّ كشيوعيّ حتى النّخاع، عام ١٩٤٤ وهو تلميذٌ بالمدرسة حيث كان ينشر قصائده في الدوريّات الأدبيّة والجرائد الحزبيّة، وأوّل دواوينه كان اسمه «أفرجوا عن المسجونين السياسيّين» وقد اختار هذا الاسم الجريء في تلك الفترة انطلاقاً من موقفٍ وطنيٍّ وسياسيّ واضح، وقد صدر هذا الديوان عام ١٩٥٢ تحت اسم «أحرار وراء القضبان» وبسبب الرقابة والاسم الأصليّ صار اسماً للمقدّمة.

اعتُقل فؤاد حدّاد للمرّة الأولى من عام ١٩٥٣ إلى ١٩٥٦ وقد أفرج عنه لمدّة شهرين فقط عام ١٩٥٤، وخرج من المعتقل ليكتب كما لم يكتب من قبل، وصدر ديوانه الثاني «حنبْني السدّ»، وكتب بعدها محتفياً بكلّ حركات التحرّر الوطنيّ من كلّ أنحاء العالم.

اعتُقل فؤاد حدّاد للمرّة الثانية من نيسان / أبريل ١٩٥٩ إلى نيسان / أبريل ١٩٦٤ وفى هذه السنوات الخمس كتب كثيراً رغم التعذيب والقهر، بل تفجّرت بداخله طاقاتٌ فذّة وصنعتْ تراثاً فريداً، ففي أيّام التعذيب في معتقل العَزَب، قرّر أن يكتب كلّ يوم قصيدة ليرفع من الروح المعنويّة لزملائه.

على مدار حياته، تنقّل فؤاد حدّاد بين الشيوعيّة والصوفيّة:

«ياللي كفرت بالاشتراكيّة
والمكنة التشيكوسلوفاكيّة
بالتّذكرة كما بالتّزكية
بالمتشقلب بالمعدول
دلدول دلدول
كان عندي طاقيّة
طاقيّة شقيّة
من شقاوتها بقتْ طرطور»

من وحي تهاويم التصوّف وملكوته، كتب ديوان «المسحّراتي» الذي لحّنه وغنّاه سيّد مكّاوي، وديوان «الحضرة الزكيّة»:

«يا أهل الأمانة والنّدى والشوق، يا مجمّعين
الشمل في الحضرة الزكيّة، أوّل ما نبدي
القول نصلّي على النّبي
المصطفى سيّد ولد عدنان
كان ياما كان الليل وكان الليل
أخضر منذّي بيسمع القرآن»

لقد كتب فؤاد عن كلّ شيء وعن كُل الناس، بنفَسٍ

مصريٍّ وعربيّ وأمميّ، كانت فلسطين همّه الشخصيّ، وكان «الغلابة» شاغله الأكبر، وما بين هذا وذاك، أسّس لشعر العاميّة المصريّة الحديث، يقول عن نفسِه:

«أنا والد الشّعرا فؤاد حدّاد
أيوه أنا الوالد وياما ولاد
أبالِسه ربّيتهم بكلّ وداد
بعدِسّه تلميذ أولي وإعداد، تسالي»

وكانت آخر أبياته التي تركها على المكتب ليلة وفاته، يوم الأول من تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٥، هي الملخّص الوافي لسيرته:

«مات اللي كان حالف يموت ولا يقطَع دابر
أمل المساكين في الأكابر»

١

أنا الأديب وأبو الأدبا
اسمي بإذن الله خالد
وشعري مفرود الرقبة
زي الألف
ورقم واحد
والساعة ٦ في العتبة

٢

يا اسمر يا روحي يا امتداد النيل
الثانية مشيت قد ألفين ميل
على قافية متقدر لها تحميل
ألفين سنة ويفضل كلامي جميل

٣

أنا مصري من أصل شامي لا يغتفر احتشامي
هينطلق من حيشاني صوت الجموع المفرد

٤

منين يا عم إبراهيم؟
قال لي أنا من الطير
يا ميت صباح النعيم
ويا ميت صباح الخير
ما أحلى الشقا لما أشقى
بقلب أعقل وأشقى
من العقول الشقيّة
أعدل جناح الطاقية
وافتح عراوي الصدير
لسه في حياتي بقيّة
تسأل عيوني اللي عاشقة
الطير مزاج والا نشأة؟
ولا الغرام اللي جابني
والجو صاحي عجبني
أقول لك الحق يا ابني
كلنا من الطير

٥

آه وآه ويا فرحة قلبي
كنت طير وصبحت مراكبي
يجناحينْ وحملت مراكبي
يا هنايا في ريح النيلْ
وابتسام الفجر دليل

يا حياتي وسر حناني
لما افتح لك احْضاني
كل شط يلاقي التاني
والعطاشى تلاقي سبيلْ
والليالي تقول لك آه
آه وآه ويا فرحة قلبي

في الندى عسّلت شويَّة
جاني طيفك طل عليه
ضّي قلبي وضّي عينيَّه
مبتسم في الطلّ كحيلْ
طفل غاوي بداوي الآه

كل شط لقيته طارح
حلم بكره وحلم امبارحْ
والقلوبْ كلها تتصالحْ
في الغناوي والمواويلْ
اللي تعلى معاها الآه
آه وآه ويا فرحة قلبي

٦

[redacted]

بطّل تلومني على النهاية السعيدة
ولا أنت مستكتر على المسكين.. بطيخة ع
السكين!

٧

[redacted]

مســـحـــراتي يا مؤمنين
مـــنـــقـــراتي مد الأنين
الله على رعشة الحنين
عمره ما كان الأمل ضنين
يا قدس نوارة السنين
كأن عيني في ميتمي
يا قدس ما يحتمل دمي
الا أشوفك وأرتمي
وأبوس ترابك المريمي
أبويا وابني على فمي
ما اتوهش يا قدس في المطال
يا عاصرة مهجة الرجال
سقاكِ من دمعته الهلال
يا قدس يا سبحة الشقا
الأعمى في سجدتك رأى
والفجر من صخرتك سقى
يا قدس تتفجر الجراح
والصبر حرب وأيوب صلاح
يا أخت من مكة والبطاح
قلبي انضرب للعرب وصاح
لابد من فتح في الصباح
المشي طاب لي
والدق على طبلي

ناس كانوا قبلي
قالوا في الأمثال:
«الرجل تدب مطـرح ما تحب»
وأنا صنعتي مســـحـــراتي في البلد جوال
حبيت ودبيت كما العاشق ليالي طوال
وكل شبر وحتة من بلدي
حتة من كبدي
حته من موال:
لما تقول أجمل ما في الدنيا، الميه للعطشان
يعرفوك عربي
أما للراوي ريحة البرتقان في مداخل يافا
يعرفوك عربي
لما تقول ابني اتولد لاجئ
يعرفوك عربي
لما تقول يا رب
يعرفوك عربي
لما تباشر جهادك، ترمى أوتادك
في قلب دابح ولادك
يعرفوك عربي

٨

[redacted]

مفيش في الأغاني كده ومش كده
يفرقنا عن بعض بالشكل ده
يا مصر اللي جايبة الشجر من زمان
وشايلة الضفاير على البرتقان
وقبل الأوان اللي قبل الأوان
بتحييني أنفاسك المُسعدة

بحبك كأني طليق العنان
وزي العجوز اللي دق البيبان
وزي الكتاب اللي كان يا ما كان
وزي الرصيف اللي في السيدة

أنا اللي زرعت البيوت والعيدان
ما يمنعش عقلي شوية جنان
هيرجع لاسمك رنين الحنان
قتيل المحبة يلبي الندا

٩



المطرقة ناحت على السندان
اتشكلت كتل الحديد.. قضبان
الرأسمالي.. بيملك الآلة
الرأسمالي.. بيسجن الإنسان

الرأسمالي بيملك الآلة
أغلال.. على استغلال
على بطالة
يجعل حياتك يا فقير عالة
ويموتك.. ويبيع لك الأكفان

الرأسمالي بيملك الآلة
الرأسمالي.. بيقتل الإنسان

١٠



يا ليل من الحب صاحي
من الشقا نعسان
على كل طوبة ندى
وشذى وأمل إنسان
من الظلام فيه الضي
ومن العطش فيه الري
من ألف حي وحي
من ألف عام
وأنا عايش في الزمان الجاي

١١



الدمـوع فيها الصَرَع والغلّ
راضي مش راضي الدموع بتذلّ
تشبه الشكوى لغير الله

١٢



مقطع من موال **الشيخ** سعيد

كان يا ما كان شيخ سعيد أسمر عيونه وساع
في قعدته مرحبا والخطوة جدّ وساع
تعطف عليه الجنينة كل ساعة وساع
وتدور عليه الموالد
تدور عليه الموالد شيخ سعيد يا سعيد
مين غيرك اللي ح يجبر خاطر المكسور
من سبحتك يجري حمص يملا جرن صعيد
رقابينا يا هل ترى تشهد شهادة زور
يا شيخ سعيد الشجر بيندّي لما تزور
وتلالي في المندرة تفتح لفوق وبعيد
تعزف على الجندره تبسط هدوم العيد
قال يا ولد يا اللي ماشي هناك على الحيطة
والسقف زي السحالي طُل وإسعى لي

ح اعلمك صنعة الموال وطباته
إوعى توسوس توشوش خد نفس عالي
ودحرج النور على السلم وطباته
بعيد ولفوق
قلنا القوافي كتيرة قالوا طب هاتوا
طلع لهم شيخ سعيد في أولى طبعاته
والجمهورية بتطلع ويا طلعاته
شاور بكمه وجاب لك شارع الصاغة
وبعتره في ميدان المادنة والساعة
قال كل مين يسمعوني يفهموني كمان
عاشق بلادي بعبلها وبهبلها كمان
في العين وفِى الحلم واللي ف بالها أحلى كمان
قلنا القوافي كتيرة وربنا يرزق
باعلمك زهوة الموال وشباته
سبح بعرفه وضرب في الجو لباته
نادى حصان أبو زيد ع الشمس لباته
باتوا العرب فِ الترب ع الذل لم باته
بعت لهم كهربائي الجن لمباته

قلنا القوافي كتير وربنا يرزق
باعلمك صنعة المنقار مع الفسدق

علشان تقول عني يا فؤاد كلام يصدق
مش برضه اسمك فؤاد يا حته من كبدي
تقول لهم شيخ سعيد والقافية شيخ دسُّق
كان بوسطجي مسحراتي في الندى الأبدي
ما كانش يقبل مماينة وكان جريء بلدي
حتى الأمير في الطلاينه كان جريء بلدي
أفضل أموت م العطش إلا إن جا ريق بلدي
قمر الصحاري بطش بمحرم الموال
عقلك بشمس إتلطش طمني كيف الحال
سمعني تحت الرحال برهوم في الحارة
نوح البنات العذارى يا أبو زيد هلال
ندا العتابا وردة يابا بالشامي
«نحنا فرغ صبرنا
لما اتملا خيرنا
ماشيين على قبرنا
روحنا في مناخيرنا
إطفي النجف من عماد الدين وبرشامي
ح اسمعك يا فؤاد موال من الأصلي
إذا خيال القمر في الماء تَرقص لي
يا ليل يا ليل غيهبي يا ليل غبي يا ليل
الإنجليزي هابي و أنا شيخ سعيد يا ليل
وباعرف إن الظلام اسمه ظلام يا ليل
واسمه الكتوم والقتام واسقي المدام يا ليل
أنا باعرف إن الظلام اسمه نواهنّ
وبعدهن شهورا لا نراهنّ
على الجميلات من بعد الهوى هنّا

١٣

الجحيم يساوي قسوة بني آدم
الجنه فرط الحنان
النور في كل آوان

١٤

مقطع من قصيدة استشهاد جمال عبد الناصر

يا حضن مصري يا طلعة فجر يا ريّس
مع السلامة يا والد يا أحنّ شهيد
آدي الرقابي ودي الأعلام بتتنكّس
فين طلّتك في الدقايق تسبق المواعيد
والابتسامة اللي أحلي من السلام بالإيد
يا معانا في كل فرحة ومعركة وجديد
أؤمر لي بحقوقي وهدوم الولاد في العيد
والمجانيّة ومرايل بيضا والأناشيد
والصبر ما يغلبهش الذلّ والتنهيد
فرّقت ورقك وقلت الكلّ يكتب لي
من البحيرة من الشرقيّة من قبلي
أنا خفت لو أم تنده وتلاقيني بعيد
ياما السفر والبريد ياما الأمل بدري
ياما الغلابة تريد منشيّة البكري
وياما قلبك خفق من رحمته وضناه
كل الآهات شعب واحد يا حبيب الله
يا صادق العقل واكتاف الفواعليّة
صدر الشهامة اللي أكبر منها حنيّة
نسّيتنا أيّام ما كانت راسنا محنيّة
آدي المدارس ودي الشوارع ودي العمال
والفلاحين الأحبّة أمّتك ياجمال
داوم علي الحق ياكبير العرب داوم
عشر ليالي بضحاها وانت مش نايم
خلّينا نعلي بحناجر تطلبك ودموع
يا قوة الشعب يا قلب الوطن مسموع
يا رؤية الذاكرة يا واحد الجماهير
صوتك نبع من نبات نادي وشرف وضمير
من ملحمة ومن دموع زي النهاردة كتير
خليني أسأل دموعي قبل ما اكتبها
وليل ماكانش انتهي وأيّام نعتّبها
واسمك يدور في المنارة خالد الإحساس
مين اللي أكبر؟ مقامك في قلوب الناس
والا مقامهم في قلبك؟



١٥



كان ياما كان بكره
يا حلم ما بتخلصش منه وداني
كل اللي قبلي مد حبلي وناداني
وقالوا لي مالك يا حبيبنا يا سيد
تطرح دموعك كل يوم وتعيّد
أنا قلت يا أهل الزمان اللي فات
تضحك معاكم كلكم وتزوّد
وتبكي منكم كلكم ألحاني
قالوا لي ما تظلمش منا الصفات
احلم معانا بالتبات والنبات
ونادي بالخضري وبالحلواني
وخد حكاية وهات حكاية وكمّل
العود بيضرب والقانون بينمّل
كان ياما كان ود وفرح وتهاني
كانت سنين تتلف زي الضفيرة
كنت الجنايني ومصر فوق الحصيرة
كانت أميرة في العسل والأغاني

١٦



عمرك سافرت الفجر
عمرك بكيت
عمرك شقيت من غنوه تسمعها
عمرك لقيت نفسك ومديت لها
خطوة صبا
عمرك شكرت أخوك وسقف البيت
وعيون تودك والنظر واللقمة
عمرك خجلت لأن أطيب منك
انت اللي قادر تنفعه
عمرك سألت سؤال
عمرك كتبت لمنكسر مكتوب
ايدك بترعش لما بيملّي
عمرك بدأت عمل وكنت شباب
عمرك سهرت عليه
عمرك جمعت الصبر والحرقة
عمرك خليت تحت الشجر والنور
عمرك طلبت من الريحان دنيا
عمرك مشيت بين الحبايب مغمّض
في كل خطوه تقول بلادي جميلة

١٧



أنا صاحي الفجر وخايف
لا النسمة تكون قلقتها
أنا باسأل عنها لقيتها
الحلوة بتسأل عني
أنا زي الحنة في إيدها

١٨



وقعدنا لبعض نحكي
وقسمنا الارغفة
ضحكك يلاقي ضحكي
وقُلّتك شفا
والليلة مصيّفة
والبدر على الغيطان
يا حلاوة يا حنان

الأولة لقيتني، عطشان وانت السبيل
من قلّتك سقيتني، وأنا مانساش الجميل
عطشان وانت السبيل
تايه وانت الأمان
يا حلاوة يا حنان

يا شابكني.. بعود ريحان
والله ونسمة حبيبي
وحشتني من زمان

١٩



الفنانين قالوا لنفسهم ما دام مانقدرش نخلّد
يبقى نخَلّل
وهات يا تلاتين حلقة في تلاتين حلقة

لمّا الكلام زهق من نفسه وقال:
من كتر المط.. أنا اتشرمطت*
دُقّي يا مزيكة

* تستخدم في العامية المصرية القديمة بمعنى التمزّق، ويقال شرموطة على خرقة القماش القديمة التي تستخدم في التنظيف.

٢٠



الشابة دي قبل ما أطرشق
عشقتها زي ما يعشق
واحد موظف فبراير

٢١



فؤاد حدّاد يكتب عن صلاح چاهين:

ولا كل مين
فى الظلمة شقّر
طبل ونقّر
يعرف يسحّر
يا مسلمين
ولا كل مين
عاش في الحديقة
وقال فيه حريقة
على الحقيقة
أصبح أمين
ولا كل مين
حَطّ اللاوندي
ع القلقشندي
ينفع أفندي
في الفلاحين
ولا كل مين
كسّر سنونه
وعمل لي نونو
يصدق جنونه
ويرجع جنين
ولا كل مين
له كلمة صابحة
في ربع صفحة
وآراؤه صالحة
صلاح جاهين

٢٢



على عكازين
على عكازين
الدنيا ماشية على عكازين
عكاز تسول
عكاز تحول
حالة تجول
على عكازين
وناس بتحيي ومالهاش نية
وناس بتقتل بإنسانية
وناس فقيرة
وناس غنية
وناس بتكسب من غير إيدين
على عكازين

٢٣



يا العروسة اللي بتغسل
خلجاتها في خليجي
من شفايفك تمر معسّل
دوقي قلبي خس مليجي

آه يا هز النخل جيب لي
طرح بحري وطرح قبلي
والفقيرة تحتكم لي
في المراية اللي تزغلل
يا العروسة

اللي بايتة ع الحصيرة
لف خلخالها الجزيرة

علقتني من الضفيرة
الغزالة أم الغزيل
يا العروسة

شفت عودها لما جاني
عودها لما طل تاني
كنت ماشي وراح تناني
قال ماكانش الخالي شغل
يا العروسة

الحكاية لسه فيها
يا محاسن يا فكيهة
كل ضحكه بتضحكيها
قلبي من جوه يهـلل
يا العروسة

شفت كوعك لما شمّر
قلت فل وقلت مرمر
العجين التاني خمّر
والدراع لسه مخدّل
يا العروسة

آه وياما وآه وياما
قلبي بيقوم القيامة
لما تمشي بالسلامة
ولما كل الشمس تنزل
يا العروسة

٢٤

تحت السما الواحدة الأغاني الواحدة
واخد عليها والا هي اللي واخدة
علي ومصاحباني من ألف عام
موالها قال السقف من ريش نعام
ضحكتها صاحية ردت المصروع
قُلّتها للعطشان وأما الجوع
شباكها جلاب الهوى والطعام
والليل حنين ع اللي قال يا ليل
سبّحت زي الطير

الله هداني الوليف
قلب المدينة ريف
يزرع غيطان الخير

يا ذاكرة الشعب المصري
أنا دايماً مخلص وجميل
أنا واضح زيّ الأحلام
مش شرط يقيموا التماثيل
أنا طينك يا مصر ومائك
وباكلّم نفسي بأسمائك

٢٥

لمّا يبقى القلب صادق وابن ثورة
وجراح القلب زي الشمس حمرا ..
كل نور الدنيا يتجمع في نظرة
راح تعيشوا وراح تغنوا يا عيالي
راح تلاقوا خير ميقدرهوش خيالي
والليالي والليالي والليالي والليالي
والليالي الخضرا من بين الليالي

٢٦

أول كلامي سلام
وتزقّقيني الكلام
أيام في حضنك أنام
القلب الأبيض هنا
يا مصر.. يا أمنا

وأطلع في نور الأدان
إذا دعا الوالدان
المدرسة.. والميدان
الإنسانية هنا
يا مصر.. يا أمنا

٢٧



مـــا أشجعي وأخوفي
أنا خلّ ظـــلّ وفي
في الخير وفي
وف الشرّ برضك وفي

٢٨



ولا نتخلّق، ولا نتخلّق، ولا نحزن غير لو نتفرّق
اسمك اسمي و انا بتشرّق
بني ادم جرحي و دوايا

٢٩



ليه ما قبلتش أعبد الأوثانْ
ليه ما اكتفتش بأضعف الإيمانْ
ما رضيتش أعيش من غير عيونْ ووِدانْ
ما رضيتش اعيش من غير فؤاد ولسانْ
ليه قلت طرد الطاغي في الإمكانْ
ليه قلت هان الطاغي قبل ما هانْ

٣٠



يا حتة من روحي اللي بتردها
يا حتة من قلبي بتتقطع
يا حتة من خدي في شفايفها
من شفتي في خدها
يا حتة من ضحكي اللي مش قدها
يا حتة من عقلي اللي مش ليه
مش قادرة تتعود على التمثيل
وتستفيد من دمي لما يسيل
يا حتة من غلبي مع الكذاب
وحتة من غلبي مع الصادق
يا حتة من سلم رقبتي القمر
بيغني زي المونة في القصعة

يا ليل على كتاف الفواعلية
ضي النهار ما لحقش يضرب كلاكس
ضيعني في الحادث ورجعني
يا حتة طعم لساني وعينيه
وقميصي في المرجيحة لما يدوخ
إذا هاجمني الديب هقف ملبوخ
يا حتة من بكره هتنجدني
أنفاس ولاد نايمين بتوجدني
وتولدني
يا حتة من أحضاني زي الأم
يا حتة بتوصلني زي السويس
يا ريس الغليون يا الأجريجي
أنا ريس الغليون والأجريجي
م الصبح واقف في ميدان القلعة
الترميات بتعدي بي البحر
إن نوّرت والا طفت شبابيكي
كل الحيطان بتبوس في قلبي مرابعه
بغيب على مهلي كأني نسيت
وبافتكر طريقتها لما تبوس
تقعد تهنني عشان ما ننامش
كأنها خافت عليّ الكابوس
كأنها أخفت عليّ الكابوس
خليك هنا ومفيش غيلان عميا
ومفيش حرايق في أُوَض تانية
يا جنينة تسكر في زمن محبوس
يا ليل ما جربش السفر بالقطر
بصرخ كأني قطر مش فايت
بصرخ كأن الدنيا مش سامعة
والشمس مش طالعة
والأرض مش زارعة
لا المزروع ولا المقلوع
ولا حد كان شايف من القلعة
الأيام اللي رايحة بتيجي
الأيام اللي جاية تروح
وكأني مش فاقس من البيضة
ولا عمري خالص من تلجيجي
مجنون عطشجي والا تحويلجي
فتح الأشارة الخضرا للممنوع
كل الدموع متاخدة من تهريجي
متاخدة من تهريجي كل الدموع

يا حتة من قلبي بتتقطع
يا حتة من قلبي أنا المقطوع

٣١



الشجن كل النبات متربي
وكل حكمة في ذمة المتنبي
هو اللي قال لك تخبي وهو ما خباش
اتلقى كل السهام شاطر ما خيبهاش
كل السهام أفقي ورأسي
مقدمة لموال عكسي
سألت نفسك عن نفسي
المظلومين أكتر من المُتظلمين
والا أقل

٣٢



الأوله قام يقسم ولا نام على الناي
والتانية افتح يا سمسم تنفتح عيناي
بتحضروا لنا الغدا على الشمس والا الشاي
الأوله يا فلاسفة
بتحبه وتقوله له أسفة
هواك سفيه ولا أسفه منه إلا هواي
الحب مش أنا وأنت والاّ أنت وأنا
كفاية لو غيري غيرك أو سواك سواي
يقول لك اللي سقاهم لما ضهره انحنى
هما اللي كانوا سواهم
وشق واحد تواهم
ما آخرته بالتفاهم أوله باي باي
ما تفهمي يا فهمية
يا مستوية وفجة
الفهلوة المستقيمة
بتغلب المعوجّة من الألف للياي
الأولة قبل ما أكدب

التانية راح تستعجب
التالتة تابتة بتقلب ماخابرش إزاي
طليت من العصفورية لحد قايت باي

وأنا بابا غنوج باغني لماما غنوج
يا للي حبيبك ما جاش اعمل كأنه جا
كل الدموع بالبصل والضحك بالنوجة
عين الولد طالعة نازلة وبُقه رايح جاي.

٣٣



مرة نغازي ومرة نغازل،
وباحبّك يا جميل ويا طيّب،
ذو جيرة وذو فضل قريّب،
وبيحصل يا قمر وتغيّب،
وكأنك بتقول مش حاصل،
مرة نغازي ومرة نغازل،
غنوة لك تشبه غنوة لي،
والقافية جت علي منوالي،
وباحبّ أمّا تسمع موالي،
بيوالي الدنيا وبيواصل،
مرة نغازي ومرة نغازل،
مانخليش ف الدنيا عواذل

٣٤



ليه كل ما نقول آه
الناس تقول الله
أنا المُغني
ضلوعي زي الشجر
بتفرش الضله
وبتبني سقف البيت
لما الحيطان تعلى
وروح يا ليل بالسلامة
وهات يا ليل ابتسامة
من الجميل الغايب
هو الحبيب في الحبايب
هو اللي يعرف يا ليل
ليه كل ما نقول آه
الناس تقول الله
أعمل ضلوعي شجر
علشان ترد اللي غاب



وترد قلبه شباب
أعملها سقف وباب
واعملها مركب
وأفضل ألف البحار
واغني فجر ومغرب
واغني ليل ونهار
لحد ما تستعجب
ليه كل ما نقول آه
الناس تقول الله
كان فيه شجر موعود
يصبح كمنجة وعود
تسمع في حسه الودود
ضي النسيم ع الغصن بيتمرجح
ويلاغي ظل الشجر
وسقف بيت في القمر
وجيران تطل وتفرح
وباب يفتح
لكل غايب يعود
ليه كل ما نقول آه
الناس تقول الله
.....

٣٥

[redacted]

فين الشعر المباشر؟
حاضر يا روحي حاضر
بلسم هانم يا قاعدة
على البيانو حاضر
ما ابقاش الأمين على دار المحفوظات
طالع من البحر اللي فات
نازل من البحر اللي جاي
خيال بيلعب من صاحبه حركة وثبات
لو عبد: كل المصايب
حتلف من تحت راسي
علشان ما تجيبش
-الناس دي عاوزة تعيش-
لو حر مش سايب
ما ابقاش أنا الدايب ابن الداير ابن الدايخ
ابن كليم المشايخ
ابن خلقت ألوفا
ابن الفتات اللي باقي على بواقي المصاطب
إن ما عملت لكيش البحر طحينة
عاوزة اللي فات والا اللي جاي
يا عقد سبحة
يا صباح الحي
يا طبطاب العجين
يا كلك على بعضك بيحلم
بانتصار المستضعفين
الغزل في قلبي عنقود أخف مني واتقل منك سوا
على مزاج شعرك مزاج الهوا
تنطوريه يتنطور
تضفريه يتضفر

حبّـاً
في سواد عيونك بيشبك بنسه ويفرفر
كلامك والا بقك عاجبني
نفَسك والا ريحته
أنا وانت شيخ واحد
ورور وورورة
سموات من غير إيدين
دخلت في إسورة
حابوسك بالعند
وابوسك بالخضوع
تعظيم سلام
يحيا الدلع
في عرض رجليكي ملك مقطوع
عرق في عز الصيف
جسمه في بلطيك
عريان في عز الشتا
يصرخ يغطيك

أمة وراور بتغني تقل الجبل
عرض الصفحة
بصوت جزاة الناس
أوتوبيس بيشغي
سرير بعمدان لوحده في الخلا منصوب
طشت الغسيل والولادة
الليل طويل
والفجر زي اسمه فاجر

بيليّل ويغني حاضر
براح الدنيا قفص مسرحي
علشان خاطر

٣٦



يا سامعين: أبناء بلد واحدة
تحت السما الواحدة وياما جرى
مرت سنين ع الدنيا متقدرة
الغرب سماها العصور الوسيطة
ونظر وقال كان الزمن مظلم
أما الحقيقة البسيطة
بتقول في دار الشرق
مهما جرى ومهما يجرا
من أول تاريخ الهجرة
كان عندي فجر أنشق
نوره في عين الجبارين مؤلم
حتى اذا ما ألتقوا بالفارس المسلم
عرفوا الحقيقة وعظموا فارس
صلب القوام والدرع تحت العمامة
حتى اذا ما نزل من السرج ونصب خيمة
سهل الدموع إلا ابتسام الراضي
مايل بجسمه لاستماع الأراضي
وعلى العيدان الطرية
ايديه ندية كيف أيدين الفارس الغارس
هذا الذى رد الثغور البهية
وبنى باسماء الأئمة المدارس
وحضر مع الخصم لمقام القاضي
وأعاد إلى الأم الصليبية ابنها
أما عن المنكر نهى
وأما في ليلة شجن بالشام
حلف يمين أفضل له
يفقد ولاده ومؤنسته ولا يهدم
هذا صلاح الدين فتى مقدم

حامل لواء الفتية والأجناد
فوق الخيول المسرجات الجياد
وهي ليلة من ليالي ربيع
أو هي ليلة من ليالي جماد
القاهرة أولى رايات الجميع
عند المقطم كبرت للجهاد
يا رب تشفي الصدور
يا رب توفي الأمهات الندور
يا رب تمنع عن ولادنا الويل
زاحفين على السواحل سلاسل نور
والبحر من دمياط يحيي السيل
واترتبت ع الخطوة رجلين الشهور
والصبر أملك من عنان الخيل
حتما على قدام وحتما ندور
والحصن في عكا عظيم الليل
يلقى الآذان بيشق فوق السور
الحق يا ولاد العرب منصور
في كل أرض اتكلمت عربي.

الأرض بتتكلم عربي وقول الله
إن الفجر لمن صلاه
ما تطولش معاك الآه
الأرض بتتكلم عربى

الأرض بتتكلم عربي ومن حطين
بترد على قدس فلسطين
أصلك ميه وأصلك طين
الأرض بتتكلم عربي

الأرض بتتكلم عربي سبل وكروم
تجرى اللقمة على المحروم
ما تثبتش حصون الروم
الأرض بتتكلم عربي

الأرض بتتكلم عربي يا خيال
بيعد سيفك أم عيال
ظهرك ياما من الأجيال
الأرض بتتكلم عربي

الأرض بتتكلم عربي حتى البور
بنت الساقية والطنبور
حتى في بطون الأرض قبور

الأرض بتتكلم عربي بوجد وشوق

الفرع اللي يهم لفوق
لأجل الجدر يشم الضوء

الأرض بتتكلم عربي جدورها جدود
مد اتوسع زي العود
أنت الباكر والمولود

الأرض بتتكلم عربي.

٣٧



أهدي قصايدي جهاد وجهاد أقدمها
لكل مين عاش قصايدي قبل ما أنظمها
قصايدي فورة غضب ما قدرت أكتمها
غنّاها قلبي وجرح القلب قسّمها
في مصر سوق الذمم العمر موسمها
في مصر رب الشرف والنخوة مجرمها
أفواهنا لو نطقت بالحق كممها
أنوفنا ريحة النتن والكبت شممها
عيوننا سهد استلمها وجهد سلمها
رجلينا تحمل جسومنا والا توهمها

إيدينا لنتاج إيدينا، منع تقدمها
إن أوشكت بالكلبش الأعمى يصدمها
أرواحنا مالهاش تمن في الوحل يختمها
أجسامنا قربان لرب الحرب يولمها
شدت شعورها الصبايا البؤس يتمها
عرى حيطان السجون جبار وعتمها
بردت نجوم السما متلفّعة بغيمها
رأيت بلادي يصبوا الشر في جحيمها
حفرة مساخر جبال آسيا ما تردمها

نزعت من صدري ريشة ورحت أرسمها
قصايدي صرخة معذب طال عذابه ما طال
إلا شتات من نوازع قلبه ترجمها
يا معذب الجماهير يا ظالم اظلمها
ومن حياة الكفاف الضيقة احرمها
جموع تجدد شبابك وأنت تعدمها
يا معذب الجماهير يا باغي كوّمها
في السجن بالجملة عمال فلاحين طلبة
مجاهدين مجهدين على البُرش نيمها
وسطوتك شهوتك في الخلق حكمها
راكن على جيوش غريبة بكرة نهزمها
اللي ما حيلتوش مداس حيدوس على رقبتك
واللي بنى صروحك هو اللي يهدمها
قصايدي بنت الجهاد هتّافه هتّافه
اليأس موت بالأمل دايما أتممها

٣٨



في كل حي ولد عترة وصبية حنان
وكلنا جيرة وعشرة وأهل وخلان

أميرة عاقلة في الحجلة والعقل يطير
كانت صغيرة بضفيرة، وكان هو صغير
ساعة ما تضحك مع اخوها.. تلاقيه بيغير
ولما ترفع قلتهم تلاقيه عطشان
زمانه ماشي بخطوة يضم
زمانها كبرت وبقت أم
زمان جواب جايلها بيجري على العنوان

الفجر بيلاقي المغرب وبييجي ويروح
والليل يطل على الشارع شباك مفتوح
هنا الرصيف وهنا السلم وهناك يا سطوح
متعلقة كمام النونو في ديل الفستان
زمان ضناهم في المدرسة كنز الأوطان

نحضن ولادنا ولا نخلي حنية وذوق
نكبر معاهم ونغني لقدام ولفوق
يا دي العيون اللي بتقرا في كتاب الشوق
الدنيا خضرة ومش فاضل علي بكرة زمان
أصل الحكاية حكايتنا نبني الانسان



نهوند

٢٧٢ **مقامات السماء:**
العبقري الجديد
الشيخ محمود الشحات
ياسر علوي

٢٧٤ **الشيخ إمام والثقافة الشعبيّة**
فيصل درّاج

مقامات السماء:
العبقري الجديد الشيخ محمود الشحات

ياسر علوي
جامعي وناقد موسيقي.

قبل أن أنام، هذا النّصّ هديّة ووفاء لوعد لصديقي العزيز السميع العتيد عبده البرماوي بالكتابة الفوريّة عن هذا الصوت المبهر، الذي كان البرماوي أوّل من لفَتَ نظري له في كانون الثاني / يناير الماضي. من وقتها، وأنا أسمعه بلا انقطاع كالمجذوب، على أقلّ تقدير سمعت له أربع وعشرين ساعة تلاوة (بواقع ست ساعات يوميّاً في المتوسّط)...

وبناءً عليه، أقرّر أمامكم وبضميرٍ مطمئنّ أنّنا أمام قارئٍ فذٍّ لا أظنّ أنّني أعرف قارئاً بمستواه على قيد الحياة الآن، صوته وتَمكّنه يجعلانه يقف على قدم المساواة - رغم عمره الذي هو بالتّأكيد أقلّ من ثلاثين - مع عمالقة القراءة، وحتى يمكن أن يقارَن بالقارئ والمبتهل الأعظم (وأحد أهمّ عمالقة النّغَم في القرن العشرين في نظري) الشيخ العظيم محمّد عمران، الذي سأعود له في حديث آخر، خصوصاً أنّ عندي تسجيلاً لجلسة خاصّة يبتهل فيها الشيخ عمران بحضور سيّدنا محمّد عبد الوهّاب وسليم سحّاب وفؤاد عبد المجيد والكلّ يصرخ طرباً كالمجانين، ثمّ ينهيها بأذان الشّيخ علي محمود (من مقام الراست)... عموماً هذا حديث آخر.

المهمّ الآن، أنّي كلّي بهجةٌ وسعادة وأنا أقدّم لكم هذا القارئ العبقريّ في تسجيلين لآيتين فقط (١١ - ١٢) من سورة التحريم.

القراءة الأولى (ويمكن إيجادها على موقع ساوند كلاود) هي قراءةٌ تبدأ من مقام البيّاتي (وإن كان بها عرْب - أي ارتجالات قصيرة تخرج عن المقام الأصليّ إلى مقاماتٍ مجاورة أو بعيدة، حسب خيال المؤدّي وقدراته، ثمّ تعود له في ثوانٍ قصيرة) من مقامات السيكا والعجم والراست. شيءٌ مذهل ولا أجد له وصفاً آخر يفيه حقّه (خصوصاً إذا أخذْنا في الاعتبار أنّ التسجيل مدّتُه ثلاث دقائق فقط). صوت مبهر، خيال موسيقيّ خصب، ونفَس طويلٌ، وإجادةٌ مطلقة لقواعد التجويد وأحكامه.

وجه آخر للروعة في هذا التسجيل يَظهر في التجاوب المدهش من المستمعين، الذين يبدو بالفعل أنّهم سمّيعة راسخون. يتّضح ذلك تماماً من أنّهم يصيحون «الله» كلّ مرّة من نفَس المقام وعلى نفَس النّوتة الموسيقيّة التي يقف عليها الشيخ، ويغيّرون القفلة وراءه عندما يغيّر المقام أو النّوتة التي يقف عليها (ولا أحسن كورس في الدنيا)... حالة تجاوب وتوحّد مع القارئ لا أعرف لها مثيلاً.

قراءة القرآن، كما تعرفون، هي البيت التقليديّ الذي نبتت منه الموسيقى العربيّة في القرن العشرين (من هنا كان عتاة الملحّنين من المشايخ، بدءا من سيّد درويش وزكريّا أحمد ووصولاً لسيّد مكّاوي والشيخ إمام، ومن هنا كان أهمّ مغنّي القرن عبد الوهّاب وأم كلثوم من قرّاء القرآن المُجيدين). وأهمّ المُقرئين يجيدون المقامات إجادةً مطلقة، بل ويعرفون بدقّةٍ مناطقَ قوّة كلّ مقرئ والمقامات التي يجيد منها، من هنا تسمية الشيخ أبو العينين شعيشع مثلاً «بملك الصَّبا» والشيخ علي محمود «ملك الكرد» وهكذا.

نحن هنا أمام قارئٍ مُجيد تماماً لأحكام القراءة، وينقل المعنى بشكلٍ واضح عبر تمكّنه المذهل من المقامات، بالإضافة إلى جمالِ صوته (ولعلّ من المفيد هنا تذكر أنّ كتب السّيرة النبويّة وكتبَ التراث بعامّة، تروي أنّ معيار اختيار بلال بن رباح لأداء الأذان كان أنّه «أندى الصحابة صوتاً» أي أجملَهم صوتاً، المعيار كان جماليّاً بحتاً، لم يستحِ منه النّبيّ في اختيار المؤذّن، وإنّما اندثر هذا المعيار مع سيطرة الانغلاق الوهّابيّ وظهور القراءات غير المعبّرة بأنكر الأصوات، يكفي مثلاً أن يستمع الواحد منّا للأذان في أغلب مساجد منطقة



المهندسين في القاهرة مثلاً ليعرف الجريمة التي ارتُكبتْ في حقّ فنّ التّلاوة والأذان).

ولإظهار قدرات هذا القارئ العظيم، وجدتُ له تسجيلاً آخرَ للآية ١٢ نفْسها من سورة التحريم، يؤدّيه من مقامَي الصَّبا والعجم... الاستماع للتّلاوتَين للآية نفسها يُظهر بوضوح الفروق بين أجواء المقامات المختلفة، والطابع الحزين لمقام الصَّبا في التّلاوة الثانية يَظهر بوضوح شديد. بصراحةٍ لا أعرف طريقةً للتّعريف بماهيّة المقامات الموسيقيّة (من حيث كونُها هنا طرقاً للأداء باختيار سلّم موسيقيّ معيّن تؤدّى منه التّلاوة بغرض نقل حالةٍ وجدانيّةٍ معيّنة، وطعمٍ خاصٍّ لكلّ مقام) أفضل من الاستماع لهذه التسجيلات ومقارنتها ببعض للتّعرف على الأجواء المختلفة التي يخلقها تغيير المقام (التلاوة الثانية موجودة على موقع يوتيوب).

نحن هنا أمام عملاق جديد للقراءة. وبحكم عمره لم يقدم أجمل ما لديه بعد. أبشروا! أو. بعبارة أخرى لا أمل من تكرارها. تفاءلوا بالشعب تجدوه...

أخيراً، لمن سيُصاب منكم مثلي بالشَّوطة وينجذب بهذا الصوت المبهر، ويريد أن يستمع لتلاوة السّورة كاملةً (التّلاوة التي اقتطع منها التسجيل الأوّل) فهي موجودة على موقع يوتيوب.

اسمعوا، وتسلطنوا، وأجيبوني بذمّتكم ودينكم وعينيكم وعافيتكم يا رفاق، أيّهما أكثر تأثيراً في الوجدان ومدعاة للخشوع، هذه التلاوات الرّخيمة، أم الأذان الخليجيّ الذي سيطر على الأحياء البرجوازيّة في القاهرة؟

عموماً، أبشروا بقدوم هذا العملاق الجديد لدنيا التلاوة، وبآفاقٍ جديدةٍ سيفتحها (فهو مازال في بداياته، في العشرينيّات من عمره) بتلاوته الرّائعة، وصوته المذهل، وتمكّنه المقاميّ الرائع وخياله الموسيقيّ الخصب (في هذا يزيد مثلاً بمسافاتٍ ضوئيّةٍ عن الشيخ الذي نال شهرة في التسعينيّات، الشيخ محمّد جبريل، والذي امتلك صوتاً جميلاً، لكنّه كان فاقداً تماماً للخيال الخصب أو التمكّن المقاميّ، فلم يترك بصمةً تبقى عبر الزمن)...

نحن هنا أمام عملاقٍ جديد للقراءة، وبحكم عمره لم يقدّم أجمل ما لديه بعدُ. أبشروا! أو، بعبارةٍ أخرى لا أمل من تكرارها، تفاءلوا بالشعب تجدوه...

الشيخ إمام والثقافة الشعبيّة*

فيصل درّاج

ناقد وكاتب وباحث، فلسطين. من مؤلفاته «ذاكرة المغلوبين»، «دلالات العلاقة الروائية»، «الرواية وتأويل التاريخ»، «نظرية الرواية والرواية العربيّة»، «الحداثة المتقهقرة».

الثقافة الشعبيّة جسماً قلقاً عابراً للأزمنة

قد يحنّ إنسان، جاوز الخمسين، إلى أغنية ريفيّة، حفظتْها أمة عن أمّها حين كانت تلازمها، طفلةً، في عمليّة الحصاد على هوامش القرية. والسؤال: ما الذي يجعل موظّفاً، يعمل في مؤسّسة ثقافيّة متقدّمة، يستذكر أغنية قديمة وهو يتذكّر، في لحظة شرود، أطياف أمّه الراحلة؟ يقول الجواب البديهي المباشر: إنّ أسلافنا البعيدين يعيشون فينا، أو أنّهم تركوا فينا أشياء حيّة بعد رحيلهم. أمّا الجواب النّظريّ الذي يأتي به مثقّفون محترفون فيقول: إنّها قوّة الثّقافة الشعبيّة، التي تسكن في الوعي واللاوعي، والتي تمرّ على العقل دون أن تغادر «الوعي الجمعيّ»، الذي يتقاسمه الأحياء والأموات.

وقد يكون الجواب صحيحاً دون أن يكون واضحاً على الإطلاق، ذلك أنّ الثقافة الشعبيّة، أو ما يُدعى بذلك، متعدّدة الطّبقات، فيها مكانٌ للطّقوس والأساطير والحكايات الخارقة والقصص الغريبة وللأبطال الشعبيّين وسيَرهم، وفيها تلك المادّة الحكائيّة المُوحية، التي تحيل على ألف ليلة وليلة وعلى مآثر الشهداء العظام والقدّيسين وعلى قيَم، مهما تعدّدت أشكالها، تظلّ نقيضاً للشرّ والفساد. وإذا كانت هناك صعوبة تأتي من تعدّدية القضايا والمستويات التي تنطوي عليها الثقافة الشعبيّة، فإنّ هناك صعوبةً أخرى تأتي من التحوّلات الاجتماعيّة - الثقافيّة التي تهمّش وتقرض عالم الثقافة الشعبيّة، وتحوّلها إلى ثقافةٍ مراوِغة واضحة وجزئيّة الوضوح في آن، يمكن تأويلها وتوظيفها بأشكالٍ مختلفة، كما أشار الشاعر الراحل توفيق زيّاد، ذات مرّة.

يبدو الحديث عن ثقافاتٍ أخرى أقلّ صعوبة، حال الحديث عن ثقافة السلطة أو الثقافة الجماهيريّة، على سبيل المثال. فثقافة السلطة هي تلك التي تنتجها وتوزّعها أجهزتها التعليميّة والإعلاميّة وتلقّن مستقبلها منظوراً محدّداً إلى العالم، أمّا الثقافة الجماهيريّة، فهي التي تساوي بين الثقافة والتّجارة، وتعتبر السوق هو المرجع النقديّ الأساسيّ. على خلاف هاتين الثقافتين، اللتين تُردّان إلى قوى اجتماعيّة أساسيّة تتعهّدهما وتستثمرهما، تبدو الثقافة الشعبيّة موروثاً، يحمي ذاته بذاته، بل موروثاً يفتقر إلى الاستقلال الذاتيّ، لأنّه قابلٌ للاستثمار من وجهات نظر متعدّدة، قد تحوّله إلى «فولوكلور تجاريّ»، أو يشتقّ منه بعضها حكايات ملحميّة تدعو إلى التمرّد والثورة.

ومع أنّ الثّقافة الشعبيّة تبدو جسماً قلقاً عابراً للأزمنة، فهي في أصولها الأولى إجاباتٌ عن حاجات دنيويّة عمليّة، كأنْ يكون للحصاد طقوسٌ خاصّة به، وطقوس أخرى خاصّة بالزّواج والميلاد والأموات والزراعة وفصول العام الأربعة، أي أنّها ثقافة حياتيّة تعكس الحياة في تنوّعها وألوانها وتعارضاتها وإيقاعها، أو أنّها ثقافة الملموس، التي تشرح العالم بالإشارات والرّموز، لا بلغة المفاهيم المجرّدة. ولعلّ ارتباطها بدورة الحياة هو الذي يعطي المتخيّل دوراً واسعاً في صياغتها، معتمداً على الصوَر والرموز، ومتعاملاً مع واقعٍ بصيغة الجمع، يقبل بالحوار والتحوّل والأنسنة.

في روايته التي لم تكتمل «العاشق» استعان غسان كنفاني بالثّقافة الشعبيّة مرّتين: مرّة أولى حين جعل الفلّاح الثائر يسير على الجمر ولا يصاب بأذى، تعبيراً عن علاقةٍ سرّيّة بين الفلّاح الفلسطينيّ وبيئته، ومرّة ثانيةً حين أَنْسَن الطبيعة كلّها، فجعل بين الحصان وفارسه لغةً مشتركة وجعل الأشجار والسهول تتواطأ مع الفلّاح المقاتل وتحجبه عن عيون أعدائه، تأكيداً للوحدة العضويّة بين الإنسان والأرض. في الحالين كان هناك مجالٌ للغريب

* تم الاستناد إلى هذه الدراسة في محاضرة أُلقيت بدارة الفنون بعمّان في العام ٢٠١٢.

والخارق والسحريّ، وكلّ ما يحيل على الثقافة الشعبيّة أو تحيل إليه، الذي يعثر على تجسيداته في الأدب والفنّ.

من أين تأتي العلاقة الوثيقة بين الآداب والفنون والثقافة الشعبيّة، أو لماذا تأخذ الثقافة الشعبيّة، التي هي حاضرةٌ وغائبة معاً، مكاناً في الآداب والفنون يتجاوز كثيراً حيّزها في الحياة المعيشة؟ تقوم الإجابة في الحريّة الموزّعة على الطرفين.

الشيخ إمام ذاكرة وطنيّة

يقال: الفنّ ممارسةٌ للحريّة، ودعوة إليها، والفنّ يصوغ الواقع كما يجب أن يكون، والفنّ والحلم طريقٌ إلى تخليق واقعٍ جديد. أمّا الحرية في علاقتها بالثقافة الشعبية فتتجلّى في أربعة وجوه على الأقلّ: فالثقافة الشعبيّة، في تواترها التاريخيّ، ثقافةٌ لا مؤلّف لها، بصيغة المفرد، فهي محصّلةٌ طويلة لتفاعل بين الإنسان والبيئة، وتدع مجالاً للحذف والإضافة، انطلاقاً من حاجات البشر الفعليّة، وهي ثقافةٌ مرنة تحتضن إمكانيّة التحويل والتبديل، وفقاً لأحوال السياق، كأنْ تأخذ الفلاحة في الفنّ التشكيليّ المصريّ صوراً لا متناهية، أو أن تحتمل القدس أشكالاً متنوّعة في الرسم الفلسطينيّ، والعنصر الثالث ماثل في المساواة.

ما العلاقة بين هذه المقدّمة النظريّة الموجزة والناقصة، ومغنٍّ مصريٍّ رحل قبل حوالي عشرين عاماً (١٩١٨ - ١٩٩٥) هو الشيخ إمام؟ تأتي من جماليّات الثقافة الشعبيّة اللصيقة بروح الحياة القائلة بالتنوّع والمساواة، ومن شهوة إصلاح العالم، التي لازمتْ فنّانين رومانسيّين يبحثون دائماً عن «البراءة الأولى»، التي يمحوها الظلم الاجتماعيّ بعامّة، والقهر السلطويّ بخاصّة، بأقساطٍ مختلفة.

ما الذي جعل من الشيخ إمام ظاهرة غنائية شبابية في ستينيات القرن الماضي وسبعينياته؟ ولماذا علا اسمه في سياق وطني – سياسي وتراجع إلى حدود الاختفاء في سياق آخر؟ ولماذا يختفي الاسم حتى نظن أنه رحل نهائيا. مع الزمن الذي جاء به. ثم يعود فجأة في لحظات اليقظة الوطنية الشعبية.

ما الذي جعل من الشيخ إمام ظاهرةً غنائيّةً شبابيّة في ستّينيّات القرن الماضي وسبعينيّاته؟ ولماذا علا اسمه في سياقٍ وطنيٍّ - سياسيٍّ وتراجع إلى حدود الاختفاء في سياقٍ آخر؟ ولماذا يختفي الاسم حتى نظنّ أنّه رحَل، نهائيّاً، مع الزمن الذي جاء به، ثمّ يعود فجأةً في لحظات اليقظة الوطنيّة الشعبيّة، كما لو كان حضوره مرتبطاً بطبيعة جمهوره أكثر من ارتباطه بأغنيته السياسيّة؟

تلوذ إجابات الأسئلة بالذّاكرة الوطنيّة العربيّة، التي تستيقظ في لحظات المقاومة والهزائم، قبل أن تتوجّه إلى شخصيّة الشيخ إمام وما يمثّله، سواء حملت الكثير من الموروث الثقافيّ الشعبيّ أم القليل منه. فعلى مستوى الشخص، كان في ذلك المصريّ الأعمى، الذي وُلد عام ١٩١٨، ما يذكّر بشيخٍ قديم يحْسن تلاوة القرآن الكريم في لحظة، ويقدر على الانتقال إلى أغاني الأفراح والأتراح، في لحظة تالية. بل إنّ فيه، وهو يحمل عوده ويسير متباطئاً منحنيَ القامة، ما يذكّر بمغنٍّ غريبٍ يحجب عينيه الهامدتين بنظرة سوداء، جاء من بيئةٍ فقيرة، ويحصل على رزقه عن طريق الغناء.

لكنّ إمام لم يأتِ به إلى «الغناء» فقرُه، ذلك أنّ الفقر وحده لا يطلق الصوت، ولم يشهره صوتُه، الذي كان مزيجاً من الحلاوة والخشونة، بل أتى به الغناءَ سياقٌ وطنيّ مهزوم والتحريض على مقاومة الهزيمة وصانعيها. ولعلّ موقفه ممّا هو وطنيّ، في سياق ناصريٍّ تميّز بالنهضة والوعود والهزائم، هو الذي قاده إلى أغنية سياسيّةٍ، تعبّر عن روحه المتمرّدة، وأخذ بيده إلى أغنيةٍ سياسيّةٍ شعبيّة، تستجيب إلى مشاعر الشباب وعقولهم، ذلك أنّ أيّة ظاهرة ثقافة - فنّيّة تولد من جمهورها، قبل أن ترتبط بشخصٍ معيّنٍ، سواء كان أعمى أم مبصراً.

اشتقّ الشيخ إمام أغنيته من مناخ ثقافيّ - سياسيّ، ترجمه أحمد فؤاد نجم، في كلماتٍ تحريضيّة، ومن عودٍ أتقن الشيخ العزف عليه، وحسٍ بضبط الإيقاع، تعلّمه من الممارسة ومن شريكٍ ثالث يُدعى: محمّد علي. أعاد السياق صهرَ هذه العناصر وأنتج منها أغنية أخرى، تختلف عن الغناء المسيطر والمباح، تدعى: الأغنية الشعبيّة - الوطنيّة التي لها كلام مختلف، وجمهور مختلف، ولها وظيفةٌ لا يعترف بها القائمون على شؤون الغناء والتطريب. فبالإضافة إلى كلمات أحمد نجم، استعان الشيخ بأشعار نجيب سرور وسيّد حجاب وتوفيق زيّاد وزين العابدين فؤاد وغيرهم من «الشعراء» الذين يدَعون أحزان العشّاق وتنهيداتهم جانباً، ويتحدّثون عن الخبز والكرامة والعدالة، وعمّا يهزم الإنسان العربيّ في معركةٍ لم يذهب إليها، وعمّا يمكن أن ينصره لو كانت لديه قيادة رشيدة.

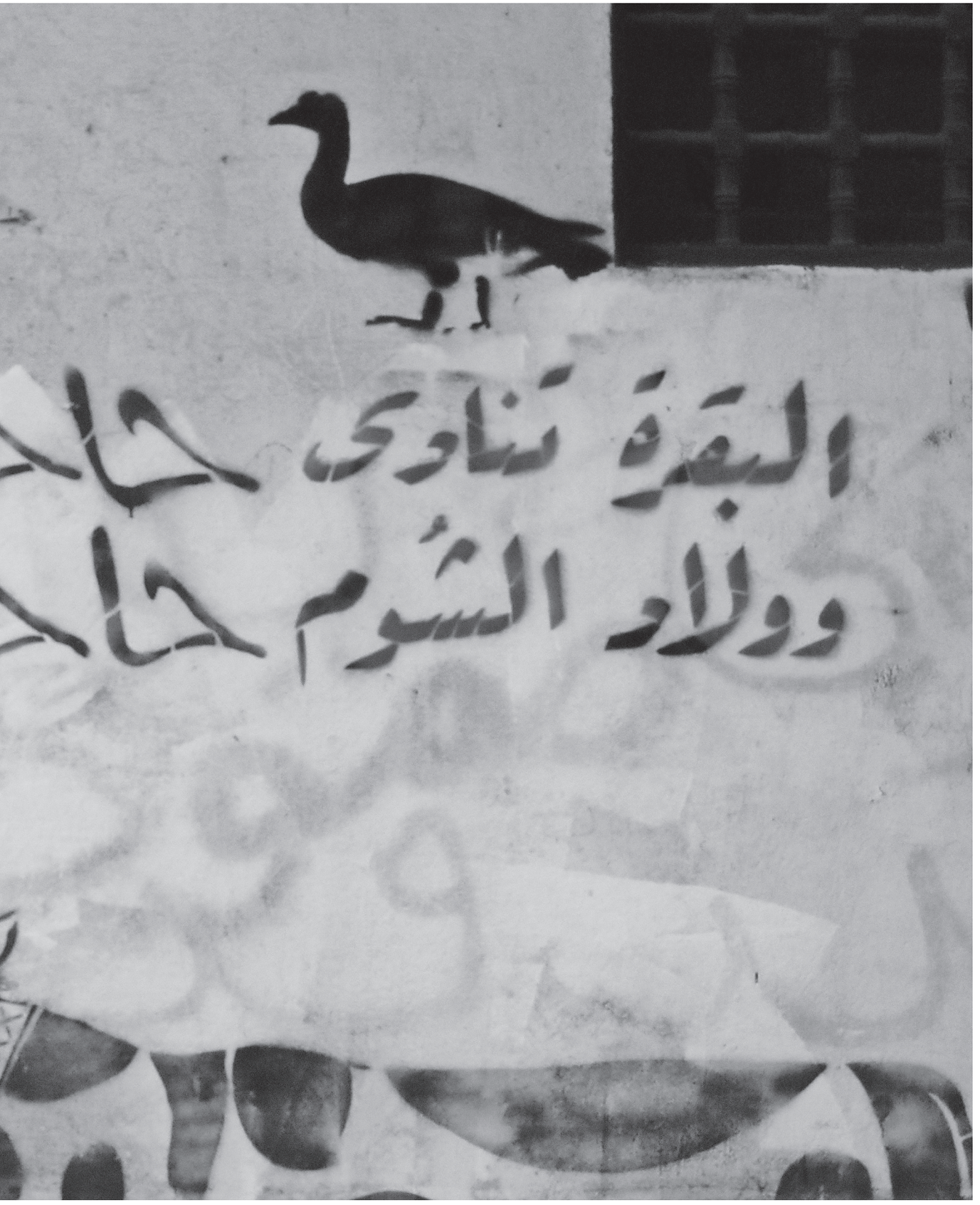
البقرة تنادى
وولاد الشوم

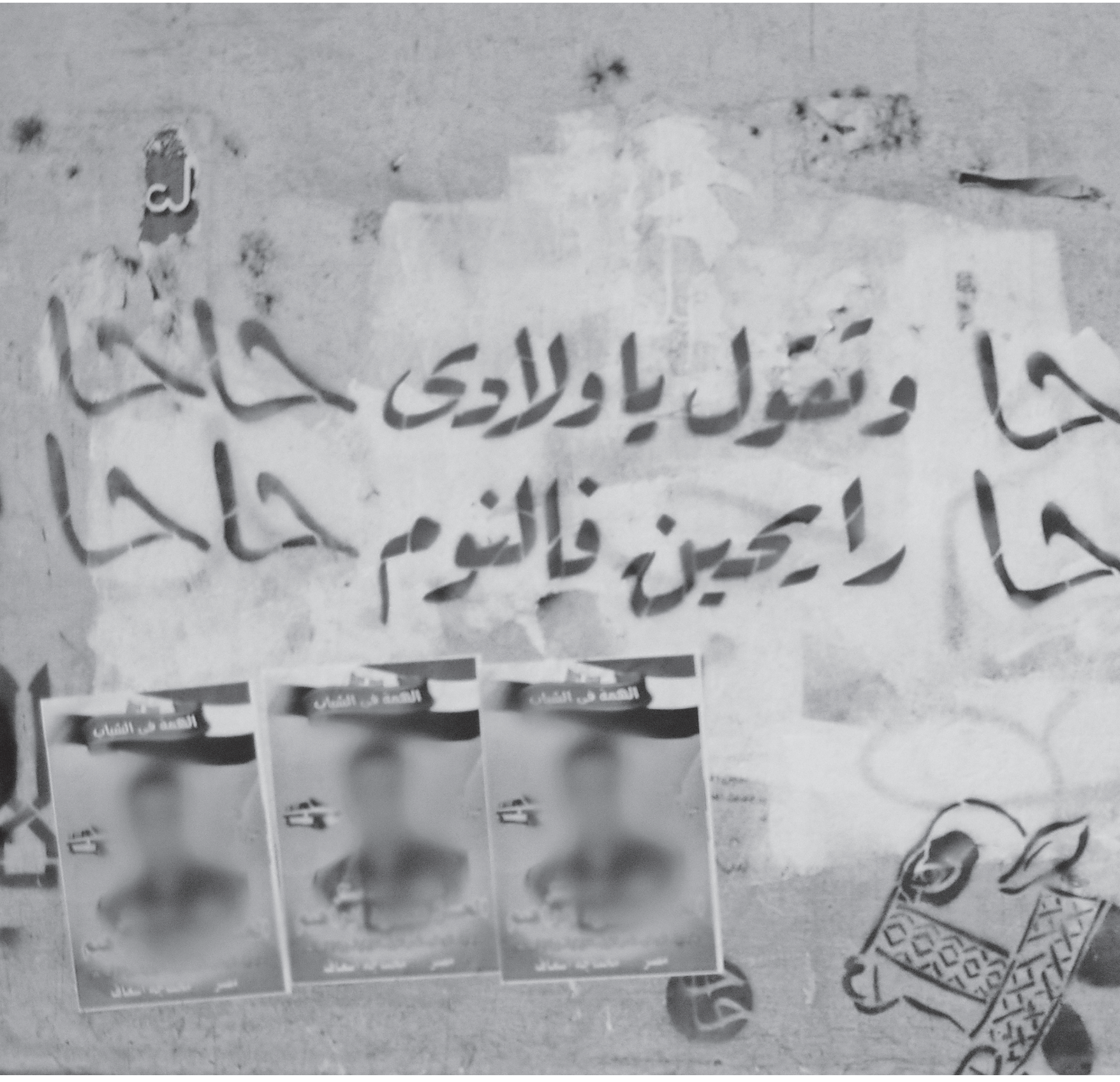
وتقول يا ولادى
راجعين فالنوم
القمة فى الشباب
القمة فى الشباب
القمة فى الشباب

اعتماداً على شكل معيّن من الغناء، أقرب إلى المنشور السياسيّ، التقى الشيخ إمام بجمهورٍ كان ينتظره، واعتماداً على سياقٍ ثقافيٍّ - سياسيّ، أراد أن يوحّد بين الوطنيّة والحرّيّة، التقى الجمهور بفنّان شعبيٍّ كان يحتاج إليه. أعطى هذا التبادل معنىً جديداً للإرسال والاستقبال، بالمعنى الفنّيّ، إذ الجمهور يستمع إلى فنّانه ويحاوره، وإذ الفنّان يُنصت إلى جمهوره ويشتقّ منه الكلام، كما لو كانت الأغنية عملاً مشتركاً ينجزه الفنّان وجمهوره معاً. أنتجتْ هذه الحالة، التي يشترك فيها التلامذة والشباب والمثقّفون، كورساً موسّعاً من نوع خاصّ، لا يقف وراء المغنّي في الإذاعة أو الحفلات العامّة، بل يتوزّع على البيوت وحلقات الشباب المتمرّد والشوارع والمظاهرات أكان ذلك في القاهرة وبيروت، أم بين شبابٍ فلسطينيّين يحلمون بتحرير بلادهم.

كلّ شيءٍ في هذه الأغنية السياسيّة، أو المسيّسة، كان بسيطاً وواسع الأحلام، فآلة العزف بسيطة، والكلمات لا تحتاج إلى شعراء كبار و«الصالة» مرنة متقشّفة، لا تحتاج إلى مختصّ في التكييف أو الإضاءة. وراء كلّ ذلك كانت تتمدّد جماليّة الأرواح، حيث الشيخ المغنّي الستينيّ يصبح شابّاً وهو يغنّي للنّيل وفلسطين، وجمهوره مزيجٌ من القلوب الحارّة والأيدي المصفّقة، ولا أحد بين الشباب المتمرّد لا يستظهر فرحاً: «مصر يمّة يا بهيّة» أو «همّ مين وإحنا مين»، أو «أنا الأديب الأدباتي».

كل شيء في هذه الأغنية السياسية. أو المسيسة. كان بسيطاً وواسع الأحلام. فآلة العزف بسيطة. والكلمات لا تحتاج إلى شعراء كبار و«الصالة» مرنة متقشفة. لا تحتاج إلى مختص في التكييف أو الإضاءة.

أنجز الشيخ في فنّه ما يمكن أن يُدعى بالأغنية الأخرى، التي تنقد وتحرّض وتعلّم وتغنّي بشكلٍ جماعيّ، بعيداً عن أغنية المطرب التقليديّ الذي يقف بعيداً وينتظر التصفيق، ويلوذ مبتعداً حين يُنهي «عمله». وأنجز الذين ينتسبون إليه ما يمكن أن يُدعى بالجمهور الآخر، الذي لا يكترث بشكل المغنّي، ولا يحلم بصورة معه، بل يحمله إيقاع الأغنية إلى ما وراء الأغنية، إذ للبشر حقوقٌ متساوية، وإذ فلسطين يحرّرها العقل والإرادة لا ثقافة التطريب والأدعية. وواقع الأمر أنّ في وحدة الأغنية الشعبيّة السياسيّة والجمهور، ما يشعر بأغنية لا مؤلّف لها، بل يؤلّفها الذين يغنّونها بعقلٍ باردٍ وقلبٍ حارّ، ولا ملحّن لها، فلحْنها الحقيقيّ صادرٌ عن اندفاع الجمهور وحماسته ورغبته في تحويل الكلمات إلى وقائع. لا غرابة أن تصبح أغاني «إمام»، في زمنٍ مضى، جزءاً حميماً من «سهرات الشباب»، تخاطب العقل والقلب والجسد، وتخلق تلك الحالة المعنويّة الأقرب إلى الحلم، التي تحرّر الإنسان من حسبانه اليوميّ الموجع، وتوقظ فيه حلماً جماعيّاً أقرب إلى «المدينة الفاضلة».

الأغنية السياسيّة والتجارة التي تغتصب شكل الفنّ

يقال في الفلسفة: «لا يصبح الإنسان إنساناً إلّا بالسياسة»، أي بمعرفة الفرق بين العادل وغيره، ويقال على مقربة من الفلسفة: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان»، في إشارةٍ إلى ما تشتهيه الروح. ربّما كان في الفضاء الذي كانت تشعله «أغاني إمام» قرانٌ سعيد بين وعيٍ سياسيٍّ يَنشد العدل، ونزوع روحيّ - معنويّ إلى كسرِ القيود وتعطيل الأقفاص والطيران إلى «عالمٍ آخر» نظيف، واسع الأرجاء ومتقشّف الأثاث.

ليست المدينة الفاضلة، في التعريف الأخير، إلّا عالم الحرّيّة والكرامة، الذي يتراءى في أغنيةٍ شعبيّة - جماعيّة تغاير كلّيّاً «الطرب الاستهلاكيّ». فإذا كانت الأغنية الشعبيّة تعبيراً عن خبرة متراكمةٍ، تعْرف وتحلم بأكثر ممّا تعرف، وتظلّ مشدودةً إلى القيَم، فإنّ الفنّ الجماهيريّ، يبدأ بالبيع والشراء، ويوطّد الذّوق الذي يساعد على البيع والشراء، وقد تمتدّ سطوته، أحياناً، إلى درجةٍ تعطّل الذوق السليم، وترمي على الفنّ الحقيقيّ بأشكالٍ مختلفةٍ من العزلة والاغتراب. إنّه تجارة، لها شكل الفنّ، تقوم غالباً على الإعلان والصورة والرَّيع، ولا تعبأ بمعايير الفنّ بقدْر ما تحتفي بالإعلان وبصور المعلَن عنه.

ولعلّ الإعلان، الذي يغتصب موقع الفنّ، أو الفنّ المختصر إلى إعلانٍ مبهر الألوان، الذي صعد في العقود الأخيرة صعوداً مدوّياً، هو الذي جعل الشيخ إمام جزءاً من ماضٍ بعيد، ارتبط بهزيمة حزيران ١٩٦٧ المنسيّة والردّ عليها. ولا غرابة أن تأفل صورة هذا المغنّي مع أمور كثيرة آفلة، ليس آخرها الحسّ الشعبيّ السليم والتحزّب السياسيّ، وألّا تظهر، بشكل موسمّي، إلّا في مناسبات وطنيّة، أو في حيّز ضيّق يبحث عن التسييس أو يميل إليه.

فقد كان في أغنية إمام، كما في الثقافة الشعبيّة بعامّة، بُعدُ «كرنفاليّ» شعبيّ يحتفي بالبهجة والحياة، لا يتأتّى عن الأغنية بقدر ما يأتي عن تفاعل الجمهور معها. وكان فيها أيضاً صورةٌ للشعبيّ - الوطنيّ، الذي يحتفي بالبطولة لا بـ «الأبطال»، فإن احتفى بالأبطال فلأنّهم يجسّدون الإرادة الشعبيّة المقاتلة التي تتجاوز الأفراد إلى الحرية. يتراءى ذلك، على سبيل المثال لا أكثر، في أنشودة «أنا رحت القلعة وزرت ياسين»، حيث ياسين فرد من أغفال البشَر، إنسانيّته ممّا يطمح إليه وقيمته من ذاته لا من الألقاب التي أسبغت السلطة عليه، وكذلك أنشودة «الحمام» التي توكل حفظ «السلام» إلى قرويّ بسيطٍ جاء من قرية مصريّة مهجورة. وما يقال عن الشعبيّ - الوطنيّ يقال عن الوطنيّ - القوميّ، الذي لبّاه الشيخ في أغانٍ كثيرة عن فلسطين ليست آخرها مخيّم «تلّ الزعتر»، الذي هو «ياسين» آخر، لم يسجن هذه المرّة، بل أعدم وحُرم من «نعمة القبر» أيضاً.

تتعين أغنية الشيخ إمام بيانا نقديا عن الفروق الاجتماعية. ومنشورا سياسيا تحريضيا يستنهض الشعب. ويقاوم ثقافة التبعية. وتذكيرا بقيم المقاومة. والمقاومين. والتزاما بالكفاح القومي.

متّكئاً على موروثٍ ثقافيٍّ شعبيّ يسبق سيّد درويش ويمرّ ببيرم التونسيّ ولا ينتهي بسيّد حجاب أعطى الشيخ إمام: الأغنية الأخرى، التي تنقد وتعلّم وتقاوم، وأعطاه الذين أقبلوا عليه: الجمهور الآخر. غير أنّ الآخر، أي الجديد، على صعيد الأغنية والجمهور معاً، لم يكن قويّ الأركان، ولم يكن بإمكانه أن يكون قويّاً في إطار ثقافة العادات وأغنية العادات والمعايير التي ترى في الجديد، دائماً، تطاولاً يجب قمعه، خاصّة حين يمسّ التطاول السلطة السياسيّة وما يمثّلها في مجال «الغناء والطرب».

أتت الصعوبة الأولى التي واجهت «الأغنية السياسيّة» سواء ارتبطت بالشيخ إمام أو بغيره، من الصعوبة المستمرّة التي تلازم مصطلح: «الثقافة الشعبيّة». فهذا المصطلح في نصفه الأوّل لا يثير صعوبةً تذكر، فالثقافة هي الثقافة سيّان إن كانت منهجاً في الحياة أو اختُصرت إلى شؤون القراءة والكتابة، كما أنّه في نصفه الثاني لا يطرح مشاكل كثيرة، فالشعبيّ هو البسيط والأدنى والخام وغير الأكاديميّ، ... غير أنّ الصعوبة تأتي من المصطلح في عنصرَيه، ذلك أنّ الثقافة المسيطرة تعتبر الثقافة مرْتبةً اجتماعيّة، مقصورة على النخبة وما يشبه النخبة، وترى تالياً في الثقافة الشعبيّة نتاجاً سوقيّاً لا يجوز أن تُسبغ عليه صفة الثقافة: إنّها ثقافة العوام أو ثقافة الدهماء، أو ما ينقض الثقافة بشكل عامّ. لا يكون الفنّان، والحالة هذه، إلّا فرداً من النخبة، إن لم يكن نخبة النخبة، أي ذلك «العبقريّ» الذي يفسَّر بذاته لا يفسّره غيره.

في هذا التصوّر الذي لا يعترف بالثقافة الشعبيّة لا تكون أغنية إمام إلّا فولكلوراً ساذجاً أو مادّة تمتّع العوام. والمرفوض هو ليس الأغنية بذاتها، فناً كانت أو بعيدة عنه، بل منظورها للعالم، الذي ينقض وينقد ويحرّض ويحضّ على المقاومة. يختصر التصوّر التقليديّ، القائم على التراتب، الثقافة الشعبيّة، إلى حيّز «الفئات السفلى» الفقيرة، ناسياً أنّها محصّلةٌ لخبرةٍ ومعاناةٍ قديمتين، وأنّها ثقافة متعدّدة الطبقات منفتحة على الحياة وتحيل على حاجات الإنسان الماديّة والمعنويّة. إنّها الشعبيّ محدود السلطة الذي لا يحرسه أحد، في مقابل الجماهيريّ واسع السلطة، أو أنّها ثقافة النّاس العفويّة في مقابل ثقافة السلطة.

يكشف النظر إلى عناوين أغنية الشيخ إمام ومواضيعها عن الأسباب التي وضعتْها خارج الغناء التقليديّ: «اصح اصح طال النوم، ألف باء محو الأميّة، يعيش أهل بلدي، نبات الأنفوشي، بوتيكات، الحزب الجديد، قاضي المظالم، يا مصر قومي، شرّفت يا نيكسون، هو شي منه، غيفارا مات، سليمان خاطر، يا فلسطينيّة، فاليري جيسكار ديستان، طلع الصباح،...». قادت هذه العناوين الشيخ إلى السجن عدّة مرّات في زمن عبد الناصر وزمن السادات أيضاً.

تتعيّن أغنية الشيخ إمام بياناً نقديّاً عن الفروق الاجتماعيّة، ومنشوراً سياسيّاً تحريضيّاً يستنهض الشعب، ويقاوم ثقافة التبعيّة، وتذكيراً بقيّم المقاومة، والمقاومين، والتزاماً بالكفاح القوميّ والأمميّ. تجمع هذه الأبعاد بين التربية والنّقد الساخر، إذ السخرية الناقدة في ذاتها موقف من العالم، وهناك المتعة الصادرة عن غناءٍ جماعيّ تتضاءل فيه المسافة بين المغنّي والجمهور... وهي إضافةً إلى هذا كلّه تربية ممتعة تعتمد على الشفهيّ والكلمة العاميّة البسيطة التي تجد لذاتها مرادفاً في أرجاء الحياة.

توزيع المجلة

الاردن	وكالة التوزيع الاردنية، عمان
تونس	الشركة التونسية للتوزيع، تونس
فلسطين	دار الايام للطباعة والتوزيع والنشر
العراق	مكتبة منشورات المتوسط، بغداد
الكويت	الشركة المتحدة للتوزيع، الكويت
المغرب	الشركة الشريفية للتوزيع، الدار البيضاء
اليمن	مكتبة ابو ذر الغفاري، صنعاء
مصر	مؤسسة اخبار اليوم، القاهرة
فرنسا	مكتبة معهد العالم العربي، باريس
إنكلترا	مكتبة السّاقي، لندن
لبنان	شركة الناشرون لتوزيع الصحف والمطبوعات

بيروت:
— مكتبات: مكتبات انطوان (الاشرفية، الحمرا، فردان، الاسواق، سن الفيل، ABC)، ABC Virgin (الاشرفية، الدورة)، مكتبة الشرقية، مكتبة واي إن، مكتبة الفرات، مكتبة بيسان (شارع الحمرا)، مكتبة انترناشيونال (جفينور)، مكتبة البرج (وسط البلد)، دواوين (الجمّيزة)، النديم (الظريف)
— اكشاك: زياد عباني (الكولا)، نعيم صالح (شارع الحمرا)
المناطق: مكتبة قشوع (كفرشيما)، قلم وورقة (عين الرمانة)، نيوبرس (الحدث)، مكتبة ساوا (قبر شمون)، حسام بوكشوب (بعقلين) ، مكتبة البستاني (زحلة)، مكتبة انطوان، مكتبة سمير حصني (طرابلس)، مكتبة طلال، مكتبة النقوزي (صيدا)، مكتبة نعمة (صور)، مكتبة الطليعة (النبطية) فواز غروب لتوزيع الصحف، مكتبة بيضون (بنت جبيل)، مكتبة جبل عامل (عيثرون)

الاشتراكات

لبنان	افراد ٥٠$	مؤسسات ١٠٠$
البلدان العربية	افراد ٦٠$	مؤسسات ١٢٠$
الإتحاد الاوروبي	افراد ٧٥$	مؤسسات ١٥٠$
باقي البلدان	افراد ١٠٠$	مؤسسات ٢٠٠$

Bidayat SARL
Banque Libano-Française
Agence Gefinor - Beirut - Lebanon
IBAN: LB860010000000017101842001840
SWIFT: BLFSLBBX
Account: 017101842001840

صندوق بريد ١٣/٥٧٤٨
شوران - بيروت - لبنان

info@bidayatmag.com
www.bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

الحقوق

- ملصقات طبع حرير، ١٩٦٨، ص ٦
- تفصيل من جدارية لدييغو ريفييرا عن ماركس وشهداء هايماركت، ص ١٧
- اقتحام الباستيل، ١٤ تموز / يوليو ١٧٨٩، ص ٢٩
- شارع سان مور في باريس في ٢٥ حزيران / يونيو ١٨٤٨ في ما عرف بانتفاضة ايام حزيران، ص ٣٣
- متاريس في براغ خلال الأحداث الثورية في العام ١٨٤٨، ص ٣٧
- بيتر واتكينز، الكومونة (باريس، ١٨٧١)، ص ٤١
- جاريد بواريه، من موقع Radical Splurge، ص ٤٧
- صحون ملونة، زي عسكري، الهند اثناء الاستعمار البريطاني، ص ٥١ - ٥٢
- من لوحة زيتية لجان باتيست ويسمان تمثل القائد الجزائري الأمير عبد القادر بعنوان «صداقتي واحترامي لكل من يحدثكم عني» تعود للعام ١٨٦١، ويكيبيديا كومونز، ص ٥٧
- لوحة لجان أدولف بوسي بعنوان «القوات الفرنسية تصل إلى بيروت»، رسمت على الأرجح قبل العام ١٨٧٥، ص ٦٠ - ٦١
- عاملة في معمل وولريتش للأسلحة في العام ١٩١٧، ديفيد هولت، فليكر، ص ٦٧
- أطفال عمال في معمل نسيج في تشيريفيل في كارولينا الشمالية. الصورة للويس ويكرز هاين، ص ٧١
- مصنع فورد للسيارات في ميشيغان في العام ١٩١٣، ص ٧٤ - ٧٥
- تظاهرة فلسطين جزء من سورية القدس ١٩١٨، ص ٩٩
- لاجئون أمام مركز لمفوضية اللاجئين في مدينة طرابلس في لبنان، محمد عزاقير، البنك الدولي، ص ١١١
- لاجئي سوري في لبنان عن، Flickr | plus8gmt، ص ١١٧
- آلاء التنير، ص ١٢٤ - ١٢٧
- اتيل عدنان في الستوديو الخاص بها في باريس، صمويل كيرشنباوم، ص ١٣٦ - ١٣٧
- المنارة، ١٩٣٤، ص ١٤٠ - ١٤١
- لبنان في الثلاثينات من القرن الماضي، ص ١٤٥
- حكواتي يتلو قصصاً، TIMEA، ١٩١١، ص ١٦٤ - ١٦٥
- من كليلة ودمنة، ص ١٦٩
- الصور لجو شناب في كتاب «المخيلة في السلطة» للفينو والتر الصادر عام ١٩٦٨، ص ١٩٠ - ١٩١
- الصورة لجبل كارون، من مؤسسة جبل كارون، ص ٢١١
- الأرشيف الوطني، ص ٢١٢
- لقطة من مسلسل «غداً نلتقي»، ص ٢١٨ - ٢١٨
- فرج الله الحلو عام ١٩٣٢، ص ٢٢٧
- لوحة زيتية بعنوان «بريسترويكا» لاريك بولاتوف، ص ٢٤٥
- مقاتلون من الحزب الاشتراكي، ص ٢٣٨ - ٢٣٩
- عبد الناصر في سد اسوان، ص ٢٥٠ - ٢٥١
- القادمون من القاهرة لحضور جنازة عبد الناصر، ص ٢٦٧

إن الخط المستخدم في الشبابيك من تصميم جويل حداد، Jeem.

حاولنا جهدنا العثور على اصحاب حقوق النشر والتصوير المنشورة. الرجاء ممن أغفل إسمه الاتصال بنا.